يسوع في حياته

أديب مصلح

يسوع في حياته

الجزء الثاني

منشورات المكتبة البولسية

طبعة أولى

٢٠٠٦

❊

جميع الحقوق محفوظة

❊

مَنشُورَاتُ المَكْتَبَة البُولسِيَّة

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحْلة – شارع سيّدة النجاة – مقابل مطرانيّة الروم الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

القسم الخامس
الآلام والصلب والقيامة

دُخولُ يسوعَ المُنْتَصِرِ إلى أورشليم(*)

هنا يبدأ الأُسبوع الأخير من حياة يسوع على الأرض، الذي كان الإنجيل كلّه تمهيدًا له. فقد خصّص له الإنجيليّ يوحنّا، على سبيل المثال، عشرة فصولٍ من أصل الفصول الواحد والعشرين التي يتألّف منها إنجيله.

واستُهلّ ذلك الأسبوع بدخول يسوع المنتصر إلى أورشليم، في يوم الأحد. وكان نبأ وصوله إلى بيت عنيا قد ذاع في العاصمة القريبة، فتقاطرت جموعٌ كثيفةٌ لرؤية صانع المعجزات القدير، ولعازر الذي أعاد إليه الحياة، وانتشله من القبر بعد مكوثه فيه أربعة أيّامٍ. تلك المعجزة كانت أفصح من كلّ خطابٍ، وأبلغها إقناعًا بأنّ يسوع هو المسيح المنتظر.

كثيرون ممّن جاؤوا يحدوهم الفضول، عادوا مؤمنين، وبقدر ما كان إيمان الجموع بيسوع يترسّخ، واندفاعهم نحوه يتعاظم، كان حنق زعماء اليهود يتفاقم، ويتوطّد عزمهم على إهلاك يسوع، وإهلاك لعازر معه، ومحو كلّ أثرٍ لكليهما.

كم كان زعماء اليهود جاهدين في إزالة كلّ آثار معجزةٍ أحدثت في اليهوديّة زلزلةً مجلجلةً!

وكان العديد من الحجّاج القادمين من ربوع الجليل، قد تلبّثوا في بيت عنيا، كي ينضمّوا إلى موكب نبيّهم، ويشهدوا، بفخرٍ، أمجاد مواطنهم الذي أصبح محطّ أنظار البلاد كلّها.

خرج يسوع من بيت لعازر بأكثر ما استطاع من تكتّمٍ، لكيلا يعرِّض أصدقاءه ومضيفيه لنقمة زعماء اليهود. وما إن تنامى إلى علم الجماهير أنّه متّجهٌ صوب أورشليم، حتّى التفّوا من حوله، مؤلّفين موكبًا لَجِبًا، فرحًا، مندفعًا، وعاقدين العزم على الزحف به على أورشليم، زحف قائدٍ مظفّرٍ.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «ملك القلوب: أحد الشعانين»، صفحة ٤٠٨.

لطالما نأى يسوع بنفسه عن إثارة حماس الجماهير، وآثر التزام جانب التخفّي والكتمان، ولا سيّما في أعقاب إجرائه معجزاتٍ مدهشةً، ريثما يدرك الشعب أنّه ليس مسيحًا أرضيًّا عنصريًّا، وريثما تحين ساعته. وها إنّ ساعته قد أزفت، وحان له أن يعلن عن هويّته التي طالما جهد في كتمانها، قبل مغادرته هذا العالم.

«ولمّا قرُبوا من أورشليم، على مقرُبةٍ من بيت فاجي وبيت عنيا عند جبل الزيتون، أرسل اثنين من تلاميذه وقال لهما: «دونكُما القرية التي أمامكما. وحالما تدخلانها تجدان جحشًا مربوطًا لم يعلُه إنسانٌ قطّ. فحُلاّه وأتيا به. فإن قال لكما أحدٌ: لماذا تفعلان هذا؟ فقولا: إنّ الربّ محتاجٌ إليه ثمّ يردُّه إلى هنا في غير بُطءٍ».

«فذهبا. فوجدا جحشًا مربوطًا خارجًا، عند بابٍ، في منعطف الطريق. فحلاّه. فقال لهما بعضُ الذين هناك: «ما بالكُما تحُلاّن الجحش؟» فقالا لهما كما قال يسوع. فتركوهما. فأتيا بالجحش إلى يسوع وطرحا عليه رداءَيهما. فرَكب عليه. وبسط كثيرون أرْديتهم في الطريق. وفرش آخرون أغصانًا قطعوها من الحُقول. وكان الذين يتقدّمونه والذين يتبعونه يهتفون:

«هوشَعنا! مباركٌ الآتي باسم الرب!

مباركةٌ المملكةُ الآتية، مملكةُ داود أبينا!

هُوشعنا في العُلى!» (مرقس ١١: ١–١٠)

لقد رأى بعض المفسّرين أنّ الأتان والجحش هما اليهوديّة والوثنيّة، اليهوديّة الراسفة في أغلال شريعةٍ شوّهها البشر، والوثنيّة التي لم تروّض بعد. اليهوديّة المقيّدة ببرّها الكاذب، والوثنيّة المغلولة بحكمتها الزائفة. اليهوديّة قيّدها الرياء، والوثنيّة قيّدها الدجل. ويسوع يأمر بحلّ قيودهما.

ما أدقّ ملاحظة مرقس أنّ الجحش كان مربوطًا خارجًا، عند بابٍ، في منعطف الطريق! لعلّه استقاها من بطرس الذي فكّ الجحش بنفسه، وقد ترسّخ الحدث في ذاكرته، ودأب على روايته بحذافيره.

وما إن عاد التلميذان بالجحش حتّى اجتاحت الجمعَ موجةُ اندفاعٍ عارمٍ. ومعلومٌ أنّ الجحش الذي لم يعلهُ أحدٌ، بعدُ، لا تُلقى، عادةً، على متنه أيّة بردعةٍ. ولذلك

بادر التلاميذ وبعض الحجّاج إلى طرح معاطفهم على ظهر الجحش الذي جيء به إلى يسوع لكي يكون ركوبه مريحًا.

جحشٌ ... أيّة مطيّةٍ لأعظم فاتحٍ في التاريخ! ولكنّها هي التي تليق بأمير السلام، بملك الأرواح، وبمخلّص النفوس. إنّ الجحش الذي لم يُركَب من قبل هو الأكثر جدارةً بأن يمتطيه قدّوس الله. على هذه المطيّة المتواضعة دخل الهيكل كي يعلن عهدًا جديدًا، عهد السلام والمحبّة. أوَ ليس هكذا هتف النبيّ أشعيا:

«قولوا لابنة صهيون:

هوذا مليكك يأتي إليك متواضعًا، راكبًا على جحشٍ ابن أتان»؟ (أشعيا ٦٢: ١١)

مثالٌ فريدٌ لاقتران أسمى السلطات بالوضاعة المطلقة، والقدرة الإلهيّة الكلّيّة بالحاجة إلى الناس والبهائم، واقتران الغنى بالفقر. وإنّما كلّ ذلك نتيجة تجسّد الكلمة: فالغنيّ افتقر كي نغتني. استعار مركب صيّاد سمكٍ كي يبشّر العالم، واستعار بضعة أرغفةٍ، والزهيد من السمك، كي يشبع الجماهير، وسيستعير قبرًا يُدفن فيه. وها إنّه الآن يستعير جحشًا لدخول أورشليم.

وبلغ الاندفاع ببعض المواكبين أن ألقوا معاطفهم أرضًا كي تدوسها مطيّة الربّ، وآخرون راحوا يقطعون من أشجار الحقول المحيقة أغصانًا يفرشون بها الطريق الذي سيجتازه يسوع، أو يلوّحون بها، أو يجعلون منها مظلّةً يسير تحتها، مثلما يسير القائد المنتصر تحت مظلّةٍ من سيوفٍ. وهم يهتفون: «هوشعنا ...».

لفظة «**هوشعنا**» تعني: «هيّا خلّصنا»، وقد شاع استخدامها بمثابة تحيّةٍ. أمّا تسمية «ابن داود» فهي الأكثر إشارةً وتحديدًا للمسيح.

على نقيض القادة والزعماء، لم ينظّم يسوع موكبه، بل أراده عفويًّا، متواضعًا. ولو هو دخل أورشليم في أُبّهةٍ ملكيّةٍ دخولَ الفاتحين لبرّر الاعتقاد بأنّه ملكٌ سياسيٌّ. أمّا دخوله على متن جحشٍ وسط تهليل نفرٍ من القرويّين، فكان تأكيدًا بأنّ مملكته ليست من هذا العالم، وليست كفيلةً بإثارة قلق قيصر وعملائه. وكانت صيحات الشعب، وكان فرشهم لمعاطفهم، ولأغصان الزيتون وسعف النخيل تحت قدميه، اعترافًا بأنّه المسيح وابن الله.

كتب بوسُّويه: إنّ دخول يسوع إلى أورشليم كان «الدخول الأبهى، والأشدّ تألّقًا،

حيث نرى إنسانًا كان يبدو آخر البشر تقديرًا وسلطانًا، يتلقّى، فجأةً، من الشعب كلّه، في المدينة الملكيّة، وفي الهيكل، أعظم من كلّ ما تلقّاه أعظم الملوك». ومع ذلك ظلّ انتصار المخلّص متواضعًا، مثلما كانت حياته كلّها. فهو، مع إتاحته للشعب بإطلاق العنان لإيمانهم وحبّهم، ورغم تعاطفه مع اندفاعهم، كان حريصًا على أن يبدو مسيحًا مملكته ليست من هذا العالم.

* *

وكان الأورشليميّون قد أَلِفوا ملاقاة الحجّاج القادمين، حاملين البواكير، بالأهازيج، والانضمام إلى موكبهم، ودخول المدينة المقدّسة معهم، في تطوافٍ بهيجٍ، صاخبٍ، وسط عزف آلات الطرب، وغناء الأناشيد.

ولمّا التقى موكب القادمين من أورشليم بموكب الآتين من بيت عنيا في منتصف الطريق، بلغ الحماس ذروته، وانطلقت آلاف الحناجر تهتف: «**مباركٌ الآتي، الملك، باسم الربّ. السلام في السماء، والمجد في الأعالي**» (لوقا ١٩: ٣٨).

الحجّاج الذين كانوا لا يعرفونه كانوا يستوضحون عن هويّته، والمعرّفون به كانوا يزيدون تعريفًا به بقولهم إنّه من أخرج لعازر من القبر في اليوم الرابع لوفاته.

ومع تقدّم الموكب، كان الجَيَشان الشعبيّ يتصاعد، ويتصاعد معه سخط الفرّيسيّين الذين لام بعضهم بعضًا قائلين: «**أترون؟ إنّكم لن تستفيدوا شيئًا. فهوذا العالم في إثره**» (يوحنّا ١٢: ١٩). لطالما أَلِفوا رؤية الشعب يعنو لنفوذهم، ويستسلم لاستعبادهم، فشقّ عليهم أن يسلبه آخر منهم. توجّسوا على نفوذهم خشيةً، ورأوا في قتل الناصريّ واجبًا مقدّسًا.

وكان يسوع جذلاً، يلوّح بيديه للمرحّبين به، مع أنّه ليس برئيس كهنةٍ، ولا بوجيهٍ جليلٍ. فهو لم يكن يرتدي ثوبًا مميّزًا، واسع الأكمام والأهداب، ولا يضع في إصبعه خاتمًا ثمينًا، بل ما زالت عليه ثياب النجّار التي جاء بها من الناصرة، وما انفكّ، في تعامله مع الناس، وكأنّه نجّار قريةٍ وضيعٌ.

لقد تفجّر الوجدان الشعبيّ فجأةً، فأدّى واجب التكريم لمن جاء كي يخلّص العالم. فلئن كان لهذا الوجدان ساعات ضلالٍ وجنونٍ، إلاّ أنّ له، أيضًا، اندفاعات صدقٍ، مضطرمةً، وومضات حقٍّ.

كانت الجموع تمجّد الله لما عاينت من معجزات، وتعبّر عن فرحها الغامر بحلول اليوم الذي طالما انتظره الشعب اليهوديّ، يوم مجيء المسيح المنقذ، رغم المظهر الوضيع الذي جاء فيه على متن جحشٍ مستعارٍ. لقد رأت في يسوع ذاك المخلّص الذي تنبّأ به زكريّا، والذي وعدت به الكُتب، الآتي بالعهد الجديد. ورحّبت بملك السلام القادم إلى مدينته.

معجزات يسوع كانت هي أوراق اعتماده، وبفضلها اعترفت الجماهير أنّه مرسل الله، المسيح، والملك. وقَبِل يسوع هذا الاعتراف على أنّه حقٌّ لـه. ولكنّه لو كان يلتمس نصرًا سياسيًّا لكان طرق الحديد وهو حارٌّ، ودفع الجماهير المتأجّجة نحو المغامرة، نحو معركةٍ حاسمةٍ كانت قدراته الخارقة كفيلةً بانتزاع النصر لـه فيها. وكان يعلم أنّه إن لم يفعل ذلك، فسيوفّر لأعدائه ذرائع للقضاء عليه. كان لـه الخيار بين العرش والصليب، ولكنّ العرش الوحيد الذي كان يصبو إليه هو الصليب، فبتسنّمه سيجتذب إليه الجميع.

كان يسوع من القوّة والثقة، بحيث لم يخشَ أن يوصم بالجبن، ولكنّ موقفه أنعش آمال أعدائه، إذ إنّه، بالتخلّي، طوعًا، عن قدراته، قد ضاعف قواهم، وبتصعيده خلافه معهم زادهم عزمًا على البطش به، ولكأنّه كان يضرم بيده النار التي ستحرقه.

وللمرّة الأولى لم يرفض يسوع الهتافات المنادية به مسيحًا، بل تقبّلها راضيًا. فكلّ ما كان يحدث كان يندرج في سياق ما توقّعه النبيّ زكريّا (٩: ٩- ١٠):

«ابتهجي جدًّا، يا بنت صهيون،
واهتفي يا بنت أورشليم،
هوذا مليكك آتيًا إليك،
بارًّا، مخلّصًا وضيعًا،
راكبًا على حمارٍ، وعلى جحشٍ ابن أتانٍ...
وتُستأصل قوس القتال،
ويكلّم الأمم بالسلام،
ويكون سلطانه من البحر إلى البحر،
ومن النهر إلى أقاصي الأرض».

عجز الفرّيسيّون عن تطويق ذلك التفجّر الشعبيّ، ولكن راق لهم أن يجعلوا يسوع مسؤولاً عن هذه الفوضى، وتناسوا أنّ معجزات يسوع الساطعة، وقدراته الإلهيّة هي التي اجتذبت الجموع في إثره. فأوعزوا إليه: «**انتهرْ تلاميذك، يا معلّم**». فأجاب وقال لهم: «**أقول لكم إنّه إن سكت هؤلاء، صرخت الحجارة**». فالحجارة أقلّ قسوةً من نفوس من يأبون الإيمان، وهي تعرف خالقها خيرًا من البشر الذين يتمرّدون عليه.

سحابة أكثر من سنتين، ما انفكّ يسوع يقدّم براهين دامغةً على رسالته الإلهيّة، وكان من شأن الحجارة، لو نطقت، أن تشهد لها. ولكنّ البشر الذين يتعمّدون، بعنادٍ، عدم رؤية الواقع، قد يصبحون أقلّ إحساسًا، وأشدّ جمودًا من جلمود صخرٍ. لقد كان ردّ يسوع على الفرّيسيّين تأنيبًا كاويًا، ولكنّهم ظلّوا مقيمين على رفض الفهم.

غير أنّ يسوع، مع كلّ ما أُحيط به من حفاوةٍ وتكريمٍ، لم تُساوره أيّة نشوة انتصار. ولئن كان الرومانيّون يقتلون، أمام عيونهم، أعداءهم من الملوك المهزومين، إلاّ أنّ يسوع، لمّا تجاوز موكبه قمّة جبل الزيتون، وانحدر نحو وادي قدرون، وانبسطت أمام ناظريه أورشليم، وهيكلها القشيب، المتألّق، المتوهّج بالذهب، حيث كان يترقّبه الحقد والغدر، استحوذ عليه الحزن، وانتحب على تلك المدينة التي ستجني، قريبًا، ثمار عجرفتها وجحودها، فهي كانت تستعدّ، في الظلام، لقتل من وافاها مخلّصًا. فبكى، وخاطبها «**قائلاً: ليتك، أنت أيضًا، عرفت، في هذا اليوم، كيف تجدين السلام. ولكنّه قد حُجب عن ناظريْك! إنّه ستأتي عليك أيّامٌ يُطوّقُك فيها أعداؤك بالمتاريس، ويُحاصرونك، ويُضيّقون عليك من كلّ صوْبٍ، ويَمْحَقُونَك أنت وبنيك الذين فيك، ولا يتركون فيك حَجرًا على حجرٍ، لأنّك لم تعرفي زمن افتقادك**».

نادرًا ما شوهد يسوع يبكي. وقد كان لدموعه وسط انتصاره السلميّ، وقعٌ جارحٌ. لقد ذهل عن التمجيد الذي هيّأه له الآب، في ذلك اليوم المشهود، قبل أن يعاني سكرات الآلام والمهانة، واتّجه، بكلّ فكره إلى شعبه، ومدينته الجاحدة المجرمة، والمصير المريع الذي أعدّته لنفسها.

في غمرة الهرج السائد لم يُدرك الشعب سبب تجهّم يسوع، واستهجن التلاميذ

تلك الدموع، وسط ما كان يلفّ المعلّم من تمجيدٍ وتكريمٍ. ولكنّهم سرعان ما أدركوا أنّها ليست دموعًا على الحاضر، بل على المستقبل، وعلى المدينة التي ستقتله وتصلبه. فيسوع نفسه، وسط صخب التكريم وحرارته، لم يستطع سوى استعراض تاريخ المدينة المقدّسة، والعقاب الرهيب الذي سيحلّ بها جزاء ما اقترفته من عقوقٍ، وإنكار جمائل الله، واغتيال أنبيائه ومرسليه، فأجهش في البكاء.

موت صديقه لعازر انتزع منه دمعةً، وعلى أورشليم انصبّت دموعه مدرارًا.

أورشليم هي رأس الأمّة وقلبها، ومركز السلطة التي تجسّد إسرائيل، فعلامَ تتعامى تلك السلطة، وتتوغّل في غيّها؟ ولمَ لا يدرك رؤساء الكهنة والشيوخ، ومعلّمو الشريعة، وحرّاس التقاليد، ما أدركه البسطاء، الفقراء، المتواضعون، المزدرون، بحدْسهم الثاقب؟ ولمَ تدأب ضمائرهم على التجديف، في حين يهتف ضمير الشعب، لمختار الله؟ هذه التساؤلات كانت ترهق قلب الربّ.

لم يجزع يسوع لمصيره الذي كان قد ارتضاه طائعًا، ولكنّه تألّم لمصير شعبه المريع، الذي أوصله إليه عمى زعمائه وغطرستهم.

إثر دخوله المظفّر إلى أورشليم، كان بوسع يسوع استغلال حماس الجماهير العارم، والظفر بأوسع نفوذٍ شعبيٍّ، ولا سيّما بعد كلّ ما أجرى من خوارق باهرةٍ، أهمّها بعث لعازر من موتٍ استمرّ أربعة أيّامٍ. بيد أنّ غرضه كان بعيدًا عن تصوّر الجماهير الذي شايعهم فيه تلاميذ يسوع وراحوا يخطّطون لاقتسام المناصب في المملكة العتيدة.

العجائب التي أجراها يسوع رأى فيها الجميع علامات قوّةٍ فريدةٍ، تؤهّل للملك والزعامة، فيما هو كان يرى فيها تأكيدًا للملكوت القائم على الحبّ، «**وليس من حبٍّ أعظم من أن يبذل الإنسان حياته من أجل من يحبّ**».

ذروة الحبّ هي الفداء ببذل الذات. ولا ريب أنّ يسوع كان يبتغي الزعامة والملك، ولكن على القلوب والإرادات البشريّة. وكان يعرف أنّ الحرّيّة الخاضعة للحبّ، ستكون تحريرًا أبديًّا لحرّيّتنا، وبعثًا لها.

إذن، عوضًا عن التماس النفوذ، أخذ يسوع يسعّر النار التي ستحرقه، فغدت حملاته على الكتبة والفرّيسيّين أشدّ حدّة، وتحدّيًا، وإنذارًا بنهاية احتكار اليهود لوعدٍ إلهيٍّ أساؤوا فهمه، ولم يستأهلوه، فقد وُهبوا نِعَمًا لم يكونوا لها أهلاً، وحقّ بهم

العقاب. واسترسل يسوع في ضرب الأمثلة التي تؤكّد سوء أمانة اليهود حيال ما أوكل إليهم، فأُقصوا عن الملكوت الذي أُشرعت أبوابه أمام الوثنيّين والغرباء. كلّ ذلك أثار حنق الذين سارعوا إلى التضحية بنبيّ الناصرة على هيكل تعصّبهم.

حديث يسوع عن موته المهين الوشيك، وهو في قمّة انتصاره، خيّب ظنون تلاميذه الذين توسّموا في سلوكه خطلاً. غير أنّ بقيّة حبّهم له دفعتهم إلى مواصلة السير معه بضع خطواتٍ أُخرى. وكان لابدّ من صباح القيامة كي يثبت لهم أنّ الخطل كان في تصوّرهم، وأنّ حبّهم قد كوفئ.

كانت أورشليم تعجّ بالحجّاج القادمين من كلّ صوبٍ، وقد اهتزّت لدخول يسوع إليها في موكبٍ صاخبٍ منتصرٍ. غير أنّ مشاعر متباينةً كانت تتجاذب القلوب: حبٌّ، وبغضٌ؛ رجاءٌ وخوفٌ؛ إيمانٌ وشكٌّ. وحيث رأت الجموع بدايةً لملكوتٍ مزدهرٍ متألّقٍ، كان يرى يسوع نهاية التظاهر، واستمرارًا لتأسيس الملكوت الروحيّ في الخفاء والصمت، في الآلام والصلب، والموت الفادي. فمن وراء الأغصان الخضراء، ونضرة الربيع، وهتافات الفرح والتمجيد، كان ثمّة من يُعدّون شجرة اللعنة، ومسامير العذاب. وكانت تغزو نفس يسوع، بين فينةٍ وفينةٍ، هواجسُ هاصرةٌ، وتفوح من الأغصان والأزاهير، رائحة الرماد والموت. كان يسوع يعلم أنّ هذا النصر سيُفضي به إلى الموت، فتذوّقه ولم ينتشِ به. تذوّقه ممزوجًا بمرارةٍ.

ما الذي يفسّر تحوّل الترحيب الحارّ، وحماس الهوشعنا إلى صيحات «**اصلبه**»، بعد خمسة أيّامٍ فقط؟ إنّ الذين هتفوا له، يوم الشعانين، كانوا من تلاميذه، وأصدقائه ومواطنيه الجليليّين، ونفرًا من الحجّاج الذين لا حول لهم ولا طول، والذين أذهلهم استسلامه لبطش زعماء اليهود، فالتزموا الصمت. وهتف آخرون للمسيح اليهوديّ السياسيّ الذي رجوا أن يحرّرهم من الاحتلال، ويفيض عليهم الازدهار، ويوفّر لهم الرخاء، والعزّة، والسيطرة على العالم، فإذا به ملكٌ وديعٌ، ملكوته ليس أرضيًّا، ولا هو من هذا العالم، بل هو ملكوتٌ في القلوب التي تلتزم بمقتضياته: أي السعي إلى الكمال الروحيّ، والتضحية في الخدمة، ونكران الذات، وبالإجمال ملكوت حبٍّ وحقٍّ، ملكوتٌ يخيف.

ولمّا خاب فيه رجاؤهم وتبيّنوا أنّ موقفه يناقض، كلّ المناقضة، صورة المسيح الوطنيّ الراسخة، بعنودٍ، في أذهانهم، انقلبوا عليه، وانضمّوا إلى جوقة الفرّيسيّين

والصدّوقيّين وزعماء اليهود، وانقادوا لإيعازات دهاقنة السنهدرين، وهتفوا مطالبين بصلبه.

على أيّة حالٍ لم يخطر ببال أحدٍ أنّ الذي دخل أورشليم، يوم الأحد، في موكب المجد، سيخرج منها، يوم الجمعة، حاملاً صليبًا سيموت عليه، وسط آلامٍ مبرّحةٍ، شرّ ميتةٍ، وأبلغها مهانةً. يومها سيُستبدل سعف النخيل بشوكٍ يكلّل جبينه، والعرش الذي كان يُقاد إليه لن يكون إلاّ صليبًا، وما تتويجه الحقيقيّ سوى تثبيته على هذا الصليب، وعوضًا عن المعاطف التي أُلقيت بوفرةٍ واندفاعٍ تحت قدميه، ستنزع عنه ثيابه.

كان عليمًا بمكنونات القلوب، ولم يغرّه، يومًا، صياح تكريمٍ أو فصاحة أقوالٍ. ومع إعلان الشعب له سيّدًا، وملكًا، وربًّا، كان يدرك أنّ الترحيب الملكيّ به سيكون على الجلجلة. ومع ذلك كان حزينًا على خائنيه، وقاتلي مخلّصهم، لأنّه كان يرى، مسبَّقًا، ما سيحلّ بهم. وكان حزنه يتفاقم، لأنّ الذين جاءهم بالخلاص ردّوه، ورفضوا خلاصه، وبذلك دمّروا أنفسهم. تلك كانت رسالة دموعه.

الزعيم السياسيّ يواكَب إلى الساحة العامّة كي يكرّم، والأمير يواكب إلى قصره، أمّا يسوع فواكبته الجموع إلى الهيكل، بيت أبيه. وكان ذلك اليوم يوافق، في الطقوس اليهوديّة، يوم انتقاء الحمل الفصحيّ، وفيه كانت تُدخل إلى المدينة المقدّسة الخراف التي ستُذبح للفصح، مزيّنةً بالشرائط والورود. وقد وافى يسوع كي يقدّم ذاته ضحيّةً طائعةً معدّةً منذ الأزل، وكي ينهي عهد المحرقات المادّيّة، ويستهلّ، بذاته، عهد المحرقة الروحيّة، الإلهيّة، محقّقًا قول المعمدان: «**هوذا حمل الله الذي يحمل خطايا العالم**».

ويلاحظ الإنجيليّ مرقس أنّ يسوع «**أجال نظره في كلّ شيءٍ**». لقد لاحظ الاستعدادات الصاخبة للعيد، وشاهد قطعان الأبقار والثيران، والخراف، والحملان، وقد احتلّت فناء الوثنيّين، فحوّلته إلى حظيرةٍ ومسلخٍ. وتبيّن، بحزنٍ، الروح التجاريّ المهيمن، منتهكًا حرمة بيت الصلاة. ورأى الأروقة وقد تحوّلت إلى ممرّاتٍ للقوافل والبضائع؛ وسمع فتاوى الفرّيسيّين الذين حوّلوا التقوى إلى ممارساتٍ خارجيّةٍ عقيمةٍ. ولمس جشع الكهنة الذين كانوا يتاجرون بالهيكل، والتقادم، ويستمدّون غناهم من تقوى الشعب. وصدمه الانحطاط الذي امتدّ إلى كلّ شيءٍ. عشيّة تضحيته بذاته،

وتحقيقه الفعل الحاسم الكفيل بتجديد البشريّة كلّها، حرص على تفقّد كلّ شيءٍ عن كَثَبٍ، وسبر غور البؤس الروحيّ الذي تردّى إليه شعبه، في الهيكل الذي كان مفروضًا أن يكون قلعة القداسة، فبات مغارةً للشعوذة، والابتزاز، والرياء.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

دخل يسوع الهيكل، بموكبه، وعند الظهيرة أخذ الحماس يخبو، وانصرف الجميع لابتياع طعامٍ. وعند الأصيل عاد بعضهم وأحاطوا بمن كان بطل ذلك اليوم، علّه يُفصح لهم عن مخطّطات حكمه وملكوته. وكان ثمّة نفرٌ من اليونانيّين المتعاطفين مع ديانة الإله الواحد، وقد التمسوا من أندراوس وفيليبس، اللّذين يتكلّمان اليونانيّة، أن يدبّرا لهم مقابلةً مع يسوع. ورأى يسوع، في هؤلاء، طليعة الأمم التي ستتقبّل، بشغفٍ، رسالته، على امتداد العالم، وربّما عرضوا عليه اصطحابه إلى بلادهم حيث سيكون في مأمنٍ من غدْر اليهود. وجريًا على عادته حلّق يسوع من حدَثٍ طارئٍ إلى آفاق الروح السامية، فألقى على مسامع اليونانيّين واليهود الحاضرين خطابًا أوجز فيه جوهر رسالته، فقال: «**لقد أتت الساعةُ التي يُمجّد فيها ابنُ البشر. الحقّ الحقّ أقولُ لكم إنّ حبّة الحنطة التي تقعُ في الأرض تبقى وحدها إذا لم تمُتْ. أمّا إذا ماتت فإنّها تأتي بثمرٍ كثير. فمن أحبّ حياته أضاعها. ومن أبغض حياته في هذا العالم حفظها للحياة الأبديّة. من أراد أن يخدُمني فليتبعني. وحيثُ أكونُ أنا هناك أيضًا يكونُ خادمي. والذي يخدُمني يُكرِمُه أبي.**

«**الآن نفسي قد اضطربت. فماذا أقول؟ ... نجّني يا أبتِ، من هذه الساعة! ... ولكن من أجل هذه الساعة بالذات قد جئتُ ... فيا أبتِ، مجّد اسمك**». **فجاء صوتٌ من السماء يقول:** «**قد مجّدتُه. وسأمجّده أيضًا**». **فقال الجمعُ الذين كانوا هناك وسمعوا الصوت:** «**إنّه الرَّعد!**» **وقال آخرون:** «**إنّه ملاكٌ كلّمَه**». **فأجاب يسوع وقال:** «**ليس لأجلي كان هذا الصوت بل لأجلكم. فالآن دينونةُ هذا العالم. والآن رئيس هذا العالم يُطرح خارجًا**».

«**وأنا، متى رُفعتُ عن الأرض اجتذبتُ إليّ الجميع**». **قال هذا ليدُلّ على أيّ ميتةٍ سيموتها.**

فقال الجميع: «**لقد عَلِمنا من الشريعةِ أنّ المسيح يستمرّ إلى الأبد، فكيف**

تقول أنت إنّه ينبغي لابن البشر أن يُرفع؟ فمن هو ابنُ البشر هذا؟» (يوحنّا ١٢: ٢٣- ٣٤).

مجوس الشرق كانوا قد جاؤوا ليروا مهد يسوع، واليونانيّون، مجوس الغرب، جاؤوا ليشهدوا صلبه، ولحده، وقيامته. الصليب والقيامة، عنده، متلازمان، وسيؤتيان ثمارًا وفيرةً في المسكونة كلّها. ولئن كان الذهن اليونانيّ بعيدًا عن التجرّد والتواضع، وكلِفًا بالجمال، والقوّة، والحكمة، غير أنّ يسوع كان واثقًا من وقع موته وقيامته. وقد لقّن ضيوفه حكمةً خالدةً.

يقول القدّيس أوغسطينُس: «لقد كان هو الحبّة التي ينبغي أن تموت كي تتكاثر، كان عليه أن يُقتل بجريرة إنكار اليهود له، لكي يتكاثر بفضل إيمان الأُمم به».

صليب يسوع سيكون أعظم مفارقةٍ في التاريخ، فبارتفاعه عليه، سيجتذب إليه جميع الأمم، ولن يغزو العالم بالسيف والحديد، بل بالخشب كما قال القدّيس أوغسطينُس، وكما أنشد الشاعر أحمد شوقي.

وقد علّم يسوع مستمعيه أنّ ما من خيرٍ يتحقّق ما لم يكلِّف فاعله ألمًا، وأنّ الصليب يلقّن السيطرة على الذات، والتضحية بالكبرياء، وبالفسق، والبخل، والجشع. به، فقط، تلين القلوب القاسية، ويصبح العنيفون مسالمين. وقد لقّن أولئك الكَلِفين بالجمال أنّ الصليب المغروس في حياتهم هو الذي يولّد جمال النفس في حياةٍ متجدّدةٍ.

الصليب هو الذي يعلن قيمة العالم الأخلاقيّة، فهو، من جهةٍ، يفضح عمق الشرّ الذي اقتضى صلب ابن الله؛ ومن جهةٍ أُخرى، يبيّن، بجلاءٍ، رحمة الله، بالصفح عن جميع الذين «يحملون، كلّ يومٍ، صليبهم، ويتبعون يسوع». ليس يسوع هو الذي سيُدان، بل العالم، وليس هو من سيُرذل، بل إبليس، وكلّ تعاليم يسوع، ومعجزاته، وتحقيق النبوءات بشأنه، كلّ ذلك سيكون تنفيذًا لرسالته على الأرض. ورسالته أن يكون الحبّة التي تقاسي شتاء الجلجلة، كي تصبح، في الخريف، خبز الحياة.

فيما كان يسوع يتكلّم، رأى، في مثل ومضة برقٍ، كلّ ما سيحلّ به قريبًا: خيانة يهوذا، وإنكار بطرس، والنزاع في بستان الزيتون، والصليب منتصبًا، محقّقًا النبوءات، فاضطربت نفسه، وحينئذٍ دوّى صوت الآب مشجّعًا.

لقد بات يسوع مثل مصباحٍ أشرف زيته على النفاد، ومع أنّ صوت أبيه دوّى كي يشدّده فيمضي إلى غاية شوطه الأليم، كان يشهد الظلمات تتصاعد من كلّ الوديان المحيقة بأورشليم وتحيق به. كان قد تحدّى، للمرَّة الأخيرة، الهيكل الذي مُسخت رسالته، وحرّاسَه الفاسدين الذين ضاقت آفاق إدراكهم، وجفّت قلوبهم، وباتت أورشليم التي خانت مُثلها ورموزها، والرجاء الذي كانت تخفق به، مثل التينة اليابسة على حافّة الطريق. وكان يرى الحرف المقيت في نهاية لفائف الكتاب، مثل نجيعٍ قاتمٍ، مثل خاتمٍ دامٍ سيدمغ عماده بدمه.

حتّئذٍ لم يكن يسوع قد تنبّأ، قطّ، بمثل تلك النبرة الحازمة، عن موته المأسويّ المهين، وعن عواقبه المجيدة، فالذين سيتقاطرون من المشارق والمغارب لاعتناق تعليمه، سيثأرون لمهانة صليبه، وسيصبح الصليب الذي يرى فيه اليهود معثرةً، عنوان حكمة الله وقدرته.

في تلك الأثناء كان القوم قد احتشدوا من حوله، وصدمهم قوله إنّه سيلقى، قريبًا، موتًا مخزيًا. فهذا القول كان يتعارض مع كلّ ما تخيّلوه عن مسيحٍ منتصرٍ، يبني دولة إسرائيل على أنقاض ممالك الدنيا، «مسيحٍ يستمرّ إلى الأبد».

شقّ على يسوع أنّ كلّ ما فعله وقاله لم يفلح في تبديد أوهام اليهود. فعزف عن النقاش، ولكنّه ودّع الشعب بعباراتٍ ستظلّ، أبدًا، تنير دروب البشريّة: «**إنّ النُّور باقٍ بينكم زمنًا يسيرًا، فسيروا ما دام لكم النُّور لئلاّ يغشاكم الظلام، لأنّ الذي يمشي في الظلام لا يدري أين يذهب. فما دام لكم النُّور فآمنوا بالنُّور لتكونوا أبناء نورٍ**» (يوحنّا ١٢ : ٣٥–٣٦).

مزيجٌ من أسًى وحنانٍ في هذه الكلمات الأخيرة التي حاول بها يسوع اجتذاب سامعيه إلى النور، قبل أن تغيب شمسه، ويغرقوا، هم، في ليلٍ دامسٍ.

هذه الكلمات رمت الذهول في قلوب السامعين، ولكنّها غُرست فيها كي تنمو وتثمر.

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، مذهّبةً قِمم أَغصان بستان الزيتون. ولم يبادر أحدٌ إلى استضافة الربّ، فشخص إلى بيت عنيا، حيث سيرحّب به، بالتأكيد، أبناء النور، وحيث سيتذوّق سُوَيْعات عزاءٍ، بين ظهراني أصدقاء مخلصين.

أحد الشعانين (بريشة برنهارد بلوكهورست)

أدّوا ما لقيصر لقيصر وما للّٰه للّٰه

(بريشة سنغليتون كوپليه)

يَسُوعُ يُسْفِرُ عَن هَوِيَّتِهِ

الرجال المتطلّعون إلى دورٍ اجتماعيٍّ بارزٍ يسعون إلى الاستيلاء على السلطة بالقوّة أو بالحيلة، وعندما يظفرون بها يستخدمونها لتحقيق مخطّطاتهم. فإن فشلوا، هبطوا مغمورين بالخزي، وإن نجحوا قوبلوا بالتصفيق والتكريم.

ولكنّ نهج يسوع غير نهج البشر. فهو لا يبتغي الملك إلاّ بالإيمان، لا يفرض نفسه على الآخرين، ولا يستخدم سوى سلاح الكلام والإقناع. وإنجازه الأكبر هو إظهار هويّته. وعمله يندرج وسط مقاومةٍ حادّةٍ، عنيفةٍ، تُفضي إلى معركةٍ يبدو فيها مهزومًا.

هذه الفترة الخطيرة من حياة يسوع ينفرد الإنجيل الرابع في سردها، بإيجازٍ مهيبٍ، ولكنّه يبرز تأثير أقواله البالغ، وتيّارات الرأي العامّ المنقسم بشأنه، الذي تصدمه الحقيقة تارةً، وتارةً تفحمه، فنسمع، حينًا، وشوشات السخريّة، وأحيانًا صيحات الإيمان والتأييد، ونشهد مساعي السلطات الدينيّة الحاقدة، القلقة، الدائبة على بثّ العيون في إثره لترصُّده، والإيقاع به، والتي توقعها نجاحاته في خوفٍ مريعٍ.

جميع المشاهد تجري في أروقة الهيكل التي يهبط إليها يسوع عند الفجر، فيعلّم الجموع، ويجادل الفرّيسيّين والكتبة، وعند الغروب يؤوب، مع تلاميذه، إلى بيت عنيا أو إلى جبل الزيتون، حيث يقضي الليل، مناجيًا أباه. الجموع التي تحيق به، في الهيكل، أقلّ بساطةً وعفويّةً من جموع الجليل، وأكثر اطّلاعًا على الكتب، وأشدّ إذعانًا للسلطات الدينيّة التي تستوحي منها كلّ قولٍ وعملٍ. وغالبًا ما يندسّ ممثّلو تلك السلطة بين أفراد الشعب، متجسّسين، ويحدث أن يُفتَن بعضهم بمسحة الألوهة التي تشعّ من أقوال الناصريّ.

وبقدر ما كان يسوع نزوعًا إلى التواري، قبل حلول ساعته، بات، عندما حُمّ

القضاء، متحدّيًا لا يفوّت فرصةً لكشف النقاب عن أُلوهته، ويسعّر، لدى مناوئيه النار التي ستحرقه.

جوهر تعليمه لم يتغيّر. ولكنّه شرع يعتمد صيغةً جديدةً. فعندما كان يعلّم الجليليّين البسطاء كان يطيب لـه استخدام الأمثال المستوحاة من طبيعة الريف. ولكنّه عندما خاطب الأورشليميّين المزدهين بعلم الكتاب أكثر من الاستدلال بمقاطع من الكتب، فأدهشهم بمعرفته التي لم يتخيّلوها فيه، إذ إنّه لم يدرس على يد أحدٍ من أئمّتهم. وكان يستخلص من أقوال الكتب معاني لم تخطر لهم ببالٍ، ولا سيّما في ما يتعلّق بفرائض الشريعة، ووصف الأنبياء للمسيح العتيد، وانطباق هذه الأوصاف عليه. وبهذه الأقوال كان يفحمهم ويخزيهم، وبها كان يستثير إعجاب الشعب بسلطة تعليمه، في حين كان الرؤساء يحاولون إظهار ازدرائهم لها، لأنّها لا تستند على تعليم أيٍّ من كبار الرابّيين. ولا بدعَ، فمرجع يسوع الوحيد هو أبوه السماويّ. «**فكان اليهود يتعجّبون ويقولون: «كيف لـه كلُّ هذا العِلم وهو لم يتعلَّم! فأجابهم يسوعُ وقال: «إنّ تعليمي ليس من عندي بل من عند الذي أرْسلني. ومن يعمل بمشيئة الله يعرف هل هذا التَّعليم هو من عند الله أو أنا أتكلّم من عند نفسي. إنّ من يتكلّم من عند نفسه يطلبُ المجدَ لنفسه، وأمّا من يطلُبُ مجد الذي أرسله فهو صادقٌ ولا التواء فيه. أوَلم يُعطِكم موسى الشريعة؟ ومع ذلك ما من أحدٍ منكم يعمل بالشَّريعة! لماذا تطلبون قتْلي؟**»».

فأجاب الجمعُ وقالوا: «إنّ بك شيطانًا! من يطلُبُ قتلك؟» فأجاب يسوعُ وقال لهم: «ما عَمِلتُ سوى عملٍ واحدٍ فتعجّبتُم بأجمعكم. موسى سنَّ لكم الختان – وما كان من موسى بل من الآباء – فتمارسونه في السبت. فلئن كان الإنسان يُختَنُ في السبت لئلاّ تُخالف شريعةُ موسى أفتسْخطون عليَّ لأنّي أبرأت إنسانًا بجُملته في السبت؟ لا تحكموا بحسب الظواهر بل احكُموا بمقتضى العدل» (يوحنّا ٧: ١٥–٢٤). بذلك كان يردّ على تساؤلات الشعب، ويدحض اعتراضات الكتبة والفرّيسيّين. فكلامه من عند الله، وليس من شأن البشر الحكم على كلام الله الذي يفوقهم، بل عليهم الترحيب به، لأنّ فيه خلاصهم.

لقد دعا يسوع مستمعيه إلى ألاّ يحكموا بحسب الظواهر، بل بمقتضى العدل، غير أنّهم ما انفكّوا يحكمون على أقوال يسوع، لا بموجب قناعات ضمائرهم، بل

بحسب موقف زعمائهم من هذه الأقوال، ويحكمون على مسيحانيّته، بناءً على أقاويل باطلةٍ: «**أليس هذا هو الذي يطلبون قتله؟ ها هو يتكلّمُ جهارًا ولا يقولون لـه شيئًا. ألعلّه تبيّنَ حقًّا لرؤسائنا أنّه المسيح؟ ولكنّ هذا نعرِفُ من أين هو، وأمّا المسيحُ فإذا جاء لا يعرفُ أحدٌ من أين هو**» (يوحنّا ٧: ٢٥–٢٧). وقد أخذ عليهم يسوع هذا الموقف الأخرق بقوله: «**أنتم تعرفونني إذن! وتعرفون إذن من أين أنا! مع أنّي لم آتِ من نفسي. والذي أرسلني هو حقٌّ وأنتم لا تعرفونه. وأمّا أنا فأعرفه لأنّي من عنده أتيتُ، وهو الذي أرسلني**». **فأرادوا أن يُمسكوه ولكن لم يُلْقِ أحدٌ عليه يدًا لأنّ ساعته لم تكن قد حانت بعد. غير أنّه آمن به من الجَمْعِ كثيرون وكانوا يقولون: «ألعلّ المسيح، متى جاء، يأتي بآياتٍ أكثر ممّا أتى به هذا؟» وسَمع الفرّيسيّون بكُلّ ما كان يتهامس به الجمعُ في شأنه، فأرسل رؤساء الكهنة والفرّيسيّون نفرًا من الحرس للقبض عليه**» (يوحنّا ٧: ٢٨– ٣٢).

القضيّة الجوهريّة كانت تكمن في إثبات أنّه مرسل اللّه، وأنّ مهمّته إلهيّةٌ، وأنّه منبثقٌ من اللّه، ومساوٍ له، فإن ثبت ذلك، غدا الزعيم الوحيد الخليق بأن يُتبع، والمعلّم الوحيد الجدير بأن يُصغى إليه، والمخلّص المحرّر الوحيد، الذي يتعيّن على السلطات أن تنحني لـه، وتؤمن به. وإن لم يثبت ذلك عُدّ نبيًّا كاذبًا، دجّالاً، يستحقّ عقاب السنهدرين، ونبذ الشعب. ومن ثمّ دأب على الشهادة للحقّ، بثباتٍ وسلطةٍ، ومنطقٍ محكمٍ، وفصاحةٍ مُقنعةٍ، ورغبةٍ عارمةٍ في زحزحة تلك الأذهان الجامدة والنفوس المتحجّرة.

كانوا يتذرّعون بحجّة أنّ المسيح الحقّ لا أحد يعرف من أين هو، وردّ عليهم بأنّهم لا يعرفون، بالفعل، من أين هو، لأنّه آتٍ من الآب، وهم يجهلون هذه الحقيقة وينكرونها، بل هم يجهلون اللّه: «**الذي أرسلني هو حقّ، وأنتم لا تعرفونه**».

من خلال ابن البشر المتواضع المزدرى، أظهر يسوع ابن اللّه، المشترك معه في الجوهر، الكائن معه، والمرسل من قبله، في الزمن. وأوضح أنّ المسيح الحقّ يتخطّى كلّ ما حلم به اليهود، فهو كما استشفّه الأنبياء، وكما حقّقه يسوع .

دهشة الجموع حيال أقوال يسوع وأعماله أقضّت مضاجع الرؤساء الدينيّين، ووطّدت عزمهم القضاء عليه. وأحزن ضلالُهم قلبَ يسوع فقال: «**أنا معكم زمَنًا**

يسيرًا، بعدُ، ثمّ أمضي إلى الذي أرسلني. وستطلبونني ولا تجدُونني لأنّي حيث أكون أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا» (يوحنّا ٧: ٣٣-٣٤). ولكأنّه يتوسّل إليهم أن اغتنموا ساعاتي الأخيرة من وجودي معكم، واستضيئوا بالنور، قبل أن أعود إلى مجدي السماويّ، حيث لن يتسنّى لكم الوصول.

وفضلاً عن الاستضاءة بنوره، دعاهم يسوع إلى ارتشاف ماء الحياة المتدفّق من نبعه الإلهيّ. ولكنّ دعواته لم تلقَ منهم سوى الصدود، وزادتهم نقمةً وإصرارًا على إزالته، ولا سيّما وهم يشهدون عمق تأثيره في نفوس الشعب. فكلّفوا حرسًا بالقبض عليه، ولكنّ الحرس، بعد أن شاهدوه واستمعوا إليه، أبوا تنفيذ المهمّة، قائلين: «**إنّه ما تكلّم، قطّ، إنسانٌ مثل هذا الرجل**» (يوحنّا ٧: ٤٥- ٤٩).

أولئك الحرس كانوا صادقين مع أنفسهم، وحملهم تأثير يسوع الآسر على إلقاء سلاحهم. فصاحته، ورقّته، وسحره، كانت أشدّ أسرًا على ضمائرهم من سيطرة الزعماء. ولكنّ طغاة الضمائر أولئك ما كانوا ليرضوا بأن يكون للشعب رأيٌ غير رأيهم؛ وقام من وسط العلماء المزدهين بعلمهم من يدافع عن يسوع. فلقاء نيقودمس الليليّ مع يسوع في مطلع رسالته، كان قد آتى ثماره في تلك النفس الصادقة، حيث تغلّب الإيمان على الخوف والحذر، فانتصر للحقّ والعدل، واحتجّ معترضًا: «**تُرى، أتحكُمُ شريعتنا على أحدٍ قبل أن تسمعه وتعرف ما فعل؟**» فأجابوا وقالوا له: «**أفتكون أنت أيضًا من الجليل؟ إبحث فترى أنّه لم يقم نبيٌّ من الجليل**». **ثمّ انصرفوا كلّ واحدٍ إلى بيته**» (يوحنّا ٧: ٥٠- ٥٢).

صيحة الاستقامة هذه زادت الفرّيسيّين حقدًا وسخطًا، فانهالوا على زميلهم بالشتيمة والهزء.

التِّينَةُ المَلعُونَة، وَطَرْدُ البَاعَة

كان يسوع قد عاد إلى بيت عنيا ليلاً، ولم يتناول أيّ طعامٍ، وصباح الإثنين هبّ منذ الفجر كي يعود إلى أورشليم، وفي أثناء الطريق، عضّ معدته الجوعُ، وشاهدَ تينةً مخضلّةً تكسوها أوراقٌ دكناء كثيفةٌ، فدنا منها، ولكنّه لم يجد عليها أيّ ثمرٍ. ولا بدع في ذلك، فليس من المألوف أن تثمر شجرة التين في شهر نيسان. فخاطبها على مسمعٍ من تلاميذه: «**لا يأكلنّ أحدٌ منك إلى الأبد!**».

لَعْن التينة كان إنذارًا موجّهًا إلى كلّ مراءٍ، وإلى الشعب اليهوديّ المتباهي بشريعته، وطقوسه، وفرائضه، التي يخفي بها عقمه. إنّه قرار الموت الوحيد الذي أصدره يسوع، في أيّامه الأخيرة، كي يهزّ به قلوبًا عنيدةً، أو لامباليةً.

ثمّ هرع إلى الهيكل حيث كانت تستعجله مهمّة تطهيره ممّا كان يحزن نظره وقلبه. فما كان قد شاهده فيه بالأمس، من انتهاكاتٍ، قد ولّد فيه غضبًا مقدّسًا عارمًا فكرّر ما فعله في مطلع حياته العلنيّة، «**ووصلوا إلى أورشليم. فدخل الهيكل وأخذ يطرد الذين يبيعون ويشترون في الهيكل. وقلب موائد الصّيارفة ومقاعد باعة الحمام. ولم يدع أحدًا يمرّ في الهيكل بمتاعٍ. وشرع يعلّمهم، ويقول لهم: «أما هو مكتوبٌ إنّ بيتي يُدعى بيت الصلاة لجميع الأمم! أمّا أنتم فقد صيّرتُموه مغارةَ لصوصٍ!**» (مرقس ١١: ١٥ – ١٧).

ما من فعلٍ عبّر ببلاغةٍ مدهشةٍ، وبقوّةٍ حازمةٍ، مثل هذا الفعل، عن وجه الملكوت الذي ابتغى يسوع إنشاءه. فالفساد البشريّ من قوّة العدوى بحيثُ إن تُرك وشأنه، لا يلبث أن يفسد أقدس شيءٍ وهو الدين، وأن يدنّس أقدس مكانٍ وهو الهيكل. ولا بدّ من سوط يسوع الحازم للَجْم هذا الوباء. إنّ غضب يسوع، في هذا المجال، هالة مجدٍ فوق هامته، ولئن استشاط يسوع غيظًا على من انتهكوا قدسيّة الهيكل، وأهوى عليهم بالسوط، فكم بالحريّ سيكون غضبه ملتهبًا على من يدنّسون هياكل الله البشريّة التي غدت أعضاءً في جسده!

بهذا الغضب المقدّس، وهذه الغيرة الملتهبة، استهلّ يسوع حياته العلنيّة، وبهما اختتمها، مثبتًا أنّه، حقًّا، ابن الله الحريص على قدسيّة بيت أبيه. وهو، الذي سيقدّم ذاته ضحيّةً عن البشر أجمعين، ألغى الحاجة إلى التضحية ببهائم لن يجدي دمها، يومًا، في تطهير أيٍّ كان، وما كانت تلقى في نفس الله أيّ رضًى.

ولم يجسر أحدٌ على مقاومته، فقد كانت مهابته تفرض احترامه على الجميع، وكانت نيران الغضب المقدّس تلتمع في ناظرَيْه، وكان سواد الشعب يؤيّده. ويلاحظ الإنجيليّ مرقس: «**ونمى ذلك إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فأخذوا يتلمَّسون كيف يُهلكونه، لأنّهم كانوا يخافونه لأنّ الجمع كلّه كان شديدَ الإعجاب بتعليمه**» (مرقس ١١ : ١٨).

وجديرٌ بالتنويه أنّ يسوع كان يختلف إلى الهيكل، ولكنّه لم يقدّم فيه، يومًا، أضاحي، وكأنّه لا يبتغي سوى التقاء الشعب البسيط فيه.

وحينئذٍ تشجّع أصحاب الأسقام والعاهات الواقفون عند عتبة الهيكل، الذين كان السدنة واللاويّون يحظرون عليهم دخوله، فأقبل عليه عميٌ وعرجٌ وسقماء، فشفاهم. وانطلق الأولاد المرافقون لهم، والموجودن في الهيكل يطوفون في الهيكل، هاتفين: «**هوشعنا لابن داود**». فاغتاظ رؤساء الكهنة والكتبة، وقالوا ليسوع: «**أتسمع ما يقولون؟!**» فقال لهم: «**أجل. ولكن أما قرأتم قطّ أنّه من أفواه الأطفال والرضّع أعددتُ تسبيحًا؟**».

خلافًا للفرّيسيّين، لم يكن المتواضعون والضعفاء يتوجّسون من يسوع أيّة رهبةٍ، بل كان عطفه يشيع الرجاء في ثنايا بؤسهم. وكانت معجزاته تستثير إعجابهم، فانطلقوا، هم وأبناؤهم، يهتفون له، بصدقٍ وحبورٍ. وما زال الصغار والأبرياء، وأصحاب القلوب النقيّة، هم الذين يعاينون الله، من خلال معجزاته، ويحبّونه، وينعمون بسلامه. أمّا المتكبّرون المنتفخون زهوًا بعلمهم وسطوتهم، الملوَّثو الضمائر، الذين لا مبتغى لهم سوى المتعة والسيطرة، فالحقيقة تزعجهم وتضايقهم.

الثّلاثاء، صِدَامَاتٌ حَادَّةٌ

في تلك الأيّام الحاسمة، حصر يسوع تعليمه في إطار الهيكل، ولم يخرج به إلى الشارع، كي يُظهر أنّه في بيت أبيه، وأنّ مطامحه روحيّةٌ صرفٌ. وقد أثبت أنّه سيّد الهيكل بلا منازعٍ، فحكمته وعلمه الإلهيّان قد أفشلا كلّ مراوغات علماء الشريعة. وكان أتباعه المندفعون، والمحيقون به، كفيلين بدرء كلّ محاولةٍ خبيثةٍ للنيل منه. القوم مفتونون بأقواله وتعاليمه، التي يستفيض بها منذ الصباح الباكر حتّى المساء. وهو يطيب لـه، في تلك الساعات الأخيرة، أن يعيد على مسامع تلاميذه، ما طالما لقّنهم على مدى ثلاث سنواتٍ.

مساء الإثنين كان قد عاد مع تلاميذه إلى بيت عنيا، ليلاً، فلم تتسنّ لهم ملاحظة شيءٍ. وصباح الثلاثاء، إذ كانوا راجعين صباحًا إلى أورشليم أبصروا التينة قد يبست من جذورها. فتذكّر بطرسُ وقال لـه: «**رابّي، انظُر! إنّ التينة التي لعنتها قد يبست!**» فأجاب يسوع وقال لهم: «**آمنوا باللّه. فالحقّ أقولُ لكم إنّه إن قال أحدٌ لهذا الجبل: انتقل واهبط في البحر، وهو غيرُ مرتابٍ في قلبه بل مؤمنٌ بأنّ ما يقوله يكونُ، فإنّه يكون لـه. فلهذا أقول لكم إنّ كلّ ما تسألونَ في الصلاة آمنوا أنّكم قد نلتُموه، فيكون لكم**» (مرقس ١١: ٢١–٢٤).

من خلال هذه المعجزة الوحيدة التي لم يُجرِها يسوع بدافع العطف، ابتغى أن يرسّخ يقين تلاميذه – وجميع المؤمنين – بما سيقوون على فعله بالصلاة القائمة على إيمانٍ وطيدٍ. وكان جبل الزيتون المطلّ بقامته الجسيمة على البحر الميّت أمامهم، فأكّد لهم أنّ مثل تلك الصلاة كفيلةٌ بنقل ذلك الجبل إلى ذلك البحر.

لطالما أكّد يسوع، وبعباراتٍ قويّةٍ، جدوى الصلاة التي لا تخيب، إن هي كانت مبنيّةً على إيمانٍ راسخٍ، وإن هي التمست ما هو خيرٌ ومتوافقٌ مع مشيئة اللّه. وكما أنّ الأب الحكيم لا يعطي ابنه عقربًا، لمجرّد أنّها أعجبته ورغب فيها، وهي كفيلةٌ بإيذائه، كذلك الآب السماوي لا يلبّي طلبًا لما هو سيّءٌ، أو تافهٌ، أو خدّاعٌ. وقد

يهبنا ما يؤول إلى خيرنا من خلال مِحَنٍ لا ندرك غاياتها. إنّ الله يلبّي كلّ صلاةٍ أُحسن سؤالها، وليس هذا، دائمًا، سهلاً، فدروب الله غير دروبنا، وهي غالبًا ما تستغلق على مداركنا.

ولا ريب أنّ الربّ قد رمى من خلال لعن التينة وتيبيسها إلى مغازٍ أُخرى، إذ لم يكن ممكنًا أن يطلب منها ثمرًا في غير أوانها. ولكنّه جعل منها مثلاً حيًّا. ولطالما استخدم الأنبياء مثل تلك الأمثال. فقد رأى في اخضلالها وكثافة أوراقها، وغياب ثمرها، صورةً لليهوديّة، المزدهرة بالمظاهر الفرّيسيّة، والمقفرة من ثمار الفضيلة الحقّة، فاستحقّت لعنة العقم الأبديّة. ولم يلبث أن تبيّن التلاميذ هذا المقصد من خلال سجال معلّمهم مع زعماء اليهود الذين أدان رياءهم، وخيانتهم الأمانة، فأدركوا أنّ التينة الملعونة إنّما كانت ترمز إلى عقم اليهوديّة الذي يموّهه ظاهر خضرةٍ موّارةٍ خدّاعةٍ.

تلك التينة كانت الخليقة الوحيدة التي أحلّت بها الدمارَ لعنةُ من كان عطفه بلا حدودٍ. فقد ابتغى يسوع، من خلال هذا الحدث، الدلالة على المصير المميت الذي انتهى إليه شعبٌ لم يضنّ عليه الله بأيّ عونٍ، ولكنّه ظلّ عقيمًا، ولم يؤتِ ثمرًا.

وبلَعْنِه التينة لعن يسوع الرياء، وحذّر من المعرفة الجوفاء التي تؤتي الغرور، ولا تؤتي أيّ ثمرٍ يغذّي الروح.

وفي الآن عينه، شدّد يسوع عزيمة التلاميذ، قُبَيْل صلبه، بإظهاره لهم قدراته الإلهيّة.

ومن خلال التينة رمز يسوع أيضًا إلى الحياة المكرّسة لخدمة الله، والتي ينبغي أن تكون، كلّ حينٍ في موسم إثمارٍ، بحيث يلتمس المعلّم هذه الثمار حينما يشاء، غير مكتفٍ بالنوايا الطيّبة الخاملة، التي يُرمز إليها بالأوراق الكثيفة، ولا بمجرّد الرغبات الصالحة التي يُرمز إليها بالزهور، بل يحقّ له أن يطالب، كلّ حينٍ، بالثمار الشهيّة، ثمار الأعمال والأفعال، وويلٌ لمن يتفقّده الربّ، فلا يجد عليه ثمرًا!

* *

في تلك الأثناء كان زعماء اليهود قد ضاقوا ذرعًا بيسوع. فدخوله المظفّر إلى أورشليم كان ضربةً ساحقةً لهيبتهم، وطرده لباعة الهيكل كان ضربةً موجعةً لمصالحهم

العشاء الأخير (بريشة كارل بلوك)

النزاع

المادّيّة والتجاريّة. ولذلك وطّنوا العزم على قتله، وراحوا يبحثون عن الوسيلة المثلى لتنفيذ مأربهم. ولكنّهم، خشية إشعال ثورةٍ شعبيّةٍ، حرصوا أن يتمّ كلّ شيءٍ في أكبر قدرٍ من الكتمان. وارتأى بعضهم أن يُضفوا على قتله صبغةً شرعيّةً، فضاعفوا جهودهم لتوريطه بما يبرّر إدانته، ولا سيّما أنّ فئةً عريضةً من الشعب كانت مفتونةً به، وبعض أعضاء السنهدرين نفسه كانوا يرون فيه رسول الله، فلم يبقَ لهم سوى تشويه صورة ذلك النبيّ الريفيّ، الذي ظنّوه أُمّيًّا، رغم كلّ ما كان يتمتّع به من قدرةٍ على الإقناع. وخُيّل إليهم أنّ بضعة أسئلةٍ محكمة الحبك كفيلةٌ بإحراجه وزعزعته، وأنّ أجوبته المتسرّعة، المبتسرة، ستكفي لفضح جهله وهشاشته، ولتجعله مهزأةً، وتؤخذ عليه ممسك إدانةٍ.

لطالما وقفت السلطات القائمة موقف اليقظة والمقاومة من دعاة الإصلاح والتغيير. فهي قد تتوجّس خشيةً فتتشنّج، أو تشعر بالتهديد فتضطهد وتبطش. ولطالما وقع أنبياء اليهود ضحايا السلطة الكهنوتيّة، أو الملكيّة، أو النزوات الشعبيّة. أولئك الذين يختارهم الله كي ينهضوا بالأمم والشعوب، يمسون شهداء دعوتهم، ويسقطون تحت ضربات من جاؤوا لهم منقذين.

لم يهزّ أحدٌ الضمائر كما هزّها يسوع، ولم يتصدّ أحدٌ لجذور الشرّ كما تصدّى. وبتأسيسه ملكوت الله، خلق عالمًا جديدًا، فأثار، أكثر من أيٍّ آخر، حقد السلطات واضطهادها. وقد أسهبت الأناجيل في سرد التفاصيل التي واكبت وابل الحقد الذي انهمر عليه، في ساعاته الأخيرة.

تناسى خصوم الأمس عداواتهم المتبادلة، وتواطأوا جميعهم عليه وعقدوا، في ما بينهم، حلفًا مجرمًا للقضاء عليه. واتّفقوا على امتحانه بالتوالي، فيمدّ له كلٌّ من أعضاء السنهدرين، والفرّيسيّين، والهيرودسيّين، والصدّوقيّين، شركًا كفيلاً بتوريطه وإيقاعه.

كان يسوع قد وافى إلى الهيكل باكرًا، وسرعان ما التفّ جمعٌ من حوله، فأخذ يبشّرهم. وأيّة مهمّةٍ أعذب على قلبه من التبشير! وجاءه وفد الممتحنين الأوّل، وفد السنهدرين بكامل تمثيله: كبار الكهنة، وعلماء الشريعة، والوجهاء، وفدٌ كبيرٌ وقورٌ، أرادوا به فرض هيبتهم على الجمع الذي تحلّق حول الناصريّ، وعلى الناصريّ نفسه. شقّوا طريقهم وسط الجموع المتراصّة، وبتعالٍ ينمّ عن عُجْبٍ مطلقٍ بالذات، طرحوا

سؤالاً مزدوجًا: «**قل لنا بأيّ سلطانٍ تفعل هذا؟ أو من ذا الذي أولاك هذا السلطان؟**» بلفظة «**هذا**» عنوا دخوله الجماهريّ الصاخب إلى أورشليم وهيكلها، وطرده الباعة، وتعليمه غير القائم على شريعتهم. ففي الواقع تصرُّفاته وأقواله كلّها كانت توحي بأنّه سيّدٌ ذو سلطانٍ، فليفصح عمّن فوّضه بكلّ ذلك، وإلاّ فهو مغتصبُ سلطةٍ، ومثيرُ فتنةٍ. وأليس السنهدرين هو حارس الهيكل وحامي التعليم؟ ولكأنّهم قد شرعوا بمحاكمته .

من الجليّ أنّ سؤالهم كان ينطوي على إنكارٍ ومغالطةٍ، فقد رأوا بأمّهات عيونهم يسوع يفعل ما لا يقوى عليه إلاّ اللّه. وما كان استفسارهم إلاّ مكرًا. أوَلم يكن أحدهم قد اعترف قبل نحو ثلاث سنواتٍ: «**رابّي، نحن نعلم أنّك من لدن اللّه جئت معلّمًا، إذ لا يستطيع أحدٌ أن يصنع الآيات التي أنت تصنعها، ما لم يكن اللّه معه؟**». لقد تجاهلوا كلّ ذلك، وكانوا موقنين أنّه سيعجز عن الردّ المقنع، فيحرجونه أمام الشعب.

لم يكونوا معنيّين بمعرفة مصدر سلطته، بل كانوا يتوخّون استدراجه إلى تصريحٍ يقيمون به عليه حجّةً لإدانته. وكانوا يتوقّعون أن يعلن مسيحانيّته، وبنوّته للّه، وهما كافيتان للحكم عليه. وقد غرب عن بالهم أنّهم إنّما كانوا ينصبون الشباك لأنفسهم. فعلى سؤالهم الذي يقطر عداءً، وبهتانًا، وخبثًا، لم يردّ يسوع مباشرةً، بل بسكونٍ لا يشوبه أيّ اضطرابٍ، ردّ عليهم بسؤالٍ كفيلٍ بإرباكهم وإحراجهم، وقد اختار إشراكَ الشعب في الدفاع عنه، وإذ كان الشعب، منذ مصرع المعمدان، يراه متوّجًا بهالة كبار الأنبياء، ونظيرًا لإيليّا في مناهضة الملوك الضالّين الخونة، ردّ يسوع على مستنطقيه: «**أنا أيضًا لي سؤالٌ واحدٌ أطرحه عليكم. أجيبوني عنه أقلْ لكم بأيّ سُلطانٍ أفعلُ هذا: معموديّةُ يوحنّا، أَمن السماء كانت أم من الناس؟ أجيبوني**». **ففكّروا في أنفسهم قائلين:** «**إن قُلنا: من السماء، قال:** «**فلماذا لم تؤمنوا به**». **وإنْ قلنا:** «**منِ الناس!...**»، **فالخوف عليهم من الشعب لأنّ الجميع كانوا يعدّون يوحنّا نبيًّا حقًّا. فأجابوا يسوع وقالوا له:** «**لا ندري**». **فقال لهم يسوع:** «**وأنا أيضًا لا أقوال لكم بأيِّ سلطانٍ أفعلُ هذا**» (مرقس ١١: ٢٩– ٣٣).

لقد تطاولوا على الحقيقة فأخزتهم. فما من شهادةٍ بشريّةٍ في يسوع كانت أعظم من شهادة يوحنّا فيه. فإن هم اعترفوا بيوحنّا توجّب عليهم الاعتراف بألوهة يسوع.

وإن أنكروا نبوّة يوحنّا، لفقدوا هيبتهم ومصداقيّتهم لدى الشعب. تداولوا في ما بينهم، ولم يهتدوا إلى مخرجٍ سوى الكذب، فقالوا: «لا ندري»! وسلّموا بهزيمتهم.

كيف؟ هم، أرباب العلم، لا رأي لهم في أهمّ حدثٍ دينيٍّ في عهدهم، وفي مصدر معموديّة يوحنّا! أصُمّت آذانهم بحيث عجزوا عن سماع زئير الروح في صحراء فلسطين؟ هم الذين كانوا يدّعون حقّ تفسير كلّ شيءٍ، والحكم في كلّ أمرٍ، والتمييز بين النبيّ والدجّال، عجزوا عن وصف من هزّ صوته اليهوديّة كلّها! وإن هم لم يفهموا هويّة السابق، فأنّى لهم فهم هويّة من جاء كي يمهّد لـه السبيل؟ هم، إذن، لا يستأهلون ردّ يسوع على استفسارهم. هكذا هي بصائر المتكبّرين، حسيرةٌ، بل عمياءُ، يُحجَب عنها النور الذي يضيء القلوب النقيّة.

وبعد أن أخزى مجرّبيه، وجرّدهم من أسلحتهم، حرص على أن يوضح لأولئك المزدهين بعلمهم الباطل مدى ضلالهم وخيانتهم لعهد الله، وما سينزل بهم من عقابٍ، من خلال أمثالٍ ثلاثةٍ، استهلّها بقوله:

«ماذا ترون؟ كان لرجلٍ ابنان. فدنا إلى الأوّل وقال لـه: «اذهب اليوم، يا بُنيّ، واعمَلْ في الكرم». فأجاب وقال: «لا أريد». ثمّ إنّه ندم وذهب. ودنا إلى الآخر وقال لـه القول نفسه، فأجاب وقال: «هاءَنذا أذهبُ، يا سيّدي». ولكنّه لم يذهبْ – فأيّهما عمل بإرادة أبيه؟ قالوا لـه: «الأوّل». فقال لهم يسوع: «الحقّ أقول لكم، إنّ العشّارين والبغايا يسبقونكم إلى ملكوت الله. جاءَكم يوحنّا بطريق البرّ فلم تُصدّقوه. وأمّا العشّارون والبغايا فقد صدّقوه. وقد رأيتم أنتم ذلك ولم تندموا من بعدُ، فتصدّقوه» (متّى ٢١: ٢٨–٣٢)(*).

بهذا المثل الأوّل، أكّد يسوع أنّ الفضيلة أعمالٌ وليست أقوالاً. فكم من يقولون، ولا يفعلون، كما هو شأن مستنطقيه! وكم من شرعوا برفض الخضوع لمشيئة الله، ثمّ ندموا، وتابوا، وعملوا بتلك المشيئة، وإثر فترة تمرّدٍ عابرةٍ انضمّوا إلى ملكوت يسوع. تلك هي حال من يعدّهم أولئك المراؤون خطأةً، ويدينونهم إدانةً أبديّةً. وبالمقابل ماذا فعل الفرّيسيّون الذين يدّعون، دائمًا، الخضوع لمشيئة الله؟ قالوا، بأطراف شفاههم «نعمًا» مفعمًا تبجّحًا، سرعان ما جعلته أفعالهم «لا» وقحةً. ربّما

(*) **راجع يسوع في إنجيله**: «أقوال وأفعال»، صفحة ٣٤٨.

ادّعوا أنّ مقتضيات يسوع تتخطّى الشريعة. غير أنّ يوحنّا التزم بالشريعة، وعاش في مثل زهد إيليّا، ومات ذودًا عن أوامر الشريعة، ولكنّهم أعرضوا عنه، ولم يلبّوا دعوته، ولم يتوبوا، فاستحقّوا قول يسوع الصارم: «**إنّ العشّارين والبغايا يسبقونكم إلى ملكوت الله**».

وتظاهر موفدو السنهدرين، في قحةٍ بالغةٍ، بأنّ هذا المثل لا يعنيهم، فكان لا بدّ ليسوع من مخاطبة أولئك الذين تعمّدوا الصمم، بصوتٍ أعلى، وبمثلٍ أوضح، فقال: «**رجلٌ، ربُّ بيتٍ، غرسَ كرمًا وحوّطه بسياجٍ، وحفرَ معصرةً، وبنى بُرجًا، وسلّمه إلى كرّامين وسافر. فلمّا حان أوانُ الثمر أرسل غلمانه إلى الكرّامين ليأخذوا ثماره. فأخذ الكرّامون الغلمان فأوسعوا هذا ضربًا، وقتلوا آخر، ورجموا آخر. فأرسل غلمانًا آخرين أكثر من الأوّلين. ففعلوا بهم كذلك. وفي الآخر أرسل إليهم ابنه قائلاً: «إنّهم سيهابون ابني». فلمّا رأى الكرّامون الابن قالوا في ما بينهم: «إنّه الوارث! فهلُمّ نقتله ونستولِ على ميراثه. فأمسكوه، وطرحُوه خارج الكرم، وقتلُوه. فمتى جاء ربُّ الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرّامين؟» قالوا لـه: «إنّه يُهلِك أولئك الأشرار على شرّ وجهٍ، ويدفع الكرم إلى كرّامين آخرين يؤدّون إليه الثمر في أوانه**».

فقال لهم يسوع: «**أما قرأتم قطّ في الكُتب: «إنّ الحجر الذي رذله البنّاؤون هو الذي صار رأس الزاوية؛ من عند الربّ كان ذلك، وهو عجيبٌ في أعيُننا». من أجل ذلك أقول لكم إنّ ملكوت الله يُنزَعُ منكم ويُعطى لأمّةٍ تستثمرُهُ. وإنّ من سقط على هذا الحجر تهشّم، ومن سقط هو عليه سحقه». فلمّا سَمِعَ رؤساءُ الكهنة والفرّيسيّون أمثاله أدركوا أنّه إنّما يُعرّضُ بهم. فهمّوا بأن يُمسكوه ولكنّهم خافوا من الجموع لأنّه كان يُعدُّ عندهم نبيًّا**» (متّى: ٢١: ٣٣–٤٦).

هذا المثل الثاني، مأسويّ في واقعه وفي نتائجه الوخيمة. إنّه صورةٌ واضحةٌ لتاريخ اليهود المخزي، في مختلف مراحله، حيث خان زعماؤه ومعلّموه المهمّة التي أُسندت إليهم؛ وقتلوا أو طردوا الأنبياء الذين جاؤوا يذكّرونهم بواجباتهم ويطالبونهم بالحساب.

الكرم هو الأمّة اليهوديّة التي اختارها الله كي يعلن، من خلالها، وحدانيّته. والسور والمعصرة والبرج هي الشريعة والطقوس، والعناية الإلهيّة. الكرّامون هم

الزعماء الدينيّون، والغلمان الذين تعاقبوا على المطالبة بالغلال هم الأنبياء، الذين ملأهم اللّه بروحه، ولكنّ الكرّامين لم يحسنوا وفادتهم، ولم يحترموا تفويضهم، وعوضًا عن تقديم الغلال لهم أوسعوهم ضربًا، وأثخنوهم جراحًا، وأعادوهم خالي الوفاض. والابن الوارث هو يسوع الذي يفوق الأنبياء. مركزه فريدٌ، وحقوقه مطلقةٌ. وقد جاء وديعًا، متواضعًا، هالته ألوهته التي قنّعها الحبّ، فأنزلوا به الإهانة القصوى، وقذفوا به خارج السور، خارج أورشليم، وقتلوه. رؤساء اليهود كانوا يتبجّحون بامتلاك الإرث، ولا يتورّعون عن قتل الوارث. ألم يصرّح قيافا باسمهم: «**إنّه خيرٌ أن يموت رجلٌ واحدٌ، من أن تفنى أُمّةٌ**»؟

ولا ريب أنّ يسوع عندما يتكلّم عن الابن الوارث، كان يرى نفسه معلّقًا على الصليب، بعد أيّامٍ معدوداتٍ. والويل لخائني الأمانة المجرمين!

وبعد أن سرد يسوع مثله، سألهم أيّ عقابٍ يستحقّ أولئك المجرمون، لكي يجعلهم يقرّون بأنفسهم العقاب الذي استأهلوه، وجرّوا شعبهم إليه.

لم يكن تلميح يسوع أقلّ وضوحًا من التصريح. وكانت الضربة التي هوت على رؤوس ممثّلي السنهدرين من شدّة الوقع، بحيث ذهبت برشدهم، فهمّوا بالقبض على يسوع، «**ولكنّهم خافوا من الجموع لأنّه كان يُعدّ عندهم نبيًّا**».

لقد أدركوا أنّ الكرم سيسلّم إلى كرّامين أوفر وفاءً. الشعب الذي سبق اختياره سيُلعَن، والشعوب التي كانت مهملةً هي التي ستصبح مختارةً. «قتلوه كي يستولوا على ميراثه، غير أنّهم، بقتلهم إيّاه، فقدوا الميراث»، على حدّ قول القدّيس أوغسطينُس. وسيكون مقتل الابن، على يد السلطة المجرمة، فجر مجده، إذ إنّه سيغدو حجر الزاوية الذي يربط القديم بالحديث، وعليه سيقوم بناء عهدٍ جديدٍ. الذين كانوا قد كُلّفوا بالبناء رذلوه، ولكنّ اللّه أقام عليه صرحه، وأدهش المسكونة جمعاء. وكلّ من سيصطدم بصخرته سيتهشّم.

ولكي يؤكّد أنّ الكرم سيُنتزع ممّن كُلّفوا به وخانوا الأمانة، أتبع مثل الكرم بمثل وليمة العرس، فقال: «**مثل ملكوت السماوات كمثل ملكٍ صنع عُرسًا لابنه. فأرسل غِلْمانه يستقدمُ المدعوّين إلى العرس. فلم يُريدوا أن يأتوا. فأرسل غلمانًا آخرين قائلاً: قولوا للمدعوّين إنّي قد أعدَدْتُ غذائي: عُجُولي ومُسمَّناتي قد**

ذُبحتْ، وكلُّ شيءٍ قد أُعِدّ، فهلمّوا إلى العرس. ولكنّهم لم يكترثوا: فذهبوا هذا إلى حقله، وآخرُ إلى تجارته، وقبض آخرون على الغِلْمان وشتَموهم وقتلوهم. فغضب الملكُ وأرسل جُندَه فأهلك أولئك القتلة، وأحرق مدينتهم.

«حينئذٍ قال لغلْمانه: إنّ العرسَ مُعدٌّ وأمّا المدعوّون فغيرُ مسْتحقّين. فأتوا مفارقَ الطرُق، وكلّ من وجدْتم فادعوه إلى العرس. فخرج أولئك الغِلمان في الطُّرق وجمعوا كلّ من وجدوا من كرامٍ ورعاع. فحَفَل العُرسُ بالمتّكئين. ودخل الملكُ لينظر المتّكئين فرأى هناك رجلاً ليس علَيه لباسُ عُرس. فقال له: «يا صاحِ، كيف دخلتَ إلى ههنا وليس عليك لباسُ عرس؟» فسكَت. حينئذٍ قال الملكُ للخُدّام: «أوثِقوا يديه ورجْليه واطْرَحُوه في الظُّلمةِ الخارجيّة. هناك يكون البكاءُ وصريفُ الأسنان.

«حقًّا إنّ كثيرين يُدعَون وأمّا المختارون فقليلون» (متّى ٢٢: ١–١٤)(*).

كان اليهود طليعة المدعوّين إلى عرس الملكوت، ولكنّهم تخلّفوا عن الدعوة، بقحةٍ مهينةٍ. فاستُعيض عنهم بالأمم الوثنيّة، على أن تتحلّى بالخصال المسيحيّة، وفي طليعتها المحبّة. سيُشرع، إذن، باب الملكوت لكلّ الأمم. وستُلقى شبكة الإنجيل في أعالي المحيطات، وستجمع أسماكًا من كلّ صنفٍ.

ظفر موفدو السنهدرين بالجواب الذي ابتغوه، وعلموا ما كانوا يؤثرون ألاّ يعلموه. فعادوا خاسئين، مجلّلين بالخزي. ولكنّهم باتوا أشدّ إصرارًا على إهلاك يسوع. وكلّفوا بالمهمّة شركاءهم الفرّيسيّين. وأجمعوا على خطّةٍ يستدرجون بها يسوع إلى التلفّظ بما يورّطه مع الرومانيّين أو مع شعبه. وغايتهم الماكرة أن يصطادوه بكلامه. ولكيلا تُفتضح مكيدتهم أرسل الفرّيسيّون نفرًا من تلاميذهم وبعض الهيرودسيّين، وكانت تشقّ الفئتين خلافاتٌ لاهوتيّةٌ، كي يبدو الأمر وكأنّ الطرفين اتّفقا على الاحتكام إلى يسوع، فجاؤوا وقالوا له: **«يا معلّم، نحن نعلم أنّك صادقٌ، وأنّك تُعلّمُ طريق اللّه بالحقّ ولا تُبالي بأحدٍ لأنّك لا تُحابي وجوه الناس. فقُلْ لنا ماذا ترى: أيجوز أن ندفع الجزية لقيصر أم لا؟»** فأدرك يسوعُ مكْرهم فقال: **«لماذا تنصِبون لي فخًّا، يا مُراءُون؟ أروني نقد الجزية».** فأتوه بدينار. فقال لهم: **«لِمن**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «المدعوّون كثيرون والمختارون قليلون»، صفحة ٣٤٥.

هذه الصُّورةُ، وهذه الكتابة؟» قالوا: «لقيصر». فقال لهم: «أدّوا إذنْ ما لقيصر إلى قيصر، وما للّه إلى اللّه». فلمّا سمعوا دَهِشوا. وتركوه ومضوا« (متّى ٢٢: ١٦– ٢٢)(*).

تحت ملمسٍ ناعم كان السائلون يخفون سمًّا زعافًا. وكانت مكيدتهم، في نظرهم، من إحكام الحبكة، بحيث لن يقوى على التملّص منها. فإن هو أجاز دفع الجزية لقيصر أظهر نفسه عدوًّا للأمّة اليهوديّة ولدينها. وإن هو أفتى بعدم دفعها، اتّهموه بالدعوة إلى الثورة على الحكم القائم، وأودوا به إلى الموت. فإمّا يبدو خائنًا لوطنه، أو خائنًا لقيصر. سؤالٌ محكم الحبك، مطروحٌ بدهاءٍ فائقٍ، هتك الربّ خبثه. فحِكمة الربّ تزري بكلّ مكائد البشر. الدينار كان رومانيًّا، وعليه صورة القيصر طيباريُس، ونقشٌ يخصّه. وبطلبه رؤية دينار، إنّما كان يسوع يتّهم مجرّبيه بأنّهم هم الذين يتعاملون بالنقد الرومانيّ الذي لم يلمسه، قطّ، ولا يعرف عنه شيئًا. لقد أخرجوا من جيوبهم نقودًا حفرت عليها عبارة: «إلى قيصر الإلهيّ». – ويا لعارهم! وإذن، فهم الذين يعترفون بسلطة قيصر عليهم، ولابأس، بالتالي، أن يعيدوا له نقده. ويسوع من جهته، يدعوهم إلى أن يؤدّوا للّه ما هو له.

كلامٌ يفوق كلّ حكمةٍ! وجوابٌ من الشفافيّة، والإحكام، بحيث لا يمكن لألدّ أعداء روما، ولأكثر الوطنيّين تعصُّبًا استنكاره. وحتّى الذين جاؤوا بغيةَ استدراج يسوع إلى ورطةٍ لم يستطيعوا سوى الإعجاب بحكمته. ومع ذلك ستبلغ بهم القحة، بعد ثلاثة أيّامٍ، أن يتّهموه، أمام بيلاطس، بمنع دفع الجزية لقيصر!

كلّ إنسانٍ خاضعٌ لسلطتين، فهو، بحياته المادّيّة وبجسده، يرتبط بمجتمعٍ، بشعبه، ووطنه، وهو، بروحه وحياته الداخليّة، ووجدانه، خاضعٌ للّه.

إنّه مدين للسلطة المدنيّة برعايتها، ولكنّه مدينٌ، أيضًا، للّه بالاحترام والطاعة والحبّ. دائرتان مختلفتان. ولكنّ التعايش بينهما ممكنٌ لمصلحة الجميع، على ألاّ تتعدّى السلطةُ البشريّة على حقوق اللّه. فبمعزلٍ عن اللّه تنقلب السلطة طغيانًا، وتنقلب الحرّيّة فوضى.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أدّوا ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه»، صفحة ٣٩٥.

وفوق كلّ ذلك أبلغ يسوع، بردّه هذا، حتّى الأكثر صَممًا، أنّه ليس مسيحًا سياسيًّا محاربًا، فهو مكلّفٌ برسالةٍ تشمل البشريّة كلّها، وتستهدف خلاصها الروحيّ.

* *

وجاء دور الصدّوقيّين، عقلانيّي ذلك الزمان. فوجود عالَمٍ آخر يبدو لهم حلمًا أخرق. وهم لا يقيمون للأنبياء وزنًا، ويهزأون بالفرّيسيّين الذين يضحّون بمتع الدنيا طمعًا بمكافأة الآخرة. وربّما كانوا أقلّ حساسيّةً تجاه تعاليم يسوع، فهم يسخرون بتعاليم الرابّيّين وتقاليدهم. غير أنّ أحداث الأيّام الأخيرة، في الهيكل، وهو معقلهم، وتعرُّض يسوع للتجارة فيه، وهي مصدر غنائم جزيلةٍ لهم، أثارت نقمتهم عليه، فتوخّوا، هم، أيضًا، إحراجه. ولجأوا، في هذا السبيل، إلى ميدان العقيدة التي لا يؤمنون بها، ولكنّهم ولجوها من بابِ السخريّة التي يعرفون وقعها على الجماهير. فسألوه: «**يا معلّم، قال موسى إنْ مات أحدٌ وليس له ولدٌ فليتزوّج أخوهُ امرأته ويقم عقبًا لأخيه. وكان عندنا سبعةُ إخوةٍ تزوّج الأوّل ومات، وإذ لم يكن له عقبٌ ترك امرأته لأخيه. وكذلك الثاني فالثالث إلى آخر السبعة. وفي آخر الكلّ ماتت المرأة. ففي القيامة لمن مِنَ السبعة تكون امرأةً: فإنّ الجميع قد اتّخذوها امرأة؟**» (متّى ٢٢ : ٢٤– ٢٨).

كانوا يضحكون، في سرّهم، وهم يتخيّلون ارتباك يسوع. خطَلهم في ظنّهم أنّ سُنَن الدنيا هي عينها سُنَن الآخرة. والمشكلة التي أثاروها لا وجود لها إلاّ في مخيّلتهم الهزيلة، وفي رؤاهم الحسيرة البصر. ابتغوا جعله موضع سخريّة الجماهير، فجعلهم مضحكة الجميع، وأخزاهم بردّه: «**إنّكم لعلى ضلالٍ، لأنّكم لا تعرفون الكتُب ولا قدرة اللّه. ففي القيامة لا يُزوّجون ولا يتزوّجون. وإنّما يكونون كالملائكة في السماء. وأمّا من قبيل قيامة الأموات، أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل اللّه القائل: «أنا إلهُ إبراهيم، وإله إسحق، وإلهُ يعقوب؟ فاللّه ليس إله أمواتٍ بل إله أحياء». فلمّا سمع الجموع بُهتوا من تعليمه**» (متّى ٢٢ : ٢٩–٣٣)(*).

كان لدى الصدّوقيّين من العُجْب بالذات، أكثر ممّا كان من المكر، فكان يسوع أقلّ قسوةً عليهم من معلّمي الشريعة، وأكثر إشفاقًا على عماهم الروحيّ الذي حاول شفاءه.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «إله أحياء لا إله أموات» ، صفحة ٤١٢.

كم ينأى بنا يسوع عن دروب الأرض، ويمضي بنا، فجأةً، على دروب السماء! فحياة القيامة لا شبيه لها على الأرض، ويتعذّر تخيّلها. ولا بدّ لنا من التحديق إلى الملائكة كي نكوّن فكرةً عن حياة الآخرة.

لقد ابتغى الصدّوقيّون الحطّ من قدره في نظر الشعب، فأكسبوه، لدى الشعب مزيدًا من تقديرٍ وتكريمٍ، حتّى إنّ نفرًا من الكتبة قالوا، شامتين بالصدّوقيّين: «**يا معلّم، لقد أحسنت في ما قلت**». كم كان الكتبة يمقتون يسوع، ولكنّ الحقيقة تتغلّب، أحيانًا، على الحقد، والآراء المسبّقة!

واحدٌ من الكتبة، أصفى نفسًا من أترابه، كان قد استمع إلى سجالات يسوع وخصومه، وأُعجب بسداد حكمته، وعافت نفسه تفاهات الكتبة الذين أغفلوا الجوهر، وتاهوا في شعاب الفتاوى الباطلة، فاستزاد معرفةً، وسأله: «**أيُّ وصيّةٍ هي أولى الوصايا جميعًا؟**» **فأجاب يسوع: «الأولى هي: اسمَعْ، يا إسرائيلُ، إنّ الربّ إلهنا ربٌّ أَحَدٌ. فأحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك، وكلّ نفسك، وكلّ ذهنك، وكلّ قُدرتك. والثّانيةُ هي: أحبِبْ قريبك مثل نفسك. ولا وصيّة أُخرى أعظمُ من هاتين». فقال له الكاتب: «حسنٌ، يا معلّم. لقد أصبت إذ قُلت: «إنّه الأحدُ ولا آخر من دونه. وإنّ محبّته بكلّ القلب وكلّ الذهن وكلّ النفس وكلّ القدرة، ومحبّة القريب مثل النفس، لأفضل من جميع المُحرقات والذّبائح»** (مرقس ١٢: ٢٨- ٣٣)[*].

كلماتٌ معدوداتٌ تختصر كلّ الجوهر، وتُغني عن أسفارٍ ومجلّداتٍ لا طائل تحتها!

فرح يسوع لأنّ ذلك الكاتب أدرك، أخيرًا، تفوّق شريعة المحبّة على الأضاحي، وتفوّق العبادة الداخليّة التي نؤدّيها لله، بحبّه فوق كلّ شيءٍ، وبحبّ إخوته إكرامًا له، على كلّ الطقوس. فاستحقّ أن يقول له الربّ: «**إنّك لست ببعيدٍ عن ملكوت الله**». ولكأنّه كان يشجّعه على اجتياز الخطوة الأخيرة نحو الإيمان بالملكوت الجديد.

باءت كلّ محاولات خصوم يسوع بالفشل، فأقلعوا عن طرح الأسئلة، وآثروا التحوّل إلى وسائل العنف الكفيلة بإزالته. ولكنّه، هو، مضى قُدُمًا في إحراج جميع مناوئيه معًا، فسألهم مجتمعين: «**ماذا ترون في المسيح؟ ابنُ من هو؟**» **قالوا له:**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الوصيّة الكبرى والأولى»، صفحة ١٩٨.

«ابنُ داود» **فقال لهم: «فكيف يدعوه داودُ بوحي الرُّوح ربًّا فيقول: «قال الربُّ لربّي اجلِسْ عن يميني حتّى أجعل أعداءَك تحت قدميك»، فإذا كان داودُ يدعوه ربَّه فكيف يكونُ ابنه؟» «فلم يستطِعْ أحدٌ أن يُجيبَه بكلمةٍ. ومنذُ ذلك اليوم، لم يجرؤ أحدٌ أن يُلقي عليه سؤالاً»** (متّى ٢٢: ٤٢-٤٦).

المزمور الذي أشار إليه يسوع كان اليهود يردّدونه، كلّ يومٍ، ولا يفقهون معناه. وأنبياء كُثُرٌ كانوا قد قالوا بأنّ الذي سيولد في بيت لحم موجودٌ منذ الأزل. ومع ذلك، عندما أشار يسوع إلى كونه ابن اللّه عدّوا قوله تجديفًا يستأهل، عنه، الموت. وما الموت، ليسوع، سوى تحقيق المهمّة، ومدخل النصر والمجد.

لقد ابتغى إفهامهم أنّ المسيح، وإن كان ابن داود، جسديًّا، إلاّ أنّه إلهه، أيضًا، ولذلك دعاه داود، بوحيِ الروح، ربّه. وكان ذلك إعلانًا آخر عن أُلوهة يسوع، وبيانًا بأنّ مهمّته هي إلهيّةٌ، وليست وطنيّةً وأرضيّةً.

حقًّا، لم يتكلّم، قطّ، إنسانٌ مثله.

انسحب أعداء يسوع حانقين، وهم أشدّ تصميمًا على الانتقام منه شرّ انتقامٍ. ولا ريب أنّ الشعب قد صفّق لإخزاء يسوع لأولئك المتبجّحين. ولكنّ الربّ ارتأى ضرورة فضح أولئك المرائين، محتكري علم الشريعة وتفسيرها، وإماطة أقنعة التقوى والقداسة التي يخفون وراءها شرور نفوسهم، فانتقد، بصرامةٍ، جشعهم، وأنانيّتهم، وكبرياءهم، ورياءهم. وقد رسمهم بألوانٍ صارخةٍ رسّخت في الأذهان، إلى الأبد، صورتهم المقيتة. لعن مكرهم ونفاقهم، وحذّر من تأثيرهم الوبيل، وتنبّأ بما سيحلّ بهم وبمدينتهم، أورشليم، من عقابٍ رهيبٍ. وقد أفرد الإنجيليّ متّى كامل الفصل الثالث والعشرين من إنجيله لهذه الإنذارات: «**حينئذٍ كلّم يسوعُ الجموع وتلاميذه قائلاً: «إنّ الكتبةَ والفرّيسيّين جالسون على كرسيّ موسى، فما قالوا لكم فاعمَلوه واحفظوه، ولكن مثل مسلكهم لا تسلُكوا. فإنّهم يقولون ولا يفعلون. يحزِمون أحمالاً ثقيلةً ويُلقونها على مناكب الناس، ويأبون هم أن يُحرّكوها بإحدى أصابعهم. كلُّ أعمالهم يعملونها كي يَنْظُرهم الناس: يُعرِّضون عصائبهم، ويُطوّلون أهدابهم، ويُحبّون المُتّكآت الأولى في المآدب وصدورَ المجالس في المجامع، وأن تُلقى عليهم التحيّاتُ في الساحات، وأن يدعوَهُمُ الناس «رابّي». أمّا أنتم فلا تُدعَوا «رابّي» لأنّ معلّمكم واحدٌ، وأنتم كُلُّكم إخوةٌ. ولا تدْعُوا**

أحدًا على الأرض «أبي»، لأنّ أباكم واحدٌ وهو الذي في السماوات. ولا تُدْعَوا «سيّدي» لأنّ سيّدكم واحدٌ وهو المسيح. وليكُنْ أكبرُكم خادمًا لكم. فإنّ من رفع نفسه وُضع، ومن وضع نفسه رُفِع.

«ألا ويلٌ لكُم، أيّها الكتبةُ والفرّيسيّون المُراءُون فإنّكم تسدّونَ في وجوه الناس مدخَل ملكوت السماوات، فلا أنتم تدخُلون ولا تدعون الداخلين يدخُلون. ويلٌ لكم، أيّها الكتبةُ والفرّيسيّون المُراءون، فإنّكم تأكلون بيوت الأرامل، وتُطيلون الصلوات تظاهُرًا. من أجل ذلك ستنالُكم دينونةٌ أشدُّ عُسْرًا. ويلٌ لكم، أيّها الكتبةُ والفرّيسيّون المُراءون، فإنّكم تطوفون البحر والبرّ لتكسبوا ولو دخيلاً واحدًا، فإذا حصل، صيّرتُموه ابن جهنّم ضعف ما أنتم عليه.

«ويلٌ لكم، أيُّها القادةُ العُميانُ، القائلون: «من حَلَفَ بالهيكل فلا بأس، ومن حَلَف بذهب الهيكل فهو مُلتزمٌ». أيّها الجهّالُ والعُميان، ما الأعظمُ: الذهبُ أم الهيكلُ الذي قدّس هذا الذهب؟ وأيضًا: «من حَلَف بالمذبح فلا بأس، ومن حَلَف بالقربان الذي عليه فهو ملتزمٌ»، فيا أيّها العميانُ، ما الأعظمُ: القربانُ أم المذبحُ الذي يقدّسُ هذا القربان؟ فمَن حَلَف بالمذبح فقد حلف به وبكلّ ما عليه. ومن حلفَ بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه. ومن حلف بالسماء فقد حلفَ بعرش الله وبالجالس عليه.

«ويلٌ لكم، أيُّها الكتبةُ والفرّيسيّون المراءُون، فإنّكم تُؤدّون عُشْر النعناع والشبث والكمّون وتُهملون أخطر ما في الشريعة: العدل والرحمة والأمانة. وكان ينبغي أن تعملوا بهذا من غير أن تُهملوا ذلك. يا للقادة الذين يُصَفُّون من البعوضة ويبلعون الجمل!

«ويلٌ لكم، أيُّها الكتبة والفرّيسيّون المُراءون، فإنّكم تُطَهّرون ظاهر الجامِ والصَّحْفة وباطنُهما ممتلئٌ نَهْبًا وجَشَعًا. أيّها الفرّيسيّ الأعمى، هلاّ نقّيْت أوّلاً باطن الجام والصَّحفة لكي يتنقّى ظاهرُهما أيضًا.

«ويلٌ لكم، أيّها الكتبةُ والفرّيسيّون المراءُون، فإنّكم تُشبهون القبور المكلّسة، التي يبدو ظاهرها جميلاً فيما باطنُهما مُمتلئٌ عظامَ أمواتٍ وكلّ نجاسةٍ. أجل، ذلِكُم أنتم، فإنّكم في ظاهركم تبْدون للناس أبرارًا فيما باطنُكم مُمتلئٌ رياءً وإثمًا.

«ويلٌ لكم، أيُّها الكتبةُ والفرّيسيّون المُراءون، فإنّكم تشيّدون قبور الأنبياء وتُزيّنون ضرائح الصدّيقين وتقولون: لو كُنّا في أيّام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون على أنفسكم أنّكم بنو قتلة الأنبياء. فجمّموا أنتم مكيالَ آبائكم!

«أيّها الحيّاتُ، نسلُ الأفاعي، كيف تفلِتون من دينونة جهنّم؟ من أجل ذلك، هاءنذا أُرسِلُ إليكم أنبياء وحكماءَ وكتبةً، فمنهم من تقتلون وتصلبون، ومنهم من تجلدون في مجامعكم وتُطاردون من مدينةٍ إلى مدينةٍ، لكي يقع عليكم كلُّ دمٍ زكيٍّ سُفك على الأرض، من دم هابيل الصدّيق إلى دم زكريّا بن برخْيا الّذي قتلتموه بين المقْدس والمذبح! فالحقّ أقول لكم إنّ هذا كلّه سينزلُ بهذا الجيل.

«يا أورشليمُ، يا أورشليمُ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم من مرّةٍ أردتُ أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تُريدوا! فها هو ذا بيتُكم يُترك لكم خرابًا. وإنّي أقول لكم إنّكم لا تروْنَني بعد اليوم حتّى تقولوا: مباركٌ الآتي باسم الربّ» (متّى ٢٣ : ١ – ٣٩) .

حكم الله الأبديّ الصارم يدوّي في فم يسوع، ويدين أولئك المعلّمين الكذبة، وخلفاءهم عبر الأجيال، الذين يزرعون الموت في النفوس؛ أولئك الذين ينصبون الحواجز في وجه الملكوت، وكان عليهم الإرشاد إليه، والمساعدة على دخوله. يضلّلون من كان يتعيّن عليهم إنارتهم؛ يحوّلون العبادة الروحيّة إلى فرائض مادّيّة. يغالون في الطقوس، ويُعرضون عن الجوهريّ: العدل والرحمة والإيمان. يخدعون الشعب بتقواهم الزائفة؛ ويكدّسون السرقات والنجاسة في ضمائرهم الفاسدة. يُخرسون أصوات مرسلي الله وأنبياءه، بقتلهم، ثمّ يكرّمون قبورهم.

وإذ كان منظر العقاب المريع الذي سيحلّ بأورشليم معقل الفرّيسيّين، والذي ستعجّله جريمة قتله، ماثلاً أمام ناظريه الإلهيّين، لم يتمالك من إنذار تلك المدينة الشاهدة على مقتل الأنبياء، ومن التنبؤ بدمار هيكلها .

كان ذاك هو إنذاره الأخير، الذي لم يُعِرْهُ أحدٌ اهتمامًا. ولكنّ من يطرد الله لا ينجو من الدمار!

* *

وبعد أن عبّر عن عميق حزنه على ضلال الفرّيسيّين، وتضليلهم، وعلى مصير قلعتهم، المدينة المقدّسة، جلس ليستريح قبالة الخزانة، حيث اصطفّ ثلاثة عشر صندوقًا، يودع فيها المؤمنون تقادمهم. وفي الأعياد، كان إقبال الجماهير يشتدّ، فمنهم من يؤدّي ضريبة الهيكل، ومنهم من يفي نذرًا، ومنهم من يقدّم تبرّعًا، وكان لا بدّ من الاستعانة بكاهنٍ يحدّد مبلغ الضريبة، ويتأكّد من صلاحيّة النقد، ويرشد إلى الصندوق المُعدّ لتلقّي المال، أو يتناول بيده المبالغ، ويودعها بنفسه، معلنًا عن مقدارها وعن المتبرّع بها، متيحًا للجميع الاطّلاع على مدى سخاء كلّ مُعطٍ؟ وكان كثيرون من الأغنياء يجزلون التقادم، ويختالون منتفخين عُجبًا، مستلفتين الأنظار إلى كرمهم.

ووسط ذلك العجيج من الحجّاج، تقدّمت، بخفرٍ، أرملةٌ فقيرةٌ، راغبةً في الإسهام بما تتيحه لها مواردها الضئيلة. كانت تمسك بيدها قطعتي نقدٍ نحاسيّ، ضئيلتي القيمة، وإذ كانت تجهل أين تودعهما، توجّهت إلى الكاهن الذي أخذهما منها، وألقاهما في الصندوق، معلنًا عن مبلغهما، ومثيرًا لدى الجمهور بسمة شفقةٍ.

وكان المخلّص يواكب بنظره تلك الأرملة الفقيرة، وهي تنسلّ خجلةً، تحت أنظار الجمعِ الساخرة. فحرص على أن يزين عطاءها بميزان عدله، ويلقّن تلاميذه عبرةً ثمينةً، فقال: «**الحقّ أقول إنّ هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة. فالجميعُ قد ألقوا من فُضالتهم. وأمّا هي فمن عَوَزِها ألقتْ كلّ ما لها، كلّ معيشتها**» (مرقس ١٢: ٤٣ – ٤٤)(*).

هذا القول يندرج في صميم تعليم يسوع الذي لا يعني له الظاهر شيئًا، بل كلّ ما يعنيه هو النيّة والقلب. المحبّة هي معياره، والمحبّة تعطي كلّ شيءٍ، وتلك الأرملة أعطت كلّ ما لديها، فكان عطاؤها عظيمًا، يفوق كلّ ذهب الدنيا وفضّتها.

تقادم الأغنياء، مع وفرتها، كانت جزءًا من فضلاتهم، ولم يكن لها، في نظر يسوع، أيّ شأنٍ. ولكنّ تقدمة تلك الأرملة، مع ضآلتها المادّيّة، لم تكن لـه أقلّ سخاءً من الناردين الفاخر الذي يساوي ثلاث مئة دينارٍ، والذي أفاضته مريم، أُخت لعازر، على رأس يسوع وقدميه.

ربّما نحن، في نظر الربّ، لم نُعطِ، قطّ، شيئًا!

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «فلسا الأرملة»، صفحة ٤١٤.

نبوءاتُ النِّهايَة

خرج يسوع من الهيكل، ويمّم صوب بستان الزيتون، وفي أثناء الطريق، لفت نظره أحد التلاميذ إلى جمال الهيكل ومهابته، قائلاً: «**تطلّع، يا معلّم. فيا للحجارة! ويا للأبنية!**» وهو يشير بإصبعه إلى مداميك الهيكل الجبّارة المتراكبة بانتظامٍ خارقٍ، وفنٍّ مرهفٍ، من غير ملاطٍ يجمعها، وبإحكام مطلقٍ يجعل تبيّن الواصل بين حجرٍ وآخر شبه متعذّرٍ، فضلاً عن النمنمات، والمحفورات، وصفوف الأعمدة، والأبواب الملبّسة بالمعادن الثمينة، والشرفات المتسامقة جبالاً من المرمر المتألّق، بحيث يبدو البناء بأكمله يحاكي قصرًا مسحورًا محفورًا في الصخر، ولكأنّه يتحدّى الأبديّة. ولكنّ يسوع كان يرى، بعينيه الإلهيّتين، الهيكل وقد أعمل فيه تيطس يد الخراب فتنهّد، وقال بأسًى: «**أترى هذه الأبنية العظيمة؟ إنّه لن يُترَك منها حجرٌ على حجرٍ: فالكلّ سيُنقَض**». وقبل انقضاء أربعين عامًا على هذه النبوءة، تحقّقت حرفيًّا. ولئن بقي من هياكل مصر، واليونان، وروما المدمّرة آثارٌ، إلاّ أن آثار هيكل أورشليم قد اندثرت، والتهمت النيران ما بقي منها.

ولمّا انتهى يسوع وتلاميذه إلى قمّة جبل الزيتون، جلس المعلّم ساهمًا، وراح يسرّح الطرف في المنظر المنبسط أمامه، منقّلاً أبصاره من صروح المدينة الشاهقة، إلى قصور هيرودس، إلى قناطر الهيكل التي كانت شمس المغيب تصبغ ذؤاباتها باللون الذهبيّ. ودنا منه تلاميذه، وقد ألقى تنبّؤه بدمار الهيكل الرعب في قلوبهم، فالهيكل هو، لكلّ يهوديٍّ، أحبّ بيتٍ. واستوضحوه كيف ومتى يتمّ ذلك. وحينئذٍ تكلّم يسوع، وقد أشفى على نهاية شوط حياته الأرضيّة، وقد تحرّر من مقاييس الزمن التي التزم بها طيلة ثلاثٍ وثلاثين سنةً، تكلّم كإلهٍ لا يحدّه زمنٌ، وردّ بخطابٍ مُسهبٍ رسم فيه ثلاث لوحاتٍ، تناولت الأولى ما سيتعرّض له التلاميذ من اضطهادٍ؛ والثانية العلامات المشعرة بدمار الهيكل؛ أمّا الثالثة فصورةٌ مبهمةٌ لنهاية العالم، التي لا يعرف عنها أحدٌ شيئًا سوى الآب. ومن كلّ ذلك استخلص ضرورة اليقظة والسهر، والتأهّب للدينونة الأخيرة.

كان على أُلوهته أن تتنبّأ، وعلى رحمته أن تحذّر، وعلى حكمته أن تدع الموعد مغلّفًا بالسرّ، لكي يظلّ البشر ساهرين متيقّظين. هذه اليقظة ضروريّةٌ لكلّ إنسانٍ، وفي كلّ وقتٍ، فموت كلّ إنسانٍ هو له نهاية العالم.

اللوحة الأولى ترسم تاريخ الكنيسة عبر العصور، ولا سيّما في حِقَب المخاطر، والمحن الكبرى، إذ سيتعرّض للاضطهاد كلّ من يبشّر بالإنجيل، من قِبَل اليهود والوثنيّين، لا بل من قِبَل ذوي القربى الذين لم يؤمنوا. يسوع وحده يَعِد أتباعه باضطهاداتٍ مستمرّةٍ، لن تنتهي، وبنقمة العالم على كلّ من يحمل اسمه؛ ، ولكنّه يعدهم أيضًا برعايته ومساندته: «**سيُلقُون الأيدي عليكم ويضطهدونكم. ويدفعونكم إلى المجامع والسُّجون. ويسوقونكم إلى المُلوك والوُلاة من أجل اسمي. فيؤول ذلك لكم إلى الشهادة. واجعلوا في أذهانكم أنّكم ليس عليكم أن تهتمّوا من قبلُ بما تحتجّون. لأنّي، أنا، أُوتيكم كلامًا وحكمةً لن يقوى جميع مُناصبيكم على دفعهما. وسيُسلّمكم حتّى الوالدون والإخوة والأقرباء والأصدقاء أنفسُهم. ويقتلون منكم. وسيُبغضكم الجميعُ من أجل اسمي. ولكنّ شعرةً من رؤوسكم لن تهلك. فإنّكم بثباتكم تكتسبون الحياة**» (لوقا ٢١: ١٢– ١٩).

وكان يسوع قد حذّر تلاميذه أيضًا: «**احذروا أن يضلّكم أحدٌ فإنّ كثيرين سيأتون مُنتحلين اسمي ويقولون: أنا هو المسيح. ويُضلّون كثيرين**» (متّى ٢٤: ٤– ٥). فليس إلاّ معلّمٌ واحدٌ، ومحرّرٌ واحدٌ، ومخلّصٌ واحدٌ: يسوع. فلا تبحثوا عن سواه، ولا تؤمنوا بسواه. في كلّ جيلٍ سيظهر أنبياء كذبةٌ، وسيروّجون أضاليل هدّامةً، مدّعين الاستعاضة بها عن أنوار الإنجيل. ولكنّ كلّ زائفٍ زائلٌ، ويسوع أكّد: «**كلّ شجرةٍ لم يغرسها أبي تُقلع**». ولن تبقى سوى شجرة الصليب، وما تمثّله من أنوار الإنجيل.

أمّا عن دمار أورشليم وهيكلها، فقد أدلى بتعليماتٍ واضحةٍ: «**إذا رأيتم أورشليم وقد أحاقت بها الجيوش، فاعلموا، حينئذٍ، أنّ خرابها قد بات وشيكًا**». فليهرب من استطاع إلى الفرار سبيلاً، إذ إنّ فظائع مروّعةً ستواكب هذا الحدَث. فقد أُهلك أحد عشر ألف نسمةٍ، وأُسر سبعةٌ وتسعون ألفًا، وتعرّضوا لعذاباتٍ مبرّحةٍ، ولعبوديّةٍ مهينةٍ. وتعذّر إحصاء عدد المصلوبين، بحيث لم يبقَ مكانٌ لغرس الصلبان، ولا خشبٌ لصنعها. وكانت المجاعة من الشدّة والضراوة بحيث أُكرهت أمّهاتٌ على أكل أبنائهنَّ. ورئف الله فقصّر مدّة المحنة.

أمّا ساعة نهاية العالم، فتركها يسوع غارقةً في ضباب الإبهام، مؤكّدًا أنّ لا أحد يعرفها سوى اللّه. بقوله هذا كان يسوع يتكلّم بلسان إنسانيّته المتواضعة المتضامنة مع حدودنا البشريّة. ولكنّه حذّر من أن يؤدّي تلكّؤها إلى ذهول البشر عن مصيرهم، واستسلامهم لتوافه الحياة وخمولها، وملذّاتها السطحيّة: «**ومثلما كانت أيّام نوحٍ كذلك يكون مجيءُ ابن البشر. فكما أنّه في الأيّام التي قبل الطوفان كانوا يأكلون ويشربون ويتزوّجون ويُزوّجون إلى يوم دخل نوحٌ الفُلْك، ولم يتوقّعوا شيئًا حتّى جاء الطوفانُ وذهب بهم جميعًا. كذلك يكون أيضًا في مجيء ابن البشر: فحينئذٍ يكونُ اثنان في الحقل فيُؤخذُ الواحدُ ويُتركُ الآخر، وتكونُ اثنتان على رحًى فتُؤخذ الواحدةُ وتُترك الأخرى. فاسهروا إذنْ لأنّكم لا تعلمون في أيّ يومٍ يأتي سيّدُكم. واعلموا أنّه لو علم ربُّ البيت في أيّ ساعةٍ يأتي السارقُ لَسهِرَ ولم يدَعْ بيته يُنقب. فكونوا، أنتم أيضًا، على تأهّبٍ لأنّ ابن البشر يأتي في ساعةٍ لا تتوقّعونها**» (متّى ٢٤: ٣٧ – ٤٤).

ولطالما دعا يسوع تلاميذه إلى الحيطة والسهر الكفيلَيْن بإبقائه حيًّا في قلوبهم، بعد أن يغيب عنهم، وبإعتاقهم من طغيان حاجات العالم، وبتمكينهم من السيطرة على ذواتهم، وبتذكيرهم ببطلان العالم وعدمه. فليسهروا سهر الخادم العاقل، الذي، مع جهله ساعة عودة سيّده، أدّى مهمّاته بأمانةٍ، وأحسن معاملة رفاقه، وأعدّ كلّ شيءٍ لخدمة معلّمه في أيّة ساعةٍ جاء، وظلّ يقظًا كي يفتح له، ويرحّب به(*).

وإذن، فلا خلاص إلاّ بالسهر، والتيقّظ، والعمل الجيّد. أمّا قوله: «**يؤخذ الواحد ويُترك الآخر**»، فيعني أنّ الملائكة ستأخذ حسني النيّة، والاستعداد، والسيرة، وتترك الآخر للهلاك. وأسهب يسوع في إيراد الأمثال المحرّضة على السهر، والأمانة، والحكمة.

ففي الأمانة ضرب مثل عبدين، أحدهما كان أمينًا للمهمّة التي أوكلت إليه، فنال خير جزاءٍ، وآخر تنكّر للأمانة فكان عقابه شديدًا: «**من هو العبد الأمين الذكيُّ الذي أقامه سيّده على أهل بيته ليُعطيهم الطعام في حينه؟ ألا طوبى لذلك العبد الذي إذا جاءَ سيّده وجَدَه على عمله هذا. فالحقّ أقول لكم إنّه يُقيمه**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «السيّد الذي يخدم خدّامه»، صفحة ٤١٦.

على جميع أمواله. ولكن إذا كان ذلك العبدُ رديًئا فقال في قلبه إنّ سيّدي مُبطئٌ في مجيئه. فأخذ يضْربُ أصحابه العبيدَ، ويأكلُ ويشربُ مع السكّيرين، فيأتي سيّدُ ذلك العبد في يومٍ لا يتوقّعُه، وساعةٍ لا يعلمُها فيفصله ويجعل نصيبه مع المنافقين. هناك يكونُ البكاء وصريفُ الأسنان» (متّى ٢٤: ٤٥– ٥١).

وفي الفطنة ضرب مثل العذارى الطائشات، والعذارى العاقلات: «**حينئذٍ يكون مثلُ ملكوت السماوات كمثل عشر عذارى أخذْنَ مصابيحهنّ وخرجنَ لملاقاة العريس. خمسٌ منهنّ طائشاتٌ وخمسٌ عاقلاتٌ. فأخذت الطائشاتُ مصابيحهنّ ولم يأخذنَ معهنّ زيتًا. وأمّا العاقلاتُ فأخذْنَ مع مصابيحهنّ زيتًا في آنيةٍ. وإذْ أبطأ العريسُ نعسنَ جميعًا ونِمْنَ.**

«**ولمّا انتصف الليل انطلق صياحٌ: هوذا العريس! فاخرُجن للقائه. حينئذٍ هبَّ جميع أولئك العذارى من رُقادهنّ وهيّأن مصابيحهنّ. فقالت الطائشات: «أعطيننا من زيتكُنّ فإنّ مصابيحنا تنطفئ». فأجابت العاقلاتُ وقلنَ: «لا، فإنّه قد لا يكفي لنا ولكُنّ، فالأحرى أن تأتينَ الباعة وتبتعْنَ لكُنَّ». وفيما هنّ ذاهباتٌ ليبتعنَ وفَدَ العريسُ ودخلتْ معه المستعدّات رَدْهَةَ العُرس، وأُغلق الباب. وأخيرًا جاءَت العذارى الأُخَرُ وقُلن: «يا سيّد افتح لنا!» فأجاب وقال: «الحقّ أقول لكُنّ إنّي لا أعرفُكُنَّ». فاسهروا إذن، فإنّكم لا تعلمون اليوم ولا الساعة»** (متّى ٢٥: ١ – ١٣)(*).

العذارى الطائشات يرمزن إلى مسيحيّين كُثُرٍ يستهلّون حياتهم باندفاعٍ مضطرمٍ، وكأنّهم سيمثلون، في الحال، أمام منبر الله. ويكرّ الزمن، ويعتادون الحياة المادّيّة، التافهة، الضحلة، وعندما تأذن ساعة موتهم، تكون مؤونة اندفاعهم قد نضبت، وذهلوا عن واجبات خلاص نفوسهم. ومن لا يأتي بزادٍ كافٍ من الأعمال والفضائل، لا يسعه شراؤه أو اقتراضه، عندما يُغلق الباب، ويبدأ عرس الملكوت.

أمّا الاستعدادات التي يتعيّن على المؤمنين الالتزام بها، تأهّبًا لتلك الساعة، فقد أوضحها من خلال مثل الوزنات: «**وذلك كمَثَل رجُلٍ مُسافرٍ، دعا عبيدَه وسلَّم إليهم أموالَه. فأعطى الواحد خمسَ وزَناتٍ، والآخرَ وزنَتينِ، وآخر وزنةً، كلاًّ**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «اسهروا واستعدّوا، واحذروا أن يضلّكم أحد»، صفحة ٤٢١.

على قدر طاقته، وسافر. وللوقت ذهبَ الذي أخذَ الخمسَ وزَناتٍ فتاجر بها فربح خمس وزَناتٍ أُخرى. وكذلك صاحبُ الوزنتَين ربحَ وزنَتين أُخريين. وأمّا الذي أخذ الوزنةَ الواحدةَ فإنّه مضى وحَفَر في الأرض وطمرَ فضّة سيّده.

«وبعد زمانٍ طويلٍ قَدِمَ سيّدُ أولئك العبيد وحاسبهم. فتقدّم الذي أخذ الوزنات الخمس وأدّى خمسَ وزناتٍ أُخرى، قائلاً: «سيّدي، خمس وزناتٍ سلّمت إليّ وهذه خمسُ وزناتٍ أُخرى قد ربحتُها». فقال له سيّدُه: «أحسنت، أيُّها العبدُ الصالحُ الأمين! لقد كنت أمينًا على القليل فسأُقيمك على الكثير. ادخُل فرحَ سيّدك». وتقدّم صاحبُ الوزنتين وقال: «سيّدي، وزنتين سلّمت إليّ وهاتان وزنتان أُخريان قد ربحتُهما». فقال له سيّدُه: «أحسنت، أيّها العبدُ الصالح الأمين! لقد كنت أمينًا على القليل فسأُقيمك على الكثير، ادخُل فرح سيّدك».

وتقدّم الذي أخذ الوزنة الواحدة وقال: «يا سيّدي، إنّي علِمتُ أنّك رجلٌ قاس، تحصُدُ حيثُ لم تزرعْ، وتجمع من حيثُ لم تبذُر، فخِفْت فمضيتُ وطمَرْتُ وزنتك في الأرض. فهُوذا ما هو لك عندك». فأجاب سيّدُه وقال له: «أيّها العبد الرّديء الكسول، عَلِمتَ أنّي أحصُدْ حيث لم أزرع وأجمَعُ من حيث لم أبذُر فكان عليك أن تُسلّم فضّتي إلى الصّيارفة حتّى إذا قدِمْتُ استردُّ مالي مع ربًا... فخذوا منه الوزنة وأعطوها للّذي معه الوزنات العشر. فإنّ من له يُعطى فيزداد، ومن ليس له فحتّى ما هو عندَه يُؤخذ منه. وأمّا هذا العبدُ الذي لا يملك نفعًا فألقوه إلى الظلمة الخارجيّة. فهناك البكاءُ وصريفُ الأسنان» (متّى ٢٥: ١٤- ٣٠)[*].

إنّ السهر الذي يطالب به يسوع ليس سهرًا كسولاً، متوانيًا، أنانيًّا، بل هو سهرٌ على الآخرين، ودأبٌ على سدّ احتياجاتهم، وشدّ أَزرهم، ومواساتهم، وغوثهم. وهذا ما أكّده يسوع في معرض تصويره للدينونة الأخيرة: «**ومتى جاء ابنُ البشر في مجده وجميعُ الملائكة معه، فحينئذٍ يجلس على عرش مجده. ويُحشر لديه جميع الأمم فيفصِلُ بعضهم من بعضٍ كما يفصل الراعي الضّأن من المَعْز. ويجعل الضّأن عن يمينه، والمَعْز عن شماله.**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «توظيفٌ في الملكوت»، صفحة ٤٣٤.

«حينئذٍ يقول الملك للّذين عن يمينه: «تعالوا، يا مُبارَكي أبي، رثوا الملكوت المُعدّ لكم منذ إنشاء العالم: لأنّي جُعْتُ فأطعمتموني، وعَطِشتُ فسقيتموني، كنتُ غريبًا فآويتموني، وعريانًا فكسوتموني، وكنت مريضًا فعُدتُموني، ومحبوسًا فأتيتم إليَّ». حينئذٍ يُجيبه الصدّيقون قائلين: «يا ربّ، متى رأيناك جائعًا فأطعمناك، أو عطشانَ فسقيناك، ومتّى رأيناك غريبًا فآويناك، أو عُريانًا فكسوْناك، ومتى رأيناك مريضًا فعُدْناك، أو محبوسًا فأتينا إليك؟» فيُجيب الملكُ ويقولُ لهم: «الحقّ أقولُ لكم إنّ كلّ مرّةٍ صنعتم ذلك إلى أحد هؤلاء الصغار الذين هم إخوتي فإليّ قد صنعتُموه».

«حينئذٍ يقولُ للّذين عن شماله: «اذهبوا عنّي، أيُّها الملاعينُ، إلى النار الأبديّة المعدَّة لإبليس وملائكته: لأنّي جُعتُ فلم تُطعموني وعطشتُ فلم تسقوني، كنتُ غريبًا فلم تؤووني، وعُريانًا فلم تكسُوني، وكنتُ مريضًا ومحبوسًا فلم تزوروني». حينئذٍ يُجيبون، هم أيضًا، ويقولون: «يا ربّ، متّى رأيناك جائعًا أو عطشانَ، غريبًا أو عريانًا، مريضًا أو محبوسًا، ولم نخدُمك؟» حينئذٍ يُجيبهم قائلاً: «الحقّ أقولُ لكم إنّكم كلّ مرّةٍ لم تصنعوا ذلك إلى أحد هؤلاء الصغار فإليّ لم تصْنعوه».

«فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبديّ، والصدّيقون إلى الحياة الأبديّة». (متّى ٢٥: ٣١–٤٦)(*).

كلّ روح يسوع، وعبقريّة رسالته، وشريعة الإنسان العليا، وسرّ المصير الأبديّ، كامنةٌ في هذه الصفحة. فالمحبّة هي معيار الدينونة الوحيد؛ ولم يُعبَّر، قطّ، عن عظمة المحبّة، بأبلغ من هذا التأكيد.

كان الفرّيسيّون يتوهّمون أنّهم، بوفائهم للشريعة ومقتضياتها، سيتبوّأون أسمى المراتب لدى الله، وأنّ الدينونة ستكون عقابًا لأعداء إسرائيل، وانتقامًا منهم. وكذّب يسوع كلّ هذه الادّعاءات، فهو سيدين جميع البشر، بلا تمييزٍ، وفقط على ما أدّوه، أو أحجموا عن القيام به، من أعمال الرحمة.

يومها سيجلس على العرش بصفته إلهًا، وأيضًا بصفته ممثّلاً لكلّ صغيرٍ، وفقيرٍ،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أين رأيناك، يا ربّ؟»، صفحة ٥٤٩.

ولكلّ جائعٍ، وعطشانٍ، وشريدٍ، وعريانٍ، وسقيمٍ، وسجينٍ. فكلّ ما قُدّم لأحد هؤلاء، قُدّم له، وكلُّ ما حُرموا منه، حُبِس عنه. وبذلك رقّى يسوع إلى مستوًى إلهيٍّ، كلَّ عمل عطفٍ بشريٍّ، إذ إنّه استجابةٌ لرغبة الله، وتمثّلٌ بعطفه اللانهائيّ، الذي يسبغه على البشر بأيدي مؤمنيه وقدّيسيه. وحينئذٍ، حتّى الخطأة الذين رئفوا بالمحتاجين يغفر لهم ذنوبهم، ويقيمهم على يمينه. أمّا الذين تباهوا على الأرض بتقواهم، ووفائهم لفرائض الشريعة، ولكن انحبست أحشاؤهم عن الرحمة، فيُنبذون مع الهالكين.

كثيرون يرون أنّ خطايا الإهمال هي الأجدر بالغفران، في حين يراها الديّان سببًا للإدانة. وإدانته لأعمال المحبّة التي تخاذلنا عنها قد تكون أقسى من الذنوب التي أوقعنا فيها وهننا. أعمال الرحمة هي مفتاح السماء، لأنّ تماهيًا سرّيًّا قائمٌ بين المسيح والمسيحيّ، بين الربّ والإنسان الفقير، بحيث إنّ مدّ يد الغوث إلى أحد أعضاء المسيح، هو مدّها للمسيح نفسه. وفي ذلك التعبير الأبلغ والأمثل عن جسد يسوع السرّيّ، وعن المحبّة المسيحيّة.

من اختلجت بالرحمة نفوسهم، وسالَت بأعمال المحبّة أيديهم سيسمعون نداء «**تعالوا إليَّ**» المفعمة رقّةً، والتي ستُشيع السعادة في قلوبهم. أمّا الذين أغلقت الأنانيّة والجشع نفوسهم، ولم يعبأوا لبؤس إخوتهم، فسيسمعون الكلمة الرهيبة: «**اذهبوا عنّي يا ملاعين**»؛ وستكون جهنّمهم من صنع أيديهم.

* *

ما لبثت أن شرعت تتحقّق نبوءات يسوع. فالهيكل دُمّر بعد أربعين عامًا. والكنيسة الوليدة تعرّضت لأشرس اضطهادٍ. كثيرون خلطوا بين هذه الأحداث ونهاية العالم. والتلاميذ أنفسهم ظنّوا أنّ هذه النهاية ومجيء المسيح الثاني والحاسم وشيكان. ولكنّ ذلك لم يمنعهم من الانطلاق لغزو العالم، إذ كانوا موقنين أنّ كلّ شيءٍ إلى زوالٍ. فزهدوا في كلّ أمجاد الدنيا، وبذلوا ذواتهم، بلا وَجَلٍ ولا تردّدٍ، في سبيل التبشير بالإنجيل.

وربّما أشار يسوع، بحديثه عن نهاية العالم، إلى نهاية حياة كلّ إنسانٍ. فما من بشرٍ يعلم متى ستنطفئ الشمس عن عينيه إلى الأبد. وفي حياة كلٍّ منّا ينبعث مسحاء

دجّالون، ويأتي أنبياء كذبةٌ بسمومهم، ومشعوذون بشراباتهم السحريّة. وحينئذٍ فلنذكر تحذير الربّ: «**اسهروا فإنّكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة**»!(*).

وسيأتي يومٌ يتألّق فيه يسوع، بقدرةٍ فائقةٍ، ومجدٍ عظيمٍ، ولن يضيء هذا النور مصائر الشعوب والممالك، بقدر ما سيُضيء كلّ نفسٍ بشريّةٍ، وسيتحوّل تاريخ العالم إلى تاريخ ملايين السِّيَر الشخصيّة، وسيُفرَز الناس، وفقًا لما قدّموا من عطفٍ وعونٍ لإخوتهم البشر، أو لإعراضهم عنهم، ولامبالاتهم بهم.

ويا للرجاء، عندما يكتشف كلّ كائنٍ أنّ قريبه كان يسوع عينه، المتستّر في الفقراء، والمرضى، والسجناء، والغرباء! كثيرون ممّن كانت مهمّتهم خدمته، رسميًّا، لم يعرفوه. ولكنّ كثيرين ممّن لم يعرفوا حتّى اسمه سيسمعون منه الكلمات التي ستفتح لهم أبواب السماء: «كنت أنا أولئك الأطفال، أولئك العمّال، أولئك الجياع والمرضى، كنت أنا من كان يبكي على سرير الألم، وكنت أنا السجين القابع في زنزانته، وجئتَ، أنت، تشدّ أزره».

هذه الأقوال التي أدلى بها يسوع، وهو على عتبة موته الأرضيّ، هي الإرث الذي خلّفه لجموع الفقراء، والمعوزين، والمرضى، والأسرى، والمرذولين. إنّه، بعصا أقواله هذه، فجّر، من أقسى القلوب، ينابيع دفّاقةً.

دعوة يسوع هذه إلى تعرُّفه في إخوتنا المتألّمين قد طبعت، بعمقٍ، العلاقات البشريّة، وآتت من عملوا بوحيها تحقيق المعجزات.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «انتصبوا وارفعوا رؤوسكم»، صفحة ٤١٨، «ترقّب»، صفحة ٤٢٧، و«بانتظار الفجر»، صفحة ٤٣٠.

يَومُ الأرْبعَاء: خِيَـانَةُ يَهُوذا

مساء الثلاثاء، بعد أن فرغ يسوع من تعليمه في الهيكل، أعلن لتلاميذه: «**تعلمون أنّ الفصح بعد يومين، وأنّ ابن البشر يُسلم للصلب**». أنذرهم لكيلا تفاجئهم الكارثة.

وفي تلك الليلة عينها عقد رؤساء كهنة، وشيوخٌ، وكتبةٌ، في بيت قيافا، جلسةً سرّيّةً أقصوا عنها جميع من توجّسوا لديهم تعاطفًا مع يسوع، وأجمعوا على القضاء، سريعًا، وبأيّ ثمن، على خصمهم المقلق، المزعج. ولكنّهم اختلفوا حول الأُسلوب والتوقيت. وقد ارتأَت أغلبيّتهم التدرّج بالحيطة والتريّث، حتّى الفراغ من احتفالات العيد، التي كانت تجتذب إلى أورشليم أعدادًا ضخمةً من الحجّاج السريعي الهياج، وكثيرون منهم موالون ليسوع، في حين كان الوالي الرومانيّ، بيلاطس، قد جعل المدينة المقدّسة مقرَّه في تلك المناسبة، وكان يقِظًا، متأهّبًا للبطش باليهود الذين يمقتهم، لدى أوّل بادرة فتنةٍ. غير أنّ فئةً منهم كانت تعارض أيّ تريّثٍ، خشية أن يندسّ يسوع بين الحجّاج العائدين إلى مواطنهم، بعد العيد، ويفلت من قبضتهم.

يا للمفارقة: يسوع يعرف ساعة صلبه ويعلنها، في حين ما برح طالبو صلبه يتداولون في طريقة القبض عليه، وفي الموعد الأنسب!

وفي غمرة حيرة زعماء اليهود جاءهم فرجٌ ثمينٌ بقدر ما هو غير متوقّعٍ. فقد جاءهم من يحمل نفسًا أكثر من نفوسهم حقارةً، وعرض عليهم خدماته الدنيئة. بمرارةٍ ووجعٍ يعترف الإنجيليّون أنّه أحد الاثني عشر، يهوذا إسقريوت. كان إبليس قد استحوذ على نفسه، فجاء يجوس حول دار قيافا، مستعجلاً حلكة الليل كي يتسلّل تحت جنحها. ولمّا أُدخل إلى المجلس عرض تسليمهم يسوع، في سرّيّةٍ تامّةٍ، على أن يدفعوا لـه ثمن خيانته. وجهد أعضاء السنهدرين في إخفاء فرحهم لئلاّ يشحذوا طمعه، فاستطاعوا عقد الصفقة لقاء ثلاثين شيقلاً. مبلغٌ ممعنٌ في الضآلة مقابل خيانةٍ غايةٍ في الجسامة والهول. مبلغ يساوي الحدّ الأدنى لثمن عبد! وهو،

في الواقع، مبلغٌ رمزيٌّ كفيلٌ بإضفاء صبغةٍ شرعيّةٍ على الصفقة المجرمة. لا غضاضة في اقتراف جريمة قتلٍ ما دامت الشريعة مصانةً!

بعد عصيان آدم في الفردوس، وتمرّد الملائكة في السماء، لا شيء كان أشدّ هولاً من وجود خائنٍ وسط الجماعة الرسوليّة، على مقربةٍ من بؤرة النعمة والحبّ، وفي حميميّة يسوع. اختار يسوع يهوذا، لأنّه توسّم فيه رسولاً، ولكنّه أصبح خائنًا بخطئه، ومشيئته. منذ زمانٍ كان يحضن بذرة الخيانة. عندما أعلن يسوع أنّه خبز الحياة، وأنّ جسده مأكلٌ حقٌّ، فارفضّ من حوله كثيرون من أتباعه، في حين أعلن بطرس وفاءه ووفاء رفاقه، قال الربّ بأسًى: «**ألم أختركم، أنتم الاثني عشر، غير أنّ أحدكم شيطانٌ**»، وقد عنى بذلك يهوذا، الذي كان، منذئذٍ، ينزلق، رُوَيدًا رُويدًا، إلى قعر الخيانة، من جرّاء تراخي إيمانه بيسوع، واستسلامه لنوازع البخل، والسرقة، والكبرياء، بلا مقاومةٍ. ربّما هو كان قد توسّم في ملكوت يسوع مغانم يغبّ منها، ولكنّه عندما تبيّن أنّ هذا الملكوت هو روحيٌّ صرفٌ، ولا يُجدي طائلاً ماديًّا، وأنّ مؤسّس هذا الملكوت يفتقر إلى خصال القائد المقدام، ولا تحدوه أيّة غيرةٍ وطنيّةٍ، خاب ظنّه، وشرع ينأى بقلبه عن ذلك الزعيم الذي لا يبشّر إلاّ بالتواضع، والتضحية، وحبّ الأعداء.

كثرت محاولات تفسير دوافع خيانة يهوذا، وتضاربت أحيانًا. وسيظلّ سرّها مستعصيًا على الإدراك.

وقد ارتأى البعض أنّه عندما اتّضح له أنّ مبتغى يسوع يتعارض وأحلام اليهود، أيقن أنّ نهجه هو غير نهج معلّمه. فيسوع توخّى بناء ملكوته على الحبّ، ويهوذا لم يكن يؤمن بممالك من هذا النمط، فارتدّ عن يسوع، وكفر بالحبّ.

وقد يكون تعصُّبه اليهوديّ قد زيّن لـه واجب تسليم معلّمه إلى زعماء شعبه، بعد أن تبيّن عزوف يسوع عن وضع قدراته الخارقة في خدمة مطامع اليهود السياسيّة والعنصريّة.

كان يهوذا يؤمن بقدرات يسوع اللامحدودة، بعد أن رآه يقيم الموتى ويطرد الشياطين، ويشفي العلل المستعصية، ويأمر عناصر الطبيعة فتذعن لـه صاغرةً، عانيةً. ومن ثمّ، شأنه شأن سائر التلاميذ، كان يحلم بأن يعيد المسيح لشعب إسرائيل

أمجاده، ويمرّغ، في الرغام، العنجهيّة الرومانيّة المستعمرة. وربّما خيّل إليه أنّ تسليمه سيعجّل ذلك النصر المجلجل. فلا بدّ ليسوع، عندما يُقبَض عليه، من أن يستخدم قدراته الجبّارة لقلب جميع موازين القوى.

وقد يكون الحسد أحد عناصر هلاك يهوذا. فقد كان وحده، بين الاثني عشر، غريبًا عن الجليل، وربّما كان أوفرهم علمًا، فظنّ أنّ من حقّه التفوّق عليهم. ولكن عندما استتبّت الأولويّة لبطرس، واتّضح إيثار يسوع له ولاّبنَيْ زبدى، أدرك يهوذا أنّ دوره، في الجماعة، سيكون ثانويًّا، ممحيًّا، فأترعت المرارة والحسد نفسه، وتردّى إلى ابتغاء الاثّثار، عن طريق الخيانة.

وربّما كان للجبن سهمٌ في خيانة يهوذا. فهو عندما أيقن أنّ مصير يسوع هو الموت، توجّس خشيةً من أن يؤخذ تلاميذه بجريرته، فآثر أن ينجو بنفسه، ويبادر إلى تسليمه.

ويحاول البعض تبرير خيانة يهوذا مخمّنين أنّه كان واثقًا من أنّ يسوع، بما يملك من قدراتٍ فريدةٍ، سيُظهر كلّ سلطانه إن حاول اليهود النيل منه، فرمى، من تسليمه، إلى استعجال ظهور هذا السلطان. ولدى تبيّنه فشل مخطّطه انتحر.

جريمة يهوذا ليست الخيانة فحسب، بل هي اليأس من رحمة الله.

مفاجأة رؤساء الكهنة كانت أكبر من كلّ ما تمنّوا. فالخائن، بفضل معرفته الوثيقة للأماكن التي يختلي فيها يسوع ليلاً، ولمواعيده، ولمرافقيه، يسّر لهم مهمّة القبض عليه بيُسرٍ، وبمنأًى عن أيّة بلبلةٍ. ومنذئذٍ باتوا يترصّدون الفرصة الملائمة لتنفيذ خطّتهم.

فَشَـــلُ يسَـُـــوع ؟

أمضى يسوع نهار الأربعاء، بعيدًا عن الهيكل، خاشعًا في بيت عنيا، وفي عزلةٍ حميمةٍ مع رسله الذين آثر أن يخصّهم باليوم الأخير من رحلته على الأرض. فعندما خرج من الهيكل، مساء الثلاثاء، كانت رسالته العلنيّة قد بلغت نهاية شوطها. وقد انتهت، بشريًّا، إلى فشل، وهذا ما أفصح عنه، بدهشةٍ، الإنجيليّ يوحنّا: «**ولكنّهم مع كلّ ما صنع من الآيات على عيونهم، لم يؤمنوا. فتمّ القولُ الذي قاله أشعيا النبيّ: «أيّها الربُّ، من صدّق ما سُمع منّا؟ ولِمَن أُعلنَت ذراعُ الربّ؟» وأمّا لماذا لم يؤمنوا فقد قاله أشعيا أيضًا: «إنّه أعمى عيونهم، وغلّظ قلوبهم لكي لا يُبصروا بعيونهم، ولا يفهموا بقلوبهم، ولا يرجعوا إليّ فأشفيهم». قال أشعيا هذا لأنّه شاهد مجدَه وتكلّم عنه. ومع هذا فإنّ كثيرين، حتّى من الرؤساء أنفسهم، قد بدأوا يؤمنون به، ولكنّهم لم يُجْرؤوا أن يعترفوا به، بسبب الفرّيسيّين، مخافةَ أن يُفصَلوا عن المجمع. ذلك أنّهم آثروا المجد من الناس على المجد من الله**» (يوحنّا ١٢: ٣٧ –٤٣).

في الواقع لا يُعمي الله إلاّ من اختاروا العمى، وحَجْب النور عن عيونهم، وهو لا يقسّي سوى القلوب التي آثرت القسوة. لقد أجرى يسوع، في أورشليم نفسها، طائفةً من المعجزات. وإن كان الكتبة، والفرّيسيّون، ورؤساء الكهنة، لم يفقهوا هذه الإشارات السماويّة، فلأنّ الكبرياء، والمصلحة، والغيرة، والطمع، قد أغشت عيونهم، وحجبت عنها النور، وكان عماهم فعل إرادتهم، وصنع أيديهم، لا فعل الله، وصنع يدَيْه.

ولا جرَم أنّ أعظم ألمٍ يصيب إنسانًا مدعوًّا إلى الاضطلاع بمهمّةٍ عامّةٍ، ليس الموت، بل رؤية الحقيقة التي جاء لنشرها منكرةً، والخلاص الذي جاء به مرفوضًا. ولكنّه ألمٌ نبيلٌ لأنّه منزّهٌ من كلّ غايةٍ خاصّةٍ. فالرسل لا يحزنهم فشلهم، بل بؤس

مضطهديهم. والشهداء لا يبكون موتهم، بل جريمة جلاّديهم. وكان ألم يسوع بحجم حبّه لمن جاء كي يخلّصهم، أي بلا حدودٍ.

فعندما وقف يسوع على سفح جبل الزيتون، قبالة هيكل أورشليم، وتنبّأ بدمار المدينة وهيكلها، كان يروز ثقل فشله؛ فكلّ ما بذله من غيرةٍ بلا كللٍ، ومن جهدٍ، وكلّ ما نثره من تعاليم، ونداءاتٍ متكرّرةٍ، ومعجزاتٍ لا تحصى، وبلاغةٍ، وقداسةٍ، وكلّ ما أطلقه من تصريحاتٍ علنيّةٍ، ومن إنذاراتٍ، كان بلا جدوى، ظاهريًّا، وبشريًّا.

فبعد سنتين من النشاط الدائب بلا هوادةٍ، لم يعجز، فقط، عن تبديد شكوك السلطة، ومعلّمي الشريعة، وعن إقناعهم بأنّه المسيح، وإعدادهم للملكوت، بل إنّه شهد تعاظم المقاومة، والعمى، والعنف، والبغضاء، يومًا إثر يومٍ. ولئن مال إليه الشعب، إلاّ أنّه كان متأرجحًا، متقلّبًا، دافعه الفضول والمصلحة، وأوهام أحلامه العنصريّة، أكثر من تبنّيه فكرة يسوع.

النجاح الوحيد الذي أحرزه، في أعقاب تبشيرٍ طويلٍ، هو نفثه الإيمان في نفوسٍ بسيطةٍ، هشّةٍ أحيانًا، ولكنّها مخلصةٌ، أبدًا. في مقياس الطموح البشريّ هذا النجاح مغرقٌ في الهزال، إلاّ أنّه كان انطلاقة مجد يسوع. إنّ ما يحكم حياة يسوع يحيّر تجربتنا وحكمتنا. فإن كانت انتصاراته لا تشبه انتصارات البشر، إلاّ أن هزائمه لا تحاكي هزائمنا.

لقد اجتذب، من وسط الشعب، نخبةً مُغفَلةً، لم تلوّثها العدوى الشائعة: ضمائر نقيّةً، ونفوسًا مستقيمةً، تنبذ الشرّ، وتحيا في رغبة الخير، مستعدّةً للترحيب بالحقيقة، معترفةً بوهنها. هؤلاء هم احتياطيّو الله. إنّهم مبثوثون في كلّ الطبقات، ولكنّهم أكثر انتشارًا لدى الفقراء ممّا هم لدى الأغنياء، ولدى البسطاء أكثر ممّا هم لدى العلماء، ولدى العشّارين، أكثر ممّا هم لدى الفرّيسيّين، ولدى الخطأة أكثر ممّا هم لدى مدّعي البرّ، لدى العامّة أكثر ممّا هم لدى الحكّام.

لقد اكتفى يسوع بهذه القلّة، وبها سينتصر على السلطة، والعلم، والأكثريّة، السلطة التي ستدينه باسم السياسة والمصلحة الوطنيّة؛ والعلم الذي سيدينه باسم الشريعة المقدّسة، والأكثريّة التي ستنبذه باسم وطنيّةٍ زائفةٍ، وما برحت هذه القوى تناوئ يسوع، وتحاربه، في كلّ مكانٍ، وكلّ جيلٍ.

تألّق نجاح رسالة يسوع في مطلعها كان وعدًا بمستقبلٍ أمثل، وعجائبه الأولى أوحت للأوساط الشعبيّة التي كانت تتطلّع إلى مسيحٍ وطنيٍّ منتصر، وإلى انبثاق محرّر إسرائيل، آمالاً متوهّجة. غير أنّ سلسلة الأمثال التي راح يلقّنها، شرعت تبدّد أوهامهم، وإعلانه عن الملكوت الروحيّ أجهز على سحر الآمال التي ولّدها ظهوره. ولكأنّي بيسوع قد دأب على إخماد الحماس الذي أثارته أفعاله الخارقة. فحرص على التواري كي يحول دون التظاهرات الشعبيّة المؤيّدة له؛ ودرج على توصية من يشفيهم من أسقامٍ مزمنةٍ، مستعصيةٍ، بالتزام الصمت. أمّا الذين رغبوا في ترسّم خطاه، فدعاهم إلى التجرّد، وبشّرهم بالاضطهاد، وألزمهم بانتهاج الدرب الوعر. فلا عجب إن أعرض سواد الشعب عن تعاليمه، في حين حاربتها النخبة التي كانت هذه التعاليم تهدّد مصالحها ونفوذها، كالكتبة، والفرّيسيّين، والصدّوقيّين.

أَلِف الإنسان مقاومة التقدّم، ولا سيّما في مضمار الأخلاق والدين. والشعوب هي أشدّ مقاومةً له من الأفراد. وبقدر ما يوغل عملٌ في السموّ والقداسة، تشتدّ مقاومته. ولم تشهد البشريّة، يومًا، عملاً أوفر قدسيّةً وبطولةً من عمل يسوع، ولم يشهد مشروعٌ مقاومةً مثل مشروعه.

ولا ريب أنّ تبنّي فردٍ أو شعبٍ حقيقةً أدبيّةً أو دينيّةً، لا يعتمد، فقط، على وضوح هذه الحقيقة، ولزومها، وسموّها، بل يعتمد على وضع الضمائر. وكان اليهود، لدى اعتلان يسوع، قد تردّوا إلى أسفل دركات الانحطاط سياسيًّا، ودينيًّا، وأخلاقيًّا، ولكنّ هذا الانحطاط كان مقنّعًا بمظاهر خدّاعةٍ.

وقد شمل هذا الانحطاط رئاسة الكهنوت التي أمست وقفًا على أرستقراطيّين فاسدين، لا يؤمنون بالروح ولا بالآخرة، ولا همّ لهم سوى السُّحْت أي جني المال بالحرام، والمتعة، واستغلال تقوى الشعب لتكديس الثروات.

وشمل الانحطاط علماء الشريعة الذين عشيت عيونهم عن تبيّن علامات الأزمنة، وصُمّت آذانهم عن سماع أصوات الأنبياء، وإنذارات الروح. وانحصر تديّنهم في حذلقات تفسيراتهم السخيفة لحرف الشريعة، وأُصيب شعورهم الدينيّ بالخَدَر.

وشمل الانحطاط، أيضًا، الشعب اليهوديّ الذي أصبح فريسة أحكامه المسبّقة، وبات عاجزًا عن استشفاف غده، وغاب عنه معنى مصيره، وأعمته نشوة كبريائه، فرفض الخلاص المقدّم له.

وتدخّل اللّه بقوّةٍ، فجاء المعمدان مجدّدًا عهد الأنبياء، ثمّ جاء ابن اللّه، في جسدٍ بشريٍّ، حاملاً كلّ ما من شأنه أن يوقظ، ويجتذب، وينير، ويغيّر، ويطهّر، ويقدّس. تكلّم كما لم يتكلّم أحدٌ قطّ؛ وسنّ شريعةً جديدةً تكمل القديمة.

امتلك التسامح الذي يقنع، والطيبة التي تجتذب المحبّة؛ وتعاطف مع كلّ عاهةٍ، وألمٍ، وبؤسٍ. وأغدق معجزاته استجابةً لمحبّةٍ لا تنضب؛ غيرته مضطرمةٌ نقيّةٌ. إنّه لا يتغاضى عن أيّة رذيلةٍ، ولكنّه لا يردّ أيّ خاطئٍ تائبٍ.

غير أنّ وجدان الشعب اليهوديّ ظلّ في سباتٍ، ولم يستيقظ لصوت المخلّص إلاّ لكي يقاومه أشرس مقاومةٍ. فقد كان يسوع يملك كلّ ما من شأنه إنارة الوجدان، ولكن كان لديه، أيضًا، كلّ ما يزعزع الأحكام المسبّقة الراسخة، التي تعمي الجموع، وتضلّل ذوي السلطة، ودهاقنة العلم.

كانوا يتوقّعون مسيحًا ممجّدًا متألّقًا، فإذا به فقيرٌ متواضعٌ. كانوا يحلمون بمسيحٍ سياسيٍّ، فإذا به زاهدٌ في كلّ سياسةٍ. كانوا يتطلّعون إلى من يُبهِر بآياتٍ سماويّةٍ كونيّةٍ، فإذا به يؤثر إظهار قدراته من خلال محبّةٍ تمقت التظاهر. أرادوه محرّرًا وطنيًّا، فلم يجد غضاضةً في أداء الجزية لقيصر. كانوا يطمحون في مملكةٍ أرضيّةٍ تُخضِع لسلطانها كلّ ممالك الأرض، فإذا بمطامحه تقتصر على ملكوتٍ روحيٍّ. لقد نشأوا على بغض الأمم وازدرائها، وهو لم يفوّت فرصةً لامتداح إيمان بعض الوثنيّين. هم يؤمنون بخلود الهيكل، وهو يعلن دماره الوشيك. هم يظنّون أنّ مجرّد الانتماء إلى إبراهيم يفتح لهم أبواب الملكوت، وهو يعلن أنّ شروط ولوج الملكوت ولادةٌ جديدةٌ، وتوبةٌ وإيمانٌ، وأنّ بوسع اللّه أن يُنهض من حجارةٍ أبناءً لإبراهيم.

على نقيض من رائدهم النجاح، كان يسوع، منذ مطلع رسالته، عالمًا بالمصير الدامي الذي ستقوده إليه تعاليمه، مدركًا أنّ أهدافه أسمى من تطلّعات شعبه. وكان رفض هذا الشعب لها تمهيدًا لانتشارها في كلّ أقطار المسكونة، ولتسريع تبشير الوثنيّين، وانضمامهم، جماعاتٍ غفيرةً، إلى أُسرة يسوع، تحت لواء الإنجيل والصليب، وضمن وحدة الكنيسة، متحرّرةً من ربقة حرفيّة الشريعة، ومن نزعة اليهود إلى الانعزاليّة والفوقيّة. ولطالما خَبَر الرسول بولس كم كانت اليهوديّة عقبةً كأداء في وجه انتشار الإنجيل، وكم أوسعته، ورفاقه، عنتًا واضطهادًا! ولو كانت أغلبيّة المؤمنين من اليهود لشطرت الكنيسة، وهي في مهدها، إلى شطرَيْن متنافرَيْن،

ولحالت دون وحدة جسد يسوع السرّيّ، تلك الوحدة التي كانت ثمرة موته الفدائيّ.

لم يقدم يسوع إلى عالمنا كي يفتن الجماهير، ويخزي الخصوم. ولم يأت بإعلاناتٍ مدهشةٍ عن العالَم الآخر، بل ظهر في صمت الفجر، وعزلة الصباح، وفي عتمة نزلٍ في عمّاوس، وطيفًا على الشاطئ. حضوره متكتّمٌ، ورسالته متكتّمةٌ، ولكنّها حازمةٌ. وقد أثبتت أنّ الكلمة الأخيرة ليست للقبر، وأنّ السلطات الاستبداديّة لا تنتصر إلاّ ظاهريًّا، وأنّ موت الصدّيق ليس فشلاً، بل هو ثغرةٌ تنجلي عن الإنسانيّة الحقّة، إنسانيّة الله.

إنّ الذين رفضوا الإيمان بيسوع، رفضوا، في الواقع، رسالة الله، وهذا ما أكّده يسوع نفسه: «**من آمن بي فليس بي يؤمن بل بالذي أرسلني. ومن رآني رأى الذي أرسلني. أنا، النُّور، قد جئتُ إلى العالَم لكي لا يُقيم في الظلام كلّ من يؤمن بي. من سَمِعَ أقوالي ولم يحفظها فلستُ أنا من يدينُه لأنّي لم آتِ لأدين العالَم بل لأُخلّص العالم. أجَلْ، إنّ من ينبُذُني ولا يقبلُ أقوالي له ما يدينُه: الكلمة التي قلتها هي تدينُه في اليوم الأخير، لأنّي لم أتكلّم من عند نفسي، بل الآب الذي أرسلني قد أوصاني بما أقولُ وأُعلن. وأنا أعلَمُ أنّ وصيّته حياةٌ أبديّةٌ. فما أقولُ إنّما أقوله كما قاله لي أبي**» (يوحنّا ١٢: ٤٤–٥٠).

العَشَـاءُ الأَخِـير

١ – الفصح الأخير

«وجاء يومُ الفطير الذي فيه يُذبحُ الفصح. فأرسل يسوعُ بطرس ويوحنّا قائلاً: «اذهَبا فأعدّا لنا الفِصح لنأكله». فقالا له: «أين تُريد أن نُعِدّ؟» فقال لهما: «إذا دخلتما المدينة يلقاكُما رجلٌ يحمل جرّةَ ماءٍ، فاتبعاه إلى البيت الذي يدخُلُه، وقولا لربّ البيت: المعلِّمُ يقول لك: أين المنزلُ الذي آكلُ فيه الفصح مع تلاميذي؟ فيُريكما عُلّيّةً كبيرةً مجهّزةً. فأعِدّا هناك» (لوقا ٢٢: ٧ – ١٢).

كان يهوذا إسقريوت هو الذي يُكلَّف، عادةً، بالإعدادات المادّيّة، ولكنّه استُبعِد في هذه النوبة، وكُلِّف بطرس ويوحّنا بإعداد العشاء الفصحيّ الأخير، في مكانٍ كان يسوع وحده يعرفه، لكيلا ينفّذ يهوذا خيانته قبل أن يُدلي الربّ بوصيّته الأخيرة، ويتناول معٍ أحبّائه العشاء الأخير. وقد غلّف المكان بشيءٍ من السرّ لكي يضمن ساعاتٍ هادئةً مع تلاميذه، يطلق لنفسه فيها عنان البوح.

ثقة بطرس ويوحنّا في المعلّم مطلقةٌ، فهما لا يستوضحان، ولا يشكّان، ولا يناقشان، بل يسمعان ويمضيان سعيدين بما أُوليا من اختيارٍ. وقد وجدا كلّ شيءٍ كما وصف المعلّم.

العلامة التي أعطاها يسوع للتلميذين لا تخلو من الغرابة، فجلب الماء من العين هو، عمومًا، من مهمّات النساء. وكلّ الدلائل تشير إلى أنّ البيت الذي احتضن العشاء الأخير هو بيت ذوي الإنجيليّ مرقس، الذي أمسى ملتقى التلاميذ ومخبأهم بعد الصلب. وربّما كان حامل الجرَّة هو مرقس نفسه.

كان الفصح تذكيرًا بخروج اليهود من مصر على عجلٍ، وكان الاحتفال به يمتدّ على سبعة أيّامٍ، ويراعى فيه تناول خبزٍ فطيرٍ. وكان يُفرض على كلّ يهوديٍّ، في

أثناء عشاء الفصح، تناول أربع طاسات نبيذٍ على الأقلّ، ولا بأس إن غبّ أكثر من ذلك.

قُبيل الغروب جاء يسوع من بيت عنيا مع سائر التلاميذ، وانضمّوا إلى بطرس ويوحنّا، في المكان المحدّد، واحتلّ يسوع مكان الشرف، وقد استلقى بطرس خلفه، عن يساره، ويوحنّا، عن يمينه، أمامه، وكان يهوذا مع الاثني عشر. واستهلّ يسوع العشاء بكلمةٍ امتزج فيها الفرح بالحزن العميق، وقال: «**لشدّ ما اشتهيتُ أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألّم. فإنّي أقول لكم إنّي لن آكله من بعدُ إلى أن يتمّ في ملكوت الله**» (لوقا ٢٢: ١٥– ١٦).

ثمّ تناول الكأس الأولى التي تدعى كأس المرارة، وشكر وقال: «**خذوها واقتسموا بينكم، فإنّي أقولُ لكم إنّي لن أشرب بعدَ اليوم، من ثمرة الكرمة، إلى أن يأتي مُلكُ اللّه**».

في هذه الكلمات يسري فرحٌ مشوبٌ بالحزن: فرحٌ لأنّه كان توّاقًا إلى تلك التضحية التي تخلّصنا، وإلى تخليد حضوره المحيي في ما بيننا، من خلال الإفخارستيّا. أمّا الحزن فبسبب دنوّ موعد نأيه، جسديًّا، عن أصدقائه الذين لن يشاركهم المأدبة بعد، إلى أن يتمّ كلّ شيءٍ في ملكوت الله، ولأنّ صورة آلامه وصلبه كانت لا تريم عن ذهنه. وكان يرتعش وهو يجيل في خاطره ما سيُقدم على إعلانه.

لقد دقّت الساعة الحاسمة، وفاض قلب يسوع بكلّ الحبّ الذي حدا به إلى التجسّد. لقد أتى معجزة حبٍّ ستظلّ تفتن القلوب إلى الأبد. كان مقدمًا على تقديم الدليل الدامغ على حبّه اللانهائيّ، ومهّد له بالتواضع أمامهم، كي يدلّ على الامّحاء الذي دفعه إلى التجسّد، والذي سيحمله على جعل ذاته غذاءً للبشر.

استرسل في النجوى، وكانت نجواه تعبيرًا عن فكره، وكان فكره تعبيرًا كاملاً عن حبّه، وحبّه هو التعبير التامّ عن ذاته.

٢ – غسل الأرجل(*)

حتّى في غمرة تلك اللحظات الوقورة، كان التلاميذ ما برحوا يزحفون على حضيض الصغارة، وتحدوهم أفكارٌ ترابيّةٌ. ومرَّةً أُخرى نشب بينهم شجارٌ حول احتلال الأماكن الأثيرة في الملكوت. ربّما سبّبه تنافسهم على تبوّء الأماكن الفضلى على المائدة. واغتمّ يسوع لتبيّنه أنّ كلّ دروس التواضع التي لقّنهم إيّاها على مدى ثلاث سنوات، لم تنفذ إلى أذهانهم وقلوبهم، ولم تؤتِ ثمارها، فقال لهم: «**إنّ مُلوك الأمم يسُودونها، والمتسلّطين عليها يُدعون مُحْسنين. وأمّا أنتم فليس فيكم شيءٌ من هذا. بل فليكُن الأكبر فيكم في مكان الأصغر، والمتقدّم بمنزلة من يخدُم. مَن الأعظمُ: المتّكئ أم الذي يخدُم؟ أليس المتّكئ؟ ومع ذلك فأنا بينكم كالذي يخدُم**» (لوقا ٢٢: ٢٥–٢٧)(**).

وحرص على ترسيخ هذا التعليم بمثلٍ حيّ. فقد كان من المألوف أن يغسل عبدٌ أرجل الضيوف. ولكن، في محيط يسوع، لا وجود لعبد، ولا حاجة إليه، فالمعلّم يضطلع بمهمّته. وها هوذا ينهض، وينزع معطفه ويتّزر بمئزرٍ، ويملأ طستًا ماءً، والتلاميذ يرقبونه دهشين، ثمّ انطلق يجثو أمام كلٍّ منهم، فيغسل رجليه، وينشّفهما بمئزره. ولمّا انتهى إلى سمعان بطرس، جرى بينهما الحوار التالي:

– بطرس: «**أأنت يا ربّ، تغسل قدميّ؟**».

– يسوع: «**إنّ ما أنا فاعله لا تفهمه أنت، الآن، ولكنّك ستفهمه في ما بعد**»، أي عندما سيتولّى بطرس رئاسة كنيسة يسوع. فحينئذٍ سيتعيّن عليه أن يكون خادمًا لكلّ فردٍ من أفراد الرعيّة.

– بطرس: «**لا، لن تغسل قدميّ، أبدًا**».

– يسوع: «**إن لم أغسلك، فلا حظّ لك معي**».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «سرّ الخدمة، أو غسل الأرجل»، صفحة ٤٣٨.

(**) راجع **يسوع في إنجيله**: «من أراد أن يكون فيكم كبيرًا، فليكن لكم خادمًا»، صفحة ٣٨٠.

ولم يستطع بطرس مجرّد تخيّل إقصائه عن صحبة يسوع، وبعد أن غالى في الممانعة غالى في المطالبة، وقال باندفاع:

– بطرس: «**إذن، ربّ، لا قدميّ فقط، بل اليدين والرأس أيضًا**».

– يسوع: «**إنّ من اغتسل لا يحتاج إلى غسلٍ. لأنّه كلّه طاهرٌ. وأنتم أطهارٌ، ولكن لا كلّكم**».

وبقوله الأخير هذا كان يشير إلى خيانة يهوذا الذي كان مزمعًا أن يسلمه.

وكم شقّ على يسوع أن يقارن بين تأجّج قلب بطرس، وقسوة قلب يهوذا الذي ما بدرت عنه نأمةٌ، وظلّ موصدًا كالقبر! لقد ارتضى أن تُغسَل قدماه، ولكنّه أحجم عن غسل نفسه من أوزار الخيانة، رغم إيحاءات يسوع المتكرّرة، ومحاولاته ردعه عن جريمته التي استمرّت حتّى اللحظة الأخيرة.

«**ولمّا غسل أقدامهم وأخذ رداءه وعاد فاتّكأ قال لهم: «أتفهمون ما صنعتُ بكم؟ أنتم تدعونَني المعلّم والربّ، وأنتم على صوابٍ لأنّي كذلك. فإذا كنتُ، أنا الربّ والمعلّم، قد غسَلتُ أقدامكم، كان عليكم، أنتم أيضًا، أن تغسلوا بعضكم أقدام بعض. لقد جعلتُ لكم من نفسي قُدوةً لكي تصنعوا كما صنعتُ بكم. الحقّ الحقّ أقولُ لكم: ليس العبدُ أعظم من سيّده، ولا الرسول أعظم من مُرسله. فإذا علِمْتُم ذلك فطوبى إذا عَمِلتم به.**

«**لستُ أقول هذا فيكم جميعًا. فأنا عارفٌ من اخترتُ. وإنّما هكذا يتمُّ الكتابُ القائل: إنّ الآكل معي خبزي يرفَعُ عليّ عقبه. وأقوله لكم منذ الآن، قبل أن يكون، حتّى إذا كان، تؤمنون أنّي «أنا هو». فالحقّ الحقّ أقول لكم إنّ من قَبِل الذي أُرسلُهُ قَبِلني أنا، ومن قبِلَني قبِل الذي أرسلني». ولمّا قال يسوعُ هذا اضطرب في داخله وقال مُصارحًا: «الحقّ الحقّ أقولُ لكم إنّ واحدًا مِنكم سيُسلمني»** (يوحنّا ١٣: ١٢– ٢١).

لقد ابتغى يسوع، بعمله هذا، أن يلقّن كنيسته درسًا أبديًّا في التواضع.

وقد ارتقى بفعله هذا إلى قمّةٍ فريدةٍ شامخةٍ من العظمة والبطولة، إذ إنّه، وهو ابن الله، كان عالمًا بأنّ أحد الاثني عشر كان مقدمًا على أحقر خيانةٍ، ومع ذلك

غسل قدميه مثلما غسل أقدام سائر التلاميذ، وهو عالمٌ أنّ الخائن سيسلمه بعد سُويعاتٍ.

إنّ يسوع يبتغي أن يقوم كلّ ما يؤسّسه على المحبّة. فالأنانيّة لا ترى ولا تلتمس سوى ذاتها. أمّا المحبّة فلا تبتغي سوى خير الآخرين. الأنانيّة الحاكمة تريد عبيدًا، والمحبّة الحاكمة تجهد في تحريرهم. الأنانيّة تريد أن تُخدَم، والمحبّة تخدُم. الأنانيّة تستغلّ، والمحبّة تبذل. الأنانيّة تحرص على حياتها، وعلى مظاهرها الجوفاء. والمحبّة تهب حياتها. العالم والقوى التي تقوده تهتدي بالأنانيّة. أمّا ملكوت الله، والمؤسّسة التي يخلّد الربّ، من خلالها، وجوده بين البشر، فعليهما أن يهتديا بالمحبّة.

لقد أحدث الربُّ ثورةً في ميدان السلطة. فقد أظهر يسوع الإله، وكأنّه أكثر البشر تواضعًا، كي يثبت أنّ السلطة ليست سيطرةً، بل هي خدمةٌ. وقد أعلن للتلاميذ أنّه «معلّمهم»، وهو جاثٍ عند أقدامهم.

وأيّ نموذجٍ للمحبّة أسطع وأروع من يسوع؟! هذا ما عبّر عنه الإنجيليّ يوحنّا بقوله: «**إذ كان يسوع يعلم أنّ ساعته قد أتت لينتقل من هذا العالم إلى أبيه، وإذ كان قد أحبّ خاصّته الذين في العالم – بلغ به حبُّه لهم حدّه الأقصى**» (يوحنّا ١٣ : ١)، أي حدّ التضحية بحياته وبذاته.

آلامه وموته ستكون تتويجًا لحياته كلّها. سيكون هو الضحيّة الشاملة التي ستفتدي البشريّة الضالّة، وتنقذها من الشرّ، والتي ستجتذب الجميع بالمحبّة الجمّة. بموته سيحقّق يسوع مشيئة أبيه الذي ابتغى خلاص الجميع بابنه. وبدمه سيدمغ حقيقة تعليمه، وأبديّة ملكوته؛ بخضوعه للموت، سيقهره، وسيلج الملكوت مصطحبًا مختاريه. وبذلك يتمجّد ابن الإنسان وابن الله.

* *

جديرٌ بالتنويه أنّ الإنجيليّين الإزائيّين الثلاثة لم يأتوا على ذكر غسل أرجل التلاميذ، واقتصروا على ذكر تأسيس سرّ الإفخارستيّا ولكأنّ عظمته خلّفت في الظلّ كلّ ما سواه. غير أنّ الإنجيليّ يوحنّا كان قد استفاض في التحدُّث عن سرّ الإفخارستيّا، في معرض خطاب يسوع عن «خبز الحياة»، ويوم دوّن إنجيله كانت طقوس الإفخارستيّا مألوفةً، شائعةً، تمارَس، يوميًّا، كلّما اجتمع مسيحيّون معًا. ولذلك لم يجد موجبًا لتفصيل سرّ الإفخارستيّا، ولكنّه، من خلال تأمّله في أحداث

يسوع، كان قد تبيّن عظمة السرّ الآخر، «سرّ الخدمة»، الذي ابتغى يسوع أن يؤسّس عليه كنيسته، وأن يجعل منه مهمّتها، وهدفها، وطابعها المميّز، وقد أنهى به حياته الأرضيّة، ولكأنّه وصيّته الأخيرة.

ما كان أبعد التلاميذ عن معلّمهم! ففي حين كان، هو، يخطو بعزيمةٍ نحو الصليب، كان يحتدم بينهم جدالٌ سخيفٌ حول المناصب! هو كان يحدّق إلى الصليب، ذروة التجرّد والتضحية، وكانوا، هم، يختصمون على المراتب!

لقد أرادهم ملوك خدمةٍ، وأرستقراطيّة تواضعٍ نبيلٍ، حيث الأدنى هو الأعظم. وهو الذي كان يتزعّمهم بلا منازعٍ، لطالما أعلن لهم أنّه لم يأتِ ليُخدَم، بل ليَخدُم. وهو، العائد إلى عرشه السماويّ، لم يتحرَّج من غسل أقدامهم.

هذا الغسل كان موجزًا لتجسّده، فبالتجسّد خلع ثياب مجده، وغلّف ألوهته بطبيعةٍ بشريّةٍ، وغسل نفوس المؤمنين بدمه المنثال على الصليب.

وبعمله هذا لقّن التلاميذ أنّ التواضع هو جادّة البشر صوب الله. ولكنّهم لم يدركوا سرّ حبّ المخلّص الجمّ، وتواضعه السحيق، إلاّ بعد الصلب والقيامة. وحينئذٍ أدركوا، أيضًا، أنّ من يرفض الإيمان بأنّ الحبّ الإلهيّ ينطوي على التضحية، هو بعيدٌ عن الله، وعن ملكوته.

كان لا بدّ من مزج رمز الحبّ برمز الطهر، لكي يعرف الجميع أنّه حيث يقيم الحبّ الحقّ، ثمّة مجمع القدّيسين. لم يكن على يسوع أن يتطهّر، ولكنّه شاء أن يتّضع ويحبّ. وضرب المثل في كلّ شيءٍ، مؤكّدًا أنّ عدوّ الحبّ هو الكبرياء، وأنّ عدوّ كلّ خيرٍ هو رفض الحبّ. التواضع والمحبّة هما الأساس وهما التاج للصرح الروحيّ الذي يتصوّره في كلّ فردٍ وفي الإنسانيّة.

لقد غسل يسوع أقدام الاثني عشر لكي يعدّهم لجوب العالم. فالطهر والتواضع شرطان للحبّ. والحبّ هو روح الرسول. والذين أعدّهم لغزو العالم، هم الذين رسّخ فيهم هذا اليقين، وزوّدهم بهذه القدرة الجبّارة.

هل، ثمّة، من يجرؤ على تخيّل إلهٍ يغسل أرجل خطأة؟ نحن نبحث عنه في السماء، فيما هو عاكفٌ على تطهيرنا. عظمة يسوع تتجلّى في حبّه، وتواضعه، وامّحائه. وإن كان البشر يرون العظمة في السيطرة والسيادة، فعظمة يسوع هي خدمةٌ.

٣ – خيانة يهوذا

استأنف الجميع تناول العشاء، ولكنّهم لم يتبيّنوا فحوى تلميح يسوع إلى أنّهم ليسوا جميعهم أطهارًا. وكان الحزن يعتصر قلب المعلّم، وهو يرى واحدًا من الذين انتقاهم، وأقام معه ثلاث سنوات في علاقةٍ حميمةٍ، يسعى إلى هلاكه. ولفرط حبّه تمنّى أن يردعه، ويعيده إلى صوابه، بإنذارٍ أخيرٍ يفهمه الخائن، في حين تظلّ هويّته خافيةً على الآخرين، مفسحًا له فرصةً للتوبة، والتراجع عن مشروع جريمته. لقد فضح يسوع الخيانة. ولكنّه أغفل اسم الخائن: «**الحقّ، الحقّ أقول لكم إنّ واحدًا منكم سيسلمني**». فاستحوذ الحزن والدهشة على التلاميذ، وإذ لم يكونوا يعرفون عمّن يتكلّم راحوا يحدّقون الواحد إلى وجه الآخر، وطفقوا يسألون الواحد تلو الآخر: «**لعلّي أنا هو؟**»، ويتحرّى كلٌّ ضميره خشية أن يكون وهنه قد خانه، في غفلةٍ منه. وكلٌّ يتمنّى أن يقول له الربّ: «**أجل، أنت هو**»، كي يكذّب الأمر، ويثبت وفاءه، علّه يمسح الغمّ عن قلب المعلّم. واحدٌ فقط لم يطرح على نفسه أيّ تساؤلٍ، لأنّه كان عالمًا بأنّه هو الخائن، وهو الذي كان الربّ يشير إليه.

وخطا يسوع خطوةً أُخرى في الإفصاح، وفي محاولةٍ لحمل يهوذا على الرجوع عن عزمه المجرم، فقال: «**إنّه واحدٌ من الاثني عشر، وهو يغمس يده معي في القصعة**» (مرقس١٤: ٢٠).

قول يسوع: «**وهو يغمس يده معي في القصعة**»، لم يكن إشارةً واضحةً إلى يهوذا الذي لم يكن يمدّ يده إلى القصعة، في تلك اللحظة، بل مجرّد تأكيدٍ بأنّه أحد الذين كانوا يقاسمونه الطعام. وظلّت هويّة الخائن ملتبسةً على سائر التلاميذ. غير أنّ قول يسوع انطوى على استفظاعٍ للخيانة، إذ إنّ الخائن هو واحدٌ ممّن اختارهم المعلّم، وما برح حتّى تلك اللحظة، يأكل معه من قصعةٍ واحدةٍ. وتأكيدًا على تلك الفظاعة، أضاف يسوع: «**إنّ ابن البشر ماضٍ كما هو مكتوبٌ عنه، ولكنّه ويلٌ لذلك الإنسان الذي يُسلّمُ ابن البشر. إنّه كانَ خيرًا لذلك الإنسان لو لم يُولد!**» (مرقس ١٤: ٢٠).

ولكيلا يبدو صمت يهوذا اعترافًا بخيانته، تسلّح بالقحة، وهمس، بدوره: «**لعلّي**

أنا هو، يا ربّ»، فأجابه يسوع بصوتٍ خافتٍ: «**أنت قلت**»، ولكن لم يسمعه أحدٌ من التلاميذ.

قالها يسوع بنبرةٍ حزينةٍ، لأنّه خسر واحدًا من أصدقائه، فيهوذا كان واحدًا ممّن اختارهم. قد لا يكون من الأثيرين على قلبه، ولكن لا ريب أنّه، طيلة السنوات الثلاث، تبادل معه عباراتٍ رقيقةً، وغفر له زلاّتٍ عديدةً.

لم يكن يسوع حزينًا من أجل ذاته، بل من أجل التلميذ الخائن، الذي ما زال يتمنّى إنقاذه، ويحرّض ضميره على الإقرار بجريمته، والتماس الصفح عنها، ملوّحًا بالمصير المريع الذي يعرّض له نفسه. وظلّ يهوذا مغلقًا، جامدًا، وعوضًا عن الإقرار: «**أنا هو، وإنّي لنادمٌ**»، مضى قُدُمًا في الكذب، والتمثيل، والعناد.

ولم يعد بوسع بطرس المضطرم، القلق، المندفع، الذي يهوى معلّمه هوًى جمًّا، أن يطيق صبرًا على مزيدٍ من الريبة التي أثارها إعلان خيانة أحد رفاقه. وربّما خطر له، لو عرف الخائن، أن يردعه، وينقذ المعلّم، فأومأ إلى يوحنّا الذي كان رأسه متّكئًا بحنانٍ على الكتف التي ستلقى عليها في الغداة، خشبة العار، أن يستوضح المعلّم عن هويّة الخائن. وما كان على يوحنّا إلاّ أن يرفع ناظريه، ويحرّك شفتيه تحريكًا طفيفًا، حتّى يفهم قصدَه يسوع، الذي، وقد بلغ نهاية شوط حياته، لم يكن بوسعه أن يخفي شيئًا عمّن كان يسمع تنفّسه للمرّة الأخيرة، فهمس في أذنه: «**هو الذي أُناوله اللقمة التي أغمسها**».

وأخذ يسوع اللقمة التي غمسها، فناولها ليهوذا. في هذه المبادرة دليل إيثارٍ ومحبّةٍ لم يُفلحا في تغيير قلب يهوذا. استمرأ يهوذا اللقمة، ولم تظهر عليه أيّة أمارة اضطرابٍ.

ربّما كان يهوذا، حتّئذٍ، ما برح متردّدًا، متأرجحًا، ونفسه ساحة صراعٍ ممزّقٍ. ولكن بعد مبادرة يسوع، «**دخل الشيطان فيه**»، لكيلا يدع له فسحةً للندم والتراجع.

ولم يُطق يسوع وجود إبليس في نفسٍ خُلقت للحبّ، فقال له: «**ما أنت فاعله، افعله على عجل**». أي إمّا أن تعلن توبتك، أو أن تنفّذ خيانتك بلا تلكّؤ. لم يمنع يسوع الخيانة عنوةً، وكان ذلك بمكنته، فهو كان قد استسلم لمصيره طائعًا.

وبإيجازٍ مأسويٍّ يقول يوحنّا إنّ يهوذا خرج لساعته، «وكان ليلٌ». لقد خرج من

مناخ النور كي يتوغّل في لجّة الظلمات. فالظلمات هي ما يليق بالعمل المخزي والمنفّر الذي مضى الخائن كي ينفّذه. الليل كان يلفّ نفس يهوذا، ويلفّ الكون. عمل الخائن سيكون سريعًا، مريعًا، شرسًا. وغدًا، قبل الغروب، سيُسفك الدم المباع.

* *

وحدهما بطرس ويوحنّا كانا محيطين بما يجري، واستبهم الأمر على سائر التلاميذ الذين لم يتخيّلوا المأساة التي كانت تُحبك في تلك اللحظات القاتمة. وظنّوا أنّ يسوع كلّف يهوذا بابتياع بعض مستلزمات العيد، أو بمنح إحساناتٍ للفقراء.

على أيّة حالٍ، بخروج الخائن انزاح عن صدر يسوع حجرٌ كان يبهظه، وساد السكونُ نفسه، فأطلق لقلبه عنان البوح. فهؤلاء الأحد عشر هو اختارهم، وهم أخلصوا لـه. لقد أنشأهم على حياة اللّه، على حياته، وغذّاهم بتعليمه وحبّه، ونفث فيهم نفسه وروحه. وها قد آن موعد فراقه عنهم. ولم يبقَ له سوى سُوَيعاتٍ ينفقها برفقتهم.

كان يسوع يرى الموت يحوم حوله، ودمه الذي سيتدفّق بعد ساعاتٍ. ومع ذلك لم يكن يشغل باله سوى منح المؤمنين به منبع حياةٍ أبديّةٍ.

٤ – تأسيس سرّ الإفخارستيّا(*)

في ساعة الفراق تتأجَّج المحبّة. ولطالما سمّى يسوع تلاميذه: «**يا إخوتي**»، «**يا نعاجي**»، أو «**يا أصدقائي**». ولكنّه، في ليلة الفراق تلك، دعاهم: «**يا أولادي الصغار**»، معبّرًا عن أعمق محبّةٍ. من مناداته أولئك الكهول القساة «**يا أولادي الصغار**»، يمكننا سبر نيران الحبّ المستعرة في قلبه، ولكأنّ دفقة دمٍ تفجّرت، بغتةً، من ذلك القلب الذي ستطعنه حربةٌ.

ولكي يعبّر عن حبّه لهم الذي «بلغ حدّه الأقصى»، ولكي يخلّده، ويُبقيه، إلى الأبد، في متناولهم، رسم، في تلك اللحظات الأبديّة، سرّ الإفخارستيّا، معجزة الحبّ الكبرى.

مبدئيًّا كان يسوع يتناول الفصح الأخير مع تلاميذه، ولكنّه خالف كلّ طقوس العشاء الفصحيّ التي درجت عليها أجيال اليهود. خالف توقيته فتناوله قبل موعده؛ وخالف طقوسه وأضفى عليه معنًى جديدًا، فبعد أن كان يمثّل ذكرى هروب اليهود من مصر، جعل منه يسوع بشرى خلاص الأنام أجمعين، خلاصٍ يحقّقه ببذل حياته، وبدمه. في تلك اللحظات الخالدات كان يؤسّس فصحًا جديدًا، قائمًا على آلامه، وصلبه، وقيامته. فعندما أشرف العشاء على نهايته، استعاض عن الكأس الرابعة برغيف خبز تناوله، ورفع ناظريه إلى السماء، وبارك، مثيرًا دهشة التلاميذ، إذ إنّ عبارة التبريك كانت تُلفظ في مطلع العشاء الفصحيّ اليهوديّ، لا في نهايته، ثمّ قسم الرغيف إلى قطعٍ بعدد ندماه، ووزّعها عليهم، قائلاً: «**خذوا، فكلوا، هذا هو جسدي المبذول عنكم**». ثمّ تناول كأسًا من النبيذ الممزوج بالماء، فباركها، ورشف منها، وقدّمها للتلاميذ قائلاً: «**اشربوا منها كلّكم. هذا هو دمي، دم العهد الجديد، المهراق عن كثيرين لمغفرة الخطايا**». وبعد أن شربوا جميعهم، قال لهم: «**اصنعوا هذا لذكري**»، ذكرى موته وقيامته.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «خذوا فكلوا، هذا هو جسدي، واشربوا فهذا هو دمي»، صفحة ٤٤٢، و«أقوال في الإفخارستيّا»، صفحة ٤٤٦.

بهذه العبارات الإلهيّة البساطة، أسّس الفادي سرّ الحبّ الأعظم، الذي طالما أعدّ يسوعُ تلاميذه لـه، ووعدهم بمنحه جسده طعامًا، ودمه شرابًا، فهما شرط الحياة وقوامها. وها هم يشهدون تحقيق وعده، ويؤمنون، بكلّ وترٍ في نفوسهم، بصدقه، وقدرته، وحبّه.

في تلك الليلة عينها التي أُسلم فيها، وفيما كان يرى يد الغدر تمتدّ إليه، احتفل بمأدبة الحبّ والمصالحة، وأسّس السرّ الذي أودعه أكثف حضورٍ خالدٍ له على الأرض. فمن يأكل جسده، ويشرب دمه، يشترك بحياته الخاصّة، ويلج صميم حياته.

بهذا السرّ ضرب يسوع أروع مثالٍ لحبٍّ بلا حدودٍ، ولبذل الذات بلا هوادةٍ.

«**كلوا جسدي واشربوا دمي**»: كلماتٌ يستعصي على الفهم البشريّ استيعابها، مع أنّ في الطبيعة ما يقرّب هذا السرّ من عقولنا: فالأمّ تغذّي جنينها بدمها وعصار جسدها، وتغذّي وليدها بلبنها. ولكنّ التلاميذ أخذوها بحرفيّتها، بإيمانٍ بسيطٍ، ممتلئٍ، موقنين أنّ قُدرات المعلّم بلا حدودٍ، وأنّه، هو، الحقيقة المتجسّدة. فتناولوا جسده ودمه تحت أعراض الخبز والخمر. هذا السرّ الذي كان يسوع قد ألمح إليه بإسهابٍ في الجليل، قبل سنةٍ، قد حقّقه، بضع ساعاتٍ قبل موته.

في هذه اللحظة الفريدة، حقّق يسوع كلّ رسالته، دفعةً واحدةً، وكان، في الآن عينه، الكاهن المضحّي، والضحيّة.

في الفصح يحتفل اليهود بذكرى هربهم من مصر، وعبورهم البحر الأحمر. ويسوع ابتغى الاحتفال بعبوره من الأرض إلى أبيه. ولا عجب إن هو احتفل به وفق طقسه الخاصّ، المغاير للطقس اليهوديّ، مضفيًا عليه معنًى جديدًا مدهشًا: «**خذوا هذا هو جسدي، وهذا هو دمي، دم المعاهدة الجديدة، الذي يسكب عن كثيرين**».

كم من الرموز المتراكمة! خبز الحياة اليوميّة، مقابل منّ موسى. الخبز الذي يُكسَر، ويُقتسَم، ويغذّي، ويوحّد. خمرة العرس، دم الضحيّة، دمٌ مسفوكٌ، دم من يموت طوعًا عن الآخرين، الدم الذي تقطن فيه الحياة. يسوع يضع ذاته كاملةً في تقدمته. وبتناولهم إيّاه يشترك المؤمنون في مبادرته. لقد انتفت الحاجة إلى الأضاحي الدمويّة.

وحَسْبُ القليل من الخبز والخمر، كي يتّحد الإخوة بما كانت حياة يسوع، وبما كان موته. وإلى الأبد: «**افعلوا هذا لذكري**».

الفصح الأخير الذي اقتسمه يسوع مع تلاميذه لم يكن استذكارًا لفصح اليهود، بل تطلّعًا إلى فصح الملكوت الآتي.

الإفخارستيّا التي أُسِّست عشيّة الصلب، اكتملت بالصليب. فالجسد المبذول في الإفخارستيّا، مثلما بُذل على الصليب، يوفّر الحياة للعالم. وهذا الدم المراق سرّيًّا من أجلنا على الهيكل، مثلما سُفِك على الجلجلة، يغسل الخطايا، ويوثّق عهدًا جديدًا. هنا وهناك الضحيّة عينها، والتضحية ذاتها، مقدّمتان بأسلوبَيْن مختلفَيْن.

ذلك هو مصير ابن البشر، وتلك هي الكلمة الأخيرة لتجسّد ابن الله الأبديّ. فالأُقنوم الثاني من الثالوث لم يتجسّد إلاّ لكي يُقدّم نفسه، حبًّا بالبشر، وحتّى أقصى تخوم الحبّ. ولكنّه، في ما يتخطّى الموت، خلّد وجوده، في ما بيننا.

بإعلان نفسه ضحيّةً، أسّس يسوع طقس الذبيحة الحقّ، الأبديّ، ملغيًا كلّ الطقوس الأُخرى، الجوفاء، الزائفة. فاللّه قد سئم دماء الثيران والتيوس التي لا قدرة لها على تطهير الضمائر، وإرضاء العدل الإلهيّ. بعد يسوع ليس سوى ضحيّة ابن الإنسان، الذي يموت عن خطايا العالم. في الغد ستتحقّق التضحية الدمويّة، ولكنّ يسوع، منذ عشائه الأخير مع تلاميذه، أسّس سرّها، كي تستمرّ، حتّى نهاية الدهور، من خلال المأدبة الإفخارستيّة. فالضحيّة لن تفنى، والتضحية ستكون أبديّةً.

وبقوله لرسله: «**اصنعوا هذا لذكري**»، أسّس يسوع الكهنوت، الكفيل بتكرار تضحيته، وتخليد سرّها العظيم. وبه سيظلّ يسوع غذاء العالم، وشرابه، وحياته. بتناوله الضحيّة، يتطهّر الإنسان، وينتصر على الشرّ، ويتعلّم حبّ اللّه، وحبّ إخوته. فمأدبة الإفخارستيّا هي مأدبة المحبّة، وبفضلها لن تنطفئ، أبدًا، النار التي أضرمها يسوع في عالَمٍ مقرورٍ بالأنانيّة، بل ستزداد استعارًا وانتشارًا، وستكرّ القرون مطيحةً بكلّ شيءٍ، ولكنّها ستعجز عن محو ذكرى ذاك الذي أحبّ البشر حتّى مات من أجلهم، ومنحهم، بموته، الحياة التي تفيض منه.

الطقس الذي ابتدعه يسوع في ذاك المساء لن يكون حكرًا على شعبٍ واحدٍ، بل سيُحتفل به في جميع الأماكن، وجميع الأزمنة، ولدى جميع الشعوب، حتّى نهاية

العالم، حيث مليارات القداديس تخلّد، وتجدّد، وتنشر عمل يسوع وتقدمته الإفخارستيّة، تنفيذًا لوصيّته. التضحية بإلهٍ متجسّدٍ ستكون التضحية الأخيرة، وستحوّل القتل إلى ذبيحة تسبيحٍ، والجريمة إلى تقدمةٍ كلّيّةٍ.

فيما كان السنهدرين، بقيادة قيافا، يحيك مكيدة قتل يسوع، كان الربّ، على بعد خطواتٍ منه، يرسّخ وسيلة خلوده، ويُعدّ ضحيّته التي سيخلّد العالم ذكراها، جاعلاً منها أداة إسهام كلّ مؤمنٍ بها، في كلّ زمانٍ.

كان على الخبز الحقّ أن يُعجَن بالدم، ويُكسَر بمبادرة حبٍّ وتضحيةٍ، ويوزّع على مائدة وليمةٍ، تلتئم، حولها، البشريّة جمعاء.

وبات بوسع يسوع أن يستسلم للحقد القاتل، إذ غدا الموت والبغض عاجزيْن عن النيل منه. وحتّى، في غيابه سيظلّ حيًّا، لا مجرّد ذكرى في نفوس أتباعه، بل حقيقةً خفيّةً، ماثلةً تحت أنظارهم، وبين ظهرانيهم. ولن تكون عبادته طقسًا باطلاً أجوف، بل عبادةً بالروح والحقّ.

لم يقل يسوع: «**هذا الخبز يمثّل جسدي، أو هذا الخبز يرمز إلى جسدي**»، بل قال: «**هذا هو جسدي**»، الجسد عينه الذي ستسحقه الآلام، والذي سيُمدَّد على الصليب.

الخبز مكوّن من عددٍ وفيرٍ من حبّات الحنطة، والخمر مستخرجٌ من حبّاتٍ كثيرةٍ من العنب. وهكذا جميع المؤمنين هم واحدٌ في المسيح. حبّات القمح لا تصبح خبزًا إلاّ بعد أن تسحقها الرحى، وتنضجها النار المطهّرة. وحبّات العنب تعاني احتضار المعصرة، وتُستخرج روحها منها، وتخضع لجهد التخمير، قبل أن تصبح نبيذًا. وهكذا تغدو رمزًا لآلام يسوع المؤدّية إلى الخلاص. ثمّ إنّ الخبز والخمر هما المادّتان الأكثر شيوعًا، عبر التاريخ، والأكثر استخدامًا في إطعام البشر. وبرفعهما على الهيكل، كأنّما يرفع البشر أنفسهم عليه. عندما تُستهلك هاتان المادّتان، تتحوّلان إلى جزءٍ من جسد الإنسان ودمه، ولكن عندما يتناولهما يسوع يحوّلهما إلى ذاته.

لقد كسر يسوع الخبز إشارةً إلى حطم جسده البشريّ، ودلالةً على أنّه ارتضى، طوعًا، أن يصبح ضحيّةً. لقد كسر جسده، تقدمةً طوعيّةً، قبل أن يحطّمه جلاّدوه، في وحشيّةٍ إراديّةٍ.

كَسَر الخبز ووزّعه على تلاميذه، وارتشف من الكأس التي طافت عليهم جميعًا.

وبفضل هذه المشاركة أصبحوا معه واحدًا، لكي يُقدِّموا معه، وفيه، وبه. وعندما يتناول المسيحيّون جسده، ويشربون دمه، في الإفخارستيّا، فهم لا يأكلون ويشربون جسده المادّيّ، بل جسده الممجّد، الذي يسكب على متناوليه مفاعيل تضحيته الخلاصيّة.

عشيّة موته وهب يسوع تلاميذه ما لا يقوى محتضرٌ على منحه، إذ وهبهم ذاته. إنّ موت يسوع يختلف عن موت أيّ إنسانٍ، لأنّه مرتبطٌ بقيامته، وبدء حياةٍ جديدةٍ أبديّةٍ. موت أيّ إنسانٍ، مهما عظم شأنه، حدثٌ طارئٌ، لمرَّةٍ واحدةٍ. أمّا موت يسوع وقيامته، فهما، بفضل الإفخارستيّا، حدَثٌ مستمرٌّ يتكرّر ويتجدّد، في كلّ لحظةٍ، من أجل حياة المؤمنين. أحداث العظماء تُدوّن، ويطالعها الخلف، بين حينٍ وحينٍ. أمّا صلب يسوع وقيامته، فقد أرادهما فعلاً مستمرًّا حيًّا، يسهم فيه البشر، ويستمدّون منه الحياة والخلاص، عبر العصور. لقد ابتغى الربّ أن يموت البشر عن طبيعتهم الدنيا، كي يحيوا بنعمته، وألاّ يهتمّوا بالمظاهر، بل بالجوهر، الذي يتجدّد ويتألّق بيسوع، بحيث يرى فيهم الآب ابنه، ويعدّ تضحياتهم متّحدةً بتضحيته، فيستأهلون، أخيرًا، الإسهام في مجده.

وهكذا، بفيض عطائه، تخطّى يسوع أكثر مطامع الناس جنونًا في الاتّحاد بالله، وبأسلوبٍ روحيٍّ يتسامى فوق الطقوس الوحشيّة. غير أنّ مفعول هذا السرّ لا يبلغ غايته إلاّ إذا حقّق الحبُّ الوحدة بين روح المتناول، وروح يسوع.

بهذا السرّ العظيم، ردم يسوع الفراغ الذي سيخلّفه غيابه، وفجّر، للمستقبل، ينابيع عزاءٍ. لم يدعنا يتامى، بل خلّد، في ما بيننا، عبوره الخلاصيّ بعالمنا، وبنى مقامًا دائمًا حيث، بفضل وليمةٍ تذكاريّةٍ بسيطةٍ، تغدو حقيقة هبة الله كنزًا للنفوس.

ترك لنا غذاءً سماويًّا قوامه ذاته، وذبيحةً دائمةً، ذبيحة ذاته التي تنسكب نتائجها الخلاصيّة علينا. غذاؤه أعظم وأثمن من المنّ، ومن الخبز والسمك اللّذين كثّرهما ليُشبع بهما جوع جموعٍ غفيرةٍ، ومن الماء الذي حوّله خمرًا في عرس قانا. فالخبز الحقّ كان يجب أن يُعجن بدمه، ويُكسر بمبادرة حبّه وتضحيته، ويوزّع في وليمةٍ تلتئم حولها البشريّة جمعاء، تستبق الجلجلة، ومثلها تنتصب للأبد.

ولأسلوب يسوع في كسر الخبز سمةٌ مميَّزةٌ. من رأى أُمًّا تكسر الخبز وتطعم به

أبناءها لا يدهشه ذلك. ولكن يبقى أن نتصوّر ما تضيفه الجلالةُ الإلهيّة إلى حنان الأمّ.

ولا بدعَ إن بات التلاميذ يتعرّفون الربّ من طريقة كسره الخبز، فهو وحده يهب الخبز المغذّي المنعش، خبز العذوبة والأمل، الذي يورّث الحياة الأبديّة. ومنذ ذلك العشاء المقدّس، باتت يد يسوع تمتدّ إلينا جميعًا كي نتعرّفه. وما انفكّ خبزه يتكاثر وفقًا لعددنا، واحتياجاتنا، ورغباتنا؛ وكأسه الفريدة، تدمغ بطابعها وحدتنا، تجوب العالم، وتواكب الأزمان، مثلما هي دارت في العلّيّة، حول المائدة. إنّ مغذّي البشريّة قد أعدّ، حقًّا، في تلك الليلة، غذاء الأجيال.

يُجمع المسيحيّون على الاعتراف بأنّ يسوع أعطى البشر، في مأدبته الفصحيّة، جسده مأكلاً، ودمه مشربًا، أي ألوهته مع «ثمرة جهد البشر»، من أجل خلاص العالم.

وفي أثناء تأسيس هذا السرّ، كان موت يسوع الذي سيتحقّق، فعلاً، بعد سُويْعاتٍ على الجلجلة، يتمّ في الإفخارستيّا. ولئن كانت المأدبة، عادةً، تلي الضحيّة، فهي هنا تسبقها.

وبموته الذي جرى في يوم ذكرى العهد القديم، ختم يسوع، بدمه، العهد الجديد، مستبدلاً به عهد الله مع موسى.

أقوالُ يسُوعَ الأخيرَة

بعد أن أسّس سرّ الحبّ، فتح يسوع قلبه لتلاميذه كما لم يفعل، قطّ، من قبل. لقد شرع يتكلّم عن موته الذي سيكون انتصارًا لأنّه سيحقّق به ما لم يحقّقه بتعاليمه، ومعجزاته، وأشفيته. طيلة حياته حاول إظهار حبّه الجمّ للبشر. ولكن، فقط عندما سيتحطّم جسده تحطّم قمقم الطيب، سيغمر شذا حبّه الوجود، ومن صليبه ستشعّ رحمة الله وصفحه.

خطابه لتلاميذه يقطر عاطفةً، ولكنّه هادئٌ، رزينٌ، يفيض، تارةً، فرحًا، ويعبّر، تارةً أخرى، عن غمّ الفراق، ويعود أخيرًا ليسكب العزاء على قلوب التلاميذ. خطابه تفجّر من بركان حبّه، وكانت حممه الحارقة تتقدّم تارةً بتؤدةٍ، وتارةً تجري سريعةً، وأحيانًا تعود إلى الوراء، غامرةً التلال والوديان، مطيحةً بكلّ شيءٍ، محوّلةً كلّ ما تغشاه إلى بحيرةٍ من نارٍ. حبٌّ للآب السماويّ، الذي سيعود إليه بعد ساعاتٍ معدوداتٍ، وحبٌّ للتلاميذ الذين سينأى عنهم، بعد ساعاتٍ معدواداتٍ.

هذه الأحاديث، مع سموّها، ليست مجرّدةً من الواقع البشريّ والزائل. لا بل هي، في بعض المواضع، تواكب هذا الواقع خطوةً خطوةً، بغيةَ تحويله إلى واقعٍ يسمو فوق الطبيعة، وفوق الأرض.

خطابٌ فذٌّ يملأ ثلاثة فصولٍ من إنجيل يوحنّا: (١٣: ٣١ حتّى ١٦: ٣٣).

صفحاتٌ يسودها مزيجٌ مدهشٌ من سموٍّ إلهيٍّ، وبساطةٍ عذبةٍ. معظم التفاصيل يسهل فهمها بلا مشقّةٍ، أو أقلّه، يُخيّل للقارئ فهمها منذ المطالعة الأولى. ولكنّه عندما يحاول التوغّل فيها، يكتشف مصدرها الإلهيّ، ويتبيّن أنّ الله وحده يمكنه التكلّم على هذا النحو... إنّها تزخر بالثروات اللاهوتيّة، ولا سيّما بالبراهين على ألوهة يسوع. ولا بدّ من مطالعتها برويّةٍ وتمعّنٍ، لتذوّق كلّ لفظةٍ فيها.

خطاب وداعٍ، أو وصيّة المخلّص. تحت هذين العنوانين تنضوي كلّ الخواطر

الأُخرى. بعد سوَيْعاتٍ، سيلقى يسوع حتفه. وقبل مبارحته تلاميذه يوجّه لهم كلماته الأخيرة، بشكل تعزياتٍ، وإنذاراتٍ، وتوصياتٍ. وخلال اللحظات الحميمة الخاطفة، التي لن تتكرّر في ظروفٍ مماثلةٍ، تتراصّ المشاعر في قلبه، فيفيضها بعذوبةٍ فائقةٍ على أحبابه، وأبنائه، مثلما يفعل أبٌ يحتضر...

الفراق وشيكٌ، وهو محور الخطاب. وعليه تنبت خواطر أُخرى. من الطبيعيّ أن تغشى الخطابَ مسحةُ حزنٍ. ولكنّ رجاء اللقاء، بل يقينه، وثقة يسوع التي لا تتزعزع في النصر النهائيّ، تُشيع في كلّ جملةٍ شعاع شمسٍ. في اللهجة وقارٌ، وتأثّرٌ، ورقّة مودّةٍ. على مدى خطابه يتكلّم يسوع، وكأنّ آلامه واقعٌ ماثلٌ، وكأنّ تلاميذه الحاليّين والمستقبليّين قد نعموا بعواقبها الخلاصيّة. وما إن يتفوّه بكلمة الفراق حتّى يسارع إلى تعزية التلاميذ، مظهرًا لهم النتائج الخيّرة له ولهم، التي ستنجم عنه. ويحضّهم على البقاء متّحدين به، وفي ما بينهم، بملاط محبّةٍ لا تعرف التخاذل. وأخيرًا يطلعهم على ما ينتظرهم في المستقبل، موازنًا التنبُّؤات الوجيعة بوعود النجاح والسعادة.

وإن كان الإيمان هو محور الفصل ١٤، فالحبّ هو محور الفصل ١٥، والرجاء محور الفصل ١٦ من إنجيل يوحنّا.

استسلم يسوع، أوّلاً، لنشوة فرحٍ فقال: «**الآن تمجّد ابنُ البشر وتمجّد الله فيه. وإذ كان الله قد تمجّد فيه فإنّ الله سيُمجّده في ذاته، وبعد قليلٍ يُمَجّده**» (يوحنّا ١٣ : ٣١ -٣٢).

الوَصِـيَّةُ الجَـديدَة (*)

كانت آلامه قد بدأت، بعد أن مضى يهوذا ليسلمه. ولكنّ ذلك سيؤول إلى مجده، لأنّه أدّى عمل الطاعة والمحبّة، وإلى مجد الآب الذي يعزو يسوع كلّ شيءٍ له. وسيفجّر الآب هذا المجد على ابنه بإقامته وتمجيده. ولكنّ ذلك لن يتحقّق حتّى ينأى المعلّم عن تلاميذه. ورقّ قلب يسوع لهذه الفكرة، فدعاهم، للمرَّة الأخيرة، «**يا أولادي الصغار**»، وزوّدهم بوصيّته الأخيرة: وصيّة الحبّ التي تلت سرّ الحبّ. «**يا أولادي الصغار، أنا معكم زَمَنًا يسيرًا، وستطلُبونني. وكما قلتُ لليهود إنّكم حيثُ أمضي لا تستطيعون أن تأتوا، أقولُه الآن لكم أيضًا. إنّي أُعطيكم وصيّةً جديدةً: أحِبّوا بعضُكم بعضًا. ولكن كما أحببتُكم أنا تُحبّون أنتم أيضًا بعضُكم بعضًا. فإذا أحبَبتم بعضُكم بعضًا عَرَف الجميع أنّكم تلاميذي**» (يوحنّا ١٣: ٣٣- ٣٥).

مع كلّ ما لاقاه من بغضٍ وحقدٍ، ونكران جميلٍ، وخيبات أملٍ، جعل يسوع من الحبّ المتبادل دليل الانتماء إليه، والعلامة المميّزة لتلاميذه، العلامة التي لم تخطر ببال أيّةٍ من الحضارات، لأنّ المحبّة لم تكن قد «اختُرعت»، بعدُ.

هذه المحبّة المتبادلة بين تلاميذ يسوع ستفيض على الجميع، اقتداءً بمحبّة المعلّم الذي بذل دمه لخلاص العالم. وهذه الوصيّة ستكون أحد أُسس العهد الجديد الذي سيوثّقه يسوع بدمه.

وصيّةٌ جديدةٌ بحبٍّ جديدٍ، ليس كالمحبّة الفطريّة الكامنة في قلوب البشر، بل حبٌّ من منشإٍ آخر، له غايةٌ أخرى، وقانونٌ آخر، مصدره روح الله الحيّ، الذي يدفعنا إلى أن نرى في كلّ كائنٍ بشريٍّ، بلا تمييزٍ قائمٍ على الجنس أو الدين، أو الثقافة، أو الوضع الاجتماعيّ - كائنًا عاقلاً، حرًّا، مؤهّلاً ليكون ابن الله بالتبنّي. وغاية

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الوصيّة الجديدة: حبّ على مثال حبّ الله»، صفحة **٤٥٢**، و«كما أنا أحببتكم»، صفحة **٥٣٤**.

هذا الحبّ هي دفع كلّ إنسانٍ نحو الله، الخير الأسمى اللامحدود، وشريعته التضحية بالذات، تضحيةً مجرّدةً من كلّ غايةٍ، تضحيةً مطلقةً، لا تحجم عن الألم والموت.

أتباع يسوع لا ينتمون إلى أُسرةٍ بشريّةٍ واحدةٍ، ولا إلى قبيلةٍ دينيّةٍ واحدةٍ، بل هم جسد يسوع السرّيّ الواحد. وقد دعاهم إلى حبٍّ يحاكي حبّه، حبٌّ من السموّ بحيث يتعيّن السعي إليه أبدًا، حبٌّ متبادلٍ بين مؤمنين متأهّبين للموت بعضهم عن بعض، كان موضع دهشة الوثنيّين.

ما فعله يسوع لنا يطلُب منّا أن نفعله للجميع. هذا الحبّ هو الفتح الأكبر، الذي لم يتخيّله أحدٌ من قبل. إنّه علامة المخلّص الفريدة، التي ستميّز تلاميذه. حبٌّ لا يحدّه أيّ اعتبارٍ، فيسوع قد أحبّنا عندما لم نكن جديرين بحبّه، قابعين في الظلمات، وظلال الموت.

علّم يسوع هذا الحبّ سُوَيعاتٍ قبل موته الطوعيّ، اقتداءً للبشر، ومن ثمّ كان لتعليمه وقعٌ لا يُجارى، وأثرٌ لا يُقاوَم.

كان الإنجيليّ يوحنّا عندما طعن في السنّ، وبات مسجًّى على فراش الشيخوخة والعجز، لا يني يردّد: «أحبّوا بعضكم بعضًا». وعندما كان يسأل عن سبب اقتصاره على ترداد هذا القول، كان يجيب: «هذه هي وصيّة الربّ، وهي تكفي».

تَـنَبُّؤُ يَسُوعَ بِتَشَتُّتِ الرُّسُل، وَإِنْكَارُ بُطْـرُس

كان يسوع يعلم أنّ أوجع الضربات ستأتيه من أصدقائه قبل أعدائه، وكانت خيانة يهوذا هي الطعنة الأولى في قلبه، وستليها طعناتٌ: تشتّت التلاميذ فور القبض على المعلّم، مثلما يتشتّت القطيع عندما يُضرب الراعي، وإنكار بطرس.

وكان الربّ قد أَنذَر بطرس بقوله: «**سمعان، سمعان، هوذا الشيطان قد طلبكم ليُغربلكم كالحنطة. ولكنّي صلّيت لأجلك لكي لا يزول إيمانُك. وأنت متى رَجعْت ثبّت إخوتك**». **فقال له بطرس: «إنّي، معك، لمستعدٌّ أن أمضي حتّى إلى السجن، حتّى إلى الموت». فقال: «إنّي أقول لك، يا بطرُس، إنّه لا يصيحُ الديكُ اليوم حتّى تنكِرَ ثلاث مرّاتٍ أنّك تعرِفُني»** (لوقا ٢٢: ٣١ – ٣٤).

وكان قلب بطرس قد انقبض عندما أعلن يسوع: «**إنّكم حيث أمضي لا تستطيعون أن تأتوا**» **فقال: «إلى أين أنت ماضٍ، يا ربّ؟» أجاب يسوع: «إلى حيث أمضي لا تستطيع الآن أن تتبعني. ولكنّك ستَتبعني في ما بعد». فقال له بطرس: «لماذا لا أستطيعُ أن أتبعك في الحال؟ إنّي أفديك بحياتي!» أجاب يسوع: «أنتَ، تفديني بحياتك! الحقّ الحقّ أقول لك إنّه لا يصيح ديكٌ إلاّ وقد أنكرتني ثلاث مرّات»** (يوحنّا ١٣: ٣٦– ٣٨).

صُعق بطرس، فالذين يحبّون في مثل اندفاعه، يعتدّون بقدراتهم على الوفاء، ويتحدّون الألم والموت. اعتدادهم أجوف، ولكن يشفع به صدقه، لأنّه نابعٌ من القلب، لا من العقل والإرادة.

إنذار يسوع كان كفيلاً بأن يجعل بطرس أكثر حذرًا، وبأن يهزّ كيانه منذ صيحة الديك الأولى. وفي أثناء تبشيره، عبر العالم، كان بطرس يردّد على مسامع الحضور تحذير يسوع له، وإنكاره هو لمعلّمه، فتنهمر دموعه غزيرةً، حرًّى. ويُقال إنّها حفرت على خدّيه ثلمَيْن واضحَيْن.

كان يسوع عليمًا بوهن بطرس، وتردّده، وكان يشهد مسبَّقًا إنكاره له. غير أنّ قوله له: «**ولكنّي صلّيتُ لأجلك لكي لا يزول إيمانك، وأنت متى رجعت ثبّت إخوتك**»، هو اعترافٌ بأنّ إنكار بطرس لن يكون إلاّ كبوة وهنٍ، لن يهتزّ بها إيمانه بالربّ، وأنّ المهمّة التي كلّفه بها ما زالت موكلةً إليه. كان قد أطلق عليه اسم «صخر»، وكان يعلم أنّه، بعد زلّته، وندمه، ونهوضه، وبعد أن يشدّده الروح القدس، سيتبعه حتّى الموت، وشهادة الدم.

سائر التلاميذ، أيضًا، أكّدوا وفاءهم، ولم يشأ الربّ أن يحزنهم، ويُكذّب ادّعاءهم، ولكنّه حذّرهم من تغيّر الأوضاع، فعندما أرسلهم للتبشير وجدوا الترحيب أينما ذهبوا، ولكنّهم، بعد الآن، سيُواجَهون بالبغض، والمقاومة، وربّما بالاضطهاد. ولكن فليثقوا بأنّ لا شيء يضيمهم، مثلما لم ينقصهم شيءٌ، عندما راحوا يبشّرون. غدت الساعة ساعة تأهّبٍ للنضال، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «**أمّا الآن فمن كان له كيسٌ فليأخذه، وكذلك من له مزودٌ. ومن ليس له سيفٌ فليبع رداءه ويشترِ سيفًا. فإنّي أقولُ لكم إنّه لا بدّ من أن تتمّ فيّ هذه الكتابة: وأُحصي مع المجرمين. وها إنّ ما يختصُّ بي قد بلغَ أجله**». **فقالوا له**: «**ها إنّ هنا سيفَيْن، يا ربّ**»، **فقال لهم**: «**يكفي!**» (لوقا ٢٢: ٢٦– ٣٨).

جوابهم أثبت أنّهم لم يدركوا مقصد يسوع، ودعوته لهم إلى التيقّظ، فأجاب بضيقٍ ومرارةٍ: «كفى»: كفى قلّة فهمٍ! فرسول اللاعنف لا يدعوهم إلى سيف القتل، بل إلى سيف الإيمان الصارم.

لقد أنذر يسوع تلاميذه بأنّ غيابه عنهم سيكون عليهم قاسيًا، وسيعرّضهم للصراعات، والمِحَن، وللسقوط مؤقّتًا. فقد انصرمت الأيّام الآمنة التي يغمرها حضور المعلّم بالطمأنينة، حتّى وسط الفقر والحرمان. وها هو الآن يدعوهم إلى التمرُّس بقوّة الشكيمة، لمواجهة معارك قاسيةٍ، لأنّ ما يختصّ به قد بلغ أجله، «**وقد أُحصي مع المجرمين**».

ثمّ ما لبث أن عاد يحاول إعادة إشاعة الطمأنينة في قلوبهم، بقوله: «**لا تضطرب قلوبكم. إنّكم تؤمنون بالله، فآمنوا بي، أيضًا**».

فالمرء يؤمن في من هو صالحٌ وقويٌّ، ومن هو قادرٌ على قهر المصاعب، والآلام، والأوهان. ومن امتلك هذا الإيمان، لا تهتزّ ثقته، ولا يتخلّى عن سكونه.

وفسّر لهم سبب رحيله عنهم: «**إنّ في بيت أبي منازل كثيرةً، وإلاّ فهل كنتُ قلتُ لكم إنّي مُنطلقٌ لأعدّ لكُم المكان؟ وإذا انطلقت وأعددتُ لكم المكان أرجعُ فآخذُكم معي لتكونوا، أنتم أيضًا، حيث أكون**» (يوحنّا ١٤: ٢– ٣).

يتكلّم يسوع عن شؤون الأبديّة، غير المرئيّة، ببساطةٍ، ووضوحٍ، وسلطةٍ، وبلغة الصور. فالذين يعرفونه، ويحبّونه، يسكنون فيه. بيت أبيه هو بيته الذي لم يغادره، قطّ، حتّى عندما لبس جسدًا بشريًّا، كي يتألّم ويموت افتداءً للبشر. وبعد أن أتمّ هذه المرحلة الأليمة عاد إلى مجده، وغدا جسده المتجلّي، المؤلّه، مركزًا لتجدّد الكون. ولا يستطيع أحدٌ دخول بيت الآب، والاشتراك بكيانه، ومعرفته، وحبّه، والحياة به، إلاّ من خلال يسوع، لأنّه هو «**الطريق، والحقّ، والحياة**».

لا لَبْسَ، بعدُ، ولا ارتياب. الغاية هي الآب، النبع الأبديّ، الثابت، الذي لا ينضب، والذي يفيض كيانًا، وحقيقةً، وحبًّا، وحياةً. وإليه يمضي ابن الإنسان، لا لكي يتلاشى فيه، بل لكي يُمجَّد، ولكي يُشرع لمختاريه الطريق إليه. بينه وبين الآب وحدةٌ جوهريّةٌ.

وقاطع فيليبّس يسوع قائلاً: «**يا ربّ، أَرنا الآب، وحَسْبُنا**». حتّئذٍ، كان التلاميذ قد عرفوا المعلّم في عتمة الإيمان، الذي يلقّنهم أنّه والآب واحدٌ. ولكنّ فيليبّس كان يطمح في رؤيةٍ مباشرةٍ. ومثل هذه الرؤية لن تتاح إلاّ في الآخرة، وقد أجابه يسوع، بلهجةٍ عاتبةٍ: «**أنا معكم كلّ هذا الزمان، يا فيليبّس، ولم تعرفني! إنّ من رآني رأى الآب. فلماذا تقول: «أرنا الآب؟ أفلا تؤمنون أنّي في الآب وأنّ الآب فيّ؟ إنّ الكلام الذي أقوله لكم لا أقوله من عند نفسي، بل هو الآبُ المقيمُ فيّ يعمل أعمالهُ. صدّقوني، إنّي في الآب وإنّ الآب فيّ، وإن كنتم لا تصدّقون قولي، فصدّقوا من أجل هذه الأعمال**» (يوحنّا ١٤: ٩–١١).

حتّى النهاية ما برح التلاميذ يأخذون كلام يسوع بمعناه الأكثر مادّيّةً. ولكنّ الربّ ما عاد يضيق ذرعًا بهذا اللافهم، الذي لم يستطع التغلّب عليه، فقد كان واثقًا من أنّ روحه القدّوس سيتخطّاه.

وتراصّت الجماعة الصغيرة من حول المعلّم، مثل أطفالٍ يخيفهم الموت. وحينئذٍ، أخذهم تحت جناحيه ابن البشر الذي كان حبّه ينسكب، قديمًا، عبر كلماتٍ صارمةٍ،

ولكنّه الآن وقد حُطّم، حتّى قبل الصفعة الأولى، وقبل الجلدة الأولى، بَات يدفئهم بكلماتٍ تنمّ، تارةً، عن إنسانٍ، وتارةً عن إلهٍ، قارنةً الحنان بالقدرة، ويشرع لهم آفاقًا مشرقةً بوعودٍ مدهشةٍ. عليهم أن ينبذوا كلّ ريبةٍ، بعد ما شاهدوا من أعماله، فمكافأة المؤمن تتخطّى كلّ أحلامه: «**الحقّ الحقّ أقولُ لكم إنّ من آمن بي يعملُ، هو أيضًا، الأعمال التي أعملُها، بل يعمل أعظَم منها، لأنّي منطلقٌ إلى الآب، وكلّ ما تسألونه باسمي أعمَلُه لكي يتمجّد الآبُ في الابن. وإذا سألتموني شيئًا باسمي فإنّي أفعلُه**» (يوحنّا ١٤: ١٢– ١٤).

الإيمان يخلق بين يسوع وتلاميذه شراكةً إلهيّةً. فيسوع هو الذي يحيا في المؤمن، ويتكلّم ويعمل من خلاله، وهو مصدر قدرته. ويسوع هو الذي يحقّق، بواسطة تلاميذه، المعجزات الكفيلة بإثبات الحقيقة، وغزو العالم الوثنيّ، وقهر مملكة الشرّ على الأرض. وما على التلاميذ إلاّ أن يسألوه ما يريدون.

وحسب التلاميذ أن يعبّروا له عن حبّهم له بحفظ وصاياه، وحينئذٍ سيهبهم روح أبيه وروحه، الرباط الأبديّ بينهما، وعامل الخلاص اللامرئيّ (يوحنّا ١٤: ١٥– ١٧).

سيكرّر يسوع، في خطابه، أربع مرّات، ذكر «البرقليط» أي المحامي، المدافع، المستشار، وفوق كلّ ذلك من يعزّي التلاميذ عن غياب المعلّم بالجسد. وهو لا يرسل روحه المعزّي لهم فقط، بل إلى جميع خلفائهم، وجميع المؤمنين حتّى منتهى العالم. وستكون مهمّته ترسيخ تعليمه فيهم: «**وأمّا البرقليطُ، الروح القدُس، الذي سيُرسله الآب باسْمي فهو يعلّمُكم كلّ شيءٍ، ويُذكّركم جميع ما قلتُ لكم**» (يوحنّا ١٤: ٢٦)، والشهادة ليسوع: «**ومتى جاء البرقليطُ الذي سأُرسله إليكم من عند الآب، روحُ الحقّ الذي من الآب ينبثق، فهو يشهد لي. وأنتم أيضًا ستشهدون لي، لأنّكم معي منذُ الابتداء**» (يوحنّا ١٥: ٢٦ – ٢٧).

البرقليط مرسلٌ من الآب ومن الابن، من الآب باسم الابن، ومن الابن من قِبَل الآب. أمّا قوله: «**إن لم أنطلق، لم يأتِكم البرقليط**»، فليس من باب الاستحالة، بل لأنّ ذلك يخالف مخطّط الخلاص. يقول نيومن: «لعمل المسيح شطران: ما يفعله مرّةً ولكلّ مرّةٍ، وما يفعله باستمرارٍ. ما فعله في الخارج، وما يفعله في داخلنا؛ ما فعله على الأرض، وما يفعله في السماء، ما فعله بنفسه، وما لا ينفكّ يفعله بروحه».

لكي يكتمل عمله، كان لا بدّ له من المضيّ، كي يعود بروحه. والروح سيرشد التلاميذ إلى معرفة الحقيقة، وسيدخلهم إلى محراب الحقّ، الذي لم يشهدوا منه، حتّئذٍ، سوى ظاهره، لكي يستخلصوا منه نتائجه. فيسوع لم يلقّنهم، في أثناء حياته، إلاّ ما كانوا قادرين على استيعابه، وسيكمل الروح تعليمهم ما كانوا عاجزين عن فهمه. وتعليمه هو على توافقٍ تامٍّ مع تعليم الآب والابن، لأنّه، معهما، واحدٌ.

ويمضي يسوع قُدُمًا في طمأنتهم، وترسيخ إيمانهم، بعباراتٍ تترقرق عذوبةً وسلامًا: «**لن أدعكم يتامى، فإنّي آتي إليكم. بعد قليلٍ لن يراني العالم، وأمّا أنتم فترونني حيًّا، وتحيْون أنتم أيضًا. ويومئذٍ تعرفون أنّي في أبي، وأنتم فيّ، وأنا فيكم. من كانت عندَه وصَاياي وحَفِظها فهو يحبُّني، والذي يُحبّني يُحبّه أبي، وأنا أحبّه وأُظهر له ذاتي**» (يوحنّا ١٤: ١٨–٢١).

«**إذا أحبّني أحدٌ يحفظ كلمتي فيُحبّه أبي، وإليه نأتي وعندَه نجعل مُقامَنا. ومن لا يحبّني لا يحفَظ كلامي، مع أنّ الكلمة التي تسمعونها ليست من عندي بل من عند الآب الذي أرْسلني.**

«**قلتُ لكم هذه الأشياء وأنا مقيمٌ معكم. وأمّا البرقليط، الرُّوح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي فهو يُعلِّمُكم كلّ شيءٍ، ويُذكّركم جميع ما قلت لكم.**

«**السلام أستودعكم، سلامي أُعطيكم. لستُ كما يُعطيه العالم أُعطيكموه، فلا تضطرب قلوبكم ولا تجْزع. سمعتم أنّي قلت لكم إنّي منطلقٌ ثمّ آتي إليكم. فإنْ كنتم تُحبّوني تفرحون بأنّي منطلقٌ إلى الآب، لأنّ الآب أعظمُ منّي. وقد قلته لكم الآن، قبل حدوثه، حتّى إذا حدث تؤمنون. بعد الآن لن أتحدّث معكم طويلاً لأنّ رئيس هذا العالم يأتي. إنّه ليس له فيّ أيّ مأخذٍ. ولكنّه يأتي لكي يعلم العالمُ أنّي أحِبّ أبي، وأنّي بما أوصاني الآب أعمل**» (يوحنّا ١٤: ٢٣–٣١)(*).

(*) راجع **يسوع في إنجيله:** «أمّا أنتم فترونني حيًّا»، صفحة ٤٥٧، «عندي أشياء كثيرة أقولها»، صفحة ٤٦٠، «ذاكرة المستقبل»، صفحة ٤٦٢.

سلام يسوع ليس كسلام العالم الخدّاع، الهشّ، السطحيّ، الأجوف، الباطل، بل سلامه نابعٌ من حبّ الآب وحبّه، وهو عميقٌ، مطلقٌ، لا يعتوره كدَرٌ ولا اضطرابٌ.

لم يتمنَّ يسوع لتلاميذه السلام، كما يفعل البشر، بل وهبهم إيّاه، وتركه لهم إرثًا. سلامه هو، على حدّ وصف القدّيس أوغسطينُس: «سجوّ الروح، وهدوء النفس، وبساطة القلب، وصلة الحبّ، وشراكة المحبّة».

كان أجله يدنو، وأوشكت أن تقبض عليه يد أمير الشرّ، لا لذنبٍ اقترفه، بل «**لكي يعلم العالم أنّي أحبّ أبي، وأنّي بما أوصاني الآب أعمل**».

وهبّ لملاقاة أجله بثباتٍ: «**قوموا ننطلق من ههنا**».

الكَرْمَةُ وَالأغْصَان

ونهضوا ومضوا صوب جبل الزيتون، عبر البساتين والكروم، في ليلٍ شرقيٍّ ساكنٍ يتلألأ بالنجوم. وجريًا على عادته كان يسوع يستلهم من الطبيعة أسمى أفكاره. ولدى رؤيته الكروم التي شرعت ترسل أفنانها، وتنبت أوراقها، أوحى له منظرها صورة اتّحاده بأحبابه، ففاض قلبه حنانًا، وقال: «**أنا الكرمةُ الحقيقيّة وأبي الكرّام. فكلُّ غصن فيّ لا يأتي بثمرٍ ينتزعُه. وكلُّ غصن يأتي بثمرٍ يُقضّبهُ ليأتي بثمرٍ أوفر. أنتمُ الآن مقضَّبُون بفعلِ الكلمة التي قلتُها لكم. فاثبتوا فيّ وأنا فيكم لأنّه كما أنّ الغُصن إذا لم يثبُتْ في الكَرْمة لا يستطيع من نفسه أن يأتي بثمرٍ كذلك أنتم أيضًا، إن لم تثبتوا فيَّ.**

«**أنا الكرمةُ وأنتم الأغصان. فمن ثبت فيّ وثبتُّ أنا فيه أتى بثمرٍ كثير. لأنّكم، بمعزلٍ عنّي، لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا. إنّ من لا يثبُت فيَّ يُطرحُ خارجًا كالغُصن، فييبسُ، ثمّ تُجمع الأغصان وتُلقى في النار فتحترق. أمّا إذا ثبتُّم فيّ وثبت كلامي فيكم تسألون ما شئتم فيكون لكم. وإذا أتيتم بثمرٍ كثيرٍ تمجّد بذلك أبي، وكنتم تلاميذي**» (يوحنّا ١٥: ١–٨).

ليس من أمثال يسوع ما يعبّر، بهذه الروعة وهذه القوّة، عن العلاقة العميقة الحميمة التي لا بدّ أن تبقى وثيقةً بينه وبين تلاميذه. إنّه حريصٌ على ألاّ ينسى رسله أنّه مصدر الحياة، فلا حياة لهم بمعزلٍ عنه، ولا يتسرّب إليهم النسغ إلاّ من خلاله، على أن يكونوا متّحدين به اتّحاد الغصن بالكرمة.

يسوع هو الكرمة، وأبوه هو الكرّام. وتلاميذه سيكونون الأغصان التي تتغذّى بنسغ الكرمة، وتثمر بفضل هذا النسغ. وإن لم تثمر الأغصان قُطِعت وجفّت، ولم تعد تصلح إلاّ للنار. الكرّام الجيّد لا يدع كرمته على حالها، بل يشذّبها كي يحرّرها من كلّ غصنٍ جافٍّ أو عقيمٍ، وكلّ نموٍّ طفيليٍّ نافلٍ، من كلّ ما ليس من الله وروحه. وغالبًا ما يكون الشذب موجعًا. الذين يبقون متّصلين بالكرمة يثمرون، لأنّهم يبقون

طوعًا وحبًّا، وبفضلها يكثر ثمرهم. وتلاميذ يسوع سيثبتون فيه لأنّ رغبة الآب ومجده أن يؤتوا ثمرًا وفيرًا.

بدا يسوع، وهو يخاطب تلاميذه على هذا النحو، وكأنّه يختارهم للمرَّة الأولى، فيشيد بهذا الاختيار، وبالعلاقة المميّزة التي يعتمدها بينه وبينهم. فيصطبغ خطابه بنبرةٍ مؤثّرةٍ، معلنةً عن حضوره الروحيّ فيهم، وبنبرة الحنان الحزينة المنبئة بانفصاله الوشيك عنهم. واعترى الجميع ذلك الانطباع الأوّل العذب، القشيب، الذي ينشأ لحظة يتبيّن الأصدقاء مدى محبّتهم المتبادلة. وقد رسّخت هذا الشعورَ اللهجةُ الحازمةُ التي أكّد فيها يسوع تفانيه في سبيلهم حتّى الموت.

يسوع يحبّ تلاميذه حبًّا لامحدودًا، فلترتعش قلوبهم، وليبادلوه حبًّا بحبٍّ. ذلك هو فرح المسيحيّة الأكبر الذي لا شيء يعكّره.

في تلك اللحظات، كان قلب يسوع يفيض حبًّا: «**كما أنّ الآب أحبّني، أنا أيضًا أحببتُكم. فاثبتوا في محبّتي. إذا حفِظتم وصاياي تثبتون في مَحَبّتي كما أنّي حفِظتُ وصايا أبي وأثبتُ في محبّته. قلتُ لكم هذا ليكون فرحي فيكم فيكون فرحُكم كاملاً**» (يوحنّا ١٥: ٩– ١١)(*).

لدى قراءة هذه الصفحات الملتهبة، نستطيع سماع خفقات قلوب التلاميذ، وهم ماضون في صمت الليل، منصتين إلى تصريح المعلّم بحبّه اللامحدود لهم، وإلى توصيته إيّاهم، أيضًا وأيضًا، بأن يتمثّلوا بحبّه، ولا سيّما وقد أشرف على البرهنة عن حبّه بدمه، وببذل حياته.

يسوع يعمل مشيئة أبيه حبًّا به، وكذلك تلاميذه سيكونون أصدقاءه، إذا عملوا بما يوصيهم.

كلماتٌ معدوداتٌ، ولكنّها تنطوي على سرّ الحياة الروحيّة، وعلى مبدأ كلّ رسالةٍ. فأصدقاء يسوع يحيون بحياته، وسيعملون عمله. إنّهم يقطنون في الله بالمحبّة، وهذه المحبّة هي الوصيّة المثلى.

ولكنّ المعلّم لم يُخفِ عن تلاميذه أنّ العالم سيبغضهم بسببه، فعليهم أن يتغلّبوا على بغض العالم، بحبّهم المتبادل الذي يوفّر لهم القوّة، والفرح، والسلام.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «اختبارٌ لا يُدحض»، صفحة ٤٦٤.

«العالم»، في لغة يسوع هو البشريّة الخاضعة لسلطان الشرّ، والغرور، والشهوات، والكبرياء، والأنانيّة؛ البشريّة التي تؤثر ذاتها على الله، ولا مطمع لها سوى السيطرة والمتعة؛ البشريّة التي ترفض إخضاع عقلها للإيمان، وإخضاع قلبها لشريعة المحبّة الفائقة؛ وفي سبيل مطامعها وشهواتها لا تحجم عن شيءٍ، ولا تتورّع عن الغشّ، والطغيان، وكلّ ضروب العنف والجريمة. ويسوع هو النقيض المطلق لهذا العالم. ولذلك يبغضه العالم، مثلما يبغض الخير، ويبغض الله.

مذ أعلن يسوع تطويباته وضع نفسه في تعارضٍ مع العالم، وأعدّ صليبه. وقد خَبَر يسوع بغض اليهود الذين لاحقوه بحقدهم، رغم كلّ الأعمال الإلهيّة التي صنعها على مرأًى منهم، ورغم كلّ الإحسانات التي أغدقها على مرضاهم وبائسيهم. فلا عُذرَ لهم في بغضهم له الذي يثبت بغضهم لله. فلو هم أحبّوا الله، حقًّا، كما ادّعوا، لأحبّوا من جاءهم بكلامه، وصنع، وسطهم، أعماله العظيمة الإلهيّة. ومن ثمّ فإنّ تديّنهم الزائف المرائيّ يخفي إيمانهم الميت وضمائرهم المستعبدة لقوى الشرّ.

وأنذر يسوع تلاميذه بأنّ العالم سيبغضهم، وسيضطهدهم كما أبغضه واضطهده: فالذين رفضوا الحبّ سيحاربون الحبّ: «**إذا أبغضكم العالم فاعلموا أنّه قد أبغضني قبْلكم. فلو كنتم من العالم لأحبّ العالمُ ما هو له. ولكن، لأنّكم لسْتم من العالم ولأنّي باخْتياري لكم أخرجتُكم من العالم، لذلك يبغضُكم العالم**» (يوحنّا ١٥ : ١٨– ١٩).

لقد اختارهم يسوع، وأخرجهم من العالم، كي يكونوا مرسليه إلى العالم، من أجل تحويله. وسيضطهدهم العالم، ولكن سيظلّ الفرح مالئًا قلوبهم، لأنّهم بسببه يهانون. إنّ البغض غير المستحقّ امتحانٌ يدعّم النفوس الكريمة. فمن كان أكثر براءةً من يسوع؟ لقد عمل أعمال أبيه، أعمال برٍّ، وعدلٍ، ورأفةٍ، ومحبّةٍ، وأجرى معجزاتٍ بذّت كلّ ما شوهد وسُمع من قبل، وشفى الكثيرين من مرضاهم، وأقام بعض موتاهم. ومع ذلك أبغضوا ابن الله، وأبغضوا أباه، وأنكروا أعمال عطفه.

العالم يحبّ ما هو له ومنه، ولكي يحافظ على روحه، وتقاليده، وسُننه، لا بدَّ له من بغض كلّ ما يعارضه، أي كلّ ما هو من الله. وبقدر ما تكون حياة المرء طاهرةً ومقدّسةً، تجتلب خبث الأشرار وكراهيّتهم. وحدها الرداءة تعيش بسلامٍ. ومثلما تخشى العيون العليلة النور، كذلك تخشى الضمائر القذرة الطيبة التي تدينها. ويسوع

يدين هذه الضمائر لأنّها رأت النور، وأشاحت عنه: «**فلو لم آتِ ولم أُكلّمْهم لما كانت عليهم خطيئة. وأمّا الآن فلا حُجّة لهم في خطيئتهم: فمن أبغضني أبغض أبي أيضًا. ولو لم أعمل بينهم هذه الأعمال التي لم يعملها أحدٌ آخر لما كانت عليهم خطيئةٌ. أمّا الآن، وقد رأوها، فإنّهم ما ينفكّون يبغضوني ويبغضون أبي، فتتمُّ الكلمة المكتوبة في شريعتهم: إنّهم أبغضوني بلا سببٍ**» (يوحنا ١٥: ٢٢–٢٥).

ولكنّ يسوع لن يدع أصدقاءه يواجهون، وحدهم، بغض العالم، بل سيرسل لهم روحه المعزّي، المحامي، الذي سيأخذ بيدهم، ويشدّد عزائمهم، ويتكلّم بلسانهم. غير أنّ بغض العالم، ولا سيّما العالم اليهوديّ، سيزداد تفاقمًا وشراسةً، لأنّهم، في نظره، مجدّفون من جرّاء اعترافهم بيسوع إلهًا: «**ومتى جاء البرقليط الذي سأرسله إليكم من عند الآب، روحُ الحقّ الذي من الآب ينبثق، فهو يشهد لي. وأنتم أيضًا ستشهدون لي لأنّكم معي منذُ الابتداء.**

«**قلتُ لكم هذا كُلّه لكي لا تزلّوا في المِحنة: فإنّهم سيفصلونكم عن المجامع، بل ستأتي ساعةٌ يظنُّ فيها كلُّ من يقتلكم أنّه يُقرّبُ للّه قربانًا. وسيفعلون ذلك لأنّهم لم يعرفوا أبي، ولا عرفوني. وقد قلت لكم هذا حتّى إذا أتت الساعةُ تذكرون أنّي قلتُه لكم. ولم أَقُله لكم من قبل لأنّي كنتُ معكم**» (يوحنّا ١٥: ٢٦– ٢٧ و ١٦: ١– ٤).

اضطهاد التلاميذ لن يأتيهم من الوثنيّين والغرباء، بل ممّن ينتحلون اسم اللّه، ويدّعون العمل باسمه ولحسابه.

بموت زعماء العالم يموت الحقد الذي لاحقهم، أمّا يسوع فلأنّه حيٌّ، أبدًا، يطارده البغض بلا هوادةٍ، من خلال أتباعه. وقد تحقّقت نبوءاته في تلاميذه: فمتّى استُشهد بحدّ السيف في الحبشة، ومرقس سُحِل في شوارع الإسكندريّة حتّى لقي حتفه؛ ولوقا شُنق على شجرة زيتون في اليونان، وبطرس صُلب ورأسه إلى أسفل في روما؛ ويعقوب الكبير قُطع رأسه في أورشليم، ويعقوب الصغير أُلقي به من قمّة الهيكل؛ فيليبّس شُنِق على عمودٍ في فريجيا؛ وبرتلماوس سُلِخَ حيًّا، وأندراوس عُلِّق على صليبٍ، ولكنّه ظلّ يبشّر مضطهديه حتّى رمقه الأخير؛ وطُعِن توما بالحراب، ويهوذا، وهو غير الخائن، رُمي بالنبال حتّى مات؛ وماتياس رُجِم ثمّ قُطع رأسه.

وربّما ذكروا، في لحظاتهم الأخيرة، قول الربّ: «**وقد قلت لكم هذا حتّى إذا أتت الساعة تذكرون أنّني قلته لكم**». وقد واجه التلاميذ كلّ ذلك بسلامٍ وبطولةٍ، فالسلام الناجم عن الاتّحاد بيسوع يثوي في النفس، مهما كانت آلام الجسد ضاريةً. ويسوع الذي يهب السلام الحقّ الوحيد، يسمح بالاضطهادات والشدائد.

ويؤكّد يسوع لتلاميذه، ثانيةً، أنّ لا مناص من نأيه عنهم كي يجيء البرقليط الذي سيُشيع روح يسوع في المسكونة كلّها، ويطلق عمل التقديس، والعزاء، والقوّة في العالم: «**وأمّا الآن فإنّي مُنطلقٌ إلى الذي أرسلني، وما من أحدٍ منكم يسألني: إلى أين تنطلق؟ ولكن، لأنّي قلت لكم هذا ملأت الكآبة قلوبكم. غير أنّي أقول لكم الحقّ إنّه من الخير لكم أن أنطلق لأنّه إن لم أنطلق لم يأتِكم البرقليطُ، أمّا إذا انطلقت فإنّي أرسلهُ إليكم. ومتى جاء فإنّه يثبت للعالم حقيقة الخطيئة والبرّ والدينونة: أمّا حقيقة الخطيئة فلأنّهم لا يؤمنون بي، وأمّا حقيقة البرّ، فلأنّي مُنطلقٌ إلى الآب ولا ترونني بعدُ، وأمّا حقيقة الدينونة فلأنّ رئيس هذا العالم قد دين**» (يوحنا ١٦: ٥-١١).

وشعر يسوع بأنّه ألقى على التلاميذ من التعاليم أكثر ممّا يستطيعون استيعابه، فاكتفى بما قال، على أن يُكمل روحه إطلاعهم على الحقيقة كاملةً. فستكون مهمّة روح الحقّ إنارة أذهانهم، وإطلاعهم على ملء الحقيقة، الحقيقة التي يشترك في الإحاطة بها مع الآب والابن. وسيطلعهم عليها في الظروف المؤاتية، ويسلّط عليها مزيدًا من نورٍ وإيضاحٍ كلّما احتاجوا إليها. بفضل روحه سيظلّ يسوع حاضرًا في تلاميذه، وسيذكّرهم بكلّ تعاليمه. وسيظلّ يهدي الكنيسة، وكلّ مؤمنٍ بيسوع على مدى الأجيال. وسيكون، أيضًا، معزّي كلّ محزونٍ، وضيفًا عذبًا على كلّ نفسٍ (يوحنّا ١٦: ١٢- ١٥)(*).

وفضلاً عن كلّ ذلك سيكون الروح الإلهيّ روح غزوٍ، سيهبّ حتّى أقاصي المسكونة، وسيزعزع الكون. بواسطته سيجتذب يسوع، الذي ارتفع فوق الأرض، كلّ شيءٍ إليه، مثل نارٍ تلتهم وتضيء حتّى البعيد، نارٍ تسري وتغزو، ملهبةً كلّ شيءٍ في طريقها، محقّقةً رغبة يسوع المضطرمة: «**جئت لأُلقي على الأرض نارًا، وكم**

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «عندي أشياء كثيرة أقولها لكم»، صفحة ٤٦٠.

أودّ أن تكون قد اضطرمت!». ولم يكن على يسوع، في سبيل تحقيق رغبة غيرته هذه، سوى إلقاء الجذوة الملتهبة.

وفيما كان يسوع مقبلاً على تجرّع سكرات الموت، لم يساوره أيّ قلقٍ حول نموّ كنيسته: فخبز الحياة جاهزٌ، وألسنة اللهيب غافيةٌ تحت قناطر العلّيّة. والريح ساكنةٌ، بانتظار الهبوب، وأقدامٌ تتأهّب لجوب العالم، وقلوبٌ متعطّشة لإلهابه بحبّ الفادي!

وفضلاً عن إرساله البرقليط الذي سيواكب الكنيسة حتّى نهاية الأزمنة، بعث يسوع نفحة فرحٍ في قلوب التلاميذ كفيلةً بشدّ أَزرهم عندما ستشتدّ عليهم محنة الصليب، فألمح إلى أنّ ساعة ابتعاده عنهم قد باتت وشيكةً، غير أنّ غيابه لن يطول. فخيانة يهوذا، ومحاكمة اليهود الناقمين، والصليب، وشماتة اليهود ستغمرهم بالحزن، ولكنّه حزن المرأة التي أَزفت ساعة وضعها، والتي يعقب آلامها فرحٌ جمٌّ، فرح ولادةٍ جديدةٍ. وهو، عندما سينهض من القبر، سيعود إليهم، فيرونه، وتثلج صدورهم. وفرحهم هذا لن يقوى أحدٌ على انتزاعه منهم، حتّى بعد عودته إلى الآب، لأنّ الآب سيهبهم كلّ ما يطلبونه باسم ابنه.

«**إنّكم بعد قليلٍ لا ترونني ثمّ بعد قليلٍ أيضًا ترونني...**» فقال بعضُ تلاميذه في ما بينهم: «**ما هذا الذي يقوله لنا: بعد قليلٍ لا ترونني ثمّ بعد قليلٍ ترونني؛ وأيضًا: إنّي منطلقٌ إلى الآب؟ فماذا يعني هذا «القليل». إنّنا لا نفهم ماذا يريد!**».

وعلم يسوعُ أنّهم يُريدون أن يسألوه فقال لهم: «تتساءَلون فيما بينكم عن قولي: بعد قليلٍ لا ترونني، ثمّ بعد قليلٍ أيضًا ترونني. الحقّ الحقّ أقولُ لكم إنّكم ستبكون وتنوحون والعالم يغتبط. أَجل، إنّكم ستحزنون ولكنّ حُزنكم سينقلب فرحًا. المرأة حين تلِدُ تحزن لأنّ ساعتها قد حانت. ولكنّها عندما تضع الولد تنْسى شدّتها وتفرحُ لأنّها ولدت إنسانًا في العالم. كذلك أنتم أيضًا فإنّكم على حُزنٍ ولكنّي سأعودُ فأَراكُم فتفرح قلوبكُم، وفرحكم هذا لا ينتزعُه منكم أحدٌ. وفي ذلك اليوم لا تسألوني عن شيءٍ. الحقّ الحقّ أقول لكم إنّكم إنْ سألتم الآب باسمي شيئًا يُعطيكموه. حتّى الآن لم تسألوا باسمي شيئًا: فاسألوا تُعطوا فيكون فرحُكم كاملاً» (يوحنّا ١٦: ١٦– ٢٤).

وقد أوجز يسوع مسيرته الأرضيّة بقوله: «**أجل، خرجت من الله، وجئت إلى العالم، وأمّا الآن فأترك العالم، وأمضي إلى الآب**» (يوحنّا ١٦: ٢٨).

سُرّ التلاميذ لأنّه غدا يكلّمهم صراحةً، لا بأمثالٍ، وأعلنوا بابتهاجٍ: «**نؤمن أنّك من الله خرجت**». ولكنّ يسوع، لكيلا يدعهم يستغرقون في النشوة والوهم، حذّرهم من القنوط عندما سيرون مهانته، ودعاهم إلى التشبّث بالسلام والإيمان، قارنًا الإنذار بإشاعة الثقة والطمأنينة: «**في هذا العالم ستختبرون الشدّة. ولكن اطمئنّوا تمامًا، فقد غلبتُ العالم**»!

الصَّـلاةُ الكَهْنوتيَّة (*)

بعد أن فرغ يسوع من مناجاة تلاميذه، التفت إلى أبيه، ورنا إلى السماء وصلّى. وكانت صلاته هي التسبيحة الأخيرة التي بها تحقّقت النبوءات، والمزامير المهلّلة للآتي باسم الربّ. وقد وقف الإنجيليّ يوحنّا، الذي أصغى إلى دقّات قلب يسوع في ليلته الأخيرة على الأرض، كامل الفصل السابع عشر من إنجيله لصلاة يسوع الوحيدة التي أوردتها الأناجيل، وبذلك خلّف للعالم كنزًا ثمينًا، بل موجزًا لكلّ عمل يسوع، والزهرة الأخيرة التي تفتّحت في قمّة حياته.

بصفته رئيس كهنة العهد الجديد، صلّى من أجله، ومن أجل رسله، كهنة كنيسته الوليدة، ومن أجل خلفائهم إلى الأبد. صلاةٌ لم يتفوّه لسانٌ بشريٌّ بأجمل منها.

هذه الصلاة هي أرحب من المسكونة، وأسمى من جميع الأزمنة، وأكبر من السماء المرئيّة التي رفع نحوها عينيه. إنّها لانهائيّةٌ، أبديّةٌ، مثل الله الذي تخاطبه، مثل الحبّ الذي تلهمه، مثل المطالب التي تطرحها، مثل القوى الإلهيّة التي تحدوها.

مع أنّه بات على عتبة الجلجلة، بدا يسوع ساكنًا، واثقًا، راضيًا، لأنّه أدّى المهمّة التي أسندها إليه الآب: «**يا أبتِ، قد أتت الساعة، فمجّد ابنك لكي يُمجّدك ابنُك، ويُعطي، بما أوليْته من سلطانٍ على كلّ بشرٍ، الحياة الأبديّة لجميع الذين أعطيتهم له. والحياة الأبديّة هي أن يعرفوك أنت، الإله الحقّ وحدك، ويعرفوا يسوعِ المسيحَ، رسولك. أنا قد مجّدتك على الأرض، وأتمَمْتُ العمل الذي أعطيْتني لأعمله. فالآن، أيُّها الآبُ، مجّدْني عندك بالمجد الذي كان لي عندك من قبل أن يكونَ العالم**» (يوحنّا ١٧ : ١ – ٥).

رسالة يسوع على الأرض هي مجد الله، وخلاص البشر. وقد أتمّ يسوع هذه الرسالة وآن له أن يتمجّد، فارتضاؤه ارتداء جسدٍ بشريٍّ كان اتّضاعًا، وامّحاءً

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «ساعة يسوع»، صفحة ٤٦٦.

وعبوديّةً، وما يبتغيه الآن ليس تمجيدًا لطبيعته الإلهيّة التي لم يفقدها، قطّ، والتي ظلّت ممجَّدةً، بل إنّه يطلب تمجيد طبيعته البشريّة التي استمدّها من العذراء مريم. وقد استحقّت هذه الطبيعة التمجيد لأنّها اتّحدت بطبيعة الكلمة.

المجد الذي يلتمسه يسوع على الأرض هو أن يُعترف به ابنًا لله، ومساويًا له. وهذا المجد سيناله، لأنّ الآب لا يمسك عنه شيئًا. هو سينفّذ مشيئة الآب ببذل حياته، ولكنّ الله سيقيمه من الموت، بجسده المؤلّه الممجّد الذي لن يطاله فسادٌ. وبواسطة روحه الذي سيرسله إلى البشر، سيواصل إحلال ملكوت الله.

ثمّ صلّى يسوع من أجل تلاميذه. فهم فُصلوا عن العالم الذي أصرّ على رفض الإيمان، وباتوا خاصّة الله، الذي منحهم ليسوع، ابنه، فتولاّهم كما يتولّى الراعي قطيعه، ولقّنهم كما يلقّن المعلّم تلاميذه، وشفاهم كما يشفي الطبيب مرضاه. من كتلة البشريّة الخاطئة انتزعهم الآب، وأوكلهم إلى ابنه الذي أولاهم سلطة مواصلة عمله، والتكلّم باسمه، وإفادة العالم من استحقاقات فدائه.

يسوع يشهد أنّ رسله قد أصغوا إلى كلامه، وآمنوا أنّه مرسل الآب، فهم له وللآب معًا، إذ إنّ كلّ شيءٍ بين الآب والابن مشتركٌ. ويسوع يصلّي من أجلهم لأنّ العالم يتربّص بهم، ويضمر لهم شرًّا. وبما أنّ مهمّتهم هي ردّ العالم عن غيّه، وهدايته، فلا بدّ من تحصينهم ضدّ غوايات العالم، ووقايتهم من شروره. إنّ يسوع مقبلٌ على مغادرة العالم، ولذلك يوكل تلاميذه إلى أبيه. لا يسأله أن يرفعهم عن العالم – وإلاّ فأنّى لهم أداء رسالتهم؟

يسأله أن يقدّسهم في الحقّ، أي أن يثبّتهم في الإيمان بكلامه، وأن يتمثّلوا بيسوع الذي تقدّس من أجلهم. فليعلم، إذن، التلاميذ أنّ عليهم أن يتقدّسوا، قبل أن يبشّروا الآخرين! وإنّ هذا التقديس لواجبٌ رهيبٌ.

كان كهنة اليهود يثبّتون على عمائمهم، بشريطٍ أزرق، سبيكةً ذهبيّةً، حُفرت عليها عبارة «مكرّسٌ للربّ». أمّا رُسُل يسوع فتكريسهم محفورٌ في قلوبهم، بفضل روح القداسة، ولن يكون كافيًا أن يُعلَنوا قدّيسين، بل عليهم أن يكونوا «**في الحقيقة قدّيسين**»، فالحقيقة تقدّس النفس، وتقيها من الشرّ. وستكون القداسة هي ردّ القلب على الحقيقة الإلهيّة وعلى رحمة الله اللامحدودة تجاه البشر.

ولذلك صلّى يسوع قائلاً: «**فقدِّسهم بالحقّ. إنّ كلمتك هي الحقّ، ومثلما أرْسلتني أنت إلى العالم أُرسلُهم أنا إلى العالم. ولأجلهم أُقدّس نفسي لكي يكونوا هم أيضًا مقدَّسين بالحقّ**» (يوحنّا ١٧ : ١٧– ١٩). ولكي يكونوا سفراءه في العالم، بعد أن يتقدّسوا بروحه.

يسوع يطلب تكريس العالم بالحبّ الإلهيّ، وتأليهه، فليتولّ الحبّ السُّلطة، وليحقّق حضارة الحبّ، مثلما كرّس يسوع إنسانيّته بألوهته، وبآلامه الفدائيّة!

وطاف في ذهن يسوع جميع الذي سيؤمنون بناءً على شهادة الرسل، وغاصت أنظاره في طوايا المستقبل فرأى كم ممّن ادّعوا امتلاك الحقيقة، واستنفروا الأتباع، ولكن ما إن تكاثرت أعدادهم حتّى تفرّقوا شِيَعًا وطوائف. وتوجّس خشيةً من أن تتردّى الجماعة التي كان يؤسّسها إلى مثل تلك الهوّة، فصلّى بحرارةٍ كي يظلّ جميع المؤمنين به مرتبطين بوحدة الإيمان والمحبّة.

وكانت صيحة قلبه الكبرى هي أن يشتركوا جميعهم، أينما انتشروا، في هذه الوحدة الجوهريّة، وحدة الله الفريدة، التي تضمّ الآب والابن: «**فليكونوا كلّهم واحدًا، ومثلما أنت فيّ، أيّها الآب، وأنا فيك، فليكونوا هم أيضًا فينا، لكي يؤمن العالم بأنّك أرسلتني وقد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتَني لكي يكونوا واحدًا مثلما نحن واحدٌ. أنا فيهم مثلما أنت فيّ، لكي يبلغوا الوحدة الكاملة، فيعلم العالم أنّك أرسلتني، وأنّك أحببتهم كما أحببتني**» (يوحنّا ١٧ : ٢١– ٢٣).

الوحدة الجوهريّة بين الآب والابن ينبغي أن تشملنا جميعًا. ووحدة الحبّ الثالوثيّ يجب أن تصبح وحدتنا. هذا هو محور صلاة يسوع الكهنوتيّة.

ليت رغبات جميع المسيحيّين الصابين إلى الوحدة تضطرم لدى سماعهم صلاة يسوع هذه، فوحدتهم هي الدمغة الإلهيّة التي تسم دين يسوع!

في مواجهة رغبة يسوع هذه، ما وزن الكبرياءات المجروحة التي غالبًا ما تسبّب الانفصالات والبِدَع؟ وما وزن الأحكام المسبّقة الموروثة، والحساسيّات الوطنيّة التي ترسّخ تلك الانفصالات؟

أيّها الربّ يسوع، اجعل صلاتك مستجابةً، ورغبتك واقعًا.

أمّا الذين حافظوا على الوحدة فيسوع يطلب لهم: «**أيّها الآب، إنّ الذين أعطيتهم لي أريد أن يكونوا، هم أيضًا، معي حيثُ أكون، وأن يُشاهدوا المجد الذي أعطيتني مُنذُ قبل إنشاء العالَم**» (يوحنّا ١٧: ٢٥– ٢٦).

و للّذين آمنوا بالآب، بناءً على شهادة يسوع، يطلب المكافأة العادلة: «**أيّها الآبُ العادل، لئن كان العالم لم يعرفك فأنا قد عرفتُك، وهؤلاء قد عرفوا أنّك أرسلْتني. قد عرّفتُهم اسمك وسأعرّفُهم إيّاه أيضًا، لكي تكون فيهم المحبّة التي أحببتني وأكون أنا فيهم**» (يوحنّا ١٧: ٢٥– ٢٦).

أيّ مَعين فرحٍ، وتفاؤلٍ، ورجاءٍ!

صلاة يسوع هذه هي منعة ملكوته التي تقحمنا في وحدة الأُسرة المشتركة بحياة الله.

نِـزَاعُ يسُـوع

ما إن فرغ يسوع من صلاته حتّى أخذ يزيح عن بصائر تلاميذه النقاب عمّا سيحلّ في تلك الليلة، وعمّا كان يراه بعينيه الإلهيّتين، فحذّرهم قائلاً: «**كلّكم ستشُكُّون، لأنّه مكتوبٌ: سأضرب الراعي فتتبدّدُ الخِراف. ولكن متى قمتُ أسبقُكم إلى الجليل**». **فقال له بطرس: «حتّى لو شكّ الجميعُ ما شكَكْتُ أنا». فقال له يسوع: «الحقّ أقولُ لك إنّك، اليومَ، في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديكُ مرّتَين، تُنكرني ثلاث مرّات». فتمادى قائلاً: «لو أُلجِئْتُ إلى الموت معك ما أنكرْتُك!» وهكذا قالوا كلُّهم**».

وانتهوا إلى بستانٍ مُسوَّرٍ في سفح جبل الزيتون، يقال له «جتسماني»، أي معصرة الزيت، يرجّح أنّه ملكٌ لأسرة مرقس، التي استضافت الربّ في العلّيّة حيث تناول عشاءه الأخير. وكان يطيب ليسوع أن ينتحي في ذلك البستان للصلاة، كلّما فاجأه الليل، وهو في أورشليم. وأراد أن يناجي فيه أباه للمرَّة الأخيرة، ويبوح له بالألم الذي كان يهصر قلبه، مثلما تعصر المعصرة حبّات الزيتون.

هنا استُكملت مأساة الآلام التي لم تكن صراعات الأيّام السابقة سوى تمهيدٍ لها. غير أنّ هذه المأساة الدامية يرويها الإنجيليّون بلهجةٍ باردةٍ تحيّرنا، وبحيادٍ يجعل منهم مثالاً للمؤرّخين. فما من تفجّر ألمٍ وعطفٍ حيال آلام يسوع المبرّحة، وما من صرخة استنكارٍ أو غضبٍ حيال الجلاّدين. فالإنجيليّون، في المقام الأوّل، شهودٌ حريصون على أن ينقلوا للأجيال القادمة، بنزاهةٍ وتجرّدٍ، تقريرًا عمّا شاهدوه بعيونهم، أو ما رآه شهود عيانٍ. وخير مصداقٍ لشهادتهم، سُجُوُّها وحيادها. إنّ من المشاعر العميقة ما تعجز الكلمات عن التعبير عنه، وما تشوّه البلاغة صورته المؤثّرة. وقد أدرك الإنجيليّون أنّ لغة الأحداث أبلغ تأثيرًا من كلّ بلاغةٍ.

كان النسيم الربيعيّ منعشًا، وضوء القمر يلفّ الكون بضوءٍ حليبيّ شفّافٍ، ولكنّ الحزن كان يفعم قلب يسوع، والأسى والوجوم يخيّمان على نفوس التلاميذ. وقد

أوعز المعلّم إلى ثمانيةٍ منهم أن يتدبّروا لأنفسهم مرقدًا، واستصحب بطرس وابنَيْ زبدى، الذين شهدوا إقامته ابنة يئير من الموت، وشاهدوا مجد تجلّيه. استصحبهم ليشهدوا وهنه البشريّ، ومهانته السحيقة. كان، دائمًا، ينتحي مكانًا قصيًّا كي يُصلّي وحيدًا، ولكنّه، في هذا اليوم، احتاج إلى سند أصدقائه، والاتّكاء على تعاطفهم.

في مطلع رسالته، ولج صحراء موحشةً، وها هوذا يلج صحراء نفسيّةٍ أشدّ وهنًا، وتجهّمًا، لن يظفر، فيها، بأيّ عزاءٍ.

دفقٌ من المرارة المفرطة العنف غمر نفسه، وكأنّه يبتغي إغراقها. مزيجٌ لا يوصف من حزنٍ، ورعدةٍ، ونفورٍ، وعجزٍ، شلّ كيانه، وعبّر عنه يسوع ببوحه المأسويّ: «**إنّ نفسي حزينةٌ حتّى الموت!**» لولا سند الآب لانهار، غير أنّ آلامًا أُخرى كان لا بدّ له من خوضها، فالتمس من أعزّ تلاميذه أن يسهروا معه، لعلّه يستمدّ من وجودهم ومساندتهم عزاءً. صراعٌ عنيفٌ كان يمزّق نفسه. ولكنّ قدرته الإلهيّة تغلّبت عليه.

ذاك الذي وصفه الأنبياء بالقويّ، ذاك الذي سينتصر، قريبًا، على الآلام، والقبر، والموت، يبدو متعثّرًا، ويعترف: «**نفسي حزينةٌ حتّى الموت**». يستغيث: «**اسهروا معي...**» لطالما دعا تلاميذه إلى السهر من أجلهم، ولكنّه، الآن، يدعوهم إلى السهر معه، من أجله، ويلتمس تعاطفهم. قوله «**نفسي حزينةٌ حتّى الموت**» لم يكن سوى تعبيرٍ باهتٍ عن معاناته. فحزن يسوع يتخطّى الموت، يُحطّم قلبه، ولكنّ الآب يشاء أن يبقى هذا القلب حيًّا لمزيدٍ من الألم، ألمٍ روحيٍّ لا حدود له ولا نهاية.

لقد عُرضت عليه كأسٌ يتعذّر ارتشافها، فجزع، وتفجّرت من مآقيه الدموع، ومن كلّ جسمه تفجّرت قطرات دمٍ. هذا الدم الذي يسبق الجرح، وهذه الدموع التي لا تؤتي أيّ فرجٍ، هي قطرات الندى الوحيدة التي تهطل على ليلته الأخيرة على هذه الأرض.

لم يرتعد عندما لاح له الصليب منتصبًا، فقد توقّعه، ومن أجله جاء. وها قد أزفت، أخيرًا، ساعته. «ولكنّه ارتعد عندما رأى بعينيه الإلهيّتين كلّ صلباننا: صلبانٍ تزدحم، ويضغط أحدها الآخر؛ صلبانٍ من كلّ قياسٍ، وكلّ خشبٍ، وكلّ شجرٍ؛ صلبانٍ مستقيمةٍ، وأُخرى مائلة، وأُخرى متهاوية، متعفّنة. غابتها الكئيبة تغزو الجبال

والسهول، وتسيل في الوديان، وتفجّر ينابيع لا تنضب، وأنهرًا من دموعٍ تصبّ في محيطٍ تدفع بها أمواجه من شاطئٍ إلى شاطئ» (سيرتيلانج).

أوصى تلاميذه: «**صلّوا لئلاّ تسقطوا في التجربة**»، وسألهم: «**البثوا هنا، واسهروا معي**». ثمّ ابتعد عنهم مسافة رمية حجرٍ لكي يناجي أباه، ولكنّ الوِقر الذي كان يرين عليه طرحه أرضًا، فجثا وعفّر وجهه بالتراب. موقف أسًى، وعبادةٍ، وخضوعٍ. وكان بوسع التلاميذ أن يشهدوا نزاع معلّمهم، ويسمعوا بوضوح قوله: «**أَبّا – يا أبتا – إنّك على كلّ شيءٍ قديرٌ، فأجزْ عنّي هذه الكأس، ولكن ليس ما أريد أنا، بل ما تريد أنت**». الكأس هي المصير المأسويّ الذي سيهوي بيسوع إلى جوف الأرض كي يؤتي حياةً جديدةً، وهي كأس الخيانة والنكران. قوله: «**لتكن مشيئتك، لا مشيئتي**» يعني أنّ مشيئته، في تلك اللحظة، كانت راغبةً في التملّص من ذلك المصير الفظيع.

كتب الفيلسوف الفرنسيّ جاك ماريتان (Jacques MARITAIN): «الكأس التي التمس يسوع إبعادها، إن أمكن، لم تكن، قطّ، الموت الزؤام، وآلام التعذيب، وهول التضحية، بل كانت، أيضًا، كلّ آلام الجنس البشريّ، وشروره، شرّ الخطيئة وإهانة الله، والأوجاع، كلّ الشرور والآلام التي يراها مجتمعةً، متراكمةً، والتي ابتغى أخذها على عاتقه، من أجل افتدائنا، ولكنّها ستبقى حاضرةً حتّى نهاية الأزمنة، والتي كان، بكلّ زخم رغبات طبيعته العميقة، يرفض وجودها، سواءٌ منها ما يتعلّق بالأوجاع، أو بشرّ الخطيئة».

بشاعة ما كان يعاني هي التي جعلته يستبعد تلك الكأس الرهيبة عنه. فقد راعته تلك البشاعة، ولكنّه، بألوهته، كان يعرف أنّها وسيلة الخلاص التي شاءها الآب، فكرّر ابن البشر خضوعه لتلك المشيئة، واستعداده لتجرّع الكأس حتّى الثمالة.

ربّما لم تشهد الأرض مثل هذا الأسى، ولكنّها لم تسمع، أيضًا، مثل هذه الصلاة. كان طبيعيًّا أن تجفل طبيعته البشريّة أمام هذه المحنة الرهيبة، ولكنّ الاستسلام لمشيئة الآب كان هو الأقوى.

ليست الإرادة هي كلّ ما يحرّك الإنسان. بل إنّ، ثمّة، في أعماق المرء، غريزة البقاء التي تنفر من الموت. وقد ابتغى يسوع أن يعاني الغمّ النفسيّ، والنفور من

الموت، كسائر البشر، لكي يكون، حقًّا، «**حَمَل الله الحامل خطايا العالم**». ارتضى الألم بكلّ مرارته، والموت بكلّ هوله. لم يُبعد عن ذاته الألم بقوّة أُلوهته، بل أضفى عليه طابع اللانهائيّ. كان يرى، مسبَّقًا، كلّ ما ينتظره، مثل شريطٍ يمرّ أمام ناظريه: خيانة أحد تلاميذه، وهجران الآخرين، والجلد، والصفعات، والبصقات، والسخريّة، والضربات، وإدانته الظالمة، وموته المهين الشنيع، وكانت إرادة يسوع وحبّه واحدًا.

وإلى جانب آلامه الخاصّة، كان يشهد تلك التي ستنشب، بسببه، على مدى العصور، بتلاميذه، وأتباعه، الذين يحيا فيهم، ويؤلّف، معهم، كائنًا واحدًا. محيطٌ من الدماء يحيق به، كي يغسل خطايا العالم.

وتجلّى له، بكلّ بشاعته، شرّ الخطايا الذي جاء يحمله ويكفّر عنه، فلا شيء يؤلم الكائن القدّيس مثل مشهد الشرّ. وقد شاهده يسوع في كلّ بشاعته. لقد ارتضى أن يأخذ على عاتقه مسؤوليّة الخطيئة كي يدمّرها من الداخل، ببذل ذاته، فانقضّ عليه، منها، طوفانٌ غمره، وأحاق به كالثوب، ونفذ إلى أعماقه، أشواكًا وخناجر.

كان قد ارتضى أن يصبح إنسانًا من أجل البشر، وها هوذا يصبح، من أجلهم، خطيئةً. قبل أن تُنزَل بظهره السياط والمجالد، وقبل أن يُغرس في جبينه إكليل الشوك، وبيديه وقدميه المسامير، كانت أنياب الخطيئة قد نشبت بكلّ كيانه. لقد تجرّع كلّ عار الخطيئة حتّى الثمالة، وكان ذلك كفيلاً بالقضاء عليه، لو لم يسانده الآب، الذي كان حريصًا على المضيّ به، في التضحية، حتّى شوطها الأخير. لم يتصبّب منه ذلك العرق البارد الذي يتصبّب من البشر المدنفين. بل إنّه، تحت وطأة الألم الهاصر، نضح عرقًا غريبًا، غير مألوفٍ، مثل قطرات دمٍ انهمرت على الأرض، وكان ثلاثةٌ من التلاميذ شهودًا عليها، كي يشهدوا للعالم على مدى خضوعه لمشيئة الآب. إنّها دم العهد الجديد، وماء العماد، عنصرا الفداء.

لقد واجه يسوع أدهى الآلام، وهو بكامل وعيه، وقاساها بكلّ جوارحه، وكلّ أوتار كيانه، بلا سندٍ ولا عزاءٍ سوى الصلاة. الصلاة كانت له الملجأ في أكثر ظروف حياته علنيّةً وخطورةً، وغدت ملجأه الوحيد، في تلك الساعة القصوى. وبالصلاة وثّق اتّحاده بأبيه، ورضاه بإتمام مشيئته، كي ينهض مثالاً لكلّ ألمٍ سامٍ.

الإنسان، في يسوع، كان قد هوى إلى قعرٍ سحيقٍ، لأنّ اللّه فيه كان يرى ما ينتظره، ويرى آلامه. وتوقُّعُ الآلام هو، أحيانًا، أدهى من الآلام نفسها.

لم تتجلّ إنسانيّة يسوع، قطّ، كما تجلّت في تلك الساعة. حينئذٍ كان جديرًا ببنطيُس بيلاطس أن يُريه للملأ قائلاً: «**هذا هو الرجل**». ولكان، حينئذٍ، صوتٌ من السماء أجابه: «**بل هذا هو اللّه**»!

نزاعه في بستان الزيتون كان أشدّ ضراوةً من عذابات الصلب الجسديّة، لأنّه كان البراءة التي لم تشُبْها لوثةٌ، ومع ذلك حمل كلّ قذارات العالم، في كلّ جيلٍ. والبريء يدرك بشاعة الخطيئة أكثر ممّا يدركها الخاطئ نفسه، مثل الطبيب الذي يقف على حقيقة علّة المرض ويُقيِّم وبالها أكثر من المريض نفسه. وما الشرّ سوى إيثار الإرادة الخاصّة على إرادة اللّه المفعمة عطفًا، وسوى الرغبة في تأليه الذات، واعتبار حكمة اللّه جنونًا. لم يرتعد يسوع بسبب الصليب بالذات، بل بسبب خطايا البشر التي أدّت إلى نصبه. وكانت الجريمة الكبرى التي روّعته هي قتل البشر للطيبة القصوى، وللحقّ، وللحبّ.

النفوس الكبرى، كالجبال الشاهقة، على قممها يتفجّر الرعد، وحول ذراها الجرداء، تشتعل البروق. وفي الجتسماني، كانت النفس الأكثر معاناةً من التخلّي، والأشدّ انسحاقًا تحت وِقْر الحزن، لأنّها ارتضت، تنفيذًا لمشيئة الآب، تحمُّل مسؤوليّة معاصي البشريّة كلّها، مذ وُجدت وحتّى يوم القيامة. بنظرةٍ واحدةٍ، كان يرى جميع الخطايا التي اقتُرفت والتي ستُقتَرف، وجميع الخيانات والنوايا الشرّيرة. وكان عبء تلك الكتلة المريعة من الشرور يرين على نفسه الكلّيّة الطهر والبراءة، ويرهقها.

ونهض ذاك الذي امتزج بالأرض، وتحطّم على الثرى، وبلغ من الكمد والمهانة ما حمله على نشدان عزاءٍ بشريٍّ. لقد آن له أن يسند رأسه الناضح دمًا على صدرٍ ما. فجاء أصدقاءَه الثلاثة الذين استصحبهم كي يؤنسوا وحشته، ويلطّفوا عزلته وكَمَدَه، فإذا بهم قد استحوذ عليهم الكرى، وصرعهم. لقد تغلّب النعاس على الحبّ. ويسوع سجين بشريّته، وفي اللحظة التي احتاج فيها إلى سند أصدقائه، وجدهم مستسلمين لشريعة الكرى، وقد استولى عليهم الخَدَر. حتّى التلميذ المحبوب، الأثير، كان ينام بكلّ قوى شبابه، وإلى جانبه أخوه، يعقوب الباسل، الصامد، وكذلك بطرس الذي كان، قبل سُوَيْعات، يعتدّ بشجاعته واندفاعه، والذي أوكل إليه

الربّ زعامة قطيعه، كان مستسلمًا لسلطان النوم. فعاتبهم المعلّم بأسًى: «**أهكذا لم تطيقوا أن تسهروا معي ساعةً واحدةً؟ اسهروا وصلّوا لئلاّ تسقطوا في التجربة. إنّ الروح نشيطٌ، أمّا الجسد فضعيفٌ**».

كم آلمته خيبة أمله في أحبّائه الذين ادّعوا تأهّبهم للموت في سبيله، فإذا بهم يعجزون حتّى عن تلبية رغبته في السهر معه لحظاتٍ! وفي هوّة ألمه، لم يتوانَ عن نصحهم وتوجيههم، محرّضًا إيّاهم على الاستعانة بالصلاة والسهر على التجربة والوهن.

هال التلاميذ الثلاثة ما رأوا عليه المعلّم من حزنٍ، وجزَعٍ، ولكأنّه كان يرتشف، مسبّقًا، الكأس التي سينهلها، كأسًا من المرارة بحيث أجفل، واستمدّ من أبيه السند والقوّة على احتمال ما لا يُحتمل. ولكنّ كلمته الأخيرة كانت: «**لتكن مشيئتك، لا مشيئتي، يا أبتاه!**».

نحن قد ننزع إلى لوم التلاميذ لتركهم يسوع يعاني، وحيدًا، محنة النزاع المضنية، واستسلامهم للسبات. ولكن كم نحن نغفو، ملء جفوننا، وعلى خطواتٍ منّا إخوةٌ لنا يقاسون شتّى ضروب النزاع والوحدة!

لم يلقَ يسوع لدى البشر عزاءً، فعاد إلى أبيه، و«**لجّ في الصلاة**»، مستسلمًا لمشيئة الآب. وغزت مخيّلته رؤًى أشدّ هولاً، إذ رأى، على كرّ الأجيال والعصور، تراكُم معاصي البشر الذين سيسفك دمه من أجلهم، ومواكب النفوس التي اختارت، عامدةً، عن إهمالٍ أو خبثٍ، الاستغناء عن ثمار فدائه. وهالته رؤية خيانات أتباعه، على مدى العصور، وانقساماتهم، وشِيَعهم، وعَبَثهم بسرّ حبّه نفسه. هذا الطوفان من المعاصي كان ينقضّ عليه، ويغرقه، ويسحقه.

كان يسوع يرى ما يعمى عنه لاوعيُنا. كان يرى بؤس البشر وخبثهم اللّذين يخفيان عنّا. فلو أنعم كلٌّ منّا النظر في كلّ النزاعات والفظاعات التي تغمر الأرض، لما بقي أحدٌ حيًّا بعد ما يشهد. ولو واجه كلٌّ منّا واقعه بصدقٍ، لما تجاسر، بعدُ، على الظهور. نحن، لدينا من الوهم ما يحمينا، أمّا ذاك الذي يتبصّر كلّ شيءٍ بجلاءٍ، فهو أعزل، ما لم تسانده القدرة الوحيدة التي تنتصر على الشرّ.

جاء يسوع كي يجعل من العالم فردوسًا. ولكنّه، لدى رؤية شرور العالم، خشي

أن يكون قد زجّ الفردوس في حمأة البشر. عزاؤه كان في أنّه لو وضع في كفّةٍ من الميزان الآلام والخطايا، وفي الكفّة الأُخرى الصليب، لكان الصليب من الثقل بحيث ترجح كفّته. ولكن ماذا لو فشل الصليب؟

من المحقّق أنّ الصليب، بذاته، لا يمكن أن يفشل، فهو قوّة الانتصار العظمى. غير أنّ نظر يسوع، في نزاعه، كان يتوقّف عند مشهد سيل الشرور العارم، الذي يخفي كلّ ما وراءه من خيرٍ وبهاءٍ، بحيث يبدو أنّ النصر نفسه نسبيٌّ.

طموح المخلّص للبشر بلا حدودٍ. وهو ما كان ليضنّ بكلّ دمه، وبكلّ قلبه، من أجل نفسٍ واحدةٍ. وقد هالته رؤية قطعان النفوس الضالّة، التي تحدّت الصليب! لقد جاء ليملأ السماء سكّانًا، وكم كان ألمه بالغًا، وهو يشهد حشود الذين اختاروا الجحيم طوعًا!

وتساءل: هل سيُفلح مخطّطه لجعل العالم أنشودة تناغمٍ، وتناسقٍ، وتحابٍّ، وهل ستلتهب النار التي جاء لإضرامها؟

كلّ هذه الرؤى تتشابك، وبتشابكها تزداد إيلامًا. ففضلاً عن الجسد الذي يقطر دمًا، ثمّة الروح الذي تمزّقه رؤى الشرور المتراكمة، والقلب الجريح، من جرّاء رفض أبنائه للحبّ، والوجدان الذي ترهقه جرائم يشعر يسوع بمسؤوليّته عنها، والعزيمة التي أحبطها تخيُّل قلّة جدوى الجهد والتضحية. وكم في كلّ ذلك من آلامٍ! في معصرة الزيتون عصر النزاع يسوع، واستخرج منه عرقًا ممزوجًا بدمٍ.

ولا ريب أنّ إبليس قد توسّم، في صراع يسوع النفسيّ المضني، السانحة التي طالما تحيّنها للانقضاض على الكائن الوحيد الذي فشل في النيل منه، فعاد ينضح بوسوساته الدنيئة، ويلوّح للفادي ببطلان كلّ ما يعانيه، وباستحالة توقّف تدفّق طوفان الخطايا، مهما فعل يسوع وبذل، غير أنّ كلّ تلك المحاولات، قد تحطّمت، ثانيةً، على صخرة مشيئة الآب وحبّه، فهما، أيضًا، مشيئة الابن، وحبّه للبشر، وتضامنه معهم.

ووسط هذه المعاناة، ينام، ملء جفونهم، الأصدقاءُ الذين اختارهم الربّ كي يسهروا معه، تلاميذه الثلاثة الأثيرون الذين أشركهم بأحداث حياته العظمى، وشاء أن يقدّم لهم برهانًا أخيرًا على ثقته وإيثاره، بإتاحته لهم مشاهدة هشاشته البشريّة. هؤلاء الثلاثة خذلوه، ولم يكتفوا بعدم مؤاساته، بل تجاهلوا معاناته.

هوذا الرجل (بريشة أنطونيو سيزيري)

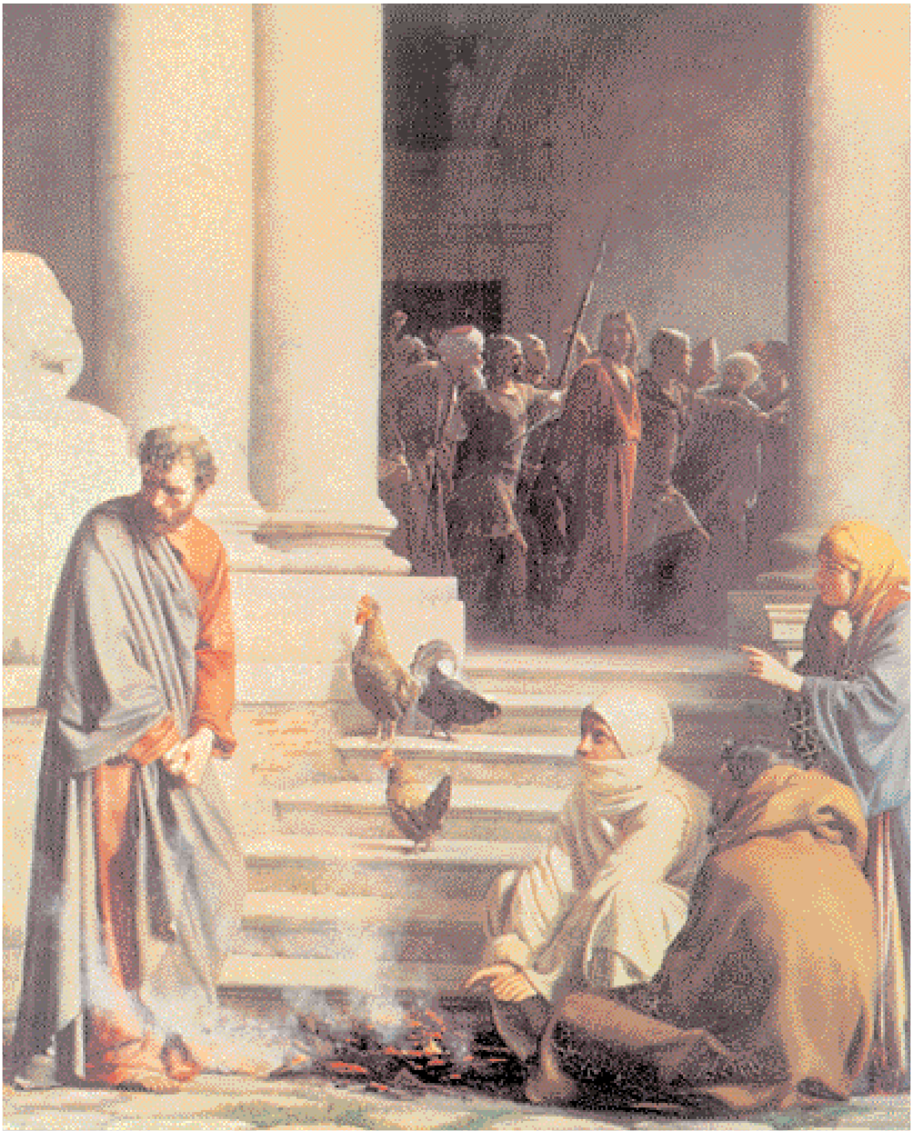

إنكار بطرس (بريشة كارل بلوك)

نهض، ثانيةً، بحثًا عن عزاءٍ وسندٍ، فلم يعثر لهما على أثرٍ، وخاصّةً لدى أصدقائه الذين دعاهم فلم يستجيبوا. وحده بين تلاميذه، يهوذا، خائنه، كان ساهرًا، يقظًا، في حين كان أحبّاؤه مستغرقين في سباتٍ عميقٍ، فاستسلم بكلّيّته للآب.

هذا الشعور بالتخلّي لطالما وقى منه شهداءَه وقدّيسيه، بحضوره المعزّي فيهم، ولكنّه، هو، قاساه بكلّ مرارته.

هذا الانهيار، هذا العرق الممزوج بالدم، هذه الرعدة أمام عذابات النفس والجسد، هذه الصلاة الملتمسة إبعاد كأسٍ طالما رغب في ارتشافها، هذه الإنسانيّة الواهية التي تحاكي إنسانيّتنا، لم تصدم عابدي يسوع الذين لم يروا فيها سوى دعوةٍ طاغيةٍ إلى حبّه. فابن الله لم يتنازل، قطّ، بمقدار ما تنازل حينئذٍ، وإنّما هو ارتضى ذلك، حبًّا بنا.

ففي غمرة غمّه، ورعدته، وإرهاقه، لم يذهل، لحظةً، عن المهمّة التي جاء من أجلها، ولا غابت عنه إرادة أبيه، فظلّ يردّد، مخاطبًا الآب: «**ليس ما أريد أنا، بل ما تريد أنت**».

بارتدائه الطبيعة البشريّة، انحدر قليلاً دون الملائكة. غير أنّ ملاكًا من السماء وافى ليشدّ من عضده. ولكنّه كان أشدّ احتياجًا إلى مؤاساة أصدقائه، وجاءهم، مرَّةً تلو أُخرى، لعلّه يجد، لديهم، بعض عزاءٍ، ولكنّه، في كلّ مرَّةٍ، كان يلقاهم وقد خدَّرهم الغمّ، وختم السبات على أذهانهم وجفونهم.

نزاع يسوع لم يكن ذلك الانسلاخ الذي يسبق الموت، بل كان غمًّا جمًّا.

نزاع يسوع الرهيب أوحى لپاسكال المقاطع اللاهثة، الملتهبة، التالية:

«يعاني يسوع، في آلامه، الأوجاع التي ألحقها به البشر، ولكنّه، في نزاعه، يعاني الأوجاع التي ألحقها بنفسه. إنّه عذابٌ آتٍ من يدٍ ليست بشريّةً، ولكنّها كلّيّة القدرة، ولا بدّ من قدرةٍ كلّيّةٍ، من أجل تحمّلها.

«يلتمس يسوع بعض عزاءٍ، أقلّه لدى أعزّ أصدقائه الثلاثة؛ يرجوهم أن يوفّروا له بعض سندٍ، ولكنّهم يتخلّون عنه، في إهمالٍ تامٍّ، ولا يُبدون من التعاطف ما يمنعهم من النوم لحظةً. وهكذا تُرك يسوع وحيدًا في مواجهة غضب الله.

«يسوع وحيدٌ، على الأرض، ليس فقط في مكابدة آلامه واقتسامها، بل في معرفتها، أيضًا. هو والسماء، وحدهما، مطّلعان عليها.

«يسوع في بستانٍ، ولكنّه ليس بستان نعيمٍ، نظير آدم الأوّل، حيث أهلك نفسه والجنس البشريّ، بل في بستان عذابٍ، حيث خلّص نفسه والجنس البشريّ.

«إنّه يكابد هذا الألم وهذا التخلّي في وحشة الليل.

«أظنّ أنّ يسوع لم يشكُ، قطّ، إلاّ في هذه النوبة. ولكنّها شكوى من لم يعد يطيق احتمال آلامٍ بالغةٍ: «**إنّ نفسي حزينةٌ حتّى الموت**».

«يسوع يلتمس، لدى البشر مؤاساةً، ومساندةً، ربّما للمرّة الوحيدة في حياته، ولكنّه لا يظفر بشيءٍ منهما لأنّ تلاميذه مستسلمون للكرى.

«سيظلّ يسوع في احتضارٍ حتّى نهاية العالم: فعلينا ألاّ ننام، في هذه الأثناء.

«لقد توجّه يسوع بدعائه إلى البشر، ولكنّهم لم يلبّوه...

«في أثناء نزاعي كنتَ، أنتَ، وقد سكبتُ تلك القطرات من دمي، من أجلك... أوَ تريد أن تكلّفني، دائمًا، دم إنسانيّتي، من غير أن تسكب دمعةً؟

«لو كنتَ تعرف خطاياك، ليئست....

«.... أنا أحببتك بحرارةٍ أكبر من تلك التي أحببت، أنت، بها قذارتك».

* *

عاتب يسوع تلاميذه، ثانيةً، لعجزهم عن السهر معه، لحظاتٍ، في أحلك ساعات نزاعه، ولم يهتدوا إلى كلماتٍ يبرّرون بها تخاذلهم. فتركهم ثانيةً، وعاد يتابع صلاته، مكرّرًا عبارات الاستسلام، بحبٍّ، للمشيئة الأبويّة.

لقد ألقى بمخاوفه عند أقدام أبيه لكي يقضي عليها. لم يجعل من الصلاة جهدًا في سبيل إخضاع مشيئة الله لمشيئته، بل جهدًا لإخضاع مشيئته لمشيئة الآب، وبذلك استعاد السلام الكامل، وعلّمنا الصلاة الحقّة. ومرّةً أُخرى، ناء تحت وقر خطايا البشر التي التزم بأخذها على عاتقه، لكي يكفّر عنها ويمحوها. وعلى حدّ قول الرسول بولس: «**جعله اللّه خطيئةً من أجلنا، لكي نصير به برًّا**». اللعنة التي تستحقّها

الخطيئة أشاعت في نفسه كلّ ما توحي به الخطيئة من نفورٍ، وخزيٍ، وهولٍ، واشمئزازٍ. كأس مرارةٍ مترعةٌ، فائضةٌ، تتخطّى قوى البشر على الاحتمال. فلا بدْعَ إن ظهر له ملاكٌ يشدّده، بعد أن تخلّى عنه جميع البشر.

عانى يسوع النزاع باسم البشر، وكان لآلامه مفعولٌ لانهائيٌّ لأنّه اللّه.

في بستان عدن فقد آدم ميراث اتّحاده باللّه. وفي جبل الزيتون استهلّ يسوع التكفير. في بستان عدن، وفي الجتسماني تقرّر مصير الإنسانيّة. في عدن ارتكب آدم المعصية، وفي الجتسماني أخذ يسوع على عاتقه خطيئة البشريّة. في عدن توارى آدم عن نظر اللّه، وفي الجتسماني قدّم يسوع نفسه لأبيه وسيطًا. في عدن وجد اللّه آدم، وقد ارتكب خطيئة العصيان، وفي بستان الزيتون جاء يسوع إلى أبيه طائعًا، مستسلمًا لمشيئته. في عدن امتُشِق سيفٌ لحماية مدخل البستان، وفي بستان الزيتون أُعيد السيف إلى غمده.

مرَّةً ثالثةً جرّ يسوع نفسه صوب تلاميذه، فإذا بهم ما زالوا تحت وطأة نُعاسٍ طاغٍ. استيقظوا مثقلي الجفون، ولم يعرفوا بما يجيبون. وعلى ضوء القمر رأى يسوع وجوههم المنتفخة، المشوّهة، فقال لهم بلهجة عتابٍ رقيقةٍ: «**ناموا ما بقي لكم واستريحوا! قد قُضي الأمر، وأتت الساعة، وهوذا ابن البشر يُسلم إلى أيدي الخطأة...**».

مرّةً إثر مرّةٍ، أتاهم، وأيقظهم، وهو يتصبّب عرقًا ودمًا، وكأنّه يستجدي مؤاساتهم. وكم شقّت عليهم، في ما بعد، ذكرى تقاعسهم، ووَهنهم، وتقصيرهم في مساندة المعلّم في أوج محنته!

وفيما كان يسمع تنفّس تلك الأجساد المرهقة وشخيرها، تنامى إلى سمعه من بعيدٍ، وقع أقدامٍ مبهمٌ، وضجيج أصواتٍ، وشرعت تتراقص أنوار مشاعل تقترب، فأيقظ تلاميذه الثلاثة، قائلاً: «**انهضوا، ولننطلق، فها هوذا الذي يسلمني قد وصل**». ومضى معهم كي يوقظ الثمانية الآخرين، الراقدين عند مدخل البستان.

القَبْضُ عَلَى يَسُوع

كان يسوع قد استعاد كل جأشه وسكونه، عندما وصلت العصابة المكلّفة بالقبض عليه.

وفي تلك الأثناء كان يهوذا، إثر مغادرته العلّيّة، قد هرع إلى زعماء اليهود الذين كانوا ينتظرونه بقلقٍ، وقد أعدّوا لكلّ شيءٍ عدّته، كي يُنفّذوا خطّتهم بمنأًى عن أيّة بلبلةٍ. ومضوا إلى الحاكم الرومانيّ، وصوّروا له يسوع الناصريّ مشاغبًا سياسيًّا محاطًا بنفرٍ من شذّاذ الآفاق الجليليّين، المستعدّين لإضرام ثوراتٍ في العاصمة. وبذلك حصلوا، بيُسرٍ، على كتيبةٍ رومانيّةٍ، أو جزءٍ منها، تساند حرس الهيكل، وخَدَم رئيس الكهنة. وكان لوجود جندٍ رومانيّين بقيادة ضابطٍ، تأثيرٌ بالغٌ.

كانت المهمّة تقتضي العثور على يسوع، وإلقاء القبض عليه، بمنأًى عن ردود فعلٍ شعبيّةٍ، وخير من يساعد على تنفيذ المهمّة هو يهوذا الخائن الذي قبض مكافأته مسبّقًا. كان يعرف عادات يسوع، وقد توقّع ألاّ يمضي إلى بيت عنيا في تلك الليلة، وأن يقضي ما تبقّى من الليل، في تلك المنطقة من بستان الزيتون. وقد عقد مع المتآمرين اتّفاقًا لتعريفهم بيسوع: «**ذاك الذي سأقبّله، هذا هو فأمسكوه**».

وحدها نفسٌ تردّت إلى أَدنى دركات الدناءة تجعل من القبلة، علامة الصداقة والمودّة، علامةً للخيانة والمكر. وأَخطر الخونة هم الذين تغذّوا بعطف الربّ، والذين يعرفون، بدقّةٍ، أَين يجدونه، في الظلمة.

جاس يهوذا المكان، أوّلاً، للتثبّت من مكمن يسوع، ثمّ أشار إلى الجند والحرس كي يلحقوا به، وهم يحملون سيوفًا وعصيًّا ومشاعل، وتقدّمهم بضع خطواتٍ، كيلا يبدو واحدًا منهم، ولكي يُقصي عن نفسه مظهر الخيانة، ثمّ هرع نحو يسوع قائلاً: «**السلام، رابّي**»، وقبّله. إنّ تبادل القبل بين الأصدقاء يتمّ بمناسبة وداعٍ، أو عقب غيابٍ طويلٍ، أو في مناسباتٍ خاصّةٍ. ولم يكن يهوذا قد غاب عن معلّمه سوى

سُوَيعاتٍ معدوداتٍ، وكان تقبيله له، ودعوته له، «رابّي» إمعانًا في الخداع، ولكأنّه يودّ إيهام المعلّم الذي هتك سرّ خيانته، بأنّه تاب، وعاد عن مقاصده الشرّيرة.

القبلة، جوهريًّا، هي عطاءٌ وتقبّلٌ، واندفاع حبٍّ، واستسلامٌ، ووئامٌ، واحترامٌ وتوافق أفكارٍ.

وهذه الخيانة، بواسطة قبلةٍ، حيّرت من كان يتوقّع كلّ شيءٍ. يا لذلك الفم على خدّ المعلّم! حتّى النهاية ستظلّ الخليقة تُدهش يسوع. كان قد ظنّ أنَّه لامس قعر الحقارة البشريّة، وإذا بهذه القبلة، التي كشفت له أغوارًا للخيانة مجهولةً، مريعةً!

التلاميذ تركوا يسوع يعاني نزاعه وحيدًا، والقبلة التي كانت كفيلةً بمؤاساته، وتخفيف آلام اللحظات الأخيرة، تلك المبادرة الطاهرة التي كان يتوق إليها، جاءته من خائنه، منجّسةً، مشوّهةً غايتها، جاءت إهانةً قصوى، ومنتهى النفاق. قبلة يهوذا تقابل الحبّ الصافي بالحبّ الزائف، وتنفث الموت، في حين يهب الحبُّ الحياة.

ومع ذلك تلقّى يسوع، برقّةٍ، قبلة يهوذا، وردّ عليه بحزنٍ: «**أبقبلةٍ، يا يهوذا، تسلّم ابن البشر!**»، ثمّ، بعد لحظة صمتٍ، أضاف: «**أنت وما جئت له، أيُّها الصديق**».

كلماتٌ مغرقةٌ في الحنان والعمق الإلهيّين، فحتّى اللحظة الأخيرة كان يسوع يأمل أن يدفع يهوذا، بعطفه، إلى الندم الذي يغفر حتّى الخيانة. بعد ساعاتٍ، ستعاف نفسُ يهوذا المال، وستُفتضح خيانته، فيعاقب ذاته بشنق نفسه. ولو كان حبّه ليسوع على قدرٍ وافٍ من الصفاء والقوّة، لاستصفحه، ولنال الصفح، كما فعل بطرس.

أنت يا يهوذا تسلّم ابن البشر، ولكنّك لن تضع بين أيدي أعدائه الألوهة. أَغَرُبَ عن بالك أنّ ابن البشر الذي تسلّمه قد لبس، من أَجلك، أيضًا، هذا الجسد الذي سيمزّقه أصدقاؤك الجدُد؟

تراجع يهوذا بعد أن أَرشد إلى يسوع، ولكنّ عصابة الذين جاؤوا للقبض عليه لم يتحرّكوا. ربّما خشوا مقاومةً إلهيّةً، أو مقاومةً بشريّةً لم يحسبوا لها حسابًا، وربّما لم يميّزوا يسوع جيّدًا وسط تلاميذه، فقد كان واحدًا من تلك الفرقة الصغيرة التي يلفّها الظلام، ولم يتبيّنوا أيًّا منهم يختلف عن الآخرين أو يرأسهم. فباري الخليقة ناصريٌّ ملتحٍ، يعسر تمييزه عن تلاميذه الجليليّين.

وحينئذٍ انفصل يسوع عن تلاميذه، وتقدَّم من طالبي القبض عليه: الجند الرومانيّين، وحرس الهيكل، وخَدَم رئيس الكهنة، والكهنة، والشيوخ، وقال: «**من تطلبون؟**» فأجابوا: «**يسوع الناصريّ**» فقال لهم: «**أنا هو**». فارتدّوا إلى الوراء، وسقطوا أرضًا. جلاله الإلهيّ ألقى الخشية في نفوسهم. إنّ ذاك الذي أظهر ليهوذا طيبته الإلهيَّة، فجّر، بكلمةٍ، قدرته الإلهيّة، أيضًا. بوسع البشر رفض حبّه، ولكن لا يسع أحدًا مقاومة قدرته. عندما يشاء يغدو نفوذه آسرًا، ومهابته، عندما يبرزها، مخيفةً. بها طرد باعة الهيكل، وأسقط حجار الرجم، مرَّةً تلو مرّةٍ، من أَيدي أعدائه المهتاجين، وها هو ذا يُبرز هيبته، للمرّة الأَخيرة، كي يعلم الجميع أنّه يُقدم على التضحية بذاته، طائعًا، وأنّ ليس لأحد قِبَلٌ على القبض عليه، إلاّ إن هو شاء.

القدسيّ يصرع من لم يتهيّأ له روحيًّا. «أنا الكائن»، هكذا كان الله قد عرّف نفسه. ويسوع قال في جلالٍ ساجٍ: «**أنا هو**». فلا عجب إن هوى أرضًا طالبو القبض عليه. لم يشأ ابن الله أن تنال الخيانة الحقيرة من كرامته، ورباطة جأشه وثبات عزيمته، وقد رأى الإنجيليّ يوحنّا، في هذا الحدث، الدليل على قدرة يسوع الفائقة التي تجلّت في نبرة صوته، وفي برق عينيه، في السلطة المنبعثة من كلّ كيانه، في الجلالة التي جعلت من تقدّموا للقبض عليه يتعثّرون ويتهاوون، وفي حرصه على إطلاق سراح تلاميذه، وإنقاذهم من براثن المفترين، المجرمين.

كان من اليسير على يسوع أن يدع الجند مرميّين أرضًا ويمضي، ولكن كانت قد أزفت الساعة التي يقيّد فيها الحبّ ذاته، في سبيل فكّ قيود الجنس البشريّ.

كان يسوع، كلّما حاول الشعب تنصيبه ملكًا، يلوذ بالفرار. ولكن، عندما حانت ساعته، ووافى الجند كي يسوقوه إلى الصلب، سارع إلى تسليم ذاته، فتُوِّج ملكًا على الصليب.

حيال مظهر القدرة هذا، أيقن التلاميذ أنّ الآب بادر إلى نصرة ابنه، فاستعر الحماس في صدورهم وهبّوا للدفاع عنه، واستوضحوا: «**أنضرب بالسيف، يا ربّ؟**». ولم ينتظر بطرس الجواب، بل استلّ سيفًا، وأهوى به على غلام رئيس الكهنة المدعوّ ملكس. ولكنّه في اضطرابه، وقلّة خبرته، لم يفلح إلاّ في صلم أُذنه، فعاتبه يسوع قائلاً: «**ردّ السيف إلى غمده! كيف؟ ألا أشرب الكأس التي أعطانيها الآب؟.. إنّ كلّ من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك. أوَتظنّ أنّي لا**

أستطيع أن أسأل أبي، فيقيم لي، في الحال، أكثر من اثنتي عشرة جوقةً من الملائكة؟...».

لام يسوع بطرس الذي أفسد جلال الموقف بما يشبه أعمال المجرمين. ثمّ تناول أُذن ملكس وأعادها إلى مكانها، فعادت سليمةً. إنّه ما انفكّ يشفي، وهو ماضٍ إلى منقع العذاب والموت! فلو ارتضى يسوع استخدام السلاح، لما كان المسيحَ الذي شاء أن يكونه، ذاك الذي يكفّر، بموته، عن خطايا جميع إخوته في البشريّة.

السيف يسكب دم الآخرين، وكأس يسوع هي سكبه دمه الخاصّ لخلاص الآخرين. هذه الكأس أعدّها له الآب، وتجرّعها هو طوعًا، كي يتسنّى للبشر أن يصبحوا أَبناء الله. كأسه كانت مترعةً بمشيئة الآب، وبخلاص البشر.

لم يتمكّن أعداء يسوع منه، على كثرتهم، ولكنّه، بمحض إرادته سلّمهم ذاته، لأنّ ساعته حانت. أمّا ساعة تلاميذه فلم تكن قد حلّت بعد، ولذلك حرص المعلّم على سلامتهم، وخاطب أعداءه ثانيةً: «**من تطلبون؟**» قالوا: «**يسوع الناصريّ**». فأجاب من موقع قوّةٍ: «**قلت لكم إنّي أنا هو، فإذا كنت أنا من تطلبون، فاتركوا هؤلاء يذهبون**». ويعلّق الإنجيلي يوحنّا بقوله: «**ذلك لتتمّ الكلمة التي كان قد قالها: «إنّ الذين أعطيتهم لي لم أفقد منهم أحدًا»**».

حينئذٍ فقد التلاميذ كلّ أملٍ في قتالٍ منتصرٍ بعونٍ إلهيٍّ، واتّضح لهم أنّ يسوع يستسلم تلقائيًّا لأَعدائه، عازفًا عن أيّة مقاومةٍ، غير ملتمسٍ أزر أبيه، فاعتراهم الذعر والبلبال، وتداعت أُسس إيمانهم، فمنذ فجر الخليقة أَلِفَ الناس الاعتقاد أنّ الفشل والهزيمة يُثبتان الخطيئة. لقد تبيّنوا أنّ معلّمهم اقتيد كمجرمٍ عديم الشأن، وبدأوا يستشفّون المحنة الرهيبة التي طالما أشار إليها ولم يفهموها، والعذابات التي سيقاسيها قبل تمجيده، ولكنّهم ذهلوا عن المجد الموعود، وقصروا اهتمامهم على رنين القيود، وبريق السيوف، ومهانة المعلّم، فانهاروا وتركوا كلّ شيءٍ، وفرّوا جميعهم.

وقف يسوع شامخًا، متحدّيًا، بل ساخرًا من الحملة التي جُرِّدت عليه، والتفت إلى المسؤولين عن توقيفه، محتجًّا، بوقارٍ ونبلٍ، على الأُسلوب البغيض، الجبان، الظالم الذي استخدموه حياله قائِلاً: «**كأنّي بكم على لصٍّ خرجتم بسيوفٍ وعصيٍّ لتأخذوني! إنّي كلّ يومٍ كنت بينكم في الهيكل أُعلّم، ولم تأخذوني،**

وإنّما هذا لتتمّ الكتب..» لقد أتوه تحت جنح الظلام، وهو كان، كلّ يومٍ، يواجههم جهارًا في الهيكل، ولم يحاول التواري عنهم. وأضاف يسوع: «**ولكن هي الآن ساعتكم، وهذا سلطان الظلام!**». وهم كانوا متواطئين مع الظلام. لقد حانت الساعة التي يقوى فيها الشرّ على طرد نور العالم، ولكنّ للشرّ ساعةً، ولله النهار كلّه!.

الخطيئة استلزمت تكفيرًا، ويسوع، بصفته إنسانًا، كان بوسعه العمل باسم البشر، وبصفته إلهًا كان لفدائه قيمةٌ لامحدودةٌ. طبيعته البشرية كانت مؤهَّلةً للألم والموت، ومن ثمّ مكّنته من تقديم ذاته ضحيّةً، ولكن كان عليه أن يكون منزّهًا من كل خطيئةٍ، وإلاّ لاَحتاج، هو نفسه، إلى فادٍ. على حَمَل الضحيّة أن يكون بلا عيبٍ، وعلى حبّه أن يكون حرًّا، اختياريًّا، وإلاّ كانت التضحية به ظلمًا، ولذلك أَظهر قدراته الإلهيّة قبل استسلامه لأعدائه.

كُبِّل سيّد الكون، ومضى مقيّدًا، وحيدًا مع الجند والحرس. ولم يواكبه، من أَصدقائه، سوى فتًى، ربما جاء مع يسوع وتلاميذه من العلّيّة، ورقد في حجرةٍ في الجتسماني، التي كانت تخصّ ذويه، وأيقظته من نومه جلبة الحرس والجند، وصياح ملكس عندما صُلِمت أُذنه، فتلفعّ بغطاءٍ كان يستتر به في فراشه، وخرج ليراقب ما يجري، وبعد أن شهد اعتقال يسوع، دفعه فضوله وحبّه له إلى تأثّر خطاه خلسةً. وتنبّه الحرس لذلك الطيف المشبوه في زيّه الهجين، وحاولوا الإمساك به، فترك لهم الغطاء الذي كان متلفّعًا به، وأطلق ساقيه للريح، عاريًا. وهكذا هجر يسوع حتّى ذلك الصديق الأخير، ذلك الفتى العاري، الذي يُرجّح أنّه الإنجيليّ مرقس، فقد انفرد برواية هذا الحادث الذي لا تبدو له علاقةٌ جوهريّةٌ بالقبض على يسوع. في تلك الليلة أدرك مرقس كم يسوع جديرٌ بالحبّ!

يسوع أمام قيافا

(بريشة أليسّاندرو مانتاڤاني)

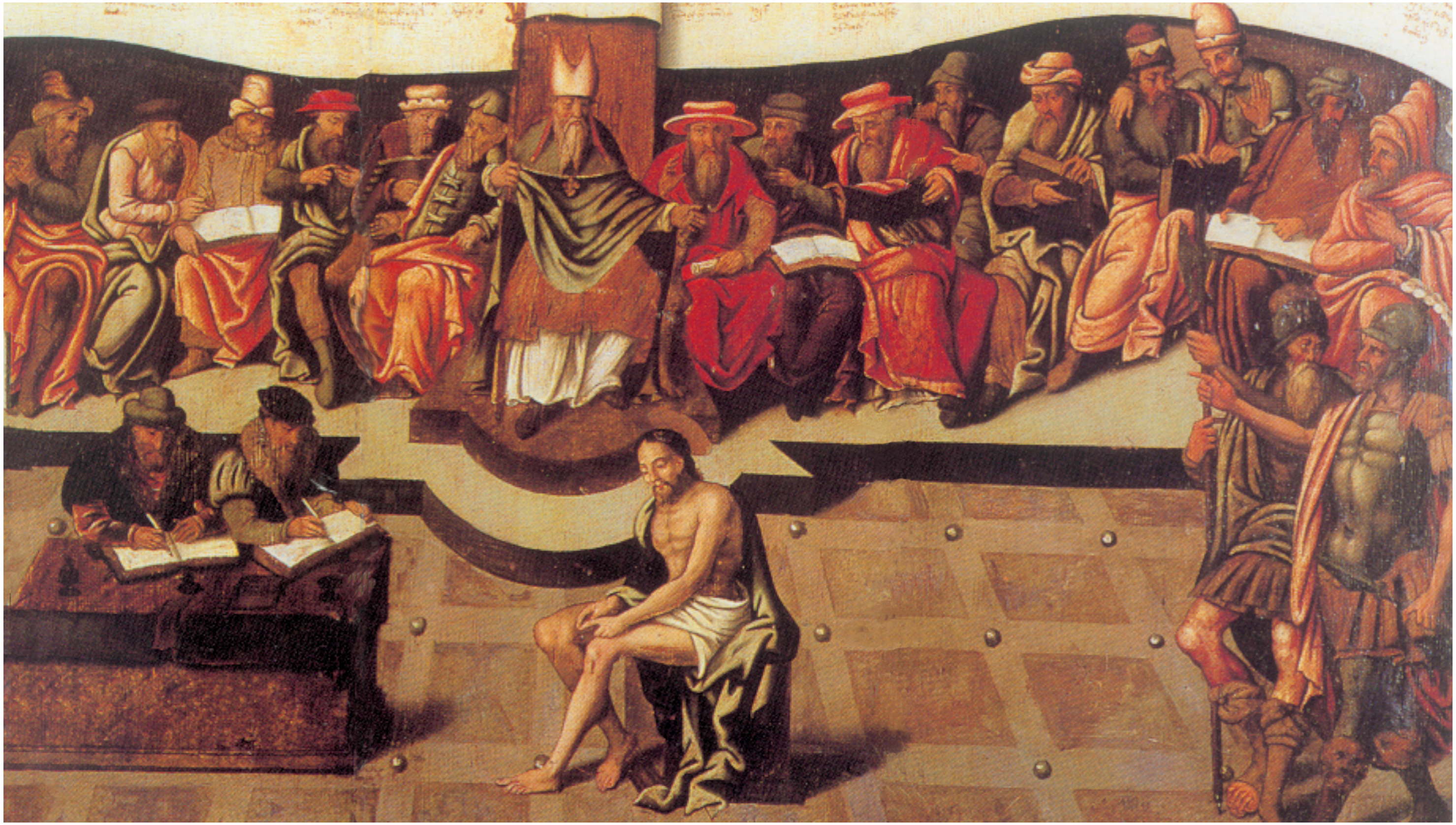

محاكمة يسوع الدينيّة

مَهْـزَلَةُ مُحاكَمَةِ يَسُوعَ الدِّيـنِيَّة

نفّذ زعماء اليهود مكيدة القبض على يسوع، بما تخطّى أكثر توقّعاتهم تفاؤلاً، فيما كانت أورشليم مستغرقةً في النوم. وعادوا به، في الاتّجاه المعاكس لذاك الذي كان قد انتهجه مع تلاميذه قبل سُوَيعاتٍ معدودات، عابرين وادي قدرون، ثمّ مصعّدين في التلّة القائمة غربيّ المدينة، حيث كان ينتصب صرحٌ فخمٌ يضمّ قصرَيْ حنّان، رئيس الكهنة السابق، وصهره قيافا رئيس الكهنة الرسميّ، في تلك السنة.

مع أن حنّان كان قد عُزِل عن منصب رئاسة الكهنوت منذ العام ١٥، إلاّ أنّه، بمكره، ظلّ مهيمنًا عليه، وقد خلفه عليه خمسةٌ من أبنائه. ثمّ تولاّه صهره قيافا، ولكنّه ما انفكّ يمارس نفوذًا بالغًا، ولكأنّه ما برح رئيس الكهنة الفعليّ.

كان حنّان يمتلك كلّ مقوّمات السعادة الأرضيّة، من ثروةٍ، ومجدٍ، ونفوذٍ، وتكريمٍ، ولكنّه كان يفتقر إلى تقدير القوم المستقيمين، الذين كانوا يأخذون على الأُسر الكهنوتيّة، حينذاك، صَلَفها، وبذخها، وكَلَفها بالتظاهر، واستغراقها في المادّيّة، وقسوة قلوب أفرادها الخالية من الرحمة، وفضلاً عن كلّ ذلك، تميّزت أسرة حنّان بالخبث، والبخل، والجشع، واحتكارها تجارة الهيكل.

وبما أنّ مكيدة القبض على يسوع، وتدبير مسرحيّة محاكمته وصلبه، كانا من ابتكاره، أولاه صهره قيافا شرف استنطاق يسوع، أوّلاً، لعلّه يوجّه سياق الدعوى.

جيء، إذن، بيسوع مباشرةً إلى حنّان، وكانت الكتيبة الرومانيّة قد فرغت من مهمّتها، فعادت إلى ثكنتها، وتولّت الزعامةُ الدينيّة متابعة الإجراءات.

وخضع الخالق الديّان لإدانة خلائقه!

الجلسة الأولى، أَمام حنّان، خلت من المقوّمات القانونيّة، فلا مدّعون ولا شهودٌ؛ ومن أعضاء السنهدرين لم يكن حاضرًا سوى ثلّةٍ من الأشدّ نقمةً على يسوع. وكانوا

قد انضمّوا إلى موكب القابضين عليه. وقد استُدعي، على عجلٍ، آخرون ممّن كان حنّان يضمن ولاءهم. وكان حنّان يأمل أن يحصل من المخلّص، في ساعات الهلع والاضطراب التي تلت توقيفه مباشرةً، على اعترافاتٍ حاسمةٍ. فاستوضحه عن تلاميذه وعن تعليمه، بصفته مسؤولاً عن سلامة المعتقدات، ويسوع، في نظره، صاحب بدعةٍ وهرطقةٍ. وحاول أن ينتزع منه اعترافًا بذلك. وجاء جواب يسوع صارمًا، مُفحِمًا: «**إنّي كلّمتُ العالمَ علانيّةً، وعلّمتُ دائمًا في المجامع وفي الهيكل حيثُ يجتمعُ اليهودُ كلّهم، وما قلت شيئًا في الخُفية. فلماذا تسألُني؟ سَل الذين سمعوا عمّا كلّمتُهُم به، فإنّهم يعرفون ما قلت**». **فلمّا قال هذا لطَمَه واحدٌ من الحَرَس كان هُناك وقال:** «**أهكذا تُجيب رئيس الكهنة؟** «**فأجابه يسوع:** «**إن كنتُ نطقْتُ بسوءٍ فاشهدْ عليّ بهذا السُّوء، وإذا بصوابٍ فلمَ تضرِبُني؟ وأرسله حنّانُ موثوقًا إلى قيافا، رئيس الكهنة**» (يوحنّا ١٨: ٢٠– ٢٤).

جواب يسوع هو جواب من يثق ببراءته، ويعي تفوّقه، على قاضٍ لا وزن للعدالة لديه، والحقيقة هي آخر اهتماماته.

لم يكن في القاعة شهودٌ، فاستشهد يسوع بالرابّيّين، والشعب، الذين طالما سمعوه، فهو قد علّم، دائمًا، جهارًا وعلى رؤوس الملأ، وعلى نقيض معلّمي اليهود، الذين كانوا يعلّمون في زوايا ضيّقة، ويقصرون تعليمهم على حفنةٍ من التلاميذ، كان يسوع يعلّم أوسع الجماهير، وأشدّها تنوّعًا، في أكثر الأماكن علانيةً، في المجامع، وفي أروقة الهيكل، وفي الساحات، وفي الهواء الطلق. وقد أوعز إلى تلاميذه أن يعلنوا، من على السطوح، ما سمعوه منه، ولم تكن تعاليمه مقصورةً على فئةٍ معيّنةٍ، بل موجّهةً للعالم أجمع، وكان الألوف شهوده.

أُسقط في يد المستنطق الذي كان يتوقّع جوابًا يبني عليه اتّهامه، ولحظ ضيقَه أحد خدمه الغيورين– ويُعتَقَد أنّه ملكس الذي صلم له بطرس أُذنه وأعادها له يسوع– فتبرّع بالتنفيس عنه، فأدّب يسوع بصفعةٍ، قائلاً: «**أهكذا تجيب رئيس الكهنة؟**»، وكان ردّ يسوع على تلك الصفعة ينمّ عن جلالٍ ورقّةٍ لامتناهيين، وعلى صبرٍ ورأفةٍ بلا حدودٍ.

سيظلّ يسوع يتلقّى الصفعات من الجبناء والأذناب، والمدَّعين، ولكنّ الصفعة

الأوجع إيلامًا ستأتيه من حبيبه بطرس الذي أنكره. ولكنّ بطرس ندم، وبكى، ونهض، واستبسل. وما أكثر خلفاءَه الذين يصفعون ذاك الذي أحبّهم، واختارهم، ولا يخجلون!

في حضرة أرباب السُلطة، ذنب الضعيف الأكبر هو أن يكون على حقٍّ، وإن هو تجرّأ فأكّد حقَّه وأثبته، عُدَّت جرأته إهانةً لصاحب السُّلطة.

اتّضح لحنّان أنّه لن يظفر بالكثير، فأوجز استجوابه، وأمر باقتياد السجين مقيّدًا إلى صهره قيافا، رئيس الكهنة الرسميّ. وهذا يعني أنَّه أرسل له ضحيّةً لا لاستجوابها، بل لإصدار الحكم فيها اعتباطًا، ولم يكن قيافا بحاجةٍ إلى هذه النصيحة، فهو الذي كان قد أفتى أنّه خيرٌ أن يموت رجلٌ بريءٌ واحدٌ عن الشعب! ومن ثمّ يمكن تقدير عدالة حكمه!

وكان قيافا مثالاً للحقارة، كاهنًا وضيعًا غير مؤمنٍ، مطيّةً للمحتلّ، متّصفًا بكلّ الصفات الخسيسة التي يتمنّاها الرومانيّون المحتلّون في عملائهم، والكفيلة بتحقير الكهنوت، آخر قلاع اليهود. وكان، حينئذٍ، يتبوّأ منصب رئاسة الكهنوت منذ ما ينيف عن أحد عشر عامًا، واستمرّ فيه نحو سبعة أعوامٍ أُخرى، في حين أنَّ ثلاثةً ممّن سلفوه، وخمسةً ممّن خلفوه في هذا المنصب، كانوا يُخلَعون بعد عامٍ واحدٍ من تنصيبهم، مما يسوّغ الاعتقاد بأنّه ما بلغ هذه الحُظوة الاستثنائية، إلاّ بفضل الحقارة، والرشوة، والمكائد الدنيئة، والانبطاح عند أقدام هيرودس، وشراء حظوته، مع ما عُرف عن هيرودس من تشكّكٍ، وتعسّفٍ، وجشعٍ، وتمتّعٍ بإذلال الكهنوت اليهوديّ، وقمع تطلّعات اليهود إلى الاستقلال بعنفٍ وشراسةٍ. وقد فضحت محاكمته ليسوع كلّ وضاعة نفسه.

بصفته رئيس الكهنة، كان قيافا أيضًا، رئيس السنهدرين، أو المحكمة العليا، الذي يتألّف من رؤساء الكهنة، وزعماء الأُسر الكهنوتيَّة، ومعظمهم من الصدّوقيين، ومن الشيوخ أي وجهاء العلمانيّين، وأخيرًا، من الكتبة وأئمّة الشريعة، وأغلبيَّتهم من الفرّيسيّين.

وكان إصدار حكمٍ بالموت يستلزم شروطًا دقيقةً وعسيرةً، فقد كان محظورًا عقد جلسة محاكمةٍ ليلاً، وهذا الشرط قد خُرِق، إذ عُقِدت الجلسة الأولى قبل الفجر، وبحضور عددٍ ضئيلٍ من أعضاء السنهدرين، أي بنصابٍ غير مكتملٍ.

وكان يُشرَع بسماع شهود الاتّهام وشهود الدفاع، على أن يُحاط هؤلاء الشهود علمًا بخطورة أقوالهم، وبتبعاتها. وكانوا يُعزَلون بعضهم عن بعضٍ تفاديًا لتواطئهم. وكان يُطلب منهم الشهادة بما رأوا بأمّ عيونهم، لا بما سمعوا. ولم يكن يُسمح بإصدار الحكم في يوم المحاكمة عينه، بل كان يُرجأ إلى اليوم التالي. وكان القضاة يُبدون آراءهم ابتداءً من الأدنى مرتبةً، لكيلا يؤثّر رأي قاضٍ رفيع المقام على من هم دونه مرتبةً، وقد فُرِضت هذه الشروط كلّها بُغيةَ الحؤول دون إصدار حكمٍ بالموت تعسُّفيٍّ أو جائرٍ، فاستيفاء هذه الشروط كلِّها يكاد يكون متعذّرًا.

غير أنّه من الجليّ أنّ معظم هذه الشروط قد امتُهن في محاكمة يسوع، بصفاقةٍ، ووقاحةٍ، واستهتارٍ. فقد جرت المحاكمة في بيت قيافا، لا في مقرّ السنهدرين الرسميّ. وشُرِع بالاستنطاق ليلاً، وصدر الحكم في غضون سُوَيعاتٍ، لكي يتمّ كلّ شيءٍ خلسةً، وفي عجلةٍ قصوى.

وكانت الشريعة تقتضي، قبل إصدار حكم إعدامٍ، لا أقلّ من شهادتَيْن أَو ثلاث شهاداتٍ متطابقةٍ، في أدقّ تفاصيلها المتعلّقة باليوم، والساعة، والظروف. إلاّ أنّ أعضاء السنهدرين قد عمدوا إلى شراء شهود زورٍ، ولكنّهم، في عجلتهم، لم يُحسنوا تلقينهم، فجاءت شهاداتهم متناقضةً. فليس من اليسير إثبات خطيئةٍ على البراءة المطلقة. إلى أن جاؤوا بشاهدَيْن جهدوا في تلقينهما، فقال أحدهما: «**إنّ هذا قد قال إنّي أقدر أن أنقض هيكل الله، وأبنيه في ثلاثة أيّام**»، فيما أدلى آخر بأنّه سمعه يقول: «**إنّي أنقض هذا الهيكل، الذي هو من صنع الأَيدي، وأَبني، في ثلاثة أيّامٍ، هيكلاً لم تصنعه الأيدي**».

شهادتان متباينتان، ملفّقتان، فيسوع لم يقل، يومًا، إنّه سينقض الهيكل، بل قال: «**انقضوا هذا الهيكل** – مشيرًا إلى جسده، هيكل الأُلوهة الحقّ– **وأنا في ثلاثة أيامٍ أُقيمه**». وحتّى لو كانت الشهادتان صادقتين، فهما لا تسوّغان الحكم بالموت، مع اعتداد اليهود بهيكلهم، مركز ديانتهم، ومصدر فخرهم. ويا لكفر من يتكلّم عن تدميره، ويا لقحته! والوعد ببناء هيكلٍ آخر، بقدرةٍ إلهيّة، أليس اعتدادًا أو تجديفًا، ولكأنّ الله يخضع لنزوة مأفونٍ!

«**فقام رئيس الكهنة، وقال له «أما تجيب بشيءٍ؟ ما هذا الذي يشهد به هذان عليك؟ وأمّا يسوع فظلّ صامتًا**»، يتفرّج بأسًى على تباري حكّامه في الحقارة. لم

يكن يرى من القضاء سوى مسخٍ له ومهزلةٍ، حيث رجالٌ لا عهد لهم بالعدل ينقضّون على أيّة تهمةٍ، انقضاضَ اللصوص على غنيمةٍ. لم يُجب يسوع بشيءٍ لأنّ قرار إعدامه كان قد صدر قبل محاكمته، ولن يكون لدفاعه عن نفسه جدوى.

ترك يسوع الغشّ يفضح نفسه، والتزم الصمت، عملاً بقوله: «**لا ترموا جواهركم أمام الخنازير**». وتبيّن قيافا كم كان صمت يسوع مثقلاً بالفصاحة، فضاق ذرعًا به، وبتضارب الشهادات التي لو عكف الكتبة على تمحيصها حرفيًّا، كما تفرض الشريعة، لتمادت المحاكمة أيّامًا، وربّما أسابيع، وهم كانوا قد أجمعوا على الفراغ منها، في ذلك الصباح عينه. فاستخدم الضغط والإكراه، وقال له: «**أستحلفُك باللّه الحيّ أن تقول لنا هل أنت المسيحُ، ابنُ اللّه؟**» فقال له يسوعُ: «**أنتَ قُلتَ. وأقولُ لكم أيضًا إنّكم منذ الآن ترون ابن البشر جالسًا عن يمين القُدرة وآتيًا على غمام السماء». حينئذٍ شقّ رئيس الكهنة ثيابه، وقال: «لقد جدّف! فما حاجتنا بعدُ إلى الشهود؟ لقد سمعتم تجديفه. فماذا تَرون؟» فأجابوا وقالوا: «إنّه يستوجب الموت**» (متّى ٢٦: ٦٣– ٦٤).

خرج يسوع، أخيرًا عن صمته، لا احترامًا لقيافا، ولا استجابةً لاستحلافه اللاشرعيّ، والذي لم يكن يسوع ملزمًا بالردّ عليه، بل لأنّ إحجامه عن الإجابة كان كفيلاً بأن يُفسّر إنكارًا لكونه ابن اللّه. بإعلانه ألوهته، صراحةً وتلميحًا، من خلال الإشارة إلى نبوءة دانيال، أكّد يسوع كلّ ما حاول إثباته، بأفعاله، خلال سنوات رسالته، أي إنّه ابن اللّه، ومساوٍ له. طيلة حياته العلنيّة كان قد جهد في كتم هويّته الحقيقيّة هذه، من باب الحيطة، ولم يُسفر عن شيءٍ منها إلاّ في أيّامه الأخيرة، وفقط لمن كان قد أعدّهم لذلك. وها قد حانت ساعة إعلانها على الملأ، وأَمام أعلى السُّلطات، مع علمه أنّه، باعترافه هذا، كان يوقّع حكم إعدامه بيده.

لم يكتفِ بإعلان كونه ابن اللّه، بل أنبأ بتألّق مجده، وسط ظلم البشر، معلنًا عن انتصاره، وملكوته، وإدانته للعالم، وبقوله «**منذ الآن**» أشار إلى أنّ موته هو مدخل مجده، ففجّر عاصفة استنكارٍ هوجاء.

نادرًا ما تكلّم يسوع، صراحةً، عن رسالته المسيحانيّة، وكان حريصًا على إخفائها كلّما حاول الشعب تنصيبه ملكًا. وها هوذا الآن، في هذه اللحظات المأسويّة، وهو مقيّد اليدين، معرَّضٌ لكلّ ضروب الإهانات، وضحيّة محكمةٍ مهزلةٍ، يعلن صراحةً

انتصاره السماويّ، مؤكّدًا أنّ ابن البشر سيظفر بالعرش بفضل الصليب. نسي قيافا أنّه حَكَمٌ، وتولّى دور المدّعي، ولم يتورّع عن اللجوء إلى انتزاع اعترافٍ، عنوةً، لتبرير حكمٍ بالإعدام كان قد قرّره قبل المحاكمة. وفضلاً عن ذلك، غالى في تمثيل استفظاعه لما عدّه تجديفًا، وهذا التمثيل أعفاه من سماع المزيد من الشهود، وتوفير المزيد من الأدلّة، ومن مداولات أعضاء السنهدرين الممالئين له، والمضاهين له نذالةً، والذين أغضوا عن حقّهم بالإدلاء بآرائهم كلٌّ على حدةٍ.

شقُّ الثياب، استنكارًا لتجديفٍ، عملٌ مفروضٌ على كل يهوديٍّ تقيٍّ، ولكنّ له طقوسًا حدّدها التلمود بدقّةٍ، غير أنّ شقّ قيافا لثيابه كان مهزلةً تخفي فرحًا خبيثًا، ناجمًا عن غبطته بالإمساك بفريسته، ووضعها أمام خيارٍ عسيرٍ: فإمّا أن ينكر يسوع رسالته، أو يُسام موتًا زعافًا. خيّل إليه أنّه انتصر، وقبض على خصمه في الجرم المشهود، فبادّعائه كونه ابن الله استحقّ حكمًا بالموت من قِبَل محكمته الدينيّة، وبادّعائه أنّه المسيح، أي زعيمٌ وطنيٌّ، سيتمكّن قيافا من إحالته إلى محاكمةٍ أُخرى أمام الوالي الرومانيّ.

وكان أولى بقيافا أن يعمل بقول النبيّ يوئيل: «**مزّقوا قلوبكم، لا ثيابكم!**» (٢ : ١٣). ولكنّ يسوع كان هو المنتصر، حقًّا. فقد كان يسير إلى حتفه، بعلمه وإرادته، ثابتًا، جاعلاً منه استشهادًا، ودامغًا إيّاه بخاتم تعلميه الأسمى.

أَدان قيافا ابن الله بحجّة الذود عن حياض يهوه، وبات كلّ شيءٍ مباحًا حيال المجدّف. غير أنّ تمزيق قيافا لثيابه لم يكن غضبًا لله، بل كان، في الواقع، غضبًا عليه.

وريثما يلتئم السنهدرين بكامل نصابه، في الصباح، أوكل قيافا يسوع إلى عناية حرسه وأزلامه، أولئك الذين يحرص السادة على انتقائهم ممّن ينقادون لكلّ أَهوائهم، الذين يمقتون تلقائيًّا جميع من يقفون أمام محكمة أسيادهم، ويوغلون في اضطهادهم والتنكيل بهم، بقدر ما يتأكّدون من براءتهم. وها قد وقع، بين أيديهم، الصالحُ، ابنُ الله، رجل الرحمة، فاتّخذوه لعَبَثِهم المجرم دُميةً وهدفًا. لقد أفلتت غرائزهم البهيميّة من عقالها، فتسابقوا على لطمه، ولكمه، ثمّ عصبوا عينيه، وراحوا يضربونه من الخلف، ويقولون ضاحكين: «**أيّها النبيّ، تكهّن بمن ضربك**» وأوسعوه بصاقًا، وانهالوا عليه بالصفعات الرنّانة، وقذفوه بأقذع الشتائم، وافتنّوا في

استنباط أَحقر أساليب الإهانة، التي كانت تفعمهم متعةً، وظلّوا عليه حتّى نال منهم الكلَل، فتركوه كومةً زريّةً، لا حول لها ولا طول، ورقدوا إلى جانبه كي يرتاحوا من جهدهم. وإنّما هم بصغاراتهم هذه كانوا يعبّرون عن مقت أسيادهم للضحيّة.

البصاق والصفعات، وشتّى ضروب الإذلال، انطوت على قسطٍ من المهانة أكبر ممّا يحتمله إيماننا، ولكنّ يسوع ارتضاها لكي لا يكون، في العالم، سجينٌ أو شهيدٌ، أو مدانٌ بريءٌ أو مذنبٌ، لا يجد، في يسوع المهان والمصلوب، صورته وشبهه.

عصبوا عينيه، ولكنّ الظلمة غشت نفوسهم، ونفوس أَسيادهم الذين، بحجّة الدفاع عن هيكل أورشليم، أَنزلوا الإهانة بهيكل الله الحيّ، وسخروا من نبيّهم، ومن إلههم الذي تجسّد من أَجل افتدائهم.

استكمالاً لمهزلة المحاكمة الليليّة، التأمت، في الصباح، هيئة السنهدرين بغالبيّة أَعضائها الذين لم يسعَ أحدٌ منهم إلى استقصاء الحقيقة، أو إلى الاعتراض على المخالفات القانونيّة، بل اكتفوا برفع الأَيدي لتأييد قرارٍ مجرمٍ جائرٍ، كما هي حال بعض مجالسنا! كثيرون منهم ما انفكّوا يذكرون تنديده اللاذع بصَلَفهم وريائهم، والخزي الذي ألبسهم إيّاه، نتيجة سجالاتهم معه، وكانت رغبة الانتقام لديهم من الاضطرام بحيث لم يحجموا عن ارتكاب أفظع جريمةٍ في تاريخ البشريّة.

لم ينهض أحدٌ من علماء الشريعة للدفاع عنه، أو للمطالبة بإرجاء القرار، بحثًا عن مزيدٍ من الأدلّة، ولو هم كانوا حريصين على العدالة، أو امتلكوا الجرأة، لاستدلّوا من فعال يسوع ومعجزاته أنّه لم يدَّعِ كذبًا، وأَنَّ أعماله كلّها كانت تثبت ألوهته. غير أنَّ الجبن، والأَهواء، والأحقاد، أَعمت بصائرهم، فحكموا بالموت، افتئاتًا، على البراءة وعلى ابن الله.

وقد مضوا قُدُمًا في غيّهم، رغم اعتراف يهوذا الذي أسلمهم الضحيّة، أنّه أسلمهم بريئًا، ودمًا زكيًّا، ممّا أضفى على جريمتهم مزيدًا من فظاعةٍ وقتامٍ.

كانوا مستعجلين في قتل يسوع قبل حلول السبت. فيا له من سبتٍ يقدّسونه بقتل ربّه!

ولم يكن قتلة يسوع من الرعاع، بل كانوا ممّن يدّعون التقوى، ويعلّمون مبادئ الدين والأخلاق، ويحرصون على التقيّد بالشرائع.

ومن المؤكّد أنّ غرضهم لم يكن مجرّد القضاء عليه، بل تمريغه في الوحل وتسفيهه في عيون مريديه ومناوئيه على السواء.

وقد أوجز الإنجيليّ لوقا محضر تلك الجلسة الصباحيّة الحاسمة بقوله: «**ولمّا كان النهار التأمَ مجلس شيوخ الشعب مع رؤساء الكهنة والكتبة. واستحضروه إلى مجلسهم، وقالوا له: «إنْ كنت أنت المسيح فقُله لنا». فأجابهم: «إنْ قلت لكم لا تُصدّقون، وإذا سألتكم لا تجيبون، ولكن، من الآن يكونُ ابنُ البشر جالسًا عن يمين قدرة الله». فقالوا جميعُهم: «أنت إذن ابن الله». فقال لهم: «أنتم أنفسُكم قلتُموه. أنا هو». فقالوا: «أيُّ حاجةٍ بنا بعدُ إلى شهادةٍ وقد سَمِعْنا، نحنُ أنفسنا، من فمه؟**» (لوقا ٢٢: ٦٦- ٧١).

من المحقّق أنّ نفرًا من أعضاء السنهدرين لم يشتركوا في تلك الجريمة. فالمعروفون منهم بتعاطفهم مع يسوع لم يُدعوا إلى الجلسة، وآخرون كانوا من الجبن ومن اليقين بأنّ اعتراضهم سيذهب هباءً، لأنّ قرار إعدام يسوع كان قد أُبرم قبل بدء المحاكمة، فآثروا التزام الصمت.

وانتهت المحكمة الدينيّة بإرسال من هو القيامة والحياة إلى القبر، وبإصدار رئيس الكهنة، في تلك السنة، حكم الإعدام على رئيس الكهنة الأبديّ. وبات كلّ همّ السنهدرين انتزاع أَمر تنفيذ الحكم من قبل الوالي الرومانيّ.

كان قيافا قد أفتى بضرورة قتل يسوع، تفاديًا لفناء الأُمّة بأسرها، ولكنّه كان، في الواقع، يمهّد لدمار أورشليم وهيكلها. والأُمّة التي أَسلمت مسيحها للرومانيّين لن تلبث أن تصبح فريسة السلطة الرومانيّة.

إنْكارُ بُطْرُس

لم يرافق يسوع إلى قصر قيافا، من تلاميذه، سوى خائنه يهوذا إسقريوت. أمّا الآخرون فلم يبتعدوا كثيرًا، وتوقّفوا عن الجري والتطلّع إلى الوراء، حالما أَيقنوا أنّهم لن يؤخذوا بجريرة المعلّم، ولن يشاطروه مصيره. حينئذٍ، فقط، خجلوا من جبنهم، وأخذوا يتسلّلون عائدين خلسةً إلى أورشليم، غير أنّ اثنين من المقرّبين الأثيرين انضمّا إلى الموكب، خلسةً، وبحذرٍ، وهما يوحنّا الذي شقّ عليه الابتعاد عن ذاك الذي كان لسُوَيْعاتٍ خلت، متّكئًا على صدره، وبطرس الذي تذكّر ادّعاءاته «العنتريّة»، وتأكيد استعداده للإقدام على الموت، إن اقتضى الأمر، ذودًا عن حياض المعلّم. لقد آثر التواري، إثر إعماله السيف و صلم أُذن خادم رئيس الكهنة، ولكنّه لم يُطق الابتعاد عن المعلّم، فراح يتعقّبه عن بعدٍ، وبدافع حبّه له خاطر باقتحام عرين الأَسد.

عند باب قصر قيافا تلبّث بطرس، وقد استولت عليه الرعدة، غير أنّ «التلميذ الآخر»، كلّم البوّابة، وأقنعها بإدخال صديقه. يُعتَقد، عمومًا، أنّ هذا التلميذ الآخر إن هو إلاّ يوحنّا نفسه، في حين يرى بعض الكتّاب أنّه يوسف الأريماثيّ الذي كان، في الخفية، من تلاميذ يسوع، وفي الآن عينه، عضوًا في السنهدرين، وبالتالي كان معروفًا لدى رئيس الكهنة.

غير أن المرأة البوّابة التي، بحكم وظيفتها، اعتادت التحديق إلى سِحَن الناس، ولا سيّما الغرباء منهم، اشتبهت بذلك الزائر الغريب المرتبك، المتردّد، فسألته بين هزلٍ وجدّ: «**أَلست، أنت أيضًا، من تلاميذ هذا الرجل؟**». ومع أنه أُخِذ على حين غرَّةٍ، أَجاب بطرس، برباطة جأشٍ مصطنعةٍ: «**أنا لست منهم**». وخشية مزيدٍ من استجوابٍ، أَسرع في اجتياز الرواق المؤدّي إلى فناء الدار، حيث كان الحرس قد أَوقدوا نارًا، فليالي نيسان، في فلسطين، قارسة البرد، وتحلّقوا حولها يستدفئون

ويتحدّثون عن أحداث تلك الليلة الفريدة، فاندسّ بينهم، عساه يمسي في مأمنٍ، راجيًا ألاّ يتعرّفه أحدٌ.

ولكنّ شكوك البوّابة لم تتبدّد، فلحقت به إلى حيث كان، وسط المستدفئين. فقد كانت سحنته الكئيبة وسط القوم الفرحين المثرثرين، مثار ريبةٍ. وطرحت عليه سؤالها ثانيةً، بحيث يسمعه الجميع. فاشرأبّت أعناق الحاضرين، وسُرّوا لعثورهم على موضوعٍ آخر للتحدُّث والتندّر، وراح كلٌّ منهم يستجوبه بأسلوبه. عوضًا عن المأمن الذي التمسه، ألفى بطرس نفسه في أشداق ذئابٍ، وغدا يتجاهل أسئلتهم، حينًا، ويُقسم، حينًا آخر، على جهله للمتّهم. بيد أنَّ ارتباكه كان يتفاقم، وكان يستنكر، بأسًى، إنكاره المتكرّر لمعلّمه الذي ما برح يحبّه بكلّ جوارحه، فنهض وفزع إلى عتمة الرواق، علّه يتوارى عن الأنظار المشكّكة، المحدّقة. حينئذٍ أطلق ديكٌ مبكّرٌ أولى صيحاته، ولكنّ بطرس، في غمرة اضطرابه، لم يلحظها.

في تلك الأثناء كانت البوّابة قد رجعت إلى موقعها عند الباب، وعادت تحاصره بأسئلتها، متّهمةً حينًا، هازلةً حينًا آخر، مشركةً الخدّام في الاستجواب المحرج. أمام حارسة بيت قيافا، ارتعد فرَقًا حارس أبواب السماء! كان يسوع قد علّمه أنّ النصر يتحقّق بفضل الآلام الطوعيّة، وهو زعم أنّه سينتصر بالمقاومة، ويا له من مقاومٍ زريٍّ! لم يقوَ على السهر، ساعةً، مع المعلّم في نزاعه، ولكنّه استلّ السيف للذود عنه. خاطر بالمجيء إلى بيت قيافا، ولكنّه أنكر معرفته بسيّده، وذاك الذي وصف يسوع، يومًا، بأنّه «**ابن الله الحيّ**» بات يدعوه «**هذا الرجل**»! وإذ وجد بطرس نفسه في مأزقٍ راح يغلظ الأَيمان مؤكّدًا أنّه لا يعرف الرجل. وما كاد ينعم بلحظات هدنةٍ، حتّى استيقظت بشأنه الظنون من جديدٍ. وفي محاولةٍ لإخفاء جَيَشان نفسه اشترك في الحديث، ففضحته لهجته الجليليّة. وقال له نفرٌ من الحاضرين: «**في الحقيقة أَنتَ، أيضًا، منهم، فإنّ لهجتك تشهد عليك**». ثمّ جابهه نسيبٌ لملكس الذي كان بطرس قد صلم أُذنه، وسأله: «**أما رأيتك معه في البستان؟**».

حيال هذه الأدلّة الدامغة الساحقة، تبيّن بطرس الخطرَ المحدق به، والتماسًا للتملّص شرع يلعن ويحلف، محاولاً إقناع مستنطقيه بأنه لم يعرف، قطّ، يسوع الناصريّ من قبل، ولم يسمع عنه شيئًا، مستنزلاً على نفسه أفظع اللعنات إن هو

كان يكذب. وفيما كان سيل أَيمانه يتدفقّ، أطلق الديك صيحةً ثانيةً، وفي تلك الأثناء أُخرج يسوع من المحكمة مكبّلاً، يقتاده الحرس، وتشابكت أنظارهما، فحطّ عليه الربُّ نظرةً كشفت له، بما انطوت عليه من رقّةٍ وحزنٍ، كلّ صغارة نفسه، وكان وقعها عليه مزلزلاً. لقد أنعشت ذاكرته، وأَيقظت حبّه. هو أنكر معرفته «**هذا الرجل**». ولكنّ يسوع ما انفكّ يحبّ بطرس الرجل.

الحكم على يسوع، ظلمًا، بالموت، كان أخفَّ وطأةً على نفسه من إنكار بطرس الذي أقام منه زعيمًا لتلاميذه، ورئيسًا لكنيسته. بطرس الذي كان أوّل من اعترف بيسوع مسيحًا وابن الله، وتعهّد بالوفاء له حتّى الموت، أَقسم أنّه لا يعرف هذا «**الرجل**»، وتنصّل من كونه له تلميذًا.

صحا بطرس، وذهل عمّن كانوا يراقبونه، وتدفّقت إلى ذاكرته أقوال المعلّم، لسُوَيعاتٍ خلت، محذّرةً من إنكاره ثلاثًا، قبل أن يصيح الديك مرَّتين.

لم يستطع إطالة التأمّل في ذلك الوجه الحبيب الذي أكمدّ وانتفخ، بفعل الصفعات واللكمات، فدفن وجهه بين راحتيه، وفرّ خارجًا من مسرح جبنه وهزيمته، وسكب من الدموع أكثر ممّا سكب مذ رأى النور. هذا الندم الذي واكبه حتّى نَفَسه الأخير غسل ذنبه، وكان مصدر استبساله في نشر رسالة الملكوت، وأبرزه أشدّ عزيمةً، وأمنع ثباتًا.

الدموع الحرّى التي ذرّفها استهلّت تطهيره وتجديده، وسيكمل المعلّم تطهيره، وتجديده، وقلب كيانه، ببثّه روحه. حينئذٍ، ذلك الجاحد، اليوم، فَرَقًا من خَدَم رئيس الكهنة وجواريه، سيواجه الأباطرة بجرأةٍ، وذلك الضعيف المتخاذل، اليوم، لن يهتزّ إيمانه حتّى في مواجهة الموت على الصليب.

بإنكاره، كبا بطرس كبوةً عابرةً، ولكنّه لم يفقد، لحظةً، إيمانه بالمعلّم، ولا خبا حبّه له. خطأه أنّه اعتدّ بقدرته على الصمود، ونسي هشاشته. لذلك، مع كلّ وهنه وإنكاره، جعل الربّ منه، لا من التلميذ الذي كان يحبّه، يوحنّا البريء الصادق، حجر أساس كنيسته، لكي لا يقنط من يكبون، ويخطأون، وينهضون.

وخليقٌ بالتنويه أنّ مجرّد وجود بطرس في قصر قيافا، وارتمائه في أشداق الذئب، هو دليلٌ على ما كان لحبّ المعلّم من أَسرٍ على نفسه.

يقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم إنّ كون بطرس أوّل الكابين قد جعله يلطّف، بالرحمة والصبر، صرامة الأحكام التي سيُدعى إلى إصدارها بحقّ الكابين. لقد هوى، وندم، واستصفح، كي يلقّن الرأفة من سيُكلَّفون بالحكم.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الإنجيليّين رووا إنكار بطرس بلا مواربةٍ ولا تحفّظٍ، ولم يلتمسوا له عذرًا، فقد كان ندمه أكبر من كبوته، بحيث بات قدوةً وشفيعًا لكلّ من سقط وندم، وهبّ لغسل ذنبه، ولمواصلة النضال.

نِهـَايَـةُ يَهـُـوذا

مع انتهاء جلسة السنهدرين الصباحيّة، ذاع نبأ صدور الحكم بإعدام يسوع، وكان يهوذا من أشدّ المترقّبين لهذا الحكم، قلقًا. وقد أحدث في نفسه صدمةً مدمّرةً، إذ أبرز كلّ بشاعة خيانته، التي لم يتوقّع لها هذه العاقبة المريعة. وحينئذٍ تغلّب عليه حبّه ليسوع على كلّ حبٍّ آخر، حتّى على حبّ المال الطاغي. غير أنَّ قلبه العَكِر لم يستطع التطلّع إلى الصفح. وأَصبحت له الثلاثون قطعةً فضّيّةً، دمغة خيانته، ومصدر مرارةٍ قاتلةٍ، ونارًا كاويةً. لقد اتّضح لـه، بجلاءٍ وقسوةٍ، أنّ ثمن خيانته لم يُغنِه، بل تردّى به إلى أَقصى دركات الفقر الروحيّ والأخلاقيّ. وما من أحدٍ ينكر الربّ أو يبيعه لقاء متعةٍ عابرةٍ، أو مكافأةٍ مؤقّتةٍ، لا يدرك، سريعًا، مدى غبن صفقته، إذ إنّه استبدل ما لا يُثمّن بالحقير التافه. فهرع إلى رؤساء الكهنة واعترف: «**لقد سلّمتكم دمًا زكيًّا**»، ومدّ لهم كيس النقود، ولكأنّه، باعترافه هذا، وبردّه مال الخيانة، كان يبتغي محو فعلته الشنعاء. ولكنّهم، ببرودةٍ وصَلَفٍ وسخريَّةٍ، أَجابوه: «إنّ الشأن شأنك». كانوا قد أبرموا معه عقدًا، ونفّذوه، وقُضي الأمر. بعد أن نالوا منه وطرهم لفظوه لفظ النواة، وهزئوا به، واحتقروه. وهل يستحقّ أَمثاله أكثر من الهزء والاحتقار؟ ربّما خيّل إليه أنّه سيصبح ذا شأنٍ لديهم. ولكن حتّى المجرمون لايثقون بخائنٍ. ربّما ظنّ يهوذا أنّه، بتسليمه يسوع، سيكرهه على إبراز كلّ قدراته الإلهيّة التي طالما حرص على كتمانها، فإذا بمعلّمه لا يفعل شيئًا لإنقاذ نفسه، ويمضي إلى المجزرة طائعًا.

استشاط يهوذا غيظًا وقد سُدّت في وجهه كلّ المنافذ، وبهظه وِقرُ الشواقل التي كان يحملها، فهرَع إلى الهيكل، وراح يقذف، بنَزَقٍ وبِحَنَق، قبضاتٍ من النقود باتّجاه الهيكل، حيث تناثرت في كلّ اتّجاهٍ، ولكأنّ بقيّة كرامةٍ فيه كانت تستنكر

رياء اليهود. لقد بدا وكأنّه يصارع للتحرّر من عقدة أفاعٍ تلدغ قلبه، بيد أنّه لم يجد إلى الفرج سبيلاً.

لقد تحرّر من نوازع الجشع، ولكنّ صخرةً راسيةً كأداء كانت تنتصب بينه وبين الإنسان الذي أحبّه وخانه، وحيثما تلفّت، لم يكن يرى سوى خواءٍ وفراغٍ وظلمةٍ مدلهمّةٍ، ففرّ من الهيكل نحو نهايته المأسويّة.

لقد توقّف يهوذا على شفا التوبة التامّة، ولو تاب لكان للربّ الخائنَ الضروريَّ لعمليّة الفداء، ولوُجد للبشر قدّيسٌ إضافيٌّ، ولكثيرين منّا شفيعٌ.

لقد هُزم إبليس، دائمًا، أمام أعتى المجرمين الذين ما انفكّ الرجاء فيهم متّقدًا. ما دام قبس رجاءٍ يسكن أشدّ النفوس ازدحامًا بالآثام، فلا يفصلها عن الحبّ اللامحدود سوى زفرةٍ. وسرّ الأسرار هو أنّ ابن الهلاك لم يطلق هذه الزفرة.

لم يعرف يهوذا السبيل إلى التواضع الذي يخلّص، وإلى دموع الندم التي تطهّر، ولا إلى الثقة برحمة الله التي تشتري الصفح، وبدت له خيانته فوق كلّ غفرانٍ، وذهل عن رأفة معلّمه اللامحدودة، فارتمى في أحضان قنوطه، ودفعه القنوط إلى الانتحار.

إنّ الشرّير، بعد أن يكون قد زيّن الخطيئة، وأفعم الخاطئ نشوةً بارتكابها، يتخلّى عنه، ويدفعه إلى القنوط، فليس لإبليس أَصدقاء، بل عبيدٌ، وهو يكلّل انتصاره بحملهم على الانتحار.

وقد كان قنوط يهوذا من رحمة الربّ أدهى من خيانته وأفظع.

الإنجيليّ متّى يقتصر على القول إنّه شنق نفسه، أمّا لوقا، فيقول: «**سقط إلى الأمام فانشقّ من وسطه، واندلقت أمعاؤه كلُّها**» (أعمال ١: ١٨). ويبدو أنّ الروايتين تكمل إحداهما الأخرى، فالمسكين، بعد أن شنق نفسه على غصن شجرةٍ، أخذ يتخبّط ويتلوّى، بحيث انكسر الغصن فهوى إلى وادٍ، وانشقّ بطنه.

جَمعَ الكهنة النقود التي نثرها يهوذا عند الهيكل، وتشاوروا بشأنها، فلم تتقبّل ضمائرهم المرهفة استخدامها تقادم للهيكل، لأنّها مالٌ قذرٌ، وثمن دمٍ، وذهلوا عن

أنّ هذا المال مالهم! إلاّ أنّه كان مبلغًا لا يُستهان به، فارتأوا أن يبتاعوا به أرضًا تُستَخدَم مقبرةً للحجّاج الغرباء الذين يتقاطرون إلى أورشليم في الأعياد الكبرى، ويلقى بعضهم نحبهم فيها. وقد أُطلق على تلك الأرض اسم «**حقل الدم**». لقد بذّ رؤساءُ الكهنة الفرّيسيّين رياءً في كلّ تلك القضيّة.

ارتكب أولئك المراؤون جريمة قتل ابن الله، البريء الأوحد، ولم يرفّ لهم جفنٌ، ولا اهتزّ لهم ضميرٌ، ولكنّهم استفظعوا استعادة المال الذي هم دفعوه لشراء ضمير خائنِ ضحيّتِهم، خشيةَ النجاسة، ما أكثر جرائم الحرف القاتل!

مُحاكَمَةٌ مَدَنيّةٌ أمامَ بيلاطُس

أَصدر السنهدرين قرار الإعدام، ولكنّه كان عاجزًا عن تنفيذه، إلاّ بموافقة الوالي الرومانيّ، وانصبّ اهتمام قادة الشعب اليهوديّ على انتزاع هذه الموافقة، ولو بالادّعاء الكاذب والافتراء، والتذلّل. وكانوا أَمام خيارَيْن: فإمّا أن يقتصروا على طلب تصديق حكمٍ أصدره مجلسهم، مدّعين أنّهم أشبعوه تمحيصًا وتدقيقًا، فجاء عادلاً لا طعن فيه، أو أن يدّعوا، هم أنفسهم، على يسوع، أَمام محكمة المحتلّ الرومانيّ، ويستدرجوا الوالي، بكلّ وسائل المكر، إلى إصدار حكمٍ بالإعدام على ضحيّتهم. وعلى هذا الحلّ الثاني وقع خيارهم. فلو هم آثروا الحلّ الأوّل، وهم عليمون بمدى بغض بيلاطس لهم، وازدرائه لحرتقاتهم العقائديّة، لخشوا أن يرفض تصديق حكمٍ مبنيٍّ على أسبابٍ دينيّةٍ صرفٍ، بلا تمحيص، ولَحَرِص على التثبّت من صحّة الادّعاءات، وسلامة الإجراءات، ومن عدم تمويه أَحقادٍ وغاياتٍ شخصيّةٍ، بحججٍ تلبس ثوب الدين، ولآنتهى الأمر إلى نبش مخازٍ كان السنهدرين حريصًا على إبقائها دفينةً.

وكان إيثارهم الخيار الثاني مزدوج المزايا، فهو كفيلٌ بتحميل المحتلّ إدانةً تنفر منها الضمائر الحيّة، وتبعة تنفيذ هذه الإِدانة بمنأًى عن أيّة مغبّةٍ قد تلحق بهم، إذ إِنَّه سيتمّ بأيدٍ رومانيّةٍ. ولا يبدو أنّ تشاورهم اقتضى منهم وقتًا طويلاً، فقد قرعوا باب بيلاطس، وأَيقظوه من نومه، والشمس ما زالت تطلع في الأُفق.

كان بيلاطس وزعماء اليهود يتبادلون كرهًا عميقًا، فهو كان كَلِفًا بإذلالهم، وهم كانوا يستبسلون في مقاومته. وقد سبق لهم أن شكوه إلى قيصر الذي أيّد موقفهم وأكرهه على التراجع، فبات يعاملهم بأعتى عنفٍ، وأقصى ازدراءٍ. كان يشيع الرعدة في نفوسهم، وفي الآن عينه كان يأخذ به الهلع من وشايتهم به إلى سيّده. وعلى هذا الواقع استندوا كي ينتزعوا منه القرار الذي ابتغوه.

منذ الصباح الباكر، إذن، انطلق، من بيت قيافا، موكبٌ هجينٌ يضمّ قضاةً،

وخَدَمًا، وشهود زور، وفضوليّين، قاصدين قصر بنطيُس بيلاطس. وشرعت تتحقَّق، بندًا، بندًا، النبوءةُ التي أطلقها يسوع، لأيّامٍ معدوداتٍ خلت: «**ها نحنُ صاعدون إلى أورشيلم، وابنُ البشر سيُسلّم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكُمون عليه بالموت، ويُسْلِمونه إلى الأُمَم ليهزأُوا به ويجلدوهُ ويصلبوه، وفي اليوم الثالث يقوم**».

وقد مثلت هيئة السنهدرين، بمعظم أَعضائها، كي تسبغ على مسعاها مهابةً وخطورةً، وكانوا من قبل، قد أوغروا صدور الجمع على يسوع بافتراءاتٍ أَوروا بها نيران التعصّب الدينيّ، وذلك ذودًا عن مصالحهم التي كان تعليم الناصريّ تهديدًا لها.

ومنذ الوهلة الأولى، أدرك بيلاطس، من القيود التي كبّلوا بها يدي يسوع، أنّهم يطالبون بموته، إذ هكذا كانوا يأتونه بمن كانوا يبتغون تنفيذ حكم الإعدام فيهم. وفي الآن عينه، تبيّن الوالي أنّ لا شيء، في سحنة يسوع، ينمّ عن كبرياء مثيري الفتن، ويستدعي العقاب، بل توسّم مؤامرةً دينيّةً، وحكمًا تعسُّفيًّا يتعيّن نقضه، لا تنفيذه. منذ الوهلة الأولى اتّضح لبيلاطس أنّ زعماء اليهود ادّعوا عليه حقدًا، وحسدًا، وخوفًا منه على نفوذهم.

لم يباغَت بيلاطس بشكوى اليهود الباكرة، فقد كان أُحيط علمًا بقبضهم على يسوع ليلاً، ولمعرفته بالحساسيّة الدينيّة المفرطة لدى أولئك الذين يصفّون البعوضة، ويبتلعون الجمل، صانع تطيّرهم، ولم يقسرهم على ولوج محكمته، إذ إنّ دخول بيت وثنيٍّ يساوي، في شريعتهم، لمس جثّةٍ، ويعرّضهم للنجاسة مدى سبعة أيّامٍ، فيتعذَّر عليهم تناول الفصح. لا غضاضة عليهم من قتل نبيٍّ بريءٍ، أمّا ولوج بيت وثنيٍّ فينجّسهم! إنّ الفرّيسيّة التي طالما شنّ عليها يسوع حربًا شعواء، تجلّت يومها، بكلّ بشاعتها.

خرج، إذن، بيلاطس إليهم، وأجال فيهم نظراتٍ غاضبةً، وعبّر عن ضيقه، ونفاد صبره، بتطرّقه مباشرةً إلى صُلب الموضوع، مستوضحًا: «**لِمَ تتّهمون هذا الرجل؟**» فأجابوه بقحةٍ: «**لو لم يكن هذا فاعل سوءٍ، هل كنّا أسلمناه إليك؟**» ولكأنّهم كانوا بذلك يلمّحون إلى أنّهم كانوا عادلين في محاكمته، وأنّهم أجمعوا على إِدانته، فما عليه إلاّ تصديق حكمهم. غير أنّ بيلاطس المحنّك تبيّن أنّ وراء هذا

التلميح كانت تكمن مماحكاتٌ عقائديّةٌ يهوديّةٌ، لا يريد التورّط فيها، ورسّخ موقفُهم الوقحُ رغبتَه في مقاومتهم، فقال لهم ساخرًا: «**خذوه واحكموا أنتم في أمره كما تقضي شريعتكم**». شريعتهم كانت تقضي عليه بالموت، ولكنّ القانون الرومانيّ لم يكن يسمح لهم بأكثر من الجلد والطرد من المجمع. وهم ما كانوا ليرضوا بأقلّ من إعدام يسوع.

خيّل إليهم أنّ بيلاطس سيستجيب لطلبهم، بلا جدالٍ، ولكنّهم فوجئوا بموقفه. وقد عُهِد عن الرومانيّين التزامهم بالمحاكمة العادلة، العلنيّة، على نقيض محاكمات السنهدرين التي تُلفَّق في شبه سرّيّةٍ، وتزري بكلّ أُصولٍ وعدلٍ.

اتّضح لهم أنّ بيلاطس غير راغبٍ في التورّط في هذه القضيّة، فأرغموه على تولّيها. ولم يتورّعوا عن الافتراء، واختلاق الأكاذيب التي كان كلّ سلوك يسوع يدحضها، فادّعوا: «**لقد وجدنا هذا الرجل يفتن أُمّتنا: يمنع من دفع الجزية لقيصر، ويدّعي أنّه مسيحٌ، ملكٌ**». أيمنع دفع الجزية من قال علانيةً: «**أعيدوا ما لقيصر لقيصر**»؟!

لم يخفَ زيف هذا الادّعاء على حنكة بيلاطُس. فلو كان المدّعى عليه غيورًا وطنيًّا يحرّض القوم على روما لساندوه، ولما طالبوا بإماتته. غير أنّه لم يكن لبيلاطس مفرٌّ من التحقّق، فالادّعاء خطيرٌ، وإن لم يفعل لسارع أعداؤه إلى الوشاية به، واتّهامه بالتغاضي عن المتآمرين على عرش روما، وعلى الإمبراطوريّة. ومن ثمّ توجّب على الوالي، بصفته قاضيًا، أن يفصل بين الحقّ والكذب، وبصفته مندوب القيصر أَن يظهر بمظهر الساهر على أَمن السلطة الإمبراطوريّة.

دخل بيلاطس إلى دار الولاية، حيث اقتيد يسوع أيضًا، وبادر إلى طرح السؤال الحارق عليه: «**هل أَنت ملك اليهود؟**» ولكأنّه يودّ استيضاحه: «هل أنت ملكٌ بالمعنى الدينيّ الشائع في كتبكم، أم إنّك تدّعي ملكًا زمنيًّا على غرار ملك أسيادي في روما؟» وأجابه يسوع: «**أمن عندَك تقول هذا، أم آخرون قالوه لك فيَّ؟**». وكأنّي به يقول له: «هل أنت ترى أمامك ملكًا زمنيًّا؟ أتؤمن بما يدّعون عليّ بهتانًا؟». هذا الجواب أثبت لبيلاطس أنّ الرجل الماثل أمامه ضحيّة مؤامرةٍ خسيسةٍ، فدمدم متأفّفًا من إقحامه في قضيّة أولئك المتعصّبين: «**أيهوديٌّ أنا؟ إنّ أُمّتك ورؤساء الكهنة أسلموك إليّ، فماذا فعلت؟**» وبادر يسوع إلى التصريح بالحقيقة

الكفيلة بتبديد كلّ قلقٍ من قلب قاضيه: «**مملكتي ليست من هذا العالم. فلو كانت مملكتي من هذا العالم لكان حرسي دافع عنّي لكي لا أُسلّم إلى اليهود. ولكنّ مملكتي ليست الآن، من ههنا**». **فقال له بيلاطُس**: «**أنتَ إذن ملكٌ**». **أجاب يسوع**: «**أنتَ قُلت. إنّي ملكٌ. وإنّي لهذا وُلِدْتُ، ولهذا جئت إلى العالم: أن أشهد للحقّ. فكلّ من كان من أهلِ الحقّ يسمعُ صوتي**». **فقال له بيلاطس**: «**وما الحق؟!**»(*).

«الحقّ» كان ماثلاً، حيًّا، أَمامه، وسيسلمه للصلب. كان بيلاطس عاجزًا عن تخيّل أن يرضى إنسانٌ الموت دفاعًا عن الحقيقة، ولم يكن بوسعه تصوّر أن يموت من هو الحقيقة من أجل هداية الضالّين. لقد جاء يسوع كي يعلن حقيقة اللّه، وهذه الحقيقة ليست قضيّةً قانونيّةً، بل هي شأنٌ إيمانيٌّ. ولذلك، وحدهم من كانوا أبناء اللّه يسمعون صوت يسوع، صوت الحقّ.

كان بيلاطس يتوقّع إنكار يسوع ادّعاء الملك، ولكن المخلّص فاجأه بتأكيده: «**أنت قلت...**». لو كان بيلاطس من نمط البسطاء الصادقين الذين طالما غمرهم يسوع بعطفه، لقال له: «**أنا المتكلّم معك، هو الحقّ**». ولكنّ بيلاطس رجلٌ معتدٌّ ورفيع المقام، ومتشكّكٌ، ولن يعني له مثل هذا الجواب شيئًا. لم يخض نقاشًا مع يسوع بشأن الحقّ، والحقيقة، ولكنّه من خلال حواره المقتضب معه، أيقن أنّه ليس ديماغوجيًّا ولا مشاغبًا، ولا من مفتعلي الفتن. قد يكون واهمًا، حالمًا، ولكنّه ليس خطرًا على الدولة. يدّعي أنّه يلقّن الحقيقة، ولكن سواء صدّقه الناس، أو لم يصدّقوه، فتعليمه لا يسيء إلى أحدٍ. ولا ريب أن قوّةً سرّيّةً مسّت بيلاطس وهو يخاطب يسوع، ويشهد وقاره وسجوّ نفسه، والقداسة المشعّة من كلّ كيانه، فشعر أنّ لدى ذلك الرجل شيئًا لم يقوَ على تحديده، أكّد له أنّ الحقد هو الذي حرّك السنهدرين ضدّه. كانت خبرته قد علّمته تمييز مثيري الفتن الخطيرين، ولم يكن في مظهر المتّهم الماثل أَمامه ما يثير ريبته. ولم يكن بوسعه إِنكار ما في ذلك الصوت، وتَيْنك العينَيْن من مهابةٍ. كان بيلاطس الرومانيّ يزدري اليهود، ولكنّه كان متطيّرًا، وربّما ساوره الشكّ، فالمشرقُ يعجّ بالآلهة الخطيرين.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «مملكتي ليست من هذا العالم»، صفحة ٤٧٠.

براءة يسوع باتت واضحةً في وجدانه، فخرج، ثانيةً، إلى اليهود وقال لهم: «**أنا لا أجد فيه أيّة علّةٍ**». حكمٌ سديدٌ عادلٌ، كان يفرض على بيلاطس إطلاق سراح المتّهم البريء، في الحال. ولكنّه كان أجبن من أن يسلك بمقتضاه، بعد أن أضفى السنهدرين على تلك القضيّة طابعًا سياسيًّا. فيسوع يعلن نفسه مسيحًا وملكًا، أي منافسًا لقيصر، وهذا النموذج هو ما تمقته روما أكثر من أيّ شيءٍ آخر. وخصوم بيلاطس يستخدمون هذا الواقع، سلاحًا مخيفًا. إنّها قضيّةٌ غير ذات بالٍ، ولكنّها قد تكون مميتةً، فبيلاطس شديد الرغبة في إنقاذ يسوع من براثن أعدائه، ولكنّه ليس مستعدًّا للتضحية بمنصبه ومستقبله في سبيل قناعاته. إنّه سياسيٌّ وعلى غرار السياسيّين يصانع الطرفَيْن، ويبحث عن منفذٍ، ولمصالحه الأولويّة على مقتضيات العدل.

وكان اليهود قد ادّعوا على يسوع: «**إنه يستثير الشعب بتعليمه في اليهوديّة كلّها، من الجليل حيث ابتدأ إلى هنا**» (لوقا ٢٣: ٥).

هذا القول أضاء لبيلاطس بارقة فكرةٍ متألّقةٍ قد تخرجه من مأزقه: يسوع ناصريٌّ، جليليٌّ، فإذن هو تابعٌ لسُلطة هيرودُس. وكان قد نشب بينه وبين هذا الأخير خلافٌ إثر أمره بقتل جليليّين ثائرين، من غير استئذانه. ومن جانبٍ آخر، كان هيرودس يتجسَّس على كبار الموظّفين الرومانيّين لحساب الإمبراطور تيبيريُس، ممّا وتّر العلاقات بينه وبين الوالي بيلاطس. وها هي سانحةٌ طيّبةٌ لتبديد الخلاف، وإظهار دليل الاحترام لحاكم الجليل. وبما أنَّ هيرودس كان، حينها، في أورشليم من أجل الفصح، أرسل له يسوعَ كي يقرّر، هو، مصيره، فهو أكثر تفهّمًا لليهود. وبذلك أمل أن يصيب هدفَين بحجرٍ واحدٍ: ينعتق من قضيّةٍ شائكةٍ، ويصالح هيرودُس.

كان بيلاطس، في سريرة نفسه، يرجو أن يتطابق رأي هيرودس حول براءة يسوع مع رأيه هو، فيكون هذا التطابق دعمًا له في مواجهة اليهود. فهؤلاء كانوا قد اتّهموا يسوع بإثارة الفتن في أورشليم وفي الجليل، وبيلاطس كان واثقًا من أنّ هذا الادّعاء، في ما يتعلّق بأورشليم واليهوديّة محض افتراءٍ، وكان من شأن هيرودس تبيان صحّة هذا الاتّهام أو بطلانه في ما يخصّ الجليل.

وكان يراود هيرودس أملٌ في أن يُجري يسوع أمامه، بُغيةَ إنقاذ حياته، أكثر معجزاته إدهاشًا، فيُسلّي بها بلاطه الصغير. فاسترسل في استجوابه، وكأنّه يخاطب ضيفًا صديقًا لا متّهمًا، غير مكترثٍ بهياج رؤساء الكهنة الذين انضمّوا إلى الموكب،

وجهدوا في التأثير على قراره. ولكن، مع كلّ ذلك، اعتصم يسوع بالصمت، معتبرًا قاتل المعمدان، ومقترف السفاح، والمرائيّ المحتال، غير جديرٍ بأيّ جوابٍ. ذاك الذي أنفق حياته العلنيّة في محادثة كلّ فئات البشر، أبى أن يبادل هيرودس عبارةً واحدةً.

وضاق هيرودس ذرعًا بصمت يسوع، ورأى فيه إهانةً له. ولحظ زعماء اليهود ذلك، فاطمأنّت قلوبهم، وأَسهبوا في إغراق يسوع بالتهَم التي لم يجرؤوا على إيرادها أمام بيلاطس، مثل انتهاك فريضة السبت، والتجديف، وتحقير الهيكل، وادّعاء قدراتٍ إلهيّةٍ. ولكنّ كلّ هذه الاتّهامات لم تصب من ذهن هيرودُس قناعةً، فقد كان موقنًا أنّها تخفي دوافع حقدٍ على رجلٍ بريءٍ. ومع ذلك لم يهتمّ بإعلان براءته، إذ كان همّه محصورًا في الانتقام من يسوع بما يتماشى وحقارة نفسه، فأظهر لمن كان يصانعه ويتودّد إليه، قبل لحظاتٍ، أعمق ازدراءٍ ونقمةٍ. وربّما همس أحد رجال بلاطه بأنّ الناصريّ مجنونٌ، فأمر خدمه بإلقاء أحد معاطفه البيضاء، البرّاقة، القديمة، على كتفيه، تلميحًا إلى تهمة ادّعاء الملك المعزوّة إليه. هذه المسخرة التي أفضى إليها تحقيق هيرودس، كانت تدلّ على أنّ «التتررك» رأى في المتّهم رجلاً أحمق جديرًا بالهزء، ولكن لا خطر منه على الإطلاق. فلا هو ثوريٌّ مشاغبٌ، ولا مدنّسٌ للأقداس. وأعاد هيرودس يسوعَ إلى بيلاطس متدثّرًا بمعطف السخريّة، وراح هيرودس وعصابته يبحثون عن تسليةٍ أخرى. «**وفي ذلك اليوم تصادق هيرودس وبيلاطس، وكانا، من قبلُ، عدوّيْن**» (لوقا ٢٣ : ١٢). ولكأنّ يسوع موضوع عبثٍ للحاكميْن، ومادّةٌ لمساوماتهما الدنيئة!

في الواقع استخفّ هيرودس بكلّ تلك القضيّة التي رآها حمقاءَ، تافهةً، وآثر عدم التورّط فيها، تفاديًا لاستعداء زعماء اليهود الكفيلين باتّهامه، أمام روما، أنّه جاء أورشليم حاجًّا، فنصّب نفسه قاضيًا خارج تخوم ولايته.

لقد قدّر لبيلاطس إخضاع يسوع لسُلطته، ولكنّه وجد في هذه المبادرة هديّةً مسمومةً، فآثر إعادتها إلى مرسلها، الذي كان، بدوره، يتمنّى الانعتاق من تبعتها.

لقد وُصفت الحكمة المتجسّدة، بالجنون، وما أكثر ما توصف به حتّى اليوم! وقد صمت الكلمة، وباري الكون لبث ساكنًا!

عندما اتّضح لبيلاطس أنّ هيرودس، أيضًا، يأبى التورّط، تبيّن كم كانت القضيّة

شائكةً، مربكةً، ومعقّدةً. كان ممعنًا في كره اليهود، ولا يتوانى عن البطش بهم كلّما دعت ضرورات الأمن، ولكنّه، في هذه الدعوى، بدا متقلّبًا، ضعيفًا، متأرجحًا، حذِرًا من مكر اليهود ووشايتهم، وكان الصراع، في نفسه، محتدمًا بين القاضي رجل القانون، والسياسيّ، فقد كان موقنًا ببراءة يسوع، ولكن كان لا بدّ من إرضاء المدّعين عليه. «**حينئذٍ دعا بيلاطُس رؤساء الكهنة والرؤساء والشعب، وقال لهم: «قدّمتم إليّ هذا الرجل على أنّه يفْتن الشعب، وإنّي قد أجريتُ التحقيق قُدّامكم فلم يثبُت لديّ أنّ هذا الرجل مجرمٌ في شيءٍ ممّا تتّهمونه به. وكذلك هيرودسُ إذ قد ردَّه إلينا. فهو إذن لم يأتِ شيئًا يستوجب به الموت. فسأؤدِّبه وأُطلِقُه**».

في مطلع هذا الخطاب المقتضب تكلّم رجل القانون فأعلن براءة المتّهم من كلّ ما نُسب إليه، ثمّ تكلّم السياسيّ فارتكب جريمةً، إذ انتهى إلى نتيجةٍ تخالف المقدّمة. ما رفضه القاضي العادل سوّغه السياسيّ المصانع. إن كان يسوع بريئًا، فعلامَ تأديبه ومعاقبته، ولاسيّما أنّ التأديب هو الجلد؟! هذا المنطق المريض دليلٌ على أنّ بيلاطس لم يكن ينشد الحقّ، بل مجرّد التملّص من قضيّةٍ مزعجةٍ. كان نهبًا بين ما تعلّمه من احترامٍ للعدل، والتزامٍ بالإنصاف، من جانبٍ، ومناورات خصومه التي تهدّده بأغلى ما يتمسّك به، أي منصبه، من جانبٍ آخر. لقد حفلت محاكمته بالسياسة، ولكنّها خلَت من أيّ أثرٍ للحقّ والأخلاق.

وربّما خُيِّل إليه، في غمرة حيرته واضطرابه، أنّ منظر يسوع، كتلةً داميةً زريّةً، بعد إخضاعه للجلد الوحشيّ، كفيلٌ بنقع غليل حقد اليهود، وإثارة الرأفة في قلوبهم، وغرب عن باله أنّ قَرَمهم إلى دم يسوع بلا حدودٍ، فلن يستبدلوه بجلدٍ أو تأديبٍ، ولن يرضوا بأقلّ من صلبه.

وهكذا انتهى به الأمر إلى «تأديب» يسوع وجلده، ثمّ في نهاية الشوط، إلى تسليمه لليهود كي يقتلوه.

وتفاقمت حيرته إثر تدخّل زوجته، إذ «**فيما كان جالسًا على كُرسيّ القضاء أرسلت إليه امرأته تقول: لا تتورّط في أمر هذا الصدّيق. فإنّي، اليوم، في الحُلم، قد توجّعت من أجله كثيرًا**» (متّى ٢٧ : ١٩).

في حين خرست نساء إسرائيل حيال جريمة الجرائم، شهدت امرأةٌ وثنيّةٌ ببراءة يسوع، وحثّت زوجها الحاكم على القضاء وفقًا لذلك. الحلم الذي راودها وآلمها بشأن يسوع كان اختزالاً لأحلام العالم الوثنيّ كلّه، وتطلّعاته، ولرجائه الوطيد في العثور على بارٍّ لا غبار عليه، وعلى مخلّصٍ.

«كلوديا بروكولا»، زوجة بيلاطس، كانت امرأةً ورعةً، استمال قلبَها الإيمانُ بالله الواحد، ثمّ أشرقت على نفسها أنوارٌ إلهيّةٌ جعلتها تقدّر أسمى تقديرٍ تعاليم الناصريّ. وقد أقلقها توقيفه، وأمضّتها الكوابيس بشأنه، ولمّا شاهدت شعبًا هائجًا يطالب بصلبه، وزوجها يتأرجح، مع يقينه ببراءته، ولا يقوى على ردّ الظلم بحزمٍ، أنفذت إليه رسالة تحذيرٍ. وحدها وسط قضاةٍ عديمي الضمائر، وشهود زورٍ، وجلاّدين، وشعبٍ ناقمٍ على مخلّصه، امتلكت تلك الوثنيّة من قوّة الشكيمة، وصدق العاطفة، ما حملها على الدفاع عن صدّيقٍ بريءٍ.

ولحظ زعماء اليهود تخبّط الوالي، ونزوعه إلى إطلاق سراح يسوع، فاتّضح لهم أنّهم ما لم يقاوموا، وما لم يستخدموا كلّ وسائل الضغط، فسيخسرون قضيّتهم، فراحوا يوغرون صدور الرعاع، ويلقّنونهم الهتاف مطالبين بصلب يسوع، ورافضين بعنادٍ وشراسةٍ أيّة تسويةٍ أُخرى، وأمعنوا في ابتزاز حيرة الوالي.

وذكّر بيلاطسَ أحدُ مستشاريه بأنّ العادة جرت بإطلاق سجين يعيّنه الشعب، بمناسبة الفصح، وبما أنّ زعماء اليهود سلّموا يسوع حسدًا وكيدًا، خرج إلى الشعب وأعلن بأعلى صوته: «**أنا لا أجد فيه أيّة علّةٍ، ولكن لمّا كان من عادتكم أن أُطلق لكم، في الفصح، سجينًا، فهل تريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟**». مرَّةً أُخرى راهن على وعي الشعب، ورأفته، ولكنّ الشعب كان أُلعوبةً بين أيدي زعمائه الدينيّين الذين لقّنوه المطالبة بإطلاق سراح مجرمٍ متمرّسٍ، سجلّه حافلٌ بجرائم السرقة والقتل، ووجوده عارٌ على البشريّة، ولكنّه كان من غلاة المقاومين للمحتلّين، واسمه برأبّا.

ولا ريب أنّ بيلاطس ارتكب خطأً في صيغة استفتائه الشعب، وفي وصفه يسوع ملكًا على اليهود. أهذا هو ملكهم، الملك الزريّ، المُذَلّ، الجبان، الفاشل، الذي خان آمالهم في تحريرهم من المحتلّ؟ إنَّهم لم يعترفوا به، قطّ، ملكًا، ويأبون مثل هذا الملك، وسارع زعماء اليهود إلى اهتبال تلك الفوضى، وحرّضوا الجمع على

المطالبة بالإفراج عن لصٍّ وقاتلٍ، ولكنّه كان قد قُبض عليه لاشتراكه في فتنةٍ تستهدف المحتلّ الرومانيّ، فهو جديرٌ بأن يُعدّ بطلاً قوميًّا، وهو الذي يستأهل الإفراج عنه، لا ذلك الحالم، الواهي، الواهم. كم كان زعماء اليهود بارعين في إفساد ضمائر الشعب بحيث جعلوا الذين هتفوا، باندفاعٍ، يوم الأحد، «هوشعنا»، يهتفون باندفاعٍ مماثلٍ، يوم الجمعة، «اصلبه»! لقد استخدموا، بحذقٍ، صراخ الجماهير التي ترعب النفوس الجبانة. وأُسقط في يد بيلاطس، عندما ردّ عليه الشعب بصيحةٍ واحدةٍ: بل أَطلق سراح برأبّا، واصلب هذا. شريعة اليهود تقضي على المجدّف بالرجم، ولكنّ اليهود لم يرتضوا بعقوبة شريعتهم، ووجدوها عاجزةً عن نقع غلّ حقدهم، فطالبوا بصلبه، والصلب هو عقوبة العبيد القصوى. هذه العقوبة هي التي رأوها لائقةً بمن قال لهم: «**الحقّ يحرّركم**».

استهجن بيلاطس مطالبتهم، فسأل: «**وأيّ شرٍّ فعل؟**» ولكنّ الجمع، ذلك الوحش الهائج، لم يكن يعبأ بعدلٍ أو بمنطقٍ. وقد أدهش بيلاطسَ بإيثاره قاتلاً مجرمًا عتيًّا على ذلك الإنسان الوديع، الذي نثر الخير، حيثما مرّ. فتمادوا في الصياح والهياج، هاتفين بملء أشداقهم: «**اصلبه! اصلبه!**». واستشمّ بيلاطس، في هذه المطالبة الخرقاء، غيرةَ زعماء اليهود المتوجّسين خشيةً من تأثير يسوع ونفوذه.

اتّهم اليهودُ يسوعَ بأنّه متمرّدٌ سياسيٌّ، يستحقّ الموت، وفي الآن عينه طالبوا بالإفراج عن برأبّا المدان بجرمٍ سياسيٍّ مشهودٍ. ودفع الجبن بيلاطس إلى إطلاق سراح مجرمٍ سياسيٍّ حقٍّ، والحكم على بريءٍ! كان حسب اليهود تهديده بالوشاية به إلى قيصر حتّى يتغلّب خوفه من قيصر على خوفه من إلهٍ!

ولا جَرَم أنّ وضع يسوع، الذي أغدق على شعبه الأشفية والبركات، في كفّة ميزانٍ مقابل مجرمٍ عتيٍّ، ورجحان كفّة هذا عليه، كان أشدّ وطأةً على نفسه من تعليقه على الصليب!

حتّى نهاية العالم سيوجد من يؤثرون أَمثال برأبّا على يسوع، وبين الملقّنين والهاتفين لهم سيكون رؤساء كهنة، وزعماء وكتبة، وفرّيسيّون، يرجّحون كفّة المجرم الملطّخ النفس بالدماء على كفّة القداسة المطلقة. ضاق بيلاطس ذرعًا بهياج اليهود، وقسوتهم، وشراستهم، فقال لهم: «**خذوه أنتم واصلبوه، فإنّي لا أجد فيه علّةً**».

محاكمة يسوع المدنية

محاكمة يسوع المدنية

درب الصليب (بريشة آدم السهيمر)

فأجابه اليهود: «**إنّ لنا شريعةً، وبحكم هذه الشريعة، يستوجب الموت لأنّه جعل نفسه ابن اللّٰه**».

لدى سماعه هذه العبارة استيقظ المتطيّر الكامن في داخل بيلاطس وخشي أن يكون المتّهم الماثل أمامه على صلةٍ بأحد الآلهة القادر على إيذائه «**فدخل أيضًا إلى دار الولاية وقال ليسوع: «من أين أنت؟» أمّا يسوعُ فلم يُجبْه بشيءٍ. فقال له بيلاطُس: «أما تُكلّمُني، أنا؟... أفلست تعلمُ أنّ لي سلطانًا أن أُطلقك كما أنّ لي السُّلطان على أن أصلبك؟» فأجاب يسوعُ: «ما كان ليكون لك عليّ أيُّ سلطانٍ لو لم يُعطَ لك من فوق. ومن أجل هذا فإنّ الذي أسلمني إليك يحملُ وِزر خطيئةٍ أثقل**» (يوحنّا ١٩: ٩-١١).

كم أشفق يسوع على ذاك الذي زادته سلطته الأرضيّة هشاشةً داخليّةً!

ادّعى بيلاطس أنّ له الحقّ في إطلاق يسوع، أو في صلبه، وغرب عن ذهنه أنّ حقّه ليس مطلقًا، إذ عليه إدانة من اقتنع بجريمته، وإطلاق من اقتنع ببراءته، وهو اقتنع ببراءة يسوع، ولكنّه لم يمتلك الجرأة على إطلاق سراحه. فكان هو المجرم، وكان جرمه جسيمًا.

أدرك زعماء اليهود أنّ بيلاطس يزداد نزوعًا إلى إنقاذ حياة يسوع، فأطلقوا تهديدهم الصريح الحاسم: «**إن أنت أطلقته فلست مواليًا لقيصر! لأنّ من يجعل نفسه ملكًا يكون خارجًا على قيصر!» فلمّا سمع بيلاطُس هذا الكلام أخرج يسوع وأجلسَه على منصّةٍ في الموضع الذي يقال له «البلاط»، وبالعبريّة «جَبّاثا». وكانت تهيئةُ الفصح، وكان نحو الساعة السادسة. فقال لليهود: «هُوذا مَلِكُكم! «فصرخوا: ارفعه! ارفعه! اصلبهُ!» قال لهم بيلاطس: «أأصلبُ مِلِكَكُم؟» أجاب رؤساء الكهنة: «لا ملك لنا غير قيصر!**» (يوحنّا ١٩.: ١٢ - ١٥).

أيّ حقدٍ ذاك الذي حدا بزعماء اليهود الدينيّين، الذين طالما فاخروا بمقاومة الاحتلال الرومانيّ، واستبسلوا حفاظًا على عبادتهم للإله الواحد، إلى أن ينصّبوا أنفسهم مدافعين عن عرش ملكٍ وثنيٍّ أعلن نفسه إلهًا، ومعلنين رفضهم الخضوع لسواه، مع مقتهم الشديد له من جرّاء ما ألحق بأمّتهم من إذلالٍ، وانتهاك حرماتٍ، وتدنيس مقدّساتٍ؟! كلّ ذلك في سبيل الظفر بأمر صلب يسوع!

أُسقط في يد بيلاطس، دهشةً وخيبةً، واشمئزازًا من عناد اليهود الذي لم يفلح في ثنيه لا عدلٌ ولا منطقٌ. وبما أنّ الجدال في سبيل الإقناع كان متعذّرًا، وبما أنّ صوته كان يضيع وسط الهياج المأفون، والصيحات الحاقدة، آثر اللجوء إلى أُسلوبٍ مرئيٍّ، فاستقدم ماءً، وغسل يديه على مرأًى من الجميع، للتدليل على معارضته لمطالبهم، وإزرائه باتّهاماتهم، وتنصّله من كلّ مسؤوليّةٍ، في ما وطّنوا عليه عزمهم. وبعد أن خمدت الضوضاء، أعلن: «**إنّي بريءٌ من هذا الدم. فالشأن شأنكم**». فأجاب جميع الشعب: «**دمه علينا وعلى أولادنا!**».

الماء لا يغسل جريمتك، يا بيلاطس! وغسلك المسرحيّ لا يبرّئ ساحتك، ولا ينقذ ضميرك، ولا شرفك. كان عليك إِصدار الأوامر التي يمليها العدل والواجب، لا تلقّيها من زعماء اليهود ورعاعهم. كنت تعلم، وتستطيع، وترى واجبك بجلاء، فلا عذر لك في الانصياع للبهتان، والعنف، والابتزاز. فما من حجّةٍ سياسيّةٍ تبرّر جريمةً. كان عليك مقاومة اليهود، والحرص على سلامة المتّهم البريء، بعد أن تيقّنت من براءته، وتثبّتَّ من أنّ المطالبة بإعدامه كانت نابعةً من الحقد والبغض. ولكنتَ أنقذتَه وأنقذت نفسك لو آثرت صوت ضميرك وواجبك على مغريات منصبك. لقد أَشرعت ثغرةً في جدار الحقّ، فانزلقت على دركات التنازلات حتّى اقتراف الظلم الفاضح، والجريمة النكراء. كانت مهمّتك تلزمك بالصمود في مواجهة أَعتى الضغوط، وبإنقاذ البراءة من براثن ذئابٍ ظامئةٍ إلى الدماء، ولكنّك كنت حقيرًا، وجبانًا، ومجرمًا. وعوضًا عن الوفاء لصفتك حَكَمًا وقاضيًا، ارتضيت أن تكون منفّذًا لحكم الحاقدين المجرمين. لقد خنت ضميرك، إرضاءً لقيصر، وخشيةً من اليهود، ولكنّ قيصر لن يلبث أن يخلعك بناءً على وشاية اليهود!

وأنتم، يا من هتفتم: «**دمه علينا وعلى أبنائنا**»، لو دريتم أيّة سيولٍ من الدماء ستغرق فيها أُمّتكم، هل كنتم تجرّأتم على مثل هذا التحدّي؟ ولو علمتم أنّ الرومانيّين الذين استنجدتم بهم على قتل بريءٍ من أبناء جلدتكم، سيسكبون دماء أبنائكم أنهارًا، وسيذبحون، بلا رحمةٍ، نساءكم وأَطفالكم، وشيوخكم، ولن يكفّوا عن صلب رجالكم الأشدّاء، حتّى ينفد الخشب الذي يصنعون منه الصلبان، وسيبيعون ألوفًا من شبابكم وصباياكم في أسواق النخاسة، فهل كنتم ستُمعنون في عنادكم وإصراركم على قتل من جاءكم مسيحًا ومخلّصًا؟!

بغض زعماء اليهود بلغ أوجه في صياحهم: «**اصلبه، اصلبه!**». وحقارتهم بلغت ذروتها في قولهم: «**لا ملك لنا سوى قيصر**». وبقولهم: «**دمه علينا وعلى أبنائنا**» استحقّوا اللعنة إلى الأبد، وثبّتوا جريمتهم.

لكي ينتزعوا حكمًا بصلب يسوع، تنازل اليهود عن معتقداتهم وكرامتهم، فبإعلانهم: «**لا ملك لنا سوى قيصر**»، كانوا، ضمنًا، يرتضون عبادة القيصر، كما كان يقتضي، منكرين ملك الله، وعبادة الله الواحد. ولقاء نقع غليل بغضهم ليسوع تردّوا إلى كلّ تلك التنازلات الدنيئة!

قولهم: «**لا ملك لنا سوى قيصر**» دليلٌ على أنّ انتظارهم للمسيح زائفٌ، وأنّهم يحملون نفوس عبيدٍ خسيسةً.

وجزاء اعترافهم بقيصر ملكًا وحيدًا عليهم، أطلق لهم بيلاطس سراح المجرم برأبّا، وأمر بصلب يسوع، ولكن إذ كان لا يزال يخامره أملٌ ضئيلٌ في التأثير على قلوبهم، وإذ كان، غالبًا، يُستعاض عن حكم الإعدام بحكم الجلد، أمر بجلد يسوع، آملاً أن يرقّ اليهود لحاله بعد أن يروا ما سينتهي إليه من مهانةٍ.

كان الجلد عقابًا وحشيًّا، مريعًا، محصورًا في العبيد، ولا يخضع له المواطنون الرومانيّون. وفي حين كان الجلد، عند اليهود، محدَّدًا بما لا يتجاوز تسعًا وثلاثين جلدةً، كان، عند الرومانيّين، لا تحدّه سوى نزوات الجلاّدين، ومقاومة الضحايا، وغالبًا ما كان الجلاّدون يُمعنون عنفًا بقدر ما تبدي الضحيّة من صبرٍ وجَلَدٍ.

آلة الجلد سيورٌ من الجلد المتينة، مزوّدةٌ بقطعٍ من العظام، وبكُرات رصاصٍ، وأحيانًا بأطرافٍ معدنيّةٍ حادّةٍ تدعى عقارب. وكان المدان يجرّد من ثيابه، ويوثق معصماه إلى عمودٍ واطئٍ، ويُبقى على هذا الوضع المنحني كي تصيب كلّ الضربات هدفها، وكي يتمكّن المنفّذون من إنزالها بكلّ قوّتهم.

وسرعان ما كانت البشرة تتمزّق، وتتساقط نُتَف اللحم وتتناثر، وكثيرًا ما كان المشاهدون يرون، في ذهولٍ، الشرايين والعضلات والأحشاء، وقد جُرِّدت من كلّ ما كان يسترها ويغطّيها. ولم يكن أيّ مكانٍ من الظهر، أو الصدر، أو الوجه، في مأمنٍ من التشويه وغالبًا ما كان الجلاّدون يتوقّفون عن الضرب، إعياءً، ولا يجدون أمامهم سوى جثثٍ هامدةٍ، أو بقايا جثثٍ.

كم هو مريعٌ قول الإنجيليّ: «**وجمعوا عليه الكتيبة كلّها**»! (متى ٢٧ : ٢٧).

كان المدان، ولاسيّما المحكوم عليه بالإعدام، كائنًا فاقدًا كلّ مقوّماته الإنسانيّة، ظلاًّ لا تقيم له الشريعة أيّ وزنٍ، جسدًا مباحًا للتنكيل. وكان من يتعرَّض للجلد الرومانيّ يتحوّل إلى كائنٍ مشوّهٍ مريعٍ، ومقزّزٍ، تنتشر على كلّ أعضاء جسمه أثلامٌ زرقاء، وأورامٌ نازفةٌ، يتفجّر الدم من جلده، وعضله، وعروقه، حتّى يصبح كتلةً داميةً.

ملَّ الجلاّدون من الضرب، وبعد أن اتّضح لهم أنّ الضحيّة لن تحتمل المزيد، استعاضوا عن الجلد بالسخريّة. وخطر لهم أن يزجّوا الوقت بتمثيل حفلة تنصيبٍ ملكيٍّ، على غرار ما فعل حرس هيرودس، فأسبلوا فوق الجسد المثخن بالجراح، والمحروث بالسياط، معطفًا قرمزيًّا، التصق بالنجيع القاني المحيق بجراحه. وجدَل أحدهم من أَغصان الشيح الشائكة المعدّة للتدفئة، في الليالي القارسة البرد، إكليلاً توّجوه به، وحشروا بين راحتيه قصبةً بمثابة صولجانٍ، وأجلسوه على مرقاةٍ، أي منضدةٍ واطئةٍ، تُستخدم موطئ قدمٍ، بمثابة عرشٍ. ثمّ دُعي سائر أَفراد الفرقة للمشاركة في تلك الهزليّة، فكان الواحد منهم، تلو الآخر، ينحني أمامَه، متظاهرًا بالتكريم، ثمّ يتناول القصبة من يده، ويُنزل بها، على رأسه، ضربةً تغرز الشوك فيه أَعمق فأعمق، ثمّ يصفعه، ويبصق في وجهه، ويمضي راضيًا، مقهقهًا.

هكذا ما زال يفعل كلّ من يرى في يسوع شوكةً في حلقه وفي خاصرته! أولئك الجنود كانوا يمقتون اليهود، وقد وجدوا في من حُكم عليه بالصلب، بصفته «ملك اليهود» مادّةً لإطلاق عنان كرههم لكلّ ما يمتّ بصلةٍ إلى اليهود، وقد فاتهم أنّ يسوع نفسه كان ضحيّة حقد اليهود وعدوانهم.

الكبار عبثوا بالحقّ، والجند والرعاع عبثوا بالكرامة!

هكذا تسنّى ليسوع أن يكفّر، في جسده، عن كل ما ندنّس به أجسادًا خُلقت لتكون هيكلاً للروح، وعن الخطايا التي نرتكبها لا بحقّ النعمة فحسب، بل بحقّ الطبيعة عينها.

كان الحشد ما زال في الخارج، هائجًا، مائجًا، يريد ضحيّته، ولمّا جيء بيسوع أمام بيلاطس، وشاهد ما انتهى إليه من تشويهٍ ومهانةٍ، وفي زيّ الهزء والمذلّة، يترنّح

أَلَمًا وحزنًا، دَفَع به إلى الواجهة، وأشار إليه، قائلاً للجمع الجامح النابح: «**ها هو ذا الرجل!**». ولكأنّه يقول لهم: «كفاكم تحاملاً عليه»، رجلكم، رجل الآلام الذي سلبتموه كلّ رونقٍ وسناءٍ، أجمل بني البشر الذي سرقتم منه كلّ ما يجذب ويفتن، ذاك الذي أمسى مسخًا يرتدي خروقًا حمراء، وإكليلاً من شوكٍ، وحجابًا من بصاقٍ ونجيعٍ التصقت به بعض خصلات شعره.

أين هم البرص الذين طهّرهم، والمسكونون بالأرواح الشرّيرة الذين حرَّرهم، والعميان الذين فتح عيونهم؟ كثيرون من الذين آمنوا به، وظلّوا يرجون، رغم انعدام أسباب الرجاء، فقدوا إيمانهم حيال تلك الخرقة البشريّة، تلك النفاية التي ينبغي كنسها وإزالتها. لقد باتوا يخجلون لأنَّهم آمنوا به. هكذا خاطب الوالي الوثنيّ من كانوا يدّعون أنّهم يعبدون إله الحقّ، ولكنّه، في الواقع، كان كمن يستفزّ ذئبًا بمنظر الدماء. كان قد راهن على رحمة الشعب، ولكنّ الشعب، بتحريض زعمائه الدينيّين، بات وحشًا مفترسًا لا يرحم. خيِّل إليه أنّ منظره سيستثير الرأفة حتّى لدى أعضاء السنهدرين، ويهزّ حتّى قلوب رؤساء الكهنة الذين لا أَحشاء لهم. ولكن من المحقّق أنّه لم يكن قد سبر عمق حقدهم. فقد زادهم منظر هوانه هياجًا وإصرارًا على صلبه، فأسلمه للصلب. حكمه كان قد برّأ يسوع، ولكنّ جبنه صلبه، وحَكَم بالموت على البريء الوحيد في الكون.

لم يعد بيلاطس يرى البريء الماثل أمامه، بل طارت أبصاره إلى السيّد المخيف القابع على عرش روما، والقادر على العبَث بمصيره، فانهار أمام ذلك الشبح المرعب. استسلم لمبتزّيه، وسلّمهم البريء للصلب، ولكنّه لم يسلم من جريمته، إذ إنّه، بعد ثلاث سنواتٍ، وعلى إثر وشاياتٍ من اليهود أنفسهم، جُرِّد من جميع مناصبه، ومقتنياته، ونُفِي، ولاحقته جريمته إلى منفاه، تؤرّقه حتى النفَس الأخير.

في الواقع لم تُجرَ أيّة محاكمةٍ، ولا حتّى تمثيليّة محاكمةٍ، بل كانت، ثمّة، ضحيّةٌ ذُبحت، ضحيّة «حَمَل الله». الحَمَل لا يُحاكَم، بل يُنتقى من خيرة القطيع ويُذبح، وقد شاء يسوع أن يُذبح، في ذلك اليوم، كي يوثّق، بدمه، العهد الجديد.

وكان ذلك قُبَيْل ظهر يوم الجمعة.

عَلى دَرْبِ الجُلْجُلَة

أَبى بيلاطس تحمّل مسؤوليّة قتل يسوع، فتحمّلها اليهود بطيب خاطرٍ، وتولّى الرومانيّون تنفيذ الحكم.

العقاب الأقصى عند اليهود، كان الرجم، ولكنّ أَعداء يسوع لم يبتغوا مجرّد معاقبته وقتله، بل توخّوا تجريعه كؤوس جهنّم، فطالبوا بيلاطس بصلبه، إذ ليس كالصلب هولاً ومهانةً، وقدرةً على نقع غليل حقدهم. وكان الصليب هو ما يعاقب به الرومانُ العبيدَ المجرمين.

انتزع، إذن، الجند عن كتفَيْ يسوع، معطف السخريّة القرمزيّ، وألبسوه ثيابه، ودفعوه خارج قاعة المحكمة، ثمّ ألقوا على منكبيه عارضة صليبه الأُفقيّة التي كان عليه حملها حتّى موقع الصلب. إِنّها آلة موته، ودليل قدرته، ومصدر مجده، وشجرة الخلاص. كان أشعيا قد تنبّأ بأَنّ المسيح سيحمل مملكته على كتفه، والصليب هو مملكة يسوعٍ، وشريعة الحياة الجديدة التي جاء بها العالم. وكان يتبع يسوع جنديٌّ رافعًا لوحةً دُوّنت عليها علّة صلبه، وقد أملاها بيلاطس نفسه بهذه العبارة «يسوع الناصريّ، ملك اليهود». وقد كُتبت باللغات الثلاث الشائعة: الآراميّة، لغة الشعب المحكيّة في فلسطين وسوريّة، واللاتينيّة، لغة أَسياد العالم آنذاك، واليونانيّة، لغة التواصل بين شتّى البلدان. ولّما قرأها زعماء اليهود ثارت ثائِرتهم، فهرعوا إلى بيلاطس وطالبوه بتصحيحها بحيث تقول: «يسوع الناصريّ، الذي ادّعى أنّه ملك اليهود». ولكنّ بيلاطس الذي سئم مماحكاتهم، وقسوة أذهانهم وقلوبهم، رفض أن يغيّر حرفًا، وقال: «**ما كُتب فقد كُتب**». كان قد أمعن في التنازل أَمامهم، وانتهز تلك السانحة كي ينتقم، ويا له من انتقامٍ حقيرٍ، بعد فيضٍ من الوهن والجبن!

إلى جانب يسوع سار مجرمان يُقلُّ كلٌّ منهما عارضة صليبه، وانطلق الموكب الكئيب، يتقدّمه قائد مئةٍ ممتطيًا صهوة جواده، ويحيق بالمحكومين جندٌ في زيّ المعركة، وكأنّهم في حملةٍ عسكريّةٍ.

حمل يسوع صليبه، مثلما حمل إِسحق الحطب الذي كان سيُحرق عليه. ولطالما حمل يسوع النجّار عوارض خشبيّة على منكبَيْه، ولكنّه كان ينعم، حينذاك، بكلّ منعة شبابه وصحّته، ولم تكن السياط قد جعلت من كلّ جسمه جرحًا حيًّا نازفًا، ولم يكن التنكيل الشرس قد أنهك قواه. وقد بهظت عارضة الصليب منكبيه اللّذيْن حرثهما أكثر من مئة جلدةٍ، فأخذت قطرات دمٍ وعرقٍ تنثال مع كلّ خطوةٍ من خطواته، راسمةً مسيرة دربه، عقب ليلٍ من الآلام المبرّحة، جسديًّا وروحيًّا، ومن الجلد الوحشيّ. كانت قوى المخلّص قد خارت، فبات يترنّح، ويتعثّر، وغدت خطواته وئيدةً، قصيرةً، متعبةً، فأُنزلت به السياط لحمله على حثّها. وكان يسقط أرضًا، وينهض بمشقّةٍ، إلى أن سقط ولم تفلح السياط في إِنهاضه. وخشي عليه قائد المئة أَن يلقى حتفه قبل بلوغ غايته، فتقع على عاتقه تبعة فشله في أداء مهمّته. وكان لا بدّ من تسخير آخر بحمل عارضة صليب يسوع عنه. واتّفق، في تلك اللحظة، أَن كان فلاّحٌ متين البنية عائدًا من حقله، إذ كان يُسمَح بالعمل نصف نهار، في ذلك اليوم الذي يسبق الفصح، ووجد فيه قائد المئة ضالّته، فسخّره بحمل العارضة. ربّما لعن ذلك الفلاّح تلك الصدفة التي جعلته يمرّ بذلك المكان في تلك اللحظة، بحيث يُكلّف بمهمّةٍ ستشغله عن الاستعداد للفصح، وتضيف إلى تعب عمله في الحقل، منذ الفجر، تعبًا جديدًا. و لكنّه لم يكن يملك خيار رفض السخرة، وإلاّ تعرَّض لعقابٍ شديدٍ.

كان اسم الرجل سمعان القورينيّ، وكان طليعة البشريَّة المدعوَّة إلى مشاركة المخلّص آلامه وصلبه. ويبدو أنَّ ذلك الإنسان الشهم، عندما شاهد ما آل إليه ذاك الرجل الذي كُلّف بحمل عارضة صليبه، وإلى أَيّة مهانةٍ انتهى ذاك الذي كانت جلالة الأُلوهة تشعّ من كلّ كيانه، تعاطف معه بكلّ جوارحه، وغدت سخرته «نيرًا ليّنًا، وحملاً خفيفًا»، وعبئًا عذبًا يسرّب إلى قلبه السعادة، ونعمةً أَخصبت نفسه، وشملت نفوس أَفراد أُسرته. فعندما دوّن مرقس إنجيله، وأتى على ذكر سمعان هذا ذكّر قرّاءه الرومانيّين بأنّه والد الإِسكندر وروفس، وكانا، حينذاك، من أركان الكنيسة الناشئة، وقد ورد ذكرهما في سفر أَعمال الرسل وفي رسائل القدّيس بولس أيضًا. لقد كان أوّل من حمل الصليب، وسار في إثر يسوع. أقلّ على كتفه شجرة الخلاص، وتلقّى

كلّ نسغها. لقد أُعطي مثلما سيعطى الرسول بولس أن «يكمل في جسده، ما نقص من آلام المسيح». لقد وضع قوّته في خدمة الرب، فوُهب قوًى لا توصف.

* *

بين قلعة أنطونيا التي انطلق منها الموكب وموقع الصلب، المسافة قصيرةٌ ولاتتعدّى بضع مئاتٍ من الأمتار. غير أنّ زعماء اليهود حرصوا على إضفاء أكبر قدرٍ من العلنيّة على الحَدَث، إبرازًا لانتصارهم، وإمعانًا في إذلال ضحيّتهم. ولذلك سلكوا دروبًا ملتويةً، شديدة الازدحام، بسبب التأهّب للاحتفال بالفصح. لطالما حاصرت الجموع يسوع وزحمته طمعًا في عطفه وبركاته، وها هي اليوم تحاصره ولكن تحدوها دوافع أُخرى: لامبالاةٌ وحشيّةٌ حيال إنسانٍ، متألّمٍ، أو قسوةٌ حيال إنسانٍ يمقته زعماؤهم.

ومن المرجّح أنّ الأعيان ونفرًا من رؤساء الكهنة، دفعتهم الحقارة إلى الاشتراك في موكب الصلب، وإلى اقتفاء أثر الرعاع رغبةً في إثارتهم. كانوا يسوقون الضحيّة إلى الجلجلة، ويبتغون، من تلك المناسبة، إشباع جوعهم إلى تحيّات الناس ظانّين أنّهم، بها، يحقّرون أعداءهم، ولطالما ندّد بهم يسوع بسببها. ولكي يبجّلهم الناس كانوا يغدقون على الضحيّة، الشتائم؛ يستجدون التكريم، ويردّونه لعناتٍ، وبتحريضٍ منهم تنهال إهانات الشامتين، لاعنين «ملك اليهود» الذي لم يقوَ على الدفاع عن مملكته. فعندما يهوي القويّ يستأسد أبناء الهوان.

أورشليم التي كانت قد استقبلت يسوع، لأيّامٍ معدوداتٍ خلت، بهتاف «هوشعنا»، هي ذاتها باتت تتمتّع بمشهد آلامه، لأنّ كهنتها وصموه بالتجديف.

وبعد أَن انعتق يسوع من عبء عارضة صليبه، استطاع أن يجيل طَرْفه في الحشد المحيق به، والذي ضمّ فضوليّين، وكهنةً منتفخين عُجْبًا وزهوًا بانتصارهم، ويهودًا شامتين، وقلّةً ممّن أَحزنهم أن يُساق إلى منقع العذاب والهوان من لم يشهدوا منه إلاّ كلّ عطفٍ وإحسانٍ.

ووسط هذا الحشد، لمح يسوع نسوةً يذرّفنَ الدموع، ويقرعنَ صدورهنّ، يرثين شبابه، وكأنّهنّ يشيّعنَ ابنًا أو قريبًا. كنّ «بنات أورشليم» اللائي لم يشاركنَ آباءهنّ وأزواجهنّ مشاعر الحقد والكراهية، واستنكرنَ تعسُّفهم في معاملة ضحيّةٍ بريئةٍ، فرغبنَ في التعبير ليسوع عن تعاطفهنّ. ولا ريب أنّ المخلّص تأثّر بمشاعرهنّ، ولكنّه

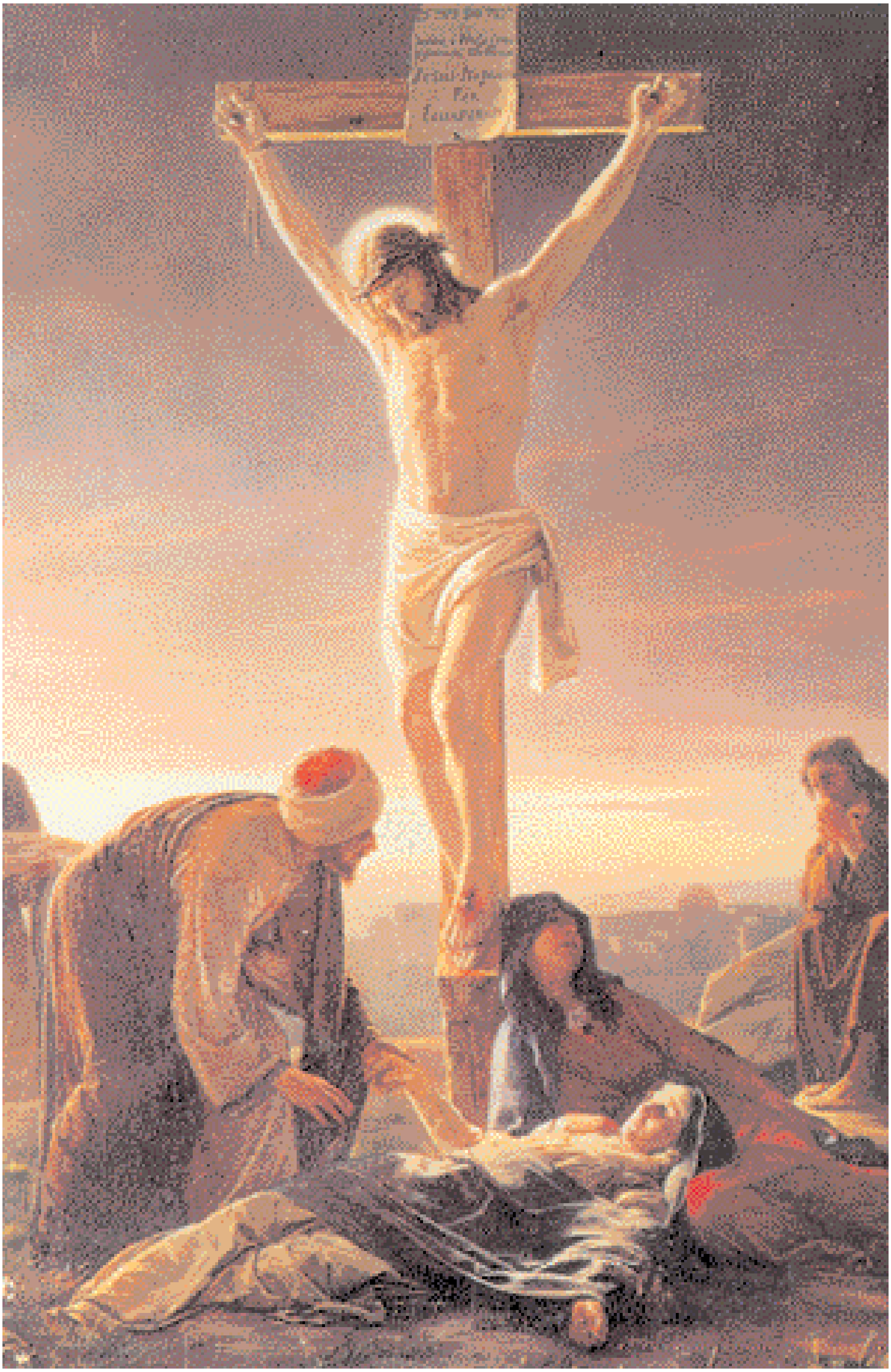

الصلب (بريشة كارل بلوك)

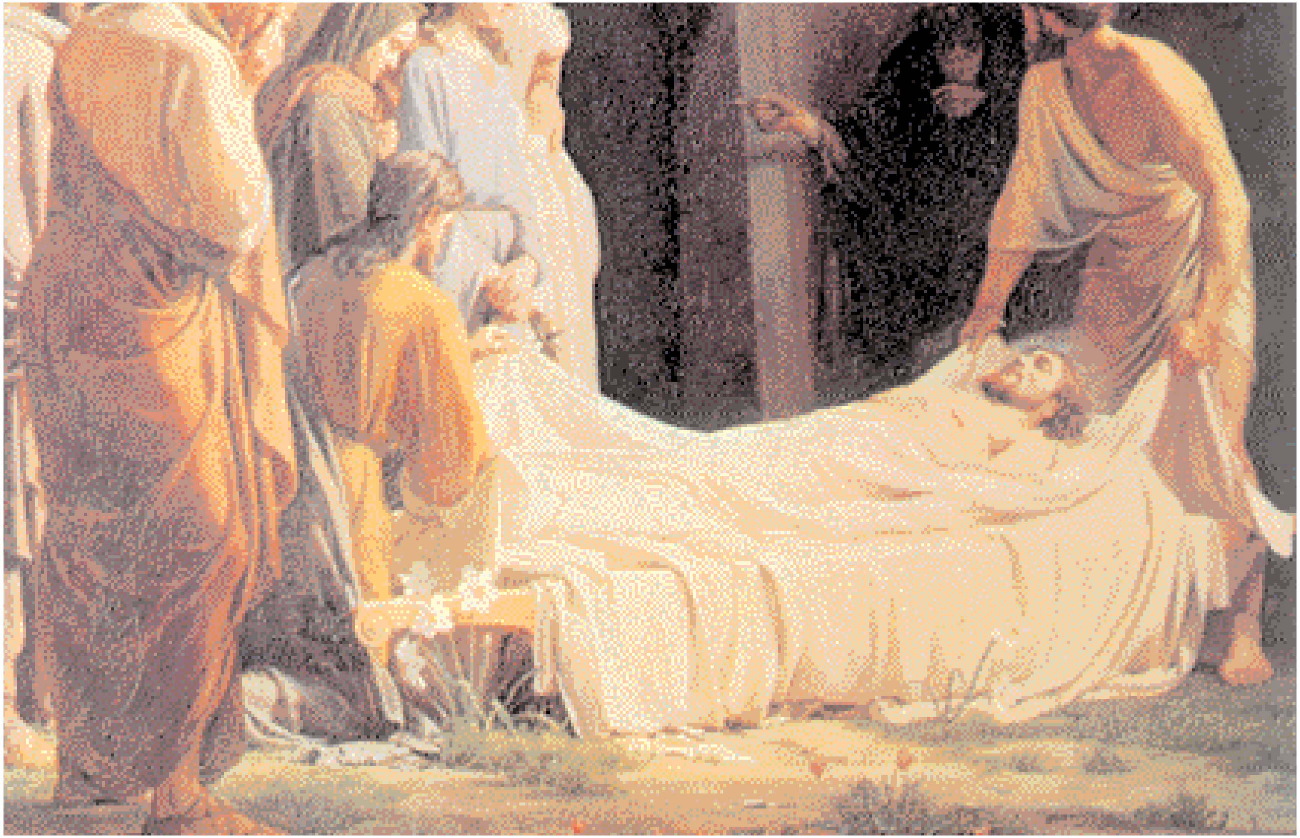

دفن يسوع

(بريشة كارل بلوك)

أنذرهنّ أنّه أقلّ جدارةً بالبكاء منهنّ ومن أبنائهنّ، فموته سيخلّص العالم، ولكن الويل لهنّ ولأمّتهنّ: **فالتفت يسوعُ إليهنّ وقال:** «**يا بنات أورشليم، لا تبْكِينَ عليَّ، بل ابكِينَ عليكُنّ وعلى أولادكنَّ. فها هي ذي أيّامٌ تأتي يُقال فيها: طوبى للعواقر، وللبطون التي لم تلدْ، وللثديّ التي لم تُرْضع! إذ حينئذٍ يأخذون يقولون للجبال: انهدّي علينا، وللآكام: وارينا! لأنّه إذا كانت الشجرة الخضراءُ تُعامَلُ بمثْل هذا، فكيف بالشجرة اليابسة؟**» (لوقا ٢٣: ٢٨- ٣١).

ولكأنّي بيسوع يقول لهنّ: لا تنتحبنَ عليّ، فأنا أموت طوعًا، منفّذًا مهمّةً أنا اخترتُها، ولا يُرثى بطلٌ وهو على مسافة ثلاثة أيّامٍ من النصر. بل ابكِينَ، بالحريّ، على ذواتكنّ، يا أُمّهات قاتلي الله، وعلى أبنائكنّ الذين يتضاحكون هازئين بضحيّة الظلم الوقح.

كان الربّ يرى بعينيه الإلهيَّتين هول ما سيحلّ بأبنائهنّ بعد أربعين سنةً: الحديد والنار سيحصدان النخبة، والأطلال تدفن الآلاف، ألوفٌ معلّقون على الصلبان، والطرقات تزدحم بأكوام الجثث، وهذيان الجوع يحمل الأمّهات على التهام ثمار أحشائهنّ.

الخشب الرطب هو المخلّص، والخشب الجافّ هو شعب إسرائيل الذي قتل إلهه. لقد جفّ، فلا أمل في اخضراره مجدِّدًا، ولم يعد يصلح إلاّ للنار.

ويسوع لا يريد بكاءً عليه، بل يبتغي تحوّلاً وإيمانًا.

* *

وهنا يورد التقليد حدثًا أغفلته الأناجيل، ولكنّه عذبٌ على قلوبنا. فمن وسط النسوة اللائي كنّ ينحنَ ويندبنَ، برزت امرأةٌ متحدّيةً الخوف والخجل وعداء اليهود، ودنت من يسوع. لم تُطِقْ رؤية ما شوّه سنى وجهه الإلهيّ من دمٍ، وعرقٍ، ورغامٍ، وبصاقٍ، فمسحته بمنديلها كي تزيل عنه كلّ ذلك التدنيس، ولمّا عادت إلى منزلها، منهارةً، مسحوقة القلب، بسطت منديلها مترسّمةً أثرًا للمخلّص، فإذا بالمنديل قد أصبح أيقونةً، ارتسمت عليه قسمات ذلك المحيّا الوجيع، محيّا يوم الجمعة المظلم، محيّا متشنّجٍ، محفور الخدّين، وقد بلّل النجيع لحيته وكلّ جنباته، وانثال من الجبين الذي حفر فيه الشوك ثقوبًا. تلك الصورة التي احتفظت بها تحت جفنيها، ذكرَى

موجعةً وغاليةً، قد انطبعت للأبد على منديلها، مخلّدةً عليه ملامح ابن البشر الأخيرة، ملك الآلام والخلاص.

ما عاد يهمّها من الدنيا شيءٌ، فقد اختُزل كلّ عالمها في المنديل الذي حضنته بعينيها. لم تعلم متى حدثت المعجزة، ولكنّها مأخوذةٌ بها، تبكي وتصلّي أمامها. وها هي ذي ذاهلةٌ عن الوجود، وعن كرّ الساعات، مستغرقةٌ في التأمّل، تحيا، في أعماقها، مراحل آلام يسوع. إنّها ڤيرونيكا، الساهرة على الدمغة الإلهيّة.

* *

وجديرٌ بالتنويه أنّ الأسلوب الذي انتهجه الإنجيليّون في رواية نزاع يسوع وآلامه، بتجرّدٍ، وحيادٍ، وبساطةٍ، واقتصارٍ على الوقائع، بمعزلٍ عن أيّ ردّ فعلٍ، أو هيجانٍ عاطفيٍّ، يضفي على هذه الرواية جلالاً، ووقارًا، وإدهاشًا. وقد كتب «جان غيتّون»، في هذا السياق: «سأظلّ دهشًا حيال اللهجة الساكنة التي تميّز رواية الآلام في الأناجيل. فكلّ أدبٍ يبدو باهتًا إزاء هذه الأسطر البالغة البساطة».

صَلْبُ يَسُوع (*)

انتهى الموكب إلى موقع الصلب الواقع عند الطريق الشماليّ من أورشليم، بعدَ الأسوار مباشرةً، على مقربةٍ من أحد أبواب المدينة، حيث تزدحم أقدام المارّة. وقد أَلف الرومانيّون نصب الصلبان عند مدخل المدن، حيث كان مشهدها المريع يفرض هيبته على أنظار الداخلين، والخارجين، والمتنزّهين.

هذا المكان، خارج أَسوار المدينة، كان يلبّي رغبة اليهود الذين أَبوا أن يدنّس صليب يسوع عاصمتهم، ويتوافق مع رغبة الربّ في ألاّ يظنّ أحدٌ أنّه مات من أجل الشعب اليهوديّ دون سواه، بل ابتغى أن يدرك العالم أنّه بذل نفسه عن الجميع، كي يفتدي الأرض كلّها، ويطهّر الجنس البشريّ برمّته.

في ذلك الموقع كانت تلّةٌ صخريّةٌ صغيرةٌ يبلغ ارتفاعها نحو أَربعة أمتار، تحاكي جمجمةً صلعاء، ولذلك دُعيت بالعبريّة «جلجثّتا»، وتعني الجمجمة، وعلى هذه التلّة نُصبت صلبانٌ ثلاثةٌ يتوسَّطها صليب يسوع، وإلى جانبَيْه صليبا لصَّيْن، إمعانًا في المهانة.

لم يختلط يسوع بمجرمين ولصوصٍ وقطّاع طرقٍ في أثناء حياته، ولكنّ مصيره، في السوَيْعات الأخيرة، ارتبط بمصير ثلاثةٍ منهم: برأبّا الذي أُعتق بفضله، والمجرمَيْن اللّذين صلبا معه.

وقد أجرى مع أحدهما أروع حوارٍ، وجعله أوّل قدّيسٍ يطوّبه بنفسه، ويواكبه إلى الفردوس. ذلك اللصّ تاب، واعترف باستئهاله الصلب. ولكنّه استنكر صلب يسوع البريء، وتصلَّب قلب رفيقه. بارتقائه الصليب وَضُحت رؤيته، وانقشع أمام عينيه فجرٌ قشيبٌ نديٌّ. لقد فُسِحت له، في آخر لحظات حياته، فرصة العمر، وتسنّى له

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «لمَ صُلب يسوع»، صفحة ٤٧٣.

أن يصبح رفيق المخلّص في الموت، وفي الملكوت. لقد أدرك ما استغلق على علماء الشريعة، وعلى الكثيرين من اليهود، مع أنه لم يشاهد من خوارق يسوع شيئًا، ولم يشهد سوى موته المهين. إلاّ أنّه عاين، بنور القلب، من خلال موت ذلك البريء، علامات الألوهة تضجّ فيه.

ذلك اللصّ هو واحدٌ من الأخيرين الذين أصبحوا أوّلين.

* *

الصليب اختراعٌ شيطانيٌّ يسبّب من الآلام أشدّها إيلامًا وهولاً، وقد خصّ به الرومان معاقبة العبيد المجرمين، وهو الذي اختاره اليهود لابن جلدتهم الذي جاءهم مسيحًا ومخلّصًا، وشفى العديد من مرضاهم. وهو، فضلاً عن ذلك، عند اليهود، علامة اللعنة الإلهيّة، والهوان. فقد جاء في تثنية الاشتراع: «ملعونٌ من الله كلُّ من عُلّق على خشبةٍ»، وهذا ما ألمح إليه بولس الرسول بقوله، في رسالته إلى الغلاطيّين: «**جُعل يسوع من أجلنا لعنةً**» (٣: ١٣).

وما إصرار اليهود على صلب يسوع إلاّ لكي يجعلوا منه ملعونًا، فلا يجرؤ أيّ تقيٍّ على اتّباعه، أو أيّ عاقلٍ على الانتماء إليه.

المسيحيون الأوّلون كانوا يمقتون تصوير يسوع على الصليب، لأنّهم كانوا قد شاهدوا بعيونهم بشاعة الصلب وهوله: أجسادٌ عاريةٌ، مثبتةٌ على خشبةٍ خشنةٍ، تعلوها عارضةٌ أفقيّةٌ. اليدان والقدمان مسمّرةٌ على آلة العذاب، والجسد نفسه يتهاوى تحت وقره الخاصّ، والرأس يتأرجح، وكلابٌ اجتذبتها رائحة الدماء، تلتهم الأرجل، والعقبان تحوم حول ساحة الموت، والضحايا التي أنهكها العذاب تتأوّر عطشًا، وتستدعي الموت بألفاظٍ مبهمةٍ.

كانت لحظةً موجعةً شديدة الضراوة تلك التي نُزع فيها ثوب يسوع الملتصق بجراحه، ولكأنّ جلده يُسلخ، تلتها ضربات المطارق الجاهدة في غرس مسامير مربّعةٍ يبلغ طول الواحدة منها نحو اثني عشر سنتمترًا في كلٍّ من المعصَمَيْن، في مكانٍ يعرف الجلاّدون أنّه الأكثر طراوةً ويُسرًا في الثقب، ولكنّه، في الواقع، شبكة عروقٍ وأعصابٍ بالغة الحساسيّة، يضرم اختراقها نيران آلامٍ حارقةٍ لا تُحتَمل، في كلّ أرجاء الجسم. وهكذا، بعد أن تسمّر اليدان على العارضة الأفقيّة التي سبق ربطها، على

الأرض، بالعارضة العموديّة حيث أُثبت إسفينٌ، هدفه تلقّي ثقل الجسد ومنعه من الانزلاق والسقوط، تسمّر القدمان على العارضة العموديّة. الصور المألوفة للصلب تظهر القدمين وقد ضُمّتا معًا، وسُمّرتا. ولكن يُرجّح أن كلّ قدمٍ كانت تسمّر على حدةٍ. ومع كلّ مسمارٍ يُدقّ في كلٍّ منهما تضطرم نيران آلامٍ جهنّميّةٍ. وكانت الركبة تطوى كي تسمّر القدم وهي مسطحّة على الخشب، ممّا يسبّب تشنُّجاتٍ مريعةً.

وحينئذٍ، كان يتكاتف نفرٌ من الجند على رفع الصليب، والمصلوب عليه، على مهل، ودفعه إلى الحفرة التي أُعدّت له، والتي تردم بإحكام. كلّ تلك المناورات كانت تمزّق الأوصال والأعصاب، وتشيع في كلّ الجسم آلامًا مبرّحةً.

وسط هذه الوحشيّة المنفلتة من عقالها، ومضت بارقة رحمةٍ. فقد كانت جمعيّةٌ من النساء الأورشليميّات، بُغيةَ مواساة المحكومين بالموت، تقدّم لهم شرابًا مزيجًا من خمرٍ وبخورٍ، له فعل مخدّرٍ يخفّف من وطأة الآلام. وقد قُدِّم هذا الشراب ليسوع وللمحكومَيْن بالصلب معه، ولكنّ يسوع بلّل به شفتيه الجافّتين، وأبى ارتشافه، حرصًا منه على تجرّع كأس الفداء حتّى الثمالة، وهو بكامل وعيه.

* *

وضْعُ الصلب كان مصدر عذابٍ ضارٍ، فكلّ حركةٍ تستهدف تخفيف ألمٍ محلّيٍّ كان يشيع آلامًا جديدةً مضنيةً في أماكن أُخرى من الجسم، بحيث كان الإرهاق يحلّ سريعًا ولا علاج له، ولا غيبوبة تخدّره، فالآلام من الشدّة والتجدُّد بحيث تبقى الأعصاب كلّها يقظةً، وجيعةً.

الصدر يعاني تشنّجاتٍ مريعةً، والضغوط الناشبة بالذراعَيْن والقدميْن تجعل التنفّس لهاثًا، والقلب متسارع الخفقان، ضعيفه، والدماغ محتقنًا، وآثار الشوك في الجبين والرأس تنعكس ألمًا مريعًا لدى كلّ حركةٍ.

ولا ننسَ العطش الذي يلهب أحشاء المصلوب، ولاسيّما أنّ يسوع قد نضح قدرًا كبيرًا من العرق والدم، وقُيّد، وأُهين، وجُلِد، وحمل عارضة صليبه، ورفض أيّ مخّدرٍ للألم. والوجع كان يجعله يفتح فاه، فيتفاقم جفاف فمه، وعروقه لا تني تفرغ من دمها، ومن كلّ سائلٍ كفيلٍ ببعث شيءٍ من الانتعاش.

وكان يضاعف آلامه وجع أُمّه التي كانت نفسها تُصلب وهي تشاهده معلّقًا. الآلام

كانت في كلّ أَعضائه وفي فكره وفي قلبه، وفي روحه. كان يموت قطرةً قطرةً، وعزاؤه الوحيد أنّه كان ينفّذ مشيئة الآب، ويوفّر للبشر الخلاص. لقد دُعي الصليب «السرير الرهيب» ولا عجب إن فجّر تأمّله صيحات الصوفيّين الموجعة.

نُصب الصليب، وسرت تمتمات الدهشة، فالعداء، فالسخريّة، خانقةً همسات التعاطف الخجول. على الصليب صار يسوع موضع شتيمةٍ، «**عارًا عند البشر، ورذالةً في الشعب**»، مع أنّ بين الشامتين الشاتمين من طالما اندفعوا في إثر يسوع مستجدين شفاءً أو عزاءً، ومن كانوا يهتفون: «**يا ابن داود ارحمنا**»، ومن كانوا يقبّلون أهداب معطفه.

وقد سبق للأنبياء، أن تخيّلوا شيئًا من ذلك المشهد المفجع، فقالوا:

«**جميع الذين يرونني يسخرون بي،**
ويفغرون الشفاه ويهزّون الرؤوس:
إلى الربّ سلّم أمره، فلينجّه،

وبما أنّه يحبّه، فلينقذه!» (مزمور٢٢: ٨–٩)

«**صرت عندهم مثلاً،**
وعند الجالسين بالباب حديثًا،
ولشرّاب المسكرات أُغنياتٍ» (مزمور ٦٩: ١٢–١٣)

«**يا جميع عابري الطريق، تأمّلوا وانظروا،**
هل من ألمٍ كألمي الذي أَصابني، الذي آلمني به الربّ؟» (مراثي ١: ١٢).

وجاء في نبوءة عاموس: «**ويكون في ذلك اليوم، يقول الربّ، أنّي أُغيّب الشمس عند الظهيرة، وأجلب الظلمة على النهار الضاحي، وأحوّل أعيادكم نَوْحًا، وجميع أغانيكم رثاءً**».

«**وها إنّها ستأتي أيّامٌ، يقول السيّد الربّ، أرسل فيها الجوع على الأَرض، لا الجوع إلى الخبز، ولا العطش إلى الماء، بل إلى استماع كلمة الربّ**».

واليوم، كم من التهكّم المنصبّ على تعليم يسوع، وعلى الممارسات، والأشخاص، والمتطلّبات، والوعود، والأحداث، والأفكار، والمؤسّسات التي يرتبط اسمها بيسوع المصلوب! وكم هم الذين يهزأون ويهزّون رؤوسهم! وكم من شرّاب الخمرة، خمرة العلم المغشوشة، وخمرة الهوى الماجن، ويؤلّفون الأغنيات!

عندما انتهى الصلب كان الوقت ظهرًا، وكان يسوع الذي خارت قواه ملتزمًا الصمت، إذ كان ذهنه غارقًا في أبيه السماويّ، مقدّمًا له تضحيته القصوى بذاته، وسرعان ما سرى مفعول الكزاز الناجم عن المسامير في كلّ جسمه، وقضى على أَعصابه وجهازه التنفّسيّ، بحيث غدت كلّ كلمةٍ يتلفّظ بها استشهادًا، وجهدًا مضنيًا يستنزف ما تبقّى من قواه، ومع ذلك ترك لنا يسوع المصلوب كنزًا من سبعة أقوالٍ تقطر سموًّا، وقوّةً، وحنانًا، ورقّةً بلا حدودٍ، وتتّسم بالروعة، والمأساويّة، والألوهة.

أقوالُ يسُوعَ السَّبْعَةُ عَلَى الصَّليب (*)

قوله الأوّل قول صفحٍ وغفرانٍ. فلطالما علّم يسوع الصفح، وكان له المثل الحيّ. لم يكن المصلوب يعلو فوق الأرض سوى القليل، بحيث كان يراقب، بعينيه الناعستين اللّتين غشاهما العرق والدم والغبار، كلّ الحقارة المحيقة به. كان الرعاع يمرّون به فيبصقون عليه ويقذفونه بأقذع شتائمهم، وكان رؤساء الكهنة وأعضاء السنهدرين يتحدّثون بصَلَف المنتصر. كان الأَوْلى بهم أن يؤوبوا إلى منازلهم للإشراف على إِعدادات الفصح، ولكنّهم آثروا التريّث كي ينقعوا غليل حقدهم على الجليليّ الذي طالما فضح زيفهم، ولكي يتلمّظوا، متذوّقين انتصارهم على مهلٍ. كانوا في حركةٍ متّصلةٍ، وفي ذهابٍ وإيابٍ أمام الصلبان، لا يتوقّفون إلاّ للتحديق بازدراءٍ إلى الصليب القائم في الوسط، أو ليدلّوا عليه، بأصابعهم، أصدقاءهم ومعارفهم. وبين فينةٍ وفينةٍ، كانوا ينتصبون أمامه، ويخاطبونه شامتين: «**إيه، أنت الذي ينقض الهيكل، ويبنيه في ثلاثة أيّامٍ، خلّص نفسك! إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب!**». وكان بعض المارّة، متأثّرين بشماتة كهنتهم، يردّدون مثل هذه الأقوال، «**وكذلك اللصّان اللّذان صُلبا معه، كانا، هما أيضًا يعيّرانه بمثل ذلك**». وآخرون من الكتبة ورؤساء الكهنة كانوا يقرّعونه، ويتباهون بصحّة حكمهم فيه، فيقولون: «**لقد خلّص آخرين، وها هوذا عاجزٌ عن إنقاذ نفسه! هو، ملك إسرائيل! فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به. توكّل على الله! فلينقذه الآن، إن كان راضيًا عنه – فإنّه قال: أنا ابن الله!**». ولكن، من الصليب لم ينزل المصلوب، ولا جاء ردٌّ، فما من قولٍ أو فعلٍ كفيلان بإقناع من يتكلّمون على هذا النحو.

لم يكن جميع الشامتين الشتّامين ناقمين على يسوع، غير أنّهم كانوا يؤمنون بعدالة زعمائهم الدينيّين، فظنّوا أنّ ذاك الذي طالب هؤلاء الزعماء بصلبه، كان، بلا ريبٍ،

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «كلماتٌ سبعٌ موجّهة إلى الصليب»، صفحة ٤٧٨، و«انتصار المصلوب»، صفحة ٤٨١.

يستأهل هذا العقاب. وكانوا، إثر شتمه، يواصلون دربهم مطمئنّي القلب. أمّا الكتبة ورؤساء الكهنة فكانوا يمتّعون أنظارهم بذلك المنظر، وربّما كانت تشوب فرحتَهم خشيةٌ من أن يقوم صانع المعجزات بما يقوّض إنجازهم الرائع. غير أنّ رؤيته محتضرًا كانت تضاعف فرحتهم، واعتزازهم بنجاحهم، فيسترسلون في الشماتة الساخرة. لقد كانوا موقنين بأنّ الله تخلّى عنه، بل، بالحريّ، كان يعاقبه على تجديفه، وكلّ ذلك بفضل حرصهم على شؤون الله، وغيرتهم عليها. وبعد قليلٍ سينصرفون، قريري العيون، إلى تناول الفصح، مطمئنّين إلى زوال ذاك الذي كان يهدّد سيطرتهم على عقول الشعب وضمائره.

طالبوه بالنزول عن الصليب كي يؤمنوا، ولكن حتّى لو نزل لما آمنوا، ولصلبوه ثانيةً.

فلطالما شهدوا خوارق أخطر شأنًا من النزول عن الصليب، ولو كانوا صادقين لآمنوا به. وكانت بُغية يسوع قد أمست إبراز هدف موته، وإثبات حبّه، لا مقدرته. ملكوته ملكوت حبٍّ، ومدخله الألم والموت. وعرشه هو الصليب، وهو غير مستعدٍّ للتخلّي عن عرشه، ورسالته، وملكوته.

كان من المألوف أن يُحاط المحكوم بالإعدام، في آخر لحظات حياته، بالعطف. ولكنّ يسوع أُحيط بالشماتة والتجديف. وشارك زعماء اليهود الرعاع إسفافهم وسبابهم المقذع، خشيةَ أن ينقلب شعور الجمع ندمًا، وتعاطفًا مع المصلوب الذي التمس لجلاّديه الغفران. ورغم الإهانة والسخريّة مضى في مشروع خلاصه حتّى آخر الشوط...

وفي تلك الأثناء كان الجند يقتسمون غنائم ثياب المصلوبين التي أمست حقًّا لهم، وكانت ثياب الرجال تتألّف عامّةً من رداءٍ داخليّ، يعلوه معطف. وكان رداء يسوع محاكًا قطعةً واحدةً، وربّما حاكته له، بحبٍّ جمٍّ، أُمّه، أَو إحدى النسوة اللائي كنّ يواكبنه ويخدمنَ جماعته، فجاء آيةً في الإبداع، وآثر الجند إجراء القرعة عليه، وجعله من نصيب من يحالفه النرد الذي استعانوا به على طرد سأم الحراسة الطويلة.

لقد رأى الآباء الأوّلون في هذا الثوب، رمزًا لوحدة الكنيسة، والويل لمن يسعى إِلى تمزيقه وتقسيمه!

حيال كلّ تلك المشاهد الموجعة، جاء قول يسوع الأوّل: «**يا أبتا! اغفر لهم، لأنّهم لا يعرفون ما يفعلون**».

على الصليب، توجّه يسوع، بدعائين إلى أبيه: دعاءٍ يتعلّق به، مشروطٍ بمشيئة الآب: «**إن أمكن، فلتجز عنّي هذه الكأس**»، ودعاءٍ آخر، من أجل البشر، ملحاحٍ: «**اغفر لهم، يا أبتِ**».

لقد ٱثّأر يسوع من الشرّ بتضحيته الطوعيّة بذاته، وبمقابلته الحقارة والحقد بالصفح والغفران.

كان اليهود، في الواقع، يدّعون المعرفة. غير أنّ كبرياءهم التي كانت منبت بغضهم، كانت تعمي بصيرتهم، وكان هذا العمى في منشئه، إراديًّا. ومن ثمّ، كانوا في حاجةٍ حارقةٍ إلى الصفح. وغفر لهم يسوع، بعد أن رفعوه على الصليب، ثمّ التمس لهم غفران أَبيه، بما أنّه قد جاء كي يخلّص الخطأة بآلامه.

من أجل هؤلاء، التمس يسوع مغفرة أبيه، ومن أجل جميع الذين أسهموا في آلامه وصلبه: من أجل خادم قيافا الذي صفعه، في المحكمة، بيدٍ فولاذيّةٍ، من أَجل بيلاطس الذي آثر بيع ضميره فأسلمه للموت حفاظًا على مركزه، وعلى رضى قيصر؛ من أجل هيرودس الذي ألبس الحكمة المطلقة ثوب المجانين، من أجل الجنود الذين نكّلوا به وجلدوه بوحشيّةٍ، وعلّقوا ملك الملوك، بين الأَرض والسماء، على خشبة الخزي، ظانّين أنّهم يؤدّون واجبهم، ومن أَجل اليهود الذين آثروا برأبّا المجرم على البراءة المتجسّدة، وطالبوا بموت واهب الحياة.

القول الثاني(*) توجّه به إلى أحد اللصّين المصلوبَيْن معه. بادئ الأمر انضمّا كلاهما إلى الجوقة النابحة، فشتماه وشمتا به، ولكنّ أحدهما هزّه سماعه يلتمس الغفران لأَعدائه، وزلزلت كيانه مهابة الألوهة المتجلّية على البريء المصلوب معهما، فحلّت عليه نعمةٌ عظمى: نعمة الإيمان بأنّ هذا البائس، الذي غدا وكأنّه نفايةٌ يأباها الجميع هو المسيح، ابن الله، صانع الحياة، وملك السماء.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «اليوم تكون معي في الفردوس»، صفحة ٤٩٥.

وفيما كان اللصّ المصلوب الآخر يردّد كالببّغاء ما يسمعه من شماتةٍ، ويتحدّاه، ولكأنّه ينتقم لأملٍ مُبهَمٍ، عابرٍ، خالجه مدى لحظاتٍ، قائلاً: «**ألستَ أنت المسيح؟ فخلّص نفسك، وإيّانا أيضًا!**». غير أنّ اللصّ التائب قد توغّل إلى أَعماق ذاته، وهو على وشك المثول بين يدي ربّه، واعترف باستئهاله ما يُسام من عذابٍ، جزاء فعاله النكراء. وعلى ضوء النور الذي أشرق على نفسه، في تلك اللحظات الحاسمة، انتهر رفيقه قائلاً: «**أما تخاف الله، وأنت تحت الحكم عينه! أمّا نحن، فبعدلٍ، إذ نعاقب بما اقترفت أَيدينا. وأمّا هو فلم يأتِ بشيءٍ من السوء**». ثمّ، بمشقّةٍ، أمال رأسه صوب يسوع وهمس في أُذنه: «**يا يسوع، اذكرني متى جئت ملكًا**». فقال له يسوع: «**الحقّ أقول لك إنّك، اليوم، تكون معي في الفردوس**».

حتّى عندما كانت ذراعاه المملوختان تمزّقان رئتيه، وجد يسوع قسطًا كافيًا من القوّة كي يلبّي طلب لصٍّ تائبٍ، ويولّد في قلبه الرجاء، ولكأنّه يؤكّد له أنّ السعادة التي طالما نشدها، عبثًا، حتّى في تضاعيف الحمأة، ولم يُصِبْها، سيشبع منها، حتّى التخمة، في الحال.

يقول جوليان غرين عن ذلك اللصّ: «لم يكن يملك ما يدّعي عليه استحقاقًا. كان صفر اليدين، مطبقًا إيّاهما على مسامير فحسب. ولم يكن يملك سوى الثقة بالله وحبّه. إنّه جديرٌ بأن يكون لجميعنا شفيعًا».

بقول الربّ له: «**اليوم تكون معي في الفردوس**»، في ضباب النزاع الدامي، كان يسوع يؤكّد أنّ الحياة الحقّة تبدأ لحظة موته. لقد امتصّ سمّ العنف، ومن الحقد المحيق به استنبط سانحة حبٍّ لامحدودٍ. درب الحبّ أُشرع أمام البشر كما لم يُشرع، قطّ، من قبل. وفي قلوب الأفراد والجماعات، لن يستطيع بعدُ، أحدٌ، أن ينسى أنّ يسوع قد قهر قسوة الموت، بالحبّ حتّى أقاصي الحبّ. إنّ مستقبل البشريّة مدوّنٌ على ذلك الوجه المعبود، المشوّه.

الفردوس هو الكون مع الربّ، والتمتّع بحضوره، ومشاركته مجده وسعادته، في أيّ مكانٍ كان. إنّ ذلك اللصّ، بتوبته الصادقة، استحقّ وعدًا لم يحظَ بمثله إنسانٌ. إنّه الخاطئ الوحيد الذي ضمن الخلاص وهو حيٌّ. مبادرة حبٍّ واحدةٌ، محت حياة إجرامٍ كاملةً. «أيّها اللصّ الصالح، يا عامل الساعة الأَخيرة، اجعلنا مجانين رجاءٍ» (مورياك).

لقد ضرب اللصّ التائب مثلاً للاعتراف الأكمل، وللصلاة المستجابة بأقصى رحمةٍ. «محتضرٌ يلتمس من محتضرٍ الحياة الأبديّة، ورجلٌ مجرّدٌ من كلّ شيءٍ، يلتمس من فقيرٍ مملكةً. لصٌّ يسرق، وهو على عتبة الموت، فردوسًا، ويصبح المواكب الأوّل لملك الملوك، وهو يدخل إلى مملكته. ربّما كانت تلك هي الصلاة الأولى التي تلاها، ففاقت استجابة الربّ لها، كل توقّعاته. تجرّأ، وطلب الكثير فحصل على كلّ شيءٍ، ومن ذا الذي يستطيع الوعد بالفردوس سوى الذي، بطبيعته، مقيمٌ فيه أبديًّا؟ في حين كان تلاميذ يسوع مرتعدين، فارّين، حائرين، اعترف به اللصّ مخلّصًا وإلهًا وملكًا، وفيما كان كلّ جسد يسوعٍ مقيّدًا، مسمّرًا، مهشّمًا، ظلّ قلبه مشرعًا على العطف، ولسانه يفيض حبًّا وغفرانًا».

لم يطلب ذلك التائب سوى الذكرى، ولكنّ يسوع جاد عليه بأثمن عطاء: السعادة في أحضان الله. كان حسبه وعدٌ ورجاءٌ، فكان نصيبه سعادةً بلا حدودٍ.

لقد تفرّد لوقا برواية هذا الحدث، ولا ريب أنّه استقاه من العذراء التي كانت تعانق صليب ابنها، وتتلقّف كلّ كلمةٍ تهمي من شفتيه الجافّتين.

القول الثالث[*] في خضمّ البغض والكراهية واللامبالاة الذي كان يحيق به، لم تكن أنظار يسوع تقع إلاّ على الحقارة البشريّة والحمق، وكان نكران الجميل يؤلمه أكثر من كلّ عذابٍ، غير أنّ أنظاره الوجيعة قد ارتاحت عندما توقّفت على جماعةٍ صغيرةٍ ممّن لم تزدهم مهانته إلا التصاقًا به، وحبًّا ووفاءً له. كانت هناك أُمّه التي اخترق السيف الذي تنبّأ به سمعان الشيخ قلبها، وقد مزّقه كلّ مسمارٍ دُقّ في يديه ورجليه، وكلّ رعشة ألمٍ سرت في أَوصاله، وكلّ صيحةٍ معاديةٍ، وكل شتيمةٍ وضحكة هزءٍ. وقد أَحاطت بها أُختها زوجة كليوبّا، أمّ من دعوا إخوة يسوع وأَخواته، ومريم المجدليّة، وسالومي زوجة زبدى، أمّ يعقوب ويوحنّا، ومن التلاميذ، وحده يوحنّا، «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه».

كانوا يمثّلون الحبّ، والتوبة، والبراءة، والكهنوت، نماذج النفوس الملتصقة، أبدًا، بالصليب.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «عند الصليب، حضور أمّ»، صفحة ٤٨٨.

بحملها يسوع على تقديم ساعته، وإجراء معجزة قانا، كانت مريم قد قدّمت موعد صلبه، وقدّمت ساعتها، أيضًا. آلام يسوع هي آلامها. ذلك الجسد الذي حضنته في أحشائها، ثمّ هدهدته، وغذّته، وأنمته بكلّ حبّها، والذي وُعدت برؤيته ملكًا لا نهاية لملكه، شهدته يحتضر احتضارًا مخزيًا، مضنيًا، ولا عرش له على هذه الأرض، سوى عرش المهانة، الصليب، ولا مجد له سوى العذاب والآلام. ومع ذلك لم يهتزّ لها ثقةٌ أو رجاءٌ، بل ظلّت مستسلمةً كلّيّةً لله، فهو الملجأ الوحيد، عندما ينهار الجسد.

لقد تجرّعت أعتى عذابٍ قد يعانيه قلب أمٍّ، ولكنّها في مشروع الفداء كانت متضامنةً مع ابنها، وشاركته حبّه اللامحدود، والتضحية الكاملة. ما من قدّيسٍ استطاع معانقة الصليب كما فعلت، وبفضل إيمانها لم تنتحب، ولم تندب، كما فعلت سائر النسوة.

كان على أُمِّ المخلّص أن تكون، أيضًا، أُمّ جميع الذين يؤلّفون معه جسدًا واحدًا. والمرأة لا تصبح أُمًّا إلاّ عبر الألم، ومريم، بمشاركتها آلام ابنها الفدائيّة، أتمّت مهمّتها بصفتها أُمًّا شاملةً للبشريّة، حوّاء الجديدة الطاهرة، المباركة، المرأة الأبديّة، التي، مع ابنها، تحوّل ماء الخطيئة إلى خمرة الحياة، كما هو سيحوّل الخمرة إلى دمه لخلاص جميع الأجيال.

كان الألم قد أطفأ صوت يسوع، والحزن خنق حنجرة أُمّه. وحدها النظرات الولهى كانت وسيلة التعبير عن المشاعر المتبادلة. كانت الأمّ ترنو إلى الجسد الممزّق الذي وُلد ولادةً فريدةً في العالم كلّه، هي وحدها تحيط بسرّها. وكانت تسحقها رؤية ما انتهى إليه من مِحَن وتشويهٍ. ويسوع كان يرنو إلى تلك المباركة بين النساء، والتي غدت جديرةً بالرثاء.

حدّق يسوع بعينيه المخضّبتين بالدم، والعرق، والغبار، إلى أغلى كائنَيْن: أمّه ويوحنّا، وجمّع كل ما تبقّى له من قوًى، وخاطب أمّه، مثلما كان قد خاطبها في قانا: «**يا امرأة**»، وأضاف، مشيرًا إلى يوحنّا: «**هوذا ابنك**». ثمّ التفت إلى يوحنّا، وقال له: «**هذه أُمّك**». سكب على قلب أُمّه بعض عزاءٍ، قبل مغادرته الدنيا، وكافأ تلميذه الأثير، الذي وقف دون جميع التلاميذ، عند أقدام الصليب، بأن أوكل إلى عنايته أغلى مخلوقٍ بشريٍّ: أُمّه. ولكنّه لم يدعُه «يا يوحنّا» لكيلا يبدو وكأنّه يخاطب، حصرًا، ابن زبدى، إذ إنّه، من خلاله، كان يخاطب البشر طرًّا، ويوكلهم

إلى أمّه. حتّئذٍ كانت أُمَّه وحده. ولكنّه، قبل مغادرته العالَم، أقامها أُمًّا للعالم بأسره. ولئن هو لم يقل لأمّه: هذا ورفاقه أبناؤك، فلأنّ الأمومة أمرٌ شخصيٌّ، وحتّى أمّ الأبناء الكُثُر لا تحبّهم جملةً، بل تحبّ كلاًّ منهم، شخصيًّا، حبًّا كلّيًّا.

هكذا غدا للعذراء، فضلاً عن الابن الوحيد الذي حملته في أَحشائها، أعدادٌ لا تحصى من إِخوته الروحيّين. وفي اللحظة التي كانت تفقد فيها ابنها على الصليب، أصبحت لكلٍّ منّا أُمًّا، وما بدا فقدان حبٍّ أمسى توسيعًا، بلا حدودٍ، لآفاق الحبّ.

بوصيّته الأخيرة هذه، زوّد المخلّص المؤمنين، في كلّ جيلٍ، بفيضٍ من العزاء والرحمة. كان قد أُخذ منه كلّ شيءٍ: سمعته، وحرّيّته، وشبابه، وثيابه، فأعطى العالم أغلى ما تبقّى له.

القول الرابع(*) استنكرت الشمس مقتل مصدر كلّ نورٍ، فاحتجّت، وعمَّت الظلمات الكون، في عزّ النهار، مدى ثلاث ساعاتٍ، وغشى الكون وجومٌ رهيبٌ، ولفّه الضباب بكفنه. كانت تلك الآية التي طالب بها زعماء اليهود كي يؤمنوا، ولكنّهم لم يتبيّنوها، وأمعنوا في غيّهم.

كان يسوع قد بلغ مرحلةً حرجةً من آلامه، وكانت الحمّى تلتهم جسده، ولكنّه كان صامتًا، يكظم أَوجاعه المضنية. كان قد قاسى كلّ شيءٍ: نَبْذَ زعماء أُمّته، ومعاملته معاملة المجرمين؛ شماتة الشعب، وتعيير لصٍّ؛ جبن أصدقائه وهجرانهم. ولم يبقَ سوى معاناةٍ واحدةٍ، أقسى من كلّ ما سلف، حتّى تجمّ كأسه: الشعور بتخلّي أبيه عنه، ذلك التخلّي الذي عيّره به زعماء أُمّته، والذي راز، في تلك اللحظات، كلّ مرارته وقسوته، وجأر بشكواه الأليمة منه، قائلاً: «**إِلُي، إِلُي، لما شبقتني؟**»، ومعناه: «**إِلهي، إِلهي، لمَ تخلَّيت عنّي؟**» صيحةٌ رهيبةٌ، أَطلقها من أعماق بشريّته الوجيعة، معبّرًا عن الفراغ المريع، والعتمة المطبقة، والقنوط الساحق، الناجمة عن الشعور بتخلّي الله.

ذلك البريء الوحيد كان يرزح تحت وقر كلّ خطايا العالم، منذ بدء خلقه حتّى نهايته. تلك الخطايا كانت تتراءى له بأدقّ تفاصيلها، وبكلّ بشاعتها؛ وكانت أمواجها

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «آلام يسوع النفسيّة»، صفحة ٤٩٠.

الهادرة تنقضّ على نفسه، وتسحقها. هذه الرؤية هي التي أجّجت شعوره المضني بتخلّي أبيه، ولا سيَّما وقد تبيّن أنّ آلامه لن تجدي نفعًا الكثيرين ممّن رفضوا خلاصه، وآثروا الهلاك. فَلِمَ، يا إلهي، هذا التخلّي!

يقول المطران جورج خضر في هذا السياق: «هذه الوحدة الرهيبة التي أحسّ بها المسيح بلغت أقصى حدّتها لّما قال على الصليب: «**إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟**» هنا رأى يسوع نفسه في أسفل دركات الجحيم، مفصولاً، في ناسوته المسحوق، عن الله. عاش المخلّص، في نطاق آلامه النفسانيّة، تجربة من لم يبقَ له إلهٌ. هذه هي المحنة الأخيرة التي لا بعدها محنةٌ في الوجود. ولكن بعد لُحَيْظةٍ: «**يا أبتاه، بين يديك أستودع روحي**». هذا هو الصعود الكامل، من بعد النزول الكامل. هذه هنيهة قيامة قبل الموت. لقد كان، وحده، قادرًا على الارتفاع الكلّيّ، لأنّه كان، أيضًا، وحده قادرًا على التنازل الكلّيّ...

«والمسيح في استمدادٍ دائمٍ، في تواصلٍ مع ينبوعه الأزليّ... يرى نفسه سائرًا إليه، لأنّه يرى نفسه آتيًا منه».

لم يقل: «يا أبت»، لأنّه والآب واحدٌ، ويستحيل أن يتخلّى أحدهما عن الآخر، بل قال: «إِلُيِ، يا إلهي!» بصفته إنسانًا كان عليه أن يُقاسي شعور التخلّي المضني هذا، الذي يهصر قلوب من أقصتهم الخطيئة عن الله، والذي تُمنى به، أيضًا، بعض النفوس الكبيرة، في أَقصى ساعات امتحانها، وبه يكتمل تطهيرها.

اعتراف يسوع بتخلّي الآب عنه، ما زال يرعبنا. بيد أنّ بولس الرسول، الأَعمق توغّلاً في قلب يسوع، قد مضى إلى أَبعد من ذلك، عندما قال: «**إنّ الذي افتدانا من لعنه الناموس، هو المسيح، إذ صار لعنةً، لأجلنا..**» (غلاطية٣: ١٣)، لأنّه أَخذ على عاتقه كلّ خطايا العالم.

في الواقع كانت صيحة يسوع هذه مطلع المزمور **٢٢**، حيث يعقب البوحَ بالشكوى، تفجُّرُ الفرح، وتجلّي المجد.

وحدهم الكتبة وعلماء الشريعة أَدركوا أنّ يسوع كان يتلو مزمورًا، أمّا العامّة فظنّوا أَنّه يستغيث بإيليّا النبيّ، أو أنّه يهذي. كانوا يؤمنون أنّ إيليّا سيعود، يومًا، لإعلان المسيح، ولكن من الخطل الاعتقاد بأنّه يعلن مسيحًا مسمّرًا على صليب العار! وغدا قول يسوع هذا موضع هزء الرعاع والجهّال.

القول الخامس: نار الحبّ الذي دفع بيسوع إلى الصليب كانت تحرق نفسه، ورغبته العارمة في خلاص البشر كانت تسعّر لظاها، فصاح: «**أنا عطشان**». كانت هذه، أيضًا، صيحة من فرغ جسمه من دمه، وطحنته الآلام المضنية، مثلما كانت جزءًا من المزمور الذي استهلّه، حيث يقول النبيّ: «لقد جفّ حلقي، والتصق لساني بحنجرتي».

لا عجب إن ألهبت الآلام المبرّحة عطش المصلوب، ولكنّ العجب أنّ ذاك الذي تحكّم بأمواج البحر، وأعلن أنّ من يشرب من الماء الذي هو يهبه، لن يعطش أبدًا، قد اعترف: «**أنا عطشان!**».

ليس عطشه إلى ماءٍ، أو خلٍّ، أو خمرةٍ فاسدةٍ، بل هو عطشٌ إلى حبٍّ. لقد أعطى كلّ شيءٍ، ولم يتلقَّ، بالمقابل، شيئًا: لا جوابًا، ولا تفاهمًا، ما عدا حضور تلك الجماعة الصغيرة الوفيّة، الواقفة عند أقدام صليبه.

وفي كلّ جيلٍ هبّت نفوسٌ كريمةٌ، لإرواء عطشه، بحبّها وتضحياتها، وكانت خير مثالٍ لها، في عصرنا، الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، التي جعلت من الاستجابة لصرخته «**أنا عطشان**» شعارًا لروحانيّة جمعيّتها، وغذاءً لتقوى أخواتها، وصمودهنّ.

عندما يقول يسوع: «أعطِني لأشرب»، فهو يعني: «اعطِني **قلبك**». ولكنّ مأساة يسوع الأبديّة أنّ البشر لا يروون ظمأه بماء الحبّ القراح، بل بخلّ الخطيئة وحنظلها.

القول السادس: تعاطف أحد الجنود مع صيحة يسوع، فأشبع إسفنجةً شرابًا كان الجند الرومانيّون يروون به عطشهم، وهو خمرةٌ فاسدةٌ، أشبه بالخلّ، ورفع الإسفنجة على طرف حربةٍ نحو شفتي يسوع الجافّتين، المشقّقتين، غير أنّ الذين ظنّوا أنّ المصلوب كان يستنجد بإيليّا، حاولوا ردعه هاتفين: «**مهلاً، مهلاً، فنرى هل يأتي إيليّا وينجّيه!**».

ذاق يسوع الشراب، وقال: «**لقد تمّ**»، وتحقّقت النبوءة القائلة: «في ظمئي سقوني خلاًّ».

«**لقد تمّ**». تجرّع الفادي الكأس حتّى الثمالة، وسبر غور الهوّة المريعة التي أراد له الآب أن يهبط إليها. تحمّل أعتى الآلام، وكفّر عن جميع الخطايا. ألمٌ بلا حدودٍ،

وضحيّةٌ كاملةٌ. فيه تمّت المصالحة بين اللّه والإنسان، في حبٍّ بلا حدودٍ. ومنذ موت يسوع على الصليب بات يتعذّر الشكّ بحبّ اللّه.

منذ ارتدائه جسدًا بشريًا حتّى موته على الصليب، كان يسوع ينفّذ، بدقّةٍ وخضوعٍ، مخطّط الفداء، ومن قمّة صليبه، بعد أن شهد تحقيق كلّ النبوءات التي قيلت فيه، وبعد أن نفّذ جميع الخطوات اللازمة للخلاص، وبعد أَن وضع اللمسة الأخيرة على تحفته الخلاصيّة، وبفرح الرجل القويّ، أَطلق نشيد الظفر، معلنًا اكتمال عمله، ومؤكّدًا أنّ كلّ شيءٍ «**قد تمّ**».

لم يقل «**قد تمّ**» في أعقاب عظته على الجبل التي قلبت مفاهيم الدين والأخلاق رأسًا على عقبٍ، لأنّه لم يأتِ ليعلّم بالكلام فحسب، بل كي يفتدي الكثيرين بحياته وصليبه، ويعلّم بمثله.

مرّتين، ضرب يسوع، وهو على الصليب، مثلاً لتغلّب الإرادة الواعية على وهن الجسد الرازح تحت وقر الألم والخوف. التمس، أوّلاً، إقصاء الكأس، تحت تأثير هول ما رأى، ولكنّه لم يلبث أن سارع إلى التأكيد: «**ولكن لتكن مشيئتك، لا مشيئتي**». وفي النوبة الثانية، لمّا قُدِّم له مزيج الخلّ والمرّ المخدّر، دفعه أُوار الظمأ الذي كان يلهب أحشاءه، إلى بلّ شفتيه به، ولكنّه سرعان ما ردّه، لأنّه كان عازمًا على ارتشاف الكأس، بكلّ مرارتها، حتّى الثمالة.

القول السابع: كانت الآلام قد استنزفت كلّ قواه، فارتعش جسمه، وبكلّ ما تبقّى لديه من عزمٍ، وجّه قوله الأخير إلى أبيه السماويّ: «**يا أبتا في يديك أستودع روحي**»، وأَمال رأسه، في انخطاف حبٍّ. في قمّة حرّيّة إرادته، رحّب يسوع بالموت على الصليب، وأودع روحه بين يدي أبيه. ومات كي يحرّرنا من خشية الموت. لم يقسره الموت على الرحيل، بل رحل بمشيئته، بعد أن أنجز مهمّته الخلاصيّة. يقول الإنجيليّ متّى إنّه، قبل أن يسلم روحه «**أرسل صرخةً شديدةً**» لم تكن صرخة هزيمةٍ، بل إعلان انطلاقٍ إلى حياةٍ أبديّةٍ، وعودةٍ إلى الآب السماويّ. فعند أبيه ينبغي أن يكون، كما قال لأمّه وهو في الثانية عشرة. من قاع هوّته انطلق إلى أبيه متغلّبًا على صفاقة ليله، ومات ميتة سيّد الموت والحياة.

أوَ ليس هو من قال: «**ليس أحدٌ ينتزع حياتي منّي، ولكنّي أبذلها باختياري**» (يوحنّا ١٠ : ١٨)؟

المحتضر يصدر لهاثًا، همسًا، حشرجةً، تأوّهًا. ولكنّ يسوع المحتضر أطلق صيحتَيْن مدوّيتَيْن، استهلّ بإحداهما مزمورًا، وبالأُخرى أودع روحه بين يدي أبيه، وبهاتين الصيحتين أثبت أنّه ربّ الحياة والموت، وأنّه إنّما يموت طائعًا بملء إرادته.

ظنّ كثيرون أنّ رسالة يسوع مُزّقت بصلبه، وعُقدت الغلبة للباطل، وأنّ الصليب كرّس فشل المخلّص، وانتصار إبليس، الذي كان قد قدّم ليسوع، في الصحراء، وهو يهمّ بمباشرة رسالته، ثلاثة اقتراحات، قابلها الربّ برفضٍ ثلاثيٍّ. حينئذٍ، انسحب إبليس، منتظرًا ساعته، وها هي ساعته قد حانت، ساعة الظلمات، فجاء منتقمًا، مستعينًا بحلفائه، سدنة الهيكل والكتبة والشيوخ، وأزلامهم من الرعاع، جاء يفحّ بألسنتهم شامتًا: «أبيتَ استخدام قدراتك الإلهيّة، وآثرتَ الخضوع البنويّ والصلاة، فانظر إلى ما انتهيت إليه. لقد ابتغيت إنقاذ الآخرين، وها أنت عاجزٌ عن إنقاذ نفسك». واستعان أيضًا بألسنة الجند المكلّفين بحفظ نظام أصحاب السلطة. هم أيضًا سخروا، شامتين: «لقد رفضت المعاهدة مع السياسيّين التي كانت كفيلةً بفرض سلطتك، فانظر إلى أين أودت بك الرأفة والغفران!». بيد أنّ الهجوم الأقسى جاء على لسان أولئك الذين نسج المخلّص معهم وشائج تضامنٍ: المقهورين والمستَغلّين، الذين، حتّى في موته، شاطرهم العقاب ذاته، غير أنّ أحدهم شتمه: «لقد شئت أن تتمثّل بسواد الشعب، أنت المسيح، وإذا بك عاجزٌ عن إنقاذنا، وستهلك مثلنا».

في تلك المحنة القصوى، ردّ يسوع بثلاث كلماتٍ على ثلاث شتائم: كلمة صفح للأعداء، والجلاّدين، وكلمة رجاءٍ للّصّ التائب الذي توسّله. ولم يردّ بشيءٍ على الزعماء، غير أنّه توجّه بكلمته الأخيرة للآب السماويّ، ومن أعماق الآلام تفجّر الخلاص.

وعُقد النصر النهائيّ ليسوع الذي ردّ على التحدّي بالاستسلام بين يدي الآب، وتكلّمت الحقيقة بلسان ضابطٍ وثنيٍّ أعلن «**في الحقيقة كان هذا الرجل صدّيقاً... حقًّا، إنّه ابن الله!**».

وكان موته نهاية عالَمٍ، وبداية عالمٍ آخر.

موت يسوع بدا لزعماء اليهود ولكأنّه تأكيد انتصارهم، وغاب عنهم أنّ الموت ليس، دائمًا، نهايةً. فالفكر، والحقيقة، والعدل لا تموت. ويسوع كان تجسيدًا لها جميعًا، وقد سلّم نفسه للموت طوعًا، لعلمه بأنّ موته بدايةٌ وليس نهايةً.

بموته ورّثنا ملكوت الحبّ، وذراعاه المشرعتان للعالم، من أعلى الصليب، هما موجزٌ لحياته كلّها.

موت يسوع يضيء موت كلّ مسيحيٍّ، وقد قال پاسكال: «بمعزلٍ عن يسوع لا نعرف ما هي حياتنا، ولا ما هو موتنا، ولا ما هو الله، ولا ما نحن».

يسوع سمّى موته عمادًا، وبولس رأى أنّ عمادنا هو دخولنا في سرّ موت المسيح وقيامته. الموت هو تتميم عمادنا، وتكريسه النهائيّ، وإكمال موتنا عن الخطيئة، وولوجنا في حياة الربّ المجيدة.

على الصليب تجلّت روعة يسوع وعظمته: صبرٌ جميلٌ، ورقّةٌ كاملةٌ، وتسليمٌ تامٌّ لإرادة الآب السماويّ، منعة نفسٍ بطوليّةٌ في مواجهة أعتى الآلام. في تلك الساعات الرهيبة حقّق يسوع المثال الأسمى للتضحية، كما لم يفعل أيٌّ سواه، من قبله، وكما لن يفعل أيٌّ سواه، من بعده.

* *

تألّم يسوع بصفته إنسانًا، ولكنّه، بصفته إلهًا، أَضفى على آلامه ثمنًا غير محدودٍ. يقول القدّيس أوغسطينُس: «بموته اقتسم يسوع معنا عقاب الخطيئة، ولكنّه لم يقاسمنا ذنب الخطيئة. وبذلك أنقذنا من الخطيئة ومن عقابها».

ولم يحمل يسوع، فقط، خطايا العالم، بل حمل، أيضًا، واختزل في ذاته كلّ الألم البشريّ. ومنذئذٍ لم نعُد نعاني آلامنا وحيدين، فيسوع قد عاناها قبلنا، وهو يقاسمنا إيّاها، ويودعها، فضلاً عن النعمة والمحبّة، قدرةً خلاصيّةً، وبذور التجلّي (*).

وما أجمل قول الكردينال فيتزنسكي، في هذا الشأن: «يسوع ملكٌ تتبعه جموعٌ حاملةً صلبانًا، وقد أَلِفت الجموع اتّباع ملوكٍ منتصرين. أنتَ وحدك، يا يسوع تتبعك جموعٌ متأهّبةٌ للألم.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الألم على ضوء الصليب»، صفحة ٤٨٣، و «آلام»، صفحة ٤٩٤.

«لقد حوَّلتَ أداة القتل، الصليب، عرشًا، وإن كان ملوك الأرض يرصّعون عروشهم بالذهب والجواهر، ويحرصون على أمجادهم، ويجهدون في مضاعفتها بكلّ الوسائل، إلاّ أنّك، وحدك، يا يسوع، قد زهدتَ بكلّ شيءٍ، وأنت تمثّل القيمة العليا، على الصليب العاري. لذلك أمسى عرشك هذا، مجد العالم»!

لطالما ألمح يسوع لتلاميذه أنّ مفتاح حياته سيكون في نهايتها، وقد أَظهر موته أبعاد كلّ ما عمل، وعلّم، وكان.

مات بعد ظهر يومٍ ربيعيٍّ: «مثل البذار الذي يُغرس في التربة، مثل الخمير الذي يسري في العجين؛ مثل الملح الذي يبدو وكأنّه يتلاشى، مثل الشعلة التي ترتجف وهي تلج في العتمة، غير أنّ التربة، والعجين، والظلمات، ستتيح له مضاعفة الحياة، وإشاعة العدوى. لقد قوّض الجدران البشريّة كي يمكّن البشر من بلوغ إنسانيّتهم، ويلتقوا إنسانيّة الله. والمسيحيّون مدعوّون، أبدًا، إلى استذكار ما كان، واستشفاف ما سيكون، وإلى انتظاره بحرارةٍ، من خلال تقلّبات التاريخ، وما يرافقه من صعودٍ وهبوطٍ، وما يعتور القافلة البشريّة الكبرى من تقدّمٍ وتقهقرٍ...».

إنّنا نحكم على نجاح يسوع أو فشله، وفقًا لمعايير قِيَمنا، ووفقًا لحياتنا، في حين أنّ يسوع يريد خلق حياةٍ أُخرى، حيث يواكب الفشل أكثر مراحل التقدّم إدهاشًا، وحيث يبشّر الحزن بولادةٍ. لقد اشتقّ يسوع دربه بنفسه، وجعل من موته ذاته الفعلَ الأكثر ازدهارًا بالحياة والخصب، والأشدّ عدوى للأزمنة القادمة.

بَعْـدَ مَوْتِ يَسُوع

مثلما أَضاء نورٌ سماويٌّ مهد المخلّص، داعيًا الورى إلى الفرح، عبّرت الطبيعة عن تعاطفها مع آلام يسوع، فسادت الأرضَ ظلمةٌ مفاجئةٌ كئيبةٌ. ولمّا أَسلم الروح اهتزّ الكون خشيةً، وتجلّةً، وحدادًا، واستنكارًا لهول قتل إلهٍ. لقد احتجبت الشمس لكيلا تشهد حماقة البشر، وجريمتهم الشنعاء القصوى. «**وإذا ستار الهيكل انشقّ اثنين من فوق إلى أسفل، والأَرض تزلزلت، والصخور تصدَّعت. والقبور تفتّحت، فقام كثيرٌ من القدّيسين الراقدة أجسادهم فيها..**» (متّى ٢٧ : ٥١–٥٢).

«وكيف لا تهتزّ الأرض، وكيف لا تنفلق الصخور، وهي التي ترمز إلى أكثر ما في الوجود صلابةً وجمودًا، في تلك اللحظة التي كانت، في آنٍ واحدٍ، نهاية عالمٍ، وانبعاث عالمٍ آخر، وكيف لا ينشقّ حجاب الهيكل الذي كان يُخفي وجه اللّه، وكلّ قدسيٍّ، وقد ابتغى يسوع كشف وجه أَبيه الحقّ للجميع!».

ستار الهيكل، هو ستارٌ نفيسٌ، يفصل، في الهيكل، بين القدس، وقدس الأَقداس حيث يعتقد اليهود أنَّ الحضرة الإلهيّة تقيم، ولا يتخطّاه سوى رئيس الكهنة، مرَّةً واحدةً في السنة، يوم عيد التكفير.

تمزُّق هذا الستار هو العلامة الحسّيّة على أنّ طقوس الشريعة القديمة عفا زمانها، وأنّ ضحايا العهد القديم قد أُفرغت من كلّ معنًى. وحلّ الواقع محلّ الصُّور والوعود، واستُعيض عن العبادة اليهوديّة المقصورة على هيكلٍ واحدٍ، وشعبٍ واحدٍ، والتي يُحتَفل بها بتقديم ضحيّةٍ مجرّدةٍ من الإدراك، بعبادةٍ شاملةٍ شمول ملكوت اللّه، عبادةٍ بالروح والحقيقة، هيكلها، وضحيّتها، وكاهنها يسوع المسيح.

لم يُمزَّق ستار الهيكل بيد بشرٍ، بل بيد اللّه الذي شاء الإعلان عن قيام هيكل العهد الجديد، في قلب يسوع، وفقدان هيكل الحجر القديم قدسيّته. انشقّ الحجاب لأنّ اللّه غادر الهيكل نهائيًّا، كي يسكن جسد ابنه يسوع.

إنسانٌ واحدٌ كان مؤهَّلاً لدخول «قدس الأقداس» في الهيكل الحجريّ، مرَّةً في السنة، أمّا الآن، وقد مُزّق الحجاب الذي كان يفصل الشعب عن إلهه، وعن القداسة، ويفصل اليهود عن الأمم، فقد أُشرع هيكل قلب يسوع لكلِّ إنسانٍ، في كلّ حينٍ. هذا الواقع أوحى للرسول بولس أقوالاً رائعةً:

«**أمّا المسيح، فإذ قد جاء حَبْرًا للخيرات الآتية، اجتاز المسكن الأعظم والأكمل، الذي لم تصنعه يدٌ، وليس من هذا العالم...**» (عبرانيّين ٩: ١١).

«**وبما أنّ لنا، بدم يسوع، ثقةً بالدخول إلى المقادس، من هذه الطريق الجديدة الحيّة، التي شقّها لنا خلال الحجاب، أَعني جسده، وكاهنًا عظيمًا على بيت الله، فلندنُ بقلبٍ صادقٍ، وفي كمال الإيمان...**» (عبرانيّين ١٠: ١٩-٢٢).

ولمّا شاهد الجند وقائدهم هذه الظواهر المدهشة التي رافقت موت يسوع، وما واكب هذا الموت من سرعةٍ وهدوءٍ، تذكّروا موقفه الوقور، في أثناء محاكمته، وبمقارنة ذيْنك الموقفَيْن ترسَّخت قناعتهم بأنّ ذلك المحكوم لم يكن بريئًا فحسب، بل كان كائنًا فائقًا ومدهشًا، فاعترفوا: «**بالحقيقة كان هذا الرجل صدّيقًا**».

ولا ريب أنّ قائد المئة الذي أشرف على عمليّة الصلب، كان قد شهد جمًّا من مثل تلك العمليّات من قبل، وراقب العديد ممّن انتُزعوا من فيض الحياة، وقُذِف بهم إلى هوّة الآلام، والجوع، والعطش، وجحيم التشنّجات، وسمعهم يقذفون الشكوى، واللعنات ولهثات الاختناق، وينتهون في هوّة القنوط. أمّا يسوع فلفظ أَنفاسه، فيما كانت أقواله تشهد على سيطرته التامّة على ذاته، ولكأنّه اختار بنفسه ساعة تسليم روحه. وكان ذلك القائد قد سمع كثيرين يشمتون بذاك الذي ادّعى أنّه ابن الله، فاتّضح له أنّ ما كان الشامتون يعدّونه ادّعاءً، إنّما هو عين الحقيقة، فأَعلن: «**حقًّا لقد كان هذا ابن الله**».

لقد تكلّم قائد المئة بلسان الحقيقة! وفيما صلب اليهود يسوع بتهمة التجديف، عبد فيه قائد المئة «ابن الله». لقد شرعت شجرة الصليب تؤتي ثمارها، وهي، بعدُ منتصبةٌ على الجلجلة. فبعد اللصّ اليهوديّ الذي التمس الخلاص وحظي به، ها إنّ أَحد ضبّاط القيصر يعبد المصلوب اليهوديّ. لقد تألّق على الصليب مزيج القوّة والتواضع الذي وسم حياة يسوع كلّها.

ونحن لا نكرّم الصليب إلاّ لأنّ كلمة الله الذي لبس جسدًا قد سُمِّرَ عليه. فما الصليب، بمعزلٍ عن كلمة الله، سوى أداة إعدامٍ وتعذيبٍ.

وإذا كان زعماء اليهود، والفرّيسيّون والكتبة قد عادوا إلى بيوتهم لتناول عشاء الفصح بشهيّةٍ، فقد تبدّل موقف عامّة الشعب، الذين تحرّروا من خوفهم، ومن ضغوط زعمائهم، واستولى عليهم شعورٌ مرهقٌ بأنّ هؤلاء الزعماء اقترفوا بحقّ البريء العظيم جريمةً نكراء، فانطلقوا يقرعونَ صدورهم هَوْلاً، ورعدةً، وندمًا.

* *

من كل تلك المغامرة لم يبقَ سوى ثلاثة أجسادٍ معذّبةٍ، عند مدخل المدينة، تحت سماءٍ عاصفةٍ، في يوم ربيعٍ متجهّمٍ.

وقد جرت العادة بأن تُترك أجساد المصلوبين معلّقةً بضعة أيّامٍ، معرَّضةً للأنظار والإهانات، وطعمًا للكواسر، والكلاب، والحيوانات المفترسة، تحذيرًا لمن تسوّل له نفسه الإجرام. ولكن بما أنّ الوقت كان يشارف بدء يومٍ مزدوج التقديس، إذ إنّه يوم سبتٍ، ويوم الفصح، معًا، ودرءًا لتدنيس الأرض المقدّسة بمنظر الصلبان، حسب عقيدة اليهود، فقد جاء وفدٌ من زعماء اليهود إلى بيلاطس ملتمسين الإجهاز على المصلوبين وإنزالهم عن صلبانهم، ودفنهم قبل غروب الشمس. لا غضاضة في صلب بريءٍ، ولكنّ منظر صليبه مصدر نجاسةٍ!

اللصّان المصلوبان إلى جانبي يسوع كانا ما زالا على قيد الحياة، وكانت الوسيلة المثلى لتسريع موتهما كسر سيقانهما، وعظام أفخاذهما، فهي الأعضاء التي ما برحت سليمةً، ومنها يستمدّ المصلوب بقيّة حياةٍ. إنّها عمليّةٌ أَليمةٌ، ولكنّ المصلوبين يرون فيها صنيعًا حميدًا، إذ إنّها تختصر احتضارهم البطيء المضني. فكسرُ الساقين يُفقد الجسد سنده الأمتن، ويقع كلّ ثقل الجسم على الذراعين المشبوحتين، وسرعان ما يموت المصلوب اختناقًا...

لم يحتج يسوع إلى كسر أيٍّ من عظامه، فقد كان فارق الحياة، إذ إنّ ما تعرَّض له في الليلة السابقة، من جلدٍ وتنكيلٍ، كان قد استنزف الكثير من دمه ومن قواه، غير أنّ أحد الجند، قطعًا لكلّ شكٍّ في موته، طعن جنبه بحربةٍ، اخترقت الجانب الأيسر، ومزّقت القلب، فانثال منهُ دمٌ وماءٌ، وقد انسكبت قطراتٌ منها على التلميذ

الوفيّ يوحنّا الواقف عند أقدام الصليب. وهو الذي شهد بذلك، ورأى في ذلك الحدث تحقيقًا لنبوءتين، فكتب: «**كان ذلك ليتمّ الكتاب: «إنّه لا يُكسر له عظمٌ»**. ويقول الكتاب في موضعٍ آخر: «**سينظرون إلى الذي طعنوه**» (يوحنّا ١٩: ٣٦-٣٧). يسوع هو حَمَل الله، حامل خطايا العالم، حَمَل الفصح الجديد، وكان محظورًا كسر عظام الحمل الفصحيّ.

كانت تلك هي الطعنة الأخيرة، طعنة لم تؤلم المصلوب، لأنّه كان قد فارق الحياة. ولكن من ذلك القلب المطعون سال مثلُ ما سال من جبينه، في أَثناء نزاعه في بستان الزيتون، ما يمثّل نبع كلّ الحياة المسيحيّة، دم الفداء، وماء العماد الذي يستمدّ قدراته من الدم الذي امتزج به، امتزاجًا وثيقًا.

الدم يرمز، أيضًا، إلى سرّ الإفخارستيّا. بالعماد والإفخارستيّا نندمج بالله، أحدهما ينفث فينا حياة النعمة، والآخر يوفّر لنا الغذاء الضروريّ الكفيل بحفظ هذه الحياة وتنميتها. وكم من النفوس المفتونة بتضحية الصليب، قد وقفت خاشعةً أمام ذلك القلب المطعون، وستظلّ كذلك، مع كرّ العصور!

وقد رأى بعض الآباء، في ذلك الجرح، النافذة التي انبثقت منها الكنيسة.

يرى القدّيس بولس أنّ تضحية يسوع بنفسه، وهو مؤسّس العهد الجديد، ورئيس كهنته، قد أَبطلت ضحايا العهد القديم التي لا تُحصى، ولا تجدي نفعًا. إنّها ضحيّةٌ فريدةٌ، مقدّمةٌ، مرّةً ولكلّ مرّةٍ، ولكنّها كافيةٌ للتكفير عن خطايا العالم أَجمع، لأنَّ قيمتها غير محدودةٍ.

* *

لمَ لم يختَر يسوع ميتةً أقلّ مهانةً؟ لقد توخّى أن يقدّم خدّه للصفعات، وجبينه لإِكليل الشوك، ووجهه للبصقات، وظهره للسياط، ويديه ورجليه للمسامير، وشفتيه للخلّ والحنظل، وجنبه للحربة، وكلّ جسده للصليب، لكي تدعم هذه الإهانات كلّها التي انصبّت عليه، إلى الأبد، ضحايا الشراسة، والظلم، وتشعّ بأَنوارها على جروح الأبرياء، وتنساب مرهمًا خلاصيًّا على جراح المعذّبين. وكان لا بدّ من أن تتألّق، إلى الأَبد، شمس الصليب المحيي، حتّى في غياهب السجون، ومهانة المعتقلات. وقد خضع يسوع لكلّ ظروف الموت الجسديّ، لكيلا نخشى الموت، وبموته على الصليب أسّس الإيمان بقدرة حبّ الله اللامحدودة.

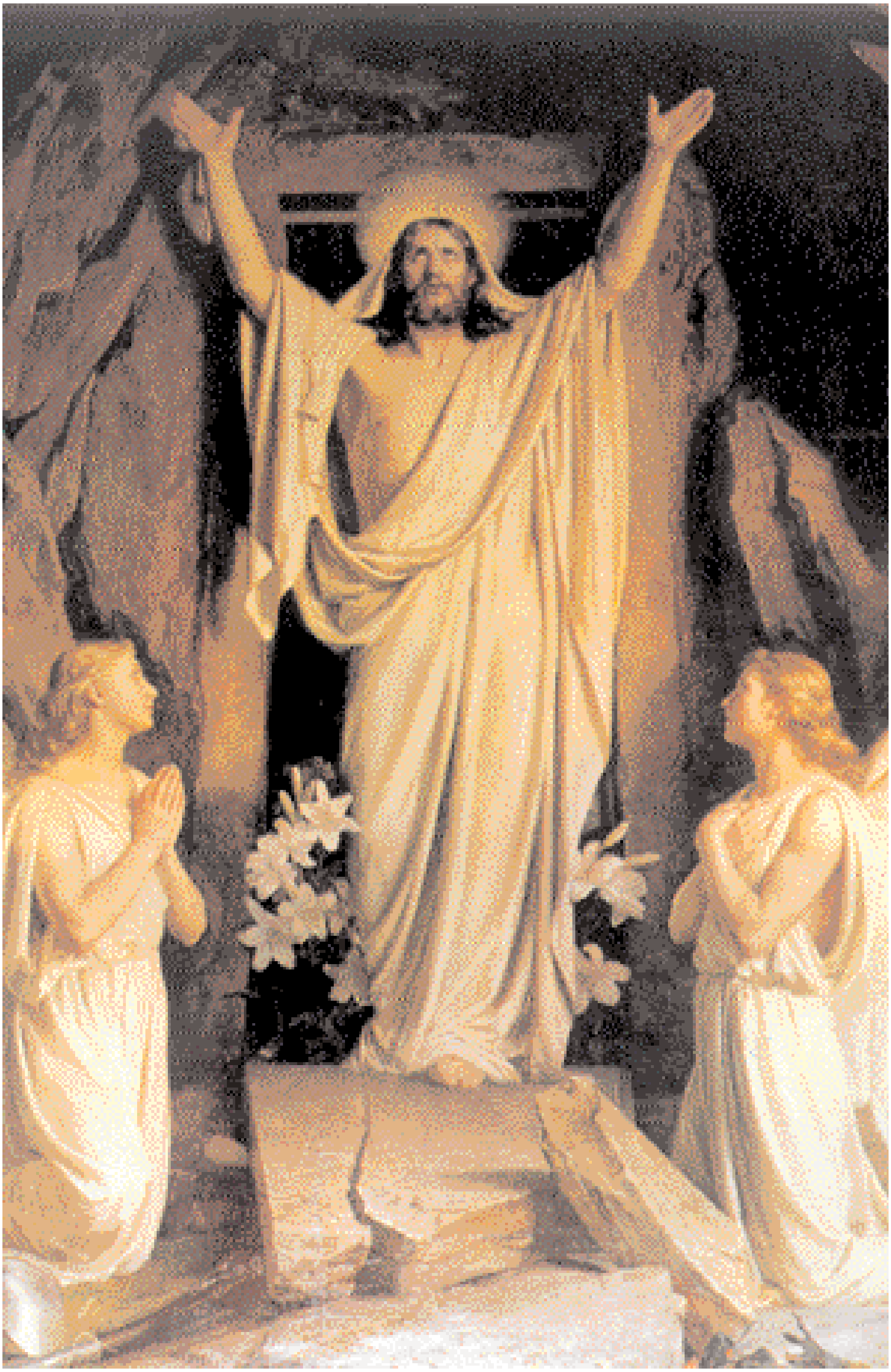

القيامة (بريشة كارل بلوك)

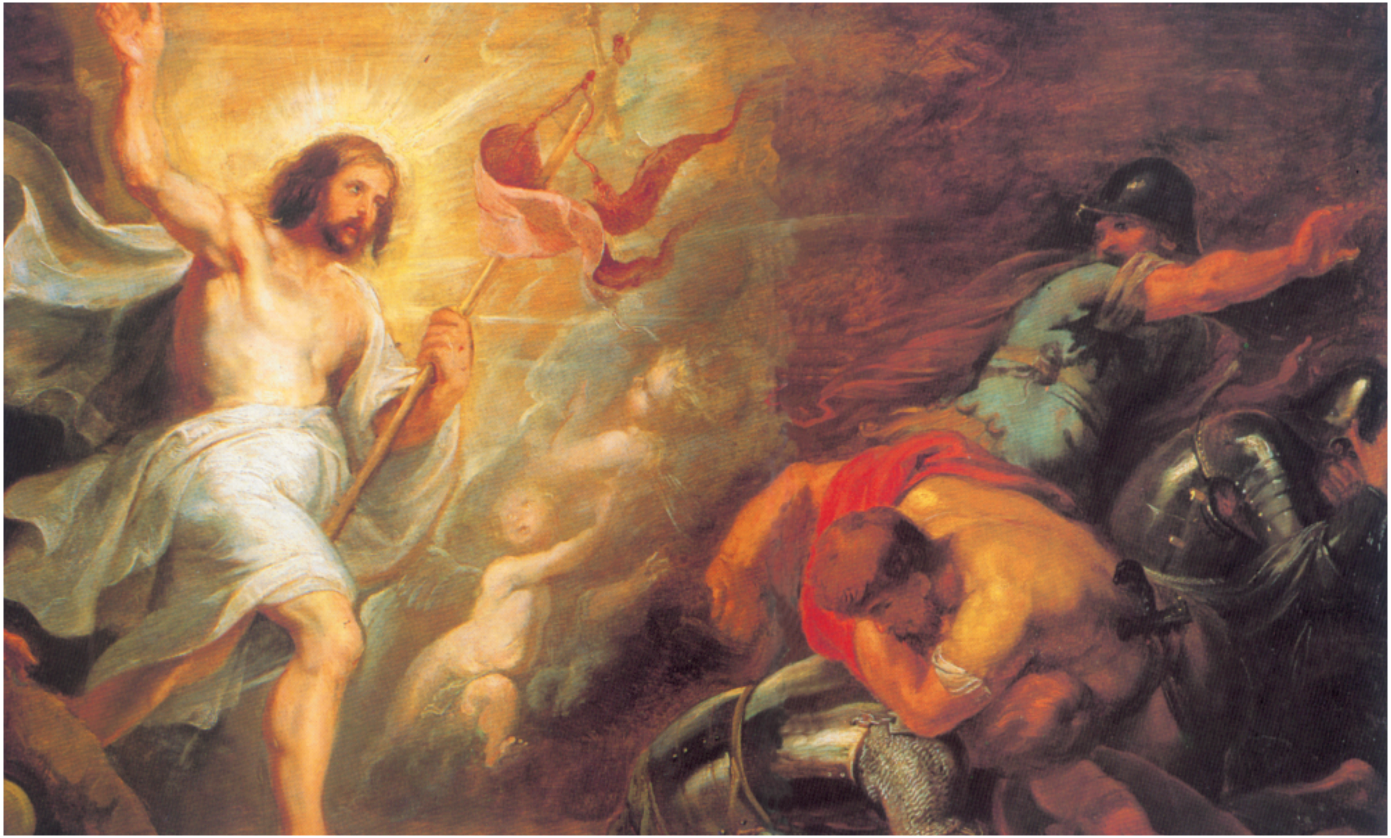

القيامة

موت يسوع كان مأسويًّا، مريعًا، مهينًا، ومجيدًا في آنٍ واحدٍ، لأنّه كان رمز العطاء الخصب. وقد فجّر ينابيع حياةٍ دفّاقةً. ذلك الموت البطوليّ الطوعيّ، كان النموذج الأمثل للبذل الكامل، والحبّ الأقصى، وكشف عن المدى الذي يسع الحبّ بلوغه. موته كان تتويجًا لحياته، لأنّه كان هدفها، وعلّة وجودها، ومفتاح رسالته. به تبلور كلّ ما فعله في حياته، واتّضحت أقواله كلّها.

بعد يسوع، ومعه، لا يمكن أن تظلّ الحياة كما هي، ولا بدّ من نشدانها في ما هو أَبعد، وفي ما يتجاوز كلّ ضروب الموت. وبعد موت يسوع على الصليب، بات يتعذّر الشكّ في حبّ اللّه للبشر.

* *

«الموت في زهرة الشباب، عن طيب خاطرٍ، وفي سبيل هدفٍ، ينطوي على أروع جمالٍ، وأعظم أَلمٍ، وأسمى مثالٍ في مضمار التقدمة» **(جان غيتّون)**.

بموته على الصليب، أوجز يسوع حياته كلّها، ورسالته، وقضى على صورةٍ زائفةٍ للّه، وأسّس الإيمان بقدرات الحبّ الكلّيّة. فالصليب لا يتحدّث فقط عن شراسة البشر، بل هو رمز الفداء، ودليل حبٍّ، حبّ إلهٍ صار ضحيّةً للبشريّة الضالّة.

من خلال نزاع يسوع وصلبه، أُدخلت بذرةٌ جديدةٌ في تربة البشريّة، تسري من خلالها حياة اللّه، ومن خلالها يغدو الحبّ ممكنًا أبدًا، لأنّه سيكون هناك، دائمًا، من أحبّ، ويحبّ حبًّا كاملاً. من الحبّة التي دفنت وماتت تفجّر حبٌّ غزا الكون.

تألّم يسوع كإنسانٍ، ولكنّه بصفته إلهًا، أضفى على آلامه قيمةً لامحدودةً.

يسوع جاء البشر بالحياة، وهم أذاقوه الموت الزؤام.

دَفْنُ يَسُوع

لفظ يسوع أنفاسه الأخيرة حوالي الساعة الثالثة عصرًا، ورانت الفجيعة على نفوس أصدقائه، إلاّ أنّ حبّهم له فرض عليهم العمل الحثيث، لكيلا يُقذَف جثمانه في حفرةٍ جماعيّةٍ، مع اللصَّيْن اللّذيْن صُلبا معه. وقد قُيِّض لهم من أسدى لهم خدماتٍ جُلّى، في هذا المضمار، في شخص يوسف الأَريماثيّ.

يوسف هذا كان وجيهًا أورشليميًّا، من نخبة الأَرستقراطيّة، غنيًّا، مرموقًا، وعضوًا في السنهدرين. وكانت أعمال يسوع وأَقواله، قد خلّفت في نفسه أَثرًا بليغًا. في أَثناء حياة يسوع، لم يجسر على إعلان تعاطفه معه، أو الانضواء إلى جماعة أَتباعه، خشيةً من انقلاب زملائه في السنهدرين عليه، ومن زعزعة مركزه الاجتماعيّ، وكان قد أَحجم عن المشاركة في محاكمته، لأنّه لم يمتلك جرأة الإِدلاء برأيٍ معارضٍ، وسط وكر الأَفاعي.

غير أنّ الجريمة التي ارتُكبت بحقّ بريءٍ، ومرسَلٍ إلهيٍّ، والعذابات التي أُنزلت به ظلمًا وبهتانًا، حرّرته من الخوف، والحياء البشريّ، فهبّ لتلبية أحباب يسوع، وتبرّع بالتماس استلام جثمانه من الوالي بيلاطس، الذي دُهش، أَوّلا، من سرعة موت يسوع. ولكنّه بعد أن تثبّت من واقع الوفاة، لم يتردّد في الاستجابة لطلب الوجيه يوسف. كان قد أَلِف المطالبة برشوةٍ لقاء موافقات كهذه، ولكنّه، في قرارة نفسه، كان يتمنّى كلّ تكريمٍ لجثمان ذلك الرجل الذي أُكره على الأَمر بصلبه، مع قناعته ببراءته، ولكأنّه بتسليمه الجثمان، بلا مقابلٍ، كان يبتغي التعويض عن جريمة جبنه.

خدمةٌ أُخرى أسداها يوسف الأريماثيّ ليسوع وأحبابه. فلو كان عليهم دفنه في المدافن العامّة البعيدة، لما تمكّنوا من ذلك قبل غروب الشمس، وبما أنّه كان ليوسف قبرٌ جديدٌ في بستانٍ يخصّه، على مقربةٍ من الجلجلة، كان قد أعدّه ليكون مقرّه الأخير، تنازل للمصلوب عنه، وبذلك تمّت عمليّة الغسل، والتحنيط، والدفن، بلا تلكؤٍ.

وقد انضمّ إلى يوسف الأريماتيّ زميلٌ له من أَعضاء السنهدرين يقاسمه حبّه المتكتّم ليسوع، وجيهٌ، مثقّفٌ، متعاطفٌ مع تعليم يسوع، مستقيم القلب، متردّد الإِرادة، هو نيقودمس، الذي كان قد عقد مع يسوع محادثاتٍ ليليّةً مستفيضةً، وكنّ له كلّ محبّةٍ وتقديرٍ، ولكنّه لم يجرؤ على الإِفصاح عنهما. غير أنّه، في أعقاب الحكم الغاشم الذي نُفِّذ بحقّه، نفض عنه كلّ جبنٍ وتردّدٍ. وفيما كان الأَريماتيّ يبتاع كفنًا، جاء نيقودمس بمئة رطلٍ خليطًا من المرّ والعود للتحنيط.

في حين تبدّد التلاميذ ذعرًا، وتواروا جَزَعًا وجبنًا، أسفر من كانوا يأتونه ليلاً، خشية فضح حبّهم له، عن إكبارهم له وافتتانهم به.

تكاتف يوسف ونيقودمس وأحبّة يسوع على إِنزال جثمانه عن الصليب بما يستأهل من إجلالٍ واحترامٍ، خوفًا من تولّي الجند تلك المهمّة، بما أَلِفوه من فظاظةٍ ولامبالاةٍ. ولا ريب أنّ يوحنّا والنسوة أسهموا في ذلك الإِنزال برقّةٍ وحرصٍ على ألاّ يُمسّ الجثمان بخدشٍ.

وقد حرصت الأمّ العذراء على أن تتلقّى، بين ذراعيها الحانيتيْن، وعلى صدرها الذبيح، ذلك الجسد الإِلهيّ الحبيب الذي شوّهته قوى البغض، والحقد، والظلام. هي وحدها كان بوسعها أن تقول: «**هذا هو جسدي، وهذا هو دمي**».

تسلّمت العذراء الجسد الهامد، وضمّت بين ذراعيها ابنها وإلهها. مدى لحظاتٍ خُيِّل إليها أنّها في بيت لحم تحضن طفلها. ولكن شتّان بين تلك التحفة المتألّقة الخارجة من يد الله، وما أَوصلتها إليه يد البشر من لطخات الجريمة!

ومرّةً أُخرى قبّلت المجدليّةُ القدمين اللّتين جاءتاها بالخلاص، وغسلتهما بدموعها. ومرّةً أخيرةً ألقى يوحنّا رأسه على الصدر الذي كان قد اتّكأ عليه، والذي منه تلقّى عقلُه، وقلبُه، كلّ ما يستطيع إِنسانٌ أن يتلقّى من سرّ الله.

كانت الملائكة تعبد ذلك الجسد الإِلهيّ، ومع أمّه تتأمّل، بخشوعٍ، يديه اللّتين أَصبحتا شفّافتين، ولطالما أَغدقتا الإِحسانات والأشفية، وأشبعتا الألوف؛ وهذا الفم الذي أَمسى شاحبًا، والذي طالما أَعلن الحقيقة التي هي حبٌّ، حبٌّ ليس كلماتٍ بل هو أفعالٌ. وقد تجلّى هذا الحبّ، أَسنى تجلٍّ وأَقصاه، في القلب المطعون.

كان الوقت يداهم، وفي نطاق الفسحة المتاحة، غُسل الجثمان ممّا علق به من

نجيعٍ، وعرقٍ، وغبارٍ، وحُنّط، ولُفّ كلُّ عضوٍ منه بلفائف مضمّخةٍ بموادّ حافظةٍ معطّرةٍ، وسُكب ما تبقّى من الحنوط في اللحد. وأُسدل على الرأس والمحيّا كفنٌ، فيما لُفّ الجثمان كلّه بنسيجٍ من الكتّان الناصع البياض، وسُجّي على الأرض الباردة، في القبر المقدود في الصخر، الذي أُغلق بحجرٍ مستديرٍ ضخمٍ يحاكي رحى الطاحون.

وُلد يسوع في أحشاء عذراء، ودُفن في قبرٍ بكرٍ. في ولادته كان يوسف النجّار يرعاه ويخدمه، وفي موته كان يوسف الأريماثيّ يكرّمه. وُلد في مغارةٍ لا تخصّه، ودُفن في قبرٍ مستعارٍ.

اهتمام يوسف ونيقودمس بالتحنيط والدفن كان دليلاً على حبّهما الصادق وتقديرهما للربّ، ولكن لم يجُل لهما ببالٍ أنّ ذلك الميت الذي عكفا على غسله، وتحنيطه، ودفنه، سيقوم صباح اليوم الثالث. ولم يكن تلاميذ يسوع، في هذا المضمار، أكثر إيماناً منهما.

من المحقّق أنّ يوسف ونيقودمس، بلمسهما جثّةً، ارتكبا، وفق شريعة اليهود، نجاسةً حرّمت عليهما الاحتفال بالفصح. غير أنّهما، بلمسهما الطهر المطلق كانا قد تحرّرا من كلّ زيفٍ في الشريعة، ومن كلّ أسباب النجاسة الشوهاء، فتسنّى لهما، للمرّة الأولى في حياتهما، أن يحتفلا بالفصح القدسيّ الحقّ، فقد عبرا من عمى الشريعة إلى نور الله.

وكانت أُمّ يسوع والنسوة المرافقات لها، يراقبنَ عن كَثَبٍ، التحنيط والدفن، اللّذين تمّا على عجلٍ اضطراريٍّ. ومع أنّ يوسف ونيقودمس لم يضنّا بشيءٍ، إلاّ أنهنّ لم يكنّ راضياتٍ، إذ كنّ حريصاتٍ على أن يُحاط الربّ الغالي بتكريمٍ أوفر لياقةً، وقد وطّنّ العزم على العودة، فجرَ يوم الأحد، لإتمام ما قام به يوسف ونيقودمس، في نطاق فسحة الوقت الضيّقة المفروضة عليهما. وهرعنَ لابتياع ما يلزم من زيوتٍ وعطورٍ لهذه الغاية.

* *

همدت حمّى الصخب التي أَلهبت ذلك اليوم الفريد، وساد سكونٌ مدهشٌ،

فخوت الشوارع، وأوصدت البيوت، وانصرفت كلُّ أسرةٍ إلى الاحتفال بعشاء الفصح، في جوٍّ حميمٍ.

واحتفل أعضاء السنهدرين، كما لم يحتفلوا قطّ، بعشاء الفصح، منتشين ببهجة النصر. فقد رحل، بغير رجعةٍ، ذلك الجليليّ الذرب اللسان، الذي طالما ساطهم بهجائه اللاذع، وسفّه تعاليمهم وسلوكهم، وفضح زيفهم ورياءهم أَمام الشعب. أمّا تلك الحفنة من التلاميذ الجهلة الذين كان يجرّهم في إِثره، فسيتبدّد أَثَرهم سريعًا، ولن يسمع، بعدُ أحدٌ بهم، وبمعلّمهم. هذا النجاح الباهر كان يضفي على عشائهم الفصحيّ طعمًا مستساغًا فريدًا.

غير أنّ خاطرةً عابرةً كانت تعكّر صفو انتصارهم، إذ ذكروا أنّ ذلك المدّعي كان قد أَعلن أنّه في اليوم الثالث لموته سينبعث حيًّا. هذا القول، الذي كانوا قد رأوا فيه تبجّحًا أجوف، كان، في الواقع، يحاصر أذهانهم ويطرد من جفونهم الكرى. فقد كانوا يدركون أنّ فئاتٍ واسعةً من الشعب كانت ما برحت تؤمن بقدرات الناصريّ اللامحدودة. وكان من شأن قيامته، لو حدثت، أن تقوّض كلّ إنجازاتهم، وتستميل إلى يسوع، بلا عودةٍ، أعدادًا لا تُحصى من الأتباع. وكان انحياز اثنين منهم، الأريماثيّ ونيقودمس، إلى المصلوب، قد أثار هواجسهم. وبما أنّ القبر الذي أُودع فيه الناصريّ كان في بستانٍ يخصّ يوسف الأريماثيّ، وبالتالي غير خاضعٍ لرقابتهم، وكان بوسع التلاميذ التسلّل إليه ليلاً، واختطاف الجثمان، وإشاعة نبأ قيامته، وبلبلة الشعب، تشاوروا وارتأوا لزوم التحرّز للأمر. ومع أنّ اليوم التالي كان يوم سبتٍ وفصحٍ، جاء نفرٌ منهم إلى بيلاطس، خارقين وصيّة الراحة السبتيّة، ومخاطرين بنجاسة دخول بيتٍ وثنيٍّ، في يوم الفصح، وقالوا له: «**أيّها السيّد، قد تذكّرنا أنّ ذلك المُضلّ قد قال وهو حيٌّ: إنّي بعد ثلاثة أيّام أقوم. فمُرْ بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلاّ يأتي تلاميذُه فيسرقوهُ ويقولوا للشعب إنّه قد قام من الأموات، فتكون الضلالة الأخيرةُ شرًّا من الأولى». فقال لهم بيلاطُس: «إنّ عندكم حَرَسًا، فاذهبوا واحتاطوا للأمر كما ترونَ!» فمضوا وضبطوا القبر بختم الحجر وإقامة الحُرّاس** (متّى ٢٧: ٦٣-٦٦).

في الواقع، كان موقفهم هذا ينمّ عن خوفهم من ذاك الذي بات يؤويه رمسٌ، وعن قلقهم المضني من تحقّق النبوءات التي تتحدّث عن قيامته في اليوم الثالث.

لقد خافوه ميتًا أكثر ممّا خافوه حيًّا. خُيّل إليهم أنّهم قتلوه وأَمنوا شرّه، ولكنّه أمسى أشدّ خطرًا على اليهود وعلى الرومان، فأورشليم، عاصمة اليهود ستدمّر، وسيتشتّت شعبها، وستتلاشى مملكة الرومان. أمّا يسوع فلا انقضاء لملكه.

كان بيلاطس قد سئم ترّهاتهم، فأجابهم بلهجةٍ فظّةٍ، وتفاديًا لمناقشتهم أَعطاهم أن يفعلوا ما يشاؤون، ووضع بتصرّفهم فئةً من حرسه. ولكي يضمنوا ألاّ يستسلم الحرس لأيّة رشوةٍ، ختموا حجر القبر بأنفسهم، وحذّروا الجند من أيّ تخاذلٍ، ولكنّهم بذلك، أقاموا بأيديهم الدليل على صحّة القيامة، بحيث لا يرقى إليها شكٌّ.

وعادوا إلى بيوتهم ليتمتّعوا بالفصح هانئين.

* *

لقد توخّى اليهود، بدفع يسوع إلى الموت، دفنه في قبرٍ من ازدراءٍ ومهانةٍ، ونسيانٍ. ولكنّه دمّر الموت، ولاشاه، كي يلاشي، معه، المخازي واللعنات.

القَبْرُ الخَالِي(*)

قضى التلاميذ فصحًا كئيبًا. ففيما كان غريبان يحنّطان معلّمهما ويودعانه اللحد، كانوا، هم، مذعورين، منهارين، مختبئين. المغامرة المذهلة التي خاضوها مع يسوع مدى نحو ثلاث سنواتٍ، ما زالت تملأ حنايا نفوسهم، ولكنّها بدت ولكأنّها قد تطايرت شظايا. أَجمل ما عهدوه بدا وكأنّه قد تلاشى. هم، أيضًا، انتابهم شعورٌ وكأنّهم في قبرٍ ضمّ، معهم، أحلامهم وآمالهم. أُولئك الذين أَولوا ابن الإنسان ثقتهم، يوم كان حيًّا، تمترسوا في عزلتهم بعد أن أُودع قبرًا، مرتعدين، متوجّسين خشيةً من أن يُلقى القبض عليهم حالما يفرغ اليهود من فصحهم.

ربّما ساورتهم التساؤلات عن تأكيد المعلّم بأنه غلب العالم. فأعداؤه ومبغضوه قد داسوه بأَرجلهم، وسحقوه، وأَقنعوا الشعب كلّه بوهنه ودجله. ولم يبقَ لأصدقائه وتلاميذه إلاّ أن يتواروا، ويخفوا دموعهم وعارهم، ويخرسوا، وينتظروا. إيمانهم كان ينوس، فقد شهدوا الربّ يُنهض، بكلمةٍ منه، الأموات، ولكنّهم شكّوا في قدرته الإلهيّة على إِعتاق نفسه من ربقة الموت. بيد أنّ حبّهم له لم يَخْبُ.

كانت نفوسهم نهبًا بين خيبةٍ مريرةٍ، وحزنٍ وجيعٍ، وبقيّة رجاءٍ مُبهَمٍ، ولكنّ حبّهم للمعلّم ما زال ثابتًا، رغم تبدّد آمالهم بعد أن أُضجع في قبرٍ.

وكانت، ثمّة، قلوبٌ ما فتئت مضطرمةً، مفعمةً جنون ثقةٍ، جنون الصليب. تلك القلوب كانت تخفق، خاصّةً، في صدور النسوة الوفيّات، صدور المريمات كلّهنّ، وسواهنّ...

أُمّ يسوع لم تكن في حاجةٍ إلى الثقة، فهي كانت تعلم. ولكنّ الآلام كانت ما برحت تصطخب في داخلها، حيث ما انفكّت الضربات تنهمر، والبصقات تلطّخ

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «لمَ تطلبنَ الحيّ بين الأموات؟»، صفحة ٤٩٧.

المحيّا المعبود. لم تكن تقوى على إيقاف تدفّق الدم الإلهيّ من قلبها. كلّ صيحةٍ من صيحاته على الصليب، وكلّ همسةٍ من همسات شفتيه اللّتين أُفرغتا من الدم، كانت تدوّي في أَعماقها، وما انفكّت تبحث عن آثار الشوك على جبينه، وتتمنّى تقبيل راحتَيْ يديه المثقوبتَيْن، حتّى آخر الدهور. وما عادت العذراء سوى صدًى لانهائيٍّ لآلام ابنها. ولم يكن يشغلها عن آلامها سوى العناية بيوحنّا المنهار، الابن الذي وهبها إيّاه ابنها.

أمّا النسوة اللواتي حطّم قلوبَهنّ موتُ الحبيب وسط آلامٍ مبرّحةٍ، وإهاناتٍ وحشيّةٍ حقيرةٍ، فكنّ أمنع من التلاميذ صمودًا، وتشبّثًا بالرجاء. كنّ متماسكاتٍ، فعليهنّ الاضطلاع بواجبٍ أخيرٍ حيال ذاك الذي خُطف منهنّ. وكنّ يعددنَ الساعات والدقائق التي تفصلهنّ عن فجر يوم الأحد. منهنّ من ابتعنَ الحنوط والعطور مساء يوم الجمعة، فكنّ أوليات الغاديات إلى القبر، ولحقت بهنّ فئةٌ أُخرى ممّن ابتعنَ تلك الموادّ، فجر يوم الأحد.

في تلك الأَثناء، ومع رعشة فجر ذلك اليوم الربيعيّ كانت الأَرض قد اهتزّت، وشعّ في تجويف الصخر نورٌ باهرٌ. ومن اللحد البارد انطلق ابن الله في الهواء النقيّ، في أَثير العالم المتجدّد. لقد قام ليلاً، لكي يضيء بقيامته ظلماتنا. خرج رشيقًا منتصرًا من غير أَن يحطّم الأَختام، مثلما كان قد خرج من أَحشاء أُمّه، وهي ما برحت عذراء، مثل شعاع نورٍ يدخل ويخرج، بلا ضجيجٍ ولا جلبةٍ، ولا كسرٍ ولا تحطيمٍ. وتدحرج الحجر الذي كان يسدّ القبر، بيد ملاكٍ، مطيحًا بأختام اليهود. وفي مكان الجثمان المسجّى، لم يبقَ سوى الكفن واللفائف، شاهدةً على تحرّر الله المتأنّس من أَسر القبر والموت. فالذي أَنهض لعازر من الموت أنهض ذاته، وأعاد له الآب الروح الذي كان قد أودعه بين يديه.

حدثٌ لا يُصدَّق، ويفوق العقل. إنّه سرٌّ عظيمٌ، ولكنّه سرٌّ شفّافٌ، نيّرٌ، يحاكي أثير صباح الفصح ذاك، ولا يتعذّر إدراكه على من سار في خطى يسوع، وأصغى إليه، منذ بدء رسالته.

أفاق الحرس على دويّ الزلزلة، وعلى جعجعة الحجر تدحرجه أيادٍ غير منظورةٍ، فأخذ منهم الذعرُ كلَّ مأخذٍ. ولم يعد لوجودهم أيُّ داعٍ، ففرّوا يرتعدون، غير عابئين بما سيعرّضهم له هجرهم لمركز الحراسة من عقابٍ. وبما أنّ أعضاء السنهدرين،

المجدليّة بعد القيامة

مع تلميذَي عمّاوس

(بريشة كارل بلوك)

وحدهم، كانوا كفيلين بشكايتهم إلى الوالي، جاؤوهم وبسطوا بين أَيديهم، بصراحةٍ، ما حدث.

وكان خوف زعماء اليهود من قيامة يسوع يقضّ مضاجعهم. وعندما سمعوا رواية الحرس الذين كانوا مازالوا يرتعدون ويلهثون، أَيقنوا بأنّ قيامة الناصريّ قد حدثت فعلاً، وانحصر همّهم في حماية الجند، وحماية أَنفسهم، ووأد النبأ في مهده، وبادروا إلى مدّ أقنعةٍ، علّهم بها يحجبون شمس الحقيقة.

خطورة الوضع كانت ترعبهم. فلو ذاع نبأ قيامة يسوع، لأفضى إلى انقلابٍ جماهيريٍّ مزلزلٍ يطيح بنفوذهم وسلطتهم، ويُلحق بهم خزيًا أبديًّا. ولذلك سارعوا فأغدقوا على الحرس الوعود بحمايتهم من أيّ عقابٍ، ورشوةً جزيلةً، ولقّنوهم أن يمضوا فيشيعوا بين رفاقهم وبين الناس، أنّهم، فيما كانوا نيامًا، جاء تلاميذ يسوع وسرقوا جثمان معلّمهم. وأخذ الحرس المال، وفعلوا كما لُقِّنوا. ويقول الإنجيليّ متّى إنَّ هذا القول ظلّ شائعًا بين اليهود، حتّى يوم كتابته إِنجيله.

لم يدفع رؤساء الكهنة ليهوذا، ثمنًا ليسوع، سوى ثلاثين شيقلاً فضّيًّا. أمّا بُغيةَ إِخفاء حقيقة قيامته فقد دفعوا «فضّةً كثيرةً». دفعوها من مال الهيكل لجندٍ وثنيّين يزدرونهم، ممّا يدلّ على عمق البغض الذي كانوا يضمرونه ليسوع. أَبوا استرداد المال الذي أَعاده يهوذا، بحجّة أنّه «ثمن دمٍ»، وها إنّهم يشترون، بفضّةٍ كثيرةٍ، فريةً، لكيلا ينسكب عليهم دم الحمل المطهّر.

ويا لها من فريةٍ شهودُها نيامٌ! يقول القدّيس أوغسطينُس: «لو كان الجند نيامًا لما رأوا شيئًا، وإن هم لم يروا فما قيمة شهادتهم؟».

لو كان الجثمان قد سُرق، فكان عليهم استرداده، بما لديهم من سلاحٍ، ولكانوا بذلك دحضوا رواية القيامة. وكان من السخف الإدّعاء أنّ الحرس بأكملهم استسلموا للكرى وهم مكلّفون بالحراسة، وأَكثر سخفًا أن يرووا ما لم يشاهدوه، لأنّهم كانوا نيامًا! وأنّى للتلاميذ الذين فرّوا مرعوبين، مذ قُبض على يسوع، أن يتجرّأوا على تحدّي الحرس الرومانيّ المسلّح! وكيف للنيام أن يميّزوا أنّ السارقين هم تلاميذ يسوع؟ الفرّيسيّون والكهنة بارعون في تلفيق حتّى اللامعقول! لقد اشتروا قبلة خيانة يهوذا، وها هم يأملون شراء كذب الحرس، وتلفيق الواقع. ولكنّ كلّ افتراءاتهم وتلفيقاتهم عجزت عن تكذيب واقعٍ هزّ العالم بأسره.

زعماء اليهود اتّهموا التلاميذ بسرقة جثمان يسوع، في حين كان التلاميذ لاطين في جحورهم يشلّهم الخوف. والمفارقة الكبرى هي أنّ زعماء اليهود كانوا يتوجّسون خشيةً من قيامة نبيّ الجليل، ولمّا حدثت صدّقوها، وجهدوا في خنق خبرها في مهده. كانوا يتوقّعونها، فاحتاطوا لها، وإن لم تُجدِ احتياطاتهم نفعًا. في حين أنّ تلاميذ يسوع لم تخطر لهم قيامته ببالٍ، رغم تنبّؤات المعلّم المتكرّرة بها. وعندما تحقّقت آية «يونان»، التي طالما ألمح إليها، لم يفطنوا لها، وشقّ عليهم تصديق أنّ الذي دُفن في قبر يوسف الأريماثيّ هبّ حيًّا.

حتّى النسوة اللائي وافين القبر صباح الأَحد، إنّما جئن كي يتمّمن واجب تحنيط ميتٍ، ولم يَجُلْ بخاطرهنّ أنهنّ قد يلتقين قاهر الموت. في موافاتهنّ القبر دليل حبٍّ جمٍّ، ولكنّ فيه، أيضًا، دليل عدم إيمانٍ بتأكيدات يسوع المتكرّرة أنّه، بعد آلامه وموته، سينهض في اليوم الثالث. ولذلك كنّ يتساءلن عمّن يدحرج لهنّ حجر القبر.

ولا بدْعَ إن أخذت بهنّ الحيرة كلّ مأخذٍ، فانطلقن في ذهابٍ وإيابٍ لا ينقطعان، عائداتٍ، دائمًا، إلى القبر الخالي. وقد يتقابلنَ ولا تتعرّف إحداهنّ الأُخرى، ولا عجب إن حذا حذوهنّ بطرس ويوحنّا، فالحدَث صاعقٌ، لا يُصدَّق، ولكنّه ماثلٌ، واقعٌ لا سبيل إلى إنكاره.

ولا ريب أنّ يسوع ابتغى إيقاظ رفاقه من صدمتهم، ومن دُوارهم، ومن انهيارهم البائس، ومن حزنهم، وقد غمسهم، حتّى آذانهم، في القلق والتساؤل حتّى يرسّخ إيمانهم.

فالحدَث جمٌّ، وعلى عواقبه كان يتحدّد مصير العالم.

منذ بزوغ الفجر، إذن، انطلق موكب النسوة الأَوّل الذي كان يضمّ المجدليّة، ومريم «أُخت» العذراء، وسالومي أُمّ يعقوب ويوحنّا. ولكنّهنّ كنّ يتساءلن، حائراتٍ، عمّن عساه سيساعدهنّ، في تلك الساعة المبكّرة، على دحرجة الحجر عن باب القبر، فهذه المهمّة تعجز عنها قواهنّ النسويّة. وكانت المجدليّة تودّ الطيران إلى حيث يرقد إِلهها. فقد غدا قبره كلّ عالمها. لم تُطق تلكّؤ رفيقتيها، فسبقتهنّ جاريةً، وانتهت إلى القبر قبل تبدّد ظلمات الليل، وذُهلت إِزاء ما رأت. لم تكن تعلم أنّ جنودًا كانوا يحرسون اللحد، فلم تستغرب غيابهم، ولكنّها دُهشت لرؤية الحجر وقد دُحرج

جانبًا، وباب القبر مُشرعًا، فأطلّت برأسها إلى داخله وتبيّنت خلوّه. استغلق عليها الأمر، ولم تجد من يزوّدها بتفسيرٍ، فهرعت عائدةً إلى التلميذين بطرس ويوحنّا، علّهما يوضحان لها كيف فُتح القبر، واختفى الجثمان. وكانت قد أجالت الأمر في ذهنها، فلم تهتدِ إلى حلٍّ سوى أن يكون أَعداء الربّ، إمعانًا في الحقارة والكراهية، قد انتهكوا قدسيّة القبر، وسرقوا الجثمان كي يزيلوا أثره.

ظنّ بطرس ويوحنّا أنّ المجدليّة، عقب ليلتين من السهاد الثقيل الوطء، والانتظار الممضّ، أَمست فريسةً للتخيّلات. غير أنّ أمر القبر الخالي من ضيفه أثار تساؤلاتهما، فكان عليهما تبيّنه بنفسهما، فراحا يجريان خلال المدينة الخالية التي ما برحت نائمةً. كان يوحنّا أصغرهما سنًّا، وأسرعهما جريًا، فوصل أوّلاً، وأَلقى نظرةً إلى داخل القبر، ولكنّه لم يلجه، ريثما يصل بطرس، احترامًا له.

ما شاهداه دحض نظريّة سرقة الجثمان. فليس من شأن السارق أَن ينزع عن الجثمان الكفن واللفائف، وأَن يطوي المنديل ويضعه جانبًا، بل كان من شأنه حمل الجثمان مكفّنًا ملفوفًا.

يعترف يوحنّا أنّه، لّما دخل القبر، «**رأى وآمن**». آمن في الحال لأنّه كان مستعدًّا للحدث. الحجر المدحرَج، واللحد الخاوي، والكفن الفارغ من محتواه، واللفائف المطويّة تحدَّثت إلى حدْسه، وإيمانه، إلى الفراغ الذي حفره في قلبه موتُ المعلّم وطعنُه. ثغرةٌ واسعةٌ فُتحت على ملء الله، وفيها اندفع إيمانه بكلّ زخمه، صوب الفادي الذي تحرّر من الموت، ومن كلّ علاماته التي أَصبحت علامات قيامته. لقد رأى وآمن. وكلّ ما رآه أقمشةٌ مطويّةٌ، وقبرٌ خالٍ، فحَسْبُ الحبّ إشاراتٌ رقيقةٌ كي يرى ويؤمن.

أمّا بطرس، الذي طالما عهدناه تلقائيًّا مندفعًا، فظلّ متحفّظًا، ولم يقفز إلى استخلاص النتيجة البيّنة. فقد كانت القضيّة من الجسامة والخطورة، بحيث تستدعي كلّ يقظةٍ وحذرٍ، وقد زاده القبر الخالي حيرةً، وزاده عدم رؤية وجه الحبيب الذي أَنكره، في لحظات ضعفه، تجهّمًا وأَسًى. ويعترف يوحنّا أنّهما، حتّى تلك الساعة، «**لم يكونا قد فهما، بعدُ، الكتاب القائل إنّه يجب أن يقوم (يسوع) من الأموات**».

وعاد بطرس ويوحنّا إلى حيث كانا يقيمان كي يطلعا سائر التلاميذ على ما شاهدا وسمعا. أمّا المجدليّة فلم تُطق البعاد عن موئلِ رجائها، ومكمن حبّها. كانت تتهيّب من رؤية يسوع ميتًا، ولكنّها باتت أكثر خشيةً من ألاّ تجده، وألاّ تراه على الإطلاق.

فراغ القبر ملأ نفسها هواجس. سخاؤها كان بلا حدودٍ، ولكنّ إيمانها كان يراوح عند عتبة السرّ. جاذبٌ سرّيٌّ كان يشدّها إلى القبر، ويا له من قبرٍ لا يحتفظ بنزيله، ويا للميت الغالي الذي يحطّم عقال الموت!

ودخلت ثانيةً إلى القبر، وهي تبكي، «**فأبصرت ملاكَيْن بلباسٍ أَبيض جالسيْن حيث كان جسد يسوع موضوعًا، أَحدهما عند الرأس، والآخر عند القدمين**»، فقالا لها: «**لمَ تبكين، أيّتها المرأة؟**» فقالت لهما: «**إِنّهم أخذوا سيّدي ولا أَدري أين وضعوه**». لم تلحظ اللفائف الملقاة أرضًا، ولم تُعِر الملاكين اهتمامًا، ولم ترَ سوى الفراغ، لأنّها لم تعثر على إِلهها، فبدا لها كل شيءٍ عدمًا. كانت تتلفّت في كلّ اتّجاهٍ، علّها تقف للمعلّم الحبيب على أثرٍ؛ وبعد أن كلّمها الملاكان حانت منها التفاتةٌ إلى الوراء فإذا يسوع واقفٌ، غير أنّ دموعها كانت حجابًا منعها من تعرُّفه. ظنّت أنّه البستانيّ، فتنفّست الصعداء، فهو كفيلٌ بمعرفة كلّ شيءٍ، وبإرشادها إلى مكان وجود إلهها. من المحقّق أنّها لم تحدّق إلى وجهه، لأنّ وجهًا وحيدًا كان يهفو إليه قلبها. وطالبت بجسد ربّها، غير حاسبةٍ أيّ حسابٍ لكيفيّة حمله، وللمكان اللائق الذي يجدر نقله إِليه، فالمحبّة لا تحسب. ولم تذكر اسم يسوع، لأنّها كانت تظنّ أنّه موضع اهتمام الجميع، الوحيد.

وكان هو المبادر إلى مخاطبتها: «**لمَ تبكين، أيّتها المرأة؟ ومن تطلبين؟**» **فقالت له**: «**سيّدي، إن كنت أنت قد ذهبت به، فقل لي أين وضعته وأنا آخذه**». كانت موَلّهةً، ملوّعةً، خائرة القوى، لا تبتغي سوى رؤيته، ولو ميتًا. وحينئذ ناداها باسمها: «**مريم!**». هذا الهمس الرقيق دوّى كالرعد في قلبها. ولمّا شاهدت ثقوب يديه ورجليه، لم تستطع أن تتلفّظ إلاّ بكلمةٍ واحدةٍ: «**ربّوني!**» أي: يا معلّم. عيناها لم تتعرّفاه، ولكنّ جرس صوته هزّ أوتار كيانها.

في قوله: «**مريم**»، ثوت السماء كلّها، وفي قولها: «**ربّوني**» ثوت الأرض كلّها. في هذه اللفظة سكبت كلّ نفسها، وإيمانها، وحبّها، وفرحها، وكلّ ما فجّرت رؤية المعلّم في كيانها. في أعقاب ليل روحها الداجي، ومض هذا البرق؛ وفي إِثر ساعات

الانهيار، أشعّ هذا الرجاء؛ وبعد بحثها الوجيع كان هذا الاكتشاف، وبعد فقدها المعلّم التقته وجهًا لوجهٍ. كانت قد غدت مع الفجر، كي تسكب ما تبقّى لها من دموعٍ على قبر الحبيب وعلى جثمانه، وكوفئت برؤيته يسير، مع أشعّة الشمس الأولى، أمام اللحد. جاءت تبحث عن جثمانٍ فخاطبها من هو الحياة.

وفي فرحها واندفاعها أكبّت على قدميه راغبةً في تقبيلهما، ولكنّه قال لها: «**لا تمسكيني! إنّي لم أصعد، بعدُ إلى أبي، بل امضي إلى إخوتي وقولي لهم إنّي صاعدٌ إلى أبي الذي هو أبوكم، إلى إلهي الذي هو إلهكم**».

ربّما خُيّل إلى المجدليّة أنّ يسوع عاد إلى مثل حياته السابقة، وأنّها لن تبعد، بعدُ، عنه، أبدًا. ولكنّه بادر إلى تبديد أوهامها، وأفهمها أنّ علاقة أصدقائه به لم تعد كما كانت، بل عليها أن تتغيّر. فجسده قد غدا جسدًا مؤلّهًا، ممجّدًا. وجوده على الأرض عابرٌ، خاطفٌ، وعليها أن تنتظر عودته إلى مجده الإلهيّ، كي تعبده عبادةً كاملةً، صافيةً، ساميةً، لاتعكّرها أيّة شائبةٍ بشريّةٍ. بعد صعوده إلى الآب ستكون علاقته بأصدقائه أكثر حميميّة، ولكنّها سترتدي طبيعةً مختلفة، أوفر تجرّدًا، وروحانيّةً. أمّا في الظروف الراهنة فواجبها التبشير بقيامته. لقد جعل منها مبشّرة المبشّرين، ورسوله إلى رُسُله، وكلّفها بكسر قارورة طيب قيامته كي يشيع عطرها في العالم كلّه. لم يظهر للرُسل أوّلاً، لأنّهم انهاروا، واستسلموا للإحباط والريبة. بل ظهر للمجدليّة، التي كان حبّها أقوى من الموت، وإيمانها أمنع من اليأس.

إنّها أوّل إنسانٍ شاهد يسوع ناهضًا من الموت، وسمع صوته وأدرك سبب فراغ القبر. جسده الذي قدّمه، طوعًا، للعذابات، وللصلب، قد تحرّر إلى الأبد من شريعة الألم والفساد، واكتسب روحانيّةً فريدةً، ولم تعد المادّة، بصفاقتها وكتامتها، تعيقه. لم يعد الثقل يجتذبه، ولا المدى يسجنه، إنّه سريعٌ وخفيفٌ كالإرادة التي تحرّكه، يُلمَس ويُشاهَد، يظهر ويتوارى، وفقًا لرغبته، ولكنّه احتفظ بسمات الصلب، علامة كفاحه الأرضيّ المجيد التي لا تُمحى، وحتّى في ملكوته السماويّ، ستثبت انتصاره على الخطيئة، وحبّه اللامحدود للبشر.

وهرعت المجدليّة إلى أداء مهمّتها، **فجاءت وبشّرت التلاميذ قائلةً**: «**قد رأيت الربّ، وهذا ما قاله لي**». ولكنّ معظم التلاميذ واجهوا رسالتها بالشكّ، لأنّهم لم يكونوا، بعدُ، مستعدّين للإيمان بقيامة معلّمهم.

وفي تلك الأثناء كانت النسوة الأخريات قد وافيْنَ القبر، ودهشنَ لرؤية مدخله فاغرًا، وهو خالٍ من نزيله؛ وسمعنَ بشارة الملائكة، الذين بلّغوا عابدات الفجر، أنّ الميّت حيٌّ، وأنّ الموت مات، فلا مبرّر للبحث عن جثمانٍ، فيسوع قد بارح لحده، وقد يباغت أَحبابه، بين لحظةٍ وأُخرى. مثل النسغ المتفجّر، مثل النبتة المنبثقة، انطلق يسوع من الأرض. كان قد استسلم للصلب طوعًا، ولكنّه مزّق غلاف الموت الذي كان يلفّه. لقد اندثر عهد البصقات، وضربات السياط، وتشنّجات الألم، وكسوف يوم الجمعة. يسوع حيٌّ، ولا بدّ من إِعلان النبأ لليهود وللوثنيّين. لقد انتهى إلى الضفّة الأُخرى وعاد، أسنى تألُّقًا من الملائكة. إنّه حيٌّ، ويشعّ بمجد بدءٍ قشيبٍ.

بعضهنّ، لشدّة خوفهنّ، لم يجسرن على إِبلاغ التلاميذ، أمّا اللواتي تجرّأن وبلّغن، فاتُّهمنَ بالهذيان.

زفّ لهنّ الملاك البشرى: «**لقد قام**». قولٌ مذهلٌ، غير متوقّعٍ، دوّى في كلّ أَرجاء العالم، وقلبه رأسًا على عقب.

لقد قام من صُلِب بتهمة التجديف، ووُصف بأنّه بعلزبول، رئيس الأبالسة، ومدمّر الهيكل، وعدوّ الدين، مع أنّ الله بدا، لساعاتٍ خلت، وكأنّه تخلّى عنه، وتواطأ مع قضاته وجلاّديه، وابتهج بطمس مغامرته.

وها إِنّ الله ينهضه جاعلاً منه بكر البشريّة المتجدّدة.

وها إِنّ الذين كانوا يرتعدون جزَعًا، يوم الجمعة، يهتفون بجرأةٍ: «**إنّ يسوع الذي صلبتموه أنتم، قد أقامه الله**».

كان التلاميذ ما برحوا غارقين في الوجوم والحيرة. فهم، قبل القبض على المعلّم، ومع كلّ إِنذاراته، كانوا موقنين بأنّ قوّته ومجده الإلهيّين سيتجلّيان وسيخزيان أَعداءه، وأنّه موشكٌ على إعلان مملكته. ولذلك كانت صدمة صلبه وموته صاعقةً، قاسيةً عليهم. ومن ثمّ عسر عليهم تصديق روايات النسوة، وعجز حتّى القبر الخالي عن إِيقاظ ذكرى أقوال الربّ المتكرّرة عن موته المهين، وقيامته المجيدة في اليوم الثالث. فقيامة مصلوبٍ مات ودُفِن تتخطّى إدراك أولئك الجليليّين الواقعيّين. وكان لابدّ من أَدلّةٍ حسّيّةٍ تثبت لهم أنّ قيامة يسوع واقعٌ ماثلٌ لاريب فيه. وقد أَغدق الربّ هذه الأَدلّة بظهوراته، كي يبدّد من نفوسهم كلّ ريبةٍ، ويشيع فيها رعشة فرحٍ وثقةٍ.

قُلوبٌ مُحَطَّمَةٌ، وَخُبْزٌ مكسُورٌ (*)

يسوغ الاعتقاد أنّ قاهر الموت قد كرَّم بظهوره الأوَّل، وقبل ظهوره للمجدليّة، أُمّه، شريكته في الفداء. وهي احتفظت بهذا العزاء لنفسها، مع سائر الأَسرار الحلوة والمرَّة التي كانت تودعها خزانة نفسها.

ويتّضح، من رسائل القدّيس بولس، ومن جواب التلاميذ لتلميذيْ عمّاوس، أنّه ظهر، أيضًا، لبطرس، إذ قالوا لهما، قبل أَن يرويا قصّتهما: «**لقد قام الربّ حقًّا، وظهر لسمعان**» (لوقا ٢٤ : ٣٤).

أمّا قصّة هذين التلميذين فقد انفرد لوقا بروايتها، ومن خلالها وصف وضع التلاميذ النفسيّ. كانا قد وافيا أورشليم يحدوهما الرجاء بمشاهدة إعلان مملكة يسوع، وتجلّي مجده، فشهدا مهانته وموته. حطّمتهما الصدمة فقرّرا العودة إلى قريتهما، ونسيان الماضي. وأَقعدهما السبت عن السفر، فتلبّثا حتّى صباح الأحد، حيث استعاد الناس مسيرة عيشهم المعتادة.

ومع أنّه ترامى إلى مسامعهما، في ذلك الصباح، نبأ النسوة اللواتي غدون إلى القبر فجرًا، فوجدنَه خاليًا، إلاّ أنّ إحباطهما كان من العمق بحيث لم يثنِهما ذلك النبأ عن مغادرة أورشليم إِلى قريتهما، غير البعيدة، التي تدعى عمّاوس.

كان الحزن مرتسمًا على سحنتَيْهما، ويصبغ أَحاديثهما الدائرة على تحطّم الحلم ودفن سنيّات الآمال. كانا يتوقّعان لمسيرة يسوع التألّق والديمومة، فرأياها تقصف قصفًا مهينًا، تحت أَبصارهما.

كانا قد غادرا أورشليم تلاحقهما صور الجلجلة المريعة، والغيظ يجيش في أحشائهما، والإحباط يشلّ عزيمتهما، والعجز أمام ما حَدَث يغرقهما في القنوط، وإذا بغريبٍ يسألهما، ببسمةٍ ساخرةٍ: «**عمّ كنتما تتحدَّثان، وأنتما تسيران؟**».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «عمّاوس»، صفحة ٥٠٠.

إنّ يسوع يلحق بنا، على دروب كلّ عمّاوس نقصده، دهشًا لاكتئابنا، وهامسًا: «**يا قليلي الفهم والإيمان**»!

وكان يسوع عليمًا بكلّ ما يختلج في صدريهما، ومع ذلك دعاهما إلى التعبير عنه كي يخفّف من ثقل الحزن الذي كان يبهظهما. كان يريد منهما الكشف عن جراح نفسيهما كي يسكب عليهما بلسمه الشافي. ويتابع الإنجيليّ لوقا روايته فيقول: «**وفيما كانا يتذكّران ويتباحثان إذا بيسوع نفسه قد لحِقَ بهما وأخذ يسيرُ معهما. غير أنّ أعيُنهما قد أُمْسِكَتْ عن معرفته.**

فقال لهما: «ما هذا الحديثُ الذي تجولان فيه في طريقكما؟» فوقفا واجمَيْن. وأجاب أحدُهما، واسمُه كِليوبّا، وقال له: «أتكون الغريب الوحيد في أورشليم الذي يجْهَلُ ما حدث فيها في هذه الأيّام! فقال لهما: «و ما هو؟». فقالا له: «ما يخْتَصّ بيسوع الناصريّ الذي كان نبيًّا مقتدرًا بالفعل والقول، أمام الله وأمام الشعب كلّه، وكيف أسلمه أحبارُنا وأولياءُ أمرنا لقضاء الموت، وصلبوه. وكنّا، نحنُ، نُعلّلُ النفس بأنّه هو الذي سيُنقذ إسرائيل. وإلى هذا كلّه فاليوم هو الثالث لوقوع هذه الأحداث. على أنّ نسوةً منّا قد أذهلننا. فإنّهنّ بكّرنَ إلى القبر وإذ لم يجدْنَ جسدَهُ جئنَ يقُلنَ إنّهنَّ قد رأين ملائكةً قالوا إنّه حيٌّ. فمضى بعضُ الذين منّا إلى القبر فوجدوا الأمر كما أخبرت النسوة. وأمّا هو فلم يروْه» (لوقا ٢٤: ١٥ – ٢٤).

أقوال التلاميذ المفعمة حزنًا وإحباطًا، كانت تعكس استسلامًا يائسًا، وقنوطًا كونيًّا، من جرّاء تبخّر الآمال في الخلاص، ونكوص الله بكلّ وعوده، وفشل التاريخ الدينيّ بكامله.

لم يتعرّف تمليذا عمّاوس يسوع الذي كان يسير معهما، لأنّهما لم يفقها حقيقته وهما معه، في أثناء حياته، ولأنّهما كانا يتوقّعان مسيحًا آخر، يهوديًّا، مادّيًّا. عمى بصيرتهما، في ذلك اليوم، كان نتيجة عماها بالأمس. لم يتعرّفا ذاك الذي كان يسير إلى جانبهما، لأنّهما لم يعرفا، حقًّا، ذاك الذي طالما سارا معه.

إنّ البشر يرسمون مخطّطاتٍ، ويتوقّعون من الله تنفيذها، وتكون خيبتهم ذريعةً بقدر ما تكون تطلّعاتهم حسيرة الرؤية، قصيرة المدى. غير أنّ يد الله تحطّم كأس

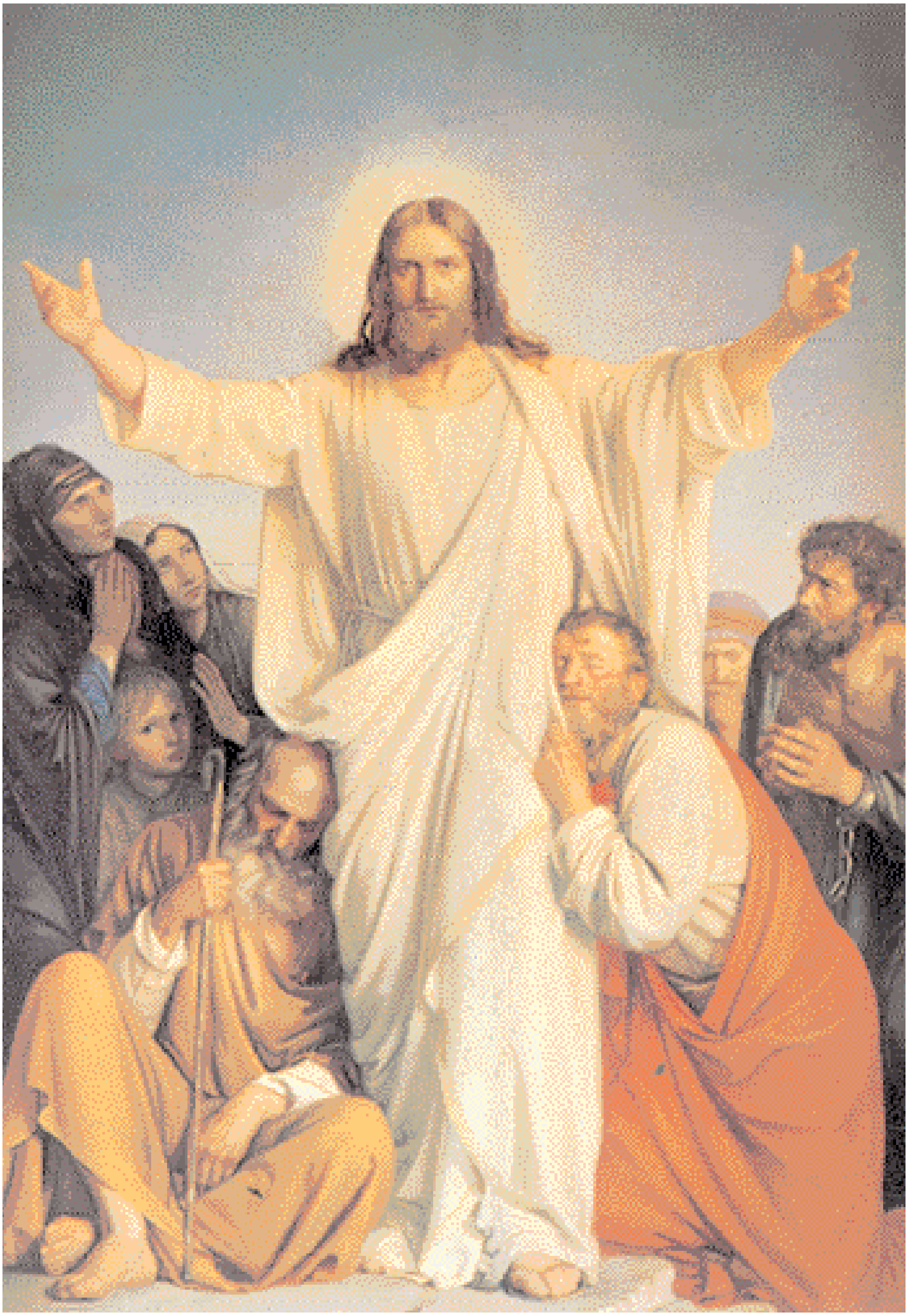

ظهور يسوع للتلاميذ (بريشة كارل بلوك)

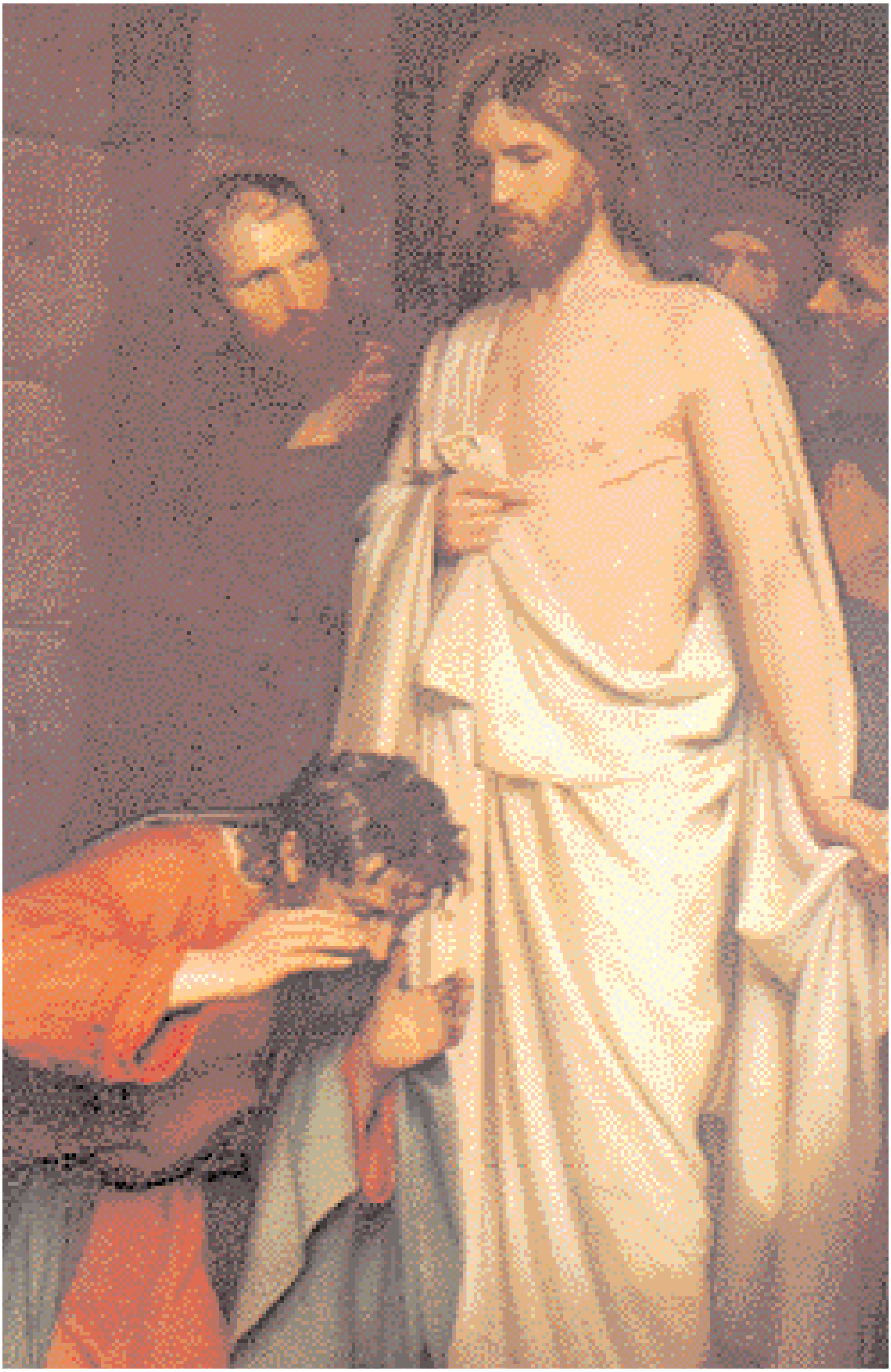

توما «ربّي وإلهي» (بريشة كارل بلوك)

رغباتهم الوضيعة لكي تقدّم لهم كأسًا ذهبيّةً ثمينةً. وتلاميذ يسوع كانوا يتطلّعون إلى فادٍ بلا صليبٍ، فاكتشفوا فاديًا مصلوبًا. أملوا في مخلّصٍ لإسرائيل، فإذا بهم أمام مخلّصٍ للعالم أجمع. لطالما سمعوه ينبئ بأنّه سيُصلب ويقوم، ولكنّ أذهانهم رفضت فكرة إلهٍ يخضع للصلب. كان التلميذان يسيران معه، ويحدّثانه، ومع ذلك يأخذان عليه عدم ظهوره، بعد مضيّ ثلاثة أيّامٍ على موته. فلا عجب إن أنحى عليهما باللائمة: فقال لهما: «**يا قليلي الإدراك وبطيئي القلب في الإيمان بما نطقتْ به الأنبياء! أفما كان للمسيح أن يُكابد هذه الآلام ليدخُل في مجده؟** «**ثمّ شرع يُفسّر لهما ما يختصُّ به في جميع الأسفار، من موسى إلى سائر الأنبياء**» (لوقا ٢٤ : ٢٥– ٢٧).

لو فقها، إذن، أقوال يسوع في موته وقيامته، وأقوال الأنبياء فيه، لما حزنا لصلبه، ولكانا، في ذلك اليوم يحتفلان بقيامته.

لقد أماط لهما النقاب عن أمورٍ كثيرةٍ كانت قد خفيت عن أبصارهما. ولكنّهما لم يتعرّفا، بعدُ، هويّة ذلك المسافر السرّيّ، الذي بدا لهما جاهلاً، فإذ به الأوسع اطّلاعًا. قصيرًا بدا الطريق، وقصيرًا الدرس الذي ألقاه الغريب، عندما انتهوا إلى قرية التلميذَيْن، وتظاهر يسوع بوداعهما، ومتابعة مسيرته إلى مقصدٍ آخر، ولكنّهما كانا من شدّة التعلّق به، ومن اضطرام الرغبة في المزيد من أقواله المنيرة، وحضوره المنعش، بحيث ألحّا عليه أن يقتسم العشاء معهما، وأن يستضيفاه لتلك الليلة. وما أحرانا بأن نردّد معهما، في ساعات وهننا، ووحدتنا: «**البثْ معنا يا ربّ: فالمساء آتٍ، والنهار قد مال**»!

قَبِل يسوع دعوتهما ولكنّه تصرّف وكأنّه ربّ البيت، إذ أخذ الخبز الموضوع على المائدة وبارك، ثمّ كسره وناولهما. «**فانفتحت أعينهما، فعرفاه**». كسر الخبز علّمهما أكثر من كلّ إفادةٍ كلاميّةٍ. حديثه كان يضرم قلبيهما، ولكنّ كسر الخبز أشعل، في قلب كلٍّ منهما، حريقًا. هذا الحدث بيّن أنّ القائم من الموت، قد أمسى الغائب الحاضر في الوجبة الإفخارستيّة، حيث يتمّ تعرّف الربّ وتعرّف كلامه.

بغتةً مادت بهما الدنيا، وتفتّتت الغشاوة التي كانت تحجب عن عيونهما الحقيقة. لم يتعرّفا يسوع من سحنته، ولا من صوته الذي كان مختلفًا عمّا أَلِفاه، ولكنّ حركةً

بسيطةً كانت كافيةً لتفجير النور. وهمّا بلمسه والسجود له، ولكنّه كان قد توارى، فجسده الممجّد غدا متحرّرًا من قوانين المكان والثقل.

مثلما شاهداه بغتةً، بغتةً غاب عنهما. في لحظاتٍ خاطفاتٍ تعرّفاه، مع أنّهما تجاذبا معه الحديث ساعاتٍ، في الطريق، ولكنّ رفضهما لفكرة قيامته، هي التي كانت تحول دون تعرّفه، وها هما يريانه حيًّا أكثر منهما، حياةً غير حياتهما، حياةً لا نهاية لها.

واتّضح لهما كم كانا أحمقَيْن، وهما يتحدّثان عن موته، فيما كان يسير إلى جانبهما!

وقال أحدهما للآخر: «أما كان قلبنا مضطرمًا فينا حين كان يحدّثنا ويفسّر لنا الكتب؟». كان هو النار التي تضرم قلبيهما، ويمكن تخيّل انخطافهما، وهما يسمعان من شفتي المخلّص تفسير النبوءات المتعلّقة به!

توارى الحبيب، فما عادا يطيقان صبرًا، وذهلا عن جوعهما، وعن المائدة الممدودة. باتا يمتلكان سرًّا خطيرًا، لا بدّ من إبلاغه لمن ينتظرونه، وكانا يحملان بشرى لا بدّ من اقتسام فرحها مع رفاقهما. فقد كان إنجيلٌ جديدٌ يولد.

نهضا، في الحال، وتحدّيا الليل الذي هبط، وتعب المسير ساعاتٍ، في ذلك النهار، وراحا يجريان جريًا صوب أورشليم. وعندما كان يدقّ قلباهما بعنفٍ، كانا يتوقّفان لحظاتٍ، وأقدامهما ملتهبةٌ وأيديهما مرتجفةٌ، ولا يلبثان أن يستأنفا الجري، وفرحهما يكاد يوجعهما.

أثّر يسوع فيهما عاطفيًّا إذ أضرم قلبيهما حبًّا، وأثّر فيهما عقليًّا إذ أَزاح عن ذهنيهما الحجاب عمّا قيل فيه من نبوءاتٍ، وعمّا تنبّأ به هو بنفسه.

البشر ينزعون إلى الاعتقاد بأنّ كلّ ما هو دينيٌّ ينبغي أن يكون متألّقًا يصدم الخيال. غير أنّ حدث عمّاوس أثبت أنّ الحقائق الكبرى يمكن أن تتجلّى من خلال أكثر الظروف بساطةً ووضاعةً، مثل التقاء صديقٍ في طريقٍ، وكسر رغيف خبزٍ. وقد قرن يسوع، دائمًا، بين خزي الصليب، ومجد القيامة.

* *

كم منّا من سار، ذات مساءٍ، على درب عمّاوسه، مطرقًا، حزينًا، يرهقه الشعور بفقدان كلّ شيءٍ، لأنّ يسوع مات مصلوبًا فيه، وقد سلبه إيّاه، العالم، والفلاسفة، والعلماء، وأهواؤه الجامحة!

وكم نسير واجمين، وإلى جانبنا آخر لا نراه. تبهظنا الوحدة، وإلى جانبنا رفيقٌ!

إنّ تجربة عمّاوس هي تجربة كلّ مؤمنٍ. فداخل كلّ مؤمنٍ كائنان لا يكفّان يتناقشان حول يسوع، ويتبادلان شكوكًا تتجدّد كلّ يومٍ. ولكنّ سرّهما المستغلق يسير معهما جنبًا إلى جنب، ويضرم، في الأعماق، شعورًا بحضورٍ حارقٍ. وحين نهمّ بالقبض على ذلك الوميض المشعّ من الأبديّة، يفلت من أيدينا، مخلّفًا فينا ناره، وعطشًا إليه لا يرتوي. وقد كتب «جان غيتّون» حول هذا الحدث: «أكثر ما يستلفتني من الإنجيل هذا المشهد، الذي يجعله لوقا في مفصلٍ من إنجيله، في هذه الفسحة بين نهاية قصّة يسوع المرئيّة، وبداية حضوره غير المرئيّ، وحيث رسم الإنجيليّ مشهدًا أظهر مسيرة الإيمان في الأذهان، وسط المصاعب.

«شخصان يتجاذبان أطراف الحديث على الطريق، ويتحدّثان عمّا يشاهَد، دائمًا، في هذا العالم: أي فشل المؤسّسين، والخيبة، والوعود التي لم تنفّذ، وبخاصّةٍ لامعقوليّة حركة يسوع التي انتهت إلى فشلٍ، ونهضت دليلاً على الرجاء الذي لم يكن له أساسٌ. أسباب الشكّ متوفّرةٌ، وهي تتضاعف إذ إنّ كلاًّ من التلميذين يضيف صعوبات إيمانه إلى صعوبات رفيقه. وفيما هما يتحدّثان تسير معهما المعضلة التي يناقشونها، وتجلس في مركز كيانهما بشكل رغبةٍ عارمةٍ في المعرفة. ويظهر لوقا ولادةً جديدةً للنور في عمق الظلمة. في اللحظة التي يميل فيها النهار المادّيّ إلى الغروب، أشرق للروح فجرٌ جديدٌ.

ويتوارى الأزليّ في اللحظة التي تشتدّ فيها الحاجة إلى مكوثه».

ظُهُورُ يسُوعَ لِلتَّلَاميذ (*)

بمشقّةٍ انضمّ العائدان من عمّاوس إلى سائر التلاميذ الذين كانوا مختبئين، وقد أحكموا المزاليج، ومعهم بعض الرفاق، والجميع يجيشون تأثّرًا. وقبل أن يتاح للقادمَيْن الكلام، أُحيطا علمًا بداعي هذا الاجتماع الليليّ الطارئ: «**لقد قام الربّ حقًّا، وظهر لسمعان**». كان الربّ قد غفر لبطرس إنكاره، لأنّ الحبّ والإيمان كانا ما برحا يقطنان نفسه، وأعاد له مكانته الأولى.

رواية تلميذيْ عمّاوس لم تُقنع جميع الموجودين، فمنهم من صدّقها، ومنهم من وقف منها موقف الشكّ والتريّب. هما كانا قد شاهدا بُرهان القيامة بعيون الفكر قبل رؤيته بعيون الجسد. أمّا بعض الآخرين، فكانوا يحتاجون إلى رؤيةٍ حسّيّةٍ كي يؤمنوا. وقبل انصرام يوم القيامة العظيم ذاك، حرص الربّ على أن يتيح لتلك الجماعة التي لمّت شملَها ذكراه، أن تمتّع أبصارها بحضوره.

وفيما هم يناقشون أحداث ذلك اليوم المذهلة، «**وقف يسوع في وسطهم، وقال لهم: «السلام لكم». فأخذهم الذهول والذعر، وظنّوا أنّهم يرون روحًا**». رغم شهادات بطرس، والنسوة، وتلميذيْ عمّاوس، والقبر الخاوي، وأقوال الملائكة، شقّ على بعض التلاميذ تصديق أنّ يسوع حقًّا بينهم، وعجزوا عنِ فهم كيف استطاع الدخول، والأبواب محكمة الإيصاد، فقرّعهم الربّ قائلاً: «**لمَ هذا الاضطراب؟ لمَ تنبعث الأوهام في قلوبكم؟ انظروا يديّ ورجليّ، فإنّي أنا هو، جسّوني وانظروا: فالروح لا لحم له ولا عظم كما ترون لي**». قال هذا وأراهم يديه ورجليه، وجنبه. كان يريد أن يحفظ تلاميذه عنه صورة المصلوب، لا تذكيرًا بوحشيّة البشر، بل تذكيرًا بأنّ الفداء قد تحقّق عبر الآلام، وبأنّ الجسد الذي كان يُظهره لهم هو نفسه الذي تكوّن في أحشاء العذراء، وصُلب، وسُجّي في قبر يوسف الأريماثيّ، مع أنّ هذا الجسد قد بات يتمتّع بمزايا المجد، دون كلّ أجساد البشر.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «خذوا الروح القدس»، صفحة ٥٠٥.

تلاميذه الذين لم يشهدوا تجلّيه كانوا يشهدون، للمرّة الأولى، مجد قيامته. وكانت آثار المسامير وطعنة الحربة دليلاً على المعركة الدامية التي خاضها على الخطيئة والشرّ، كي يثبت أنّ الحبّ أقوى من الموت.

وإذ كان بعضهم، لفرط فرحهم، لا يصدّقون ما يرون، ويخشون أن يكونوا ضحيّة هلوسةٍ، أو أن يكون خيالهم قد حوّل رغباتهم إلى واقعٍ، وقطعًا لدابر كلّ ريبةٍ، ومع أنّ جسده الممجّد لم يعد في حاجةٍ إلى طعامٍ، قال لهم: «**أعندكم ههنا شيءٌ يؤكل؟ فقدّموا له قطعةً من سمكٍ مشويّ، وبعض شهدٍ، فأخذ وأكل، تحت أبصارهم**».

كان الظهور من الروعة والإدهاش بحيث خشي بعض التلاميذ أن تكون مشاعرهم قد خدعتهم. ولهم، في ذلك، عذرٌ، فعودة ميتٍ إلى الحياة صعبة التصديق، ولا سيّما أنّ جسد يسوع قد انتقل إلى حالة المجد، التي لم يخبرها أحدٌ من قبل. فلجأ المعلّم إلى الدليل المادّيّ الذي لا يُدحَض، وأثبت أنّه ما زال يمتلك جسدًا مادّيًّا يغلّف نفسًا إلهيّةً.

لتلاميذه المشكّكين بقيامته قال: لا تكتفوا بالمشاهدة، بل المسوا، جسّوا، ضعوا عيونكم في أيديكم. أراهم جراح يديه، وقدميه وجنبه، كي يشفي جراح الحزن والشكّ في نفوسهم.

ظهر يسوع بجسده الذي صُلِبَ، حاملاً كلّ آثار صلبه، جسدٍ يمكن جسّه، وجسدٍ يأكل، ولكنّه، في الوقت عينه، جسدٌ ممجّدٌ، مروْحنٌ، محرَّرٌ من كلّ قيود الجسد البهيميّ، ولذلك تعذّر على بعض من عرفوه في حياته، تعرّفه منذ الوهلة الأولى. لم يعد يسوع يأتي ويمضي، بل هو «يظهر» بغتةً، ويختفي، متحدّيًا الحواجز المادّيّة، منعتقًا من قيود المدى والزمان، يتحرّك بحرّيّةٍ مطلقةٍ لا عهد للأرض بها، يتحرّك بفعل الروح، متحرّرًا من عوائق المادّة وثقلها.

كانوا يخشون الإيمان، فغمرهم الإيمان بالفرح. ومع القناعة، والثقة، والفرح، أسال يسوع في قلوبهم سلامه وانتدبهم للرسالة، إذ جمعهم من حوله، وأَغمض جفنيه، ولكأنّه غارقٌ في سرّ المكان الذي جاء منه، وسيعود إليه قريبًا، **وقال لهم ثانيةً**: «**السلام لكم. كما أنّ الآب أرسلني، أنا أُرسلكم**». **قال هذا ونفخ فيهم،**

وقال لهم: «خذوا الروح القدس، من غفرتم خطاياهم غُفرتْ لهم، ومن أمسكتموها عليه أُمسكت».

بنفخته هذه عبّر لهم عن جسيم حبّه، ونفث فيهم روحه، وأشركهم بقيامته، نفحهم روحه كي يترسّخ فيهم، ريثما يؤتي ثماره في العنصرة.

في أثناء العشاء الأخير كان قد أولاهم سلطة تجديد التضحية الأبديّة، وفي هذه الليلة نفث فيهم روحه، ونفحهم سلطة تقديس النفوس، وغفران الخطايا، بقوّة هذا الروح عينه.

وحينئذٍ توارى يسوع عن أبصارهم، فهو لم يعد إلى سابق عهد عيشه الدائم معهم. أتاهم زائرًا من عالَمٍ آخر، لكي يؤهّلهم لمعرفته، لا من خلال جسده، بل من خلال روحه الذي نفثه فيهم، وبفضل الحياة الجديدة التي هيّأهم لها.

وكان لهذا الظهور تأثيرٌ بالغٌ على التلاميذ، الذين استعادوا معلّمهم، وشاهدوه، ولمسوه، وفاض فرحهم. وبفضل هذا الظهور نبذوا الشكّ، والخوف، والاضطراب، وباتت لهم القيامة أمرًا واقعًا.

أُولئك الذين كانوا قد فرّوا مرتعدين، متدثّرين بظلمة الليل، ونفضوا أيديهم من قضيّة يسوع، ألقى الربّ عليهم قبضته ثانيةً، ورحّب بهم، وهيّأ لهم انطلاقةً جديدةً في مضمار الإيمان، فقد تيقّنوا أنّ ما علّمه هو الحقّ، وأنّه والله واحدٌ، وأَنّ الصليب لم يكن سوى مرحلةٍ من تاريخه الذي لا انتهاء له، وأنّ دعوته هي الوحيدة الحبلى بوعود الحياة والمستقبل المشرق، وهم في سبيلها مستعدّون للموت.

بطء التلاميذ الشديد في تصديق قيامة الربّ يثبت أنّهم لم يكونوا ضحايا أوهامهم وتخيّلاتهم، وإنّما أجبرتهم الوقائع الملموسة على التصديق. وقد ظهر لهم يسوع، الكرّة تلو الكرَّة، موفّرًا لهم الدلالات على أنّه ينبض حياةً، كي يشهدوا بذلك على الملأ، متأهّبين لدمغ شهادتهم بدمائهم، ولكي يؤمن ملايين البشر، على كرّ الأجيال، من غير أن يروا، وبناءً على شهادتهم، أنّ يسوع حيٌّ. لقد نفخ فيهم روحه القدّوس، فبدأ الزمن من جديد، وكأنّه يوم الكون الأوّل. حُطّمت الأقفال والمزاليج، وتدفّق روح يسوع من الأبواب التي أُشرعت على المسكونة كلّها.

أولئك الذين كان يسوع قد أنهضهم من الموت، عهدوا فترة حياةٍ جديدةً، قبل

أن يعودوا إلى الموت ثانيةً. أمّا يسوع، فبعد تجربة موتٍ جسديٍّ عابرٍ، عاد إلى حياة الخلود. لم تكن قيامته مجرّد انتصارٍ على الموت. بل كانت عبورًا من الموت إلى الحياة، حياةٍ متحرّرةٍ من الصيغة البيولوجيّة والتاريخيّة، متّسمةٍ بسيطرة الروح على الجسد، وسيطرة الربّ على الروح، حياة مجدٍ. بعد القيامة أمسى الإلهيّ يغلّف البشريّ، بعد أن كان البشريّ يغلّف الإلهيّ.

ومنذئذٍ، غدا يوم الأحد العظيم ذاك، هو فصح المسيحيّين الحقّ، وأساس إيمانهم.

ولكن شاء الله ألاّ يكون توما، أحد الاثني عشر، حاضرًا، في تلك الليلة.

تـــومـــا(*)

كم مَن يتّخذون من توما نموذجًا لهم، لأنّهم، على غراره، لا يصدّقون شهادة الآخرين، ولا يقتنعون إلاّ بما يرونه ويلمسونه!

ولكن ليس شكّ توما شكّ لامبالاةٍ، أو عداوةٍ للحقيقة، بل هو حاجةٌ إلى دعم إيمانه بسنَدٍ صُلبٍ، منيعٍ. فهو ليس ممّن يرفضون الإيمان باسم العلم، بل ممّن يرغبون في إزاحة كلّ شكٍّ كي يمضوا قُدُمًا في المعرفة واليقين.

كان قد سار في إثر يسوع، وسمعه، وأُعجب به، وأحبّه، وشاهد عجائبه الكثيرة، وإقامته الموتى. ولكنّ نهايته المهينة على صليب العار قد قذفت به إلى هوّةٍ سحيقةٍ ومريعةٍ من الإحباط والخيبة، يتعذّر الخروج منها.

وعندما روى له رفاقه، وهم يضجّون فرحًا واندفاعًا، ظهور الربّ لهم، في غيابه، هزّ رأسه ارتيابًا. فكيف لمصلوبٍ انقلب كومةً شوهاء، وأعضاءً مهشّمةً ممزّقةً، وثُقبت يداه ورجلاه بالمسامير، وطُعِن جنبه بحربةٍ، أن ينبعث حيًّا معافًى؟!

وحاول رفاقه إقناعه مؤكّدين أنّهم شاهدوا آثار صلبه، وثقوب يديه ورجليه، وثغرة الطعنة في جنبه، فأجابهم، بعنادٍ وقحٍ: «**إذا لم أنظر أثر المسامير في يديه، وإذا لم أضع إصبعي في موضع المسامير، ولم أضع يدي في جنبه، فلن أصدّق**».

في قوله هذا الكثير من الاعتداد والكبرياء، واتّهام جميع رفاقه بالافتقار إلى برودة الأعصاب، والنظر الثاقب، والحكم السديد. لقد كان موقنًا أنّ رفاقه وقعوا ضحيّة وهمٍ وهذيانٍ، وعدّوا الشبح جسدًا حقيقيًّا. ومن ثمّ، هو غير مستعدٍّ لتصديق ما رأوه بأعينهم، ولن يصدّق حتّى ما قد يراه بعينيه، بل فقط ما يلمس ويجسّ بيديه.

لم يكن توما يفتقر إلى الجرأة، والوفاء، والسخاء، وكان قد برهن عن كلّ ذلك

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «القفزة: إيمان توما»، صفحة ٥٠٨.

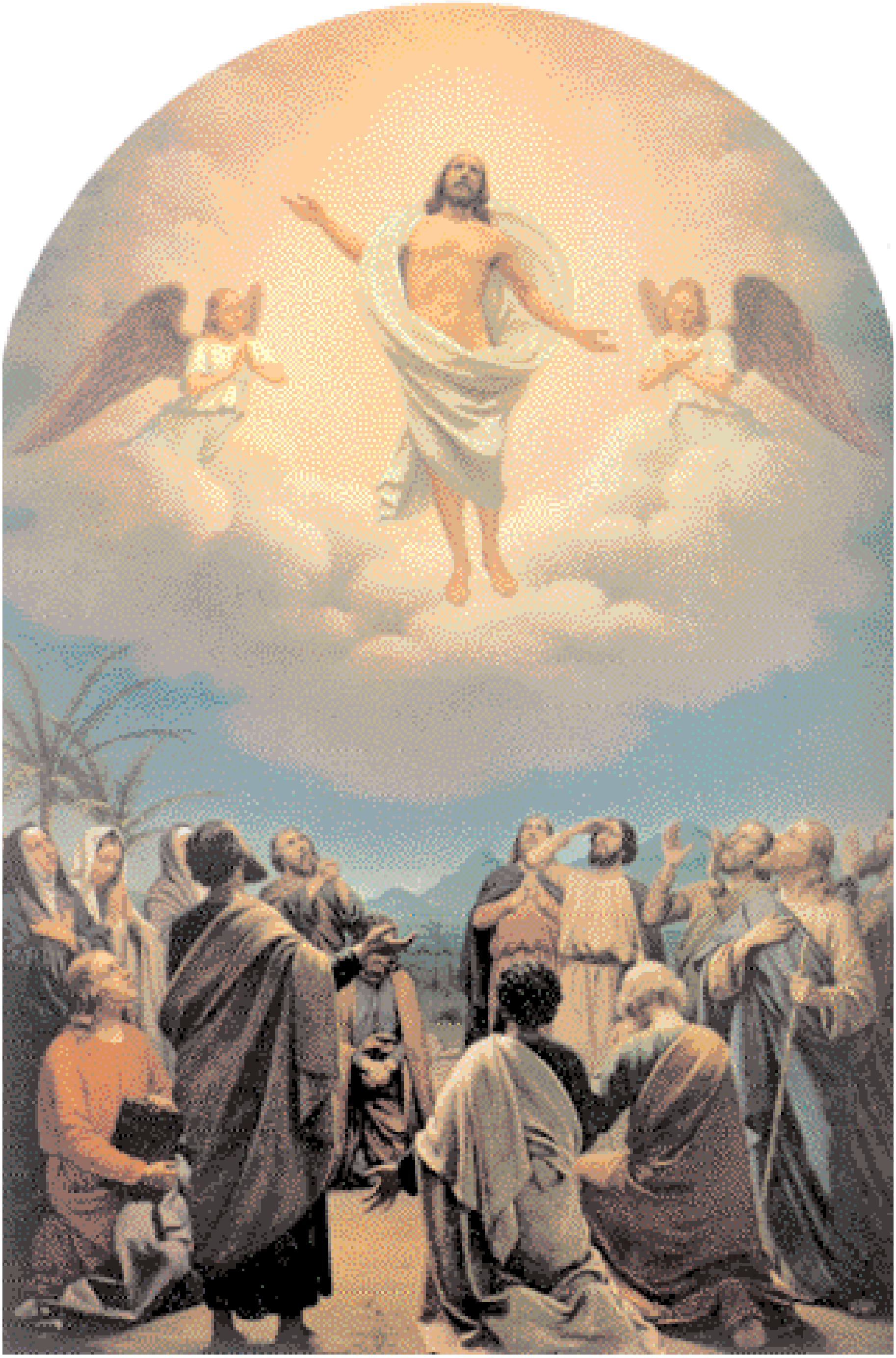

الصعود (بريشة أندرياس هيرمان هونايوس)

خارطة فلسطين

خارطة فلسطين

يوم قرّر يسوع العودة إلى اليهوديّة لإنهاض صديقه لعازر، وتوجّس التلاميذ خشيةً من المهالك المتربّصة بمعلّمهم وبهم، وكان توما، هو وحده، من تحدّى الخوف، وشجّع رفاقه قائلاً: «**فلنمضِ، نحن أيضًا، ولنَمُتْ معه!**».

ولذلك لم يتخلّ يسوع عن ذلك القلب الطيّب. ولكنّه ابتغى تأديبه، فتركه، أسبوعًا كاملاً، نهبًا لتساؤلاته الوجيعة، وشكّه العنيد القاتل. وبذلك علّمنا الربّ سعة الصدر حيال من يرفضون الإيمان بعناد.

بعد ثمانية أيّامٍ كان التلاميذ مجتمعين، وتوما معهم، والأبواب محكمة الإغلاق بالمزاليج، وإذا بيسوع يقف وسطهم، ويقول: «**السلام لكم**». ورنا إلى توما، وبعذوبةٍ قال له: «**هات إصبعك إلى هنا، وانظر يديّ، وهاتِ يدك وضعها في جنبي. وأقلعْ عن الإنكار، وكن رجل إيمانٍ**».

استخدم الربّ كلمات توما نفسه، التي جعل منها شرطًا لإيمانه، كي يُخجله، ويدفعه إلى التوبة. رئف بحزنه، وقدّم له البراهين التي أراد. جرْس صوت يسوع، وعذوبة حبّه أذابا، دفعةً واحدةً، كلّ رِيَب توما، الذي تخلّى عن إرادة اللمس، وشرط الجَسّ. فتأثير يسوع، أحيانًا، لا يقاوَم. لهجة المعلّم الساحرة، وحضوره الطاغي قلبا كيان توما، فحطّم قلبُه الوفيّ قوقعةَ أفكاره الضيّقة، ومضى، في اعترافه بقاهر الموت، إلى أبعد ممّا ذهب رفاقه، وإلى أبعد ممّا رأته عيناه. فمن خلال الجسد الحيّ، المنتصب أمامه، شاهد الله، فهتف: «**ربّي وإلهي!**». أيّة مشاعر إيمانٍ، وتجلّةٍ، ودعاءٍ متواضعٍ، وصلاةٍ مضطرمةٍ، وحبٍّ تائبٍ، في هذه الصيحة الوجيعة! عيناه لم تُرياه سوى إنسانٍ، ولكنّ إيمانه جعله يعبد إلهًا.

اعتراف توما هذا، هو اعترافٌ بألوهة يسوع، وموجزٌ لاهوتيٌّ مكتملٌ، لم يسبقه إليه حتّى بطرس نفسه.

وحينئذٍ قال يسوع لتوما، وفي عينيه شعاع صفحٍ، وعلى شفتيه بسمة عتابٍ: «**لأنّك رأيتني آمنت، فطوبى للّذين لم يَروا وآمنوا**».

لا ريب أنّ عيني يسوع كانتا تتأمّلان، بنشوة فرحٍ وغبطةٍ، ملايين الذين سيؤمنون، على مدى الأجيال، مصدّقين شهادة إنجيليّيه ورُسُله، وسيكون إيمانهم في مثل رسوخ إيمان من رأوا، ولمسوا، وجسّوا؛ أولئك الذين سيفتنهم سحر ابن الله، وسموّ تعاليمه، وبعملهم بمقتضاها، سيبرزون للعالم أجمع سنى وجهه الفذّ.

وما كان أتعس العالم، لو طالبت جميع الأجيال اللاحقة، بمثل ما طالب توما كي يؤمن! ومع ذلك، ثمّة من يرون بقلوبهم فيؤمنون، ومن يرون بعيونهم، ويجسّون بأيديهم، ويقيمون على الإنكار!

توما شكّ في شهادة إخوانه الذين كان واثقًا من صدقهم، حرصًا منه على تكوين إيمانه بنفسه. ولكنّه عندما شاهد البشريّة الممجّدة، آمن بالألوهة.

كان آخر المؤمنين بالقيامة، وأوّل المعترفين بألوهة يسوع الناهض من الموت. لقد لمس جسدًا، فآمن بإلهٍ. وكان فعل إيمانه رائعًا. غير أنّ الإيمان الأروع هو الذي يهبه الروح، ويلتزم به القلب، من غير حاجةٍ إلى دليلٍ ملموسٍ.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كم مرّةً تلمّسنا جراح الربّ، فهتفنا: «**ربّي وإلهي!**» لم نَرَك، يا ربّ، بأعيننا، ولكنّنا نؤمن بك ونحبّك! وجهك المصفوع الحزين يلاحقنا، على مدى حياتنا، من كبوةٍ إلى كبوةٍ، كبواتٍ تخزينا، ولكنّها لا تُضعف حبّنا، ولا تصيبه بالقنوط.

كلّ لقاءٍ بين يسوع وأحد أحبابه، يذكّرنا بحدثٍ من أحداث حياتنا. نحن، أيضًا، قد تعرّفناه من خلال أحد كهنته الذي أسمعنا قولاً صاعقًا غير متوقّعٍ، أو من خلال كتابٍ دوّى بغتةً، من أسطره، بركانٌ هزّ كياننا، أو من خلال مجهولٍ وديعٍ ومتواضع القلب أوحى لنا بحنانٍ إلهيٍّ، وبتعزيةٍ ليست من صنع البشر.

ثِمارُ القِيامَة

الموت هو ثمرة الخطيئة، وكان من العدل ألاّ يخضع للموت من لا يعرف الخطيئة. قداسته المطلقة حمته من التفسّخ. يسوع سلّم ذاته للموت طوعًا، ولكنّ عدل الله وقاه منه إلى الأبد. وبقيامة يسوع مات الموت.

البشريّة التي ارتداها يسوع بتجسّده، ألّهها الله بقيامته. ولا بِدْعَ إن عجز اللحد عن احتواء «الحياة»، إذ لم يكن للفساد سلطانٌ على ذاك الذي زرعه روح الله في أَحشاء عذراء.

لو لم يقم، لكان صليبه دليلاً دامغًا على فشله الحاسم. لربّما كان تلاميذه احتفظوا له بذكرى وجيعةٍ، ولكنّهم ما كانوا ليخاطروا بحياتهم، ولا كانوا بلغوا تلك القدرة على الإشعاع، حتّى في أتّون الاضطهادات.

كان قد خُيّل إلى قاتلي يسوع أنّهم قضوا على رسالته وتعليمه إلى الأبد. فثلّة التلاميذ الذين اختارهم أثبتوا هشاشتهم البالغة. أولئك الصيّادون الأمّيّون لم يفقهوا حتّى أقوال معلّمهم، ولم يحتملوا توقيفه، بل فرّوا هاربين. وزعيمهم أنكره، مقسمًا على عدم معرفته له. وعشيّة القيامة كانوا مختبئين مذعورين، في غرفةٍ موصدة الأبواب، وقد مات فيهم كلّ رجاءٍ، مع موت يسوع، وكانت مصيبتهم كاملةً لا أمل في تداركها.

وإذ بالقبر الخالي، في فجر يوم الأحد، وإعلانات الملائكة، ومشاهدات المجدليّة، ونسوةٍ أُخرياتٍ، وبعض التلاميذ، تزلزل القلوب والأفكار. حدَثٌ بدا بعيدًا عن كلّ توقُّعٍ وتصوُّرٍ، بحيث وقف منه معظم التلاميذ موقفَ التشكيك والتكذيب، إلى أن ظهر قاهر الموت لجميعهم، مساء ذلك اليوم عينه، وحدّثهم، وقاسمهم الطعام، ودعاهم إلى جسّه. وإذ بالقيامة واقعٌ من المناعة والسطوع، بحيث لم يستطيعوا إلاّ الاعتراف والتأثّر بها، حتّى أمست ركيزة إيمانهم، وإيمان جميع الذين آمنوا بيسوع.

كانوا قد سلَّموا بموته ففاجأهم بعودته، حيًّا، وفاضت قلوبهم فرحًا. كان قد أمسى ذكرى جميلةً حزينةً، فعاد إليهم حقيقةً حيّةً، ماثلةً، عليهم أن يحيوا واقعها. كانت قد اختلطت عليهم مشاعرهم، فامتلأوا ثقةً ووضوح رؤيةٍ. كانوا في سباتٍ فهبّوا مستيقظين، منتصبين، يضجّون إقدامًا واندفاعًا. كانوا غارقين في لجّة حزنهم وقنوطهم، فإذا بهم في حومة الكفاح لا يهاودون.

الفصح أقنع التلاميذ أنّ الصليب لم يكن نهايةً، بل كان فجر تاريخ العالم.

لقد كانت القيامة مدخل تاريخ المسيحيّة، وعلّة استمراره. القبر المختوم بدا تأكيدًا لانتصار أعداء يسوع، ولفشل مغامرته. أمّا القبر المشرع، والحجر المدحرج، فهما دليل انتصار الله، وديمومة رسالته. الحجر المدحرج كان يحمل توقيع الله، وعمل القدرة الخالقة التي تُخرج الحياة من الموت، وكان تصديقًا لكلّ تعاليم يسوع. فبمعزلٍ عن الإيمان بالقيامة، لا مكان للإنجيل.

لقد حجّ الشاعر الفرنسيّ الكبير «لامرتين» إلى الأراضي المقدّسة، وجثا مصلّيًا أمام قبر المخلّص، ومن وحي صلاته كتب:

«هذا القبر هو منطلق فكرةٍ جدّدت الكون، وحضارةٍ حوّلت كلّ شيءٍ، وكلمةٍ دوّت فوق البسيطة كلّها. هذا القبر هو لحد العالم القديم، ومهد عالمٍ جديدٍ. ما من حجرٍ، في هذه الدنيا، كان أساسًا لصرحٍ بهذه الفخامة، وما من قبرٍ يحاكيه خصبًا؛ وما من تعليمٍ دُفن ثلاثة أيّامٍ أو ثلاثة قرونٍ، حطّم تحطيمًا منتصرًا، مثل انتصاره، الصخرة التي دُحرجت فوقه، وخُتمتْ، وأخزى الموت مثلما هو أخزاه، بقيامةٍ على هذا القدر من الروعة والدينونة».

لطالما شُوِّه الصليب، وصُوِّر كأنّه رمزٌ للاستسلام، ودعوةٌ إلى الرضوخ للقَدَر. ولكن يتعذّر التحديق إلى الناهض من الموت من غير أن يُرى في المصلوب ذلك الحيّ المذهل الذي جاء كي يضرم على الأرض نارًا. فليس الصليب رمزًا للسلبيّة أمام البشر، وأمام الحياة، وأمام الله، بل هو تذكيرٌ بالوجود المزلزل الذي خاضه أكثر كائنٍ حيويّةً ممّن ساروا على أديم أرضنا.

الطريق الحقّ نحو معرفة الله والحياة الأبديّة هو إنسانٌ قادته حياته المليئة بالاستفزاز إلى الموت، ولكنّه حطّم الموت. وستظلّ حياته وموته درب مجدٍ وقيامةٍ.

طيلة أربعين يومًا، بعد قيامته، ما انفكّ يسوع يظهر للتلاميذ كي يشدّد إيمانهم، ويرشدهم إلى دروب رسالتهم. جسد القائم من الموت ما زال محتفظًا بآثار جراحه، ولكنّه بات يملك طاقات الألوهة، فيتراءى ويتوارى متى شاء، يجتاز المسافات، ويخترق الحواجز تلقائيًّا، أخفّ وأقوى من النور. شخصه احتفظ برقّته، ورهافته، ومودّته، ولكنّه اكتسى طابعًا أكثر أُلوهةً وجلالاً.

وهكذا من موقف اليأس والإحباط الذي وقفوه إثر صلب المعلّم، والذي عبّر عنه تلميذا عمّاوس خير تعبيرٍ، انتقلوا إلى موقف ثقةٍ. ومن الانهيار انتقلوا إلى ديناميّةٍ جريئةٍ دفعتهم على دروب العالم، وإلى مناقع الاستشهاد. وما كان ليتمّ لهم ذلك، لو لم يكونوا شهودًا على القيامة، ولولا ظهورات يسوع لهم، نوبةً إثر نوبةٍ، وتكليفهم بنشر البشرى، وبالشهادة لما رأوا وسمعوا.

كان إيمان التلاميذ بحاجةٍ إلى دعمٍ، وقد وفّرته القيامة التي كانت الدليل القاطع على صدق كلّ ما علّم. لم يعلّمهم يسوع أيّ جديدٍ بعد قيامته، غير أنّ ما علّمهم إيّاه من قبل، قد تجلّى تحت نورٍ قشيبٍ. لقد لمسوا بأيديهم عطف الربّ، فمع تشبّثهم وشكّهم، في أعقاب القبض عليه وصلبه، وخشيتهم من أن ينالهم ما نال معلّمهم من مصيرٍ، سعى الربّ في إثرهم، كما يسعى الراعي وراء الخراف الضالّة، واستعادهم، وأطلقهم على دربٍ جديدٍ من الإيمان الراسخ، الراسي على واقعٍ ملموسٍ. لقد أتاح لهم اكتشاف حقيقته، والتشبّث بها...

لقد أدركوا، أخيرًا، أنّ يسوع والآب واحدٌ، وأنّ الصليب لم يكن نهاية شوط الناصريّ، فحياته مستمرَّةٌ، وهو حيٌّ باقٍ.

لقد تبيّنوا أنّ قضيّة يسوع غنيّةٌ بالوعود، بل تجلّت لهم القضيّة الوحيدة الزاخرةَ بالوعود، وراحوا يجهرون بها، بلا خوفٍ ولا وجلٍ، متأهّبين لأوخم العواقب شهادةً لها. قيامته دعّمت كلّ رجاءٍ وضعوه فيه.

انتعشت فيهم ذكريات ما خبروه مع يسوع، ولم يعد القبر يقلقهم. وانطلقوا، بحماسٍ، يبشّرون العالم بالملكوت، مثلما هو فعل، في ما يتخطّى أورشليم، واليهوديّة، والجليل، والسامرة، في كلّ بقعةٍ من العالم المسكون. وما عاد بوسعهم إمساك الإعلان عمّا رأوه وسمعوه، عن إلهٍ عاش معهم، وأكّد كلّ ما علّمهم إيّاه بمثال حياته، وبمثال موته.

لو لم يقم يسوع لكان اللحد الذي أُودع فيه، لا قبر جسده فحسب، بل قبر إنجيله وتعليمه، أيضًا. لذلك حرص الربّ على أن يتأكّد تلاميذه، حسّيًّا، من قيامته التي طالما أنبأ بها قبل صلبه، كي يقوم إيمانهم على صخر اليقين المنيع، وكي تستند شهادتهم على واقعٍ معجزٍ لمسوه بأيديهم، وشاهدوه بعيونهم.

لو لم يتثبّت التلاميذ من قيامة الربّ، لما شهدوا لها، ولما دمغوا شهادتهم بدمائهم، ولما آمن ملايين البشر بيسوع إلهًا ومخلّصًا. وهذا ما أوجزه الرسول بولس بقوله الشهير: «**إن كان المسيح لم يقُمْ، فكرازتنا باطلةٌ، وإيمانكم، أيضًا باطلٌ**» (١ كور ١٥ : ١٤).

لم يؤمن التلاميذ بالقيامة فحسب، بل عاينوها، ولمسوها، وعاشوا واقعها. وهذا ما يفسّر تحوّلهم من شرذمة رعاديد هاربين، إلى أبطالٍ وشهداء، موقنين بقضيّةٍ يستحيل قهرها.

وكان وقع القيامة على زعيم الرسل، بطرس، من شدّة الأَسر، بحيث كان لا يني يردّد القول: «**ذاك الذي أنتم صلبتموه، وأمتُّموه، قد أقامهُ الله، ونحن رأينا تلك القيامة**». تلك كانت شهادته، ومحرّك إيمانه، ونور حياته الجديدة، ورسالته.

وقد جاء في رسالته الأولى (١ : ٣): «**تبارك الله، أبو ربّنا يسوع المسيح، الذي على حسب رحمته الكثيرة، ولدنا ثانيةً بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات، لرجاءٍ حيٍّ**».

وقد أمسى اسم يسوع وتعاليمه، في أعقاب موته وقيامته، أشدّ خطرًا من شخصه، في حياته. لذلك جهد رؤساء الكهنة في إلزام بطرس ويوحنّا بالصمت حول كلّ ما يتعلّق بالناصريّ.

* *

لم تفجّر القيامة نبع زخمٍ وإيمانٍ وشجاعةٍ، في نفوس التلاميذ فحسب، بل أيضًا في نفس كلّ مؤمنٍ. فعندما دُحرج الحجر عن قبر يسوع ارتجّ سجن البشر أجمعين، من أُسسه، وأُشرع فيه شرخٌ من الاتّساع والعمق، بحيث لم يعد من الممكن رأبه.

وقد كتب روجيه غارودي: «قيامة يسوع هي تحقيق المستحيل، وقد أُشرع بها التاريخ على كلّ ممكنٍ».

لم تكن القيامة انتصارًا على الصليب، بل كانت انتصار الصليب. وقد انتصر الصليب لأنّه أحدث ثغرةً في سجن إرادة العظمة الأنانيّة، فالقيامة الحقّة هي الإيمان الراسخ بانّ الأنا الجوهريّ هو الله فينا.

ما حدث ليسوع في القيامة هو ما وعد به الله البشر في القيامة الأخيرة. فبقيامته جعل يسوعُ حدَثَ نهاية الأزمنة ماثلاً أمام ناظرينا. وقد بات بوسعنا أن نتأمّل، في شخص الناهض من الموت، الغاية التي نحن إليها ساعون. ومن خلاله أمسينا متأكّدين أنّ للموت وجهًا آخر، وأنّه منذ الآن، يسفر عن وجودٍ آخر.

فليس الموت هو الذي يحدّد معنى الحياة، بل الحياة هي التي تضفي على الموت معناه. ومعجزة القيامة لم تكن اختراقًا لسنن الطبيعة، بل هي تأكيدٌ لسنّتها العميقة: الحياة هي القيامة، والقيامة هي شأنٌ يوميٌّ.

القيامة، في ذاتها، خارقةٌ فذّةٌ، ولكنّها، عندما نعتبرها قيامةً لأجلنا، قيامةً لنا، قيامتنا، تصبح عماد إيماننا، ومحور حياتنا.

* *

رأى التلاميذ يسوع يعود من وراء الموت، وهو حدَثٌ لم يتوقّعوه قطّ. وكلّ شيءٍ تبدّد أمام هذا الواقع الذي رسّخ إيمانهم، وجعلهم يعون رسالتهم. بتناوب حضوره وغيابه علّمهم أن يؤمنوا بوجوده، رغم غيابه المادّيّ، وهكذا عقدوا مع الناهض من الموت وحدةً لا تنفصم، جدّدت العالم. طلب منهم أن يشهدوا، وبشهادتهم غدوا أساطين إيماننا.

لم يحاول أحدٌ من التلاميذ أن يفسّر كيف تمّت القيامة، لأنّهم لم يشهدوا الحَدَث. وهم إنّما اقتصروا على الشهادة بما شهدوا وسمعوا. وما وصفهم البريء لما انتابهم من رعبٍ، ولما تنازعهم من شكوكٍ وريَبٍ لا تشرّفهم، سوى الدليل على صدقهم وبراءتهم. فهم حيالَ حدَثٍ يتخطّاهم ويتخطّانا. وقد شرعوا يعقدون مع يسوع الناهض من الموت علاقةً من نمطٍ جديدٍ، تعلّموها شيئًا فشيئًا، ولقّنونا إيّاها.

* *

صيحة توما: «**ربّي وإلهي**». هي التي نضجت في قلوب التلاميذ، خلال الأربعين يومًا التي دأب فيها يسوع على الظهور لهم بجسده البشريّ، يثبت لهم

بشريّته بمقاسمتهم الطعام، ثمّ يتوارى تواري الروح. وهكذا تيقّنوا أنّه ليس مجرّد زعيمٍ، صانع عجائب، ونبيٍّ أعظم من الآخرين، ومسيحٍ، بل أنّه اللّه عينه، إلهٌ يضع نفسه بمتناول أيديهم، ويعتقهم من كلّ ما عهدوه، في الأيّام الأخيرة، من فاجعةٍ، وانهيارٍ، وقنوطٍ.

ومن المحقّق أنّه لم يعهد أحدٌ، قطّ، حتّى بين الأنبياء، مثل هذه العلاقة المباشرة، الحميمة، مع اللّه.

ولكنّه لم يفعل ذلك من أجلهم فحسب، بل وسّع آفاقهم، وجعلهم يدركون أبعاد الأحداث التي عاشوها مدركين أنّها شاملةٌ في الزمان والمكان، وتخصّ الجنس البشريّ بأكمله. فمن أجل جميع أجيال البشر صُلب يسوع، ومات، وقام. وابتغى من تلاميذه أن يكونوا له شهودًا إلى جميع الأمم.

كان قد أتمّ مهمّته، وصالح الكون مع اللّه، وأسّس ملكوت أبيه، وأَشرع للجميع باب الحياة الأبديّة.

كان الحبّة التي دُفنت، ونبتت، وأينعت، وغدت باكورة حصادٍ وفيرٍ.

وأصبح الصليب، وهو رمز التضحية القصوى وواقعها، رمزًا للخلاص، وواقعه. فبالصليب، وفي غاية حياته الأرضيّة، حوّل يسوع ألم الموت إلى فرح القيامة، مثلما استهلّ حياته العلنيّة بتحويله الماء خمرًا. إنّ قيامة يسوع هي إعلان ولادة الإنسان.

لم يكن الفصح مجرّد الفرح برؤية يسوع حيًّا من جديدٍ، بل، أيضًا، فرح الانتصار على قوى الظلام، وضمان غلبة حقيقة اللّه، نهائيًّا، وغلبة الخير الذي تجسّد في يسوع الناصريّ. الفصح لم يعلن فقط خلود النفس، بل أكّد تخطّي الموت، والظلمات، والفساد.

خُيّل لرؤساء اليهود أنّهم، بقتلهم يسوع، يقتلون الشجرة قبل أن تؤتي أُكُلها، وغاب عنهم أنّها ضربت جذورًا أنبتت غابةً من الشهود.

عندما باشر بطرس تبشيره لم يتلُ عظة الجبل والتطويبات بل أعلن: «**إنّ يسوع الناصريّ الذي صلبتموه، أنتم، قد أقامه اللّه، ونحن جميعًا شهودٌ بذلك... وقد جعله اللّه ربًّا ومسيحًا**». وما هزّ الأجيال المسيحيّة الأولى ليس الأخلاقيّات المسيحيّة، بل شهادة التلاميذ: «**إنّه حيٌّ، وقد رأيناه بعيوننا**».

إنّ الإنجيل بأكمله يقوم على هذه الشهادة: المسيح حيٌّ، يسوع قام، وما تاريخ المسيحيّة سوى سلسلة لقاءات بشرٍ بيسوع. وما القدّيسون سوى شهودٍ يعلنون أنّ يسوع لم يمت، وأنّه ما زال فاعلاً في العالم.

موت يسوع وقيامته غيّرا مجرى التاريخ. فهما إشعاع طاقة الملكوت الذي أعيد إلى البشر، فبات بوسعهم، وبمقدار وفائهم لشخص يسوع، استعادة السلام والانسجام الداخليَّيْن، حتّى آخر الأزمان.

ليس الإيمان بيسوع إيمانًا بأعظم إنسانٍ عرفه التاريخ، بل بإنسانٍ إلهٍ ما زال حيًّا بين ظهرانينا. قيامته هي الانتصار النهائيّ على الموت. وقد جعلت منه الإنسان الأوّل الذي قهر الموت، وأصبح الحيّ الأمثل لدهر الدهور.

حدود التاريخ هي الموت، وبقهره الموت فجّر يسوع حدود التاريخ.

القيامة هي بذرةٌ تحوّل العالم وترقى به، إنّها تحوّل، في داخلنا، القلقَ إلى ثقةٍ، وتجعل منّا مخلوقين خلاّقين، مدعوّين إلى إثبات أنّ لا وجود للعدم.

بقيامته اختطّ لنا يسوع دروب حياةٍ ممزوجةٍ بالأبديّة، منذ الآن وإلى الأبد، وأصبح حاضرًا في مصير كلّ فردٍ.

إنّ وجه القائم من الموت هو أجمل وجهٍ بشريٍّ، منه يسيل نورٌ قشيبٌ على كلّ شيءٍ، وجوٌّ ينعكس فيه الجمال الأوّل، جمال الخليقة التي انبعثت بكلمة الخالق.

إنّ يسوع الناهض من الموت هو أكثر من يسوع الناصريّ العائد إلى الحياة. إنّه الربّ الممجّد في كلّ أبعاده الروحيّة والجسديّة.

الصلب والقيامة حقّقا الفداء، وأثبتا أنّ الحبّ أقوى من الخطيئة، وأنّ الصليب، أداة الموت، صار، من أجلنا، علامة الحياة، لأنّ الحبّ ينتصر على الموت.

كان الصليب انتصارًا لأنّه ذروة التضامن الحقّ، والبذل البطوليّ، لأنّ من مات عليه لم يستسلم لقدرٍ أعمى، بل إنّه، في إنكارٍ تامٍّ لذاته، كافح حتّى النهاية، كي يحرّر جميع البشر من كلّ استعبادٍ داخليٍّ أو خارجيٍّ، وقد وهب حياته كي يهبنا الحياة. ومنذئذٍ بات، وحده، مصدر حياةٍ.

من خلال فراغ القبر أشرقت شمس الخلود. وأصبح حضور الناهض من القبر حضور حبٍّ، وخميرة بشريّةٍ جديدةٍ.

ولا بدّ لكلِّ امرئٍ أن يجتاز الهوّة المعتمة كي ينعم بتألّق القيامة. فقد جعل يسوع من موته دعوةً إلى حياةٍ أُخرى، حياة حبٍّ بلا حدودٍ.

على ضوء القيامة أعاد التلاميذ قراءة حياة يسوع وتعليمه، وبشّروا بالإنجيل شفويًّا، بادئ الأمر، ثمّ كتابةً، فلولا القيامة لما انتشر الإنجيل، فهي القاعدة، وحجر الزاوية للملكوت الجديد.

قيامة يسوع ليست عودةً إلى الحياة ذاتها، بعد انقطاع بضعة أيّامٍ، ولا انتصارًا مؤقّتًا على الموت، بل هي ولادةٌ مباغتةٌ، غير متوقّعةٍ، تحدث بنعمة الآب، وقوّة الروح القدس، لبعث عالَمٍ مدعوٍّ لدفع الحياة إلى كمالها.

قيامة يسوع تضفي على مفهوم «الحياة» كثافةً بلا حدودٍ. فهي ليست تجديدًا لما كان، بل هي بذرة عالمٍ جديدٍ جذريًّا، ولا سلطان للموت عليه. إنّها نشيد حياةٍ يتفجّر من القائم من الموت تفجّر الماء من النبع. والفصح هو ظهور الحياة وتجلّيها وتألّق وعودها.

في ذلك الإنسان الذي أُهين، وصُلِبَ، وقام، وضع اللّه، إلى الأبد، حجر زاوية الخليقة الجديدة. وقد انتزع هذا الواقع، من صدر بولس وعقله، هتافاتٍ وتأكيداتٍ توشّي معظم رسائله، وأوحى لـه، خاصّةً، في رسالته إلى الفيليبيّين، نبراتٍ ما برحت، حتّى اليوم، تنبض ببلاغةٍ وكثافةٍ تهزّاننا:

«هُو القائمُ في صُورة اللّه
لم يعْتَدَّ مساواته للّه (حالةً) مُختلَسةً؛
بل لاشى ذاتهُ، آخذًا صورة عبدٍ،
صائرًا شبيهًا بالبشر، فوُجد كإنسانٍ في الهيئة.
ووضع نفسه، وصارَ طائعًا حتّى الموت، (بل) موت الصَّليب!
ولذلك رفعه اللّه (رفعةً فائقةً)
وأنعم عليه بالاسم الذي يفوق كلّ اسمٍ،
لكي تجثو لاسم يسوع،
كلُّ رُكبةٍ مِمّا في السماوات، وعلى الأرض، وتحت الأرض؛

ويعترف كلُّ لسانٍ
بأنّ يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب» (فيلبّي ٢: ٦-١١).

* *

إنّ أسوأ ما قد يستطيع الشرّ فعله ليس الحروب وعواقبها المأسويّة، بل محاولة قتل الله، وهذا ما حاول اليهود فعله من خلال صلب يسوع. ولكنّ القيامة هزمت الشرّ، الذي قد يربح بعض معارك، ولكنّه سيعجز عن كسب حرب الصليب عليه. فقد حطّم المصلوبُ قيودَ الموت، وأثبت أنّ الحقيقة، وإن دُفنت، ستنهض متجلّيةً.

لو لم يقم يسوع من القبر، لأثبت، مثل سواه من عمالقة الروح، أنّ مكافأة الفضيلة هي، غالبًا، الهوان والاضطهاد، وأنّ أسمى خيرٍ عاجزٌ حيال مكر البشر.

ولكنْ، بما أنّ الأعزل حارب بأسلحة العطف والصفح، وبما أنّ التضحية انتصرت، فأيّ مسوّغٍ، بعدُ، للقنوط؟ وكيف يفقد الرجاءَ من يلمح، وسط الظلمات المحيقة، المخلّص الناهض من الموت، وقد تألّقت بالمجد آثار جروح يديه، وقدميه، وجنبه؟

ما علّمنا الربّ هو أنّ الحياة كفاحٌ، وأنّه إن لم يكن في حياتنا صليبٌ، فستظلّ قبورنا مغلقةً؟ وإن لم نكلّل بالشوك، فلن تحيق بجباهنا هالة النور؛ وإن لم نحيَ الجمعة الحزينة، فلن نشهد أحد الفصح. لم تضمن لنا القيامة الخلاص من الآلام الجسديّة بل وقتنا من الخطيئة التي تقتل النفس.

لقّن يسوع رسله ولقّننا أن نواجه أرزاء الحياة بجرأةٍ وسكينةٍ، وأن نحوّلها إلى مغانم للحياة الروحيّة. صليب يسوع طرح تساؤلات الحياة، والقيامةُ قدّمت عليها الأجوبة. وكما قال الشاعر (إدوارد شيليتو): «ليس الآلهة المزيّفون، الخالون من الألم والحزن، هم الذين يوفّرون لنا العزاء. بل وحدها جراح إلهٍ تستطيع محادثة جراحنا. وما من إلهٍ سواك، يا يسوع، يحمل جراحًا». على الصليب، استعادت الطبيعة البشريّة الكرامةَ التي كانت قد فقدتها.

* *

وبقي على يسوع أن يكرّس، على رأس كنيسته الوليدة، راعيًا يمثّله.

ظُهُورٌ في الجَليل(*)

كان يسوع قد ضرب لتلاميذه موعدًا في الجليل. ففي تلك البقعة المخضلّة، الساكنة، العابقة بأريج أحلى ذكرياته معهم، بعيدًا عن جوّ التزمّت الفرّيسيّ، والنظرة اليهوديّة الضيّقة، أراد المعلّم أن يغيّر عقليّاتهم التي أعماها علماء الشريعة، ويكشف لهم المعنى الحقّ لملكوت الله. وطاب لأولئك الجليليّين أن يعودوا إلى مرابع صباهم، وإلى حيث بدأت مغامرةٌ خاضوها مع الربّ، وامتدّت نحو ثلاث سنواتٍ. وجدوا كلّ شيء على ما عهدوه، وكأنّ مغامرتهم لم تكن سوى حلمٍ تبخّر. لا ريب أنّها كانت مغامرةً أخّاذةً. ولكنّ كلّ شيءٍ، هنا، كان يدعو إلى النسيان، وإلى استعادة ما طالما عهدوه وعاشوه. ولكأنّ يسوع، قبل أن يقتلعهم، نهائيًّا، من بيئتهم، وعاداتهم، آثر أن يدعهم يواجهون تجربة الحياة اليوميّة الساكنة، وانتهاج الدروب التي عبّدتها الأجيال، والأمان المادّيّ الهشّ، وطيب العيش الهادئ على ذلك الشاطئ الأليف.

عاد، إذن، التلاميذ، إلى كفرناحوم، حيث تذوّقوا الطمأنينة، بعيدًا عن جوّ الدسيسة والبغض الذي كان يحيق بهم في أورشليم. بين ذويهم انزاحت عنهم غمامة الخوف. ومع أنّ أنباء صلب يسوع كان قد أذاعها الحجّاج الذين أمّوا أورشليم للفصح، دهش معارف التلاميذ وهم يتلمّسون في عيونهم ألَق فرحٍ وطمأنينةٍ.

كلّ شيءٍ في كفرناحوم كان يذكّرهم بالمعلّم، كلّ دربٍ ذرعوه، معه، جيئةً وذهابًا، وكلّ مطرحٍ على الشاطئ افترشوا رماله كي ينتشوا بأقواله. على تلك الهضبة روى لهم مثلاً، وعند ذلك المفترق شفى أسقامًا.

تلك الفسحة كانت لهم استذكارًا لسحر السنوات الثلاث التي فتحت لهم أبواب السماء.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «و أخيرًا بزغ الفجر»، صفحة ٥١٣.

يسوع كان غائبًا، ولكنّهم كانوا واثقين بوعده، ينتظرونه بتوقٍ. ولم يكن ليخطر ببال أحدٍ من أولئك الصيّادين أنّهم سيغدون غزاة العالم الروحيّين، وأنّ شباكهم ستمتلئ، حيثما رموها، بنعمة المعلّم وكلمته.

عقب أيّام الغمّ والقلق التي أعقبتها أيّام فرحٍ غامرٍ، لم يجد التلاميذ بدًّا من العودة إلى اهتماماتهم المألوفة. كان المعلّم قد أولاهم سلطانًا على النفوس. ولكنّه لم يعطِهم إشارة الانطلاق. وقد وافوا الجليل ينتظرون إيعازه.

وسرعان ما استحوذ عليهم وقع الحياة اليوميّة الرتيبة، فقد كانوا وحيدين ساكنين، عاطلين عن أيّ عملٍ. وذات مساءٍ، ضاق بطرس ذرعًا بالانتظار والبطالة، وشدّه الحنين إلى مهنة حياته، وأعلن لرفاقه: «**أنا ماضٍ للصيد**». وهتف جميعهم: «**ونحن ماضون معك**». وها نحن نرى، ثانيةً، إلى جانب بطرس، ابنَيْ زبدى، وتوما، ونثنائيل، وأندراوس، وفيليبّس. سادت البهجة، واستيقظت الهمم، وانهمك الجميع في الإعداد لرحلة الصيد. وما إن هبط الليل حتّى ركبوا متن البحيرة، حيث كان يسود الصمت، ولا يُسمع سوى وقع المجاديف الرتيب، وبين فينةٍ وأُخرى، صدى إلقاء الشباك وجرّها.

صيد الليل الجماعيّ يمكّن من استخدام الشباك العريضة، ويوفّر مزيدًا من الحظوظ. ولكنّ حظّ التلاميذ، في تلك الليلة، كان غائبًا، فلم يصيبوا شيئًا وعادوا إلى الضفّة خائبين. وابتأس بطرس، ولكأنّ المهنة التي عشقها منذ صباه قد خانته. وكانت العودة أشدّ وجومًا، وأعمق صمتًا. ولمّا صاروا على بعد نحو مئة مترٍ، لمحوا، على اليابسة، طيفًا يلفّه غمام الصباح، لم يميّزوه. وربّما ظنّوه بائعًا ينتظرهم لشراء غلّتهم من السمك. ولمّا دنوا ناداهم: «**هيّا فتيان، لعلّ معكم شيئًا من الإدام**». وشقّ عليهم فضح فشلهم، فاكتفوا بـ «**لا**» جافّةٍ، حاسمةٍ. غير أنّ الرجل المحاق بالغمام، عاد فصاح باتّجاههم: «**ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن، فتجدوا**».

من هو هذا المجهول الذي يدلي بنصائحه بثقة؟ هل هو يتكلّم جزافًا أم عن خبرةٍ؟ ولطالما خَبَر صيّادون متمرّسون أنّ إشاراتٍ ضئيلةً قد تسفر عن نتائج مدهشةٍ. وربّما كان هذا الغريب قد شاهد، من الشاطئ، إحدى تلك الإشارات. وعلى أيّة حالٍ، لا ضير من محاولةٍ أخيرةٍ، بعد عشرات المحاولات العقيمة، وألقوا الشبكة حيث أشار الرجل المجهول، وإذ بهم لا يقوون على جذبها لكثرة ما التقطت من أسماكٍ.

هذه المفاجأة أيقظت ذكرياتٍ غافيةً في صدور أولئك الصيّادين. وعقب لحظات ريبةٍ مرتعدةٍ، تفرَّس يوحنّا في الرجل القابع على الشاطئ، وأكّد له حدْس الحبّ هويّته، فقفز إلى جانب بطرس، وهتف، مشيرًا بسبّابته إلى الغريب: «**إنّه الربّ**». وحيئنذٍ اتّضح كلّ شيءٍ. حدْس يوحنّا لا يخطئ لأنّه نابعٌ من قلبٍ يغمره نور السماء، ويقطنه حبّ الله وكلمته.

بطرس، أيضًا، كان يراوده حَدْسٌ مماثلٌ، وقد تبيّن، في ما حدث، توقيع الربّ. ولم يُطق ذلك المتوثّب اندفاعًا على الصبر احتمالاً، فاتّزر بقميصه، لأنّه كان عاريًا، شأن الصيّادين، وقفز إلى اللجّة، وسبح بكلّ طاقته. وفي غضون لحظاتٍ، جثا عند أقدام المعلّم، مقرورًا، خجلاً، فرحًا، معقود اللسان من التأثّر، فيما كان الآخرون يجرّون، بجهدٍ وبطءٍ، حمولتهم الثقيلة.

في تلك الأثناء، كان الربّ، في رقّته السامية، قد أعدّ جمرًا، وخبزًا ساخنًا، وشرع يشوي بعض سمكٍ، كي يقدّم لأحبابه إفطارًا.

لقد كان سحر الحبّ، في ذلك اللقاء، آسرًا، عَقَدَ ألسنة التلاميذ. قسمات الربّ كانت قد اكتسبت جلالاً أبديًّا، فائقًا للطبيعة. وإن هو كان، قبل صلبه، يوحي بمشاعر الاحترام، فقد بلغ هذا الإيحاء، بعد قيامته، من الحدّة والسموّ، ما جعلهم يقفون منه موقف التجلّة والخشوع. وحدها الحركات الخجلة، والكلمات الموغلة في البساطة، كانت تعبّر عن عنف الفرح الداخليّ. كلٌّ منهم كان يسمع خفقان قلبه، ويصمت.

في ضوء ذلك الصبح الوليد حرص يسوع على حجب مجده. فهو يأبى أن يصدم أحبّاءه، أو أن يخيفهم. أيّ إنسانٍ عذبٍ كان! إنّ البَوْن بين جلاله المنتصر على الخطيئة والموت، ووضاعة مظهره وخدمته، يبعث تأثيرًا من الرقّة والحدّة، بحيث يتصاعد ماء القلب إلى المآقي، ويحفر في كلّ قلبٍ جرحًا بليغًا، عذبًا.

تساؤلاتٌ كثيرةٌ كانت تراود أذهان التلاميذ، ويتمنّون استيضاح يسوع عنها: كيف نهض من القبر؟ أين كان خلال الأيّام الماضية؟ كيف صار إلى ههنا؟ أين يقيم عندما لا يكون معهم؟ ولكنّ الرهبة أمسكت ألسنتهم عن السؤال. غير أنّ فرحًا سماويًّا كان يزغرد في قلوبهم.

وكان يسوع هو من كسر جدار الصمت، بقوله: «**هاتوا من السمك الذي اصطدتموه الآن**».

حينئذٍ صعد بطرس إلى السفينة، وجرّ الشبكة إلى البرّ، وبسط محتواها على رمل الشاطئ، فإذ بعدد السمك الكبير مئةٌ وثلاثٌ وخمسون. دهش التلاميذ كيف لم تغرق السفينة مع كلّ هذا الصيد الوفير. ولكنّهم سيشهدون العديد من عمليّات صيدٍ، أكثر إدهاشًا، سيتّسع لها صدر الكنيسة.

وبعد أن شوى يسوع بعضًا منها قال لهم: «**هلمّوا تغدّوا**». ولكي يزيل ارتباكهم أخذ يوزّع عليهم بيديه الخبز والسمك. كانوا ما برحوا تحت تأثير الرهبة، غير أنّ ذلك لم يمنعهم من تذوّق إفطارٍ شهيٍّ. في تلك اللحظات، لم يكن يسوع راغبًا في تعليمهم، فهذا التعليم سيكمله الروح القدس في حينه. بل كان توّاقًا إلى إيداع آخر ذكريات صداقته ومحبّته للذين اختارهم من أجل نشر رسالته، فدعاهم، أوّلاً، إلى الطعام، كي يؤكّد لهم أنّه، حتّى بعد تمجيده، ما انفكّ لهم الأب، والمعلّم، والصديق المعنيّ بهم.

وبعد أن تغدّوا واستجمّوا، وفرحت قلوبهم، عكف يسوع على توطيد أسس كنيسته، في شخص رئيسها. صحيحٌ أنّ بطرس كان قد أنكر المعلّم، ولكنّه كان أوّل من ظهر له المخلّص، من التلاميذ، ولم يخطر له أن يعاتبه، بل طاب له أن يُظهر للجميع أنّ صفحة الوهن الذي تردّى إليه، قد طُويت، ونُسيت، بعد أن أكسبت حبَّ بطرس للمعلّم حرارةً منقطعة النظير.

استهلّ يسوع محاورته لبطرس بسؤاله: «**سمعانُ بن يوحنّا، أتحبّني أكثر من هؤلاء؟**».

بتسميته «**سمعان بن يوحنّا**»، بدا يسوع وكأنّه يخاطب الرجل الذي لم يختره بعد، ولم يُسبل عليه اسم «**صخر**» للدلالة على المهمّة التي انتدبه لها. ولكأنّه يبدأ علاقته معه من الصفر، علاقةً جديدةً منزّهةً من كلّ لوثةٍ. وكان السؤال محرجًا لبطرس، ولا ريب أنّه ذكّره باعتداده السابق عندما أكّد للمعلّم أنّه لو تخلّى عنه الجميع، فهو معه حتّى الموت، وإذا به ينكره أجبن إنكار أمام خادمة قيافا! ولذلك لم يجرؤ على الاعتداد ثانيةً، واكتفى بالقول، بصدقٍ، وندمٍ على إنكاره السابق: «**نعم، يا ربّ، أنت تعلم أنّي أحبّك**». فقال له يسوع: «**ارعَ حملاني**».

الحبّ الذي استوضح يسوع بطرس عنه هو الحبّ الواعي، الواثق، الراسخ، العاقل، الذي تلهمه إرادةٌ واعيةٌ. ولئن سأله هل يحبّه أكثر من الجميع فلأنّه سيوكل إليه زعامتهم من بعد، والزعامة مسؤوليّةٌ كبرى تقتضي حبًّا جمًّا. وعندما أكّد بطرس حبّه، كان يعي كلّ ذلك.

وكرّر يسوع سؤاله، بعد أن جرّده من المقارنة مع حبّ الآخرين، التي كانت قد أربكت بطرس، في النوبة الأولى، فلم يتردّد زعيم الرسل في تأكيد حبّه. فقال له الربّ: «**ارعَ خرافي**».

ولكأنّ يسوع لم يقنع بتأكيدَيْن، فسأل للمرَّة الثالثة: «**سمعان بن يوحنّا، أتحبّني؟**» فحزنَ بطرس، إذ بدا له أنّ المعلّم ما برح غير مصدّقٍ حبّه له، أو أنّه ما زال يذكر سقوطه، فأثقله الغمّ، مثلما كانت نظرة يسوع الحزينة، في قصر قيافا، قد هصرت قلبه. فاستشهد بمعرفة يسوع الإلهيّة، التي لا يخفى عنها شيءٌ، وبقدرته الفائقة على سبر الكلى والقلوب، والكفيلة بتأكيد صدق حبّه وعمقه، وثباته. حينئذٍ قال له الربّ: «**ارعَ نعاجي**».

تأكيد حبٍّ ثلاثيٌّ محا خزيَ إنكارٍ ثلاثيٍّ، وبفضل هذا التأكيد أوكل يسوع إلى بطرس رعاية حملانه، وخرافه، ونعاجه، أي القطيع كلّه، من أصغره إلى أكبره، الذي تولّى يسوع رعايته، ومن أجله بذل حياته.

أجل، يسوع يعرف مدى حبّ بطرس، ولكنّه يبتغي سماع تأكيده بلسانه، وإسماعه للآخرين، تبريرًا للكرامة السامية التي سيوليه إيّاها. فهو ينتدبه، بصفة ممثّلٍ له على الأرض، لرعاية كلّ قطيعه، ولقيادته إلى المراعي المنعشة، وثنيه عن المراعي المسمومة. لم يتردّد الراعي الصالح في إيكال رعاية قطيعه لمن أنكره ثلاثًا، في لحظات وهنٍ.

كان بطرس قد انحدر دركةً فدركةً سلّم الهوان، فواكبه المخلّص، درجةً فدرجةً، في صعوده، وتأكيد أهليّته للمهمّة التي انتدبه لها.

كان قد تردّى عميقًا، وكبا كبوةً مخزيةً، ثمّ ندم ندمًا صادقًا، وأفاد من وهنه عبرةً، فكان الأوفر أهليّةً لمؤاساة الضعفاء ونصرتهم.

من قبلُ، كان بطرس يؤكّد استعداده لبذل حياته من أجل يسوع، ولكنّه أنكره

عند المحنة الأولى. غير أنّه بكى، وتاب، وحينئذٍ أصبح جديرًا بحمل المهمّة. لم يكن يسوع بحاجةٍ إلى حياة بطرس، أو إلى قوّته. بل كان ينشد حبّه: «**أتحبّني، أتحبّني حقًّا، يا بطرس؟**».

كان حبّ بطرس، قبل إنكاره المعلّم، يتّسم بالاستقلال والغرور، فرأى إلى أين قاده ذلك الحبّ. ولكنّه بعد كبوته، تخلّى عن استقلاله وادّعائه واقتنع بأنّ عبوديّة يسوع، وحدها، مقبولةٌ، بل لا غنى عنها، وأنّها عذبةٌ وفريدةٌ. ومنذئذٍ لم يعد يتنفّس إلاّ حبًّا بالمعلّم، وغدا يجد كلّ متعته في الذوبان فيه، والاندماج في خضمّه.

لقد أدرك بطرس، أخيرًا، أنّه لن يحبّ إلاّ بقدر ما يدع الحبّ يستولي عليه.

أكّد يسوع على حبّ بطرس، لأنّه كان يبتغي حبًّا لا يخشى التضحية الكلّيّة، التضحية حتّى الموت. ولم يقتصر على إيلائه سلطةً ساميةً، بل أشركه، أيضًا، في صليبه، ولم يُخفِ عنه المصير الذي ينتظره في نهاية المطاف. وما كاد ينتدبه لرعاية قطيعه، حتّى أنذره: «**الحقّ الحقّ أقول لك إنّك إذ كُنتَ شابًّا كنت تُمنطقُ نفسك وتذهبُ حيث تشاء. ولكنّك متى شِختَ ستمُدّ يديك وآخر يمنطقُكَ ويذهب بك حيثُ لا تشاء**». **قال هذا مشيرًا إلى الميتة التي كان بطرسُ مزمِعًا أن يُمجّد الله بها. ثمّ قال له:** «**اتبعني**» (يوحنّا ٢١ : ١٨– ١٩).

قبل صلبه كان يسوع قد قال لبطرس: «**حيث أنا أمضي، لا تستطيع، أنت، الآن، أن تتبعني، ولكنّك ستتبعني، فيما بعد**». وها قد أزفت الساعة، فقال له «**اتبعني**»، أي اقتفِ، في كلّ شيءٍ، خُطاي. أنا تألّمت، وأنت ستتألّم، أنا صُلبتُ، فستصلب. سكبتُ دمي من أجلك، فاسكب دمك من أجلي، ومن أجل إخوتك، ومن أجل قطيعي.

قال له «**اتبعني**»، لأنّه كان واثقًا من أنّه لن ينكره بعد. بطرس الذي حاول، يومًا، صرف يسوع عن فكرة الصليب، كان، من التلاميذ، أوّل من احتمل آلام الصلب. وقد وفّر الصليب الذي عانقه، للمخلّص، من المجد، أكثر ممّا وفّره اندفاع شبابه وغلواؤه. وقد استمدّ صليب بطرس كلّ معناه وقيمته من صليب الجلجلة.

ويوم دوّن يوحنّا، في إنجيله، هذا الحدث، كان بطرس قد استُشهد، منذ سنواتٍ عديدةٍ، في سبيل إيمانه بيسوع، ووفاءً منه للمهمّة التي أُسندت إليه. آخرون كانوا قد قيّدوه، ومضوا به إلى الأمام، لكي يكون النائب جديرًا بالمعلّم.

قال يسوع لبطرس: «**اتبعني**»، ومشى، وتعقّب بطرس خطاه، ولحق به يوحنّا الذي لم يألف الانفصال عنه، فدفع الفضول بطرس إلى الاستفسار عن مصير صديقه، بعد أن أُحيط علمًا بمصيره الخاصّ. فردّ عليه يسوع، في شيءٍ من العتب: «**لو شئت أن يبقى إلى أن أجيء، فماذا يعنيك؟ أمّا أنت فاتبعني، وحَسْبُ**». وبذلك عني يسوع أنّ بطرس سيلقى حتفه قبل دمار أورشليم. أمّا يوحنّا، فسيبقى ردحًا طويلاً، بعد ذلك، كي يشهد نشوء الكنيسة، ويصحّح ما يعتَوِر هذا النشوء من اعوجاجٍ وأخطاءٍ، ويستنبط المعنى العميق لتعليم يسوع، ويشهد لجيلٍ آخر.

يوحنّا الذي دأب، في إنجيله، على إبراز وهج الكلمة المتجسّد، في أثناء حياة يسوع الأرضيّة، قد برع في إضفاء سحرٍ بشريٍّ على القائم من الموت، في جوٍّ من المجد، بحيث لم تشهد ضفاف بحيرة الجليل نورًا أرقّ وأصفى من ذلك النور. لقد بات يسوع قادرًا على إعلان ألوهته، ومنشئه السماويّ بلا حرجٍ. ولكنّه غدا، في الآن عينه، الأب الذي يلتقي أبناءه بفرحٍ، والمعلّم المتسامح الذي لا يتذكّر إلاّ لكي يغفر، والصديق الذي يحيا ذكريات رحلات الصيد القديمة، والنجاوى الحميمة النابعة من وفاءٍ متبادلٍ، يتعذّر النيل منه.

يوحنّا الذي رأى فيه البعض منافسًا لبطرس، وضع على جبين أخيه الأكبر هالةً صاغها من أشعّة مجد قاهر الموت. وقد اختتم إنجيله، مثلما كان قد استهلّه، بصيدٍ لسمعان، الذي أمسى، وفقًا لوعد يسوع، صيّاد البشر الأكبر، ومعلّم التبشير، وفوق كلّ ذلك، الراعي المميّز، على هذه الأرض، للنعاج التي يرعاها يسوع في الأبديّة.

ومنذئذٍ استهلّت الكنيسة حقبةً جديدةً، ستمتدّ إلى نهاية العالم، وسيتألّف القطيع من جميع الأمم، والأجناس، والأوطان. وجميع الذين سينضمّون إلى هذا القطيع سيكونون ليسوع تلاميذ، مثلما كان التلاميذ المباشرون الذين شاهدوه، وسمعوه، حيًّا. وسيتمّ الانتساب إلى القطيع بالعماد، وبالإيمان باسم الآب، والابن، والروح القدس. وستكون مهمّة التلاميذ الجُدُد التقيّد بكلّ ما دعا إليه يسوع تلاميذه الأوّلين. وسيظلّ يسوع، أبدًا، عونًا للقطيع، وحمايةً، والراعي الأسمى، الذي، على نحوٍ غير مرئيٍّ، ولكن ليس أقلّ جدوى، سيحيا وسط المؤمنين به، وفيهم، حتّى نهاية العالم.

ظهورات أُخرى وصُعُودٌ(*)

وكانت ليسوع ظهوراتٌ كثيرةٌ أُخرى أَلمح إليها بولس في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين (١٥: ٥ – ٧). وأشار القدّيس لوقا، في سفر أعمال الرسل، إلى أنّ يسوع «**أظهر نفسه حيًّا، بكثيرٍ من الأدلّة، فيما كان يتراءى لهم، مدّة أربعين يومًا، ويحدّثهم بشؤونٍ ملكوت الله**». وفي تلك الظهورات كان يتيح لهم أن يروه ويلمسوه، ويقدّم لهم براهين متعدّدةً ودامغةً على حياته الجديدة الممجّدة، ويردّ على كلّ تساؤلاتهم، ويقاسمهم، أحيانًا، الطعام، ولكن لم يكن وجوده معهم متّصلاً، كما كان سالفًا، بل كان يظهر بغتةً، وبغتةً يتوارى. كان يجهد في فتح أذهانهم على فهم إشارات الله، والكتب التي تكلّمت عنه، مؤكّدًا أنّ ما تعرّض له من آلامٍ وصلبٍ، إنّما كان تتميمًا لما قاله فيه الأنبياء.

وكان يشقّ عليه، أحيانًا، تبيّن أنّ مخلّفات الأحلام اليهوديّة ما زالت تراود أذهان بعضهم، الذين، في لحظة تفاؤلٍ وثقةٍ، سألوه: «**أفالآن، يا ربّ، هو الزمان الذي تردّ فيه الملك لإسرائيل؟**». صَدمَ يسوعَ ألاّ يكون تلاميذه قد أدركوا، بعدُ، أنّ ملكوت إسرائيل ليس هو ما جاء من أجله، بل من أجل ملكوتٍ روحيٍّ مشرعٍ على البشر أجمعين. كم كانوا، بعدُ، بعيدين عن رسالة يسوع الحقّة، رسالة الحبّ، والسلام، والانفتاح على العالم كلّه!

لم يناقشهم، بل ترك مهمّة فتح أذهانهم لروحه القدّوس الذي سيحلّه عليهم، ولرسُلٍ سيستنهضهم من صُلب اليهوديّة، والذين بنعمة روحه سيجلون حقيقة رسالته التي تتعدّى شعبًا واحدًا، وتفتح أبوابها لكلّ الأُمم. وسيكون بولس رائد أولئك الرسل.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «تلمذوا جميع الأمم»، صفحة ٥١٩ و«رسالة الصعود»، صفحة ٥٢٧ و«من وحي الصعود»، صفحة ٥٣٠.

وجود الأحد عشر في الجليل، وشهاداتهم عن القيامة، اجتذبت العديد من التلاميذ والإخوة الذين بعثرهم موت يسوع. ويتّضح ممّا ورد في إنجيل متّى، وفي رسائل القدّيس بولس، أنّ الربّ ظهر لهم ظهورًا علنيًّا، على جبلٍ، قد يكون جبل التطويبات، وكان عدد الموجودين، فضلاً عن الأحد عشر، نحو خمس مئةٍ.

ألف عينٍ تالّقت دهشةً وحبورًا، وهي تتأمّل القائم من الموت، ولكن من المؤكّد أنّ يسوع ظهر في بساطةٍ بالغةٍ، غير مهتمّ بإظهار مجده، وتفرّده بقهر الموت، بقوّته الإلهيّة الذاتيّة، وإنّما توخّى التعبير لهم عن حبّه، ومشاركته فرحهم، وتكليفهم بالرسالة التي انتدبهم لها.

لم يظهر بُغية افتتان الجماهير، وإخزاء الخصوم، ولم يأتِ بإعلاناتٍ مدهشةٍ عن العالم الآخر. بل ظهر في صمت الفجر، وهدأة الصباح، وفي عتمة منزلٍ في عمّاوس، وطيفًا على الشاطئ: حضوره متكتّمٌ، ورسالته، أيضًا، متكتّمةٌ، ولكنّها حازمةٌ: ليس للقبر الكلمة الأخيرة، ولا النصر النهائيّ للسلطات الاستبداديّة. وليس موت الصدّيق فشلاً، بل هو ثغرةٌ تُشاهد، من خلالها، الإنسانيّة الحقّة، إنسانيّة اللّه.

يقول الإنجيليّ متّى: «**فلمّا رأوه سجدوا له. ولكنّ بعضهم ارتابوا**». يرجّح أن هؤلاء البعض هم ممّن لم يكونوا قد شهدوا يسوع بعد قيامته. وربّما كانت الترجمة غير دقيقةٍ، وقد ترجم البعض هذا المقطع على هذا النحو التالي: «**لمّا رأوه سجدوا له، مع أنّ بعضهم كانت قد ساورتهم في قيامته شكوكٌ**».

وحينئذٍ دنا من الأحد عشر، لأنّ ما سيبلّغهم إيّاه هو على جانبٍ عظيمٍ من الخطورة، وقال لهم: «**إنّي قد أُعطيتُ كلّ سلطانٍ في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا، إذن، وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب، والابن، والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنذا معكم كلّ الأيّام إلى انقضاء الدهر**».

ليسوع سلطانٌ مطلقٌ سماويٌّ، هو سلطان اللّه نفسه الذي يعود له طبيعيًّا بصفته ابن اللّه، وسلطانٌ أوتيه نتيجة تجسّده، الذي جعل منه وسيط النعمة، والمشرّع الأعلى، والديّان الشامل، في العالم الذي افتداه. وبهذا السلطان فوّض تلاميذه، قبل مغادرته هذا العالم، مؤسّسًا الرسالة اللامحدودة، الشاملة كاللّه نفسه، لأنّ الجميع مدعوّون إلى سماع صوت يسوع، وإلى تأليف ملكوته.

مهمّة التلاميذ هي إذن:

– تبليغ البشريّة تعاليم يسوع ووصاياه.

– العماد، وهو السرّ الأعظم الذي يؤهّل للانضمام إلى الحياة الإلهيّة التي جاء بها إلى الأرض، وغايتها الارتقاء بنا إلى الآب، منبع هذه الحياة الأبديّ الذي لا ينضب، مع الابن وجه الآب الظاهر، الكامل، وفي الروح، وهو قوّة الحبّ التي تحقّق الوحدة بين الآب والابن.

العماد هو تكريس الإنسان لله، باسم الثالوث الأقدس.

– دعوة العالم إلى العمل بوصايا الربّ، وبشريعته الجديدة.

بالتعليم يقود التلاميذ العالم إلى الخلاص، وبالعماد يسِمونه بطابع الإيمان، ويفتحون له باب الملكوت، وبدعوته إلى حفظ وصايا المخلّص يحقّقون مفاعيل العماد والإيمان، اللّذين، بمنأًى عن العمل بوصايا يسوع، يظلاّن عديميْ القيمة.

مهمّةٌ جسيمةٌ بحجم الكون، يعجز عنها تلاميذ يسوع، ويعجز خلفاؤهم على مدى العصور، ما لم يدعمهم الربّ بعونه، وأَزره، وقوّة روحه. وقد تعهّد يسوع بهذا السند: «**ها أنذا معكم كلّ الأيّام إلى انقضاء الدهر**». إنّه إلى جانبهم، كلّ الأيّام، بروحه المحيي، بحضوره السرّيّ، في جسده الصوفيّ الذي يمثّل المؤمنون أعضاءه الحيّة، وبحضوره في الأسرار التي توثّق اتّحاد المسيحيّين في ما بينهم، ومع المخلّص.

هذا التفويض لم يكن محدّدًا بفترة حياة الرسل، إذ إنّه كلّفهم بتبشير الكون كلّه، وهذه المهمّة لن تنتهي حتّى مجيء الربّ الثاني، فعلى التلاميذ، إذن، ألاّ يكتفوا بالتعليم، بل أن يستنهضوا، في كلّ الأمم، وفي كلّ جيلٍ، تلاميذ متناغمين مع قلب الربّ وإرادته.

كان الإنجيليّ متّى قد استهلّ إنجيله بتفسير معنى «**عمّانوئيل**»: «**الله معنا**» وبتأكيد هذا الحضور الإلهيّ أنهى يسوع حياته على الأرض بإعلانه: «**وها أنذا معكم، كلّ الأيّام، إلى انقضاء الدهر**».

لقد لمّ القائم من الموت شمل تلاميذه، وأنهضهم من انهيارهم، وتغلّب على

إحباطهم، وريَبهم، واستولى على أفكارهم، وضمائرهم، وقلوبهم، وأكمل تشديدهم، وسلَّحهم، لكي يتمّموا، على مدى جميع الأجيال، عمل ملكوت الله. وحوّل أولئك الجليليّين، وهيّأهم لكي يصبحوا فاتحي الأرض. وضرب لهم موعدًا أخيرًا في أورشليم. فهجروا، نهائيًّا، الديار التي نشأوا فيها، كي يكونوا بتصرّفه.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لقد أَوجز الإنجيليّون رواية غياب المعلّم عن الأرض، وحدث صعوده، لثقتهم بأنّ حضوره الروحيّ والصوفيّ فيهم لن يقلّ شأنًا عن حضوره المرئيّ، وعونه الدائم. متّى ويوحنّا أغفلا تمامًا رواية الصعود، ومرقس ألمح إليه تلميحًا عابرًا، وكذلك فعل لوقا، ولكنّه كان أكثر إسهابًا في رواية الصعود من خلال سفر «أعمال الرسل»، الذي كان امتدادًا لحياة يسوع عبر رسله وتلاميذه.

كان التلاميذ قد عادوا من الجليل إلى أورشليم، وطيلة أسبوعٍ تكرّرت ظهورات المعلّم لهم وتوصياته. وقد أوعز إليهم ألاّ يبارحوا أورشليم حتّى يحلّ عليهم الروح القدس، ويفهمهم، أخيرًا، حقيقة رسالته التي غابت عن مدارك الكثيرين منهم. وقال لهم: «**إنّ يوحنّا عمّد بالماء، وأمّا أنتم فستعمّدون بالروح القدس، بعد أيّامٍ قليلةٍ. ستنالون قدرة الروح القدس الذي سيأتي عليكم، فتكونون شهودي في أورشليم وفي اليهوديّة كلّها، وفي السامرة، وإلى أقاصي الأرض**».

وفي اليوم الأخير، الأربعين لقيامته، بعد أن تناول معهم الطعام للمرَّة الأخيرة، خرج بهم نحو بيت عنيا، وتوقّف على هضبةٍ مطلَّةٍ على المدينة التي صلبته، وما زالت تحتفظ بقبره الخالي، وتأبى الإيمان بقيامته، ورفع يديه وباركهم، وفيما هو يباركهم، «**رُفع على مرأًى منهم، وأخذته غمامةٌ عن عيونهم. وفيما هم شاخصون بأبصارهم إلى السماء إلى حيثُ هو ذاهبٌ، إذا برجُلَيْنِ بلباسٍ أبيض قد وقفا بهم، وقالا لهم: «أيُّها الرجال الجليليّون، ما بالكم قائمين ههنا تُحدّقون إلى السماء؟ فإنّ يسوع هذا الذي رُفع عنكم إلى السماء سيأتي على النحو الذي عاينتُموهُ عليه وهو مُنطلقٌ إلى السماء**».

صعود يسوع معجزٌ مثل ولادته. صعد من أورشليم، حيث صُلب، لا من الجليل. رفع يديه المثقوبتَيْن، لكي تظلّ آثار الصلب آخر ما يعلق بذاكرة الرسل. وهاتان اليدان ستهميان على الأرض فيضًا من نِعَمٍ وبركاتٍ، فقد توارى وهو يبارك.

عبوره من موقع آلامه في بستان الزيتون لم يُثر فيه كوامن حزنٍ ولا حقدٍ، لأنّ صعوده كان نتيجة صلبه. فقد كان عليه أن يتألّم كي يدخل في مجده.

صعد، ولم يترك جسده البشريّ على الأرض، كي يكون هذا الجسد نموذجًا للأجساد التي ستتمجّد بفضله، في القيامة العامّة. بتجسّده، ارتدى المخلّص طبيعةً بشريّةً، وبها تألّم وافتدى، وبصعوده رقّى إلى المجد هذه الطبيعة البشريّة عينها التي تردّت حتّى الموت.

لو تُوِّج على الأرض، لأُغلق البشر في آراء ضيّقةٍ عن المسيح، في حين أنّ صعوده إلى السماء ارتقى بالأذهان والقلوب فوق الأرض. وقد حقّ لطبيعته البشريّة التي كانت أداة تعليمٍ وتقديسٍ، أن تسهم في المجد، مثلما أسهمت في الخزي.

وستكون جراح جسده البشريّ الدفاع الأبلغ عن إخوته البشر، مع دفاع روحه المعزّي. سيكون يسوع هو ممثلّ البشريّة في السماء، فقد أخذ معه كلّ احتياجاتنا لكي يبسطها بين يدي الآب، وبصعوده تأهّل للتشفّع بجميع البشر.

عندما كان يسوع ينبئ تلاميذه بانفصاله العتيد عنهم، كانوا يغتمّون. ولكن، عقب صعوده تغيّر ما في نفوسهم التي غمرها فرحٌ إلهيٌّ. حبّهم ليسوع لم يفقد شيئًا من حرارته، ولكنّه تنقّى، وتطهّر، واكتسب مزيدًا من روحانيّةٍ وتجرّدٍ. وباتت أنظارهم محدّقةً إلى المستقبل. ولبثوا في أورشليم ينتظرون هديّة الربّ، روحه القدّوس، برعاية العذراء، أمّ الجميع الساهرة.

السماء فُتحت، وملكوت الله أُسّس، وانتصار يسوع ابتدأ. وهو لم يغادر الأرض إلاّ لكي يحرّرها من الشرّ ويخلّصها. فقد غلب العالم.

قصّة عودة يسوع إلى تلاميذه، إثر قيامته، هي قصّة العالم نفسه، حتّى انتهاء الزمن. فحضور يسوع الناهض من الموت ما زال قائمًا، ولم يكن الصعود نهايةً له. فبضعة أشهرٍ بعد أن رآه التلاميذ يتوارى عن أبصارهم، بهر بنوره، على طريق دمشق، عدوّه شاول، واستولى على قلبه، وقَلَبَ كلّ كيانه، والذي ظهر لشاول هو الذي عرفه فرنسيس الأسّيزي، وتيريزا، وشارل دي فوكو، وخوري أرس، والأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، وكثيرون من القدّيسين المعروفين والمُغفَلين، الذين سمعوه، ورأوه، ولمسوه، وعاشوا إنجيله بكلّ أوتار كيانهم.

جوهر رسالته معاصرٌ أبدًا، لا يتغيّر، ولكن، في كلّ حقبةٍ ينهض من يبلّغ هذه الرسالة بلغةٍ يفهمها أبناء جيله.

كتب القدّيس أوغسطينُس: «نأى يسوع عن عيوننا، لكي نعود إلى قلبنا، فنجده فيه». صعد لكي يجتذب إليه الجميع، وكلّ شيءٍ.

عاد النجّار إلى بيت أبيه بعد أن أكمل عمله. ولكنّه، في الواقع، كان يبدأ عمله الحقّ الذي لن ينتهي. كان عليه تثبيت العمود الرئيس الذي يسند كنيسته، وكان هو هذا العمود.

صعوده كان انتقالاً من حضورٍ جسديٍّ إلى حضورٍ روحيٍّ.

بصعوده بدأت حياة يسوع التي لن تنتهي. وقد كان عبوره بأرضنا مغرقًا في القصر: قضى ثلاثين سنةً في الخفية، ابن نجّارٍ، ثمّ نجّار قريةٍ، هو نفسه؛ وثلاث سنواتٍ نبيًّا ورسولاً؛ ليلةً ونهارًا ضحيّة النزاع والصليب. ومدى ليلتين ونهارٍ رقد في قبرٍ؛ وظلّ، أربعين يومًا يظهر لتلاميذه، قبل أن يودّعهم بقوله: «**أنا معكم إلى الأبد**».

حياته الأرضيّة، وحياتنا فيه، لم تكونا سوى بدايةٍ، ولادةٍ إلى الحياة الحقّة، في ما يتخطّى الموت، وبقيامته لم يعد الموت سوى الثغرة التي يتدفّق منها ملء الحياة.

عاد إلى أبيه ولكنّه سيواصل آلامه السرّيّة الخلاصيّة من خلال البشريّة، وسيواصل رسالته من خلال كنيسته، فقد أقام من تلاميذه ورسله خدّامًا للبشريّة، جسده السرّيّ، وسكب عليهم روحه كي يبشّروا الفقراء والمقهورين بالتحرّر والخلاص. وقد أعلن أنّه في كلّ محرومٍ ومضطهَدٍ، وأبلغ شاول أنّه هو الكنيسة التي كان شاول يضطهدها باسم يهوه، بدعوى الانتصار للشريعة. وكلّما أشاحت الكنيسة أبصارها عن جراح المصلوب النازفة، وظنّت نفسها ممجّدةً، وانفصلت عن جماعة المحرومين، لكي تنضمّ إلى نادي أصحاب النفوذ والسلطان، ستكون قد خانت رسالتها، وألقت على أكتافٍ بريئةٍ الصليبَ الذي كُلّفت بحمله.

* *

هنا تنتهي حياة يسوع على الأرض، وتبدأ حياة الكنيسة، ينتهي تاريخ يسوع حسب الجسد، ويبدأ تاريخه الروحيّ.

لقد خاطب «إرنست رينان» يسوع، قائلاً:

«لقد تمّت مهمّتك، وترسّخت ألوهتك، فلا تخشَ أن يؤدّي أيّ خطأ إلى انهيار صرح جهودك، بعد أن أمسيتَ خارج نطاق الهشاشة. ستشهد، من قمّة السلام الإلهيّ، نتائج أعمالك اللامحدودة... وسيظلّ العالم خاضعًا لك طيلة آلاف السنين. ستكون علَم تناقضاتنا، والعلامة التي ستدور حولها أشدّ المعارك احتدامًا. وستكون ألف مرَّةٍ أكثر تدفّقًا بالحياة، ومحبوبًا ألف مرَّةٍ أكثر، بعد موتك، ممّا كنت في أثناء عبورك بدنيانا. وستصبح للبشريّة حجر الزاوية بحيث إنّ محاولة نزع اسمك عن العالم ستؤدّي إلى زعزعة أرسخ أركانه...».

بصعوده عاد الابن كي يندمج بالآب الذي لم ينفصل عنه بلاهوته، لحظةً، ولكنّه عاد يحمل جسدًا بشريًّا وسمته الآلام، ومجّدته القيامة، بعد أن أَوْدع، في أرض البشر، قبَسًا من ألوهة أبيه، قبسًا ينمّيه باستمرار، ويحافظ عليه الحبّ الذي يجمع بين الآب والابن، والذي غدا متغلغلاً في أعماق البشريّة، أي روحهما القدّوس.

صعود يسوع هو صعود البشرّيّة الصابية إلى الخلاص، إلى ما يسمو فوق الأرض والجسد. هو انطلاقٌ إلى فوق.

قال يسوع: عندما سأصعد، سأجذب إليّ كلّ شيءٍ. فليكن جذبكَ، يا يسوع، أقوى من ضعفنا، ومن إغراءات الأرض، ومن سطوة الجحيم!

لــَوْلاَ القِيَــامَة ....(*)

تلت موتَ يسوع أحداثٌ غريبةٌ، فالتلاميذ الذين حطّمتهم نهاية معلّمهم المأسويّة المهينة، وشتّتتهم، هبّوا يعلنون قيامته إلى مجد الآب. فقد رأوه حيًّا، وكلّموه، ولمسوه، واقتسموا معه الطعام، وثبت لديهم بالدليل القاطع أنّه، هو، ابن الله، الربّ، ذاك الذي قوّض كلّ المفاهيم القديمة المتعلّقة بالأُلوهة، والذي نحوه يجب أن تتوجّه كلّ الصلوات والاحتفالات.

لو لم يقم يسوع، لكان موته هو نهايته، فهو لم يترك أيّ أثرٍ مكتوبٍ. وحفنة التلاميذ الذي تبعوه أثبتوا أنّهم رعاديد. وحتّى زعيمهم، أَنكر، بقسمٍ، معرفته له. أمّا النسوة الوفيّات اللائي وقفن عند أقدام صليبه، متلهّفاتٍ، فكنّ عاجزاتٍ عن تخليده.

موته بدا وكأنّه إقرار فشلٍ. فهل يُعقل أن يُسلم الله ابنَه ورسوله إلى أيدي أشرار؟ ولم يبقَ على التلاميذ سوى عودة بعضهم إلى سفن صيدهم، والبعض الآخر إلى موائد الجباية. وإذ بهم يعلنون، بحماسٍ، أنّ معلّمهم حيٌّ، وأنّهم رأوه.

حدثٌ جمٌّ يرويه الإنجيليّون في بساطةٍ مذهلةٍ، غير خَجِلين من فضح شكوك الكثيرين من التلاميذ في صحّته. وإن لم يتّفق جميع الإنجيليّين على كلّ التفاصيل، ففي ذلك الدليل على أنّه لم يقُمْ بينهم أيُّ تواطؤٍ على إعلان الحدث. غير أنّهم أجمعوا على رؤية يسوع، وعبّروا عن يقينهم هذا بشهادةٍ جريئةٍ كلّفت الكثيرين منهم الاضطهاد والموت المهين. لقد تأكّد لهم أنّ الآب لم يتخلّ عنه، بما أنّه أنهضه، وأنّ يسوع لم يكذب، ولم يخدعهم، بدليل أنّ جميع ما كُتب عنه، في الأنبياء، وكلّ ما أنذرهم به، قد تحقّق.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «لمَ أنتم حزانى؟»، صفحة ٥١٥.

القيامة تعنى أنّ الله الذي يبدو صامتًا، سيقيم العدل، وسيعيد للمظلومين حقوقهم.

والإيمان بالقيامة هو تأكيد التزام الآب بنهج يسوع الاجتماعيّ، يسوع الذي كان يخالط الخطأة، ويزري بوصايا التطهّر الخارجيّ، ويؤثر المنبوذين بعطفه. يسوع الذي زعزع أركان إله الهيكل والشريعة، وأعلن إلهًا غير منتظرٍ، أبًا للجميع، يحضن الابن المبذّر الذي ضلّ وعاد، ويسعى وراء النعجة التائهة، ويدعو إلى حبّ الجميع، حتّى الأعداء.

لا يؤمن بقيامة يسوع إلاّ من آمن بكلّ ما قاله وفعله في حياته، وإنّما الارتضاء بأن يظلّ القبر دائمًا مشرعًا، هو الارتضاء بالمضيّ، دائمًا، قُدُمًا مع يسوع، والترحيب بما لا يني يسبّبه ربيع الله المدهش من إزعاجٍ.

ولكي نكون صادقين في قولنا: «**نؤمن بأنّ يسوع قد نهض من الموت**»، ينبغي أن نقامر بكلّ حياتنا على الإنجيل، وأن نبتدع، بجرأةٍ، العالم الجديد الذي استهلّه، وإلاّ كانت حياتنا إنكارًا وخيانةً لذلك القول المتألّق.

الإيمان بقيامة يسوع، على غرار الإيمان بإنجيله، يستنهض أكثر طاقات حياتنا الجوهريّة ديناميّةً.

وما زال يسوع وإنجيله، لنا، اختراقًا للأسوار، وفتحًا للقبور، وتفجّر حياةٍ.

آلام يسوع كانت انتصارًا على الخطيئة، وقيامته كانت انتصارًا على الموت. بتضحيته ذاته على الصليب مارس يسوع، ممارسةً كاملةً، كهنوته الأبديّ في الزمن وفي الأبديّة. وبقيامته حقّق التجلّي المجيد الذي يصبو إليه كلّ مخلوقٍ.

إنّ رؤية المصلوب الممجّد على يمين الآب تغمر بنورها الأناجيل، والإيمان بيسوع الإلهيّ يهيمن على كلّ أحداثها. ذلك النور النهائيّ يضيء كلّ مسيرة يسوع على الأرض، ويسكب ألقًا جديدًا على ألقابه: «**ابن الله**»، «**ابن الإنسان**»، «**الربّ**».

في أثناء حياته الأرضيّة، كان لقب «ابن الله» يعني المسيح، المرسل المكلّف بمهمّةٍ من الله. ولكن، بعد القيامة، وبعد رسائل بولس، وتدوين الأناجيل، تجلّى لهذا اللقب معناه الحرفيّ، السامي، الإلهيّ.

إنّ للقب «**ابن الإنسان**»، لدى اليهود، صدًى كتابيًّا يتردّد في نبوءات دانيال وأخنوخ، ويعني كائنًا أسمى من البشر، إنسانًا وإلهًا معًا. ولكنّه، خارج الإنجيل، لم يُذكر كثيرًا، لأنّه لم يكن يوقظ أيّ أثرٍ لدى اليونانيّين، الذين آثروا لفظة «**الربّ**».

وقد تبلور، عبر الأجيال الكنسيّة، الإيمان به، إلهًا حقًّا، وإنسانًا حقًّا.

إنّه إلهٌ مغرقٌ في الإنسانيّة والحبّ.

الإله غير المتوقّع.

وسيظلّ يزعزع كلّ مفهومٍ خاطئٍ عن الألوهة.

العَنْصَـــرَة

قبل صعوده، كان يسوع قد أوصى تلاميذه ألاّ يبارحوا أورشليم، قائلاً: «**بل انتظروا فيها موعد الآب الذي سمعتموه منّي. فإنّ يوحنّا عمّد بالماء، وأمّا أنتم فستعمَّدون بالروح القدس، بعد أيّامٍ قليلة**».

كان قد وعدهم بإرسال روحه القدّوس، البارقليط، الذي سيقودهم على درب كلّ حقٍّ، ويلقّنهم الأمور التي لم يقووا على استيعابها، ويؤازرهم على بناء الكنيسة التي وضع يسوع أسسها، ورسم مخطّطها، وبالإجمال على مواصلة عمل يسوع وإكماله.

وانتظمت قافلةٌ تألّفت من الأحد عشر رسولاً، والاثنين والسبعين تلميذًا، ومن بعض النسوة، وكانت على رأس الجميع أمُّ يسوع، التي كانت تخلّد، في ما بينهم، صورة ابنها الحيّة. وأقاموا في العلّيّة التي استضافت عشاء يسوع الوداعيّ مع تلاميذه، وحيث تجرّعوا غصّات الصليب، وانتشوا بغبطة القيامة. وكانوا عاكفين على الصلاة، بنفسٍ واحدةٍ، مرتجلين مدائح وأناشيد شكرٍ، شديدة التباين عن نصوص الفرّيسيّين التي أفرغها الترداد الحرفيّ من مضمونها.

وفي تلك الأثناء، ارتأى بطرس ورفاقه مَلء المكان الذي شغر بخيانة يهوذا وبانتحاره، حرصًا على إبقاء عددهم اثني عشر رسولاً، مثلما ابتغاه المعلِّم، فاختاروا بين اثنين ممّن واكبوا رسالة يسوع، وكانوا شهودًا على حياته وصلبه، وقيامته، ووقعت القرعة على متّيّا.

* *

عيد العنصرة لم يكن يجتذب إلى أورشليم أعداد الحجّاج الغفيرة التي كان يجتذبها عيدا الفصح والمظالّ. بيد أنّ القادمين للاحتفال بهذا العيد من كلّ حدبٍ وصوبٍ ومن كلّ أرجاء الإمبراطوريّة، كانوا أكثر تنوّعًا. وبما أنّ المزارعين يكونون قد

فرغوا، حينذاك، من الحصاد، وامتلأت جيوبهم، فكان بوسعهم منح أنفسهم بضعة أيّام فسحةٍ خاليةٍ من القلق. وكان أقوامٌ من كلّ منشإٍ ومن كلّ لغةٍ يتلاقون في أزقّة أورشليم، ويحتشدون عند جوار الهيكل.

وفي ذلك اليوم، خامر المجتمعين في العلّيّة حدْسٌ بأنّ حدَثًا جلَلاً على وشك الحدوث. هذا الحدث وصفه القدّيس لوقا بقوله: «**ولمّا حلّ يومُ الخمسين كانوا كلّهم معًا في المكان عينه. وإذا صوتٌ من السماء كصوت ريحٍ شديدةٍ تعْصِفُ قد انفجر وملأ جوانب البيت الذي كانوا مقيمين فيه. حينئذٍ ظهر لهم شبهُ ألسنةٍ من نارٍ تتجزّأ ويستقرُّ قبسٌ منها على كلّ واحدٍ منهم. فامتلأوا كلّهم من الروح القدس وطفقوا ينطقون بألسنةٍ أُخرى على حسب ما آتاهم الروح القدس أن ينطقوا.**

وكان في أورشليم يهودٌ ورجالٌ أتقياء أتوا من كلّ أُمّةٍ تحت السماء. فلمّا كان ذلك الصوتُ تجمهر الجمعُ وأخذتهم الحيرة لأنّ كلّ واحدٍ منهم كان يسمعُهم يتكلّمون بلغته. فدهشوا وتعجّبوا وقالوا: «أليس جميعُ هؤلاء المتكلّمين جليليّين! فكيف نسمعُهم، كلُّ واحدٍ منّا، بلغته التي وُلِدَ فيها، نحن الفرْتيّين والماديّين والعيلاميّين، وسُكّان ما بين النهرين واليهوديّة وكبّدوكية والبُنْط وآسية، وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية القُورينيّة، والرومانيّين المُستوطنين هنا، يهودًا كنّا أم دُخلاء، والكريتيّين والعَرَب، نسمعهم يُحدّثون بآيات الله بلُغاتنا؟!» فكانوا كلّهم على ذُهولٍ وحيرةٍ، ويقولون بعضُهم لبعض: «ما عسى أن يكون هذا؟» غير أنّ آخرين كانوا يقولون هازئين: «إنّهم قد امتلأوا سُلافةً!»

حينئذٍ وقف بطرُس، مع الأحد عشر، ورفع صوته وخطَب فيهم قائلاً: «يا رجال اليهوديّة، وأنتم أيُّها النازلون بأورشليم جميعًا، اعلموا هذا وأصغوا لأقوالي. لا، ليس هؤلاء بسُكارى كما وهمْتم إذ هي الساعةُ الثالثةُ من النهار» (أعمال الرسل ٢: ١–١٥).

هكذا استهلّ روح النعمة والقداسة رسالته المرئيّة، تحت شكلَي الرموز الكتابيّة التي تميّز عمله، أي الريح والنار.

دويّ العاصفة، في فترةٍ من السنة لا عهد لها بعواصف، تردّدت أصداؤه في

المدينة كلّها، فتراكض القوم مستطلعين. والرسل أنفسهم، وقد امتلأوا اندفاعًا مقدّسًا، خرجوا من خلوتهم وانتشروا وسط الجموع، وهم يمجّدون الله، في جميع اللغات التي كان يتكلّمها الحجّاج الموجودون، آنذاك، في أورشليم. هذه المعجزة المشيرة إلى شموليّة الكنيسة، المكلّفة بالتحدّث إلى كلّ المسكونة، وكلّ اللغات، أصابت القادمين بالذهول والحيرة. وكما يحدث دائمًا، أخذ بعض المشكّكين بالواقع الساطع يتمتمون: «**هؤلاء الرجال سكارى، ولقد لعبت الخمرة الحلوة برؤوسهم**». غير أنّ سواد الشعب، حيال تلك الإشارة السماويّة، تساءلوا عن مصدرها، وهذا التساؤل قادهم إلى عتبات الملكوت. وتناول بطرس الكلام، فأسهب مفسّرًا مغزى المعجزة التي شهدها القوم، وأعلن عن قيامة يسوع بقوّة إقناعٍ فائقةٍ، فقال: «**أيّها الرجال الإسرائيليّون، اسمعُوا كلامي هذا: إنّ يسوع الناصريّ، ذاك الرجل الذي أيّده الله بينكم بالمُعجزات والعجائب والآيات التي أجراها الله على يده، كما أنتم تعلمون، ذاك الذي أُسلم بحسب تصميم الله وعِلْمِه السابق، وقتلتموهُ صلبًا بأيدي الكفرة، قد أقامه الله حاطِمًا قيود الموت إذ لم يكن بقُدرة الموت أن يضبطه**» (أعمال الرسل ٢: ٢٢– ٢٤).

«**فيسوع هذا قد أقامه الله. ونحن جميعًا شهودٌ بذلك. وإذ رفعه الله بيمينه أخذ من الآب الروح القدس الموعود وأفاضه كما تنظرون وتسمعون**» (أعمال الرسل ٢: ٣٢–٣٣).

«**فليعلم إذن يقينًا كلُّ بيت إسرائيل أنّ الله قد جعل يسوع هذا الذي صلبتموهُ ربًّا ومسيحًا**».

«**فلمّا سمعوا ذلك تفطّرت قلوبُهم فقالوا لبطرس وسائر الرسل: «ماذا علينا أن نفعل أيّها الرجال الإخوة؟» فقال لهم بطرس: «توبوا، وليعتمد كلُّ واحدٍ منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة خطاياكم، فتنالوا موهبة الروح القدس. فإنَّ الوعد لكم، ولأولادكم، ولجميع البعيدين أيضًا بقدر ما يدعو الربّ إلهنا منهم». وكان يناشدُهم ويستحثّهم بأقوالٍ أُخرى كثيرةٍ فيقول: «تخلّصوا من قبضة هذا الجيل الفاسد». فاعتمد الذين قبلوا كلامه**». (أعمال الرسل ٢: ٣٧ – ٤١).

وبعد أيّام قليلةٍ ارتفع عدد طالبي العماد إلى خمسة آلافٍ، ومضى عددهم في

تصاعدٍ مطّردٍ. وهكذا استهلّت الكنيسة، بزعامة بطرس، المتّحدة عضويًّا بيسوع، والتي يحدوها روحه، حياةً جديدةً.

بمنحه الروح لتلاميذه، لم يهبهم يسوع قدرةً سرّيّةً عجيبةً فحسب، بل نفحهم الروح الذي تلقّاه من أبيه، الروح الذي جعله، سحابة حياته، يعمل ويتكلّم بصفة ابن الله الوحيد المحبوب.

وعندما يهبُ يسوع روحه، فهو لا يهبنا كنزه الأغلى، فحسبُ، بل سرّ كيانه وشخصه.

أفاض يسوع، إذن، روحه على تلاميذه، فجعل منهم رُسُلاً، وأنبياء وإنجيليّين، ورعاةً، ومعلّمين، وخدّامًا. وفي حبّة الخردل الصغيرة هذه، كانت تكمن كنيسته الوارفة الظلال.

كان على الرسل، بناءً على وصيّة المعلّم، أن يأخذوا عصا الترحال، وينتشروا في الكون الرحب، ناثرين مع الرياح الأربع كلمة الحياة. ولكنّهم تلبّثوا في فلسطين قبل غزو العالم، فقد كان عليهم، أوّلاً، تبشير اليهود، وهدايتهم ما استطاعوا إلى الهداية سبيلاً. ومن جانبٍ آخر، كان عليهم، قبل إنشاء كنائس في العالم، أن يوطّدوا أركان الكنيسة الواحدة. والكنيسة ليست تجمّع مؤمنين وجماعاتٍ، ولا مجموع الكنائس الوطنيّة، بل بيت الله، وعائلة يسوع المسيح، التي تعلن إيمانًا واحدًا، وتحيا حياةً واحدةً، تحت قيادة زعيمٍ واحدٍ. لذلك تريّث الاثنا عشر، فترةً، في أورشليم، ملتفّين حول بطرس، دليلهم، وملهمهم، والمتكلّم باسمهم. معًا كانوا يكرزون، ويرسمون شمامسةً، ويهبون الروح القدس بوضع الأيدي، ومعًا حكموا الكنيسة الوليدة. ولكنّ فرديّة كلٍّ منهم كانت تتوارى خلف بطرس، الذي كان المبادر إلى الكلام، والعمل، والتقرير، والتنظيم؛ بل كان حجر الأساس، وعقد قبّة بناءٍ، ميزته الجوهريّة هي الوحدة.

وعندما حانت ساعة الانتشار كان يعقوب بن زبدى قد هوى تحت ضربات أغريبّا؛ ويعقوب الملقّب بأخي الربّ ظلّ على رأس كنيسة أورشليم، إلى أن دُفعَ به من ذروة الهيكل إلى الأسفل؛ أمّا بطرس فبعد تجوالٍ قاده إلى مطارح عديدةٍ، انتهى إلى روما عاصمة العالم المتحضّر، آنذاك؛ يوحنّا وفيليبّس ضربا في آسية الصغرى خيمة

رسالتهما. أندراوس يمّم شطر البارثيّين، وتوجّه توما نحو الشيشيّين. ويقال إنّ تبشير الحبشة كان من نصيب متّى، وتبشير الهند من نصيب برثلماوس. إنّنا لا نعرف الكثير عن أعمال أولئك الأبطال، الذين لم يتسنّ لهم مثل ما تسنّى لبولس، أي كاتبٌ عبقريٌّ نظير لوقا، يدوّن أفعالهم وأقوالهم بأمانةٍ ودقّةٍ. ومع ذلك بذلوا ذواتهم بسخاءٍ، في تجرّدٍ وإغفالٍ، وامّحوا، طوعًا، كي يتألّق، من خلالهم، عمل المخلّص.

* *

حتّى قُبيْل صعود يسوع سأله تلاميذه: «**أفالآن، يا ربّ، هو الزمان الذي تردّ فيه الملك لإسرائيل؟**» (أعمال ١: ٦). فهم مع كلّ حبّهم له كانوا يودّون تسخيره لخدمة المستقبل الوطنيّ الذي يحلم به شعبهم، ويحرصون على أن يروا فيه محرّر إسرائيل. ولكنّ يسوع كان يأبى الانسياق لهذه الأحلام. فكلّ من اتّبعه لهذه الغاية إنّما يؤثر إسرائيل عليه، ويتنكّر له. ويسوع يريد أن يُتّبع بمحض دافع الإيمان به.

الناهض من الموت يأبى أن يُحصَر في مكانٍ معيَّنٍ، ويأبى حتّى لمسة المجدليّة له، فالوقت لم يعُد وقت عواطف، بل هو وقت رسالةٍ، وهي مكلّفةٌ برسالة إعلان قيامته. لم يعُدْ يقيم في مكانٍ، ويدعو أتباعه إلى الانطلاق للتبشير بأنّه حيٌّ، وقد هزم الموت. حتّى ملائكته خاطبوا التلاميذ، إثر صعوده، قائلين: «**ما بالكم ههنا تحدّقون إلى السماء؟**» ألا انطلقوا وبشّروا بقيامته كما أوصاكم.

العنصرة، غيّرت كلّ شيءٍ، ففي ذلك اليوم وُلدت الكنيسة، واعتلنت للبشر، ورسالتها واحدةٌ: حبّ الله الذي أنقذ العالم بموت ابنه، يسوع، على الصليب. وكان لا بدّ، في سبيل تبليغ هذه الرسالة، من رواية ذكريات حياة يسوع على الأرض، وصلبه وقيامته. هذه الذكريات التي كانت ما برحت، بالأمس، كنزًا شخصيًّا موقوفًا على حفنةٍ من أصدقائه المرتعدين، أصبحت، بغتةً، رسالةً موجّهةً إلى العالم أجمع.

بالقيامة رفع الله ابنه الذي ارتضى أن يكون خادم الجميع، الذي خالط الخطأة، وجالس المنبوذين، وذاد عن حياض المحتقرين، ولم يتقيّد بطقوس التطهّر الخارجيّ، وهزّ أركان إله الهيكل والشريعة، لكي يعلن إلهًا غير متوقّعٍ، أبًا للجميع، يؤثر الابن العاقّ التائب، والنعجة الضالّة، ويدعو حتّى إلى حبّ الأعداء. ذلكم هو إله يسوع، إله الإنجيل، الذي أنشأ عالمًا قشيبًا.

ولا عجب إن انضوت إلى جماعة يسوع جموع الفقراء الذين أعاد لهم كرامتهم، ومكانتهم في حضن شعب الله، وجعل منهم طليعة شهوده في العالم الجديد الذي وضع أُسُسَه. ولن يقوى شيءٌ على وقف نموّ البذرة المتوقّعة التي نبتت صباح الفصح.

وتّمت العنصرة مفاعيل القيامة، فغدتا قوّة الرسل اليوميّة، ومصدر اندفاعهم، وبطولتهم التي مكّنتهم من تجاوز ذواتهم، فأصبحوا رجالاً جُدُدًا، متحرّرين من كلّ ما كان، بالأمس، يقيّدهم، من حيطةٍ وجُبنٍ، حلّت محلّهما ثقةٌ تدهش كلّ من شاهدهم وأصغى إليهم. فقد أضحوا، إلى الأبد، شهود حَدَثٍ هزّ أركان حياتهم، بحيث غدوا يضحّون بحياتهم شهادةً له.

وإن كان التلاميذ قد تردّدوا قبل تصديق قيامة يسوع، إلاّ أنّهم عندما بشّروا هم بها، بعد أن حلّ عليهم الروح القدس، وملأهم حقيقةً وجرأةً، صدّقها كثيرون بلا تحفّظٍ.

إثر صلب يسوع كان قد أُرتج على التلاميذ، وعُقدت ألسنتهم، فإذا بهم يتدفّقون خطاباتٍ حارقةً، وشهاداتٍ لا تقاوَم. لم يكن قد ظهر لهم كي يثبت قيامته فحسب، بل لكي يحملهم على إتمام رسالته. ثمّ أحلّ عليهم روحه كي يؤهّلهم للاضطلاع بهذه المهمّة، وغدا لهم حاضرًا في غيابه، وقريبًا في منآه، وأثبت أنّه تفجُّر حياةٍ.

كانوا يختبئون وراء أبوابٍ موصدةٍ، ونفخ فيهم روحه، فانفسح أمامهم زمانٌ جديدٌ، وحُطّمت الأقفال والمزاليج، ومن الأبواب المشرعة انطلقوا، حاملين روح يسوع إلى رحاب الأماكن والأزمان والبشر، وقد حوّلهم يسوع من جماعةٍ مرتعدةٍ خوفًا إلى جماعةٍ خصبةٍ، ما انفكّت تنبثق عنها جماعاتٌ جديدةٌ شابّةٌ.

النار التي أضرمها انتصار يسوع على الموت، فجر الفصح، واستقرّت ألسنتها على رؤوس التلاميذ، يوم العنصرة، أحرقت أوهانهم، وغلاظة قلوبهم، وامتدّ لهيبها من مكانٍ إلى آخر، ومن مدينةٍ إلى أُخرى. لقد اضطرم الرسل حبًّا وإقدامًا، ودفعهم الروح، في كلّ اتّجاهٍ، كي يرموا شباكهم في أعالي البحار؛ ونفحهم الجرأة كي يتحرّروا من صمت الخجل والخوف. وعندما سيتعرّضون للاضطهاد، سيملأهم بحكمته.

وبعد أن بدت الكنيسة الوليدة، وكأنّها لفظت أنفاسها، إثر موت مؤسّسها، على

الصليب، وتهاوت، بلا عودةٍ، ولكأنّ الصرح الذي أشاده يسوع بصبرٍ، انقلب، فجأةً، ركام أطلالٍ، ولكأنّ التلاميذ أنفسهم قد تردّوا إلى القنوط، وإذ بكلّ شيءٍ يتغيّر، جذريًّا، بفضل القيامة، ثمّ بفضل العنصرة، فحلّ فرحٌ غامرٌ محلّ القنوط والوجل. والذين أنكروا المعلّم انطلقوا يعلنون، ببسالةٍ، انتصار ابن الله.

انقلاب التلاميذ كان مذهلاً، كما كان انقلاب الرسول الآخر الذي اصطفاه الربّ لكي يرفدهم به، ويفسّر للعالم جوهر تعليمه. وهل كان بوسع شاول، الفرّيسيّ ابن الفرّيسيّ، الذي تلقّن الشريعة عند قدَميْ غمالئيل، وكان من أشرس الذائدين عن حياضها، أن يمسي أشدّ دعاة القيامة والعهد الجديد جرأةً وإقدامًا، وحرارةً، لو لم يرَ المصلوب حيًّا، ولو لم تتسرّب نفحات الروح إلى أغوار كيانه، فهتف: «**اليوم، كما في كلّ حينٍ، أتصرّف بجرأةٍ، لكي يُمجَّد المسيح في جسدي، بالحياة كان أم بالممات، لأنّ الحياة لي هي المسيح، والموت لي ربحٌ**»؟!

بقوّة الروح، انعتق شاول من رواسب اليهوديّة التي تغلغلت حتّى أعماق كيانه، والتي شقّ على الرسل والتلاميذ الانعتاق من أسرها. وهكذا تمكّن بولس من تمثّل روح العهد الجديد الذي جاء يسوع كي يشيعه على الأرض، فانطلق بكلّ اندفاعه الملتهب، وعبقريّته الجبّارة، الهدّارة، يغزو به العالم الوثنيّ.

وغدا كلُّ يومٍ يشهد قافلةً جديدةً من المقبلين على العماد باسم الآب، والابن، والروح القدس. واستشاط زعماء اليهود حنقًا. كانوا قد ظنّوا أنّهم بصلب يسوع قد محوا ذكراه إلى الأبد، فإذ بهم يعجزون عن درء سيل المؤمنين به، المرتدّين إليه. فقاوموا رسله، ونكّلوا بهم، ولكنّ الاضطهادات كانت تزيد الرسل تصميمًا وإقدامًا.

بيد رسله بنى يسوع كنيسته ودعّمها. وهم ما كانوا يملكون ذهبًا ولا فضّةً، ولكنّهم باسم يسوع كانوا يهبون الشفاء، ويطردون الأرواح الشرّيرة. هذا الاسم، أكثر من أيّ اسمٍ آخر، أمسى موضع صلاةٍ، واعتلانٍ، وحبٍّ، وأناشيد تسبيحٍ. لقد شهد له الرسل حتّى قطرة دمهم الأخيرة، وغدا محفورًا في قلوب الملايين، ومدموغًا على جباههم، ولكنّه أصبح يدوّي دويّ إنذارٍ مرعبٍ في قلوب أعداء الحبّ، وأرباب المصالح والمغانم.

ولم يعُد لوجود يسوع على الأرض حدودٌ: إنّه في كلّ مكانٍ، في ثنايا القلب

البشريّ، وفي أمداء الأرض والسماء اللامحدودة، في ملء الكون، وفي صميم كنيسته.

من أنوار العنصرة انبلج الإيمان، ووُلد الوجود المسيحيّ، أي الشعور بالحياة في يسوع، الذي هو الأصل والغاية، وهو التاريخ الشامل.

قبل العنصرة كان التلاميذ يقفون أمام يسوع، وبعدها باتوا يقيمون فيه. كانوا يتكلّمون عنه، فغدوا يتكلّمون به. فميزة المسيحيّ أنّه يعيش في يسوع وبه، وأنّ يسوع هو كلّ حياته.

وما انفكّت نار العنصرة منتشرةً تحرق الآلهة المغرقة في بشريّتها، الآلهة النخرة، المتخاذلة، ومضيئةً، أبعد فأبعد، دروب البشر.

وما فتئت ألسنة الروح تستقرّ على رؤوس الصغار والكبار، منيرةً الأذهان، ومحوّلةً القلوب والنفوس. الروح واحدٌ في الجميع، ولكنّه يعمل في كلّ فردٍ على نحوٍ مختلفٍ، منمّيًا شخصيّته الخاصّة. فهو لا يلغي الشخصيّة الفرديّة، بل يقودها إلى كمال نضجها.

وستبقى، بين الجماعات المسيحيّة، علامةٌ ملموسةٌ على قيامة يسوع وحلول روحه، متمثّلةٌ في اقتسام الخبز والخمر المقدّسين، المذكّرين بموته، وقيامته، وحضوره الدائم. علامةٌ تدعّم إيمان المسيحيّين، وتوثّق وحدتهم.

القِسْمُ السَّادِس
رِسَالَةُ يَسُوع

رسالة يسوع

يسوع هو ابن الله، وروحه، ورسوله. وقد تجسّد لكي يُظهر وجه الله الحقّ، ويبيّن كيف يحقّق الإنسان، المصنوع على صورة الله، غاية وجوده ومصيره.

ورسالة يسوع هي ذاته، هي تجسّده، وحياته، وموته وقيامته. فهو موضوع النبوءات ومحقّقها. يعد بالخلاص، وهو الخلاص. يعلن الكلمة، وهو، في نفسه، وفي جسده، وفي عمله، وفي آلامه، وفي حياته، وموته، وخلوده، هو هذه الكلمة عينها.

رسالته عن الله، هي رسالة الله إلى البشر، من خلاله. ففي الإنجيل يتكلّم «الكلمة» معلنًا فكر الآب وإرادته. نظر يسوع يغوص، باستمرار، في الله. فكره، وكلّ أقواله، من إلهام تلك النظرة البنويّة على الآب، ومشيئة الآب هي كلّ هواه.

ورسالة يسوع هي إعلان اسم الله إلى أن يصبح هذا الاسم خفقان قلبنا، وتنفّس رئتينا.

هو وحده يستطيع إبراز وجه الله، لأنّه والآب واحدٌ. وهو لم يكن بحاجةٍ إلى جهدٍ أو انخطافٍ كي يشعر بحضور الله. فالله، أبدًا، فيه. معه يحيا، ويراه وجهًا لوجه، وينطوي على كلّ كنوز حكمته وعمله. الوحي، لديه، ليس عابرًا، كما هو عند الأنبياء، بل هو نورٌ لامحدودٌ، دائم الإشعاع، ومتدفّقٌ من الكلمة الأزليّة.

لا نزاع بين مشيئته ومشيئة أبيه، رغم آلام الجسد، ومعارضة البشر، ونفور الطبيعة، وكلّ ضروب العقبات، بل رغم الموت نفسه. مشيئة أبيه هي غذاء نفسه، لا يحيد عنها، لأنّه لا يستطيع إنكار ذاته أو معارضتها.

* *

لم يبتدع يسوع مبدأً فلسفيًّا جديدًا، ولم يأتِ بمخطّطات إصلاحاتٍ اجتماعيّةٍ، ولم يكشف عن أسرارٍ ماورائيّةٍ. ولكنّه غيّر تغييرًا جوهريًّا علاقة البشر بالله، مظهرًا

لنا وجهًا للألوهة، كان يتعذّر، من قبل، تخيّله، وتحدّث عن دعوةٍ للإنسان ساميةٍ، وعن الفرح النابع من الاتّحاد بالله.

لم يُلغِ يسوع وصايا موسى، ولكنّ وصاياه الجديدة تخطّتها شأوًا بعيدًا. فلم يعُد الطهر غسلاً خارجيًا، ولم تعد النجاسة مادّةً خارجيّةً تُؤكل أو تُلمس، بل بات القلب وما يخرج منه مصدر كلّ طهرٍ ونجاسةٍ.

وغدت الأُطر القديمة عاجزةً عن احتواء جديد يسوع. وخمرته الجديدة لم تعد الزقاقُ القديمةُ قادرةً على احتوائها، فكان لا بدّ من تحطيم قيود التقليد التي تستعبد الروح، كي يظفر البشر بحرّيّة أبناء الله، ومن إبطال عبادة الأصنام التي صنعها البشر، لكي يَعبُد البشرُ الله الحقّ، المطلقَ الأوحد، بالروح والحقّ. كلّ ذلك ما زال معاصرًا، لم تُفقده أَلفيّتان شيئًا من حدّته وقشابته.

رسالة الإنجيل ليست إجابةً دينيّةً، بين إجاباتٍ أُخرى، بل هي تساؤلٌ لا نهاية له. إنّها لا تلغي دور الهياكل وخدّامها، ولكنّها تدعو إلى تجاوزها، في سبيل الإلمام بسرّ الله. وهي لا تنكر العلاقات الأُسرويّة، ولكن، إن أصبحت هذه العلاقات عائقًا دون الإنجيل، تخطّتها، فالقرابة السليمة الثابتة هي الخضوع للإيمان. إنّها، في كلّ وقتٍ، تساؤلٌ يخضّ القناعات الدهريّة، وأكثر العادات رسوخًا، وكلّ ذلك باسم الله الذي يتكلّم عنه يسوع، إلهٍ لا يشبه ما نظنّ أنّنا نعرفه عنه، إلهٍ لا يني يسائلنا وسنظلّ، أبدًا، نبحث عنه. الإنجيل هو في أقصى نهاية الشوط، ولا بّد من مواصلة السعي نحوه، والعالم المسيحيّ ليس مغلقًا، بل يتخطّى الدائرة، وهو مشرعٌ إلى ما لا نهاية.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان يحدو يسوع حلمٌ كبيرٌ، حلمٌ بجعل البشر إنسانيّين حقًا، كي يتألّهوا. هذا الحلم حمله على هجر مجد سمائه، ولبس جسدٍ بشريٍّ، بكلّ أَوهانه وحدوده، ثمّ حمله على هجر مهنته وبيته، والترحال والتجرّد، والتعرُّض للازدراء واللاتفاهم، والبغض، والجهد في انتشال البشر من وهادهم، وفي مساعدتهم على أن يصبحوا ما هم، وما ينبغي أن يكونوا.

حلمه كان بناء إنسانيّةٍ جديدةٍ، على صورة الله ومثاله، وفقًا للنموذج الذي ما انفكّ يختمر، وتتّضح معالمه، منذ طفولة الإنسانيّة المتطلّعة إليه بشوقٍ وحنينٍ.

وفي سبيل ذلك لم يعكف على صَوْغ نظريّات، بل حكى حكاياتٍ كانت تنشر العدوى، وتزيح الغشاوات عن العيون، وتشيع الشفافيّة، وتُشرع السبُل. في أقواله، وفي أعماله، كان ينتمي إلى إلهٍ مُصالحٍ، مُسامحٍ، محرّرٍ، يدعو الناس جميعًا إلى وليمةٍ كونيّةٍ، إلهٍ يشدّ إليه البشر، ويغدق عليهم هباته.

وقد أقحم يسوعَ العالمَ في ثورة حبّه اللامحدود، وطموحه الجامح، في ما يتعلّق بمستقبَل الإنسان.

* *

محاور رسالته الرئيسة هي: إعلان الملكوت، وتوثيق الصلة بين البشر والله أبيه، وإفهامهم أنّهم، جميعهم، أبناءٌ للّه، وبالتالي خلق علاقاتٍ جديدةٍ، في ما بينهم، تجعل كلاًّ منهم يرى في الآخر أخًا.

الآهة النابعة من أعماق الخليقة اللاهثة نحو مجد أبناء الله، الصابية إلى التجدّد والتجلّي، أفعمت قلب يسوع، ولم تجد في سواه تعبيرًا أبلغ تأثيرًا، وأكثر امتلاءً. وسيظلّ للبشر هو المصلوب، وأكثر الشهداء عذوبةً وجدارةً بالحبّ.

قبله لم يأتِ الأنبياء إلاّ بصورةٍ بدائيّةٍ مبهمةٍ عن الله؛ وبعده أظهر القدّيسون صورةً عن النموذج الإلهيّ. أمّا يسوع فلم يأتِ بفكرةٍ مجرّدةٍ عن الله، تتميّز بشيءٍ من الجدّة والأصالة، بل جاء بالله الحيّ، الأب السماويّ. وكان، هو نفسه، التعبيرَ الحسّيّ، الحيّ، الشخصيّ، عنه. إنّه والآب واحدٌ، من رآه رأى الآب، ومن آمن به آمن بالآب. لا يكتفي بالإرشاد إلى السماء، بل إنّه يحمل السماء في ذاته، ويُشرع للبشر أبوابها.

في عالمٍ كان يعيش بماضيه بشّر يسوع بعالمٍ جديدٍ، يتحقّق فيه ملكوت اللّه. وعلى كلّ إنسانٍ، بقطع النظر عن ماضيه وانتمائه، الانضمام إليه. ويسوع هو الدليل والآية التي تشير إلى هذا الملكوت.

لم يؤسّس طقوسًا جوفاء، فخمةً، تدغدغ حواسّ الجماهير وخيالها، بل هو حيٌّ في الأسرار التي أسّسها، وبها أتاح للبشر التواصل مع كيانه الإلهيّ.

الآخرون فرضوا شرائع، وأخضعوا أتباعهم بقبضةٍ صارمةٍ، أمّا يسوع فنفح المؤمنين به روحه، روح الله، واستقطب حبّهم. الآخرون توجّهوا إلى شعبٍ، إلى جنسٍ،

إلى زمنٍ، أمّا يسوع فخاطب الخليقة كلّها، بلا تمييزٍ؛ موسى كان خادم الله، أمّا يسوع فكان ابنه.

القداسة هي دمغة رسالته. وقداسته هي بطولةٌ مطلقةٌ، لا وَهنٌ فيها ولا تراخٍ. القداسة تفجّرت على البشريّة من وجدانه، فقدّس كلّ ما لمسه. ومنذ ظهوره تضاعفت الفضائل، وباتت له موكبًا.

كلّ رسالته نابعةٌ من كونه ابن الله، ولا مهمّة له، في هذا العالم، سوى ترسيخ ملك أبيه، أو ما دعاه ملكوت الله، ملكوت السماوات. وكلّ ما قاله، وعلّمه، وفعله، طيلة حياته، حتّى صراعاته وموته المهين المجيد، لم يستهدف سوى هذه الغاية. كانت البشريّة في حاجةٍ إلى التكفير عن شرورها، فكان يسوع الحمل الضحيّة الطوعيّة لغسل أوزارها؛ كانت تجهل سيّدها فلقّنها اسمه، وكانت تجهل شريعته، فلقّنها شريعة المحبّة، وبذلك كان مؤسّس ملكوت الله. ما قاله يصلح لكلّ الأزمنة، وهو معاصرٌ اليوم، كما كان لألفَيْ عامٍ. إنّه النموذج الكامل للإنسان، لكلّ إنسانٍ في كلّ مكانٍ وزمانٍ. وما زال روحه هو المعين الذي يستقي منه البشر، بلا انقطاعٍ، حقيقة الله، والقوّة، والسلام.

همّ الرسالة أخذ بكلّ مجامع كيانه، وأنار دربه، وشدّ أَزره، وغذّاه طيلة حياته الخفيّة في الناصرة. في تلك الحقبة، روح الله وحده هو الذي نمّاه، وصاغه، وأعدّه لمهمّته. منه استمدّ كلّ شيءٍ، ولم يستمدّ من البشر شيئًا. فأيّ إنسانٍ كان كفيلاً بتعليمه ما يفوق البشر؟ كلّ ما رآه، وشعر به، وقرّره، ورغب فيه، استقاه من داخله؛ كلّ ما علّمه كان حيًّا في وجدانه، فجاءت أقواله صدًى نابضًا، نفّاذًا، له.

وعندما حانت ساعته انطلق كي يهتمّ بشؤون أبيه. وكان الله قد أعدّ له مسرح رسالته، وكان صوت سابقه قد دوّى موقظًا الضمائر، ممهّدًا لمجيئه.

ليست رسالته رسالة قدرةٍ وقوّةٍ، بل هي رسالة حبٍّ وخلاصٍ. وإن هو لجأ، عبر المعجزات، إلى إبراز قدراته، فلكي يدعّم رسالته الروحيّة. معجزاته كانت شهادة الله لابنه، وكانت أعمال رحمةٍ، وتعريفٍ بهويّة يسوع. لم يُجرِ أيّةً منها ردًّا على تحدٍّ أو ابتزازٍ، ولا إرضاءً لفضولٍ. ولم يحقّق إلاّ المعجزات التي أَرادها، في سبيل الغاية التي ابتغاها، حتّى اليوم الذي أحجم فيه عن إجراء أيّة معجزةٍ، كي يؤمن الناس

برسالته، من أَجله، وبحرّيّةٍ مطلقةٍ، كما فعلت الفئة الصغيرة التي مكثت عند أَقدام الصليب.

يسوع هو ما يعلنه وينفّذه تمامًا كما يقوله، ويموت وفاءً له، مؤثرًا الحقيقة على الحياة. وهذا ما يُضفي على أقواله سلطةً منقطعة النظير. والمسيحيّة التي انبعثت من رسالته هي وحدةٌ متكاملةٌ من أقوالٍ وأَفعالٍ. الإِصغاء إلى يسوع هو اتّباعه، واتّباعه هو المخاطرة بالحياة من أجل الحقيقة. وهذا ممكنٌ لأنّ يسوع فتح ثغرةً في العالم المغلَق الذي كانت البشريّة حتّئذٍ تدور فيه على نفسها، بلا أملٍ، ولكأنّها في زنزانة سجنٍ مؤبّدٍ.

والمسيحيّ الحقّ هو الذي يظلّ وفيًّا ليسوع، حتّى عندما تتعرَّض رسالته، رسالة الحبّ، للاضطهاد والسخريّة، وتبدو كأنّها أَعلنت إفلاسها، كما حدث يومَي الجمعة والسبت العظيمَيْن.

وبما أنّ الإحاطة بكلّ أوجه رسالة يسوع متعذّرةٌ، فسنتوقّف عند عناوينها الأساسيّة.

مَـلكوتُ ٱللّه (*)

لقد أوجز الإنجيليّ مرقس تعليم يسوع بقوله إنّه كان **ينادي بإنجيل الله قائلاً: «لقد تمّ ملء الزمان، واقترب ملكوت الله. فتوبوا وآمنوا بالإنجيل»**. هذه العبارات المقتضبة تختزل أُسس المسيحيّة: إقامة ملكوت الله على الأرض على قواعد التوبة والإيمان.

الزمان هو قرونٌ طويلةٌ تصرَّمت، وقاد فيها الله الأحداث، تمهيدًا لمجيء المسيح، وقد حان موعد تنفيذ الله لمخطّطات حبّه الرامية إلى النهوض بالخليقة المنحطّة، فجاء ملكوت الله في شخص يسوع، وارتبط بمصيره الشخصيّ.

مجرّد حضور يسوع كان دعوةً إلى تحوّل السلوك والقلوب، وتحوّل القلوب هو الوسيلة التي لا معدى عنها في سبيل الانضواء إلى ملكوت الله، أو ملكوت السماوات.

ملكوت السماوات، هو ملكوتٌ أسّسته السماء، ويقود إلى السماء. سماويّ المنشأ، سماويّ الهدف والشرائع، سماويّ المالك، ملك الدهور الأزليّ.

وملكوت الله، المُعارض لممالك الأرض، أسّسه المعلّم الأسمى، ويمارس عليه سلطةً شرعيّةً، وقد عنى به يسوع سيادة الله.

العبارتان، في الواقع، مترادفتان. غير أنّ عبارة «ملكوت السماوات» مألوفةٌ عند اليهود الذين يتهيّبون ذكر اسم الله. ولكنّ مرقس، ولوقا، وبولس آثروا تعبير «ملكوت الله» لأنّه أقرب إلى إدراك الرومانيّين واليونانيّين.

هذا الملكوت كان هدف يسوع وشعاره: فإن هو كرز فلكي يبلّغ بشرى الملكوت ويفسّر مقوّماته. وإن هو علّم الجموع على الجبل، فلكي يسنّ شرائعه؛ إن هو حدّث

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «مملكتي ليست من هذا العالم»، صفحة ٤٧٠، و«كنز الملكوت»، صفحة ٢٣٢، و«ملكوت الله في ما بينكم»، صفحة ٢٣٥.

الشعب بأمثالٍ، على ضفاف البحيرة، فلكي يرسم، بالصُّوَر، أسراره، ومنشأه، وتطوّره، وصراعاته، وانتصاراته. وإن هو صلّى، وعلّمنا الصلاة، فالتماسًا لمجيئه وترسّخه. وإن هو أفاض معجزاته، فلكي يثبت أنّه مؤسّسه وسيّده. وإن هو اختار رسلاً، فلكي يضمن لـه الخلود، والانتشار في المسكونة كلّها. وإن هو مات، فلكي يقهر، بموته، العقبات التي تحول دون استقراره، وإن هو أفاض روح الله في ضمائر من يؤمنون به، فلأنّ نفحات الروح هي جوهر الملكوت. وإن هو ابتغى أن يؤمن الناس به، فلأنّه المركز الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يستمدّ منه الروح الذي يعلن مملكة الله. وإن هو تجلّى أمام نفرٍ من تلاميذه، فلكي يبيّن لهم مصير الإنسان في هذا الملكوت. وإن هو كشف النقاب، في خطاباتٍ تنبّؤيّة، عن آفاق المستقبل، والأزمنة الأخيرة، فلكي يبيّن جمال العالم المعدّ للجنس الجديد من أبناء الله.

اليهود المتطرّفون كانوا يرون أنّ ملكوت السماوات هو انتصار إسرائيل الساحق، وعهدٌ ذهبيٌّ ستكون فيه الشمس أشدّ سطوعًا، ومياه الأنهر أغزر فيضًا، والفواكه أكبر حجمًا، وألذّ طعمًا.

وكانوا، كلّما، اشتدَّت وطأة مذلّتهم، والرزايا النازلة بهم، ازدادوا تطلّعًا إلى المسيح المنقذ الكفيل بإشادة مملكة إله إسرائيل، التي تعيد لهم كرامتهم، وتضمن سيطرتهم على العالم. ومن ثمّ كانت نظرتهم إلى المسيح تصطبغ بألوانٍ مختلفةٍ، وفق الرغبات والاحتياجات السائدة في كلّ حقبةٍ. فهي، تارةً، تُغرق في المادّيّة والمطالب السياسيّة، وتارةً أُخرى، يشوبها شيءٌ من الروحانيّة، ولكنّها دائمًا، تطلّعاتٌ عنصريّةٌ. ومع أنّ النبيّ أَشعيا كان قد رسم، بدقّةٍ، صورة المسيح الخادم المتألّم، إلاّ أنّهم أعرضوا عن تلك الصورة، ومحوها من أذهانهم، وظلّوا يتوقّعون مسيحًا محاربًا، مظفّرًا، يجعلهم أسياد الدنيا.

في تلك القلوب المحدّقة إلى الحضيض، وفي حين كان الصبح ينبلج، كانت الظلمات تشتدّ كثافةً. سيقول يسوع: «**طوبى لأنقياء القلوب**» فهم وحدهم سيرونه، وهم وحدهم سيطلبون ملكوته لا ملكوتهم.

* *

ومع ذلك ليس الملكوت الذي بشّر به يسوع حلمًا أوطوبيًّا، أو أُمنيّةً متوهّجةً بعيدة

المنال. فالربّ أكّد حضوره، وأعماله الخارقة شهدت له: فبفضله ظفر المرضى بالشفاء، والموت غدا سباتًا، والخطايا باتت تُغفَر، والشياطين أمست تفرّ، فيحلّ محلّها روح الله.

مع يسوع تحقّق حلمٌ قديمٌ قِدَم العالم، إذ تحرّر الإنسان تحرُّرًا كاملاً.

لطالما انتظر اليهود مسيحًا، فجاء البشريّة من هو أكثر من مسيحٍ، الله نفسه، متجسّدًا، مخلّصًا للبشريّة كلّها. اليهود توقّعوا ملكوتًا على هواهم، وحلموا بمسيحٍ سياسيٍّ، عنصريٍّ، يمكّنهم من بسط سطوتهم على العالم، ويسوع بشّر بملكوتٍ روحيٍّ، داخليٍّ، يحرّر النفوس من كلّ ثقلٍ أرضيٍّ، ويقوم على دعائم الحبّ والبذل. إنّه تحوّلٌ روحيٌّ جوهريٌّ يقتضي ارتدادًا مطلقًا، وانبثاق إنسانٍ جديدٍ، وشعبٍ جديدٍ. فعلى العالم القديم أن يزول، ويفسح مكانًا لعهدٍ قشيبٍ، إنّه نهايةٌ لعالمٍ مهترىءٍ، ولكنّه ليس نهاية العالم، بل بدء عالمٍ وليدٍ تشرق عليه شمسٌ جديدةٌ. كان اليهود يرجون سيادة شريعتهم، ويسوع دعا إلى سيادة الروح. كانوا يصبون إلى مسيحٍ مسلّحٍ بقوّةٍ أرضيّةٍ، ويسوع لم يدّعِ أيّة قوّةٍ أرضيّةٍ، ولم يُظهر سوى قوّة أبيه: الحكمة التي تلقّن الحقيقة الخالدة، والقدرة التي تشفي النفوس والأجساد. هم كانوا يحلمون بتغلّب ذرّيّة إسحق ويعقوب الجسديّة على كلّ الأمم والشعوب، وهو نادى بجنسٍ قشيبٍ من البشر الذين جدّدهم الروح. كانت لديهم قناعةٌ راسخةٌ بأنّ الانتماء إلى إبراهيم، والوفاء للشريعة، كافيان للانضواء تحت لواء شعب الله المختار، ويسوعُ لم يدعُ إلاّ إلى التحوّل الأخلاقيّ والروحيّ، والإيمان بتعليمه.

ولم يتخلّ عن أيٍّ من مواقفه هذه كي يستميل الشعب، بل جهد في تثقيف النفوس لاجتذابها إلى النور، وهو عالِمٌ بأنّه سيلقى أشرس مقاومةٍ.

لم يكن يسيرًا على اليهود تقبّل تعليم يسوع عن الملكوت فهو يناقض كلّ تطلّعاتهم، ويُبدّد كلّ أحلامهم. وبسبب تعليمه هذا وطّنوا العزم على صلبه. وقد لاقى يسوع عنتًا جمًّا في تسريب هذا التعليم إلى تلاميذه أنفسهم، إذ كانت التطلّعات اليهوديّة مهيمنةً على نفوسهم، متغلغلةً حتّى أقصى زوايا أذهانهم.

ومع ذلك لم يحفل يسوع بممالأة المشاعر الوطنيّة اليهوديّة، ولم يُشِر، يومًا، إلى

أنّه جاء كي يعيد الأمجاد والازدهار إِلى بني إسرائيل، ولم يوافقهم، مرّةً، على أنّهم «الشعب المختار»، مع أنّه خصّهم بباكورة تبشيره، كي يبدّد أوهامهم، ويقوّم اعوجاج عبادتهم لله الواحد التي كانوا روّادها، ولكنّهم أمعنوا في تشويهها، فاستأهلوا تأنيب الأنبياء الصارم.

كانت معاييره على نقيض معايير رابّييهم، فهي معايير محبّةٍ شاملةٍ، وصفاء نيّةٍ، ومن ترقىّ في معارجها كان الأقرب إلى الله. وقد توغّل في معارضتهم بحيث لم يتحرّج من إِنذار زعمائهم وعلمائهم، الذين كانوا يدّعون القبض على مفاتيح السماء، بأنّ الزواني والعشّارين– أي أولئك الذين كانوا يحتقرونهم أشدّ احتقارٍ– سيسبقونهم إلى رحابها.

كم مذهلاً كان يسوع! فهو يقضي بمحاكمة من يغضب على أخيه، ولكأنّه قتله. ويرى في نظرة شهوةٍ ما يعادل فعل زنًى. لا يرى مبرّرًا للقسم، إذ يكفي قول «نعم»، أو«لا» بصدقٍ. وهو ينبش حتّى جذور السلوك البشريّ. لا ريب أنّ سلامة المجتمع تستلزم قوانين موضوعيّةً، ولكنّ الإنسان أعمق من سلوكه ومظاهره. فكلّ شيءٍ يولد في مكمن الحياة الحميمة الخفيّة. ونظر يسوع يخترق سّر كلّ إنسانٍ، حتّى المكان القصيّ حيث يتلقّى وجوده ويوجّهه. فهناك ينبت العنف، والكذب، وازدراء الله.

ماذا يبتغي يسوع، إله المفارقات والرهافة؟ ألاّ يخلط البشر بين الله وبُناهم الأخلاقيّة والدينيّة، وأن يتقبّلوا القلب الجديد الذي يقدّمه لهم، في سبيل بلوغ كمالٍ هو نبعه وبحره.

الملكوت الذي أعلنه يسوع مختلفٌ عن كلّ ما عُرف من قبل، لا يمكن تصنيفه ولا تحديده. إنّهُ مشرَعٌ لمن رذلهم الناس وسكبوا القنوط في نفوسهم. ولكنّه مغلقٌ دون مدّعي الفضيلة المتعالين، ومزدري العامّة. ومن ثّم «**إنّ أوّلين كثيرين يصبحون آخرين، وآخرين كثيرين يصبحون أوّلين**».

إنجيل يسوع جديدٌ جدّةً مطلقةً. يجتذب البعض، ويقلق آخرين. في مدرسته يبدأ كلّ إنسانٍ بتعلّم «ألفباء» درب الله. غير أنّ هذا الإنجيل أدّى إلى خلخلة النظام الدينيّ المبنيّ على تعليم الرابّيين والكتبة.

لقد حلّ يسوع محلّ الشريعة، فمن آمن به، ومن خدم الصغار الذين تمثّل بهم ظفر بالخلاص.

من قبلُ، كان يتعيّن الصعود إلى الهيكل، والتطهّر، وتقديم الأَضاحي. وإذ بيسوع يغدو هو الهيكل الذي يُصعَد إليه عبر خدمة الأَصغر والأكثر حاجةً.

وتبدّلت محاور الخلاص. ولم يعد الدرب المفضي إلى الله هو الذي يصعّد من الأرض إلى السماء، عبر الهيكل، بل الدرب الذي انتهجه يسوع كي يمضي إلى مقهوري التاريخ. لم يَعُدْ كافيًا الاعتراف بأنّ الله المخلّص هو ذاك الذي يُتوسَّل إليه في الهيكل، بل بات من الواجب المضيّ إلى يسوع لتلقّن أنّ الله أباه، أبٌ يعتلن أبًا للفقراء، من جرّاء علاقته الجوهريّة بيسوع الإنسان «**الوديع والمتواضع القلب**»، ابنه الحبيب الذي، بتضحيته، افتدى العالم.

* *

بعض أكثر اليهود استعجالاً لحلول الملكوت اعتكفوا في الصحراء بمنأًى عن نجاسات العالم، وخاصّةً عن نجاسات الاحتلال الرومانيّ. وآخرون استخدموا السلاح معرّضين ذواتهم للقمع العنيف، ولكأنّهم كانوا يبتغون إكراه الله على إحلال الملكوت ببأسهم.

أمّا يسوع، فبعد خلوة تأهُّبٍ في الصحراء، غاص في عباب الجماهير، وراح ينثر بذور ملكوته، بصبرٍ، وتؤدةٍ، وإصرارٍ.

واعظون آخرون، كالمعمدان، لوّحوا بعقوباتٍ إلهيّةٍ، وأَشاعوا الخوف من الدينونة. أمّا يسوع فأعلن ملكوت الله على أنّه «بُشرى سعيدةٌ» كفيلةٌ بتعزية البائسين منذ الآن، وإغداق الفرح على الفقراء والصغار، وإيقاظ رجاء المقهورين. لقد أبى الانتحاب تحت ضغط رزايا وشيكة الحدوث، ووضع رسالته تحت شعار الفرح. لم يصّور الله إله عقابٍ، بل أبًا عطوفًا، وإله رحمةٍ، ووصف رسالته بأنّها رسالة خلاصٍ، لا رسالة إدانةٍ. ولكنّ خلاصه لا يتحقّق إلاّ بالتوبة، والتحوّل الروحيّ، وانتهاج الدرب الوعر، والتواضع. ولذلك لم يُقاوم سوى المتكبّرين المدّعين، والمرائين المنافقين.

مع يسوع خَلَف إلهَ الجيوش الذي يبطش وينتقم، إلهٌ وديعٌ يصفح وينزع الأسلحة..... يهوه كان يُرعد، ويسوع يبتسم ويصافح.

لقد كان رسولَ عزاءٍ وأملٍ إلى جميع منبوذي المجتمع، الذين خُيِّل إليهم، من جرّاء ما تعّرضوا له من إذلالٍ، ولاسيّما من قبل الرابّيين، أنّهم مُقصَوْن عن الملكوت، فدعاهم إلى التقدُّم منه بثقةٍ، وتقرَّب هو نفسه منهم، مؤكّدًا أن لا تمييز لديه، ولا فِئويّة. كما رحّب بإقبال الأمم الوثنيّة على الملكوت، مطيحًا بوهم «الشعب المختار»، وأكّد أنّ الملكوت حَدَثٌ روحيٌّ محضٌ، يأتي بلا ضجيجٍ ولا جلبةٍ.

هذه التعاليم الجديدة كانت بعيدةً، كلّ البعد، عمّا توقّعه اليهود، فلم يرَ فيه زعماؤهم منقذًا، على نقيض الفقراء والمنبوذين الذين أعاد لهم كرامتهم واعتبارهم، وهيّأ لهم مستقبلاً أشدّ إشراقًا من كلّ ما حلموا به.

لو كان الملكوت الذي أعلن يسوع مجيئه، أرضيًّا وزمنيًّا، لأفضى، حتمًا، إلى فشلٍ ذريعٍ. فهو لم يفعل شيئًا من أجل إقامة مثل هذا الملكوت، بل قاوم السعي إليه بكلّ ضراوةٍ، ولم يحلم، يومًا، بالجلوس على عرشٍ غير عرش الصليب، وقلوب المؤمنين به.

كلّ أفعاله وأقواله استهدفت تحرير النفوس من كلّ ثقلٍ أرضيٍّ، والانتقال بغزو الملكوت إلى ما يتخطّى العالم والموت، وإلى الانتصار، لا على جيوشٍ أرضيّةٍ، ولا حتّى على جيوش الرومانيّين المحتلّين، بل على أمير الشرّ، إبليس.

أعمال يسوع وأقواله أبعد مدًى من أعمال جميع الغزاة. عمله ثوريٌّ يتخطّى الحدود تخطّيًا مدهشًا، ويدكّ القلاع من الداخل. ومع ذلك لا يدّعي أنّه يندرج خارج الزمن، بل إنّه يملأ الزمن والتاريخ بثغراتٍ تنجلي عن تطلّعاتٍ لا متناهيةٍ صوب الأبديّة، وعن حياةٍ جديدةٍ، هي، في آنٍ واحدٍ، إلهيّةٌ، وأوفر إنسانيّةً.

* *

ولكي يُعِدّ يسوع الناس لإدراك مغزى الملكوت الذي جاء به مبشّرًا، شرع بإيحاء مشاعر القلق المصيريّ، والوجع الوجدانيّ، والتوبة، والجوع والعطش إلى البرّ، وكلّ ما يبشّر بانبلاج فجر ملكوت الله. وقد تمثّل إشراق هذا الملكوت على الأرض، بتبشير عامّة الشعب البسطاء، وشفاء المرضى، وطرد الأرواح النجسة، وتحرير النفوس من تراكم الفتاوى الشرعيّة التي حوّلت الشريعة إلى نيرٍ لا يُطاق.

* *

الجماهير انتظرت منه تصريحاتٍ مدوّيةً عن مستقبلٍ يقلب العالم رأسًا على عقبٍ. ولكنّه راح يروي قصصًا بسيطةً عن فلاّحٍ، وحبّة قمحٍ، وحبّة خردلٍ، وخميرةٍ، وكنزٍ مدفونٍ في حقلٍ....

لم يستفِضْ في وصف الملكوت، بل دعا إلى ولوجه في الحال، وببساطةٍ. لم يعكف على حساب موعد مجيء الملكوت، كما أجهد كثيرون أنفسهم في حسبانه، لأنّه كان يرى الملكوت حاضرًا، ماثلاً. فالملكوت ليس جسمًا غريبًا يأتي من الخارج، بل هو يراه قويًّا فاعلاً بتؤدةٍ وثباتٍ، مثل خميرٍ ينساب في العجين، ومثل بذارٍ ينمو فيما الفلاّح نائمٌ.

كان يسوع يرى الملكوت يتفجّر من أكثر الوقائع البشريّة بساطةً. فللحياة، في نظره، طعم الله، ولا داعي لانتظار انقلاباتٍ كونيّةٍ، إذ إنّ الملكوت ثاوٍ في صميم حياة البشر: في وجدان كلّ فردٍ، في نظرته، في أُسلوب تعامله مع إنسانٍ آخر، وفي السلوك الجماعيّ.

من هم مواطنو هذا الملكوت؟ إنّهم البشر اليقظون المستنفرون، المتخفّفون من الأعباء النافلة، الجاهزون، الخبيرون بالبناء، وبإعادة بناء الورشات الهشّة، باستمرارٍ؛ الذين لا يصنّفون البشر، والذين يتقصّون، لدى الجميع، نبل إنسانيّتهم المتواضع.

مواطنو الملكوت هم الكائنون الدَهِشون الذين يكلّمهم كلّ شيءٍ عن الله. هم الذين يبدعون النور والحبّ.

لقد انصبّ تعليم يسوع، وسلوكه كلّه على تقويض المفهوم اليهوديّ للملكوت، فعرّاه من كلّ صبغةٍ عرقيّةٍ، وسياسيّةٍ، ومادّيّةٍ، ودأب على إهماد كلّ المشاعر العنصريّة التي كانت تلهبها معجزاته، وقدراته الإلهيّة، وعلى ترسيخ مفهومه الجديد للملكوت الذي أشرعه على كلّ الشعوب والأجناس، بلا استثناءٍ ولا تمييزٍ، مبرزًا طبيعته الروحيّة الصرف، فهو سيُصلح كلّ خلَلٍ، ويكرّس انتصار الخير، نهائيًّا، على الشرّ، وانتصار الله على إبليس.

إنّه ملكوتٌ بحجم المسكونة جمعاء، لأنّ جميع حكّام الأرض وجميع الأمم ستستضيء بنوره. وعلى جميع الراغبين في ولوجه أن يتحلّوا بالفضائل والخصال التي هو اقتضاها، وأن يلتزموا بالواجبات الروحيّة التي فصّلها في التطويبات، وفي عظة الجبل، وفي سائر تعاليمه.

إنّه ملكوتٌ يستقرّ، أوّلاً، في نفوس الأفراد، ولا يُبنى على فتوحاتٍ خارجيّةٍ. أمّا شموله فلا حدود له. ملكوته لم يَعُد حِكرًا على اليهود، بل أُشرع على الوثنيّين والخطأة الذين يتوبون ويؤمنون، ويتخلّقون بأخلاق الملكوت.

ليس الملكوت دستورًا أخلاقيًّا محدّدًا بنصوص، بل هو ملكوت اتّحادٍ حيٍّ بالله. وهو إشعاعٌ لحبّ الله المجّانيّ في كلّ ضميرٍ. وفيه تجد دعوة يسوع إلى اللاعنف وإلى الإخاء الشامل، وإلى السخاء بلا حسابٍ، معينها الذي لا ينضب.

ملكوت الله، يتعارض وكلّ قوى العالم. «إنّه ليس من هذا العالم». إنّه يتخطّى كلّ ما هو عابرٌ، ويقضي على سطوة إبليس، ويقرّ، على الأرض، شرائع السماء. إنّه أرقى مستوًى من كلّ أفراح الأرض الهشّة، والسريعة التلاشي. ولكنّ واقعه الروحيّ يسبغ معنًى جديدًا على السعادة الإنجيليّة التي تهب الجرأة، واليقين، والرجاء.

حتّى أولئك الذين يُعتَقد أنّ ظروف حياتهم، وخطاياهم قد دمّرتهم إلى الأبد، إن هم تخطّوا المحنة بقوّة الإيمان، وجدوا السعادة في ملكوت الله. وهذا الملكوت هو إرثٌ لجميع الساعين إلى السلام، والذين يقاسمون الآخرين آلامهم، الذين صفت قلوبهم، والذين يُضطَهدون في سبيل الحقّ. فيه يلقى المتألّمون العزاء، والفقراء بالروح يغتنون، والظامئون إلى الحقّ والبرّ يرتوون.

وبذلك تصبح بشرى يسوع إعلان الخلاص، وتواصل العالم مع الحياة الإلهيّة؛ وتلك هي غايته الحقّة.

وليس ملكوت السماوات مستقبليًّا فحسب، بل هو قد شرع يتحقّق بتجسّد يسوع، ويترسّخ بتبشيره. ولذلك قال الربّ: «**إنّ ملكوت الله في وسطكم**».

وكان مجيء هذا الملكوت الفاصل بين عهدَيْن: زمن الشريعة والأنبياء الذي امتدّ من موسى حتّى يوحنّا المعمدان، وزمن الملكوت الجديد الذي استهلّه يسوع، وفتح أبوابه لكلّ راغبٍ في اتّباعه، والذي يُقتَحَم عنوةً بالجهد الشخصيّ، والتضحية، والمحبّة.

وهو ليس ملكوتًا للسماء، فقط، بل هو للأرض أيضًا، يبدأ على الأرض، وهو في داخل كلّ إنسانٍ. وعلى البشر تقبّله ببساطة الأطفال، وإفساح الفرصة له كي

يُحدِث تحوّلاً روحيًّا جذريًّا. وهو من السموّ وعظمة القيمة بحيث يستأهل أن يُضحّى، في سبيله، بكلّ شيءٍ. وقد شبّهه يسوع بحقلٍ دُفن فيه كنزٌ، اكتشفه فلاّحٌ، فباع كلّ ما لديه كي يبتاع الحقل، ويصبح الكنز ملكه. وشبّهه، أيضًا، بجوهرةٍ فريدةٍ منقطعة النظير، وقع عليها تاجر جواهر، فأخذ جمالُها بكلّ مجامع قلبه وفكره، فباع كلّ ما يملك كي يمتلكها. الملكوت هو فرصة حياة كلّ إنسانٍ، وصفقته الكبرى.

شروط الانضمام إلى الملكوت: التواضع، والتوبة، والثقة بالله، والتجرّد، والصفح، والمحبّة. أمّا العوائق دونه فهي: الكبرياء بكلّ أشكالها، ولاسيّما الرياء، والتظاهر بالتقوى، وعبادة المال. في حين أَنّ الطفولة تمثّل خير الاستعدادات المؤهّلة لولوجه.

الإيمان والثقة بالعناية الإلهيّة هما أساس جدوى الصلاة التي تصل الإنسان بخالقه. فالصلاة ليست ثرثرةً، وتكرار عباراتٍ، بل هي ثقةٌ بأبوّة الله، واستسلامٌ لمشيئته، وزهدٌ في متاع الدنيا ومُتَعها، وانعتاقٌ من همومها: «**من أراد أن يتبعني فلينكر ذاته، ويحمل صليبه ويتبعني**»، «**من يخسر نفسه، من أجلي، يخلّصها**». تجرّدٌ يبلغ حتّى التضحية الكلّيّة، البطوليّة.

وتتوّج المحبّةُ كلّ ذلك. فبما أنّ الله هو أبٌ للجميع، فالجميع إخوةٌ. وكلّ إنسانٍ قريبٌ، ولاسيّما إن كان مقهورًا ومحتاجًا، ومن ثمّ ينضوي إلى فئة من عدّهم يسوع ممثّلين له على الأرض. وكلّ إنسانٍ يُحاكَم على موقفه منهم.

الملكوت الذي يبشّر به يسوع هو دعوةٌ إلى انتهاج أسلوب حياةٍ جديدٍ قائمٍ على الحبّ، وكفيلٍ بإنشاء عالَمٍ جديدٍ، حيث يسود العدل، ولا يُهان فيه إنسانٌ.

وهكذا غدا ملكوت الله حالة سلامٍ، وتناغمٍ، تجمع، أبديًّا، لدى الله، من أحبّوا قريبهم، وأمست لهم رؤية الله، ومحبّة القريب سعادةً واحدةً. وغدا الصفح أحد أجلّ عناصر الملكوت شأنًا، فالله والصفح متلازمان. وأَمسى الملكوت ينفح مواطنيه لا أحلامًا أوطوبيّةً بل شعورًا عميقًا بالفرح المضيء، في جوار الآب.

هذا الملكوت ينمو ببطءٍ، ولكن بثباتٍ، مثل بذرة خردلٍ هي من أَصغر البذور، ولكنّها تُزرَع، فتنبت، وتنمو، إلى أن تصبح من أَكبر النباتات؛ وهو ينتشر بتؤدةٍ

وفاعليّةٍ حتّى يعمّ الكون كلّه، مثل مقدارٍ ضئيلٍ من الخميرة الذي يُدسّ في العجين فيتسلّل في كلّ أجزائه حتّى يُنضجه بأكمله. هكذا المسيحيّة، بعد ألفيْ عام، ما برحت في مستهلّ عهدها. ففي عين الله ألف عامٍ هي لحظةٌ.

والملكوت لا يبلغه الكسالى، بل يُقتَحَم، عنوةً، بالجهد. لا يتحقّق أيّ شيءٍ ذي بالٍ، إلاّ بالجهد، والتضحية، والزهد. وكلّ جهدٍ يُعدُّ ضئيلاً، إن هو بُذل في سبيل الملكوت. أوَ لم يقل يسوع: «**ادخلوا من الباب الضيّق، فواسعٌ هو الباب، وسهلٌ الطريق المؤدّي إلى الخراب، وكثيرون هم الذين ينهجونه، وضيّقٌ الباب، ووعرٌ الطريق الذي يقود إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه**»؟

ليس الفاترون، والرخوون، والمتردّدون هم الذين يرثون الملكوت، بل أُولئك الذين أَحدث فيهم وعيُهم لمقتضيات الملكوت زلزالاً داخليًّا، فجنّدوا، في سبيله، كلّ مواردهم الحيويّة، وأقصى طاقاتهم. هم الذين لا يكفّون يعيدون النظر في كلّ أُسلوب حياتهم، فالملكوت ليس جمودًا، وسُلطةً، وامتلاكًا، بل هو كفاحٌ، وتضحيةٌ، وبذلٌ، وخدمةٌ، وتطوُّرٌ، وتصعيدٌ صوب الأَسمى.

وهم الذين بتروا كلّ صلةٍ بماضي الأنانيّة، وانعتقوا من قيوده؛ هم الذين اجتازوا الباب الضيّق، وانطلقوا، بلا هوادةٍ ولا استقرارٍ، على دروب الله.

الملكوت طريق قمّةٍ مصعّدٌ، شقّه يسوع بعيدًا عن مرابع الإيمان الهيّن، وبعيدًا عن الحنين إلى الماضي. فيسوع يشدّنا إلى الأمام.

الملكوت هو الكنز الثاوي في أعماقنا، والذي يتعيّن علينا الجهد في اكتشافه، والتخلّي عن كلّ شيءٍ في سبيل اقتنائه.

إنّ بلوغ الله، والاتّحاد به، يتخطّيان كلّ القِيَم والمثُل، وكلّ غايات البشر، وأسماها قدسيّةً. ومن حقّق هذا الاتّحاد، ملك العالم بأسره.

إنّ عظمة الإنسان، بصفته صورةً للخالق، تكمن في قدرته على المساهمة في بناء الملكوت. عندما سيصبح الانتصار على الشرّ كاملا، سيتحقّق كلّ ما حلمت به ملايين الكائنات الذكيّة، وانتظرته، وأعدّت له. وأجمل ما أبدعه البشر سيدخل في الملكوت الأبديّ، وسيستهلّ عهد أبناء الله.

ومع ذلك، ومع أنّ هذا العالم غير كاملٍ، ومليءٌ بالأهوال والألم، سيُعترف فيه

بقوّة المسيح ومجده. يسوع يعد تلاميذه بمشاهدة الملكوت في هذه الحياة، فالملكوت يحلّ على الأرض في شخص ابن الله، وإعلانه، وانتصاره على الموت، وفي ظهور الروح.

إنّ نور الملكوت الذي يسحرنا يتألّق في الأفق. ولكنّنا نشهد انعكاساته، على مقربةٍ منّا، في أحداث حياتنا الصغيرة، في الأحداث اليوميّة، في أفراحنا وآلامنا، في زهدنا بأنانا، وفي تجاوزنا محننا. هنا والآن، يسعنا تذوّق الملكوت: إنّه في النجوم والزهور، في يقظة الطبيعة في الربيع، وفي ذهب الخريف، في جيشان المياه، في تكتكة المطر، في ألوان قوس قزح، في جرأة المفكّر، في عبقريّة الفنّان، في الكفاح والمعرفة، في الحبّ والصلاة، وفي قلوب القدّيسين.

* *

تحقيق هذا الملكوت كان يستلزم تدخّل الله المباشر، وهذا التدخّل تمّ من خلال يسوع، ابن الله وابن البشر، الذي يملك، في آنٍ واحدٍ، كامل قدرة الله، وكامل قدرة البشر. كان لا بدّ من أن يعتلن الله في حقيقته وإرادته الحقّة، بعد أن كان مجهولاً، ومُساءً فهمه. ويسوع وحده، من خلال اتّحاده المطلق بالله، يسوع الذي، وحده، يعرف الآب وكلّ أسراره، وحكمته اللامحدودة، قادرٌ أن يُعلن لنا حقيقةَ الله وإرادتَه.

كان لا بدّ من بثّ روح الله الذي اصطبغ به يسوع اصطباغًا كاملاً، في الإنسان الحرّ. ويسوع هو المنبع الوحيد لهذا الروح. وعلى الإنسان البهيميّ أن يتقبّل نفحات هذا الروح كي ينكر ذاته، ويتحوّل، ويؤمن. يسوع هو الذي يطالبه بهذا الواجب، ويزوّده بالقوّة على تحقيقه. وبما أنّ ملكوت الله معدٌّ لجميع العصور، ولجميع الشعوب والحضارات، فالله سيختار عَمَلَةً يواصلون عمله، بلا تخاذلٍ، وينشرون رقعة الملك الإلهيّ، ولهذا الغرض أوجد الكنيسة.

عناصر الملكوت الأساسيّة: رئيسٌ، وشريعةٌ، ورعيّةٌ. الرئيس هو يسوع، والشريعة هي روح الله الحيّ، أو مشيئة الآب، والرعيّة هي مجموع البشر الذين، بالإيمان، يتعرّفون رئيسهم، وينفتحون على روح الله بالتوبة، ويخضعون لإرادته بالحبّ.

حلول ملكوت الله، كما فهمه يسوع، لم يعد قضيّةً يهوديّةً، بل هو قضيَّةٌ إنسانيّةٌ.

والإنجيل الذي يحمل بشراه أمسى كتاب الجميع، والذي يحقّق ملكوت الله ليس مسيح اليهود، فحسب، بل الوسيط الكونيّ.

مع يسوع، حلّ ملكوتٌ جديدٌ، ملكوتٌ لا حدود له، ولا نهاية، ملكوتٌ سيدفع إلى الكمال كلّ ملكٍ سابقٍ، فيسود، فوق المادّة، والقوى البهيميّة، في نشاطٍ لا يفتر. إنّه روح الله الحيّ، الذي استحوذ على البشريّة، بيسوع، وفاض كي يكتسب كلّ النفوس الحسنة النيّة، وكلّ أجناس البشر، والحضارات كافّةً. وسيكون الملجأ الآمن لفقراء هذا العالم، وحزاناه، ووضيعيه، الذين يرهقهم الواقع الراهن، الذين يتوقون إلى تقدّمٍ مستمرٍّ على دروب الخير والحقّ، الجياع والعطاش إلى البرّ، الراغبين في قهر الشرّ، ولكنّهم عاجزون، بقواهم الخاصّة، عن ترويضه. إنّهم الأغلبيّة، إنّهم الجموع البشريّة. أمّا الآخرون، الراضون عن ذواتهم، العنيفون الذين يسحقون الضعفاء، المتكبّرون، المتباهون بعلمهم المحدود، وبشرعيّتهم، وبحكمتهم الباطلة، الفاسدون الذين يداهنون أنفسهم، ولا عهد لهم بقلق اللانهائيّ، لجميع هؤلاء سيظلّ الملكوت متعذّر المنال والفهم، وسيتخبّطون في الظلمات، والعذاب، بلا نهايةٍ ولا رجاءٍ.

ملكوت يسوع بدأ مذ بدأ يسوع يبشّر قائلاً: «**إنّ ملكوت الله هو في ما بينكم**». وسيستمرّ ينمو، مكافحًا الشرّ والخطيئة، ومصارعًا ملكوت إبليس، حتّى يكتمل في السماء. ولذلك لا نكفّ ندعو، مرّاتٍ عديدةً، كلّ يومٍ: «**ليأتِ ملكوتك**».

وبانتظار انتظامنا في ملكوت السماء، ترك لنا يسوع رمزًا له على الأرض، جماعةً لا تربط أعضاءَها وشائج دمٍ وجنسٍ، ولا لغةٍ ووطنٍ، ولا مصالح مشتركةٍ. لقد أسّسها يسوع على صخرٍ صلبٍ، ثابتٍ، وأوكلها إلى بطرس وخلفائه، وأودعها روحه، وزوّدها بنِعَم الأسرار، ووعد بمساندَتها حتّى نهاية العالم. إنّها تكافح معه وفي سبيله، حتّى تصبح الكنيسة المنتصرة، وتحيا إلى الأبد معه، ممجّدةً. إنّها كنيسته لأنّه أسّسها، ويرعاها من عليائه.

تعَـْليمُ يسَــُوع

حتّى اعتقال المعمدان، اكتفى يسوع، في أورشليم، وفي اليهوديّة، وفي السامرة، بالتمهيد لرسالته، ثمّ جاء إلى الجليل، كي يباشر هذه الرسالة. ويقول الإنجيليّ لوقا إنّ مجيئه هذا كان «**بقوّة الروح**»، فالجليل كان خير تربةٍ لتلقّي بذار الإنجيل وإخصابه، بعيدًا عن جوّ المقاومة والعداء، الذي واجه به الفرّيسيّون تعليمه في أورشليم واليهوديّة.

البدايات كانت مشرقةً، مثقلةً بالوعود، مثل ربيعٍ مشمسٍ مخضلٍّ. وقد أولته الجماهير ثقةً جذلى، وتراصّت من حوله، وانقادت لـه. كانت سمعته قد سبقته، بفضل الجليليّين الذين شاهدوه، وسمعوه، وسمعوا عنه، في أثناء حجّهم الأخير إلى أورشليم. وقد اكتسبت ذيوعًا وانتشارًا، في أعقاب تبشيره ومعجزاته.

الروح الذي جاء به إلى الجليل، تجلّى في أقواله، وأفعاله، وأسبغ على شخصه هالةً فرضت تجلّته. وقد اتّضح لجميع مستمعيه، منذ اللحظة الأولى، أنّ تعليمه لا يندرج في إطار أيّ تعليمٍ عهدوه. فهو يتكلّم بسلطةٍ فائقةٍ ذاتيّةٍ، تختلف، جوهريًّا، عن تعليم الكتبة الذين ما كانوا يأتون بجديدٍ، ولا يقدّمون من لدنهم شيئًا، بل يستشهدون بتعاليم السلَف، ويتوارون وراء اسم معلّمٍ شهيرٍ، ويتيهون في سراديب الفتاوى والقضايا التافهة، البعيدة عن الجوهر. في حين كان يسوع يتكلّم بسلطة النبيّ، ولا يتوانى عن مجابهة شريعة موسى، وتخطّيها. فهي، في نظره، قد أدّت مهمّتها المؤقّتة، مهمّة الإعداد والتثقيف، وآن لها أن تخلي مكانها لشريعة الكمال والشيوع، فلم يخشَ من الإعلان، بجرأةٍ: «**سمعتم أنّه قيل للأقدمين...، أمّا أنا فأقول لكم...**».

منذ الوهلة الأولى، فرض يسوع نفسه مشرّعًا، ودلّل، بذلك، على جرأةٍ فائقةٍ، في زمنٍ كانت الشريعة موضع تكريمٍ حتّى الوسواس، وعبادةٍ، بل تأليهٍ، بحيث صوّر علماؤها الله تعالى نفسه خاضعًا لها.

وعلى نقيض ذلك تميّز موقف يسوع باحترامٍ للوحي الإلهيّ، وبتأكيد حرّيّة السلوك، وفقًا لروح الله، وإدانته لحرفيّة الكتبة وعلماء الشريعة.

على خير ما في الشريعة من وحيٍ إلهيٍّ بنى يسوع هَرَمًا روحيًّا جديدًا، يتعيّن تجديده باستمرارٍ، وبَعَثَ، في ثناياه، حياةً قشيبةً.

لم يقتصر على حرف الشريعة: «لا تقتل»، «لا تسرق»، «لا تزنِ» بل استنبط أسمى ما في الوصايا، وارتقى منها إلى مُثُل كمالٍ باذخاتٍ، مستنهضًا أطهر ما في القلوب، وأنبله، وأسخاه.

ومن خلال فهمٍ عميقٍ لجوهر الوصايا وفحوى النبوءات، أبرز أسمى ما انطوى عليه الوحي الإلهيّ، الذي خفي عن كتبةٍ توقّفوا عند الحرف، وأغفلوا الروح.

تعليمه تجديدٌ كلّيٌّ، زقاقٌ جديدةٌ وخمرةٌ جديدةٌ؛ ولا يستقيم معه إصلاح ثوبٍ خَلِقٍ برقعةٍ جديدةٍ تبرز عتق الثوب.

وتعليمه سموٌّ لا يضاهى: فأيّ تعليمٍ يداني عظة الجبل؟

وما يضفي على هذا التعليم فرادةً، وخلودًا، ومصداقيّةً، مثال حياة يسوع، وكمال قداسته، وعظمة شخصّيته.

فيسوع لم يكن صاحب مدرسةٍ، بقدر ما كان هاديًا إلى روحٍ جديدٍ، ومعينًا لا ينضب لولاداتٍ أخلاقيّةٍ جديدةٍ.

إنّه مستودع أسرار الآب، ويقاسمه قدراته الكلّيّة. وهو المدخل الأوحد إلى الحياة الإلهيّة، وهو وحده يملك ما يعزّي ويشدّد من يأخذون بتعليمه.

علّمنا يسوع كيف يجب أن نكون، لا كيف يجب أن نعمل.علاقتنا بوصاياه ليست علاقة عبدٍ يخشى العقاب أو يطمح في مكافأةٍ. بل إنّ عملنا بهذه الوصايا يوثّق علاقتنا بالله، ويرسّخ اتّحادنا به، بحيث نتوغّل، يومًا فيومًا أبعد، في كماله وقداسته.

الخلاص، إذن، هو الاتّحاد بالحياة الإلهيّة، والخطيئة هي البعاد عن الله.

تعليم يسوع هو كشفٌ عن حقيقة الله، ومكافحةٌ لمملكة الشرّ. إنّه توثيق رابطة حبٍّ بين الله والبشر، وإعلان هذا الحبّ للملأ، وإطلاع البشر على حبّ الآب لهم، ونشر الثقة في حبّه.

وقد «كتب إِرنست رينان» حول تعليم يسوع:

«يسوع لم يبشّر بآرائه، بل بشّر بذاته،

«ليس إِلـهُ يسوع سيّدَ القَدَر الذي يقتلنا عندما يطيب له، ويدينا عندما يطيب له، ويخلّصنا عندما يروق له، بل هو أبونا. نسمعه عندما نسمع نفحةً رقيقةً تهتف فينا: «**أَبانا**».

«وليس إله يسوع الطاغوت المتحيّز الذي اتّخذ من إسرائيل شعبًا له، ودأب على حمايته ضدّ الجميع، بل هو إِله البشريّة كلّها.

«ربّما استخدم يسوع، بعض حِكَمٍ سابقةٍ، ولكنّه أضفى عليها سموًّا روحيًّا جعلها وكأنّها حديثة الابتكار، بحيث غدت الأَخلاق الإِنجيليّة أسمى ما أبدعه الضمير الإنسانيّ، وأجمل دستور كمالٍ رسمه معلّم أخلاقٍ، قطّ.

«لم يهاجم الشريعة الموسويّة، ولكن كان واضحًا، من كلامه، أنّه كان يتبيّن شوائبها، وعدم كفايتها».

لم يؤسّس يسوع دينًا قائمًا على شرائع محدّدة، بل رمى إلى ترسيخ ملكوت الله وروحه، داخل كلّ إنسانٍ. إنّه روحٌ ويقطن في النفوس، إنّه حبٌّ ويسكن في القلوب.

مقتضياته هي الأشدّ تطلّعًا إلى السموّ والكمال. معه لم يعد المطلوب التوافق مع الشريعة، بل مع كمال الله.

يقول «جان غيتّون» إنّ الفيلسوف الفرنسيّ الشهير «هنري برغسون» (Henri BERGSON)، اليهوديّ المولد، كان يرى أنّ العهد الجديد، ولاسيّما التعاليم التي انطوت عليها موعظة الجبل، هو دين الكمال، وأنّ مبدأه الأساسيّ لا يني يهيب بكلِّ إِنسانٍ: إنّك لن تسمو أبدًا، ولن تكبر أبدًا، بالقدر الكافي، وعليك أن تمضي، دائمًا، أعلى فأعلى.

لقد أَذهل الجماهير بجرأة تعليمه، وجدّته، وتميُّزه عن تعليم الرابّيّين والكتبة، فهو لا يستند على سلطة الأقدمين، وكبار العلماء السابقين، بل ينبع من ذاته، مؤكّدًا، بسلطةٍ علويّةٍ، أنّه هو من تكلّم عنه الأنبياء.

الكتبة صوت التقليد، ويسوع صوت ذاته، صوت الله، وهو يملك حقّ تأييد التقليد أو إصلاحه، أو نبذه.

تعليم يسوع يتجاوز زمانه... فهو لم يتلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ كفيلةٍ بجعل هذا التعليم مرهونًا بأوضاع المجتمع الذي عاش فيه.

بعض خصومه في زمانه، وبعض خصومه اليوم، يتّهمون تعليمه بالغرابة والعشوائيّة. ولا عجب، فليس لتعليمه من مرجعٍ سواه.

كان يفتح خزائنَ مغلقةً يملك، وحده، مفاتيحها، ولا يُحجم عن مخالفة الأقدمين، أيًّا كانوا، عندما يتعيّن الارتقاء من المقبول إلى الكامل، ومن الأرضيّ إلى السماويّ، ومن الحرف إلى الروح.

لم يكن يتلفظّ بكلام الله، وكأنّه كلامٌ غريبٌ عنه يهبط، في الحال، من السماء على شفتيه، بل كان يستمدّه من ذاته، بثقة من يقول قوله الخاصّ.

كونه هو ما يعلن، وتنفيذه، بدقّةٍ، كلّ ما يقول، وموته وفاءً لرسالته، مؤثرًا الحقيقة على الحياة، كلّ ذلك يضفي على كلٍّ من أقواله سلطةً منقطعة النظير.

ففي صميم الإيمان المسيحيّ لا يوجد كتابٌ، بل كائنٌ، هو يسوع، ويسوع هو كلمة الله الحيّة.

قد يتعذّر علينا اكتناه بعض أقواله، أو قد نستصعبها. ولكن، بمعزلٍ عنها، ليس لحياتنا معنًى.

والروح الذي كان يُلهم أقواله كان يؤيّدها، ويدعمها، ويضفي عليها مصداقيّةً لا تُدحَض، بما كان يجريه على يديه من معجزاتٍ مدهشةٍ، كانت تحمل القوم على الاعتراف، مثل نيقودمس، بأنّ ما من أحدٍ يقوى على فعل هذه الأفعال، ما لم يكن الله معه.

كلامه كان الإشارة الأكثر وضوحًا ونفوذًا إلى عمله. وكانت سلطة أقواله نابعةً من سموّ شخصه، ومن أعماله الخارقة المعجزة، ومن التناغم المطلق بين تعليمه وسلوكه، وخاصّةً من علاقته المميزّة بالله. فهو يحيا بكلّيته في الله وبالله، ولا شيء يفرّقهما. وتمثّلت مهمّته في اقتسام خبرته الإلهيّة مع البشر، لكي يمتلكوا مثل يقينه، ويحيطوا بحقيقة الله.

لم يلقّن نظريّاتٍ عن اللّه، بل قدّم اللّه للبشر عزاءً وسندًا ومعنًى للوجود. لم يشرح هويّة اللّه، بل بيّن كيف يعامل اللّه بحبٍّ. واللّه تجسّد كي يكون حاضرًا للجميع، ولكلٍّ وفق حاجته إليه، وخاصّةً لمن أُوهموا انّهم منبوذون من نعمته وملكوته، للمحرومين والمهمّشين، الذين بات لهم ملجأً، فلم يعد عليهم الهرب من وجهه، بل الإقبال إليه بثقةٍ.

لقد أعلن للجميع أنّ اللّه قريبٌ منهم، وأنّ السماء هي حيث اللّه، وبذلك تسامى فوق اليهوديّة التي كانت تضع اللّه بعيدًا عن البشر، وفي غياهب التاريخ.

رؤيته هذه، اختزلها بتسمية اللّه «**أبانا**»، في حين كانت اليهوديّة تتهيّب من لفظ اسم اللّه. لقد تكلّم يسوع بحرّيّةٍ عن اللّه أبيه، ودعاه «أبّا» للدلالة على الأُلفة والحميميّة بين اللّه وابنه، وأبنائه. وليس من أسلوبٍ للتحدّث عن اللّه أوفر أُلفةً، وإيحاءً بالاطمئنان، والسكون، والفرح، والسعادة.

* *

لم يلقّن يسوع علمًا دينيًّا موروثًا، بل خاطب ضمائر الأفراد عن رسالته، ولم يشفِ العالم بصفته مجموعةً مُغفَلةً، بل أعاد الصحّة إلى أفرادٍ معتلّين. لم يؤسّس طقوسًا جديدةً، ولم يتحرّج من اقتسام خبزه مع من كان يعدّهم اليهود أنجاسًا.

أسلوب تعليمه كان يدهش مستمعيه ويأسرهم، وسلطته الفائقة كانت تجتذب وترهب، تقلق وتحرّض.

وقد استخدم ألفاظًا مألوفةً شائعةً للتعبير عن رسالةٍ جديدةٍ كلّ الجدّة، وساميةٍ كلّ السموّ.

* *

مهمّته التعليميّة كانت ممعنةً في الصعوبة والتعقيد. فقد كان عليه أن يعالج قضايا سيُسيء كثيرون من مستمعيه فهمها. فهو عندما يتكلّم عن مصارعة الشرّ، كان بعض مستمعيه يفسّرون قوله هذا دعوةً إلى مقارعة الرومانيّين، وعندما كان يتحدّث عن ملكوت اللّه، كانوا يرون فيه مملكة إسرائيل. ولكنّه عالج تلك المواضيع كلّها بصبرٍ، وحنكةٍ، وبساطةٍ تسلّلت إلى أذهان سليمي النوايا، وبصراحةٍ، كسبت له عداء زعماء شعبه الذين صلبوه.

* *

لم يفرض يسوع سننًا أَخلاقيّةً واجتماعيّةً، ولم يحدّد طقوس الصلاة، ونصوصها، وتوقيتها، ولم ينظّم قواعد غذائيّةً، وعلاقاتٍ جنسيّةً وأسرويّةً، ولا أساليب النظافة البدنيّة، الخاضعة للتطوّر والتغيّر، بل عكف على إرساء مبادىء روحيّةٍ خالدةٍ، كفيلةٍ بإرشاد الضمائر إلى ما يتوجّب عمله في كلّ حينٍ. واقتضى تحوّل الكيان كلّه تحوّلاً مستمرًّا وتطوّرًا شخصيًّا عميقًا يفضي إلى تغييرٍ شاملٍ. إنّه جهدٌ جبّارٌ خلاّقٌ تبهت إزاءَه الشرائع والفرائض والطقوس.

ولا غروَ أنّه من الأيسر الخضوع لفرائضَ وطقوسٍ محدّدةٍ بدقّةٍ من الجهد المطّرد نحو تحوّلٍ نفسيٍّ وروحيٍّ مستمرٍّ.

أقواله أخطر شأنًا من أشفيته، وما أشفيته سوى مصداقٍ لأقواله وتأكيدٍ لقدراته الإلهيّة.

وقد وصف القديّس يوحنّا في رؤياه (١٦:١) تعليم يسوع بقوله: «**من فمه يخرج سيفٌ صارمٌ ذو حدَّين**».

فكره كان منزَّهًا من أيّ أثرٍ لأحكام شعبه وحِيَله، ومتحرّرًا من العنصر الوطنيّ والسياسيّ الذي سيطبع بميسمه غيوري شعبه، ومن العنصر الشرعيّ الموسويّ الذي يميّز الفرّيسيّة. ما من عبقريّةٍ، في التاريخ، انعتقت من الأخطاء الشائعة في زمانها، ومن طابع بيئتها المهيمن. ولكنّ يسوع أفلت من وهن العظماء هذا. ففكره صافٍ لا يحمل سوى سمات الحقيقة: أي الشمول، والخلود، والثبات. ومن كلّ الخواطر التي أبدعها الذكاء البشريّ ليس ما يدانيه سموًّا، وعمقًا، واتّساعًا، واستمرارًا. إنّه، أبدًا، معاصرٌ وضروريٌّ إنّه الأنصع إنسانيّةً، والأسمى إلهيّةً.

كان يتصدّى لأكثر القضايا الأخلاقيّة خطورةً، ويجزم فيها جزمَ المعلّم المشرّع، الذي لا مرجع له سوى ذاته الإلهيّة. فأدهش الجموع، وهزّ وجدانها، فلم يقوَ على مقاومة فتنته حتّى أولئك الذين كانوا عبيد الصِّيَغ البالية.

معلّمو الشريعة يردّون على تساؤلات الحاضر بالالتفات إلى الماضي، أو التطلّع إلى المستقبل. أمّا يسوع فلديه طريقةٌ مدهشةٌ في تناول الحاضر بكلّ واقعيّته.

أقواله لا تنبع من جدَلٍ فلسفيٍّ، ولا هي تفسيرٌ لأقوال معلّمين مشهورين، بل هي تلقائيّةٌ، حدْسيّةٌ، تتفجّر من نفسٍ فيّاضةٍ، ورؤيةٍ إلهيّةٍ، ومع ذلك يقودها منطقٌ

مُحكَمٌ. وهو يخاطب، مباشرةً، العقل، والنفس، والقلب، والخبرة الشخصيّة لدى مستمعيه. يبسط مبادئه بوضوحٍ، ويستخلص نتائجها بدقّةٍ. وهكذا يرتقي بالأفكار فوق الأحاسيس الأرضيّة، صوب مجالات الحقائق السماويّة، وملكوت الله. ما من كلمةٍ نافلةٍ تجري على شفتيه. ومن المحقّق أنّ قوّة أقواله تدين كثيرًا لاقتضابها، وكثافتها، اللّذين لا يفقدانها شيئًا من وضوحها واتّزانها.

في مستهلّها، بشارةُ يسوع تحاكي بشارة المعمدان: كلتاهما تعلنان اقتراب الملكوت، وتدعوان إلى التوبة، وتتبنّيان طقوس العماد. ولكن، في حين يمكث يوحنّا في موقعه، وينتظر أن يأتي إليه جمهوره، يسوع يمضي نحو الجماهير، ويجوب المدن والقرى. يوم السبت يُلقي خطبًا في المجامع ودور الصلاة، وفي سائر أيّام الأسبوع يجلجل صوته في الهواء الطلق، حيثما تجمّع قومٌ متعطّشون إلى الكلمة الخلاصيّة.

كان يتمتّع بقوّةٍ روحيّةٍ مسيطرةٍ، وبنفوذٍ بليغٍ. تعليمه، وفصاحته، ومعجزاته، كانت تبرز كائنًا فذًّا يفتن الجماهير، ويصدم الخيال، ويوقظ الفضول والاندفاع.

لم يعتمد برنامجًا تعليميًّا، ولم يفتح مدرسةً، ولم يلقّن نصوصًا غيبًا، بل كان يعلّم حسبما تقتضي الظروف، في المجتمع، في الشارع، على سفح تلّةٍ، أو على ضفّة البحيرة، أو على متن مركب صيدٍ يتّخذ منه منبرًا.

وكانت فترة تعليمه هي الأقصر مدًى، قياسًا إلى جميع مؤسّسي الأديان الآخرين. ولذلك بدا مستعجلاً في إتمام مهمّته بالغة الخطورة: «**لقد جئت لأُلقي على الأرض نارًا. وكم أودّ لو تكون قد اضطرمت!**» (لوقا ٤٩:١٢).

فقد كان عليه أن يبلّغ أسمى رسالةٍ في أقصر فسحةٍ زمنيّةٍ.

العباقرة يحتاجون إلى سنين طويلةٍ لتثقيف تلاميذ، وتوطيد مؤسّساتٍ، وإصلاح دينٍ. وقد فعل يسوع كلّ ذلك، في غضون أشهرٍ معدوداتٍ. فأعلن عن هويّته، وتسرّب إلى ضمير البشريّة، مستعينًا بجليليّين بسطاء، جعل منهم رسله، ودشّن معهم ملكوتًا لن يكون له حدودٌ في الزمان أو في المكان. ضآلة وسائله الظاهرة، غير المتناسبة مع جسامة النتائج، لغزٌ يقف حياله التاريخ حائرًا، ويتوسّم فيه علامة الألوهة. فتحت اسم «ابن البشر» الذي أطلقه على نفسه، كان يتجلّى ابن الله،

حقًّا. بسرعة البرق استولى على قلوب رسله المستقبليّين. وكانت سطوته من النفوذ بحيث إنّ حرس الهيكل الذي كُلِّفوا بالقبض عليه، ما إن سمعوا كلامه، حتّى استحوذ على نفوسهم جلاله، وعادوا أدراجهم، ولم يجسروا على تنفيذ مهمّتهم. شيءٌ فيه كان يُكره حتّى أعداءه على مخاطبته باحترامٍ. مجرّد مظهره، وبضع كلماتٍ منه، أثارت لدى بنطيُس بيلاطس شعورًا سرّيًّا، غير إراديّ، بالإجلال. وخبراء الكتاب المقدّس كانوا يسمّونه: رابّي، يا معلّم!

سرٌّ مقلقٌ، وجاذبٌ نفّاذٌ يتعذّر تفسيره، كانا يخلقان، حول يسوع، جوًّا من الحبّ، والفرح، والإيمان. وقد يؤنس تلاميذه، وهم إلى جانبه، ضربًا من الاضطراب والخشية، بسبب قربهم ممّن لا يحيط به وصفٌ. ومع ذلك يتحدّث يسوع ببساطةٍ فائقةٍ، ولا يتحرّج من الاشتراك في عرسٍ، أو من الجلوس إلى مائدة عشّارين. وهو أبعد ما يكون عن زاهدٍ منقطعٍ عن العالم، أو عن مراقبٍ ناقدٍ لسلوك الآخرين، بحيث لا يتورّع خصومه عن وصفه بالأكّيل، الشرّيب.

لقد امتلك سرّ تحريك قلوب الشعب من غير إثارة أهوائه الأرضيّة، وسرّ التنازل إلى مستوى وهن مستمعيه، من غير الاضطرار إلى مداهنتهم. ومع كلّ فئةٍ، كان يستخدم لغةً تُحسن فهمها. فهو، مع تلاميذه، يفتح قلبه فتتدفّق منه الحقيقة مليئةً بالحنان والرقّة، أمّا المثقّفون النابهون فيواجههم بالكتب المقدّسة، ويفحمهم بنقاشاتٍ لا يُقاوَم لها منطقٌ، ويُنزل لعناته على نواياهم الخبيثة. وأمّا الشعب، فيبسط لهم تعليمه مغلّفًا بالأمثال العذبة.

ويسوع، في تعليمه، صبورٌ، لأنّه يعلم أنّ إنجيله وتعليمه المعدَّين لإنارة الأجيال، سيحتاجان إلى أجيالٍ كي ينفذا إلى الأذهان، ويجدّدا العالم. ومهما كان الإنسان واهنًا، والحقيقة ساميةً، إلاّ أنّ بين الحقيقة والإنسان وشائجَ متينةً، فأحدهما يدعو الآخر. وإذ عجز الإنسان عن الترقّي إلى الحقيقة، انحدرت الحقيقة إلى الإنسان. ومثلما تجسّد الله في الإنسان يسوع، تجسّدت الحقيقة الإلهيّة في الأمثال التي خرجت من شفتيه، كي تجد سبيلها إلى مدارك أصغر أبناء الشعب، وبها استعاض عن الصِّيَغ الجامدة، النهائيّة.

المثل هو روايةٌ متّشحةٌ باللغز، مدهشةٌ، تفتن المؤمنين والشعراء في جميع الأزمنة.

وقد أسهبنا في التحدُّث عن الأمثال في تعليم يسوع، في سياق الفصل الذي أفردناه لأمثال الملكوت

لم يحتجْ يسوع إلى ابتداع وسائل إيضاحٍ مصطنعةٍ لتبيان الحقائق التي أراد تلقينها. فقد كانت هذه الوسائل بمتناول يده، في الطبيعة، وفي سلوك البشر.

على غرار جميع الرواة الشرقيّين لم يكن خطاب يسوع كلامًا مجرّدًا، بل كان صُوَرًا جميلةً، وعباراتٍ مثقلةً برموزٍ شاملةٍ يسع أيّ إنسانٍ فهمها، توحي أكثر ممّا تحدّد، وتتّسع، غالبًا، لتأويلاتٍ متعدّدةٍ.

الأمثال تعبيرٌ طبيعيٌّ يستخدمه فكرٌ يرى الحقيقة من خلال صُوَرٍ حسّيّةٍ، ولا يتخيّلها مجرّدةً. إنّها استعارةٌ أو مقارنةٌ مستمدَّةٌ من الطبيعة، أو من الحياة الشائعة، وتصدم المستمع بحيويّتها وغرابتها، ويزرع تطبيقُها الدقيق في الفكر قدرًا كافيًا من الشكّ بحيث يولّد تفكيرًا ذاتيًّا.

المشاعر التي كانت توقظها حكايات أَمثال الإنجيل البسيطة تلائم كلّ زمنٍ، وتخاطب كلّ إنسانٍ. ومن هذا الواقع ينشأ خلود الإنجيل، ويظّل يسوع معاصرًا. ونظلّ نهتزّ لأمثاله، لأنّها، دائمًا، تسائلنا، ولأنّ عواقبها لا تُناقَش. فهي أكثر من قصصٍ ذات هدفٍ تثقيفيٍّ وأَخلاقيٍّ، إنّها وقائع نحياها دائمًا، ومن خلالها يبتغى يسوع جعل البشر أعمق إنسانيّةً، ويحرّضهم على التطوّر.

شعور يسوع المرهف بالطبيعة كان يزوّده، في كلّ لحظةٍ، بصورٍ زاهيةٍ معبّرةٍ ولكن ليست كلّ أمثاله مستقاةً بأكملها من الواقع اليوميّ الراهن، بل إنّ كثيرًا منها ينطوي على لفتاتٍ مدهشةٍ. فيسوع يرمق الواقع بنظرةٍ نيّرةٍ، فيها، أحيانًا، شيءٌ من المتعة، وفيها دائمًا، كثيرٌ من الدفء. ولكنّه عندما يشرع يروي، يعبث بهذه اللوحات الصغيرة، فيفيض غرابةً، وفرحًا. لماذا؟ لأنّه يبتغي التنويه باقتحام اللّه العالَم الذي يُحدث انقلابًا في كلّ شيءٍ: في عاداتنا المألوفة، وفي نظرتنا.

فهل نحن نشهد، كلّ يومٍ، صائغًا يبيع كلّ محتويات مخزنه كي يبتاع جوهرةً واحدةً، فريدةً، كان يحلم بها؟ أو هل نشهد، كلّ يومٍ، أبًا يقيم احتفالاً صاخبًا بعودة ابنٍ بدّد قسطًا من ثروة الأُسرة في الخلاعة والمجون؟ ولكن، متى شاء اللّه،

انقلبت كلّ الموازين. فالآب هو المبذّر الذي يثق ثقةً مجنونةً، ويراهن بكلّ شيءٍ على أبنائه.

تكلّم يسوع بلغة عصره، ولكن لم يتكلّم أحدٌ بمثل رقّته، وإحساسه، وتلقائيّته البسيطة، التي تجعل كلامه ينفذ إلى القلب مباشرةً.

مَن، مثله، تكلّم عن الحبّ؟ ومَن، مثلَه، ربط ربطًا وثيقًا بين الإيمان باللّه، وخدمة كلّ أخٍ في البشريّة! مَن، مثله، ذاد عن حياض الصغار، والضعفاء، والفقراء، والمرضى، والمبتلين بشتىّ ضروب العلل؟ ومن، مثلَه، أوضح للبشر مستلزمات وضعهم البشريّ التي لا محيد عنها، في هذا العالم، وفي الآن عينه، أشرع لهم رجاء حياةٍ كفيلةٍ بتخطّي الموت إلى الأبد؟

من مثله، برهن عن مصداقيّة أقواله بحياته، واستنهض جيشًا ممّن تمثّلوا به، منذ عهده حتّى اليوم؟ وبما أنّه إنسانٌ حقٌّ، فقد كان موته حقيقيًّا. مات ولم يكن قد كتب شيئًا. ومع ذلك ما برحت قضيّته معاصرةً. وهذا يعني أنّ شيئًا خطيرًا قد حدث إثر موته، وما زال فاعلاً.

كان حسبه أن يُجيل نظره كي يحدّثه أوّل منظرٍ يطالعه عن الآب وملكوته. وكلّ شيءٍ يقع عليه بصره يصلح ليكون مثلاً. كان يحيا، دائمًا، هذا التواصل بين حياة البشر، وزيارة اللّه المستمرّة لهم.

كان يشحذ الأذهان، ويحرّض على البحث المطّرد، ولكن، دائمًا، انطلاقًا من واقعٍ عاديٍّ مألوفٍ، ومن أحداث الحياة اليوميّة. وليس، مثله، من ينصت إلى الحياة التي تحدّث عن زيارة اللّه المستمرّة.

نظر يسوع يتلقّف أصغر تفاصيل الحياة، وهو دائمًا مرتاحٌ، وسط الجماهير، وهو عميق الإنسانيّة: فهو يذرف الدموع، ويتألّم، ويدهش، ويفرح، ويُقبّل الأطفال، ويتأمّل زهرةً. أقواله تزخر بالرأفة على الأوهان البشريّة. ولكنّ ذلك لا يحدّ من اقتضائه الكمال الأقصى. إنّه يتكلّم برقّةٍ وطيبةٍ، ولكنّه يعرف كيف يكون صارمًا، بل قاطعًا، وساخرًا أحيانًا: «**تصفّون شرابكم من البعوضة، وتبتلعون جملاً**». عمومًا، هو مثال الوداعة والصبر، ولكنّه لا يرأف بالمرائين. بيديه يطرد تجّار الهيكل، ويثور على هيرودُس أنتيپاس، وعلماء الشريعة، ويأخذ على تلاميذه قلّة إيمانهم.

إنّه هادئٌ، وساكن الروْع، ولكنّه يغضب ذَوْدًا عن حياض اللّٰه. ومع ذلك، ما أبعد الاضطراب، وانعدام التناغم عنه! إنّه لا يفقد، لحظةً واحدةً، اتّزانه، وصفاء رؤيته. ومع أنّه غائصٌ، بعمقٍ، في واقع الحياة اليوميّة، يجد ذاته في عالمٍ آخر، في وحدةٍ مع الآب. والقريبون منه يعرفون أنّه لا يستهدف إلاّ غايةً واحدة: تنفيذ مشيئة من أرسله.

إنّه غريبٌ تمامًا عن الهَوس، والاندفاع المرضيّ، والتعصّب الأهوج، التي يتميّز بها بعض الصوفيّين، والزعماء الدينيّين. وملامح شخصيّته الأساسيّة هي الوضوح، والحكم السديد. عندما يتكلّم في أمورٍ علويّةٍ، ويدعو إلى إنجازاتٍ كبيرةٍ، والتزاماتٍ صعبةٍ، يفعل ذلك ببساطةٍ متناهيةٍ، بمنأًى عن الإثارة المفرطة. وهو يحسن النقاش البسيط، عند مثابة بئرٍ، أو على مائدة مأدبةٍ. ولكنّه يتلفّظ، أيضًا، بأقوالٍ تدع الجميع يفغرون شفاههم دهشةً: «**أنا خبز الحياة**». وهو كثيرًا ما يتحدّث عن مِحَنٍ، ولكنّه يُشيع، في كلّ مكانٍ، النور، والبَرَكة، ويجعل الحياة تتجلّى.

قال غوتيه: «الأناجيل الأربعة حقيقيّةٌ وصادقةٌ، لأنّها تعكس سموًّا روحيًّا مصدره شخصيّة المسيح، وهي إلهيّةٌ أكثر من أيّ شيءٍ على الأرض».

على نقيض رهبان قمران، لا ينبذ يسوع العالم، ولا يخفي كنوزه الروحيّة، بل يبسطها بين يدي الشعب: «**لا يوقد أحدٌ سراجًا، ويضعه تحت مكيالٍ، بل يرفعه عند الباب، كي يضيء جميع من في البيت**». وهو يبتغي الكرازة بكلام اللّٰه على الأسطحة. ولذلك هو لا يستخدم اللغة العبريّة، لغة العلماء، بل اللهجة الآراميّة التي يستخدمها كلّ الناس، كلّ يومٍ، وقد ترك لنا الإنجيلُ العديدَ من العبارات العذبة، في تلك اللهجة، على نحو ما تلفّظ بها يسوع.

وهو يؤثر الأمثال المستقاة من الحياة اليوميّة، وبها يعبّر عن أسمى تعاليمه. بها يتوجّه لا إلى أذهان مستمعيه فحسب، بل إلى الإنسان كلّه. بوصفه مشاهدَ من الطبيعة، ومن أحداث الحياة اليوميّة، يدفع مستمعيه إلى استخلاص العبرة من حديثه. وهكذا، ومن غير استخدام لفظةٍ مجرّدةٍ واحدةٍ تعني التضامن الإنسانيّ، روى حالة يهوديٍّ هاجمه اللصوص على طريق أريحا، ولم يسعفه سوى سامريٍّ واحدٍ، ممّن يعدّهم اليهود أعداءً، ويحتقرونهم. هذا النمط من القصص ينفذ إلى النفس مباشرةً، ويثبت أنّه أجدى من كلّ تأمّلٍ ذهنيٍّ مجرّدٍ.

ولئن ارتبط تبشير الإنجيل ارتباطًا وثيقًا بجمال طبيعة الجليل، فلذلك معنًى عميقٌ: إعلان ملكوت الله لا يدوّي، للمرَّة الأولى، في المدن الكبيرة، المغبَرَّة، الخانقة، بل عند شاطئ بحيرةٍ لازورديّةٍ، وسط أحراجٍ وتلالٍ خضراء، كفيلةٍ بتذكيرنا أنّ جمال الأرض هو انعكاسٌ لجمال السماء الأبديّ.

كانت حقبة تبشيره في الجليل ربيع ملكوت الله. وسيكون لعبور يسوع بتلك البُقعة أصداء ستدوّي في المسكونة كلّها، وستذاع أقواله في كلّ أنحاء العالم، وسيمتدّ تأثير عمله على ضفاف البحيرة إلى كلّ شواطئ الدنيا. الشريعة التي سيسنّها على إحدى هضاب الجليل لن تكون سنّةً عابرةً محدودةً، بل ستكون الشريعة الخالدة الشاملة التي ستحكم كلّ الضمائر. والعجائب التي سيجريها هناك، لن تكون مجرّد أشفية مرضى بائسين، بل سترمز إلى إبراءٍ، غير منظورٍ، لقلوبٍ جريحةٍ، ونفوسٍ مشلولةٍ، وأفكارٍ عمياء، يزخر العالم بكلّ أنماطها. وحفنة التلاميذ الذين سيختارهم من تلك البقعة، سيصبحون الكنيسة الكبرى، وسيتعاقبون على مدى العصور، وسيكتسبون المعمورة ليسوع.

* *

وقد امتلك يسوع، في سبيل تحقيق رسالته، قدرة الله التي تُرجمت بشريًّا إلى حكمةٍ، وقوّةٍ، وعطفٍ: حكمته تنير العالم، وقوّته تحكم المادّة والأرواح، وعطفه يجتذب الجموع. ولم يكن يسوع يفتقر إلى شيءٍ ممّا يضفي على الكلام جدوى وأثرًا. ويُشير الإنجيليّون، بلا تبجّحٍ، وبكلماتٍ متقتضبةٍ، إلى تأثيره في القوم. وقد أورد مرقس قولهم: «**من أين لـه هذا! وما هذه الحكمة التي أوتيها، وهذه المعجزات التي تجري على يده؟**».

إنّ ما ندعوه بلاغةً، لم يكن فيه فنًّا، بل كان موهبةً من الروح، رائعةً، إذ لم يمتلك أحدٌ، مثله، سرّ الإقناع والتأثير، ولم يسرّب أحدٌ، قبله، إلى النفوس، قناعاتٍ أمنع وأسمى، وفضائل أكثر بطولةً، وقدرًا أكبر من الطاقات والحبّ. كلامه كان المخل الذي، به، يزحزح العالم، ولكلّ إنسانٍ كان يقول الحقيقة التي تغيّره وتنقذه.

الكلام البشريّ، هو، غالبًا أجوف، ولا يعبّر إلاّ عن حقيقةٍ تافهةٍ، ناقصةٍ، يحدّ الجهل من مداها ويشوّهها الضلال والهوى؛ وهو قلّما يلتهب بنار الروح؛ عن ذلك ينجم عجزه وعقمه. الحياة الضحلة التي ينطوي عليها سرعان ما تنضب، مثل الفكرة اللاهثة، والقوّة الخجول التي تلهمها. وإنّ أغنى الأقوال البشريّة امتلاءً، وأقواها نبرةً، لا تتخطّى حدود شعبٍ أو جيلٍ.

أمّا كلام يسوع، فيترجم كلّ نفسه، ويجسّد فكر الله وقدرته. إنّه روحٌ وحياةٌ: إنه أصالةٌ مطلقةٌ، سموٌّ وتألّقٌ، قوّةٌ وجدوى، صارمٌ كالسيف، يمتاز بمضائه وبحدَّيه البتّاريْن. قد يزول الكثير، ولكن كلام يسوع يظلّ يتوهّج كالنجوم في حلك الليالي. وسيظلّ العالم يردّد أَقواله المأثورة. فأيّة صلاةٍ تجاسرت على مخاطبة الله بمثل صلاته «**أبانا الذي في السماوات**» وأيّ قولٍ ضجّ بالبطولة مثل قوله: «**أمّا أنا فأقولُ لكم: أحبّوا أعداءَكم، وأحسِنوا إلى من يبغضكم؛ وصلّوا لأجل الذين يضطهدونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات: فإنّه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين. فإنّكم إن أحببتم من يُحبّكم فأيّ أجر لكم؟ أفليس العشارون أنفسهم يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على إخوتكم فقط فأيّ شيءٍ عَجَبٍ تفعلون؟ أفليس الوثنيّون أنفسهم يفعلون ذلك؟ فأنتم، كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كاملٌ**» (متّى ٥: ٤٤– ٤٨)!

أو أيُّ قولٍ ترقرق بالتواضع، والحكمة، والواقعيّة، مثل قوله: «**لماذا تنظر إلى القذى في عين أخيك، والخشبةُ التي في عينك لا تفطن لها؟ أم كيف تقول لأخيك: دعني أُخرج القذى من عينك، وفي عينك أنت خشبةٌ! فيا مُرائيّ، أخرج الخشبة من عينك أوّلاً، وعندئذٍ تتبصَّرُ كيف تُخرج القذى من عين أخيك**» (متّى: ٣–٥)؛ وبالرأفة حيال الخاطئ، مثل قوله: «**من كان منكم بلا خطيئةٍ فليبدأ ويرمِها بحجَرٍ**» (يوحنا: ٧)؛ وبالصفح عن الجلاّدين مثل قوله: «**يا أبتا، اغفر لهم لأنّهم لا يعرفون ماذا يفعلون**» (لوقا ٢٣: ٣٤)؛ وبالعزاء والقوّة في الآلام مثل قوله: «**فتعالوا إليّ، يا جميع المتعبين تحت ثقل أحمالكم وأنا أوتيكم الراحة. خذوا نيري عليكم وتتلمذوا لي، لأنّي وديعٌ ومتواضعُ القلب، فتجدوا الراحة لنفوسكم. أجل إنّ نيري ليّنٌ، وحِمْلي خفيف**» (متّى ١١: ٢٨ – ٣٠). لقد ابتدع علم السعادة، من خلال حِكَمٍ تبدو تحدّيًا للحكمة البشريّة، ولم تخيّب رجاء أحدٍ.

وقد يبدو يسوع، أحيانًا، مغاليًا في اقتضاء الزهد، والعفّة، والتضحية، والكمال. ولكن كان لا بدّ من هذه المغالاة للحصول، من الطبيعة البشريّة التي تنفر من هذه المقتضيات، على شيءٍ منها. وفي الآن عينه، كانت دعوةً لمن أَحكموا السيطرة على أهوائهم، إلى تخطّي ذواتهم، والصبوّ نحو كمال الله.

أَلم يقل: «**كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ هو كاملٌ**»؟ فالثورة العارمة التي دعا إليها لا تتحقّق في الفتور، وإنما السموّ بالإِنسان يقتضي مطالبته بأكثر ممّا يظنّ نفسه قادرًا على إنجازه.

هذه المغالاة هي التي فجّرت من الإنسان قدراتٍ خارقةً، تشرّف البشريّة وستظلّ كلّ المحاولات الاجتماعيّة عقيمةً، إن لم تتطلّع إلى مُثُل يسوع السامية.

* *

ربّما وُجدت نصوصٌ مبعثرةٌ قريبةٌ من بعض تعاليم يسوع، غير أنّ ما يميّز تعليمه هو روحه الذي بثّه فيه، والذي لا يقارَن بأيّ روحٍ سواه، والنَفَس الجديد الذي يصنع أصالةَ تعليمه ووحدته. ومن خلال هذا التعليم يمكن توسّم شخصيّةٍ فذّةٍ، واضحة المعالم، بالغة القوّة، تتبوّأ مكانةً فريدةً في ميدان الفكر الأخلاقيّ والدينيّ، وتسبغ على تعليم يسوع وحدته وتناغمه، وجاذبًا لم تفلح القرون في الحدّ من أسره.

تعاليمه منقطعة النظير. إِنّها دستور حياةٍ مكتملٌ. لقد أَضاءت العالم، وجدّدته وقدّسته، ولو اتُّبعت وصاياه لأمسى الكون كلّه فردوسًا. كلّ من سمعه كان يسأل: «**من أين له كلّ هذه الحكمة؟**». وما برحت هذه الحكمة تلهم، وتنير، وتروي النفوس، مثلما كانت يوم فاهت بها شفتاه الإِلهيّتان.

في كلام يسوع تثوي طاقةٌ خلاّقةٌ.

فيسوع، على نقيض البشر يفعل الخير الذي يتكلّم عنه، ولا يكتفي بتمنّيه، عاجزًا عن تحقيقه. كان يتكلّم وهو يملك قدرةً قصوى لا تُقاوَم. كان يطرد الأرواح الشرّيرة ويُخضعها، يشفي أسقام الأجساد وعللها، ويعيد الحياة إلى الأجساد، ويحوّل النفوس. من يسأله وهو مؤمنٌ به، ينال أكثر ممّا يطلب. الإحسان كان ينسكب من شفتيه ويديه. ولم تكن المعجزة حدَثًا استثنائيًّا عابرًا في حياته، بل كانت حالةً دائمةً طبيعيّةً، ودليلاً ماثلاً على عطفه الذي لا ينضب، على كلّ من يأتيه واثقًا، يحدوه

الشعور بفاقته. وعندما تقترن المعجزة بسموّ التبشير تمسي قوّةً لا تقاوَم. وقد توفّرا، كلاهما، ليسوع كما لم يتوفّرا لأيٍّ سواه.

عنصرٌ آخر من عناصر تأثيره: رأفته وطيبته؛ فهو لا يداهن الشعب كي يفتنه، بل يحبّه، حقًّا، ويضع كلّ طاقاته في خدمة هذا الحبّ. إنّه يعطف على الفقراء، والصغار، والبؤساء، والخطأة المرذولين، بقدر ما يتباهى بازدرائهم الفرّيسيّون، وعلماء الشريعة، والكتبة، والشيوخ، حتّى إنّهم يعدّون هذا الازدراء فضيلةً.

التفوّق يرهب العامّة، ويبعدهم عمّن يمتلكون سلطةً ما. وعندما يعجز هؤلاء عن إيحاء الثقة والمحبّة، يكتفون بالسيادة عن طريق التخويف. ولكنّ يسوع لا يخضع لهذه الشريعة. فتناغم قدراته، واقترانها بعذوبةٍ لامحدودةٍ، تسحر وتجتذب إليه الضعفاء، والمتألّمين، والمرهقين، والبؤساء، أي سواد الشعب، فهو منهم، وجاء كي يتألّم من أجل خلاصهم، والذين يحملون هالة الآلام، يفتنون القلوب

من المحقّق أنّ الأناجيل لم تورد كلّ أقوال يسوع، وأنّه هو لم يقل إلاّ ما كان مستمعوه مهيّئين لفهمه واستيعابه. ولكنّه قال كلّ ما هو جوهريٌّ لبناء ملكوته، ولغرس البذرة التي ستنبثق منها شجرة المسيحيّة. والأقوال التي خاطب بها نفرًا من معاصريه كان يوجّهها إلى العالم أَجمع، في كلّ جيلٍ.

وما انفكّ يسوع يتكلّم، مخاطبًا العالم بقدّيسيه، وبوحي روحه.

* *

سرّ يسوع أنّه يستطيع التحدّث إلى أكثر الجماعات تباينًا، مستخدمًا لغةً يستطيع كلّ امرئٍ فهمها. الجميع يستطيعون الإمعان في تأمّله، ولكنّه لا يصبح مِلْك أيٍّ منهم، حتّى تلاميذه.

مؤمنو اليوم هم رجال المسيح الناهض من الموت، ويستمدّون من هذا الواقع قوّة الحياة. ولا شيء أَجمل، ولا أَصدق من ذلك، ولكن، أيضًا، لا شيء أصعب، في عالمٍ لا يني يفقد، شيئًا فشيئًا، تديّنه.

على مؤمني اليوم تعلّم أن يكونوا خاضعين ليسوع، على ألاّ يدّعوا احتكاره. عليهم أن يكونوا يدَي الناهض من الموت، وفمه، على ألاّ يزعموا امتلاكه؛ وأن

ينشروا رسالته من غير أن يستولوا على ثمار هذا الجهد، وأن يسيروا في إِثر المعلّم، غير آملين أن يفهم الجميع سلوكهم.

* *

لأنّ أقواله كانت، في آنٍ واحدٍ، إنسانيّةً وإلهيّةً إلى أقصى الحدود،

ولأنّه اجتاز الأرض ناشرًا الخير،

ولأنّه مات شهادةً على تعليمه،

ترك لنا، في الإنجيل، رسالةً نابضةً بالحياة،

وسيظلّ، حتّى آخر العالم، يخاطب من يودّون سماعه، واستقبال سرّه، وتلبية ندائه.

۹۲٦

أسلوبُ تعليمِ يسوع

ظهور يسوع كان تعليمًا، وعمله كان تعليمًا، وبكلامه اتّضح التعليم، من غير أن ينحصر في إطار نظامٍ.

صفات تعليمه: بساطةٌ في عمقٍ، وقوّة إقناعٍ نابعةٌ من صدق المتكلّم المطلق، ومن سموّ سيرته.

إنّه ينير الحياة البشريّة بحكمة الله، ويربطها بمبدئها اللانهائيّ، وبمصيرها الذي يفوق الطبيعة.

الأنبياء يأتيهم النور من خارجهم، أمّا يسوع فيولّد النور، ويحمله في ذاته، والنور يتدفّق منه تلقائيًّا.

قالوا عنه: «**إنّه يتكلّم كمن له سلطانٌ**». والحقيقة أنّه الأوحد الذي يملك سلطان التعليم، فهو، وحده، الحقيقة.

ويؤكّد تعليمَه سحرُ شخصه، ونقاءُ سيرته، وكمالٌ يفوق قدرات البشر.

* *

في تعليم يسوع لا حذلقة، ولا تعالٍ، بل إيحاءٌ رقيقٌ، ومشاركةٌ في الإصغاء، والتأمّل، والاستنتاج، مسيرة بحثٍ مشتركٍ عن الحقيقة، ونفحة حرّيّةٍ. ومن أجلّ أهدافه إظهار طيبة الآب وحنانه، وغرس هذه الحقيقة في الصدور.

أقوال المخلّص تحتلّ مكانًا جوهريًّا من الأناجيل، وتمثّل نحو ربعها، وهي، تارةً، أقوالٌ منفردةٌ، وتارةً أُخرى، خطاباتٌ وأمثالٌ. ومع أنّ هذه الأقوال لم تدوّن لحظة التلفّظ بها، إلاّ أنّها كانت من الإدهاش والفرادة، بحيث انحفرت بعمقٍ في الأذهان، وحُفظت كما يُحفظ الكنز الثمين، بكلّ ما انطوت عليه من زخمٍ وسنًى. لقد قيلت، أوّلاً، بالآراميّة، ثمّ ترجمت إلى اليونانيّة، وبذلك فقدت، لا ريب،

بعضًا من طلاوتها الأولى، وزهوها الأصيل. ولكنّ الترجمة كانت من الأمانة بحيث يمكن اعتبار النصّ الذي وَصلَنا، ولكأنّه النصّ الأصليّ.

هذه الأقوال تتألّق بالروعة، والقوّة، والحقيقة، بحيث أصبحت مأثورةً، وأمثالاً ساميةً رائجةً. إنّها تنفذ عميقًا في الأذهان فتضيئها، وفي القلوب فتسمو بها. وهي تشهد لذكاء يسوع الخارق، ولقوّة شخصيّته ورفعته الأخلاقيّة، ولقداسته الفائقة الطبيعة. وقد أسهمت، إسهامًا أساسيًّا، في تكوين الفكر المسيحيّ، وفي تحضير العالم.

وأسلوب هذه الأقوال الشرقيّ يتّسم بألوان الصورة الزاهية، المجنّحة، التي تنحفر، لوقتها، في العقول والقلوب، وهو غالبًا أسلوب الشعر ذي الشطرين المتوازيين يعزّز أحدهما الآخر ويؤكّده، أو يعارضه كي يبرز معناه. وهي أحيانًا أناشيد تتّسم بروائيّةٍ مؤثّرةٍ.

ولكن ليست كلّ أقوال يسوع موزونةً كالنشيد، بل هو يستخدم كلّ الأساليب، وغالبًا أبسطها: العظة العلنيّة، التعليم، التأمّل، الحوار الأليف، الأجوبة الموجزة المُفحِمة. إنّه وقورٌ في المجمع، حميمٌ في مخاطبة تلاميذه والجموع. وهو سيّد كلّ موقف: سواءٌ كان معزّيًا، أو لائمًا، أو مشجّعًا، أو ممتحنًا، أو رافضًا دورًا يأباه. يثير قضايا، ويردّ على الاعتراضات، ويعرّي أكثر الأفكار تخفّيًا. وفي جميع الأحوال أقواله كثيفةٌ، ووقورةٌ، حتّى عندما ترتدي طابعًا شعبيًّا. وهي، دائمًا، منزّهةٌ من أيّ أثرٍ لإسفافٍ، أو صغارةٍ، أو تفاصيل مبتذلةٍ، التي غالبًا ما تطبع أقوال الرابّيّين.

إنّ يسوع يتأمّل، بمتعةٍ، ما يحيق به، ويراقب، ويحفظ، ويحبّ: إنّه فنّانٌ يجيد تمثيل الحوار، والخطاب المنفرد، والمواقف، والوصف النابض بالحياة والواقع.

ووصفه موسومٌ بالمرح والنضارة، فتتلقّفه الأُذن، ويختزنه القلب والذاكرة. وذلك ما يسبغ على الإنجيل فتنةً طاغيةً.

أَجوبته قاطعةٌ، محكمةٌ، مُفحِمةٌ، تصدم الأحكام الرائجة وتؤسّس شريعةً للأَجيال، ولا تدع مجالاً للجدال، فقائلها واضحٌ، مصيبٌ، وعادلٌ.

هوى الملكوت يحدو مسيرة يسوع، وقلبه يفيض حبًّا، ورأفةً، وحنانًا. ولذلك هو

يحتاج إلى أقوالٍ قويّةٍ، صادمةٍ، كي ينتزع البشر من استكانتهم، ورداءتهم. في كلّ شيءٍ يبلغ أَقصاه، ويستعين على تأكيد أَقواله بصورٍ حيّةٍ، جديدةٍ، مدهشةٍ.

أقواله نارٌ وملحٌ. وصُوَره فاتنةٌ لأَنّ رسّامها شاعرٌ.

أقواله واضحةٌ، بسيطةٌ، ولكنّها خصبةٌ ومزعجةٌ.

أقوالٌ تنمّ عن حضورٍ ما برح دافئًا، حضور إنسانٍ متوثّب الروح، متحرّرٍ، جريءٍ، يتمتّع بخيالٍ أصيلٍ، خلاّقٍ، ويؤمن بمبادىء راسخةٍ، شديدة الاقتضاء، وبقناعاتٍ صارمةٍ، ولكن يسكنه حلم تجديدٍ جمٌّ.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

إنّ الإِنجيل خير بشرى، وما فتئت كلماته منعشةً، مدهشةً، جريئةً.

وتزخر أقوال يسوع بالمفارقات التي تصدم وتدهش، والتي تنحفر عميقًا في الخواطر والقلوب، كما يتّضح من الأقوال التالية:

- **من حفظ حياته خسرها، ومن خسر حياته من أجلي حفظها.**
- **دع الموتى يدفنون موتاهم، وأمّا أنت فامضِ، ونادِ بملكوت الله.**
- **من أراد أن يكون أوّل، فليكن للجميع عبدًا.**
- **إنّه لأيسر أن يعبر جملٌ في سمّ إبرةٍ من أن يدخل غنيٌّ ملكوت الله.**
- **لماذا تنظر إلى القذى في عين أخيك، والخشبة التي في عينك لا تفطن لها؟**

ويقف المرء معجبًا أمام أقوالٍ مأثورةٍ، مسكوكةٍ، مثل:

- **لا تهتمّوا للغد، فالغد يهتمّ بنفسه، وحسب كلّ يومٍ همّه.**
- **حيث يكون كنزكم، هناك يكون قلبكم.**
- **سراج الجسد العين.**
- **من كان منكم بلا خطيئةٍ فليرجمها بالحجر الأوّل.**
- **أعيدوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.**

ولكم من الجرأة في أقوالٍ مثل هذه:

- «**أحبّوا أعداءكم....**
- «**من ضربك على خدّك الأيمن فحوّل له الأيسر....**
- **إن شكّكتك عينك فاقلعها....**
- **من الأوّلين من يصيرون أخيرين، ومن الأخيرين من يصيرون أوّلين....**

ولا سيّما إن تذكّرنا أنه كان يخاطب، بتلك الأَقوال، أُناسًا عنصريّين، مستعمَرين، وتجّارًا ومرابين يرون في الثروة المادّيّة بركة الله!

وغالبًا ما كان يلجأ إلى طرح الأسئلة، فالأسئلة المطروحة بذكاءٍ تحمل المستمعين على إعمال الفكر، وتوفّر للمعلّم فرصة إيضاح فكره إيضاحًا صافيًا: فقد يستفسر عن تفصيلٍ، إعدادًا لمعجزة، أو تمويهًا لعتاب، أو وسيلةً لحمل مستمعيه أنفسهم على استخلاص تعليمٍ. وغالبًا ما كان يردّ على الأسئلة التي تُطرح عليه بأسئلةٍ من عنده، تدعو سائله إلى الإمعان في التفكير، والسعي إلى حلّ مشكلته بنفسه. وكان يلجأ، خاصّةً، إلى هذا الأسلوب كلّما طُرِح عليه سؤالٌ ماكرٌ.

عندما يخاطب الشعب تتجلّى قدراته التعليميّة البارعة، فيُكثر من الصور، والمقارنات، التي تصدم الخيال. فبطرس صخر أساسٍ. والفرّيسيّون عميانٌ يقودون عميانًا، وهيرودس ثعلبٌ. وينصح تلاميذه بأن يتحلّوا بحذر الحيّة وبساطة الحمامة، ويرسلهم مثل حملانٍ وسط ذئابٍ.

أمّا صُوَره فيقتطفها، أغمارًا، من طبيعة مختلف أرجاء فلسطين، ومن بيئتها.

أسلوب تعليمه يُدهش مستمعيه ويأسرهم. ويوحي بسلطةٍ فائقةٍ تجتذب وتقلق وتحرِّض.

لا لَغْوَ في كلامه ولا ثرثرة. أقواله قاطعةٌ. بكلمةٍ يصنع معجزةً. فبقوله: «**انهض**» يشفي شللاً مزمنًا، أو يقيم ميتًا. وبأمره «**اخرج منه**» يطرد شيطانًا أو جوقة شياطين. وبأمره البحر أن يخرس، يُهمدُ عاصفةً هوجاء.

ليس له مفرداتٌ خاصّةٌ، بل يستخدم، ببساطةٍ، لغة الناس أَجمعين. لا يتوارى وراء السلطات الدينيّة وفتاواها، بل يتكلّم بسلطةٍ ذاتيّةٍ فائقةٍ.

خياله اليقظ المتين يُسعفه، أَبدًا، بصُوَرٍ ممتعةٍ، واقعيّةٍ، أخّاذةٍ، تضفي على تعليمه فتنةً، ونكهةً مستساغةً، فتُجاور التفاصيل البسيطة أَسمى الأَفكار، ويُغني بعضها بعضًا.

نصائحه، وأَجوبته، وعتاباته، سديدةٌ دائمًا، وتتّسم بالحكمة والفهم. ولطالما واجه خصومًا يهودًا وأَجانب، وتعرَّض لأسئلةٍ محرجةٍ، غير متوقّعةٍ، ولكنّه تملّص منها، دائمًا، بمهارةٍ أَثارت إِعجاب أَعدائه أنفسهم، وفتنت الجماهير.

وسواءٌ اتّسمت أجوبته بالحزم والوقار، أو بالسخريّة، فقد كانت دائمًا، مدهشةً.

* *

لقد قال يسوع كلّ شيءٍ في أَقلّ قدرٍ من الكلام، وعبّر عن أسمى المفاهيم ببساطةٍ مطلقةٍ، بساطةٍ إلهيّةٍ.

هو، الكلمة، أَسبغ على عباراتٍ معدوداتٍ، موغلةٍ في البساطة، معنًى لامحدودًا. والعالم، اليوم، في حاجةٍ حارقةٍ إلى سماع هذا الكلام، والعمل بمقتضاه. ولكنّ صوته لن يدوّي ما لم نُعِرْه شفاهنا، وهو لن يعمل ما لم نُعِره أيدينا.

بالإجمال كلامه سنيٌّ، في جميع الأحوال. دائمًا بسيطٌ وشفّافٌ، حتّى عندما يحلّق صوب السماء. لا تصنّع فيه ولا ادّعاء، بل هو، أبدًا، نضرٌ، أصيلٌ، زاهٍ. من يستطيع وصف واقعيّته النابضة بالحياة، وشاعريّته العذبة، ومنطقه المحكم، وقوّته، وطلاوته، وأَلَقهُ، وبلاغته، وجدواه، ورقّته، وعمقه، والأريج المتضوّع منه؟ وهو يحافظ على كلّ ذلك إلى أيّة لغةٍ تُرجِم. معناه ومبناه يتساويان في الكمال، ولا ريب أنّه سيظلّ يفتن الصغار والكبار، ويمارس فيهم أثرًا باقيًا، حتّى آخر الدهور.

كمال أسلوبه ومضمونه خليقان بابن الله، فلا عجب إن اكتسب يسوع المعلّم شعبيّةً مقدّسةً، في حين كان يقاوم التقاليد الرائجة، ويصارع أهواء معاصريه وأحكامهم المسبّقة.

ولا بدّ من التنويه بأنّ تعاليم يسوع لا تنفصل عن شخصه. وإن كانت، ثمّة،

تعاليم تُطوَّر بعد غياب مؤسّسها، إلاّ أَنّ تعليم يسوع مرتبطٌ، جوهريًّا، بحياته. ولا معدى عن الإِقرار بأنّه ما كان بقدرة أيّ تعليمٍ أن يؤثّر ذلك التأثير البليغ الواسع، لو لم يستند على شخصيّة يسوع الفذّة، ولو لم يستمدّ منها زخمه، ومنعته، وفرادته. وما صورة يسوع الساحرة، المتجلّية في الإنجيل، والتي غزت العالم، سوى انعكاسٍ للصورة الأساسيّة، صورة يسوع الناصريّ.

فقد كان القداسة متجسّدةً، والصدق صرفًا.

حقًّا، «**لم يتكلّم، قطّ، إنسانٌ مثل هذا الرجل**».

أَبٌ سَمَاوِيٌّ وَأَبْنَاؤُه

العهد القديم يتكلّم عن علاقة الله بشعبه، أمّا الإنجيل فيتحدَّث، في المقام الأوَّل، عن علاقة الله بكلّ نفسٍ. وبشرى يسوع لا تتوجّه إلى جماعاتٍ مُغْفَلةٍ لا وجه لها، بل إلى كلّ إنسانٍ بمفرده. مستوى الإنسان الروحيّ يتردّى وسط الجماعة، لأنّ غريزة القطيع تستولي عليه. لذلك يولي يسوع المصير الفرديّ شأنًا عظيمًا. ففي كلِّ إنسانٍ يثوي عالَمٌ له، في عين الربّ، قيمةٌ لا تُثَمّن.

يتكلّم يسوع، أحيانًا، عن القطيع، ولكن بلهجة حبٍّ، لهجة الراعي الذي ينادي كلّ نعجةٍ باسمها، ويبذل حياته في سبيلها. وعندما يأخذ عليه خصومه عطفه على المشبوهين والخطأة، يذكّرهم بالراعي الذي إن فُقِد له خروفٌ ترك القطيع كلّه، وسعى بحثًا عنه. فإذا ما عثر عليه حمله على كتفيه، ودعا أصدقاءه إلى مشاركته الاحتفال باستعادته. وكذلك شأن المرأة الفقيرة التي فقدت درهمًا، فقلبت البيت بحثًا عنه، وعندما وجدته دعت جاراتها لمشاركتها فرحها.

من كلّ الأسماء التي أُطلقت على الخالق، اختار يسوع اسم «الأب»، «أبّا»، الذي يخاطب به الأبناء أَباهم. لطالما صُوِّر الله محاسبًا، ديّانًا، منتقمًا، جبّارًا، وطاغيًا. وهذه الرؤية، التي تحمل دمغة الخوف الذي يؤنسه الإنسان حيال الطبيعة وعظماء الأرض، ليست غريبةً عن الفكر الدينيّ في العهد القديم.

لم يجسر أحدٌ، قبل يسوع، أن يدعو الله، كالطفل، «أبّا»، هذا الدعاء المتواضع، الرقيق، المتلعثم، الواثق. فالله ليس ذلك الذي يُرعد ويُعاقب. هذا ما تشهد عليه نصوص الإنجيل الحارقة. العهد القديم معجونٌ بقصص البشر من انتقامٍ، وجرائم، واستبدادٍ، وتعصّبٍ. وجاء يسوع فقلب كلّ شيءٍ، مُحِلاًّ الإحسان محلّ الانتقام، والتعاطف بين الإخوة محلّ القتل، وملكوت الروح محلّ السيطرة، وخدمة الآخرين محلّ المال، سيّد العالم، وشموليّة الحبّ، محلّ كلّ ضروب العنصريّة والتعصّب.

يسوع وحده يتكلّم عن أبٍ يمكن العثور عليه في كلّ نفسٍ راغبةٍ فيه. والإنجيل

يهب البشر نعمة الاعتراف بأنّهم أَبناء اللّه. ووعود يسوع تتحقّق لدى كلّ الذين يقبلون البشرى ويخبرون قدرتهم على التحدُّث، وجهًا لوجهٍ، مع باري الكون، تحدّثَهم مع أَبٍ محبٍّ ومحبوبٍ. وقد شبَّه يسوع اللّه بوالد ابنٍ ضالٍّ، هجر البيت الأبويّ، وبدّد ثروة الأُسرة في الخلاعة. ولّما عاد، نادمًا، كان أبوه هو من ركض لاستقباله، وارتمى باكيًا على كتفيه، وأقام له المآدب والأفراح.

يسوع شديد الكَلَف بقول الأطفال «أبّا»، «بابا». وهذا ما عبّر عنه الرسول بولس، عندما كتب إِلى الغلاطيّين (٤: ٦–٧): «**والدليل على أنّكم أبناء اللّه كونُ اللّه أرسل إلى قلوبنا روح ابنه ليصرخ فيها: «أبّا»، أيّها الآب». فأنت، إذن، لستَ، بعدُ، عبدًا، بل أنت ابنٌ**». ومن تذوّق فرح أن يكون ابن اللّه، يكتشف العالَمَ من جديدٍ، ويتحرّر من أسر حتميّة القَدَر، والصُّدَف، مؤمنًا أنّ الربّ إلى جانبه، يسانده في كلّ لحظةٍ، ويحرص حتّى على كلّ شعرةٍ من رأسه.

ومن استحوذ عليه هذا الشعور، ليس مضطرًّا إلى عبادة ربٍّ آخر. فهو ليس بحاجةٍ إلى «مامّون» كي يوفّر له ثروةً نافلةً، وهو بعيدٌ عن الكبرياء لأنّه مُقِرٌّ بوهنه، ومعترفٌ بأنّه يستمدّ كلّ شيءٍ من أَبيه. وهو منعتقٌ من الاهتمامات التي تستعبد الإنسان. ويسوع علّمنا ألاّ نقلق حتّى على حاجاتنا الأَساسيّة: «**لا تهتمّوا لما تأكلون أَو تلبسون**».

الحياة مع الأب، والثقة فيه، تطردان كلّ خوفٍ وريبةٍ. وأَبناء اللّه، عندما يصلّون، يودعون بين يدي أَبيهم أَفكارهم، وآمالهم، وأَحزانهم. ويسوع نفسه قال: «**اطلبوا تنالوا، اقرعوا يفتح لكم**». وحثّنا على المثابرة في الطلب، بضربه مثل الأَرملة التي ما انفكّت تلجّ وتلحف حتّى نالت من القاضي الظالم حقّها. فكيف بالأب الحنون!

لم يعُد اللّه في حاجةٍ إلى أضاحٍ كي يرضى. بل أَثمن ما يُقدَّم له هو قلبٌ محبٌّ صادقٌ. ولم يَعُدْ لأيّ طقسٍ معنًى، ما لم يكن تعبيرًا عن الحبّ للخالق والأَب. لا شيء يُغني عن العلاقة الشخصيّة مع اللّه، وعن الحوار الحارّ بين النفس وأَبيها. ولذلك حذّر يسوع من الصلاة على الطريقة الفرّيسيّة، القائمة على الثرثرة، والتكرار الببّغاويّ، والتظاهر، والعُجْب بالذات.

ولذلك علّمنا أن نقول، بحبٍّ وثقةٍ وتواضعٍ، وبكلماتٍ بسيطةٍ: «**أبانا الذي في السماوات...**».

وفي بشرى يسوع يطغى صوت النعمة على صوت الدينونة. لم يعد اللّه قاضيًا

صارمًا يعاقب الخطأة، ولا يصفح عنهم إلاّ نادرًا. بل إنّه الأب الذي يبحث عن الخطأة، ويلاحقهم كي يغفر لهم. فلأنّه إله رحمةٍ وعطفٍ، لم يأتِ، فقط، من أجل الصالحين.... ومن ثمّ يسود، حول يسوع، جوّ احتفالٍ، وفرحٍ، لا جوّ صومٍ وصمتٍ، كما كانت الحال حول المعمدان.

وما أعذب قول الشاعر الفرنسيّ «شارل بيغي» (Charles PÉGUY)حول «مغامرة» تجسّد يسوع، الذي قلب كلّ الموازين:

«يا للمغامرة المذهلة التي قيّدت ذراعيّ، أنا الله، إلى الأبد، مغامرةٍ قيّد بها ابني يديّ،

مكبّلاً، إلى الأبد، ذراعيْ عدلي، ومحرّرًا، إلى الأَبد، ذراعَيْ رحمتي،

مبتدعًا، مقابل عدلي، عدلاً آخر،

عدل حبٍّ، وعدل رجاءٍ».

هذا التبدّل في العلاقة مع الله استدعى تبدّلاً في أسلوب العبادة ومضمونها. فلم يعد هيكل أورشليم هو المكان الوحيد الذي تُقبَل فيه التقادم والعبادة، بل أمسى كلُّ إنسانٍ يعمل بوصايا ابن الله هيكلاً مقدّسًا يقطن فيه الله. ولم تعد العبادة مجرّد طقوسٍ وذبائح، بل غدت علاقة ثقةٍ حميمةً بالله.

كان علماء الشريعة قد حدّدوا، بدقّةٍ، كلّ ما يجوز وما لا يجوز فعله، وما على المؤمنين سوى التقيّد الحرفيّ بهذه الفرائض والنواهي، كي يظفروا برضى العليّ. أمّا يسوع، فأراد أن يُصغي كلّ إنسانٍ إلى صوت الله، وأن يميّز إرادته وينفّذها، مسترشدًا، أبدًا، بواجب المحبّة.

وهكذا أفضى يسوع إلى دينٍ روحيٍّ، محرابه القلب، والنوايا الطاهرة.

لقد أَبدع يسوع عندما استهان بالنجاسة الخارجيّة، وحذّر من نجاسة القلب، وكان سبّاقًا مجلّيًا في هذا المضمار، فقوّض قرونًا من العبادات القائمة على المظاهر. وقد دأب يسوع على ترسيخ هذا المبدأ بكلّ الوسائل، مؤكّدًا أنّ النجاسة الوحيدة هي نجاسة الفكر، ولوثة النفس، بحيث إنّ نيّة الزنى لا تقلّ جرمًا عن فعل الزنى نفسه، والرغبة في القتل، بل حتّى في الإهانة، لا تتدنّى وِزرًا عن فعل القتل، لأنّها اغتيالٌ للحبّ، والحبّ هو معيار كلّ شيءٍ.

القَديمُ وَالجَديد

إنّ توق يسوع المضطرم إلى قيام الملكوت جعل نظرته تمتدّ إلى المستقبل، وتُعرِض عن الماضي. فهو لم يتلفّظ بكلمة «العهد»، وهي في صميم الدين اليهوديّ، بيد أنّ هذه الكلمة وردت على شفتيه في العشاء الأَخير، بعد أن تحوّلت إلى «عهدٍ جديدٍ» يحلّ محلّ العهد القديم، ويبطله. وكذلك هو استعاض عن تسمية «إله إِبراهيم وإِسحق ويعقوب» التي كان يعرّف بها اليهود الله، باسم «الآب».

وهو قلّما أَشاد بأَمجاد الماضي اليهوديّ، غير أنّه لم يتحرّج من التعرُّض لإجرام اليهود بحقّ مرسلي إِلههم وأَنبيائه، ولم يأتِ على ذكر تقاليدهم إلاّ لكي يحذّر منها. الفصح الأخير الذي اقتسمه مع تلاميذه يظهره متطلّعًا نحو فصح الملكوت العتيد، غير متأثّرٍ بذكريات الفصح الماضي. ومع أنّ كلّ دينٍ يستمدّ نسغه من الماضي، والدين اليهوديّ، خاصّةً، يدعو المؤمنين، بإِلحاحٍ، إلى تذكّر الماضي، وصنائع إلههم لآبائهم، حذّر يسوع من التباهي بالسلف، ومثلما قال المعمدان قال، هو أيضًا، إنّ الله قادرٌ أن يستنهض من الحجارة، أبناءً لإِبراهيم. بذلك حطّم أسطورة «الشعب المختار». فالإيمان، في نظره يتخطّى الدين، ولا يُسجَن فيه.

الإيمان الذي تذوّق حرّيّة الله وأحبّها يكتسب سلطةً: أي الحرّيّة والجرأة في التمييز والقول. إنّه يتحرّر من المحرّمات التي تحول دون اكتشاف أنّ الله حبٌّ، ومن طاعة العبيد للطقوس والسلطات الدينيّة، التي تجعل المؤمن، حيال الله، في موقف العبد.

معظم الديانات كانت تتّخذ من الطقوس، والخضوع لوصايا محدّدةٍ، سبيلاً إِلى الخلاص. ولكنّ يسوع استبدل هذا السبيل بآخر يقوم على حبّ الآخر وخدمته، حتّى بذل الذات. وبذلك غدا يسوع المخلّص الشامل، لأنّه أشرع درب الخلاص أَمام كلّ إِنسانٍ.

لم يُنكر يسوع الشريعة، ولكنّه جلا روحها كما شاء الله، وأَبى أن يكون سجينها،

وأن يرسف البشرُ في قيودها. كان ينهل من نبعها، أي من روح الله، وأَتاح له ذلك أن يحافظ عليها بحرّيّةٍ بنويّةٍ، متحرّرًا من عبوديّة حرفها، وحائلاً دون جعلها شريعة استعبادٍ.

قلّما تكلّم عن الشريعة، وإن هو أشار إِليها أو استشهد بها، فلكي يشير إلى روحها، ويستشهد به، ويرتقي من التشريع إلى الشريعة الداخليّة، وإلى الوجدان الفرديّ. وبذلك جعل لصفاء النوايا الأولويّة على الخضوع لأوامر الشريعة.

يسوع أَعلن أنّه لم يأتِ لكي ينقض الشريعة، بل لكي يحرّرها ممّا تراكم عليها وشوّهها من تأويلات البشر، ولكي يبرز معناها الحقّ. وأَكّد أنّ كلّ فحواها ينحصر في الوصيَّتَيْن المتكاملتَيْن: «**أحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك، وكلّ نفسك، وكلّ روحك، وكلّ قوّتك، وأَحبب قريبك كنفسك**».

لقد نقل الإيمان من دائرة الثقافة الحرفيّة، إلى دائرة الروح والعمل، وعمّق بُعده الأخلاقيّ. فالشريعة حظرت القتل، ولكنّ يسوع حذّر من الحقد، وحارب البغض، فهما منبع القتل ودافعه. والشريعة حظرت الزنى. أَمّا يسوع فأدان كلّ شعورٍ عَكِرٍ، وكلّ ميلٍ مريبٍ، وكلّ شهوةٍ فاسدةٍ، فهذه كلّها مدرجةٌ إلى الزنى. والشريعة حظرت الحنث بالقسم، ولكنّ يسوع رفض مبدأ القسم، إذ على الإِنسان أَن يكون صادقًا وصريحًا، فيقول «نعم» عندما يعني «نعم»، ويقول «لا» عندما يقصد «لا»، وكلّ ماعدا ذلك فمن الشرّير.

أقصى ما انتهى إِليه عدل القدماء: «**العين بالعين، والسنّ بالسنّ**». ولكنّ يسوع يفصل الحقّ الجزائيّ عن الأخلاق. وإن كان من الطبيعيّ أَن يبغض القوم أَعداءهم، فعلى أبناء الله أَن يغلبوا الشرّ بالخير، وأَن يكافحوا، في داخلهم، كلّ ميلٍ إلى الانتقام والاثّئار. لا بل عليهم أن يريدوا خيرًا لمن يبتغي لهم شرًّا. هذا الموقف هو أسمى واقعٍ أَخلاقيٍّ، وانتصارٌ يثبت قوّة روحٍ حقيقيّةً، لا تتوفّر إلاّ لمن ينشد التشبّه بالخالق (متّى ٥: ٤٣-٤٨). تلك هي القمّة الروحيّة التي يدعو إليها يسوع.

وقد تجلّى قربه من روح الشريعة، وبعده عن مفهومها الشائع، في تحديده لأعظم الوصايا، وصيّة المحبّة، وفي تعريفه «القريب».

فقد كانت الشريعة تعدّ «قريبًا» من تربطهم بالإنسان أَواصر الدمِ والدين. وقوّض يسوع هذا المبدأ، بروايته مثل السامريّ الرحيم. وهكذا، خطوةً فخطوةً، علّم تلاميذه أن ينظروا إلى الوثنيّين نظرةً جديدةً. ولذلك لم يُخفِ فرحه عندما طلب هلّينيّون التحدُّث إليه قُبَيْل آلامه، وطلب جهارًا، أن تبلّغ بُشرى الإِنجيل إِلى العالم أَجمع.

وعندما أعلن ضابطٌ رومانيٌّ أنّ كلمةً واحدةً يتلفّظ بها يسوع كفيلةٌ بشفاء عبده المعتلّ، أَعلن الربّ: «**الحقّ أَقول لكم إنّي لم أجد لأَحدٍ مثل هذا الإيمان حتّى في إِسرائيل. وإنّي أقول لكم إنّ كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب، ويتّكئون مع إِبراهيم وإِسحق ويعقوب في ملكوت السماوات. وأمّا بنو الملكوت فيُلقون في الظلمة الخارجيّة....**». كم في هذا القول من تحدٍّ لمن كانوا يظنّون أنّ بني إِسرائيل وحدهم جديرون بحبّ الله!

وبوضعه جوهر الشريعة الروحيّ في المقام الأوّل، أَعاد يسوع لوصيّة السبت معناها الأصليّ الصحيح. فقد كان المقصود منها توفير فسحة راحةٍ للجميع حتّى للعبيد والبهائم، وفسحة تأمُّلٍ وصلاةٍ، تحرّر من الهموم والمتاعب اليوميّة، وتقرّب من الله. ولكنّ فقهاء اليهود، بحجّة الحفاظ على فريضة السبت، غالوا في تقديرها، وجعلوا منها مُطلَقًا، وحوّلوها إلى عامل شلَلٍ. ورأى يسوع في هذا الموقف خيانةً لروح الله، فأَعلن: «**لقد وُجد السبت من أَجل الإنسان، ولم يوجد الإنسان من أجل السبت**».

ودأب يسوع على إِجراء أَشفيةٍ عديدةٍ في أيّام سبتٍ، مثيرًا استنكار علماء الشريعة. ولكنّه أثبت لهم أنّ خدمة الآخرين هي، دائمًا، عملٌ مرضيٌّ لدى الله، في كلّ يومٍ. وفضحًا لنفاقهم تساءل من منهم، إذا وقع حماره أو ثوره في بئرٍ، يوم سبتٍ، لا يُسارع إلى إنقاذه؟

وبلغ استنكار علماء الشريعة ذروته عندما قال يسوع: «**إنّ ابن البشر هو ربّ السبت، أيضًا**»، إذ إنّه، بذلك، أَعطى نفسه حقّ محاكمة الشريعة، مع أنّ الكثير من فتاوى علماء الشريعة قد حلّ محلّ الشريعة، وبات أخطر شأنًا من وصاياها الأصليّة، وتراكم إلى أن ألّف سلسلةً من الأَحكام والمحرّمات التي يصعب التقيّد بها.

ولطالما تعمَّد يسوع خرقَ وصيَّة السبت كي يثبت أنّ للمحبّة الأَولويّة على الشريعة، ولكي يبلّغ رسالة أنّ راحة السبت لا تمنع عمل المحبّة، ولا تبرّر الامتناع عنه، وأَنّ الغاية الأُولى من هذه الوصيّة هي خير الإنسان، وتحريره، والترقّي به، لا استعباده.

وفضح نفاق علماء الشريعة الّذين تذرّعوا بها كي يخالفوا مشيئة الله، ويُعفوا من ينذر ممتلكاته للهيكل من واجب البرّ بالوالدين.

لقد نفّذ الشريعة بالحبّ الذي يتخطّاها، وبذلك «جعل الشريعة على خلافٍ مع الشريعة».

ومن أهمّ الأَحكام التي عارضها يسوع وقارعها، تلك المتعلّقة بتصنيف الأَطعمة إلى طاهرٍ ونجسٍ. وقد نسف يسوع تلك الأحكام بقوله الخالد: «**ليس ما يدخل فم الإنسان هو الذي ينجّسه، بل ما يخرج من فمه هو الذي ينجّسه...**» فالأَفكار الشرّيرة النابعة من القلب هي التي تدفعه إلى القتل والزنى، والأفعال المشينة، وإلى السرقة، والنميمة، وشهادة الزور. هذه هي التي تنجّس الإنسان.

موقف يسوع هذا صدم مستمعيه، وحتّى بعض تلاميذه، فقد كانت محرّمات الطعام من الرسوخ فيهم، بحيث لم يتخلّص من ربقتها حتّى الأَقربون من يسوع، سنواتٍ طويلةً بعد موت المخلّص وقيامته. وقد أدّى تردّد بطرس في اقتسام الطعام مع مسيحيّين من أصلٍ وثنيٍّ إلى صدامٍ شهيرٍ بينه وبين بولس، رسول الأمم.

ولم يحجم يسوع عن التصدّي لمفاهيم اليهود الراسخة المتعلّقة بالطلاق، والمرأة، والطفل، وقد اتّخذ حيال هذه القضايا مواقف جريئةً تناقض كلّ معهودٍ ومألوفٍ.

لا بل إنّه جرّد الهيكل من احتكار مكان العبادة، عندما جعل من كلّ نفسٍ صادقةٍ وكلّ نيّةٍ طاهرةٍ، محرابًا لعبادة الله الحقّة «**بالروح والحقّ**».

وهكذا بدأت تتجلّى معالم العهد الجديد، وأَخذت طقوسٌ عريقةٌ تشحب، وقواعدُ راسخةٌ تتهاوى. واتّضح تعذّر ترقيع ثوبٍ عتيقٍ خَلِقٍ برقعٍ جديدةٍ، أو إيداع خمرةٍ جديدةٍ فوّارةٍ في زقاقٍ عتيقةٍ باليةٍ، وغدت الأولويّة للحبّ، والإيمان، والموقف الروحيّ.

وهكذا قوَّض الإنجيل كلّ الحواجز التي كانت تفصل البشر، وأشرع الدرب المؤدّي

إلى الملكوت لمن حافظوا على وصايا موسى، وللّذين لم يسمعوا بها قطّ، لليهود ولسائر البشر أجمعين، للرجال والنساء على السواء، وللجميع. ولم يعد أيّ شأنٍ للأصل الإثنيّ، والطبقة الاجتماعيّة، والجنس، والعمر. وهذا ما جعل بولس يهتف: «**ليس، ثمّة، بعدُ، يونانيٌّ ولا يهوديٌّ، لا ختانٌ ولا قلفٌ، ولا أعجميٌّ، ولا إسكوتيٌّ، لا عبدٌ ولا حرٌّ، بل المسيح الذي هو كلّ شيءٍ وفي كلّ شيءٍ**» (كولوسّي ١١ : ٣).

رسالةُ حُبٍّ (*)

ليست بشرى يسوع مجموعة شرائع، وهو لم يهتمّ بفرض أوامر محدَّدة البنود. ولكنّه أكّد، بإلحاحٍ، على مبادىء جوهريّةٍ كالعدل، والتواضع، والإيمان. بيد أنّ الجدَّة الكبرى، في الرسالة المسيحيّة، تكمن في وصيّة المحبّة، فعليها تقوم كلّ الوصايا، والفضائل، التي فصّلها الرسول بولس في نشيد المحبّة الرائع، ومعها، تصبح كلّ مظاهر الفضيلة والتقوى، الخالية من الحبّ، باطلةً، زائفةً. بل إنّ الشريعة نفسها تصبح باطلةً كلّما تعارضت مع مبادىء المحبّة، والإنسانيّة، والروح.

لم يكن لأيّ اكتشافٍ فكريٍّ من العواقب، مثلما كان لوصيّة الحبّ، التي جعل منها يسوع أخطر أركان رسالته، وجوهر دينه، ومعيار كلّ سلوكٍ. فما الإنجيل سوى تراكم رسائل حبٍّ.

«**هذه وصيّتي لكم: أحبّوا بعضكم بعضًا، كما أحببتكم أنا**» (يوحنّا ١٢:١٥).

وسارع يسوع إلى إيضاح عظمة حبّه: «**ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من أن يبذل نفسه عن أحبّائه**» (يوحنّا ١٣:١٥). لدى يسوع ما من شريعةٍ سوى شريعة الحبّ. كلّ الشرائع الأخرى خاضعةٌ لها. وعندما تُحتَرَم شريعة الحبّ، تنتفي الحاجة إلى أيّة شريعةٍ أُخرى.

وبموته على الصليب، حبًّا بالبشر، ألغى يسوع كلّ حدودٍ للحبّ.

الحبّ الذي يوصي به يسوع، إذن، هو حبٌّ بلا حدودٍ، على غرار حبّه، وهو الإله الذي ارتضى ارتداء جسدٍ بشريٍّ، ومعاناة أوهان البشر وحدودهم، حتّى المذلّة، والموت المهين على الصليب، حبًّا بهم. ولا ريب أنّ الدرس الأعظم الذي لقّنه يسوع

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «من حبّ الشريعة إلى شريعة الحبّ»، صفحة ١٨٢، و«الوصيّة الأولى والكبرى»، صفحة ١٩٨، و«مقتضيات يسوع»، صفحة ٢٠١، و«حبّ يسوع»، صفحة ٥٣٩، و«ملك الحبّ»، صفحة ٥٣٧.

هو جَعلُه من بذل الذات، حتّى الموت، فعل الحبّ الأسمى. وعلى من يودّ أن يجعل من الحياة فعل حبٍّ دائمٍ أن يكون، دائمًا، متأهبًّا للموت، وللتضحية بكلّ شيءٍ.

لقد أحبّنا يسوع حبًّا جمًّا، وهو يريدنا أن نحبّ على غراره، كي نكون جديرين بحبّه.

لا بل إنّه ارتقى بمعيار الحبّ الذي أَوصى به إلى ذرًى لا تُطال عندما قال: «**كما أحبنّي الآب، أنا أيضًا أُحبّكم**».

ومع معرفته بعالم العنف الذي كان يعيش فيه، ابتغى قلب توجّهاته، ومنطق القتل الذي يحدوه ويحرّكه. فطالب بمحبّة الأعداء، وبالإحسان إلى من لا تراوده سوى نوايا الشّر، وبالغفران بلا حدودٍ، وهذه دعواتٌ لا سابق لها ولا نظير. يقول «فلوسّر» (FLUSSER) في هذا الشأن: «إنّ حبّ الأَعداء هو ملك يسوع الحصريّ» وكتب، أيضًا: «وحده يسوع كان يدعو إِلى الحبّ غير المشروط، ولاسيّما حبّ الأَعداء وحبّ الخطأة. ومن الجليّ أنّه لم يكن أَحدٌ، في تلك الحقبة، قادرًا على التسامي إِلى قمّة مقتضيات يسوع».

إنّ جوهر اللّه حبٌّ، والحبّ هو الذي منع اللّه أن يظلّ وحيدًا، منكفئًا على ذاته، وإلاّ لما كان حبًّا. إنّه ثالوثٌ متحابٌّ، أقانيم ثلاثةٌ هي جوهرٌ واحدٌ، وكائنٌ واحدٌ. إنّه أُسرةٌ، جماعةٌ، سريان حياةٍ. ولذلك «اللّه حبٌّ».

و«**كلّ من أَحبّ عرف اللّه؛ لأنّ اللّه حبٌّ**» وكلّما تحابّ بشرٌ، حقًّا، كوّنوا ثالوثًا، وكانوا، حقًّا، على صورة اللّه.

وقد كشف لنا يسوع هذا السرّ، لأنّه يريد أن نقاسمه حبّه، ولأنّنا مدعوّون إلى الانتماء للثالوث. الحبّ الإلهيّ انحدر إلى الإنسان الخاضع للموت، كي يرقى به إلى الحبّ الذي لا يموت. وارتدى جسدًا كي يُلبسنا أُلوهته.

رسالة يسوع هي التبشير بمشيئة اللّه، ومشيئة اللّه هي الحبّ. الحبُّ، إِذن، هو تنفيذ مشيئة اللّه، وتبليغ القريب الحبّ المتلقّى من اللّه. والإخاء البشريّ، بأوسع مفهومه، يتدفّق من كلّ تعليم يسوع، فحبّ الإنسان لأخيه نابعٌ من حبّ اللّه له الذي يغذّي ويرسّخ حبّ القريب.

ومن عناصر الجدّة الأَساسيّة في وصيّة الحبّ التي أفضى بها يسوع، الانقلاب

الجوهريّ الذي أَحدثه في مفهوم «القريب» الذي يتعيّن حبّه. فهو، على نقيض التعليم اليهوديّ، ليس، فقط، من تربطنا به وشائج الدم، والدين، والوطن، بل هو كلّ إنسانٍ، أيًّا كان، وإن كان يناصبنا العداء، ويضمر لنا الشرّ. وقد دعا يسوع إلى إغداق الحبّ، خاصّةً، على المحرومين منه: المهمَّشين، والمنبوذين، والمشرّدين، والمحتقرين. ولا مراء أنّ غمْر هؤلاء بالحبّ المجّانيّ، من قبل إخوتهم البشر، ينهض شهادةً ودليلاً على حبّ الله لهم.

على نور الحبّ قرأ يسوع الشريعة، فتخطّى طقوسها وقيودها. ولم يَعُد له السبت حاجزًا دون مبادرات العطف. ولم يعد ينتظر غياب شمس السبت كي يؤدّي واجبات المحبّة، ومبادرات الحبّ.

معه تخطّينا مرحلة الفتاوى والحسابات، ودُعينا إلى الصفح بلا حسابٍ ولا حدودٍ، ولا تحفُّظٍ تمليه الفطنة، لا بل دُعينا إلى ما لم يجرؤ أَحدٌ على الدعوة إليه: «**حبُّ الأَعداء**»، وإلى كمالٍ يحاكي كمال الآب الذي يطلع شمسه على الصالحين والأشرار. وإن كان الإنسان الذي يُشرك بحبّه آخر يُعدّ خائنًا، فحبّ يسوع يخون عندما لا يشرك به كلّ إنسانٍ.

إنّ للحبّ قوّةً تحريريّةً وثوريّةً، فمجرّد ظهوره يحرّر الإنسان الذي كان ضحيّة مصيرٍ لاإنسانيٍّ، ويشفيه، ويعيد له إنسانيّته الأَصيلة. واثنان هما اللّذان ينعمان بفائدته: من يهب الحبّ، ومن يتلقّاه.

يسوع نفسه لم يسعَ إلى إِبهار الناس بمعجزاته الخارقة، بل إلى إِقناعهم بحبّه الصادق.

الحبّ كفيلٌ بالقضاء على جذور أخطر الشرور المتأصّلة في داخلنا: غرائز السيطرة، والعنف حيال الآخرين، وتمرّدٌ أعمى يموّه إرادة تأليه الذات، وإِطلاق العنان لكلّ رغباتنا. هذه الشياطين غافيةٌ في أعماق نفوسنا، ولكنّها متأهّبةٌ للبروز في كلّ لحظةٍ، يغذّيها شعورنا بأنّ «أنانا» هو مركز الوجود الأَوحد. غير أنّ وصيّة حبّ القريب كالذات، هي دعوةٌ إلى مكافحة غرائزنا الأنانيّة والبهيميّة، والاعتراف بـ «أنا» الآخرين واحترامه. وهي، بالتالي، دعوةٌ إِلى كفاحٍ يخلق نموذج إنسانٍ أسمى، «خليقةً جديدةً»، وفي سبيل ذلك، لا مهرب من الحبّ الخليق بقهر جميع الأَبالسة.

الحبّ هو تبنّي نظرة يسوع إلى كلّ إنسانٍ. فيسوع هو الحبّ الذي أمسى إنسانًا.

يسوع كان يستشفّ، وراء أقسى قشرةٍ، ماسةً نفيسةً. ومن خلال البذرة الموغلة في الصغر، كان يتوسّم الشجرة التي ستفيء إليها الطيور، يوماً.

يسوع هو الذي أَوحى للقدّيسة كاترينا السييناويّة هذا القول: «لو أنّكَ كنت تعلم جمال نفسٍ بشريّةٍ واحدةٍ، فلستُ أشكّ في إقدامك على الموت، مئة مرّةٍ، في سبيل خلاصها. فلا شيء يضاهي جمالها».

الحبّ، في نظر يسوع، هو:

– اقتسامك خبزك مع الجائع، وثيابك مع العريان، وبيتك مع المشرّد، وسمعتك مع من يغشاه العار، وعملك مع العاطل عن العمل. وهو أن تنفق بضع ساعاتٍ مع مريضٍ أو سجينٍ.

– الذود عن حياض امرأةٍ تدينها الشريعة. وهو تقديم صداقتك لمن يلوك الناس سمعته، لكي يحافظ على شيءٍ من كرامته.

– ترحيبك، علنًا، بامرأةٍ سيّئة السمعة، معرِّضًا استقامتك للأَقاويل. وهو تقبيلك، بدهشةٍ، أطفالاً مزعجين يثيرون الضجيج.

– معاشرتك، سواسيةً، المفكّر والعالم، المؤمن والكافر، وهو إيثارك الأكثر بشاعةً، لا لأنّه بشعٌ، بل لكي يتخلّص من عبء بشاعته، مثلما يحاط الولد المريض بخير عنايةٍ حتّى يشفى. من المحقّق أنّ يسوع لا يُمالىء السرقة، ولا الفسق، ولا الولع بالسيطرة، ولكنّه بمقدار مقته للخطيئة، كانت أَدنى بادرة تحوُّلٍ لدى الخاطىء تفجّر أكبر أفراحه.

– استقبال ولدٍ عاقٍّ، ماجنٍ، مبذِّرٍ، بدموع الفرح، ومن غير لفظة عتابٍ. وهو إيكال مهمّة رسالةٍ إلى امرأةٍ سامريّةٍ، لم تكن سيرتها مثاليّة.

– الصفح عن جلاّديه، لا بعد مضيّ عشرين سنةً، بل في غمرة تنكيلهم به.

– الوعد بالفردوس لمجرمٍ مدانٍ، تائبٍ، في اليوم عينه.

– تكليف رسولٍ جبانٍ بأعظم المسؤوليّات شأنًا...

سِرٌّ يسوع أنّه يأتي من عالَمٍ شريعته الوحيدة هي الحبّ، ورغبته الوحيدة هي الحياة. إنّه حبيب الآب الذي لا ينضب له حبٌّ، وليس لحبّه حدودٌ. ليس له الحبّ زفرةً، ولا هو شعورٌ رقيقٌ عابرٌ. بل هو المطلق اللامحدود، مبدأ كلّ شيءٍ ونهايته. في البدء كان الحبّ، والحبّ هو اتّحاد الآب الأزليّ بابنه الأزليّ، في تألّق الروح.

كلّ صفحةٍ من الإنجيل تقودنا إلى سّر يسوع هذا، فهو آثر بحبّه المتألّمين والمرذولين: العميان، والصمّ، والبُكم، والمشلولين، والبرص. وفي سبيل غوثهم نسف كلّ الحواجز، حتّى الدينيّة منها، بل حتّى فريضة السبت التي كانت تحظى لدى الفرّيسيّين بقدسيّةٍ قصوى. لذلك دفعوا به إلى الصليب. فقساة القلوب أولئك كانوا يسخّرون الدين لإذلال «فقراء الفضيلة». لم يكن للفظة «المحبّة» وجودٌ في قاموسهم. ولم يكن لهم من همٍّ سوى تنفيذ الفرائض التي حاكوها حول الشريعة، غير عابئين بآلام المساكين، فهي بعيدةٌ عن اهتماماتهم.

نحن وُجدنا على الأرض كي نتعلّم تذّوق الآخر، ولكن ما عسى يحلّ بنا إن لم نتعلّم إلاّ أن ندير له ظهرنا؟

صحيحٌ أنّنا لم نختر ولادتنا. ولكنّنا نستطيع اختيار الحياة في الحبّ، أَو الانغلاق دون الحبّ.

* *

مُذ وجد الإنسان يتجاذب البسيطةَ روحُ الحبّ، وروحُ اللاحبّ، روح السيطرة، بأسلحةٍ متباينةٍ. فالحبّ قد يكون في مثل صلابة الماس، ولكنّه يأنف من استخدام العنف. لا يبتغي الحبّ قتل الشرّير، ولكنّه يرغب في القضاء على الشرّ. أمّا روح السيطرة فلا يخضع لرادعٍ، ولا يحدّه شيءٌ، حتّى الله. وإِن زخر العالم بكلّ هذا القسط من الحروب، ومجازر الأبرياء، وبكلّ أُولئك البالغين والصغار الذين ينفقون جوعًا، فلأنّ روح السيطرة لا يني يطرد الله بعيدًا عن خلقه. وهذا الروح لا يبلغ مأربه بمعزلٍ عن تواطئنا معه، وتوفيرنا القدرات لـه. وبمجرّد مراقبتنا لجراح بشريّتنا، يتّضح أنّنا نوفّر له قدراتٍ جمّةً.

لقد هبط يسوع أَرضنا كي يضرم فيها نار عطفٍ وصفحٍ، ورأفةٍ، وتضامنٍ، ولقد أورى، في كلّ زمانٍ وكلّ مكانٍ، مواقد حبٍّ وسخاءٍ، تشرّف الإنسان وتثلج قلب

اللّه. ولكن كم هم الذين ما برحوا يموتون من العزلة، ويرتعدون من القرّ، ومنذ صباهم لا يطيقون ألاّ يكونوا شيئًا، في نظر أيٍّ كان، مع أنّهم خُلقوا على صورة اللّه الذي لا يني يرنو إلى كلٍّ منهم قائلاً: أَنت لي كلّ شيءٍ، وأنا لك كلّ شيءٍ!

حياة يسوع العلنيّة كلّها تبدو صراعًا بلا هوادةٍ بينه وبين من يبتغون بسط سيطرتهم على الآخرين. ولن يشفى العالم من أوصابه، ولن ينجو من رزاياه، حتّى ينأى عن الأنانيّة، ويعمل بدستور الحبّ الذي جاء به يسوع.

في العالم المحيق بنا، وفي داخلنا، قوًى عديدةٌ تقاوم وصيّة المحبّة هذه، التي لن نجرؤ على تحقيقها إلاّ بمساعدة من هو الحبّ: ذاك الذي يتجلّى لنا، في إنجيل يسوع، أبًا مفعمًا حبًّا.

الشعار القديم: «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك»، جعله يسوع أكثر إِيجابيّةً والتزامًا: «**افعلوا للآخرين ما تودّون أن يفعلوه لكم**». فالإنجيل ليس، كالعهد القديم، سلبيًّا، قائمًا على سلسلةٍ من المحظورات، بل هو إِقدامٌ، وتضحيةٌ، وعمل محبّةٍ.

ما عسى يحدث لو أَصبح الحبّ، يومًا، هو الطاقة المحرّكة لمبادرات البشر؟ لابدّ من المثابرة على اختراع الحبّ، فهو نبع الحرّيّة الثرّ الذي لا ينضب، والحرّيّة هي خميرة كلّ ثقافةٍ، وكلّ إنسانيّةٍ.

ما من إيمانٍ بمعزلٍ عن محبّةٍ صادقةٍ. فمن يعرف الآب لا يسعه إلاّ أن يحبّ أبناءه. ويسوع أَعلن جهارًا: «**ما تفعلونه لأحد إخوتي الصغار، فلي تفعلونه**». وهو لن يحاسب البشر عن قناعاتهم، بل عن أَعمالهم. ومن ثمّ، من يخدم قريبه، يعبد ربّه، ولو جهل ذلك، أو أَنكره.

* *

ومن ثمار المحبّة الصفح عن الأَخ المخطىء، صفحًا بلا حدودٍ، والإعراض عن إِدانة الآخرين وحبسهم في أخطاء ماضيهم، والحكم عليهم بهلاكٍ لا مناص منه. ومن ثمار المحبّة أيضًا، التحاشي عن ازدراء أيّ كائنٍ بشريٍّ، من جرّاء جهله أو فقره، أو ضعفه، أو أيّة عاهةٍ ناشبةٍ به.

الفرّيسيّون كانوا ينظرون من علُ إلى من لا يملكون ثقافةً كتابيّةً، ويحتقرونهم،

ويأبون عقد أيّة صلةٍ بهم، فلا يشاركونهم الصلاة، ولا الطعام، بل كانوا يمسكون عنهم الغذاء وإن كانوا في حاجةٍ حارقةٍ إليه. وكانوا يدّعون «أنّ الجاهل لا يخشى الخطيئة، ولن يكون، يومًا، بارًّا». وكان يسوع، منهم، على نقيضٍ: كان يؤثر البسطاء والعامّة، وكان مهمّشو المجتمع ومنبوذوه يجدون فيه صديقًا ومحاميًا. وكان محاطًا بالعشّارين، الذين ينفي عنهم الفرّيسيّون إنسانيّتهم، وبالنساء التائبات. وكان ذلك فضيحةً في نظر المثقّفين، مدّعي الكمال. ولكنّ يسوع ردّ عليهم قائلاً: «**لا يحتاج الأصحّاء إلى طبيبٍ، بل السقماء. اذهبوا وتعلّموا قول الكتاب: إنّما أريد رحمةً لا ذبيحةً**».

بمعايشة الخطأة كان يسوع يوقظ فيهم الشعور بالتوبة ويرسّخه، ويُضرم رغبتهم في حياةٍ جديدةٍ، وفي استعادة الكرامة المغتالة، والبراءة المسفوحة. وكان عطفه وإيمانه بقدرة الجميع على النهوض والانطلاق على دروب حياةٍ جديدةٍ، يُحدثان المعجزات.

لقد أَعلن يسوع بشراه عمليًّا، بتوجّهه نحو المنبوذين. لم يدعُهم إلى دخول حظيرة الشريعة، بل انضمّ هو إليهم.

بشراه كانت صفعةً لجميع مدّعي التقوى في زمانه. فنَبْذُ من يُعَدّون خطأةً – وهم المستفيدون الأوّلون من البشرى– كان من أَهمّ واجبات متديّني اليهود. وقد كان جوهر تعليم يسوع أنّ اللّه الحقّ ليس ذاك المسجون في الهيكل، وفي شباك الشريعة.

ومن سمات تعليم يسوع الأَساسيّة: رفض السيطرة، والتزام الخدمة، ولذلك رفض مسيحَ المنبوذين قومُه، وأَعدموه. غير أنّ يسوع المرفوض أثبت أنّ اللّه هو أبو المنبوذين والفقراء. وقد خاض تجربةً فريدةً عندما بتر علاقته بدين المجمع والكتبة والفرّيسيّين والكهنة. عطفه على من فقدوا الرجاء لم يكن خطّةً سياسيّةً، ولا حركةً إِنسانيّةً، بل كان تعبيرًا عن اقتحام ملكوت اللّه العالَمَ بالحبّ.

وكلّ من يدرك مدى حبّ اللّه له، تبدو له الأبدّية كلّها غير كافيةٍ للتعبير له عن شكره.

* *

لقد كانت حياة يسوع كلّها جنون حبٍّ. ومنذ أَلفَيْن من السنين، ما انفكّ مجانين حبّه يؤلّفون قافلةً متّصلة الحلقات تسير في إثره. وما زال مجانين حبّ يسوع يواصلون

السلسلة الدامية، ويسفرون للأجيال عن وجه يسوع الحقّ. لقد وجدوا في حبّ يسوع نشوةً أقوى من الموت، وكان إمام المبشّرين بجنون حبّ يسوع، بولس الرسول، ومعه يردّد كلّ من افتتن بيسوع: «**الحياة لي هي المسيح، فلست أنا من يحيا بعد، بل المسيح هو حيٌّ فيّ**».

إنّ سّر ما يدهشنا في سيرة القدّيسين والشهداء يكمن في نظرة يسوع التي حوّلتهم، وسحرتهم، واستحوذت عليهم. إنّها نظرة إنسانٍ تهب حبّ اللّه، وحبٌّ إلهيٌّ ينساب عبر نظرةٍ بشريّةٍ.

إنّ جوهر المسيحيّة هو شخص يسوع، والحبّ الذي يشدّنا إليه ليس مجرّد عقيدةٍ، وإن باتت هذه العقيدة خميرةً تخصب العالم، بل هي حقيقةٌ أبديّةٌ، تمثّل كائنًا حيًّا، يحيا منذ ألفي سنةٍ في قلوب من يؤلّفون قافلته.

وجوهر رسالة يسوع هو حياته الفريدة. فهي أَسمى وأرحب من كلّ ما قد نستخلصه منها من خواطر. يسوع، وحده، قادرٌ على الكشف عن غنى ذاته، وسيستحيل، أبدًا، إدراك معنى رسالته على من يرفض حبّه، والاستسلام لشخصه استسلامًا غير مشروطٍ. وعلى حبّه أَن يكون كاملاً، وإلاّ فلا وجود له.

الحبّ هو اللّه نفسه مقاومًا فقدان الإِنسان لإنسانيّته، وهو رسالةٌ مقروءةٌ في عمل يسوع لصالح جميع البشر، يتوجّب على كلّ مؤمنٍ تبليغها لإخوته.

إنّ الذين أَنشتهم القوّة، والسلطة، والمطامع المادّيّة، فأزروا بوصيّة المحبّة، عاثوا في الدنيا فسادًا. وأَمّا الذين اهتدوا بهذه الوصيّة، والتزموا بها، فقد حقّقوا من الإنجازات ما يشرّف البشريّة، ويضيء وجه يسوع المتألّق.

رسَــالَةٌ مُعَــاصِرَة

إنّ رسالة يسوع جديدةٌ في مجملها، مثلما هي جديدةٌ في أدقّ تفاصيلها، ربّما لأنّ ظلمة الليل كانت مخيّمةً على كلّ شيءٍ، قبل أن يُشرق نور يسوع.

وهي موجّهةٌ إلى العالم أَجمع، وتبتغي الانتشار. هذه الرغبة عبّر عنها يسوع بقوله: «**لقد جئت لألقي على الأرض نارًا، وكم أودّ أن تكون قد اضطرمت! ولي معموديّةٌ أعتمدها، وما أشدّ تضايقي حتّى تتمّ**» (لوقا ١٢: ٤٩–٥٠).

إنّ الحياة المسيحيّة هي الإسهام في الحياة الإلهيّة، من خلال يسوع والاتّحاد به، فالمسيحيّ غصنٌ في شجرةٍ، جذعها يسوع، منه يتلقّى النسغ والحياة.

وعلى كلّ من يتلقّى رسالة يسوع أن يصبح للعالم ملحًا ونورًا. وهذه الرسالة كفيلةٌ بأن تلهمه ضرورة الترقّي بنفسه وبالإنسانيّة، والتطلّع إلى مجتمعٍ أخويٍّ.

قد لا يكون متاحًا لكلّ فردٍ مواكبة تطوّر العلم السريع، ولكن بإمكان كلّ إنسانٍ أن يرقى بنفسه نحو خالقه، في كلّ مرحلةٍ من حياته، وأن يحقّق مصيره بمعزلٍ عن تيّارات العلم والمجتمع.

ورسالة يسوع، التي تعلن حبّ الآب، كفيلةٌ بأن تُقصي كلّ خوفٍ وقلقٍ. فالجميع مدعوّون ومغفورٌ لهم، ومرحّبٌ بهم، ومستعيدون كرامتهم، ويظفرون بما يمكّنهم من حياةٍ جديدةٍ. والحياة الجديدة تستلزم ولادةً جديدةً، والدخول من الباب الضيّق، وتقبّل الملكوت بقلب طفلٍ، والتحوّل الجذريّ والتجرّد.

رسالة الإنجيل تخترق التاريخ، وهي دائمةٌ دوامَ البشريّة التي تعبّر هذه الرسالة عن صبوّها ورجائها. والإنجيل ليس خطابًا، بل هو حضورٌ حسّيٌّ أخويٌّ. ويسوع «نفسٌ كبيرةٌ» متناغمةٌ مع نفوسنا، وقلبٌ يفيض حبًّا، ويخفق بين ضلوعنا.

ليس في الإِنجيل دعوةٌ إِلى الانحباس في ماضٍ ملوّنٍ بألوان المثاليّة، بل ثمّة دعوةٌ

إلى الحياة في الرجاء وبه. ليس فيه ما يذكّر بفردوسٍ مفقودٍ نتفجّع عليه، بل ثمّة انتصار فرحٍ يغمر عالمًا أخويًّا، هو جزءٌ من البشرى.

عمل يسوع ليس فقط ذاك الذي حقّقه في أثناء عبوره بكوكبنا، بل هو ذاك الذي سيمتدّ على جميع الأَزمنة التالية.

وقد كتب كيركيغارد: «للمطلق لا وقت سوى الحاضر. وبما أنّ يسوع هو المطلق فمن السهل التأكّد أنّه لا يمكن أن يكون إلاّ معاصرًا».

إنّ رسالة يسوع، اليوم، هي أشدّ إلحاحًا وضرورةً حارقةً، حيال ما نشهد من فوضى روحيّةٍ وأَخلاقيّةٍ تسود مجتمعنا الاستهلاكيّ، وحيال الإِنسان الاقتصاديّ الذي يُغفل كلّ ما لا يمتّ بصلةٍ إلى الحساب والربح، وكلّ ما لا يجسّد بربريّة حضارتنا. غير أنّ الجذوة القدسيّة التي ابتغى يسوع أن يوري منها حريقًا، ما زالت كامنةً تحت الرماد، وما برحت تلهمنا توقًا إلى وضعٍ أسمى، يليق بنا.

بيد أَنّ ما يتطلّبه ذلك من تحوُّلٍ هائلٍ ما زال بعيدًا عن متناولنا، وما برح وعينا لضرورة هذا التطوّر هشًّا، ورغبتنا في التغيير واهيةً.

إنّ يسوع يقتضي جماعةً بشريّةً شفّافةً، متفاعلةً، خليقةً بإنجازاتٍ مدهشةٍ، حيث ينمّي الأَفراد خصوصيّاتهم، وفي الآن عينه، يزدادون انفتاحًا، بعضهم على بعض، في دفء الشراكة والإِخاء. إنّنا نحمل، في ذواتنا، بذور الملكوت التي تنتظر فسحة النموّ والإِثمار، وليس ما يخصبها أَكثر من العمل برسالة يسوع.

لقد توخّت رسالة يسوع إحلال ملكوتٍ إلهيٍّ يكون مستقبل العالم، وخلقَ عالمٍ جديدٍ في القداسة التي ترقى بالبشر إلى الكمال.

وبما أنّ شخص يسوع لم ينفصل عن تعليمه، فقد كان هو الملكوت، وهو حاضرٌ، دائمًا، في ما بيننا. إنّه معاصرٌ لأنّه المطلق. ومعه يولد، في كلّ يومٍ، وضعٌ جديدٌ.

٩٥٠

مَسِيحِيَّةٌ وَمَسِيحِيُّون (*)

تبشير يسوع اقتصر على رقعةٍ ضيّقةٍ، ولم يؤتِ أُكلُه إلاّ بعد صعود الربّ إلى السماء. ولكنّ يسوع كان قد كثَّف تثقيفَ شهوده، كي يشهدوا على ما قال وفعل، وكي ينشروا رسالته في كلّ بقاع العالم، ويحصدوا ما قد زرع. ولم يكن تبشيره بأقوالٍ إلهيّةٍ، فحسب، بل بكلّ حياته، وخاصّةً بموته. ونظير الحبّة التي تُغرس في التربة، وتموت كي تُثمر أَمثالاً، كذلك هو أُميت ودُفن، ولكنّه سرعان ما قام، وكانت قيامته فيضان حياةٍ.

لقد زرع بذور تعليمه في قلوبٍ نجح في دفعها إلى مراقي البطولة، وأَحبّته بقدر ما أحبّها، أي حتّى الموت. أَحبّته حتّى بعد موته، بل خاصَّةً بعد موته.

تلك كانت مأثرته العظمى. تأثير شخصه كان أبعد وقعًا من تأثير تعليمه. أو بالحريّ، حياته وقيامته أضاءتا تعليمه، وطبعتاه بطابع المصداقيّة والكمال.

وهو لم يلقَ كلّ ما أُحيط به من عبادةٍ إلاّ لأنّه كان جديرًا به. وما كنّا لنعلم عن يسوع شيئًا لولا الهوى الذي أَضرمه لدى من عرفوه، هوًى جمٌّ وطاهرٌ. وإنّ ما برهن عنه الجيل المسيحيّ الأوّل من إيمانٍ، واندفاعٍ، وثباتٍ، لا يمكن تفسيره إلاّ بجسامة الشخصيّة التي أَلهمته.

من مثال حياته، إذن، وتأثير شخصيّته، ومن صليبه وقيامته، ومن حلول روحه على التلاميذ نشأت الكنيسة. وكان أوائل أتباعه مسيحيّين في صلب اليهوديّة، لم يتخلّوا عن اليهوديّة التي ولدوا فيها. في البدء ظلّوا يهودًا يطبّقون الشريعة. اليهود كانوا يدعونهم «أتباع الناصريّ»، ولكنّهم، في ما بينهم، كانوا يدعون بعضهم بعضًا

(*) **راجع يسوع في إنجيله**: «بذار الله»، صفحة ٢٣٠، و«دعوهما ينميان كلاهما معًا حتّى أوان الحصاد»، صفحة ٢٢٥، و«الشهادة القصوى»، صفحة ٥٥١، و«لا تخافوا»، صفحة ٥٥٦، و«تلمذوا جميع الأمم»، صفحة ٥١٩، و«ما تسمعونه همسًا في الأذن، نادوا به على السطوح»، صفحة ٥٢٤.

«القدّيسين» و«الفقراء»، و«المحتاجين»، و«الإخوة»، و«المؤمنين». ما كان يميّزهم هو العماد باسم الثالوث الأقدس، مدخلاً إلى الدين الجديد، والتئامهم المتواتر حول مائدةٍ يجدّدون، من خلالها، ذكرى ما فعله يسوع في أثناء عشائه الأخير مع تلاميذه، في جوٍّ يخيّم عليه الشعور بحضوره بينهم. وكانوا يمارسون شركة المقتنيات، واشتراكيّة حبٍّ طوعيّةً، غير ملزمةٍ.

كانت الفلسفة اليونانيّة تبحث عن حقيقة النفس، والآخرة، والله، وقد وجدت في اليهوديّة شيئًا من تطلّعاتها. ولكنّ فرائض اليهوديّة نفّرتها. حينئذٍ دوّت شهادة يسوع. كلّ ما قاله عن الآب، أي الله، توجّه به إلى البشر أَجمعين. أسلوب خدمته والاتّصال به متاحٌ للجميع. قيمة النفس هي واحدةٌ للجميع. في سبيل هذه الشهادة استُشهد يسوع، وفي تيّاره انطلق ملايين الشهداء.

ومع أنّ المسيحيّة تعرَّضت لاضطهادٍ شرسٍ، منذ تميّزها عن اليهوديّة كدينٍ مستقلٍّ، إلاّ إنّها ما انفكّت تتطلّع إلى انتشارٍ كونيٍّ. سحابة ثلاثة قرونٍ ظلّ المسيحيّون ضحيّة الاضطهاد إلى أن انتصرت الضحيّة على جلاّديها، بفضل إيمانها الصلب. وما زالت الاضطهادات تطاردها في كلّ عصرٍ، وفي شتّى الأماكن.

مذ خرجت الكنيسة من الدياميس أدهشت العالم بقوّة سلطانها على النفوس، وبسرعة انتشارها وامتداده، وبعدد عظمائها وعباقرتها. وقد احتفظت الكنيسة عبر العصور، بدور معلّمة الجنس البشريّ، وبإنقاذها العلم والحضارة من البربريّة.

ولكنّ الربّ لا يكتفي بالسيادة على العقول، بل إنّه يبتغي السيادة على القلوب. فبارتفاعه على الصليب، جذب الكلّ إليه. مفارقةٌ فريدةٌ معجزةٌ أن يوحي مصلوبٌ من الحبّ، أكثر ممّا يوحي من الشفقة.

عدد الذين شهدوا له بدمائهم يستعصي على الإحصاء. وما أكثر الذين يبذلون، إكرامًا لحبّه، أكثر من دمائهم، كلّ ذواتهم، لخدمة إخوته المحرومين والمتألّمين!

وإن كان كثيرون ما يزالون محرومين من حبّهم له، فلأنّهم لا يعرفونه في شخصه الذي يخلّصنا، وفي إنجيله الذي ينيرنا، وفي أسراره التي تهبنا حياته.

ومع انتشار المسيحيّة خارج فلسطين، بين الهلّينيّين الذين تقبّلوا دين يسوع بنفوسٍ جديدةٍ متحرّرةٍ من قيود الشريعة والتقليد اليهوديّ، وبروز شهداء أَبطالٍ أمثال

إستيفانس، انتقل مركز ثقل الكنيسة من أورشليم إلى أَنطاكية السوريّة، حيث تكوّنت جماعةٌ مسيحيّةٌ متحرّرةٌ من التقاليد اليهوديّة. وحينئذٍ تجلّت المسيحيّة بوجهٍ مستقلٍّ، قشيبٍ، ولم تعُدْ، كما كانت في نظر كثيرين، شيعةً يهوديّةً. في أنطاكية انفصلت الكنيسة عن المجمع، ودُعي أتباع يسوع، للمرَّة الأولى، «مسيحيّين».

من جرّاء هذا التحوّل تعرَّضت الجماعة المسيحيّة الأولى للاضطهاد، وسُجِن عددٌ من التلاميذ، وأُعدِم بعضهم، وكان في طليعتهم يعقوب أخو يوحنّا بن زبدى. وغادر الهلّينيّون فلسطين كي ينشروا تعليم يسوع في العالم الوثنيّ.

وشرع اليهود يردّدون في المجامع هذا الدعاء: «لا يعرفنّ المارقون الرجاء، وليضمحلّ أتباع الناصريّ الهراطقة من على وجه الأَرض، في لحظةٍ. وليُمحَوا من سفر الحياة. ولا يُذكَرنّ اسمهم مع أسماء الأَبرار!».

وكان من أبرز وجوه جماعة أَنطاكية المتنامية برنابا القبرصيّ. وإليه يعود الفضل في اكتشاف بولس الطرسوسيّ، الذي ستنتج عنه عواقب تخطّت كلّ توقّعٍ، وامتدّت إلى المسكونة كلّها، جاذبةً إلى الإيمان بيسوع أفواجًا لا تُحصى من الوثنيّين.

بولس كان يهوديًّا فرّيسيًّا، ومن أشرس مضطهدي الكنيسة الوليدة. ولكنّ يسوع ظهر له، بغتةً، عند أَبواب دمشق، وقلب كلّ كيانه، وجعل منه رسوله المصطفى إلى الأُمم. ما كان يسوع قد بشّر به عاشه بولس بكلّ جوارحه، وبكلّ أوتار كيانه. وقد شهد ليسوع كما لم يشهد، ولن يشهد أحدٌ. وبفضل عبقريّته، وجسامة إيمانه، واستغراقه في فهم رسالة الإنجيل تجلّت جدّة تعاليم يسوع، وتميّزها عن كلّ ما سواها. وعوضًا عن حصرها في فلسطين، ودمجها باليهوديّة، اتّخذت أبعادًا مسكونيّةً، كونيّةً، لا محدودةً. ومن عوامل انتشارها:

– بالعنصرة وحّد يسوع العالم. ولأنّه حقّق هذه الوحدة بالحبّ، لا بالعنف، حقّقها في التنوّع. فتلاشت دياناتٌ كثيرةٌ كانت تعد ببعض ما وعد يسوع، ولكنّها كانت قائمةً على فكرةٍ، على خيالٍ. وخلدت المسيحيّة لأنّها قائمةٌ على تاريخٍ، على واقعٍ، على حياة يسوع. وعلى هذا الواقع التاريخيّ الحيّ، شهد من عاصروه وحيوه، وبذلوا حياتهم شهادةً على مصداقيّته؛

– أنّها لبّت تطلّعات البشريّة إلى التحرُّر من القَدَر، ووفّرت لهم «حرّيّة أبناء الله»؛

ومن يؤمن أنّ اللّه يسهر عليه بحبٍّ، يثق بالعالم؛ ومن يتحدّث إلى اللّه تحدُّثَه إلى أبٍ، بحرّيّةٍ، وبلا وَجَلٍ، يتعامل مع ذاته ومع الآخرين بلا خوفٍ. فهو لم يعُدْ عبدًا لشريعةٍ جامدةٍ، ولا لأهوائه، ولا أسير قَدَرٍ غاشمٍ، بل هو ابن اللّه، وحرٌّ؛

– أنّها حرّرت العالم من سيطرة آلهةٍ زائفةٍ، وأَخضعته لسلطة الوجدان الحرّ، القادر على التمييز بين الخير والشرّ، بين المفيد والضارّ؛

–أنّها لم تَعُدْ دين إنسانٍ يخطئ، فيُعاقَب، ويُدان، ويُنبَذْ، بل باتت دين إلهٍ يصفح، وإنسانٍ يتوب، ويحبّ، فيحيا؛

– أنّ الأناجيل ليست سيَرًا وأساطير، ولا هي مجرّد رواياتٍ تاريخيّةٍ، بل هي وثائق إيمانٍ، وشهاداتٌ تؤسّس لتبشيرٍ جديدٍ، وترسّخ إيمانًا جديدًا، وقد دُوّنت لكي يؤمن الجميع أنّ يسوع هو المسيح، وابن اللّه، فتكون للمؤمنين به الحياة باسمه؛

– وأخيرًا، أنّ المسيحيّة ليست مجرّد تعليمٍ، أو دينٍ، بل هي كائنٌ، إنّها يسوع الإله الكلّيّ القدرة والحبّ، وفي الآن عينه الإنسان الذي ارتقى بالإنسانيّة إلى أرفع ذرى كمالها، والعبقريّة الأشدُّ إدهاشًا وجاذبيّةً.

ليست المسيحيّة، إذن، محضَ فكرةٍ مجرّدةٍ انبثقت من ذهن مفكّرٍ أو منظّرٍ، بل هي شخصٌ تاريخيٌّ عاش على كوكبنا، وتميّز بكونه إنسانًا وإلهًا معًا، إلهًا أبديًّا ارتضى لبس جسدٍ بشريٍّ، لكي يجدّد الخليقة. ولا يمكن فصل يسوع التاريخ عن يسوع الإيمان.

* *

والدين الذي أسّسه يسوع هو دين فرحٍ وبطولةٍ، ولكنّه ليس دين يُسرٍ. فيسوع لا يقبل لأتباعه أَقلّ من السعي إلى مثل كمال أَبيه. إنّه يقتضي منهم الزهد بكلّ شيءٍ، وانتهاج الدرب الوعر، وولوج الباب الضيّق، والكفر بالذات، والتضحية الكاملة بها، وحمل الصليب، والحبّ، على غراره، حتّى الموت. والذين يزهدون بكلّ شيءٍ، وينطلقون خفيفين، على الدروب، يتبيّنون أنّ يسوع نفسه هو طريقهم. ويسوع يعلّم أنَّ التضحية بالنفس شرطٌ لخلاصها، مؤكّدًا أَنّ هذه التضحية هي الدرب المحقّق الوحيد صوب فرحٍ غامرٍ مقيمٍ، وسلامٍ عميق الغور، لا تكدّر صفوَه أمواجُ المِحَن، مهما اصطخبت.

أن يكون المرء مسيحيًّا يعني التماسه المستحيل. وهنه وعظمته يكمنان في تصدّيه للمستحيل، وفي استقباله للّه عبر تجاوزٍ دائمٍ للذات. إنّ قَدَر البشريّة الشاقّ والرائع هو تطلّعها إلى مستقبلٍ يتخطّى طاقاتها، وهي موقنةٌ أنّ قوّة اللّه تنبت من وهن الإنسان ونضاله العنيد.

المسيحيّة هي اللّه في الإنسان، هي الإنسان الذي استحوذ عليه اللّه، هي مشاركة اللّه للإنسان، قبل أن يكون مشاركة الإنسان للّه.

لو كانت المسيحيّة مجرّد مذهبٍ لعفا عليها الزمن، ولآمتزج فيها الخطأ بالصواب. ولكنّها يسوع المسيح. إنّها قدرةٌ إلهيّةٌ. وهي ضعفٌ أَمنع من كلّ قوّةٍ بشريّةٍ.

وقد تعرّضت المسيحيّة لهزّاتٍ قاضيةٍ، ولكنّها صمدت، لأنّ المسيح نفسه انتصر بصليبه، وقيامته، وحضوره المحيي، في قلوب القدّيسين.

لم يسعَ يسوع إلى إعلان تعاليم سهلة الإدراك، لأنّه ابتغى أن يرقى بالإنسان إلى ذرًى صوفيّةٍ بالغة السموّ، فلم يتوانَ عن إعلان بنوّته للّه ومشاركته إيّاه في الجوهر، لأنّ اللّه حبٌّ، و«الحبّ لا يسعه أن يظلّ وحيدًا»، فكان ابنه، كلمته، الكائن معه وفيه منذ الأَزل، وكان روحهما هو الحبّ الذي يتبادلانه (إن جاز استعمال صيغة المثنّى لكائنٍ واحدٍ) وكان ثالوث الآب والابن والروح القدس هو اللّه الواحد الأَوحد، منبع الحياة والحبّ، والذي تعذّر فهمه على من لا يطيقون الإيمان ببنوَّةٍ وأبوّةٍ روحيَّتَيْن منزّهتَيْن من كلّ علاقةٍ جسديّةٍ.

ثمّ كان إعلانه أنّ جسده ودمه هما مأكل البشر ومشربهم اللّذان لا حياة للنفس بمعزلٍ عنهما. ومع أنّ هذا الإعلان كان من صعوبة الاكتناه، بحيث أقصى عن يسوع معظم الذين كانوا قد شرعوا يتبعونه، إلاّ أنّه مضى قُدُمًا في تأكيد حضوره الفعليّ في الخبز والخمر المكرّسين المذكِّرين بمعجزة الحبّ التي تركها إرثًا للبشر، عشيّة صلبه.

ومنذ القرون الميلاديّة الأولى ظهر مناوئون للمسيحيّة، لأنّ عقولهم عجزت عن استيعاب إلهٍ يتجسّد ويتألّم، وميتٍ يغادر قبره بقوّته الإلهيّة.

* *

لطالما نشد العالم العظمة الخارجيّة، ودان للقوّة المسيطرة. وليس هذا ما يقدّمه

الإِنجيل. ولم يخجل الرسول بولس من إِعلان: «**إنّنا نبشّر بمسيحٍ عُلِّق على الصليب. رسالتنا فضيحةٌ في عيون اليهود، وجنونٌ في عيون غير اليهود...**»، ففي يسوع المصلوب يعتلن الكلّيّ القدرة إلهًا متواضعًا صار، بدافع الحبّ، صغيرًا في نظر العالم.

ومن ثمَّ، فإنّ الوفاء للإيمان بيسوع يستلزم بطولةً دائمةً وقصوى. وليست البطولة هي شيمة عموم البشر. فلا بدعَ إن ظهرت، هنا وهناك في الأوساط المسيحيّة، أَمارات تخاذلٍ وخيانةٍ لمبادىء الإِنجيل. ولا بدّ، أيضًا، من الإقرار بأنّه كان ليسوع جيشٌ من الجنود البواسل، ولكنّهم لم يريقوا من دمٍ سوى دمائهم.

بشريًّا، كان التبشير بالإنجيل محكومًا عليه بالفشل، فالأَخلاقيّات المسيحيّة تقاوم كلّ الأهواء التي تحدو العالم: الجشع، والكبرياء، والشهوة، والأنانيّة. وهي تدعو إِلى الفضائل الأشدّ تعارضًا مع الغرائز: العفّة، والتواضع، ونكران الذات، والزهد، والتجرّد. فضلاً عن أَنّ التعليم المسيحيّ قائمٌ على موت يسوع الفدائيّ، وعلى قيامته. ولئن كان الصليب عثرةً لليهود، وجنونًا عند الأمم، فقيامته من الموت عُدَّت وهمًا غير جديرٍ بالبحث. كان بولس قد سحر الأَثينيّين بحديثه عن الإِله المجهول، ولكنّه ما إن أتى على ذكر القيامة حتّى تبدّد السحر. ولمّا سمعه الوالي فستُس يتحدّث عن قيامة يسوع، اتّهمه بالهذيان والجنون. ومع ذلك ظلّت القيامة هي محور تبشير رسول الأمم.

* *

دين يسوع يناقض الرواقيّة التي غزت المجتمعات المثقّفة، والإِبيقوريّة الكَلِفة بالمتعة التي اجتذبت الجماهير. إنّه دينٌ يندّد بالمال الذي يدين به اليهود والعظماء، والنافذون على امتداد الإِمبراطوريّة. إنّه لا يلتقي بأفكار الفلاسفة، ويعيق مطامع أسياد العالم، ويجرّد الأباطرة من كلّ ما يجعلهم فوق البشر، أو يُضفي عليهم هالةً إلهيّةً. ولذلك اعتُبرت المسيحيّة عدوّةً للدولة. ومع ذلك، نشرها، في العالم، اثنا عشر رجلاً من عامّة الشعب، بين الأغنياء والفقراء، بين البسطاء، والمثقّفين، وفي المجتمع بأكمله.

* *

كثيرون توقّعوا رؤية نور الشمعة المسيحيّة الشاحب يتلاشى أَمام ضوء النهار الساطع، ولكن فاجأهم توهّج شمعدانها المنتصب مثل شجرةٍ باسقةٍ، والذي بدت الشمس، إِزاءه، باهتةً.

وقد شهدت أَجيالٌ مَن يصبّ الماء في خمرة تعاليم يسوع، ورأت أجيالٌ أُخرى تلك الخمرة الممزوجة تستعيد لونها القاني، وميعة النبيذ الأَصيلة.

وقد عهد الإيمان المسيحيّ فترات وهنٍ وانحطاطٍ، إلاّ أنّه كان، دائمًا، يتغلّب على أوهانه، وينهض، وقد نفض عنه غبار الشيخوخة، والسقم، شابًّا مندفعًا، متدفّقًا زخمًا وحيويّةً.

والعالَم الذي تشبّع بتعاليم المسيحيّة أَصبح أوفَر صحّةً وإرهافًا، وأكثر تعقّلاً في تطلّعاته، وأكثر اتّزانًا في غرائزه، وأمنع ثباتًا وفرحًا في تصدّيه لضربات القَدَر والموت.

ولكن، مع صعوبة التعاليم المسيحيّة، ومشقّة الالتزام بمقتضيات يسوع السلوكيّة والأَخلاقيّة، وجد كثيرون، في هذه وتلك، نسمةً إلهيّةً منعشةً، وسبيلاً إلى الترقّي والخلاص. وقد انضوى تحت لواء يسوع ملياراتٌ من البشر الذين يتكلّمون شتىّ اللغات واللهجات، ويشتركون في الصبوّ إلى كسر طوق المادّة، والانعتاق من ربقة الرداءة.

فبشرى الإنجيل، مذ تدفّقت مثل نسيمٍ عليلٍ في أَوصال العالم القديم المتهاوي، جاءت بالرجاء للمتواضعين واليائسين نافثةً فيهم الطاقة والحياة.

وقد قرنت المسيحيّة بين حكمة أثينا، وتطلّعات الشرق، وحلم روما بسلمٍ شاملٍ، وأدانت كلّ ضروب الطغيان والعنصريّة، وارتقت بالمرأة إلى ملء الكرامة، ودكّت حصون العبوديّة....

وعندما شرعت الشعوب البربريّة تستيقظ وتعي، كانت المسيحيّة هي قاعدة ثقافتها وحضارتها، بتغليبها السلطة الأَخلاقيّة والروحيّة، على القوّة الغاشمة، وشيئًا فشيئًا، أَمست خميرة المسيحيّة منبع ديناميّةٍ لم يشهد البشر لها نظيرًا مذ نشأ الوعي البشريّ.

كلّ امرئٍ ينشد ما أَو من ينير سبيله، ويوجّه حياته في المنحى الصحيح. والمسيحيّ

يؤمن بالعثور على ما ينشده في إنجيل يسوع، ومثال حياته. وهو، فضلاً عن ذلك، يؤمن أَنّ يسوع كفيلٌ بمساعدته على قهر الشرّير، وتخطّي العقبات، وتجاوز الموت نفسه، وباقتياده إلى مرابع سعادةٍ كاملةٍ دائمةٍ، تتخطّى كلّ رجاء: «**فإنّ ما لم ترَه عينٌ، ولا سمعت به أذنٌ، ولا خطر على قلب إنسانٍ، ما أعدّه الله للّذين يحبّونه**» (١ كور ٢: ٩).

وقد اجتذبت المسيحيّة، على امتداد تاريخها، مختلف أَطياف البشر، من عبيدٍ، وعمّالٍ، وفلاّحين، وشعوبٍ مقهورةٍ ورعاةٍ، ومفكّرين، وفلاسفةٍ، وشعراء، وكتّابٍ، وعباقرة نحتٍ، ورسمٍ، وموسيقى. ولطالما زوّدت بالبطولة الشهداء، منذ عهد الكوليزيوم حتّى شهداء القرن العشرين، وفي كلّ حقبةٍ اكتشف البشر، في الإِنجيل، ينابيع خلقٍ لا تنضب.

ومع أنّ تلاميذ يسوع الأوائل كانوا مجرّد صيّادي سمكٍ بسطاء، إلاّ أنّ رؤوسًا كثيرةً من أَعظم الرؤوس التي برزت، في جميع الشعوب، قد طأطأت خاشعةً أمام صليبه.

تعليمه أنار فكر أوغسطينُس وپاسكال، وحبّه شيّد من الكاتدرائيّات تُحفًا مدهشةً، وأَلهم شعراء ورسّامين، وولّد جوقاتٍ وسمفونيّاتٍ خالداتٍ. صورة الإله الإِنسان حرّكت رِيَش أندريه روبليف، وميكل أنجيلو، ورامبرانت. وحتّى اليوم، في مطلع الأَلفيّة الثالثة، ما برح الإنجيل يفوق، شعبيّةً وانتشارًا، أَرقى نتاج العبقريّة الإنسانيّة.

* *

لا معدى عن التسليم بأنّ بين من ادّعوا أَنّهم مسيحيّون، قد وُجد، دائمًا، وفي كلّ عصرٍ، أُناسٌ غير جديرين بمسيحيّتهم، بل كانوا عارًا عليها. ولا مراء أنّ جرائم فظيعةً قد ارتُكبت، باسم المسيحيّة، في شتّى مراحل تاريخها. ولكنّ هذه الفظائع التي نستنكرها، عاجزةٌ عن حجب الإِنجازات الإِنسانيّة الكبرى، التي حقّقتها المسيحيّة في ميادين الغوث والخدمة، والحَدب على المرضى، والفقراء، والمنبوذين، والتي غالبًا ما تعدَّت الحدود الوطنيّة، وانطلقت إلى بلدانٍ قصيّةٍ، بُغيةَ خدمة فقراء العالَمَيْن الثالث والرابع.

وتكاد تنفرد المسيحيّة بتجليتها في هذا الميدان، من جرّاء انفرادها باستنفار نفوسٍ سخيّةٍ، عزفت، طائعةً، عن الزواج ومُتَع الدنيا، كي تقف ذواتها، بكلّيّتها، على الخدمة، تلبيةً لنداء إله العطف والرحمة.

ومع ذلك ما انفكّ كثيرون يتذرّعون بأخطاء نفرٍ من المسيحيّين في الماضي والحاضر، للتجنّي على المسيحيّة، ويعمون عن سبقها في الميدان الاجتماعيّ والإنسانيّ، وفي مضمار الدفاع عن حقوق الإنسان. فمن يجرؤ على اتّهام الكنيسة بالرجعيّة، وهي الرائدة في حقل مكافحة الفقر، والجهل، والتخلّف! ومن يستطيع إنكار جرأتها في الذود عن الحقّ والعدالة، بعد أن علا صوت البابا يوحنّا بولس الثاني معارضًا غزو العراق، في حين خرست أصوات أَقرب الناس إلى العراق؟

ومن امتلك مثل شجاعة البابا يوحنّا بولس الثاني في الاعتراف بأَخطاء الماضي، والتماس الصفح عنها، مع أنّ أَيادي كثيرةً، غير أيادي الكنيسة، ملطّخةٌ بدماء الأَبرياء، وباغتيال الحرّيّات؟

ومن ينكر أنّه، من وحي المسيحيّة، وفي ديار المسيحيّة، وُلد العلم الحديث، وتحقّق تحرير المرأة، وأُعلنت حقوق الإنسان؟

وقد أوجز «سيرتيلانج» دور الكنيسة الحضاريّ بقوله:

«الكنيسة هي امتدادٌ لشخصٍ بلغَ قمّة الإنسانيّة، ولكنّه كان يتخطّى الإنسان، وقد نمت نموّ حيٍّ مدهشٍ، بفضل روحٍ داخليٍّ كان ينفث فيها قدرةً على النموّ منقطعة النظير.

«عانت الاضطهاد، وتغلّبت على مضطهديها، سلميًّا. وأثبتت قيمتها، أخلاقيًّا، واجتماعيًّا، وفكريًّا، وعمليًّا، ومن ثمّ حضاريًّا، بحيث إنّ أَرفع السلطات كانت تلتمس أَزرها...

«يوم غزا البرابرة العالم خُيّل إلى كثيرين أنّ كلّ شيءٍ فُقِد. ولكنّها روّضت الغزاة، لا بالقوّة، بل بتأثيرها الروحيّ، وبهيبة القدسيّ، وبخدماتها المجّانيّة.

«في المجالات التي بسطت عليها سلطاتها، أَشاعت السلام، وأقرّت النظام،

وفكّكت العُقَد، وصاغت الأَذهان، وثقّفت أشدّ النفوس فظاظةً، وأَذابت العبوديّة بنار المحبّة الأخويّة.

«لقّنت المرتزقة الأفظاظ الزراعة، وعلّمت الجائرين بصيحات الحرب، الكلام المرهَف، المهذّب.

«أسّست دساكر ومُدُنًا قادها كهنتها، وتولّت فيها شؤون جماهير عازفةٍ عن العمل، وأَنشأت منها أُسَرًا سعيدةً.

«أنشأت المدارس إِلى جوار الكنائس والأَديرة، وأَقامت المعاهد المهنيّة، ومن بعدُ، الجامعات التي ارتادتها نُخَبُ الشعوب، لتلقّي علومٍ مشتركةٍ، والقيام بأَبحاثٍ مشتركةٍ. ونسخت المخطوطات القديمة وترجمتها، فأنقذت هذه الكنوز من التلف. وكانت، في ميدان الفنّ، ملهمةً. ولا نزال نشهد آثارها في أعظم الفنون وأَشملها، الفنّ الذي تشترك في خدمته كلّ الفنون الأُخرى، أي الفنّ المعماريّ، الذي خلّفت، في مضماره، تحَفًا لا تضاهى.

«وفي عالمٍ مزّقته الصراعات الدامية، أَقامت مؤسَّساتٍ، واضطلعت بمبادراتٍ لصالح السلام، فحمت الشعوب من جور الطغاة، وحمت الحكّام الضعفاء والمقهورين من اعتداء المفترسين.

«لم تكن سياسات زعمائها، دائمًا، نقيّةً؛ ولكنّها من خلال تقلّبات الأَحداث، انتهجت دربًا صاعدًا، جاهدةً في تحويل العالم المتحضّر إلى أُسرةٍ كبيرةٍ يسودها الوئام، حيث تسهم القِيَم الخاصّة بكلّ شعبٍ، وموارده، في تكوين إِرثٍ عامٍّ، خطير الشأن».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

ولا جرَم أنّ الكنيسة ما انفكّت تتعرّض باطّرادٍ، للعواصف، ولهجمات أعداء داخليّين وخارجيّين. فشغف الرؤساء بالسلطة، ووثنيّة الجماهير المتفاقمة، وغوايات هذا العالم التي تزداد، كلّ يومٍ، أَسْرًا وشراسةً، وخيانات المسيحيّين لمعلّمهم، وخلافاتهم، وشقاقاتهم، تبدو وكأَنّها تهدّد وجود الكنيسة نفسه.

ولكنّ الكنيسة التي تغلّبت على جميع أَزمات تاريخها الماضية، ستتغلّب، أَيضًا، على كلّ ما يعترضها من أَزماتٍ، لأنّها مبنيّةٌ على أساس يسوع، ويسوع، كما قال

الرسول بولس، «**هو، هو، نفسه، أمسِ، واليوم، وإلى الأبد**»، وما زال روحه فاعلاً، ومصدر قداسةٍ، وقوّةٍ، وصمودٍ.

وحريٌّ بالتذكير أَنّ شجرة المسيحيّة الناشئة قد ارتوت بدماء الشهداء، وأنّه كان لكلّ جيلٍ شهداؤه؛ ولكن ما من حقبةٍ، نظير حقبتنا، اضطُهد فيها المسيحيّون وسيموا أَلوان التنكيل، ولاسيّما من قبل الشيوعيّة الطاغية، بحيثُ وُصف القرن العشرون بأَنّه «قرن الشهداء». غير أَنّ ما نشهده من يقظة المسيحيّة في البلدان التي عانت الاضطهاد الشيوعيّ، مع كلّ ما تعّرضت له من محاولات القمع والتدمير، لدليلٌ على أَنّ المسيحيّة ليست مرشَّحةً للانقراض.

ولا ريب أنّ تعاليم يسوع تتعرّض، اليوم، لأعتى مقاومةٍ على يد الرأسماليّة الشرسة التي تقيم من المال، والأنانيّة، والنجاح الفرديّ، وسيطرة الدولة، أَصنامًا تعبدها، وعلى يد الفلسفات المادّيّة التي لا تستنير إلاّ بسراج العقل الشاحب، كي تنكر كلّ ما هو روحيٌّ، وكي تعلن موت الله، وتعمّم نظرتها إلى عالَمٍ خاوي القلب والنفس، يتغذّى بالعدَم.

ولكن من بواعث الرجاء أنّ الكنيسة عادت كنيسةً مجاهدةً، فالاضطهادات التي تعرّضت لها كفيلةٌ بتطهيرها من أَدرانها. كما أنّ الإلحاد الغازي، الطاغي، المتفاقم، يومًا إثر يومٍ، جديرٌ بإيقاظها من غفوتها، ومن اهتمامها بالمظاهر والأمور الدنيويّة التي تشغلها عن جوهر الإِنجيل، وهو زهدٌ، وتجرّدٌ، وإيمانٌ، وصلاةٌ، ومحبّةٌ، وخدمةٌ.

* *

وحتّى عندما ينسى مسيحيّون كُثُرٌ «إِلى أيّ روحٍ ينتمون»، ويخونون وصايا المعلّم، ويوفرّون بذلك أسلحةً لأعداء يسوع وكنيسته، لا ينفكّ الإِنجيل فاعلاً في الأشخاص، ولو على نحوٍ خفيٍّ. إنّ مُثُل العدالة، والإِخاء، والحرّيّة، والزهد، والإِيمان بانتصار الخير النهائيّ، وبقيمة الشخص البشريّ، وبالإِجمال، كلّ ما يقاوم الطغيان والكذب، والعنف، يتغذّى، ربّما على غير وعيٍ منه، بالماء الحيّ المتدفّق من الإِنجيل.

ومن المحقّق أنّ، في هذا العالم، عددًا جمًّا من المسيحيّين الملتزمين الذين يضاهون أكثر الآخرين حرِّيّةً، وذكاءً، وعلمًا، وجِدًّا، وكفاءةً في ما يضطلعون به من أَعباء

في المجتمع، ولا يقلّون عن الآخرين سؤددًا، وصفاء رؤيةٍ وذهنٍ، وإنّما هم مسيحيّون لأنّهم أَرادوا ذلك، واختاروا أَن يكونوا ويظلّوا مسيحيّين، وهم مدركون أنّ الالتزام بالإِنجيل يستلزم قرارًا داخليًّا، وخيارًا، وتغييرًا في مجمل قِيَم الحياة.

إنّهم أحرارٌ، فرحون، لا عهد لهم بالحزن؛ لا يخجلون من مسيحيّتهم، ولا يبتئسون بها. وإِن كان، ثمّة، أَمثال هؤلاء، فلأنّ يسوع ما زال حيًّا، فاعلاً فيهم؛ ولأنّه دعا، في إثره، رجالاً نشروا رسالته، ونمّوا جماعة تلاميذه، الذين تكاثروا عبر الزمان والمدى؛ ولأنّ يسوع هو أصل «الكائن المسيحيّ»، ومرجعه، ومعياره.

ومثلما اتّبع الرسل الأَوّلون يسوع، وبشّروا به، واستُشهدوا دفاعًا عن إيمانهم به، لأنّه كان «**يملك كلام الحياة الأبديّة**»، كذلك مسيحيّو اليوم يتعلّقون به لأنّه يثير اهتمامهم، و«يكلّمهم»، ويوفّر لهم ما يسبغ على حياتهم معنًى ومبرّرًا. ومازال صوت يسوع يدوّي في أعماقهم، ويهزّ أوتار كيانهم.

جميع المسيحيّين الحقيقيّين يخبرون أنّ يسوع هو، حقًّا «**السراط، والحقّ، والحياة**»، إِذ إنّ حياتهم لا تكتسب معنًى، إلاّ عندما يعيشون وفقًا لحقيقته وتعاليمه، ويتأثّرون خطاه، مستنيرين بضوء إنجيله، ويقيمون معه، ويحيون ما حَيِيَه.

إنّ من يلتقي يسوع يستقرّ في خَلَده اليقين أَنّ الإنسان ليس نفسًا شريدةً، وحيدةً، لا يهتمّ بها أحدٌ في صحراء الكون الموحشة، بل يوقن أنّه ابنٌ لله، ومساهمٌ في تحقيق مخطّطاته.

إنّ الله الذي تجسَّد على الأرض، يُرشد البشر إِلى دعوتهم السامية، ويضفي قدسيّةً وروحانيّةً على الطبيعة البشريّة، بإِلقائه بذور الخلود في أحشائها. ففي شخص يسوع، غدا الخالق الأَزليّ الذي لا يُدرَك، قريبًا منّا، وامتلأت الحياة فرحًا، وجمالاً، ومعنًى. وبنور يسوع، وبحبّ الآب، تلاشى «صمت الأَعماق الرهيب» ورُدِمت الهُوى المخيفة جميعها.

* *

قد تبدو الكنيسة، أَحيانًا، محتضرةً. وقد جهدت بعض الأَنظمة في وأدها. ولكنّها تنهض، دائمًا، مع يسوع، منتصرةً. وليست العقائد والنظريّات هي التي تجدّدها وتشدّدها باستمرارٍ، وتقودها إلى الخلود، بل يسوع نفسه، بما يستنهض من صلبها، من أَبطالِ بذلٍ، وعمالقة حبٍّ، يشعّون بهاء وجهه، في العالم أجمع.

القرون التي انصرمت، منذ القيامة، لم تكن سوى تمهيدٍ لنضج الكنيسة واشتداد عودها، ولتحقيق ما وعدها به مؤسّسها، وهي، حتّى الآن، لم تُنبت سوى براعمها الأولى التي ما فتئت رقيقةً، ومازالت بُشراها تنير مستقبلاً بعيدًا. الكردينال إتشيغاراي صرّح: «إنّنا مازلنا في فجر عهد المسيحيّة». وكلود جيفّري قال: «المسيحيّة ما برحت في عمر الشباب»، فهي لم تستنبط، بعدُ، سوى جزءٍ يسيرٍ من الحبّ الكامن في القلوب السخيّة، ولم تفجّر سوى القليل من الحبّ الذي يقوى القلب البشريّ على إغداقه». وقيل أيضًا: «إنّ سهم الإنجيل تستهدف الأبديّة».

ولكن على مسيحيّيي اليوم أن يكتشفوا الأسلوب الأمثل لتبليغ رسالة الإنجيل الموجّهة إلى العالم أجمع، حتّى نهاية الزمن. وعليهم أن يبذلوا جهودًا جمّة كي يخاطبوا عالَمًا ينزع إلى الصدوف عن الإنجيل، وإلى رفض كلّ التزامٍ وتضحيةٍ.

فالمسيحيّة قد نشأت وترعرعت في عالمٍ يسوده الحسّ الدينيّ، في حين أنّنا اليوم نعيش في عالمٍ أدار للّه ظهره.

* *

كان يسوع مفارقةً في حياته، وظلّ كذلك بعد موته وقيامته. وما انفكّ التعارض ناشبًا بين كنيسته والعالم. فهو لم يخلّف أيّةَ شُهرةٍ بين عظماء العالم. وزعماء شعبه جهدوا في محو اسمه، ولم يروا في خلفائه أكثر ممّا رأوا فيه على الصليب: احتضارًا يائسًا، تُرجم إلى ثلاثة قرونٍ من الاضطهادات والمجازر التي أُخضع لها كلّ منادٍ باسمه، ومعتنقٍ لتعليمه. وبغتةً انتفض المحتضر، وضمّ بذراعيه العالم أجمع....

وتواصلت الحرب على المسيحيّة بأشكالٍ مختلفةٍ، ولكن بنفس القدر من الشراسة والاحتدام. وظلّ يسوع وكنيسته هدفًا للمعارضة. جماهير غفيرةٌ اعتنقت تعاليم يسوع بكلّ مفارقاتها وقسوتها، ومارستها بحبٍّ جمٍّ، حتّى البطولة، والتضحية القصوى، أحيانًا. وجماهير غفيرةٌ أُخرى رفضتها رفضًا قاطعًا، وقاومتها ببغضٍ جامحٍ.

من المحقّق أنّ يسوع هو، اليوم، حيٌّ بين البشر أكثر من أيّ يومٍ مضى. فالجميع يحتاجون إليه كي يحبّوه، أو كي يشتموه، وجميعهم لا يستغنون عنه. كم من بشرٍ ظفروا بحبٍّ مجنونٍ، في زمانهم، ولكنّهم اليوم منسيّون بين أَطلالٍ دوارس، فلا

قلبٌ يخفق حبًّا بهم، وما من إنسانٍ يضحّي بحياته، أو بماله، إكرامًا لهم! أمّا يسوع فما زال يُحَبّ ويُشتَم، وما برح كثيرون يضحّون في سبيله بحياتهم وبمالهم.

وما من كائنٍ حيٍّ أبدًا كيسوع.

كثيرون، في كلّ حقبةٍ، حاولوا قتله، وصلبه من جديد، لأنّه يزعج نزواتهم وشهواتهم، ويبدّد هلوسات عقولهم. ولكنّه، أبدًا، أشدّ حيويّةً، وأبلغ أثرًا في النفوس.

ظهوراته تتواصل مثلما ظهر قديمًا لتلاميذه ولبولس، وغالبًا ما ينتدب أُمّه لتبليغ رسائله ووصاياه، ولشفاء النفوس والأجساد.

وما برح حبّه الجمّ يضرم نفوسًا كريمةً، تحِبّ على مثاله، وعلى غراره تبذل ذاتها خدمةً لإخوته الصغار، وإنقاذًا لهم.

إنّه حيٌّ، بكثافةٍ، في قدّيسيه الذين يتعذّر فهم سخائهم، وتفانيهم، وتجرّدهم، بمعزلٍ عن حبّهم المطلق ليسوع، وعن حبّ يسوع الفاعل فيهم.

وكم تجلّى هذا الحبّ، أيضًا، من خلال أقوال شهداء، وقدّيسين!

فأغناطيُس الأنطاكيّ، أحد أعظم الآباء الرسوليّين، الذي أُسلم للحيوانات كي تلتهمه، حوالي العام ١٠٧، كتب:

«أنا حنطة الله، وتطحنني أضراس الوحوش لكي أُصبح خبز المسيح الأبيض... متى سأمثل أمام الوحوش التي تنتظرني؟... إذا اقتضى الأمر سأداعبها... وإن هي تقاعست سأستفزّها...

«لا ينفعني في شيءٍ أن أمتلك العالم كلّه، وممالك الدهر الحاضر: وإنّي لأوثر أن أموت من أجل المسيح يسوع على أن أُخضع العالم كلّه لسلطتي. إنّه هو من أنشُد، ذاك الذي مات من أجلي. إنّه هو من أنشُد، ذاك الذي قام من الموت من أجلي.

«هذا هو انعتاقي... أرجوكم إخوتي: دعوني أبلغ النور الصافي: فحينئذٍ سأكون، حقًّا، إنسانًا. دعوني أتمثّل بآلام إلهي. من ملك هذا الإلهُ قلبه سيفهم رغباتي، وسيقتسم معي تطلّعي.

«وإن اتّفق لي، وأنا بينكم، أن أطلب منكم خلاف ذلك، فلا تُصغوا إليّ، بل

اعملوا بما أكتب، اليوم، إليكم. إنّني، وأنا ممتلئٌ حياةً، أُعبّر لكم عن كَلَفي بالموت.

«أهوائي الأرضيّة صُلِبت، ونار الرغبات المادّيّة بارحتني، ولكنّ ماءً حيًّا يوسوس في داخلي، هامسًا: «تعالَ إلى الآب».

«لم أَعُدْ أستسيغ الأَطعمة الأرضيّة، ولا مُتَع هذه الحياة....

«أريد خبز اللّه، جسد يسوع المسيح، وأُريد، شرابًا، دمه، فهو حبٌّ لا يفسد».

هذه ليست أَقوال مهووسٍ حالمٍ، بل هي أقوال محكومٍ، مقيَّدٍ بالأغلال ليلَ نهارَ، يُساق إِلى منقع العذاب.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

وتيريزا، الصوفيّة الكبرى، أَنشدت:

«يا جمالاً يفوق كلّ جمالٍ،
إنكّ توجع ولا تجرح،
تقضي على حبّ الخلائق، ولا توجع.

يا رباطًا يوثّق غير متكافئَيْن،
علام أنفكّ عنك، وأَنت، بوثاقك،
تهب قدرة استعذاب الآلام نفسها.
إنّك تربط من لا كيان له، في ذاته،
بالكائن اللامتناهي.
تكمل، ولا تنتهي.
ليس من يستأهل حبّك،
ولكنكّ تحبّ، وتسمو بعدمنا».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

ويوحنّا الصليبّي هتف:

«السماوات لي، والأرض لي،

والبشر لي، الصالحون منهم والخطأة.

والملائكة لي، وأمّ الله، والأشياء كلّها لي.

وحتّى الله لي، ومن أجلي:

فيسوع لي، وهو، لي، كلُّ شيءٍ».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

ومن أقوال «پاسكال»:

«معرفة الله، بمعزلٍ عن معرفة هوان الذات، تفضي إلى الكبرياء. ومعرفة هوان الذات، بمعزلٍ عن معرفة الله تفضي إلى اليأس، ولكنّ معرفة يسوع توفّق بين المعرفتَيْن، ففيها نجد الله، ونجد ضعفنا.

«إنّنا لا نعرف الله إلاّ بواسطة يسوع. فبمنأًى عن هذا الوسيط، لا اتّصال بالله.

«لسنا، فقط، لا نعرف الله إلاّ بيسوع، بل، أَيضًا، لا نعرف ذواتنا إلاّ به.

«ولا نعرف الحياة والموت إلاّ بيسوع المسيح. خارج يسوع لا نعرف ما هي حياتنا، ولا ما هو موتنا، ولا ما الله، ولا ما نحن».

وكتب «پاسكال» أيضًا، على لسان يسوع:

«تعَزَّ، فما كنتَ لتبحث عنّي، لو لم تكن قد وجدتَني.

«كنت أُفكّر فيك، وأنا أُصارع النزاع. ومن أَجلك سكبتُ قطرات الدم تلك.

«دعْ وصاياي تقودك، وتبيّن كيف قدتُ العذراء، والقدّيسين، الذين تركوني أَعمل فيهم. إنّ الآب يحبّ كلّ ما أَفعل.

«إنّني بتصرّفك، في أَقوالي المدوّنة في الإنجيل، وفي روحي المبثوث في الكنسية، وفي إِلهاماتي، وفي قدرتي الموكلة إلى الكهنة، وفي صلاتي التي يرفعها المؤمنون.

«الأطبّاء لن يشفوك، فمصيرك الموت. ولكنّني أنا من يشفي، ويجعل الجسد خالدًا.

«إنّني صديقٌ لك أَكثر من فلانٍ وفلانٍ، فعلت لك أَكثر ممّا فعلا. إنّهما غير مستعدَّيْن لمقاساة ما قاسيتُه من أَجلك، وللموت من أَجلك، رغم خياناتك وقسوتك.

– «لو أَحطتَ علمًا بخطاياك، لارتعدت.

– «سأرتعد، إذن، ياربّ، فإنّني، بناءً على تأكيدك، أَستوعب مدى بشاعتها.

– «كلاّ، فأنا، من يطلعكَ عليها، إنّما ابتغي شفاءك. وما تقوله هو دليل رغبتي في شفائك. وبقدر ما ستكفّر عن خطاياك، ستعرفها، وسيُقال لك: مغفورةٌ هي خطاياك.

– «ربّي أُعطيكَ كلّ شيءٍ».

* *

وقد كتب «جيلبير سيسبرون» (Gilbert CESBRON).

«المسيحيّة هي أَسمى لقاءٍ حوّل حياتي، حتّى في كهوفها المظلمة. فقد ضاعَفت حبّي، وأَضفت معنًى على كلّ ما يبدو مستعصيًا على الفهم، وأعادت لي طفولتي، وأتاحت لي التقاء الفرح، حتّى على دروب الألم».

* *

هؤلاء، وسحابةٌ كثيفةٌ من الشهود الآتين من الرياح الأَربع، تضّم أفرادًا من كلّ نمطٍ، علماء وبسطاء، جميعهم يقرّون بأنّ يسوع كشف لهم الآب، ويرون فيه مخلّصًا.

إنّ الباحث عن الله الذي يقتفي آثار يسوع، يكتشف الدرب إلى قمّة الكمال. ومن يحاول التملّص من القِيَم المسيحيّة أو قلبها، يتردّى إلى وهاد الدناءة، والرداءة، وإلى مستنقع الأنانيّة، والخلافات القاتلة، ويتيه في فيافي الأَثرة، وشعاب الكبرياء، حيث يتعذّر تنسّم الهواء المنعش.

إنّ المسيحيّ الحقّ هو من يجرؤ، مثل يسوع، على التصدّي لجميع الأوضاع الدينيّة، والاجتماعيّة والسياسيّة، والاقتصاديّة، التي تشّوه إنسانيّة الإنسان، وتستعبده... هو من يخرج من ذاته، ويتخلّى عن رفاهه المادّيّ والأدبيّ، والفكريّ، كي يلتقي الآخرين حيثما وُجدوا. هو من يبحث عن مركز حياته الخاصّة، لا في ذاته، بل في الآخرين، وفي الله، على نحو ما فعل يسوع.

المسيحيّ هو من يرى يسوع في كلّ إنسانٍ، أيًّا كان. فيسوع أحبّ البشر، إخوته، ومن خلاله تجلّى الله، إلهًا محبًّا، قريبًا من كلّ إنسانٍ.

المسيحيّ هو من يحبّ العالم، كما أَحبّه يسوع، ويكافح لجعله أوفر عدلاً وإخاءً، مثلما كافح يسوع، ومع ذلك، لا يضع، في هذا العالم، رجاءه الأقصى.

* *

لا ريب أَنّ الكنيسة قد انزلقت إلى أَخطاء مميتةٍ، وفقدت الكثير من قداستها، يوم تواطأت مع أباطرة العالم، وغفلت عن مهمّة الخدمة والرعاية الموكلة إليها، كي تنشد السلطة، وتنتهج أساليبها الملتوية. ولا مراء أنّ المسيحيّين، كلّما ذهلوا عن وصايا المحبّة والانفتاح، تعرّضوا للتردّي إلى أبشع الممارسات، وقد شهد تاريخ الكنيسة حقباتٍ موغلةً في القتام، حيث تعارضت سلوكيّات رؤساء وأَفرادٍ، لا مع المحبّة المسيحيّة السمحاء فحسب، بل حتّى مع أَبسط مبادىء العدل والكرامة الإنسانيّة.

لقد اقتضى يسوع من أَتباعه أَن يكونوا، للعالم، الملحَ والخميرةَ والنورَ. والكارثة هي عندما يكون من انتُدبوا للإِنارة، والقيادة، وإِطعام الآخرين، دونَهم طعمًا، وإشعاعًا، ونورانيّةً.

إنّ يسوع يبتغي أَن تتجلّى، في أَتباعه، قداسة الآب وكماله، أي حبّه الخلاّق. وعلى من يريد العطاء أَن يكون غنيًّا بما يودّ إعطاءه، وأن يظلّ على مقربةٍ من النبع. فالمصباح لا يضيء إلاّ إذا بقي على اتّصالٍ بمصدر الطاقة. ومن ابتغى الإرشاد إلى النبع، لا بدّ له من أن يكون قد أَلِف ارتياده.

الالتزام برسالة يسوع يقوم على نكران الذات. وقد يقتضي هذا الالتزام الاستشهاد. ولكنّ ما لا يقلّ عن الاستشهاد روعةً، واستحقاقًا، وبطولةً، هو تحدّي الرأي العامّ، في كلّ لحظةٍ، وكلّ سلوكٍ.

* *

لم يخلُ أيّ جيلٍ من وجوهٍ مسيحيّةٍ نيّرةٍ تعكس وجه يسوع، وتذكّر بنصاعة المسيحيّة المبنيّة على محبّة يسوع، وتفيض كنوز عطفها وسخائها على كلّ محتاجٍ ومقهورٍ. وحيثما تكاثرت الأخطاء والخيانات، هبَّ أفرادٌ مفعمون بروح الإنجيل، ودعوا، بجرأةٍ، للعودة إلى منابعه الصافية المحيية.

ففي العصور التي شهدت أفدح الأخطاء، تأسّست أنبل الحركات الرهبانيّة، وأعمقها أصالةً إنجيليّة، كالفرنسيسكانيّة، والدومينيكيّة، والبينيدكتيّة واليسوعيّة، والعازريّة، وإخوة المدارس المسيحيّة.... التي كانت تحدوها وتحييها كنوزٌ من التفاني، والبطولة، والمحبّة، والروحانيّة، والخيال الخلاّق.

هذه النهضة أَسهمت في تطهير الكنيسة وتقديسها، وما انفكّت تؤدّي دورها هذا، ولكن بروحٍ جديدٍ، وأساليب مبتكرةٍ.

من جراء تطوّر العقليّات، قد يكون لبعض معاصرينا على تلك الحركات مآخذ، وقد يرون في إحكام تنظيمها، وتشدّدها، قسوةً وتحكّمًا، ولكن لا مجال لإنكار ما تحلىّ به قادتها من غيرةٍ متّقدةٍ، وإيمانٍ مضطرمٍ، ومحبّةٍ لا تعرف الكلَل.

* *

في أيّامنا، لم يَعُدْ سرًّا أنّ الكنيسة تعاني تقهقرًا مقلقًا في معدّل الممارسات الدينيّة، وفي عدد المؤمنين الذين يلتزمون بوصايا الإنجيل، ويغشون أماكن العبادة، وفي الدعوات الكهنوتيّة.

ولكن، وفي الآن عينه، من جذور الشجرة التي بدت وكأنّ اليباس والذبول قد ألّما بها، نشهد انبثاق أفنانٍ فتيَّةٍ مخضلّةٍ يسري فيها نسغٌ فوّارٌ، وتحمل أمل ربيعٍ مزدهرٍ. فالجمعيّات الرهبانيّة التي وُلدت في هذا القرن، والتي تميّزت بإيغالٍ في الفقر والزهد، وإغراقٍ في البذل والعطاء والمحبّة، نظير رهبانيّتَيْ «مرسلات المحبّة» التي أسَّستها الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، و«أخوات يسوع الصغيرات» التي أسّستها الأخت الصغيرة مادلين، بوحيٍ من روحانيّة القدّيس شارل دي فوكو، والمشاريع الاجتماعيّة الجبّارة التي اضطلع بها أفرادٌ عُزَّلٌ إلاّ من الإيمان والمحبّة، مثل مؤسّسة «عمّاوس» التي أنشأها الأب پيير في فرنسا، ومشروع «جامعي نفايات القاهرة»، الذي أسّسته الأُخت إيمّانويل، وأعمال غوث منكوبي العالم التي ما انفكّت تخوضها

تلك الراهبة التي ناهز عمرها المئة، في شتّى بقاع العالم المقهور؛ والبيوت التي تحضن، بعطفٍ وسخاء قلبٍ، مئات المعاقين عقليًّا، والتي نشرها في مختلف أصقاع المسكونة مارد العطف جان ڤانييه، والكثير الكثير من مشاريع المحبّة المستوحاة من تعاليم يسوع؛ كلّ هذه أشعّة شمسٍ دافئةٌ، ساطعةٌ، تؤكّد أنّ حاضرنا هو أقلّ قتامًا ممّا يُصّور كثيرون، وأنّ المستقبل ما برح مُشرَعًا على الأمل.

ممالك عديدةٌ نهضت وانهارت، وحضاراتٌ تألّقت ثمّ أَفل نجمها، وانقلاباتٌ سياسيّةٌ واجتماعيّةٌ غيّرت وجه العالم. والجماعة التي أسّسها يسوع قائمةٌ، صامدةٌ، وسط العواصف. تعاليمه التي تلقتّها حفنةٌ من التلاميذ غدا يحيا بها أكثر من مليارَيْ نسمة، يتكلّمون العديد من اللغات، وقد أَسهمت في ولادة صيغٍ لا تُعَدّ من الثقافات.

لقد كان يسوع مفجّر إنسانيّةٍ، وما زال دويّ تفجيراته يجتاز المدى والزمن. ولا ريب أَنّ من يستقري نشوء المسيحيّة ونموّها، مع كلّ ما اعتَوَر مسيرتها من كبواتٍ وخياناتٍ، ومن مبادرات من استنهضهم الروح، في كلّ جيلٍ، للتذكير بنصاعة الإنجيل ومقتضياته، يتملّكه اليقين بأنّ يسوع ما انفكّ يقود مستقبل البشر الإلهيّ.

قد تتدنّى نسبة المسيحيّين، ويتضاءل عديد الكهنة، ولكن ستكون المسيحيّة أكثر تحرُّرًا من التطلّع إلى السلطة، وجاهزيّةً للخدمة، واعتناقًا للفقر الطوعيّ، وتأهُّبًا للاضطهادات التي وعد بها يسوع تلاميذه وأَتباعه، وإقدامًا على كلّ التضحيات، وإشراكًا لأَوسع عددٍ من أَعضائها في شؤونها، كي يتفرّغ الرعاة للرعاية الروحيّة فحسب.

مسيحيّة الغد ستكون أوفر صدقًا، وبساطةً، وحرّيّةً، وقناعةً. لن تكون سيطرةً، بل ستكون تواضعًا وخدمةً. ولن تكون موحّدة الشكل، بل تعدّديّةً؛ ولن تتطلّع إلى العدديّة بل إلى التميّز، والأَصالة، والوفاء لروح الإنجيل.

* *

في ختام دراسةٍ عن تاريخ المسيحيّة، واستشرافٍ لمستقبلها، رسم المؤرخ «جان ديلومو» (Jean DELUMEAU) ملامح مسيحيّي الغد. فكتب:

«قيل: «الجحيم هي الآخرون». والمسيحيّون يرفضون هذا الحكم المريع.

«ثمة طوفانٌ من الكتب والأَفلام الساعية إلى إِثبات تعذّر التواصل بين البشر. ولكنّ إيمان المسيحيّين بالتواصل منيع.

«كثيرون حاولوا إِثبات أنّ لا وجود للإنسان، ولكنّ المسيحيّين واثقون من أنّ الله يحبّ كلّ إنسانٍ بذاته، وأَنّ المهمّشين، والمُعدَمين، والمنبوذين هم طليعة ضيوف الملكوت.

«لقد أُتخمنا بالحديث عن الإِنتاج، والاستهلاك، والنموّ، والرَيْعيَّة، والإِحصاءات. غير أنّ المسيحيّين يتحدَّثون عن المحبّة، والخدمة، والحنان، والتفاني، والصلاة.

«أُكِّد لنا، بألف صيغةٍ، أنّ الله قد مات، ولكنّ المسيحيّين يؤكّدون أنّهم اكتشفوا، في يسوع، «وجهَ الله الإنسانيّ».

«كم مدهشون هم هؤلاء المسيحيّون! ففي عالمٍ عزف عن الإِنشاد، هم يلتئمون كي يُنشدوا معًا. وفي عالَمٍ صدف عن الصلاة، هم يلتقون كي يصلّوا، ولكي يسمعوا رسالة «جنونٍ»: «أُعطيكم سلامي، أَترك لكم سلامي». هكذا ما برح يسوع يتكلّم في عهد الأَسلحة الذرّيّة. ويعلّق القدّيس يوحنّا على ذلك بقوله: «**من يحبّ أخاه يقيم في النور**».

«إنجيل التطويبات يعلن غبطة المتألّمين، المسامحين، أَنقياء القلوب، الجياع إلى البرّ وصانعي السلام. وكلّ ذلك يبدو، اليوم، حماقةً! فأيّة علاقةٍ تربط حقبتنا، حقبة التعذيب، والتعصّب، والحروب، والقهر، والإباحيّة الجنسيّة المعلنة، بهذه «البركات» الغريبة؟

«لا ريب أَنّكم تذكرون «نشيد المحبّة» الذي يمكن مطالعته في رسالة بولس الأولى إلى الكورنثيّين (١٣: ٤–٧): «**المحبّةُ تتأنّى وتَرْفُق؛ المحبّةُ لا تَحْسُد؛ المحبّةُ لا تتباهى، ولا تنتفخ؛ لا تأتي قباحةً، ولا تطلُبُ ما لنفسها؛ لا تَحتَدُّ، ولا تظنُّ السُّوء؛ لا تفرحُ بالظُّلم بل تفرحُ بالحقّ؛ تتغاضى عن كُلّ شيءٍ، وتُصدِّقُ كلّ شيءٍ، وترْجو كُلّ شيءٍ، وتصْبِرُ على كلّ شيءٍ**».

«كان بولس يتحدّث إِلى جماعة كورنثس المسيحيّة. ولكنّ الكنيسة أيقنت أنّ رسالة رسول الأُمم هذه تخاطب جميع البشر حسني النيّة. تخيّلوا أن يعزم لا أفرادٌ فقط،

بل تجمّعاتٌ وطنيّةٌ وحكوماتها، على الأخذ بوصايا القدّيس بولس، وعلى الشروع بانتهاج «سياسة» الحبّ التي ينصّ عليها الإنجيل، فأيّة ثورةٍ مدهشةٍ ستتفجّر! إذن، ستتوقّف الحروب، وستذوب نفقات التسلّح (التي بلغت ثلاث مئة مليار دولار عام ١٩٧٥) ذوبان الثلج تحت أشعّة الشمس. وستتوفّر مبالغ هائلةٌ كفيلةٌ برفع مستوى فقراء العالم أجمع؛ ولن تتعرّض، بعدُ، الأقلّيّات للقهر، وستُغلق غرف التعذيب. قد يبدو ذلك محض أوطوبيّةٍ، وقد تتّهمونني بالجنون، وستكونون، في اتّهامكم محقّين. فالمسيحيّون «مجانين»، لأنّهم يؤمنون، رغم كلّ ما يدحض هذا الإيمان، أنّ الحبّ سينتصر، في نهاية الشوط، وسيتغلّب على الموت...

«لأنّ اعتناق المسيحيّة، في البلدان المدعوّة «مسيحيّة» لم يكن، يومًا، كاملاً، ولم يكن بوسعه أن يكون كاملاً،

«ولأنّه اصطدم، دائمًا، بعوائق،

«ولأنّ المسيحيّة الرسميّة خانت الإنجيل، عندما انقلبت سلطةً؛

«ولأنّ بشرى التحرير انقلبت تهديدًا وقسرًا،

«لا يسوغ أن يغدو تقهقر المسيحيَّة الحاليّ – وهو أَمرٌ، لا ريب، جادٌّ وخطيرٌ – عاملَ إِحباطٍ، بل إنّه، بالحريّ، يمثّل عودةً إلى السراط القويم، وإلى ما هو طبيعيٌّ في نظر الإنجيل، وسيكون خيرًا إن هو أَفضى إلى تقديم كلمة الخلاص، في التواضع، والفقر، والمحبّة، إلى قومٍ يملكون حقّ رفضها».

من المحقّق أنّ ملكوت الله في ما بيننا، في كلّ ما يغمر العالم من خيرٍ، وجمالٍ، وحبٍّ، في تلاميذ يسوع الحقيقيّين؛ في المسيحيّين الملتزمين الصادقين، وفي القدّيسين الذين يضيئون بنور يسوع، كلَّ جيلٍ، وفي جميع العازمين على اتّباع المعلّم، ولا يخذلونه، وسط أَعتى المِحن.

«فهبنا، أيّها المعلّم، منعة إِيمانهم، وثبات رجائهم، واضطرام حبّهم لك. وعندما نتيه على دروب الحياة، وتستغلق علينا المقاصد، هبنا أَن نستشفّ وجهك في الظلمة، وسط جلبة حقبتنا التقنيّة الموغلة في القوّة والوهن معًا، وعلّمنا أن نشدّ السمع كي نصغي إلى صمت الأَبديّة؛ وهبنا أَن نسمع، في ثناياه، همس صوتك الذي ما زال ينفث فينا الجرأَة والثقة: «**أنا معكم، كلّ يومٍ، وحتّى نهاية العالم**».

يسوعُ والعِلْم

عالمنا، اليوم، غنيٌّ بالمعلومات والمضاربات، والتسليات، ولكنّه، إنسانيًّا، يعاني فقرًا مدقعًا، فنحن منخرطون في دوّامة نشاطٍ اقتصاديٍّ، واجتماعيٍّ، وتقنيٍّ هائلٍ يلتهمنا، في حين أنّ القِيَم الأخلاقيّة مبتلاةٌ بهزالٍ مطّردٍ يدعو إلى القلق الشديد. فعسى أن يسهم تقدّم العلم في إعادة صوغ تلك القِيَم، لعلّها توفّر لنا مبرّرات حياةٍ جديرةٍ بإنسانيّتنا.

كان الدكتور أَلِكسي كاريل قد كتب: «ما من اكتشافٍ علميٍّ ينطوي على مثل ما ينطوي عليه من معانٍ اكتشافُ يسوع المصلوب لشريعة الحبّ. فهذه الشريعة هي، في الواقع، شريعة بقاء المجتمعات البشريّة».

والإنجيل، اليوم، يدعونا إلى عمليّة إكمالٍ، فما الذي يتعيّن إكماله؟ طبيعتنا البشريّة المليئة بالمفارقات، وطبيعتنا الإلهيّة التي نحمل بذورها.

حولَ هذه التساؤلات كتب العالم الذرّيّ الفرنسيّ، عضو الأكّاديميّة الفرنسيّة (للآداب) وعضو أكاديميّة العلوم، «لويس ليبرنس رنغيه» (Louis Leprince RINGUET):

«رسالة يسوع تتّسم بمعاصرةٍ لا لَبْس فيها. ومن ثمّ، فالانضواء تحت راية الإنجيل هو اختيار قوّةٍ داخليّةٍ تؤهّل لتذليل كلّ العقبات، بالحبّ؛ هو الثقة بأَنّ قوّةً حبيسةً في قلبنا قادرةٌ على التفجّر وعلى تحطيم كلّ العوائق. إنّ العالم يدعونا إلى الحذر. وقد أَلِفنا تأمين كلّ شيءٍ.... ولا ريب أنّ ثمّة أسلوبًا في منح الحبّ والصداقة، بمعزلٍ عن كلّ مخاطرةٍ، في حين أنّ يسوع، يناقض ذلك، ويدعونا إلى السخاء بلا حيطةٍ، بالعطاء من غير توقّع مقابلٍ، إلى التورّط والمخاطرة، كي نربح، وإلى الموت كي نحيا. في مواجهة الحياة المنظَّمة، المحسوبة، الإنجيل يقترح سخاءً مجّانيًا بمنأًى عن الحساب، والتماس المغانم. يسوع يدعونا إلى تخطّي المعقول، وإلى عطاء ما لا نظنّ حتّى امتلاكه.

«رسالة الانجيل تغيّر نظرتنا. الذين، منّا، لا يملكون وقتًا للحياة، وهم، دائمًا، متأرجحون، مضطربون، مرهَقون؛ وقد يستمرّون يخوضون هذا النمط من العيش، ظاهريًّا، إن كان يسوع يسكنهم. ولكنّ جميع أَعمالهم اليوميّة، عوضًا عن أَن تكون مصدر ضيقٍ ويأسٍ، ستصبح ينابيع رجاءٍ وفرحٍ، وكلّ شيءٍ في حياتهم سيرتدي وجهًا قشيبًا. إنّ الصلاة المستمرّة في الحياة اليوميّة، والإيمان بشراكة الأحياء والأموات، واليقين بأنّ العمل اليوميّ المؤدّى برضًى سينعكس نعمًا على البشريّة، كلّ ذلك يوفّر سعادةً داخليّةً مُشعَّةً.

«هذا هو أحد وجوه رسالة الإنجيل التي تترك فيّ أبلغ أثر. فيه الوجود يسمو، ويرتدي معنًى، ويستأهل الاهتمام، ويصبح ذا قيمةٍ قد تغدو لانهائيّةً.

«من المحقّق أَنّ مسبّبات القلق باقيةٌ، لا تلغيها أقوال الإنجيل. ومعضلات العالم الحديث لا تحلّها عصا الإنجيل السحريّة. بيد أنّ حلّها يعتمد على البشر، وعلى الطريقة التي يرون بها الآخرين إخوةً، وعلى جرأتهم وخيالهم، وعلى إِصرارهم في البحث عن الحلول، وعلى مساهمتهم النشطة في المغامرة التضامنيّة الكبرى، مغامرة توجّه البشريّة الخلاصيّ. لا شيء يُحلّ مسبّقًا، ولا شيء محتّمٌ.

«لا ريب أنّنا مساكين، خطأةٌ، غارقون في صغاراتنا التي قد تكون حقيرةً، ونتعثّر، ولكن ما همّ؟ فرسالة الإنجيل كفيلةٌ بقلب كياننا، وبإضرام الشعلة المرتجفة التي تلتمع في قلب كلٍّ منّا، محوّلةً إيّاها إلى نورٍ حقيقيٍّ يُضيء العالم، ويمكّن من فهمه وحبّه، وتغييره وبثّ الرجاء في ثناياه.

«وحينئذ يتّخذ كلُّ شيءٍ بُعدًا جديدًا. فيصبح روح التقبّل الذي ينمّيه العلم، والنزعة إلى إعادة النظر التي لا مفرّ منها لتقدّم المعرفة، مُخلاً جبّارًا، بنّاءً، قادرًا على توليد الحرارة والحياة، وعلى ترقية الإنسان، بحمله على تجاوز ذاته.

«رسالة الإِنجيل تضفي على العلم وعلى الآلة معنًى، ولكن أيّة رسالةٍ؟

«هل يجب، في هذا العالم، طرح القضايا الكبرى مثل قضيّة المصير البشريّ: ما الذي جئنا به إلى الأَرض؟.... يبدو لي أنّ حياتي ستكون مبتورةً إن لم أَطرح هذه القضايا التي يسبغ عليها يسوع معنًى.

«غير أَنّه من العسير على رجل العلم الإِقرار بأنّ الحقيقة قد بُلّغت للعالم في زمنٍ

محدّدٍ، وفي حقبةٍ من التاريخ بعيدةٍ، وفي نقطةٍ ما من المدى والزمن. إنّه يصعب الإقرار، بأنّ كلاًّ منّا، نحن العاملين في سبيل فهمٍ أَمثل، ومن أجل إحكام القبضة على العالم، لا يسهم في تقدّم الحقيقة، وأَنَّ جهد المعرفة الجسيم لا يجدي هذا البحث نفعًا.

«نحن نرى أَنَّ الحقيقة في الأمام، وفي الوراء، وأَنّ يسوع ليس مجرّد رجل الإنجيل التاريخيّ، بل نؤمن أنّه يواكبنا في عملنا، وأَنّه حاضرٌ في صميم جهودنا، وأَنّه سيظلّ حاضرًا وحاديًا أبحاث المستقبل.

إنّ النور الأكبر بعيدٌ. بعيدٌ جدًّا أمام بشريّتنا».

* *

وكان «رنغيه» قد كتب، أيضًا، في مكانٍ آخر:

«لا قِبَل للعلم على الردّ على جميع التساؤلات التي قد نطرحها. فلئن هو كان قادرًا على تبديل سلوكنا، بل على التدخّل في اختلاجات دماغنا، إلاّ إنّه عاجزٌ عن إيضاح هدف مجيئنا إلى الأرض، أو عن فرض أيّة فلسفةٍ، تفاؤليّةً كانت أَم تشاؤميّةً. بل إنّه يدع الباب مشرعًا على جميع الخيارات، إذ لا شأن له بها. ولئن هو مكّننا من الطواف بقلقنا على سطح القمر، إلاّ أنّه لا يضع لهذا القلق حدًّا.

«....إنّه ليتعذّر الإحاطة بردود الفعل الإنسانيّة إحاطةً تامّةً، وإنّ ذلك لمن حسن طالعنا. فلولا ذلك القسط من الحرّيّة التي نتشبَّث بها، لفقد الوجود أثمن مزاياه. فهذا القطب الداخليّ هو الذي يحدّد مميّزات شخصيّتنا الأَصيلة، وهو الذي يحثّنا على التساؤل عن الوجود، وعلى نشدان ضوءٍ ينيرنا، وعلى إِضفاء معنًى على سلوكنا اليوميّ.

«....إنّ المسيحيّة تطالب أَتباعها بأَن يكونوا خميرةً بين ظهراني إخوانهم، وبالمشاركة في حياة العلم والتقنيّة تؤهّلهم للإِحاطة، على نحوٍ أَفضل، بالخواطر والنزعات التي تحدو المندفعين في هذا المضمار. ومثل هذه الحكمة لا يكتسبها من كان بعيدًا عن تلك الحلبة، ولا يمكن تحديدها انطلاقًا من عالمٍ آخر، جامدٍ، أو خائفٍ، حيث يسود الندم والمرارة.

«إنّ الرسالة الإنجيليّة أخطر شأنًا، اليوم، ممّا كانت سالفًا، فهي تدفع البشر إلى

التحاور، والتفاهم، والتحابّ، مهما كانت فجوات التباين، في ما بينهم، سحيقةً. وهي تمنح القوّة الضروريّة، لكسر الطوق الذي يسحقنا، أحيانًا، عندما نحاول تطوير العالم، الذي لم يُكتَب تاريخه مسبّقًا على نحوٍ حتميٍّ.

«إنّ الإنجيل يتجلّى على تناقضٍ تامٍّ مع ما تغدقه حضارتنا من مهدّئاتٍ، والتي تحاول، يومًا إِثر يوم، أن تجعل كلّ شيءٍ مضمونًا، في حين أنّ يسوع يطالبنا بأكثر ممّا نظنّ أنّنا نمتلك، بل يعلّمنا أنّ الموت هو السبيل إلى الحياة.

«.... إذا ما نحن نفذنا إلى كنه التعليم الإنجيليّ، غدت جميع الأعمال، حتّى الأكثر بساطةً، ذات قيمةٍ جُلّى. فعليلٌ يتقبّل أَلمه، أَو سقيمٌ مستلقٍ، في إيمانٍ، على سرير مشفًى، يسهمان في غنى طاقات البشريّة كلّها، غنًى ينعكس انعكاسًا خيِّرًا على جميع إخواننا في البشريّة. إنّ عظمة «شركة القدّيسين» هذه، قد أَدهشتني أبدًا بطابعها الرائع الشامل، فهي موسومةٌ بطابع اللّه.

«لا نتنكَّرنَّ لعالمنا الحديث، فهو رائعٌ، رغم دُوار القلق الذي قد يثيره. وعلينا تترتّب مهمّة الحؤول دون ما قد يولّده من كوارث، أو من رتابةٍ باردةٍ، ناجمَتَيْن عن حياةٍ محكمة البرمجة، خاليةٍ من كلّ مخاطرةٍ. علينا أنّ نتحلّى بالوفير من التجرّد والحبّ كي نسبغ عليه المزيد من الإنسانيّة، ونؤهّله لإِرواء ظمئنا إلى السعادة. فبين السجن والفردوس يثوي حبٌّ لا نهائيٌّ».

القسم السابع

وجه يسوع

وَجْـهُ يسَـُوع (*)

أَعطِنا، ربِّ، قبل كلّ عطاءٍ، أَن نحطّ التفاتةً في سناكا
كلّ ما دون وجهك الجمّ وهمٌ، أعطِنا، ربِّ، أعطِنا أن نراكا

(سعيد عقل)

قُبَيْل خوض يسوع معركة الصليب، وافى أورشليم نفرٌ من اليونانيّين، أَحفاد سقراط، وأرسطو، وأفلاطون، ملتمسين رؤيته. وما برح التوق إلى رؤية ذلك الوجه «الجمّ»، الفريد، يخفق في ملايين الأَفئدة.

ولن يكفّ العالم عن استجلاء قسمات وجه يسوع الأبديّ، الذي يحمل كلَّ صُوَر الأَرض والسماء.

يسوع كائنٌ فذٌّ يقرن الأُلوهة المطلقة بكمال الإنسانيّة. إنّه حدثٌ فريدٌ في تاريخ البشريّة. أَقواله وأفعاله تمزّق كلّ المعايير المعروفة، والإِحاطة بأوصافه تتحدّى الطاقات البشريّة، إِذ:

«كيف يمكن التعبير بألفاظٍ وصُوَرٍ،
عمّن هو نارٌ، وملحٌ، وريحٌ،
ويتعذّر، أَبدًا، الإِمساك به،
مثل نسمة الحياة؟».

وكيف يمكن وصف من تطيح حرّيّته بكلّ صغارةٍ، وضيقٍ، وتميط الحجاب عن منشئه ومصيره الإلهيَّين؟

تحت اسمه تجتمع وتتّحد شخصيّتان: شخصيَّةٌ تاريخيّةٌ، وهي موضوع سيرة يسوع

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «أَقوال في يسوع»، صفحة ٥٦١.

الناصريّ، وشخصيَّةٌ إلهيّةٌ، شخصيّة ابن الله، الكلمة المتجسّد، وهي موضوع إيمانٍ وعبادةٍ.

غنى شخصيَّته يتخطّى كلّ ما عهدناه، ولا سيمّا في أَبعادها الخفيّة. ففيه يمتزج وجود اللّه الفائق ببشريّته المتواضعة، المتأثّرة بصروف الحياة الإِنسانيّة. فهو، عندما يقول «أَنا» فهو يعني ابن اللّه الأبديّ، المندمج بمصيره الإِنسانيّ المؤقّت، بغيةَ دمجنا بحياته الإِلهيّة.

سرّ يسوع أنّه، في آنٍ واحدٍ، كائنٌ يشبه سائر البشر، بل عامّتهم، ببساطته، وأُلفته، وكلامه، وحدوده، وأوهانه، ومن جانبٍ آخر يتمتّع بسموٍّ فائقٍ، لأنّ جوهر كيانه يمتلك خصائص القدرة الكلّيّة، والسيادة المطلقة. ذلك أنّ له طبيعتين: طبيعةً بشريّةً، وأُخرى إلهيّةً. الأناجيل الإِزائيّة سردت أَفعاله البشريّة. أمّا الإِنجيليّ الرابع، ففي أَعقاب تأمُّلٍ مستفيضٍ، استجلى كنه هذه الأَفعال، على ضوء أُلوهته، وهي كيانه الدائم، فهتف: «**في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة اللّه**». بيد أَنّ أُلوهته لا تُنقِص، في شيءٍ، من واقع بشريّته الكاملة.

إنّ يسوع هو نقطة التقاء الأبديّة بالزمن، حيث غدا «الكائن» الإِلهيّ حاضرًا في صُلب البشريّة، حضورًا مطلقًا، يتّجه صوبه تاريخ الكون كلّه.

في يسوع يستحيل الفصل بين اللّه والإِنسان، وإلا تعذّر فهمه. وهو يتخطّى العقل البشريّ، ولكنّه لا يعارضه؛ يحيّره ولكنّه لا يخيفه.

ومن جرّاء اضطرارنا إلى استخدام لغةٍ بشريّةٍ في التحدّث عن إلهٍ وإنسانٍ معًا، غالبًا ما نصطدم بخطر الإِساءة إلى كمال ألوهته، عندما نتعرَّض لمشاعره البشريّة، مثلما قد نتعرَّض إِلى التقليل من شأن إِنسانيّته، عندما نحاول إِبراز سموّ ألوهته فوق كلّ ما هو بشريّ.

سنحاول، من خلال الصفحات التالية، رسم بعض ملامح ذلك الكائن الفذّ، ونحن واثقون بأَنَّ كلّ ما سنوفّق إلى قوله لن يتعدّى كونه لعثمةً، يشفع بعجزها ما يمليه علينا شخص يسوع من إعجابٍ، وحبٍّ، وعبادةٍ.

يسوع ابن الله

عندما قرّر يسوع إعلان هويّته لتلاميذه، سألهم: «**من أنا، في نظركم؟**»، فهتف زعيمهم بطرس: «**أنت المسيح، ابن الله الحيّ**». فغبطه المعلّم لأنّ هذا هو التعريف الذي ينطبق عليه، وقد أدلى به بطرس، بفعل نعمةٍ حلّت عليه، ونورٍ غمر نفسه، وقوّةٍ إلهيّةٍ تكلّمت بفمه. فهو لم يكن متأثّرًا فقط بمعجزات يسوع، بل كان شخصه قد استحوذ عليه. وكان نظره قد غاص في أعماق كيان الربّ الذي كان وجهه يعلن عن أكثر من إنسانٍ. كان يشتمّ فيه رائحةً أذكى من أَطيب عطرٍ، رائحة الحياة، وكان يتجرّع كلماته مثل ماء نبعٍ صافٍ دفّاقٍ. وقد عبّر عن ذلك، في مناسبةٍ أُخرى، يوم قال: «**إلى من نذهب، يا ربّ؟ إنّ عندك كلام الحياة الأبديّة. فإنّا نحن، قد آمنّا بك، وعرفنا أنّك قدّوس الله**».

شخصيّة يسوع كانت تعبّر عن هويّته، وقد أَنار وجودُه بصيرة بطرس. فالكلمة لم يكن يتكلّم بلسانه فحسب، بل بكلّ كيانه، مفصحًا عن جوهره.

صفة «**ابن الله**» ملازمةٌ ليسوع. بها استهلّ مرقس «**إنجيل يسوع المسيح، ابن الله**» (١:١). ولوقا أَورد قول الملاك الذي بشّر العذراء بحملها من «**سيكون عظيمًا، وابن العليّ يُدعى**» (١:٣٢). ويوحنّا أعلن في مطلع إنجيله: «**وقد رأينا مجده، مجد ابنٍ وحيدٍ، آتٍ من الآب**» (١:١٤). وبولس اعترف: «**لمّا ارتضى الله...أن يعلن ابنه فيّ...**» (غلاطية١:١٥-١٦). ومنذئذ ما انفكّ رسول الأمم يبشّر بابن الله، المسيح يسوع، مسمّيًا الله «**أبا ربّنا يسوع**». وقد جاء في إنجيل متّى، على لسان يسوع: «**إنّ أَبي قد دفع إليّ كلّ شيٍ. فلا أحد يعرف الابنَ إلاّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلاّ الابن، ومن شاء الابن أن يكشف له**» (١١:٢٧). وعندما طرد يسوع باعة الهيكل قال: «**لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارةٍ**» (يوحنّا ٢:١٦).

لا أَحد غيره يعرف الآب، لأنّ لا أحد يحيا في شراكةٍ كاملةٍ مع الآب سواه،

وعلاقته به جوهريّةٌ. هذه العلاقة الفريدة هي التي جعلت شعوره بتخلّي أَبيه عنه، وهو على الصليب، مرهقًا. ومع ذلك، بين يدي ذلك الآب، وحده، أودع روحه.

وقد اعترف الآب بيسوع ابنًا له حبيبًا، ومصدر سروره، يوم اعتمد في الأُردنّ على يد يوحنّا، ويوم تجلّى على الجبل أَمام ثلاثةٍ من تلاميذه، وبحضور موسى وإيليّا.

هذه العلاقة الجوهريّة بين الآب والابن ظلّت قائمةً وحميمةً، بعد تأنّس الابن، وارتدائه جسدًا بشريًّا. فتأنّسه تمّ بمشيئة الآب والابن معًا. وكانت مشيئة الآب هي دليل يسوع على الأرض، ومنارته في كلّ ظرفٍ. وكان تنفيذها هو كلّ مبتغاه، بل كان طعامه وشرابه، وعلّة تجسّده، وكان يوثّق بينهما علاقةً حميمةً. ولكنّه، أَحيانًا، كان مصدر آلامٍ جسيمةٍ ليسوع الإِنسان. وإِن كان البشر ينقادون لاحتياجاتهم وغرائزهم، إلاّ أنّ يسوع كان يخضع لمنطقٍ آخر، لإِلهامات الآب التي تسمو على إلهامات البشر سموّ السماء على الأَرض.

مشيئة الآب كانت ليسوع حبّه، وسكناه الحميمة في الله، وكانت تضيء نفسه وكلّ أعماله، وتدفىء كلّ كيانه. وكان يسوع، حقًّا، «النَعَم» المطلق لكلّ وعود الله، ومخططّه لخلاص العالم.

تسمية «ابن الله»، عندما تُطلَق على يسوع، ليست مجازيّةً، ولا رمزيّةً، ولا نسبيّةً أو روحيّةً، فحسب، كما هي الحال عندما تُطلَق على سواه من البشر أو من الملائكة. بل هي تعني بنوّةً حقّةً، كاملةً، ولم يكن بوسع اليهود فهمها ولا قبولها؛ ومازال يتعذّر على الكثيرين اكتناهها. هذه البنوّة الحقّة، الكاملة، هي التي عناها الآب عندما أعلن: «**هذا هو ابني الحبيب الذي به سررتُ**».

في الميثولوجيا اليونانيّة والرومانيّة كان بعض الآلهة يقيمون علاقاتٍ مع نساءٍ بشريّاتٍ ينتج عنها أَنغالٌ، يُسمَّون أَنصاف آلهةٍ أو أبطالاً، ولكنّهم لا يدّعون علاقةً جوهريّةً بآبائهم، ولا تماهيًا معهم.

ولكن، خلافًا لمفهوم اليهود، ولمفهوم الوثنيّين، بنوّة يسوع لله الآب هي حالةٌ فريدةٌ تفوق كلّ ما عهدناه. وإنّما اضطررنا إلى استخدام لغةٍ بشريّةٍ للتعبير عنها، ممّا قد يزيد فهمها تعقيدًا. فهذه البنوّة لا شَبَه لها بالبنوّة البشريّة، إذ ليس الآب أَكبر من الابن، ولا هو أَقدم منه وجودًا، ولا يجوز استخدام صيغة المثنّى في الكلام

عنهما، فهما واحدٌ. الآب هو الله، والابن هو الله، والله واحدٌ، وهما كيانٌ واحدٌ. ويسوع هو تجسّد الله الوحيد، وهو، في تجسّده، يملك ملء الأُلوهة، وهو الله الواحد، مثلما كان قبل تجسّده، ومثلما هو أبديًّا.

يسوع هو الكتاب الذي نطالع فيه الله.

ثمّة أنبياء كُثُرٌ، ومعلّمو أخلاقٍ سامون كُثُرٌ، في شتىّ الأَديان، ولكن ليس فيهم من تجاسر على القول إنّه والله واحدٌ. وحده يسوع الذي أَثبت، طيلة حياته، أنّه عدوٌّ للكذب، والرياء، والدجل، أَعلن بعفويّةٍ وبساطةٍ: «**من رآني فقد رأى الآب... أنا والآب واحدٌ**». وقد أَعلن ذلك، في عقر دار الوحدانيّة الإلهيّة.

مفارقة يسوع الكبرى هي جمعه بين الإلهيّ والبشريّ التاريخيّ.

كثيرون قالوا فيه أقوالاً جميلةً. فالفيلسوف سبينوزا، مع أنّه لم يكن مؤمنًا، اعترف أنّ «الحكمة الإلهيّة قد تكلّمت، خاصّةً، من خلال يسوع المسيح». وغوتيه الملحد قال: «إن سألني أحدٌ هل تسمح لي طبيعتي بالركوع أَمام المسيح، لأجبت: «أجل، بالطبع، إنّني أسجد أمام تجلّي أَسمى مبدإٍ أخلاقيٍّ».

وقال رينان عن يسوع، في إحدى محاضراته الجامعيّة: «إنّه إنسانٌ منقطع النظير، ومن العظمة بحيث لا أَرغب في مخالفة من بلغ إِعجابهم بأَعماله الخارقة أن سمَّوه الله».

وقال المهاتما غاندي إنّ يسوع هو «شهيدٌ، وتجسيدٌ لقدرة التضحية، ومعلّمٌ إلهيٌّ».

ويبقى الوصف الأكمل إحاطةً بيسوع هو اعتراف بطرس: «**أَنت المسيح ابن الله الحيّ**».

وإن كان «رينان» قال مخاطبًا يسوع: «إنّك الإِنسان الوحيد الذي أَنحني أمامه»، فإيماننا يعلن: «بل أنت، يا يسوع، الإِله الإِنسان الوحيد الذي نعبده».

* *

مذ كان يسوع في الثانية عشرة أعلن لأُمّه وليوسف أنّ عليه الاهتمام بشؤون أبيه. وقد تجلّت أُلوهته من خلال كلّ أقواله، وأفعاله، وقدراته الخارقة.

فالذين كانوا يلمسون مجرّد هدب ثوبه، كانوا يشعرون بقوّةٍ فائقةٍ تخرج منه، هي قدرة الألوهة.

وأُلوهته تجلّت من خلال قدرته على منح الحياة، وإقامة الأموات، ومن خلال شفائه شتّى الأسقام بمجرّد كلمةٍ أو لمسةٍ، وغفرانه الخطايا، وهو من خصائص الله، ومن خلال قداسته السامية، وتنزّهه من كلّ خطيئةٍ.

ولا غرو أنّ قوله: «**أنا معكم حتّى انتهاء الدهور**»، هو دليل أُلوهته. فإقدامه على تأسيس كنيسةٍ تتحدّى الزمن، على صخرة بطرس، الصيّاد الأمّيّ، المتقلّب، وحفنةٍ من أترابه البسطاء، واقتضاؤه من المؤمنين به كمالاً يضاهي كمال الله نفسه، كلّ ذلك دليلٌ على أُلوهته.

وما أحرانا بالترديد مع توما: «**ربيّ، وإلهي**»، ومع يوحنّا الإنجيليّ: «**الكلمة صار بشرًا وسكن بيننا مملوءًا نعمةً وحقًّا. وقد رأينا مجده، مجد ابنٍ وحيدٍ آتٍ من الآب**».

يسوع هو الابن الوحيد لله الوحيد. إنّه قدرة اللامخلوق، وحكمته، وروعته اللامخلوقة.

وقد صار، وهو إلهٌ، بشرًا، وسكن بيننا كي يفتدينا ويقدّسنا.

وإن كان لقب «**ابن البشر**»، يشير إلى رسالته، فتسمية «**ابن الله**» تدلّ على هويّته الأصيلة، وعلى علاقته بالآب، الذي لم ينفصل عنه، لحظةً واحدةً. بل إنّ كلّ ما كان يفعله، ويقوله، ويحياه بين البشر، فإنّما كان يفعله، ويقوله، ويحياه مع الآب، فهما واحدٌ. وهذا ما يجعله الوسيط الذي لا غنى عنه بين البشر والآب السماويّ، والمخلّص الوحيد. فلا أحد يأتي إلى الآب إلاّ به، لأنّه هو، الطريق، والحقّ، والحياة، ونور العالم.

لم يقل يسوع: «أنا يهوه» وإلاّ لكان كرّس امتيازات إسرائيل. ولم يقل: «أنا الله»، وإلاّ لبدا وكأنّه يلغي أباه. ولكنّه قال إنّه «ابن الله» ناسبًا لذاته طبيعة الله عينها. وكان يتعذّر على التلاميذ تصديق هذا التأكيد، لولا المعجزات التي أجراها، ولولا قيامته التي كانت تحمل طابعًا إلهيًّا، وخَتْم الله.

بنوّته نتيجة علاقةٍ روحيّةٍ صرفٍ. وهذا ما عناه الإنجيلّي يوحنّا بتسميته ابن الله

«**كلمته**». بصفته «**الكلمة**»، كان النور الكفيل بإنارة العالم، وكان الرسول والرسالة، الرسول الذي يتكلّم بالجسد، والرسالة التي تدعو البشر إلى الله. إنّه الحياة، وقد أصبح حياتنا.

من خلال يسوع يتجلّى وجه الله الأكثر واقعيّةً. ففي يسوع نستطيع أن نعرف من هو الله، وبما يفكّر، وفي ما يرغب، وما يخطّط لخليقته، وسرّ الوجود. لقد تجسّد ابن الله كي يجسّد الله في أرضنا. وقد أعلن: هناك طريقٌ يوصلكم إلى الآب هو أنا. أنا لستُ منهجًا، بل أنا كائنٌ حيٌّ، فإن كنتم معي ضمنتم الوصول. أنا الطريق الحقّ الحيّ. انضمّوا إليّ فأمضي بكم معي، مثلما تمضي الشجرة بالغصن في صعودها، إن بقي الغصن فيها. وسيصبح الغصن بحجم الشجرة، في صلب الشجرة ذاتها.

الطريق الأوحد إلى الآب هو ابنه ذاته.

بتجسّد يسوع تشبّه الله بالإنسان، واستعاد الإنسان صورة الله.

يسوع هو ابن الله الوحيد، ولكنّه أيضًا، كما قال الرسول بولس: «**بكر إخوةٍ كُثُرٍ**» وبالتالي، في المسيح وبفضله، يقول الآب لكلٍّ منّا «**أنت ابني**».

وهذا ما عبّر عنه الشاعر الفرنسيّ «پول كلوديل»، بعبقريّته الفذّة: «لنا، في السماء أبٌ، لم يعد يميّزنا عن ابنه».

المسيحيّ الحقّ هو من لا يني يسمع الآب يقول له: «**أنت ابني الحبيب**»، ولا يني، مع يسوع، يجيب: «**ها أنذا، يا أبتِ، لتنفيذ مشيئتك**».

لقد اعتدنا أن نكون خلائق الله، ولكنّنا لم نعتد أن نكون له أبناءً. وإنّما عيش بنوّة الله هو تنفيذ قول يسوع: «**إنّ من لا يقبل ملكوت الله مثل طفلٍ، لا يدخله**». والطفل، كما عناه يسوع، وكما فهمته القدّيسة تيريزا، ليس الصغير عمرًا، بل هو المليء بحياة الروح، والمستسلم لحبّ الآب.

إنّ يسوع هو ابن الله في كيانه، وابن الله في رسالته. وعمل الفداء هو عمل إنسانٍ يحيا، حتّى في الموت، سرّ البنوّة الإلهيّة.

كانت مهمّة يسوع هي إدخال ملكوت الله إلى العالم، وجعله مستقبل هذا العالم، وخلق عالمٍ جديدٍ في القداسة، بحيث يحقّق كلّ امرىءٍ، خلاصه، بإيتائه

ثمر الخلاص، وبانضمامه إلى كرمة يسوع، وبتغذّيه من نسغها، فيسوع هو الملكوت، وهو في ما بيننا.

من الله خرج يسوع، وإليه مضى، ونحوه قاد العالم. وتحقّقت رسالته من خلال علاقته بأبيه، إذ جعلنا إخوةً له، وأبناءً لأبيه.

لم يحمّل الآب ابنه وزر جميع خطايا البشر، وهو الذي لم تمسَّه، قطّ، لوثة خطيئةٍ. وإن كان عليه التكفير عن تلك الخطايا، فبتقديسه البشر قداسةً إلهيّةً، وبحملهم على التمثّل بتجرّده، وتواضعه، وحبّه، وبذله.

وقد مُجّد يسوع، لا بثمن الآلام التي تكبّدها، بل من خلالها، وبخضوعه اللامحدود للآب، وهكذا كان الفداء عمل الآب بواسطة ابنه وعمل الابن بواسطة بنوّته، وعمل الروح الذي يمثّل الحبّ المتبادل بين الآب والابن.

يسوع هو الحمل الذي لا يحمل على منكبيه كلّ خطايا العالم وحسب، بل يزيلها ويغسلها، وهو يزيلها بقداسته التي يشرك بها كلّ من يتناول هذا الحمل الفصحيّ. إنّه يحمل في ذاته كلّ خطأة العالم. فهو ابن الله في قلب البشريّة، هو الألف والياء، «**به وإليه خُلِق كلّ شيءٍ؛ إنّه قبل كلّ شيءٍ، وفيه يثبت كلّ شيءٍ**» (كولوسّي١: ١٦–١٧).

لقد تجسّد من أجل الخطأة في العالم، وهو يحملهم في فيض بنوّته الإلهيّة.

الفداء هو سرّ التبنّي الذي خاضه يسوع حياةً لانهائيّةً، وسرّ التجسّد الذي به انحدر الابن إلى هوّة البشريّ، كي يشرعه على لانهائيّة أُبوّة الله، ممهّدًا للبشر سبيل بلوغ الله.

بصفته ابن الله يحتلّ يسوع مركز العالم، ولا ينفصل عن عمليّة الخلق المستمرّة، ويلعب دورًا كونيًّا أساسيًّا. «**به كان كلّ شيءٍ، وبغيره لم يكن شيءٌ ممّا كان**» (يوحنّا ١ :**٣**). جعل منه الآب مركز الخليقة، مركزًا ينتشر، وفي الآن عينه يجتذب إليه كلّ شيءٍ.

العالَم خُلِقَ حبًّا بالابن، بقدرة الحبّ المتمثّلة في الروح القدس، الذي يزخر ببذور الحبّ ولا يكفّ الآب ينفث فيه طاقات حبّه، من خلال عمل خلقه المستمرّ. وهذه الطاقات هي التي تسمح للخليقة بالبقاء في مواجهة قوى الأنانيّة المدمِّرة.

ويسوع، ابن اللّه، إلهٌ بوجهٍ بشريٍّ واضح القسمات فقد تجسّد، وهو ما برح اللّه، وابن اللّه، ولم يُفقِدْه التجسّدُ شيئًا من أُلوهته.

اللّه أَبٌ بالنسبة إلى ابنٍ هو منذ الأزل منه وفيه. والابن لبس جسدًا بشريًّا كي يصبح واحدًا منّا، فنستطيع، نحن أيضًا، أن نصبح أَبناء اللّه. به أصبح اللّه في متناولنا، وبه تجلّى في حياتنا كمن يحملها، ويساندها، ويحفزها، وبه اعتلن اللّه معنا ومن أجلنا.

للّه ابنٌ واحدٌ، وريثٌ واحدٌ، هو يسوع، ونحن، بيسوع، حصرًا، نصبح أَبناء اللّه وورثته. ولا وجود لنا، لدى اللّه، إلاّ في يسوع. إنّه وسيطنا الحيّ، الواعي، الحرّ، ومن خلال وجدانه، ومعرفته، وفكره، وحبّ قلبه، وتصميم إرادته، يتحقّق مقصد رحمة اللّه. إنّنا لا نتلقّى أيّة عطيّةٍ روحيّةٍ، ما لم يشأها لنا يسوع الذي يعرفنا ويحبّنا. إنّه يوحّد إرادته بإرادة اللّه، ويضمّنا في صلاته. إنّنا لا نحيا إلاّ به وفيه، في جسده السرّيّ، كائن الحبّ الواحد، العابد والمصلّي الواحد.

أمّا صلاتنا الشخصيّة فجدواها تعتمد على اتّحادنا بيسوع، وتوافق نوايانا وإرادتنا مع نواياه وإرادته، وحينئذٍ تصبح انفتاحًا وتقدمةً، كي يحقّق اللّه مقاصده، ويظهر مجده، فينا وبنا، وفي يسوع وبه. وبقدر ما نحن نحيا في يسوع، وهو يحيا فينا، يصلّي هو فينا ومعنا.

بيسوع يتسنّى لنا أَن نولد، ونوقَظ باستمرارٍ على حياة اللّه نفسه. ويتّم ذلك بواسطة الروح الذي يرسله لنا الآب والابن. وهذا يعني أنّ اللّه ليس فقط، في ذاته، أَبًا وابنًا، بل هو، أَيضًا روح حبٍّ. بالروح وُلد يسوع ابنًا للآب، وبه قام من القبر، وتمجّد ابنًا إلهيًّا. فالروح هو روح الآب في أُبوّته، وروح الابن في بنوّته. الروح هو رباط وحدة الآب والابن. وبواسطته يتواصل اللّه معنا، ويبلّغنا حياته.

بالروح يشركنا الابن في حياة الآب وبه يلدنا الآب إلى حياته الخاصّة، وهذا اللّه الثالوثيّ يأتي إلينا بواسطة يسوع، ويتيح لنا أَن ندرك شيئًا من السرّ المتعذّر الفهم الذي يجعل العليّ الكلّيّ القدرة يشركنا في حياته، ويبلّغنا ذاته.

بيسوع، ابن اللّه، ومعه، وفيه، وباتّحادٍ مع الروح القدس، نستطيع أن نتوجّه إلى الآب الكلّيّ القدرة، ونقول له: «**أبانا**».

يسوع الإنسان

يسوع هو أعظم مفارقةٍ عرفها التاريخ.

ظهر في منطقةٍ ثانويّةٍ من الإمبراطوريّة الرومانيّة، وقضى تسعة أعشار حياته، سجين قريةٍ وضيعةٍ، لم تشتهر إلاّ بضآلة شأنها، ولم ينأَ عنها يومًا. وسحابة عمره لم يُبدِ رغبةً في قرع أبواب عالم الحكماء، والفنّانين، والسياسيّين. لم يختلف إلى مدارس عليا، ولا أكبّ على مخطوطاتٍ علميّةٍ، ولم يعقد علاقاتٍ مع علماء من خارج أُمّته. بل عاش نجّارًا، وطيلة ثلاثين عامًا لم يعرف عنه شيئًا سوى اثنين، صامتَيْن مثله.

وبغتةً، عندما بلغ الثلاثين، اعتلن، وشرع يعمل، وهو أَعزل من كلّ وسيلةٍ، فلا سلاحٌ، ولا مالٌ، ولا مهاراتٌ أكّاديميّةٌ، ولا عبقريّةٌ فنّيّةٌ، ولا حجّةٌ سياسيّةٌ. وهو يسير دائمًا، وسط قومٍ فقراء، صيّادين أو فلاّحين، ويؤثر بعطفه العشّارين المنبوذين، والخاطئات، ونفايات المجتمع الراقي. وبين هؤلاء أجرى فيضًا من المعجزات، من كلّ نوعٍ. وانضمّت إليه ثلّةٌ من الصيّادين الذين اتّخذ منهم تلاميذ، ولم تتخطَّ مدّة عمله السنوات الثلاث.

أمّا عمله فهو التبشير بتعليمٍ ليس فلسفيًّا، ولا سياسيًّا، بل هو دينيٌّ وأخلاقيٌّ فحسب. وهذا التعليم هو أكثر ما في العالم غرابةً. ولكأنّه خلاصة ما أجمع الفلاسفة على نبذه، وكلّ ما استبعده العالم، في كلّ زمانٍ ومكانٍ. فما يعدّه العالم شرًّا، يعدّه، هو خيرًا. وما هو للعالم خيرٌ، هو ليسوع شرٌّ. فالفقر، والتواضع، والصبر على الإهانات، والامّحاء أَمام الله والآخرين، التي يعدّها العالم الشرّ الأقصى، هي، في نظر يسوع، الخير الأَسمى. وبالمقابل، الثروات، والأَمجاد، والسلطة، وملحقاتها، هي مصدر سعادة العالم، ولكنّها، ليسوع، وبالٌ وخطرٌ. بالإِجمال يسوع هو نقيض العالم.

العالم لا يرى سوى الظواهر، ويسوع يخترقها، ويتجاوزها. يسوع يحدّق إلى السماء، ويتأمّل الأرض من خلالها. أمّا العالم فلا يرى سوى الأرض، وينظر إليها من الأسفل.

في نظر يسوع، لا تعني الأرض بذاتها شيئًا، فهي مرحلةٌ أليمةٌ، عابرةٌ، لا تسفر عن أيّ حلٍّ مناسبٍ، وهي لا تكتمل إلاّ في السماء، ولا تكتسب معنًى إلاّ بالنسبة إلى السماء. الحياة الحاضرة لا قيمة لها، إلاّ بصفتها إعدادًا لحياةٍ مستقبليّة. إنّها مقامٌ موجعٌ وغير مستقرٍّ ولكنّها تصلح نقطة انطلاقٍ نحو مقام فرحٍ دائمٍ. قاطنو المقام المؤقّت، الذين يضعون في العالم رجاءهم كلّه، ويأبون عنه فكاكًا، يكوّنون ملكوت العالم. وبالمقابل أولئك الذين يقيمون فيه صابرين، متطلّعين إلى الآخرة الدائمة، متأهّبين للانطلاق إليها، فهم ملكوت اللّه.

بين المملكتين، الحرب شعواء، في الحاضر وفي المستقبل. قوّة كلٍّ منهما حبٌّ مختلفٌ. مواطنو مملكة الأرض لا يحبّون سوى ذواتهم، وما يوفّر لهم نفعًا ومتعةً. وهم يضمرون لسائر كائنات الأَرض والسماء بغضًا ظاهرًا، أو لامبالاةً باردةً. أمّا رعايا ملكوت اللّه، فيحبّون اللّه، في المقام الأوّل، ثمّ ينحدرون، درجةً درجةً، سلّم الكائنات، فيولون حبًّا خاصًّا للناس الضارّين والذين لا نفع منهم، ويسعون إلى الإِحسان لصانع الشرّ، ولمن يجهل عمل الخير. العطاء لهم ربحٌ، وهم يجهلون البغض، فالبغض هو البخل الأَقصى. ويسوع هو الداعي إلى ملكوت اللّه هذا، الذي يستمدّ منعته من حبّ اللّه والبشر.

* *

بإعلانه عن علاقته الفريدة، الحميمة، الجوهريّة، باللّه أَبيه، وعن رسالته وطبيعته، رسم يسوع، عن ذاته، لوحةً حيّةً، أمينةً، وأَفشى لغز حياته.

اختار ابن اللّه المتجسّد أن يعرّف نفسه، على أرض البشر، بأنّه «**ابن الإنسان**» وقد كان النموذج الأَسمى للإِنسان الكامل. إنّه إنسانٌ مثلما خرج من يدي اللّه، يعكس صورته السنيّة، بلا لوثةٍ ولا عيبٍ، ولا إرثٍ بشريٍّ وبيلٍ. كونه بلا خطيئةٍ لا يُنقص من إنسانيّته شيئًا، بل يُضْفي عليها ملأها، إذ إنّ الخطيئة هي تشويهٌ للبشريّة. وبذلك كان هاديًا إلى مكافحة كلّ نقصٍ جسديٍّ أو أدبيٍّ.

إنّ الطريق المؤدّي إلى الله يمرّ عبر بشريّة يسوع التي لا تنفصل عن حبّه للبشر وخدمتهم، لا سيّما أولئك الذين يكابدون شتّى ضروب المعاناة.

لقد ابتغى يسوع أن يكون تجسّده كاملاً، فلم يعرّف ذاته بوظيفةٍ أو بصفةٍ، بل اكتفى بالتعريف عن نفسه أنّه «**ابن الإنسان**». تسميةٌ تدهشنا بشموليّة مدلولها، وبنكهتها الشاعريّة. قد تصلح لأيّ إنسانٍ، ولكنّ يسوع جعلها دلالةً على ذاته، واحتكرها، فباتت تبعث إشعاعًا قدسيًّا. لم يجرؤ أحدٌ، من بعدُ، على ادّعائها، لأنّها وجدت فيه ملء معناها.

تسميةٌ لا تدغدغ غرور أيّ إنسانٍ، إذ لا تضيف عليه أيّة ميزةٍ خاصّةٍ. ولكنّ يسوعٍ ارتقى بها إلى أَسمى المراتب، مرتبة الإنسان المكتمل، الذي لا ينحدر، شعرةً، عن ذروة الإنسانيّة، ولا ينفخها بالفراغ الباطل. أيُّ إنسانٍ سواه استطاع، يومًا، ادّعاء أنّه كان دائمًا، في السرّاء والضرّاء، وتحت شتّى الظروف، الإنسان البسيط، الإنسان الكامل؟

أَوَلا يبدو يسوع، وحده، وسط التاريخ، النموذج الأَمثل للإنسان المكتمل وللإِنسانيّة الكاملة؟

إنّه مركز الدائرة: فيه جميع الأزمنة حاضرةٌ، ومنه جميع تواريخ العالم تنبع، حوله يدور التاريخ، وبه يتحقّق الوجود.

وفي هذه التسمية، أيضًا، إشارةٌ إلى نبوءة دانيال (٧:١٣) القائلة: «**وكنت أنظر في رؤياي ليلاً، فإذا بمثل ابن إنسانٍ، آتٍ على غمام السماء، فبلغ إلى قديم الأيّام. وقرّب إلى أمامه، وأُوتي سلطانًا، ومجدًا، وملكًا. فجميع الشعوب، والأُمم والأَلسنة يعبدونه، وسلطانه سلطانٌ أبديٌّ لا يزول، وملكه لا ينقرض**».

وفق هذه النبوءة «**ابن الإنسان**» هو كائنٌ سماويّ المنشأ، لابسٌ مظهرًا بشريًّا، تسلّم من الله نفسه الملك على البشريّة كلّها، بكلّ أَعراقها، وأُممها، ولغاتها، وثقافاتها، وحضاراتها. وقدرته أبديّةٌ مثل قدرة من وهبه إيّاها. ولا بدعَ إن رأى اليهود، في هذه التسمية، تحدّيًا، وادّعاءً يلامس التجديف، ومساواةً بالله حتّى في أبديّته.

لطالما تحفّظ يسوع حول لقب «المسيح» الكفيل بإثارة أَوهام اليهود، مؤثرًا لقب

«**ابن الإنسان**» الأقلّ إيحاءً سياسيًّا، والأكثر تلاؤمًا مع التعريف الحيّ الذي كان يبتغيه لذاته. صحيحٌ أنّه وُلد في غمرة الحمّى المسيحانيّة، ولكنّه لم يستسلم لتيّارها، بل جهد في توسيع رقعة رؤيتها، وأعلن للعالم سعة حلم الإنسانيّة الذي كان يحدوه. لم يرتدِ ثوب المسيح المميّز الذي حاكته توقّعات إسرائيل بتؤدةٍ، بل مزّق هذا الثوب، داعيًا البشر، باستمرارٍ، إلى الانطلاق نحو الله. وعندما سُئل: «**هل أنت الآتي، أم علينا انتظار آخر؟**»، أجاب بأعمال حياته وموته، وبأمثاله الرائعة عن الملكوت.

كان يسوع في حاجةٍ إلى اسمٍ يدلّ عليه، ولا يعيق مسيرته، يستثير الأذهان ولا يضلّلها، ويتّسم بصبغةٍ مسيحانيّة فعليّةٍ، ولكنّها بعيدةٌ عن الاستفزاز، ولذلك تبنّى اسم «ابن البشر» الذي يبرز التباين بين جلال الله، وهشاشة الأداة التي يستخدمها، وعظمة الدور الذي يؤدّيه. وهو يعني أنّ المظهر البشريّ يخفي كائنًا أسمى.

تسمية «**ابن الإنسان**» تعني، في آنٍ واحدٍ، رسالته كمخلّص، وتنازله كإلهٍ حبس ذاته في وهن جسدٍ بشريٍّ. **ابن الله** منذ الأزل أصبح بمحض مشيئته «**ابن البشر**»، من أجل أداء مهمّةٍ خلاصيّةٍ. هذه التسمية تتوافق مع الخزي والهوان والألم التي تمثّل مصير البشر، وتتوافق، أيضًا، مع تمثّله بالبشريّة الخاطئة. ولذلك لم يستخدم يسوع هذه التسمية، قطّ، بعد قيامته. ولكن بما أنّه كان ابن البشر، وخَبَر الإنسانيّة، فُوِّضت إليه دينونة البشر في اليوم الأخير.

بصفته «**ابن البشر**» تضامن مع البشريّة كلّها، في كلّ شيءٍ، ما خلا الخطيئة. لقد تحدّى الجميع بأخذه في خطيئةٍ، غير أنّه ارتضى أن يأخذ على عاتقه عواقب خطايا البشر. وكان يتأثّر بأوجاعهم، ويتوجّع لخطاياهم، ويبكي لحزنهم، ويحزن لبكائهم.

ثمّ إنّ تسمية «**ابن البشر**»، تعني أنّ يسوع لم يأتِ لشعبٍ معيّنٍ، أي للشعب اليهوديّ وحده، بل للبشر أجمعين. إنّه الإنسان الشامل، ونموذج الإنسان الكامل. وقد اختار أن يكون من البشريّة مثل سوادها، متجرّدًا من كلّ الامتيازات الاجتماعيّة، وفي مستوى أصغر أفرادها وفي متناولهم. فبقدر ما يدنو منهم تتحقّق رسالته على وجهٍ أكمل.

بصفته «ابن البشر»، أصبح أخًا لكلّ إنسانٍ، وأشرك الجميع في بنوّة الآب. كان الكاهن الذي يمثّل البشريّة، والضحيّة التي تحلّ محلّها.

هو وحده «**ابن الله**» وهو، وحده، يستطيع أَن يسمّي نفسه «**ابن البشر**»، لأنّه يمثّل البشريّة كلّها، ولأنّه نموذجها الأَسمى.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

وُلد يسوع في وطنٍ له تاريخه، ومؤسّسه، وفتوحاته. وُلد رجلاً تنتظره الأَجيال. ولكنّه لم يقم بأيّة مبادرةٍ بصفته وريث وعود هذا الشعب ورجائه. لم يقل: إنّي يهوديٌّ وقد جئت كي أنمّي أُمّتي، وأمتدّ بها إلى أَقاصي المسكونة، إلى أَبعد ممّا فعل أَبوانا داود وسليمان. بل قال ببساطةٍ: «**أنا ابن البشر**». في كلّ صفحةٍ من الإِنجيل يطيب ليسوع أن يدعو نفسه ابن البشر، وقلّما يذكر، هنا وهناك، أنّه ابن اللّه. عبارة «**ابن البشر**»، وحدها، تنطوي على ثورةٍ، أكبر ثورةٍ عُهدت قطّ.

قبل يسوع كان يُقال: أَنا يونانيٌّ، أَنا رومانيٌّ، أَنا يهوديٌّ... كلّ فردٍ كان يتدثّر بانتمائه إلى وطنه ومدينته. أمّا يسوع فانتماؤه الوحيد هو كونه «**ابن البشر**». وهو، بذلك، يستهلّ عهدًا جديدًا، عهد إنسانيّةٍ لا شيءَ فيها، بعد اسم اللّه، أكبر من اسم الإِنسان، ولا شيء أَجدى للظفر بالعون والتكريم والإِخاء. كلّ كلمةٍ من كلمات ابن البشر، وكلّ فعلٍ من أَفعاله، تتّسم بهذا الروح، وجميعها معًا، أقواله وأفعاله، تكوّن الإنجيل الذي بات الحقّ الجديد الشامل. وما إن وُجد الإِنجيل حتّى أَرسل يسوع تلاميذه كي يحملوه إلى الجنس البشريّ: «**امضوا وبشّروا كلّ خليقةٍ بالإِنجيل**». الانتشار، والمشاركة، والشمول، غدت شعارات الرسالة، وحيث لم يكن يُسمع سوى ضجيج الأنانيّة، لم يعد يُسمع سوى جري المحبّة.

وما عاد بوسع بولس أَن يمسك في صدره نشيد البشريّة المنتصر:

«ليس، بعدُ، يهوديٌّ ولا يونانيٌّ، ولا عبدٌ ولا حرٌّ، ولا رجلٌ ولا امرأةٌ، بل جميعكم واحدٌ في المسيح يسوع».

يسوع هو اللّه والإنسان معًا. هو الحبّ الحيّ المتجسّد. ولكي تكتمل، في يسوع، هذه الوحدة بين الأُلوهة والإنسانيّة، كان لا بدّ له من أن يكون إنسانًا كاملاً، وإلهًا متجلّيًا للبشر.

ومن خلال وجه اللّه المتجلّي في يسوع، يتراءى ذلك المتألّم البريء الذي مات على الصليب، وحبّه اللامتناهي الذي عبّر عنه ببذل ذاته.

ارتداء اللّه جسدًا بشريًّا كان اتّضاعًا وتلاشيًا، وتجرّدًا من مجده. وكانت الآلام والموت نتيجةً طبيعيّةً لهذا الاتّضاع. بصفته إلهًا، كان معصومًا من الأَلم والموت، ولكنّه، بتجسّده، تعرّض لهما. ولئن كان موت البشر دليل هوانٍ، إلاّ أنّ الموت من أَجل افتداء البشريّة هو المجد الأَسمى، وقد خصّه الآب بهذا المجد، وكرّسه بالقيامة.

فبتجسُّده كان يسوع قد ارتدى ثوب العبد، وبالموت خلع هذا الثوب كي يستعيد ملء بنوّته الإلهيّة، ومجده الأَصيل. وقد تجلّت أبعاد موته من خلال قيامته التي أَسفرت عن حقيقة شخصه، وملء أُلوهته، وعظمة سرّ التجسّد اللامحدودة.

وفي هذا السياق كتب الأب جيرار بيسّيير (Gérard BESSIÈRE):

«كان (يسوع) البذرة المفرطة الصغر التي سيشرعها الموت على طاقاتٍ لا محدودةٍ من الخصب. وكم كان مدهشًا ومقلقًا، وفاتنًا! كان يحمل في ذاته، مثل باقاتٍ مهداةٍ للمستقبل، عالم اللّه والإنسانيّة المؤلّهة.

«من كان يتخيلّ إلهًا نجّارًا، إلهًا متشرّدًا، إلهًا مسمّرًا على الصليب؟ كان يدعو البشر أجمعين إلى أن يصبحوا آلهةً، وأَبناءً للإله الواحد، وأن يكونوا على غراره، كاملين، أَينما وُجدوا: في الشارع، في الحقول، في بساطة الحياة اليوميّة. كان يريد للغفران الإلهيّ أَن يعيد صوغ البشر، بحيث يشيع الحبّ بين الأَعداء. كان له الماء والخبز والخمر وكلّ موجودٍ، لقاءً حميمًا بين اللّه والبشر. كان يساوره طموحٌ مجنونٌ إلى تحويل العيون، والأَيدي، والقلوب والعقول.

وكان يبذر، من حوله، طاقة الخلق. وكان الترقّب الدهريّ الغافي في الجماعات البشريّة يجد فيه ضالّته. كان الإنسان الذي يتقبّل اللّه، والإِله الذي يهب الإِنسان ذاته».

وكتب نابوليون: «إنّني أَعرف البشر جيّدًا. ويسوع المسيح هو أَكثر من إنسانٍ، وقد أَضاف يسوع حجمًا جديدًا إلى قامة الإِنسان».

اعتنق الطبيعة البشرية، ولكنّه ارتقى بها إلى الكمال. لم يعرف الخطيئة، ولكنّه تعرَّض لجميع أَوهان الجسد. ابتغى أن يقودنا إلى الآب، عبر مصاعب هذا العالم.

أراد أن يكون لنا المثال في الفضائل المؤلمة المتواضعة، والأشدّ عسرًا. ولذلك هبط عالمنا في الخفية، والفقر، والألم، وعانى موت الصليب المهين.

تجسُّدُ الله كان أقصى ما انتهى إليه خيال القلب، وإفراط الحبّ. لقد جمع، في ذاته، الحالات الرئيسة التي قد نصادفها في وجودنا، بعد أن دمغها بمثاله: الألم كي يعلّمنا كيف نعانيه، والجهد كي يعلّمنا الدأب، والتعليم، كي يؤهّلنا لنقل العلم إلى الآخرين.

تألّم، ولكنّه انتصر، فكّر وتكلّم، ولكنّه عمل. كان وضيعًا ولكنّه كان سيّدًا.

ليس بين مواطن عظمته، ومواطن وهنه أيُّ تضاربٍ. فأوهانه الجسديّة تُبرز عظمة إنسانيّته، وأُلوهته على السواء.

بيسوع يبلغ كلّ إنسانٍ ملء إنسانيّته. لم يبتكر يسوع الإنسانيّة، ولكنّه، بأقواله وبحياته، جعلها ملكًا لكلّ إنسانٍ، لا حكرًا على الأبطال، وأنصاف الآلهة. بصيرورته إنسانًا ألحق البشريّة بأُلوهته، وبكونه ابن الله المتجسّد، لم يعُد الإنسان خليقةً مسكينةً، بل غدا، هو أيضًا، خالقًا، وعلى غرار يسوع وبواسطته، غدا مساهمًا في عمل الآب الخالق. وبفضل قداسة يسوع، أمسى بوسع كلّ إنسانٍ أن يلج لا تاريخ العالم فحسب، بل التاريخ المقدّس، وألاّ يبقى مجرّد متفرّجٍ على تاريخ السماء، بل أن يغدو لاعب دورٍ في تاريخ السماء والأرض اللّتَيْن، في يسوع، التحمتا.

إنّ ابن الله الذي يشترك مع الآب في طبيعةٍ واحدةٍ، قد رقّانا إلى بنوّة الله بالتبنّي، فشرّف الطبيعة البشريّة، وبمجرّد اعتزامه العيش معنا ومثلنا، سمت حياتنا قدْرًا.

تجسُّد يسوع قرَّب الخالق من خليقته. ومن خلاله أدرك العالم أنّ الكائن الأسمى هو «حبٌّ»، ويبتغي أن يكون لكلِّ إنسانٍ أبًا. أبناء الأرض المشتّتون مدعوّون إلى بيت الآب، كي يستعيدوا صفة الأبناء التي فقدوها.

لذلك وُلد «**ابن الله**»، وصار على الأرض، «**ابن الإنسان**». وفي شخصه اتّحدت السماء بالأرض. وما كان مجرّد حلمٍ هشٍّ في العهد العتيق، أصبح واقعًا ماثلاً في

العهد الجديد، وغدا الاتّحاد الروحيّ بيسوع اتّحادًا بالله. لقد صار الله إنسانًا، كي يصبح البشر آلهةً.

بتجسُّده أَصبح يسوع الجسر الوحيد، والوسيط الأَوحد بين الله والبشر. وقد أَعلن: «**أنا الطريق. لا يأتي أحدٌ إلى الآب إلاّ بي**». ولا بدعَ في ذلك، فهو الكائن الوحيد الذي يقرن البشريّة بالأُلوهة، وهو والآب واحدٌ.

وقد كتب الكردينال رتسنغر في هذا السياق: «لقد وجد الإِنسان مكانه في الله. بيد أنّ تخطّي البوْن اللامحدود الفاصل بين الخالق والخليقة لا يتحقّق إلاّ بيسوع. فوحده من هو إلهٌ وإنسانٌ، هو الجسر بينهما. وبما أنّ الحقيقة لا يسعها إلاّ أن تكون واحدةً للجميع، فالله وحده يسعه أن يكون الجسر الموصل من ذاته إلى ذاته، ومن ذاته إلى البشر، ثمّ العودة إلى الله. وكلّ ذلك بفضل بشريّة ابنه».

باري الكون ظهر لنا حيًّا بحياتنا، في وهن جسدنا. لقد نشدنا إلهًا، فظهر لنا إنسانٌ، ولكنّ هذا الإنسان لم يظهر إلاّ لكي يهبنا الله. لقد تبنّى وهننا، ولكنّه لم يتخلّ عن مجد أُلوهته.

لقد ابتغى يسوع أن يقحمنا في حبّ الله الذي انبثق منه كي يأتي إلينا، ويجعلنا إخوةً له، وأَبناءً لأَبيه، ولكي يملأنا بروحه القدّوس، وبعبارةٍ موجزةٍ، كي يقحمنا في الثالوث.

وذلك الإله الذي تجسّد، سخّر قدراته الإلهيّة، لخدمة إخوته في البشريّة. لقد أوجعته آلامهم، فدأب على إِبراء أَسقامهم، وتلطيف أوجاعهم، وإشاعة الرجاء في نفوسهم، وأَغدق عليهم أشفيته المعجزة التي كانت دليل إنسانيّة الله، وأُلوهة الإنسان فيه.

لقد آثر يسوع، في حياته، لقب «**ابن البشر**» الذي يشير إِلى رسالته المسيحانيّة، وفي الآن عينه، يومىء إلى الوضاعة والوهن اللّذين ارتضاهما «**ابن الله**» في سبيل تحقيق هذه الرسالة.

نظير جميع البشر خَبَر يسوع الإنسان الكدّ، والتعبَ، والجوعَ، والصداقةَ، والفرحَ، والحنانَ، والدهشةَ، والاستنكارَ، والغضب، وتعرَّض للتجربة. بكى صديقًا، وخاب رجاؤه في موطنه. وجزع أَمام الأَلم، وشعر بالتخلّي في أَقسى

ساعات المحنة والاحتضار. ولكن لم يتزعزع، لحظةً، إيمانه، ولا ارتجّ رجاؤه وثقته باللّه أَبيه.

في هذا السياق يلاحظ الكاتب الفرنسيّ «جوليان غرين» (Julien GREEN): «جال بخاطري الأَلم الجمّ الذي قاساه يسوع، بلا ريبٍ، من جرّاء التجسّد. فمن منّا، في وقتٍ أو في آخر، لم يعانِ الشعور بأنّه سجين جسده؟ ذلك السجن الذي نحمله معنا، بكلّ ما ينطوي عليه من حدودٍ دائمةٍ مفروضةٍ على النفس. غير أنّنا نحن بشرٌ مولودون من الجسد. أمّا أن يُحبَس اللّه في هذا السجن!...»

يسوع كائنٌ شاملٌ. وهو حاضرٌ في كلّ إنسانٍ، ويمثّل البشريّة أَمام اللّه. إنّه في آنٍ واحدٍ، صورة اللّه وصورة الإنسان. من اللّه يتلقّى كيانه، ويهب البشر كلّ ذاته. إنّه ليس إنسانًا فحسب، بل الإنسان الحقّ.

إنّ ذاك الذي يحيا في علاقةٍ حميمةٍ مع اللّه، ويتغذّى بتنفيذ مشيئته، والإِنصات إليه، والتحاور معه، ويتلقّى من فمه ويده كلّ كلمةٍ يتفوّه بها، وكلّ عملٍ يحقّقه، هو نفسه يحيا بكامله، ملتفتًا إلى البشر، دائبًا على خدمتهم وخلاصهم.

في يسوعٍ إنسانٌ يخدم، وإِلهٌ يحرّر. إنسانٌ ينوء بالحمل، وإِلهٌ ينتصر، ويجعل كلّ حملٍ خفيفًا. إِنسانٌ يموت، وإِلهٌ يقهر الموت. معجزةٌ من الروعة بحيث تستطيع عيون روحنا رؤية أُلوهته من خلال بشريّته، ورؤية القدرة التي خلقت العالم، وغلبت الجحيم، من خلال الوهن الذي صلبه الظلم.

وليس يسوع إنسانًا فذًّا متفوّقًا تسنّم قمّةً، أو تخطّى عتبةً، بل هو القمّة، وهو التجاوز، وهو المثل الأسمى لإِنسانيّةٍ متجدّدةٍ، وهو خليقٌ بأَن تتمثّل به كلّ فئات البشر.

لم يكن فيلسوفًا أو شاعرًا(*)، أو عالمًا، أو فنّانًا، فحسب، مع امتلاكه قدرات كلّ هؤلاء، بل كان، في المقام الأوّل، طبيب أرواحٍ، وجاء كي يرتقي بالأَرواح، ويرشدها إلى حقيقة أبيه. فبشّر، وقاده تبشيره إلى الصليب.

وليس يسوع مجرّد حكيمٍ، قاومت حكمته فعل الأَجيال والقرون، المدمّر، ولا

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يسوع الشاعر»، صفحة ٥٥٩.

مجرّد بطلٍ ما انفكّ مثله يحتفظ بكامل قدرته على الفتنة. بل يسوع يعني الحيّ في كلّ آنٍ ومكانٍ. إنّه المطلق، وليس للمطلق سوى وقتٍ واحدٍ هو الحاضر.

يسوع يضفي على الوجود معنًى. إنّه لا ينير الطريق فحسب، بل هو النور، وهو الطريق. هو قال عن نفسه: «**أنا نور العالم**». ويوحنّا الذي عرفه عن كثبٍ، شهد بأنّه النور الحقّ الذي ينير كلّ إنسانٍ. لقد كان المنارة الكبرى الحريصة على إنارة العالم بأجمعه.

ليس دربًا يؤدّي إلى الله، بل هو الطريق الأوحد إليه. لا يبلّغ الحياة، بل هو الحياة ويهبها من يؤمن به، ويعمل بتعليمه. ليس يسوع في العالم نورًا، بل هو شمس العالم، به يستنير العالم ويستدفىء.

ولذلك يُدلي بوعودٍ يستطيع الله وحده ضمانها. ويقتضي ما لا يحقّ إلاّ لله وحده اقتضاؤه.

لم يكن أمرٌ يستغلق على علمه الذي يكشف الحجب عن الماضي، والحاضر، والمستقبل. كان سديد الحكم، محيطًا بدواخل البشر. يقيّم، حقّ قيمته، كلّ ما هو حقٌّ وجميلٌ، وخيّرٌ أخلاقيًّا. ثاقب الرؤية، دقيق الملاحظة. ذاكرته تحتفظ بكلّ رؤيةٍ، وتستحضرها عند الحاجة. وأقواله على توافقٍ دائمٍ ومحكمٍ مع أفكاره.

حواسّه رقّةٌ خالصةٌ، عِبرها يتّصل بالعالم الأرضّي. كان يحبّ الطبيعة التي تحدّثه عن عطف أبيه وكرمه. ولكنّه لم يلتمس لنفسه، ولبشريّته، أيّ امتيازٍ. بل شاء، وهو بين البشر، أن يعاني الأحزان، والتعب، ويعهد الرأفة والغضب المقدّس على الشرّ، ويكابد الصراعات التي لا تهاود، والخيانات، والعذاب، وأهوال الموت.

لم يمتنع عن البُكاء، فقد كانت آلام البشر كلّها توجعه. غير أنّ براءة الأطفال كانت تريحه وتفتنه. ولم يرتعش فرحًا على هذه الأرض، إلاّ أمام النفوس المؤمنة التي كان بوسعه خلاصها، وكان يحزنه الشرّ حتّى النزاع.

كان مناظرًا بارعًا، سريع البديهة، نيّر التفكير، منيع الحجّة، مفحمًا لمعارضيه، لأنّه كان يتخطّى القشور، وينفذ مباشرةً إلى جوهر الأُمور. وقد عبّر عن أسمى المعاني بعباراتٍ بسيطةٍ، واضحةٍ، بمتناول كلّ فردٍ.

كان حاذقًا في الردّ على سؤالٍ بسؤالٍ يجرّد، به، معارضه من سلاحه.

اعترف خصومه بأنّه صادقٌ يعلّم طريق الله بالحقّ، ولا يبالي بأَحدٍ، لأنّه لا يحابي وجوه الناس. ولكن ما كان أَبعدهم عن التمثّل به!

كان ناشط الفكر، عميقه. عايش، طويلاً، أَفكاره الكبرى، قبل أن يعبّر عنها بأَقواله وسلوكه. ولكنّه لم يكن منكفئًا على ذاته، ولا منغلقًا دون العالم الخارجيّ. كان يقظًا لكلّ ما يجري من حوله، مراقبًا دقيقًا، مرهفًا، ويخاطب كلّ إنسانٍ بما يتوافق مع دخيلة نفسه. ولكنّ أحلام ذلك الواقعيّ المتبصّر كانت تطاول النجوم. فلم يخشَ تأسيس ملكوته على صخرة صيّادين، زهيدي العلم، واهني الإرادة، كبار القلوب، منفتحين على نفحات الروح القدس.

كان رجل سلامٍ، ولذلك كثر الأَعداء الذين يتربّصون به لإِهلاكه، لأنّهم لا يستطيعون العيش في مُناخ سلامٍ. ولكن، كما يقول رينان: «النصر هو حليف من امتلأ قوّةً في أَقواله وأَفعاله، ومن تحسَّس الخير، وبذل دمه كي يوفّر له النصر. ووفق هذين الملحظين، يسوع منقطع النظير. مجده كاملٌ، وسيتجدّد أبدًا». وقد أَكّد الكردينال رتسنغر: «مجد الله والسلام على الأرض متلازمان. فحيثُ يُبعَد الله، يتلاشى السلام عن الأرض». وأَمام مجد الله يرتعد الإنسان، ولكنّه لا يقوى على إِشاحة نظره عن بؤرة نوره. لهبه يلتهم، ولكنّه لا يدَمِّر، يسيطر ويحوّل، يطهّر ويقدّس، ويكشف للإِنسان سخافة أَحلامه، وهشاشة قواعده.

ويسوع رجل صلاةٍ، فالصلاة تنفّس قلبه، ومصدر طاقاته. ولكنّها لم تكن له، يومًا، هروبًا أو استجمامًا. إنّها تمهّد لكلّ قولٍ خطيرٍ من أَقواله، ولكلّ فعلٍ جسيمٍ من أَفعاله. فأقواله الخالدة ومعجزاته المدهشة تتفجّر من حواره، قلبًا لقلبٍ، مع أَبيه، ومع ذاته الإِلهيّة، ومن هذا التبادل الخصب. الصلاة تحتلّ حيّزًا أساسيًّا من وجوده، وقد وسمت بطابعها أحداث حياته الكبرى. وهي، دائمًا، استعجالٌ لانتشار الملكوت، وعلى علاقةٍ ببشرى الملكوت.

وكان يسوع كَلِفًا بالإيمان. كان إيمانه بأَبيه وبذاته، وبرسالته مطلقًا. وكان يطرب لكلّ ظاهرة إيمانٍ يراها، ويسارع إلى الاستجابة لها. ولطالما ردّد القول أنّ لا شيء يصمد في وجه الإيمان الصادق الذي لا تشوبه ريبةٌ. فمقدار حبّة خردلٍ منه كفيلٌ بنقل الجبال، ولطالما أكّد أنّ «**للمؤمن كلُّ شيءٍ ممكنٌ**». إنّه، بالإيمان أقام الموتى، وأَخرس العاصفة، وشفى الأَسقام المستعصية، وطرد الأَرواح الشرّيرة، وجابه، بمفرده، شعبًا ودينًا، وأَشاد كنيسته على صخر صيّادين هشّين. وقد حرص، دائمًا،

على إيقاظ الإيمان وشحذه، في نفوس من شفاهم كي يشركهم في معجزة شفائهم.

بالإيمان يكتمل الإنسان إنسانيّةً، ويرقى صوب الأُلوهة. وعلى حدّ قول الكردينال رتسنغر: «عندما يشرع العالم يصبح إلهيًّا، حينئذٍ، فقط، يصبح إنسانيًّا حقًّا». ويسوع، بسكبه الإيمان في قلوبنا، يجعل كلّ يومٍ من حياتنا أبديًّا.

ومن الإيمان والحبّ يولد نكران الذات، وتفانٍ مجرّدٌ لامحدودٌ، وتضحياتٌ سخيّةٌ، وبذلٌ للذات كاملٌ، بلا رجعةٍ. وقد مارس يسوع هذه الفضائل ممارسةً ساميةً فريدةً.

* *

أَفضل البشر لا يحقّقون من الخير سوى بعضه. أمّا يسوع مصدر كلّ خيرٍ، فهو يحقّقه تلقائيًّا، بلا تردُّدٍ، ولا تعثّرٍ. ولا شيءَ يقاوم قوّته لأنّ قدرة اللّه فيه، وهذه القدرة تغذّي فيه تسامح من يقوى على كلّ شيءٍ. يفعل ما يشاء، ولكنّه لا يبتغى سوى الخير والحياة. العطف والحبّ شريعته، والحياة والخير يتدفّقان من يديه المشرعتين، أبدًا، للمباركة.

الخيال والغرائز والأهواء هي التي تهوي بنفس البشر، وبعنفٍ، إلى الحضيض الذي غالبًا ما يحجب رؤية الحقيقة، ويقيّد حرّيّتنا، أو يطيح بها.

ولكنّ كلّ تلك القوى السفلى، كانت تعنو خاضعةً لإرادة يسوع، مثلما كانت إرادته خاضعةً لمشيئة الآب. ومن كلّ ذلك كان ينبع سكونه، وسجوّه، ورقّته النابعة من طبيعته المتناغمة. نور اللّه، وحبّه وجماله، تترقرق من كلّ كيانه، وكمالٌ إلهيٌّ يتدفقّ منه.

وتميّز يسوع، أَيضًا، بالبساطة وصفاء النفس. وكانت طبيعته المستقيمة، والصريحة بمنأًى عن كلّ تعقيدٍ. وهذه الصراحة شحذت نفوره من الرياء والخداع.

وكان يملك سلطةً طبيعيّةً، بساطة السلطة، أَو بالأحرى سلطة البساطة.

إنّ عبور يسوع بكوكبنا، لعشرين قرنًا خلت، خلق لدى ملايين البشر روحًا جديدًا.

ولئن كان لكلّ نجمٍ أُفولٌ، فأَقوال يسوع وأعماله تنبض شبابًا دائمًا. إنّها خالدةٌ تظلّل البشريّة، مثل سماءٍ من نورٍ، مدهشةً العقل، حاديةً الضمائر، متحدّيةً الحدثان وكرّ الزمان.

١٠٠٠

قسماتُ وَجْهِ يسُوع

كم نودّ تأمّل قسمات وجه يسوع التي أَمسك الإنجيليّون عن رسمها، فحرمونا مشاهدة وجه «أَجمل بني البشر» ولا سّيما أنّ كثيرين تخيّلوه في ملامح رجل الأوجاع الذي وصفه النبيّ أَشعيا. ولكن يعسر الاعتقاد بأنّ جمال نفسٍ فائقة الكمال والسنى لم ينعكس على محيّا صاحبها. وعلى أيّة حالٍ لم يكن جماله رخوًا، مخنّثًا، على نحو ما يصوّره بعض الرسّامين الغربيّين. بل كان جمالاً يضجّ رجولةً وعزّةً، وسموّ روحٍ جديرًا بكمال نفسه. ويسعنا أن نتخيّل له وجهًا نبيلاً كريمًا متناسق الملامح، ذكيًّا، جليلاً، مهيبًا يوحي بالتجلّة والاحترام، وفاتنًا يجتذب القلوب برقّةٍ، وورعٍ، ومحبّةٍ، ويعكس سنى نفسه، وشيئًا من بهاء أُلوهته.

ولا ريب أَنّ يسوع استمدّ مورّثاته البشريّة كلّها من أُمّه وحدها، فورث عنها شكل وجهه، وكلّ ملامحه وقسماته، بحيث إنّ من يراه يراها، ومن يراها يراه.

ومن استقراء الإنجيل يمكن استخلاص أنّ يسوع كان يتمتّع بجسمٍ سليمٍ، منيع البنية، يمكّنه من مسيراتٍ طويلةٍ عبر البلاد، ومن التحدّث ساعاتٍ طوالاً إلى أُلوف البشر، ومحاورة عشرات البشر. كان يتأثّر بالتعب، والجوع، والعطش، والحرّ، والنعاس، والحزن، ولكنّه يقاوم كلّ تلك العوارض، فلا ينام إلاّ لمامًا، وغالبًا ما يحرمه تدفّق طالبي الشفاء، أو الراغبين في الاستماع إليه، من تناول لقمةٍ تسكت جوعه، أو إِصابة فسحة راحةٍ واستجمامٍ.

ولا ريب أنّ الأُلوهة القاطنة فيه كانت تزوّده بطاقاتٍ خارقةٍ مثل السير فوق أمواجٍ صاخبةٍ.

من خلال مرآة الإنجيل يمكننا تخيّل حركة يديه اللّتين كانتا تلمسان برقّةٍ فتشفيان، وتباركان، وتداعبان الأَطفال، وتكسران الخبز لإِطعام الجياع، وعندما يقتضي الأَمر تجدلان من الحبال سوطًا تهويان به على ظهور مدنّسي بيت أَبيه.

ويمكننا تخيّل عينيه اللّتين تعبّران، بفصاحةٍ، عن كلّ ما يجول في قلبه وفي خاطره، عينين نفاّذتين تخترقان الأعماق، عينَيْن حانيتَيْن تشيعان الرحمة والعزاء؛ عينَيْن حزينتَيْن تفجّران ينابيع الندم في نفس بطرس الذي كبا، وعينَيْن تطلقان صواعق غضب عندما تواجهان المنافقين المرائين، طواغيت النفوس. وكم كانتا رائعتيْ الجمال عندما تحدّقان إلى السماء، كلّما شرع يسوع يناجي أباه!

صوته، مثله، رقيقٌ عذبٌ، ولكنّه يدوّي عندما يبتغي تبليغ جمعٍ غفيرٍ تعاليم ساميةً. كم نودّ سماع نبرته، وهو يعلن التطويبات، أو عندما يدعو جميع المرهقين بالمجيء إليه التماسًا للعزاء والراحة! مثل آلةٍ طيّعةٍ كان صوته ينبىء بكلّ خلجات قلبه من حبٍّ، وفرحٍ، وحنانٍ، وحزنٍ، واستنكارٍ.

وإلى هذا الجسد، مذ كوّنه الروح، انضمّت نفسٌ يتعذّر علينا تخيّل كمالها. هذا الكمال الفريد أهّله كي يقول لتلاميذه، ومن خلالهم لجميع البشر: «اتبعوني، تمثّلوا بي!».

إنّ كلّ كمالات النفس، والروح، والقلب، والطباع، قد التقت في تلك النفس الغنيّة، التي هي، حقًّا، تحفة الله في دنيا الخليقة، وفي عالم الفائق الطبيعة. فيها تجمّعت كلّ الفضائل والخصال، في تناغمٍ إلهيٍّ، وكمالٍ رائعٍ، حيث يتعذّر اكتشاف أيِّ خللٍ، أو لوثةٍ. وفي حين لا يخلو أيّ بطلٍ أو قدّيسٍ، أو عظيمٍ بين بني البشر، من مواطن وهنٍ، وزلَلٍ، خلت نفس يسوع من كلّ عيبٍ، وغضنٍ، أو نقصٍ من أيّ نوعٍ.

رجُلُ المُفَارَقَات (*)

مثل كلّ شخصيّةٍ غنيّةٍ، جمع يسوع المتناقضات، ولكنّه تميّز بجمعها على نحوٍ فريدٍ، وبامتلاكه الكثير من الخصال التي لا يقوى البشر على قرنها معًا.

فهذا الإنسان البسيط، الذي عاش في حقبةٍ محدّدةٍ، وفي مقاطعةٍ معيّنةٍ من الإمبراطوريّة الرومانيّة، ولم يتنامَ أَمره إلى علم عظماء زمانه، هو للكثيرين، العبقريّة البشريّة الأَشدّ إدهاشًا وجاذبيّةً.

فيسوع شاعرٌ (**)، وهو في إنجيله يُنشد شعرًا حقًّا. إنّه يهوى الطبيعة، والنباتات، والسماء، والحيوانات... ولكنّه، في الآن عينه، واقعيٌّ، ويستخدم في التحدُّث إلى ذويه، صُورًا مشتقّةً من الحياة اليوميّة الأكثر شيوعًا. ومن شتّى وقائع حياة قومه نسج أمثاله.

يسوع حنونٌ وعطوفٌ بلا حدودٍ. إنّه غفرانٌ لانهائيٌّ لجميع الخطأة. لا يدين، ولا يحاكم، يرجو كلّ شيءٍ، ويصدّق كلّ شيءٍ، ويحتمل كلّ شيءٍ، على حدّ قول الرسول بولس في المحبّة. وما من أحدٍ استطاع أن يوقظ، مثله، لدى أكثر البشر قسوةً، الحبّ الكامن.

كان صارمًا مع ذاته، على غير تزمّتٍ، ورقيقًا مع الآخرين. لم يكن بوسع أحدٍ أن يأخذ عليه خطيئةً، ولكنّه كان رحومًا بالخطأة.

إنَّه بطل الكثير من أَمثاله. فهو الأَب الذي ركض وارتمى على كتف ابنه الضالّ الذي عاد تائبًا، مبلّلاً قبلاته بالدموع. وهو الذي يؤدّي، لمن عَمِل قُبَيْل الغروب، مثل أَجر من عمل منذ الصباح. هو الراعي الساهر على قطيعه، والذي يسعى ملهوفًا وراء الخروف التائه؛ وهو السامريّ الرحيم الذي يخاطر بحياته لإنقاذ كلّ جريحٍ، أيًّا كان انتماؤه.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «نظرة يسوع»، صفحة ٥٣٢.

(**) راجع **يسوع في إنجيله**: «يسوع الشاعر»، صفحة ٥٥٩.

غير أنّ يسوع المفرط العطف هو، أيضًا، شديد الاقتضاء. هذا الجمع بين الحبّ والاقتضاء يتجلّى في حادثة الشابّ الغنيّ.

العذوبة عنده تقترن بصلابة العزيمة، والطيبة والعطف يقترنان بصرامةٍ عادلةٍ.

إنّه مسالمٌ ولكنّه جاء بسيفٍ.

إنّه مغرقٌ في التواضع، ولكنّ كرامته تثور أَحيانًا.

إنّه خاضعٌ للسُّلطة، ولكنّه يعمل في استقلاليّةٍ تامّةٍ.

بسالته بطوليّةٌ، ولكن يتّفق له أن يضطرب.

إنّه متجرّدٌ من كلّ شيءٍ، ومع ذلك يقتضي أن يتخلّى البشر عن كلّ شيءٍ كي يسيروا في خطاه.

لم يكن يمتلك على البسيطة شيئًا، ولكنّه كان سيّد كلّ شيءٍ

كان عطوفًا على الصغار، صارمًا على المتعالين.

إنّه يقرن، وإلى أبعد حدٍّ، العظمة والبساطة، في آنٍ واحدٍ، عظمة البساطة، وبساطة العظمة.

يسوع وديعٌ، ولطالما صُوِّر بالحمل الذي سيق إلى الذبح ولم يفتح فاه، ولكنّه حَمَلٌ يستشيط غيظًا، أحيانًا. وهو الذي أعلن: «**طوبى للودعاء، فهم سيرثون الأرض**». ولكنّه قال، أيضًا، إنّ ملكوت السماوات يُقتحم عنوةً. وقد تجلّى عنفه المقدّس من خلال طرده باعة الهيكل، مرَّتين، بسوطٍ من حبالٍ. وكم كان كلامه لاذعًا في فضح الفرّيسيّين، والمنافقين، والمتلاعبين بضمائر البسطاء!

يسوع قائدٌ صارمٌ لا يُساوم على الخطأ، ولا يهادن الضلال، حتّى في علاقته بأعزّ أصدقائه. فهو لم يتوانَ عن القول لبطرس، عندما حاول ثنيه عن الصليب: «**ورائي، يا إبليس**»! ومع ذلك هو خادمٌ موغلٌ في التواضع، ولا يتحرَّج من أداء أعمال العبيد، مثل غسل أقدام تلاميذه.

يسوع صديقٌ منقطع النظير. ونراه، في الإِنجيل، يبكي مرَّتين: مرَّةً على عاصمة قومه أورشليم، ومرّةً أُخرى، أَمام لَحد صديقه لعازر. إنّه شديد الوفاء لأَصدقائه، ولكنّه يحطّم أكثر الوشائج شرعيّةً ووثوقًا، إن هي اعترضت درب واجبه. وقد دعا

كلّ مؤمنٍ به إلى إيثاره عن الأب والأمّ، والابن، والزوج والأَخ، إن هم نهضوا عائقًا دون اتّباعه.

إنّه حذِرٌ من البشر الذين يعرف تقلّبهم، ولكنّه يحبّهم حتّى الموت من أَجلهم على الصليب. يبتغي اجتذاب الجميع إليه، ولكنّه، بكلمةٍ واحدةٍ، يصرف، بلا رجعةٍ، من يتردّدون في اتّباعه.

إنّه حكيمٌ حذِقٌ. ولطالما أَلقم المتبحّرين في العلم، من خصومه، حجرًا، ولكنّه، أيضًا بسيطٌ وشفّافٌ، ومثلما أَوصى تلاميذه، هو حَذِرٌ كالحيّة، وديعٌ كالحمامة.

إنّه زاهدٌ متقشّفٌ، ولكن على غير تعنّتٍ. فقد كان يلبّي دعواتٍ إلى مآدب، ولم يتخلّف عن دعوةٍ إلى عرس.

إنّه رجل عملٍ دؤوبٍ. فما أَنجزه في أقلّ من ثلاث سنواتٍ، لا تتّسع لإِنجازه عقودٌ. غير أنّه، في الآن عينه، كلِفٌ بالصلاة والتأمّل. إنّه كَلِفٌ بالعزلة والصمت، ولكنّه غائصٌ في يَمّ العالم.

يسوع من أَكثر الخطباء بلاغةً. قولُه جزلٌ، وكلمته حارقةٌ. بيد أنّ خطابه الذي يفهمه البسطاء بيُسر، يعجز أَعظم الفلاسفة عن استيعاب كلّ غناه. وقد تقاعس الحرس الذين كُلِّفوا بالقبض عليه عن مهمّتهم، معترفين بأنّه «**لم يتكلّم، قطّ، إنسانٌ مثل هذا الرجل**». ومع ذلك، إنّ ذلك الخطيب المبدع، هو نفسه صامتٌ كبيرٌ. صمت ثلاثين عامًا في الناصرة، وصمت عندما تكالب عليه السفلة، في آلامه، واستجوبه قضاةٌ زائفون.

يسوع أَعلن أَسمى أخلاقيّاتٍ في التاريخ، وأكثرها اقتضاءً، ولكنّه كان أَقلّ المعلّمين تشدّدًا بالأخلاقيّات. فلم يُدِن الأشخاص، وكان رفيقًا بأَعتى الخطأة، ولكنّه لم يتحرَّج من القول للفرّيسيّين: «**الزواني سيسبقنكم إلى ملكوت السماوات**»!

بالإِجمال، امتلك يسوع أَرفع الخصال الإِنسانيّة التي جعلت منه شخصيّةً مدهشةً، كاملةً، فذّةً. وقد ارتقى بكلّ ما في البشر من عظمةٍ وجمالٍ إلى ذروة الكمال.

وما من تناقضٍ بين مختلف مناقب يسوع، مع تعدّدها وتباينها، بل هي تؤلّف لديه كلاًّ متناغمًا، وقد نمت معًا متآلفةً متكاملةً، على نقيض معظم البشر حيث نموُّ إِحدى الخصال يتمّ على حساب الأُخريات.

وسنحاول التبسّط في تبيان أَبرز خصال يسوع. ولكن لا بدّ من التنويه بأنّ تلك الخصال متداخلةٌ، متكاملةٌ، لا يتيسّر، دائمًا، فصل إحداها عن الأُخريات.

فضلاً عن أنّ شخصيّة يسوع، في بساطتها القصوى، ووضوحها الشفّاف، من الغنى بحيث يتعذّر الإحاطة بها.

حُبُّ يسوع (*)

يمكن تعريف يسوع بأنّه حبٌّ. قلبه بركان حبٍّ متفجِّرٌ، ثائرٌ. ولم تقوَ لا ملكاته العقليّة الفريدة، ولا اهتمامات رسالته المستمرَّة، ولا حرصه على تحقيق مشيئة أَبيه، على إِضعاف مشاعر حبّه القدسيّة، ولا النيل من عذوبتها.

وقد احتلّ حبّ الله وحبّ البشر الحيّز الأَكبر من تعليم يسوع ومن سلوكه، وكان هذان الحبّان اللّذان مضى بهما إلى ذروة الكمال، واقع حياته كلّها.

حبّه البنويّ لا يحيط به وصفٌ. بمناسبة عماده باح له الآب: «**أنتَ ابني الحبيب**...» وهو ردّ «**أَبّا.... بابا**». اسم الآب العذب أبدًا على شفتيه وفي قلبه. حبّه له يتجلّى من خلال كلّ أعماله. ولكم صوّر حنانه وعطفه بألوانٍ سماويّةٍ لا تُضاهى!

حبُّ يسوع البنويّ يتألّق من خلال وحدته الحميمة بالآب التي لم تفتر لحظةً. كان الآب يقطن قلبه وفكره، وهو كان يتلظّى ظمأً إليه لا يرتوي. فلا يفوّت فرصةً لمناجاته، وبثّه حبّه. وتجلّى حبّه لأبيه، أيضًا، من خلال ثقةٍ فيه لا تتزعزع، حتّى عندما كانت حياته تنساب قطرةً قطرةً، ومع ما انتابه من شعورٍ مضنٍ بتخلّي أبيه عنه، لم يجد سوى ذلك الآب كي يودع بين يديه روحه. ولطالما أَعلن عن ثقته المطلقة فيه، في الجتسماني، ولدى إقامته لعازر، وفي كلّ مناسبةٍ!

وبقدر ما أَحبّ أَباه، أحبّ يسوع البشر أَجمعين، وعبّر عن هذا الحبّ، عمليًّا، في كلّ لحظةٍ من لحظات حياته. وقد بلغ هذا الحبّ ذروته على الصليب، إذ «**ليس لأَحدٍ حبٌّ أَعظم من أن يبذل نفسه عن أَحبّائه**».

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «كما أنا أحببتكم»، صفحة ٥٣٤، و«سكنى»، صفحة ٥٣٥، و«ملك الحبّ»، صفحة ٥٣٧، و«حبّ يسوع»، صفحة ٥٣٩.

يسوع هو صورةٌ لرحمة الآب، الذي يشعر نحو أَبنائه مثلما تشعر الأمّ نحو أَبنائها، بحيث قال أوريجينُس: «ليس أحدٌ أُمًّا كالآب».

حبّ الآب النابع من أَحشائه، جديدٌ في كلّ صباحٍ. لاشيءَ يغيّره. وكلّ حياة يسوع تعكس هذه الطيبة التي لا تنضب. فلا عجب، إِذن، إن دعا الرسول بولس المسيحيّين إلى ارتداء أَحشاء رحمة الله.

منذ خطيئة الأَبوين الأَوّلين، لم يعد بوسع الله أن يحبّ إلاّ الغفران، وغدت الرحمة هي وسيلته الوحيدة للوفاء لحبّه الأوّل. وهو كلّما مارس الرحمة، فلكأنّه يخلق الإِنسان جديدًا، قشيبًا.

* *

كل بيتٍ كان يحلّ فيه يسوع، سرعان ما كانت تقتحمه الجموع وتحاصره، آتيةً بمرضاها، ، فيشفيهم بكلمةٍ، بنظرةٍ، أو بلمسةٍ من يده. وحتّى هبوط الليل، لم تكن الجموع تكفّ عن ملاحقته، ولا يني يتدفّق عليه سيل عللٍ وأَسقامٍ لم تُحِقْ بأحدٍ كما أَحاقتْ به. ولم يشفِ إنسانٌ منها بقدر ما هو شفى، ولم يسعد أَحدٌ بهذه الأشفية بقدر ما سعد يسوع.

وعندما يخلد الجميع إلى النوم والراحة، كان يسوع يسهر، كي يرتاح في صدر أَبيه فأتعاب الرسالة كانت غذاء حياته.

لقد كان حبّه للبشريّة المنحطّة، التي جاء كي يفتديها بما احتمل من مهاناتٍ وآلامٍ، وبدمه، بعد حبّه لأَبيه، هوى نفسه الأَكبر. وبقدر ما كانت البشريّة التي أحبّها مشوّهةً، بائسةً، كان حبّه أعظم. براهين حبّه هذا تتراءى في المعجزات التي كان دافعها العطف، وفي دعوته الرقيقة: «**تعالوا إليّ، يا جميع المتعبين، الرازحين تحت وقر أحمالكم، وأنا أوتيكم الراحة....**» وفي توصياته الملحاحة: «**أحبّوا بعضكم بعضًا**»، «**أحبّوا أعداءكم**»، «**كونوا رحماء...**». ولطالما انتزع منه حبّه تأوّهاتٍ، واستمطر دموعًا! وفي صفحه السمح عن أعدائه، وفي رأفته بالخطأة، كم تحدّى التقاليد وتعاليم الكتبة، وكم اجتلب على نفسه سخط الفرّيسيّين وعداوتهم!

لا شيء كان يحدوه سوى الحبّ. أَفعاله وأَقواله، في كلّ مناسبةٍ، يمليها الحبّ

الذي لا يخشى، في سبيله، نقض الشريعة، ومخالفة تفسيرات الفرّيسيّين والكتبة، ومناقضة الأحكام المسبّقة الراسخة في الأذهان.

على ضوء الحبّ قرأ الشريعة، فنسف كلّ ما فيها ينهض حاجزًا دون مبادرات المحبّة، ودوافع العطف، فشفى الأسقام في كلّ حينٍ، ولم ينتظر غياب شمس يوم السبت كي يؤدّي واجبات المحبّة.

لقد خالف الشريعة لأنّ الشريعة كانت تخالف تطلّعات قلبه.

كان يحمل، في يدٍ، نارًا تحرق آثام العالم العتيق وترّهاته، وباليد الأُخرى، بذار عالم الحبّ الجديد.

ولأنّه أحبّ البشر أَجمعين لم يستطيع أن يظلّ سجين شعبٍ يدعو إلى كره الآخرين، ويدّعي التميّز بمعاهدة الله، والتفوّق على الآخرين.

وقد أكّدت أمثاله الأخيرة عن مأدبة العرس، وعن عَمَلَة الكرم الذين خانوا الأمانة، تحوّلَ الله عمّن اختارهم كي يعلّموا عبادة الله الأَوحد، فآثروا عبادة ذواتهم ومصالحهم، وعزوا إليه تعالى بغض الآخرين، خلافًا لإنذارات أنبيائهم.

وبعد أن كان سكن الله محصورًا في هيكل أورشليم الحجريّ، الذي يُقتَصَر ولوج رحابه على اليهود، وأَقداسه موصدةٌ إلاّ لفئةٍ ضئيلةٍ من الكهنة، جعل يسوع من قلبه المشرع على العالم أَجمع، ومن قلب كلّ مؤمنٍ، هيكلاً لله.

رسالة يسوع رسالة عطفٍ، وخدمةٍ، ولذلك آثر كلّ مُهمَلٍ، منبوذٍ، صغيرٍ، وضعيفٍ، وفي سبيلهم خرق الفرائض الشرعيّة، والتقاليد الدهريّة، فانحاز إلى الفقراء والمحرومين، وجالس من يزدريهم مدّعو الاستقامة والتقوى، ودافع عن الأطفال الذين كان اليهود لا يحفلون بهم ما داموا لم يشرعوا بممارسة الشريعة، وشفع بالنساء، حتّى الخاطئات منهنّ، وشفى الأسقام حتّى في أيّام السبت، وأوصى حتّى بحبّ الأعداء، وأَخذ على عاتقه همّ أصغر بني البشر، مغذّيًا، بذلك، حقد الزعماء، والفقهاء، مخاطرًا بحياته، ومعرّضًا ذاته للموت المهين.

لقد تجسّد يسوع، ومات على الصليب حبًّا بالبشر. اقتسم بؤسهم، كي يهبهم سعادته.

وفاؤه لنعاجه الضالّة جعل منه الدريئة، والعدوّ الأوّل. وقد جوبه بسيلٍ عارمٍ من عداءٍ وحقدٍ وعنفٍ، لأنّه أحبّ، وكان حبّه حافلاً بالمخاطر. فهو كان يقيم وزنًا لأقلّ الناس تقديرًا، ويرتضي أن يُهان كي يعيد لهم وجهًا كريمًا، مزريًا بالتقاليد، مواجهًا الفضيحة.

عندما يرى خاطئًا، لا يرى فيه خطيئته، بل يرى إنسانًا مفتقرًا إلى العطف والخلاص. إنّه لم يُنحِ باللوم، يومًا، على خاطىءٍ، بل قابل الخطأة بحبّه فجعلهم يقلعون عن الخطيئة. ولكنّه كان يلوم المرائين دون سواهم، عبّاد الحرف، الذين كانوا يقدّمون الالتزام بسنّة السبت على شفاء سقيمٍ، في حين كان يتعذّر على يسوع الإحجام عن عمل محبّةٍ، فهو كالشمس لا تستطيع التوقّف عن الإشراق.

إنّ إلهًا يتّزر ويجلس القرفصاء أمام أقدامٍ قذرةٍ، ويغسلها، يبدو وكأنّه يعلن: الحبّ هو، أيضًا، هذا: أن نهتمّ بأرجل من نحبّ.

لقد أَحبّ فتجرّأ على إبراء سقماء، أيّام سبتٍ، في الهيكل، ولم يتوانَ عن لمس أبرص.

أحبّ فتجرّأ على الذود عن امرأةٍ حكمت عليها الشريعة بالرجم.

أحبّ، فجلس إلى موائد منبوذي المجتمع، وقاسمهم الطعام.

وأحبّ فأقام أمواتًا،

وبذلك خرق طهر الله المثلّث التقديس، حسب الشريعة التي تقول: «لا تدنُ من جثّةٍ، فاللّه قدّوس، ولا تدع مومسًا أو أبرص يقتربان منك، فاللّه قدّوس». أمّا في نظر يسوع فقداسة الله أمرٌ آخر: «**وأنتم ستكونون قدّيسين كما أنّ أبي هو قدّوسٌ، هو الذي يُطلع شمسه على الأشرار والصالحين سواسيةً، وينزل غيثه على الخاطئين والأبرار**».

وقد قُتِل يسوع لأنّه أَسبغ على الله أَبيه صورة حبٍّ مجنونٍ.

فهو عندما وقف عاريًا تحت سياط الجند الرومانيّين، وبصقات الرعاع، وفي وهن المصلوب الكلّيّ، أبرز قدرة إله الحبّ اللامحدودة.

وعندما اختنق على الصليب كان يعبّر عن رقّة الله اللامتناهية.

وعندما دعا مجرمًا إلى مقاسمته فرحه الأبديّ، كان يعلن عن مشاعر الآب.

إنّ النار التي جاء يسوع كي يضرمها على الأَرض هي **ملكوت الحبّ**.

وأُسلوب حبّه منقطع النظير، فهو التحدّي الأكبر لقوى الموت. فمن يقنط من كلّ شيءٍ حتّى من نفسه، يجد في يسوع سندًا وصديقًا، والمنبوذ يجد فيه ملجأً وحليفًا. والمسكون الذي كان يلقي نفسه تارةً في الماء، وتارةً في النار، وجابي المكوس المختلس، وحتّى الغانية التي عبّرت عن توبتها وحبّها، بأجرأ أسلوبٍ، في منزل سمعان الفرّيسيّ، جميعهم وجدوا، في قلبه، ملاذًا.

لقد سما بقدرة الحبّ حتّى الحنان، حنانٍ ليس في قاموس البشر لفظةٌ تعبّر عنه. كان رقيقًا حيال البشر أَجمعين، فقال: «**كلّ ما تفعلونه لأَصغر إخوتي، فلي تفعلونه**». كلماتٌ تمخّضت عن المحبّة المسيحيّة، وما برحت، كلّ يوم، تلد الحبّ. وكان رقيقًا حيال الخطأة، فجلس إلى موائدهم، وعندما أَنحت عليه كبرياء العلماء باللائمة لسلوكه هذا، أَجاب: «أنا لم آتِ من أَجلِ الأصحّاء، بل من أجل المرضى». وعندما شاهد جابي ضرائب متسلّقًا شجرةً كي يراه، قال له: «أَسرع، اهبط، يا زكّا، فأنا ضيفك اليوم». وعندما دنت منه امرأةٌ خاطئةٌ، وتجاسرت فسكبت الطيوب على رأسه وقدميه، مثيرةً استنكار الحضور الوقور، طمأنها بهذا القول الخالد: «**خطايا كثيرةٌ غُفِرت لها، لأنّ حبّها كان جمًّا**». وعندما قُدّمت له زانيةٌ كي يصدر بحقّها حكم الرجم، حكمًا تأباه رقّته، أَعلن: «**من كان منكم بلا خطيئةٍ فليبدأ برجمها!**».

وكان رقيقًا حيال وطنه، ناكر الجميل، القاتل، وعندما شاهد، من بعيدٍ، أَسوار أورشليم، بكى قائلاً: «**يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأَنبياء، وراجمة المرسلين إِليها، كم من مَرّةٍ أَردت جمع بنيك مثلما تجمع الدجاجة صغارها تحت جناحيها، فلم تشئي!**».

وكان رقيقًا حيال أَصدقائه، بحيث غسل أَرجلهم، وأتاح لشابٍّ أن يتّكيء على صدره، في لحظةٍ من أشدّ لحظات حياته جلالاً. وحتّى وهو يُسام العذاب، كان رقيقًا حيال جلاّديه، وناشد أَباه من أَجلهم قائلاً: «**اغفر لهم، يا أبتِ، لأَنّهم لا يدرون ما يفعلون!**».

ما من حياةٍ بشريّةٍ تحاكي نسيجًا على هذا القدر من النور والحبّ. كلّ لفظةٍ من أَلفاظ يسوع هي نبرة حنانٍ، ووحيٌ سامٍ. وهو، إِذ يشرع لنا اللانهائيّ بنظره، ويضمّنا بذراعيه إِلى صدره، يُخيّل إِلينا أَنّنا محلّقون بالفكر، في حين نحن مشدودون بالمحبّة.

سجلّ حياته لم يتّسم بالغرابة، والاستثناء، وغير العاديّ، بقدر ما اتّسم بالإِنسانيّة. فيسوع لم يتجلّ، في حياته، بما يفوق البشر، بل بأرقّ إنسانيّةٍ، وبالفقر والبساطة. وكذلك في موته، وعقب قيامته: لم يحاول أَن يصدم بالإدهاش، والتجلّي، والتألّق، بل بالمواكبة البسيطة، وبالوجود اليوميّ الكتوم.

أحبّ يسوع بلا حدودٍ، وطالب بحبٍّ مماثلٍ. وفي هذا السياق كتب نابوليون، في منفاه، بعد أن توغّل في تأمّل أَسرار الحياة: «إنّ يسوع يقتضي من الإِنسان الحبّ. وهذا يعني أنّه يبتغي ما لا يقوى العالم على منحه إلاّ بجهودٍ جسيمةٍ، ما لا يطلبه الحكيم إلاّ من حفنةٍ من الأصدقاء، ولا يناله، ما لا يتوقّعه الأَب إلاّ من أَبنائه، وما لا تنتظره المرأة إلاّ من زوجها، ولا يترقّبه الأَخ إلاّ من أَخيه. بالإِجمال يطلب يسوع قلب الإنسان. يريده لنفسه، ويظفر به بلا حدودٍ. هو وحده استطاع الارتقاء بقلب الإِنسان صوب اللامرئيّ، حتّى التضحية بكلّ فانٍ، وبذلك ربط السماء بالأَرض».

* *

وقد وقف يسوع كلّ طاقات حبّه على رسالته السماويّة، فلم يتزوّج، وتحوّل حنانه الفطريّ إلى رقّةٍ بلا حدودٍ، إلى شِعْرٍ، إِلى سحرٍ كونيٍّ. لقد أَحبّ، ومضى في الحبّ إلى أَقصى أَشواطه. أقواله وحياته تشعّ بأَنوار الحبّ، أي بذل الذات الدائم، بلا تحفّظٍ ولا حدودٍ.

بدافع حبّه، صار يسوع الراعي الصالح الذي لا يطيق فقدان خروفٍ أو نعجةٍ، فيسعى في إِثرهما ممزّقًا قدميه ويديه بالأَشواك، حتّى يعثر عليهما ويعيدهما. ويخاطر بحياته ذودًا عن القطيع من تهديد الذئاب.

وصار الكرمة التي تغذّي بنسغها الأَغصان كي تؤتي ثمرًا وفيرًا.

وصار حبّة القمح التي تموت في الأرض كي تنتج حصادًا غزيرًا يغذّي الكثيرين.

وبدافع حبّه حوّل عصير الكرمة إلى دمه، وحوّل الخبز إلى جسده، كي يوفّر للبشر غذاءً روحيًّا، في كلّ يومٍ، وفي كلّ جيلٍ.

لم يبذل أَحدٌ نفسه، في سبيل البشر، كما هو فعل. امتلك قدراتٍ فريدةً، ولم يسخّر أَحدٌ قدراته كلّها من أَجل الخدمة، كما هو فعل.

رسوله بولس هتف: «**أَحبّني، وبذل نفسه عنّي**» (غلاطية ٢: ٢٠). وهكذا يستطيع أَن يهتف كلّ من عرف يسوع. ومع أنّه وُلد وعاش في وسطٍ محدّدٍ، اجتذب إليه بشر كلّ زمانٍ ومكانٍ، وبات العالم كلّه موطنه، وقلوب بشرٍ من كلّ لونٍ عرشه ومسكنه. وما من أحدٍ مثله استطاع تحطيم الحواجز القائمة بين مختلف شعوب الأَرض.

وبما أنّه ليس لمفردة المحبّة وجودٌ في قاموس زعماء اليهود، وزعماء العالم، بل كانوا يستشفّون في رحمة يسوع ومحبّته خطرًا على برّهم وسطوتهم، حقدوا عليه، لأنّه توخّى خلاص العالم أجمع، غير عابىءٍ بمصالح الشعب اليهوديّ وبتفوّقه، وامتيازاته.

* *

بالحبّ، وعلى الحبّ، بنى يسوع ملكوته، مقوِّضًا مملكة البغض، والكراهية، والأَثَرة. وما أَجمل قول القدّيس أوغسطينُس، في هذا الشأن: «حبّان أشادا مدينتَيْن: حبّ الذات حتّى احتقار الله، أشاد مملكة إِبليس، وحبّ الله حتّى احتقار الذات الذي أَشاد مدينة الله».

تميّز يسوع بالرقّة، وتجلّت رقّته، خاصّةً، في عطفه على المساكين، والضعفاء، والمبتلين بشتّى العلل، الذين كان علماء الشريعة يزدرونهم ويهمّشونهم، ويعدّونهم ملعونين، فآثرهم، هو، بحبّه. وانحنى على بؤسهم ليشفيه ويزيله، ولم يرَ غضاضةً في خرق نواهي الشريعة ومقدّساتها، في هذا السبيل، فلمس الأَبرص، وجالس العشّارين والخطأة، وأَنقذ من الرجم زانيةً كي يعيدها إلى دروب النور، وتعمّد إِجراء أشفيةٍ كثيرةٍ في أيّام السبت، كي يؤكّد أنّ المحبّة فوق الشريعة، وأَنّها، هي، العبادة الحقّة، وهي التمثّل بالآب العليّ، الذي يطلع شمسه، ويرسل غيثه على جميع أَبنائه، بلا تمييزٍ.

وتجلّت رقّة يسوع، أيضًا، من خلال موقفه من الخطأة. فهو الذي كانت مقتضياته الأخلاقيّة شامخة الطموح، صارمة الجدّ، كان، في الآن عينه، مفعمًا رأفةً وعطفًا، حيثما عثر على نفسٍ تتلوّى عجزًا في شباك الخطيئة. وهو الذي كان أيّ سموٍّ بشريٍّ، في نظره، غير كافٍ، كان يقدّر أيّة مبادرة عطفٍ. وهو الذي استهدف اللانهائيّ كان يفرح لرؤية أدنى خطوة تقدّمٍ على طريق الخلاص. وهو الذي كان يبتغي إضرام حريقٍ يلتهم الكون، كان يبتهج لرؤية أصغر شرارةٍ إلهيّةٍ، تلتمع في صدر إنسانٍ.

وذاك الذي كان يعدّه خصومه معلّمًا، والذي كان يلجأ إلى القسوة أحيانًا، الذي يفضح ما ينبغي فضحه بصرامةٍ وصراحةٍ، كان يقدّر، أكثر من سواه، المبادرات الصغيرة الرقيقة، فهو يضع إصبعه في أُذن الأصمّ، ويلمس لسانه (مرقس٧: ٣٣)، ويبصق على التراب ويجبله ويجعل من طينته مرهمًا عجيبًا يفتح عيني الأعمى. وهو يضع يده على رؤوس الأطفال، ويباركهم ويقبّلهم. يلمس الأبرص كي يشفيه، مع أنّ الشريعة كانت تعدّ مجرّد الاتّصال بأبرص مصدر نجاسةٍ (لوقا٥: ١٣). وقد أخذ بيد حماة بطرس، التي سمّرتها الحمّى بفراشها، وأنهضها معافاةً (مرقس ١: ٣٠). أتاح لامرأةٍ خاطئةٍ أن تدنو منه، وتسكب على قدميه الطيب، وتنشّفهما بشعرها، وندّد بالذين أصدروا بحقّها إدانةً قاسيةً. ولم يُغفل مستلزمات الحياة اليوميّة، فقدّر كأس ماءٍ باردٍ تُقدّم لعطشان. أبى أن يصرف الجموع، وهم خاوو المِعَد، لئلاّ تخور قواهم في الطريق، فأشبعهم خبزًا وسمكًا، وحرص على ألاّ يُهدر شيءٌ من الفضلات. وابنة يئير التي أقامها من الموت أوعز بإطعامها كي تشتدّ قواها، وأمسك بيدها كي يسند وهنها. وأشاد بالمرأة الفقيرة التي ألقت في صندوق التقادم فلسين، اقتطعتهما من عوزها (لوقا ٢١: ٤). ويا لرقّة قاهر الموت الذي جلس على الشاطىء، منتظرًا تلاميذه العائدين من الصيد، وقد أشعل لهم النار، وأعدّ لهم الإفطار!

* *

يسوع ربٌّ جعل نفسه خادم خلاصنا، وإلهٌ جعل ذاته أخًا لنا، إلى الأبد. إنّه أسمى، بلا قياسٍ، من كلّ كائنٍ، ولكنّه في الآن عينه، أقرب إلى كلٍّ منّا من أبينا الجسديّ.

لقد تولّى يسوع إغاثة كلّ منكود حظٍّ، وكلّ محروم من الحبّ، وأعلن بملء صوته: «**تعالوا إليّ يا جميع المعانين، الذين ينوؤون تحت وِقر أحمالهم، وأنا**

أوتيكم الراحة» (متّى ١١: ٢٨). دعوةٌ وجّهها إلى جميع المهمّشين، اجتماعيًّا ودينيًّا، المعتَبَرين نفاية البشريّة، الأغلبيّة الصامتة، المثقلة باحتقار جميع الطبقات والأحزاب، ولكأنّهم منبوذون من خلاص الله. وقد برهن، بكلّ أقواله وأفعاله، عن إيثاره لهؤلاء.

عيناه كانتا تفيضان حنانًا، وأَقواله تقطر رقّةً. فهو يدعو المرأة السقيمة: «**يا ابنتي**»، وتلاميذه: «**يا أَصدقائي الصغار**». وفي غمرة انشغاله بخدمة المحتاجين، وشفاء الأَسقام، كان يذهل عن احتياجاته الأَساسيّة، بحيث عدّه ذووه فاقد العقل.

منذ عتبة الإِنجيل تجلّى يسوع موئل الرجاء البشريّ، وقاهر الأَلم والشرّ، بوسائل الرحمة. ومنذ اللحظة الأولى، قرن شفاء النفس بشفاء الجسد، وحرص على أن يدرك الجميع أنّ رسالته روحيّةٌ، وأنّه أكثر اهتمامًا بالعلّة النفسيّة من العلّة الجسديّة، وبشلَل النفس الناجم عن عدم الشعور ببشاعة الخطيئة، من شلل الأعضاء. لقد ابتغى أن يكون مصوّب الضمائر، ومركز جذب الإِرادات، وملك القلوب، إلى جانب كونه شافي الأَجساد.

كان رجل رأفةٍ بليغ التأثّر بما يصادف من مآس. لم يحتمل رؤية الأُمّ التي كانت تشيّع وحيدها إِلى اللحد، فأقامه، وأَعاده لها. تحنّن على الجمع الغفير الذي كان يطارده، لأنّه رأى فيه قطيعًا لا راعي لـه. كانت الرحمة تشعّ منه، وتجتذب إليه، من كلّ صوبٍ، طالبي الشفاء، أو ملتمسي مجرّد لمس ثوبه، والبرء، بالقدرة الخارقة التي كانت تنبعث منه.

لقد خفق قلبه حبًّا للشابّ الغنيّ الذي دعاه إلى اتّباعه، وحزن لتقاعسه. تهلّل جذلاً لأنّ الآب أخفى حكمته عن العلماء، وكشفها للصغار. ارتعش، واضطرب، وبكى أَمام قبر صديقه لعازر، مثلما بكى على أورشليم، لأنّها لم تعرف زمن افتقادها، فاجتلبت على ذاتها الدمار...

كان له أَصدقاء، لأنّه عرف كيف يحبّهم. وكان وفيًّا لهم وفاءً من النبل بحيث أَخذ على عاتقه، وحده، كلّ نقمة أَعدائه. ولطالما تذوّق عذوبة الصداقة، وقد ربطته أواصر صداقةٍ رقيقةٍ مع لعازر وشقيقتيه، تتجلّى من خلال الأُلفة والدالّة اللّتين بهما التمست مرتا من ضيف الأُسرة إِقناع أُختها الصغرى مريم بمساعدتها في إِعداد المائدة، وبالأُسلوب الذي به أَبلغت الشقيقتان يسوعَ احتضار أَخيهما.

الإنجيليّ يوحنّا يعّرف نفسه بأنّه «**التلميذ الذي كان يسوع يحبّه**»، ويسوع نفسه، بعد أَن قهر الموت، وغفر لبطرس إنكاره له، وقبل أن يولّيه مقاليد كنيسته، سأله ثلاثًا، أمام سائر التلاميذ: «**هل تحبّني يا بطرس؟**»، كي يسمع من فمه اعتراف حبٍّ صادقٍ يثلج صدره. وكم كان قد حزن لأنّ أصدقاءَه الأثيرين لم يستطيعوا أن يشاركوه نزاعه في بستان الزيتون، ساعةً واحدةً!

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

بتعاليمه ومثاله دوّن يسوع، في تاريخ البشريّة، فصلاً جديدًا، لا يقوم على الانتقام بل على الصفح. ودشّن عهد الحبّ الإلهيّ الذي لن تكون له نهايةٌ لأنّ الحبّ لانهائيٌّ.

أحبّنا وعلّمنا الحبّ، لأنَّ هناك معارك لا تُكتَسب إلاّ بالحبّ.

أحبّنا وعلّمنا أنّ:

«الحقيقة بمعزلٍ عن المحبّة، ليست الله» (پاسكال).

«المعرفة التي لا تتحوّل إلى حبٍّ، باطلةٌ» (بوسُّويه).

«الحبّ ينهض بعبء الشقاء، وإن ترك لنا الشقاء شعورًا به، فالحبّ يجعلنا نحبّه» (أوغسطينُس).

وأَنّ المحبّة ليست مجرّد فضيلةٍ، بل هي الفضيلة عينها.

أحبّنا فافتدانا بموته على الصليب، مثبتًا أنّ الحبّ أَقوى من الخطيئة، وأنّ الصليب، أَداة الموت، كفيلٌ بأن يُصبح أَداة حياةٍ، لأنّ الحبّ ينتصر على الموت.

لقد أَحبّنا يسوع، فأجزل لنا العطاء: اتّخذ جسدًا مثل جسدنا، ولكنّه أَعطانا أَباه أَبًا لنا. جعلنا إِخوةً له، ومن ثمّ شركاء له في وراثة الملكوت؛ أَهاب بنا أن ندعو أباه «**أبانا**»، وقبل مغادرته هذا العالم أعطانا أُمّه كي تكون لنا أُمًّا، وأَعطانا روحه، ليكون لنا هاديًا، ومعزّيًا، وقوّةً. وأَعطانا جسده ودمه، ليكون لنا مأكلاً ومشربًا، وقوام حياة.

«**أُنظروا بأَيّة محبّةٍ خصّنا الآب، حتّى ندعى أولاد الله!**» (١ يوحنّا ٣: ١).

وَقارُ يسَوع ، وَسجوُّ نفسِه

كان يسوع يعي أنّه محطّ الأَنظار، وقدوةٌ، وأنّه ينطق بالقول الفصل، وبالكلمة الحاسمة. كان واثقًا من كونه المتمّم الذي لن يأتي بعده أَحدٌ. ثقته، وقوّة عمله البسيطة، وإِشعاعه الوضّاء، ووضوح كلّ كيانه وطلاوته، تتّكىء على هذا اليقين.

منذ اللحظة الأولى بشّر وعمل بصفته ابن الله ومرسله. في عماده شهد الآب أَنّه ابنه الحبيب، فجهد إِبليس، عبثًا، في ثنيه عن رسالته الخلاصيّة. ومنذ عظته الأولى، أَعلن أنّه من عناه الأَنبياء. ومنذ مطلع رسالته طرد الأَرواح الشرّيرة، التي كانت تعلن عن خشيتها منه. ووضع نفسه فوق وصايا الشريعة ونواهيها، بلا تردُّدٍ ولا خشيةٍ، متحرّرًا من ضغوط مجتمعه وتطلّعاته.

طابع شخصيّته السائد خشوعٌ صامتٌ، هادئٌ. إنّه لا يتكلّم، أَبدًا، تحت تأثير اندفاعٍ عابرٍ، بل هو، دائمًا، ساكنٌ، ساجٍ، متيقّظ العين والأُذن إلى ما يدور حوله. يحيا سلامًا داخليًّا عميقًا، ويقتسمه مع الآخرين، وفي شفافيَّةٍ مطلقةٍ. فصدقه لا يطيق مغالاةً، ولا وعودًا جوفاء، ولا نفاقًا. نَعَمُه نَعَمٌ، وكَلاَّه كلاّ. وصفاء نفسٍ إلهيٌّ، خارقٌ، يطبع أَقواله كلّها التي تقرن البساطة بالعمق.

تلاميذه أَلِفوا فيه معلّمًا يصعب التأثير فيه. وهذا لا يعني أنّه يرفض كلّ شيءٍ، غير أنّ له حدودًا لا يتخطّاها، وثوابت لا يحيد عنها، ومبادىء لا يساوم عليها.

لا يُستثار بيُسرٍ، ولا يندفع بلا مبرّرٍ. ولئن هو بذل ذاته في سبيل رسالته، ولئن هو هجر كلّ شيءٍ كي يستنفر الآخرين، فلأَنّه يستجيب لدعوةٍ، ولديه شيءٌ جوهريٌّ يبلّغه، شيءٌ يحرقه.

إنّه حاضر البديهة ومرنٌ، يستوعب الأَسئلة التي تُطرح عليه، ويردّ عليها بتلقائيّةٍ وسداد رأيٍ، ولا يخشى إِدهاش مستمعيه بأقوالٍ غير مألوفةٍ. قريحته فيّاضةٌ، ومَرَحه غامرٌ. لا يدّعي أَنّه عالمٌ في الشريعة. ولكنّه يُفحم العلماء بأسئلته المحرجة، وأَجوبته

القاطعة. وذلك الذي قيل فيه إِنّه لم يتعلّم، ردّ بسخريّةٍ على الكتبة قائلاً: «**امضوا، فتعلّموا ما معنى هذا: «إنيّ أُريد الرحمة لا الذبيحة»!**

لقد خبر شتّى المشاعر، البهيج منها والحزين، العذب منها والمرّ، وعانى، خاصّةً، الأَلم ونكران الجميل. ولكن لا الحزن سحقه، ولا الفرح ذهب بلبّه. بل كان يأخذ الأمور على علاّتها، ولا يسعى في إِثر امتيازٍ أو رفاهٍ. وكان يسوق عيشةً بشريّةً معتدلةً، في رضًى ساجٍ. أَغوار نفسه كانت، أبدًا، غارقةً في السكينة، والفرح المقدّس، والسلام الذي لا يعكّره اضطرابٌ. كان يضبط كلّ مشاعره، حتّى غضبه المقدّس، ويمتلك، أبدًا، زمامه. فجاءت مشاعره وتأثّراته، دائمًا، نبيلةً، قدسيّةً.

كان متحرّرًا من ضغوط الغرائز، وسيطرة الأَنانيّة، ونزعات الخطيئة، التي تزرع في النفس الفوضى، والاضطراب، والقلق، وتحجب عنها الحقيقة، وتدفعها إلى حيث لا تريد. ومن ثمّ غمر نفسه الاستقرار والسلام.

وقد امتلك، على نحوٍ فريدٍ، فضيلة الأَقوياء، أَي الصبر الذي مارسه ممارسةً كاملةً، رغم كلّ ما واجهه من كبرياءَ، وادّعاءٍ، وجهلٍ، ومكرٍ. وقد فشلت هذه كلّها في إِخراجه عن صبره. ومع كلّ ما ران عليه من نَصَبٍ، وإِرهاقٍ لم يتخلّ، لحظةً، عن رقّته، وهو يرحّب بالمرضى والمفجوعين، والفضوليّين، وبأعدائه الماكرين، وبالجموع المتدافعة.

وأَيُّ صبرٍ لامحدودٍ ذاك الذي جعله يكتم أُلوهته مدى ثلاثين عامًا، تحت مظهر نجّارٍ بسيطٍ، فقيرٍ، من عامّة الشعب!

سكونه مدهشٌ: فهو متضامنٌ مع مخطّط الآب، ماضٍ إِليه بقدمٍ ثابتةٍ، بعيدًا عن أيّ تردُّدٍ، أَو توانٍ، أو تخاذلٍ، بلا استعجالٍ، ولا نفاد صبرٍ، ولا قلقٍ. وحتّى عندما يمعن أَعداؤه الشرسون في مطاردته، والتربّص به، واعتراض سبيله، ويفترون عليه، ويسعون إِلى إهلاكه بكلّ ما يتوفرّ لديهم من وسائل، لا تهتزّ، لحظةً، سكينته. بل هو، دائمًا، سيّد أقواله وأَفعاله. وخير صورةٍ لسكونه سباتُه العميق في سفينةٍ تكدّها الأَمواج العاتية، وتنذر بتحطيمها عاصفةٌ هوجاء، ارتعدت لهولها فرائص تلاميذه الصيّادين المتمرّسين، الذين طالما صارعوا الأَنواء والعواصف. وكم كان في إِخراسه لها، بلا وجلٍ، ولا أثرٍ لخوفٍ، من جلالٍ إِلهيٍّ!

لا شيء، ولا أَحَد، كانا يقويان على انتزاعه من سجوّه، وإِفساد سيطرته على ذاته. وإِن هو كان يؤثر، أحيانًا، في مواجهة أَمواج الحقد العارمة المتدفّقة عليه،

الانسحاب والتواري، لأنّ ساعته لم تأذن بعد، إلاّ إنّه كان يفعل ذلك في تؤدةٍ، وسكينةٍ، وجلالٍ، وبمنأًى عن كلّ رعدةٍ. أحداثٌ شاقّةٌ، مقلقةٌ، خطيرةٌ، واكبت رسالته. ولكنّ حياته انسابت انسياب نهرٍ مهيبٍ، هادىء المياه، لا يفيض على الضفاف، وينصبّ بهدوءٍ في المحيط. ولطالما عجزت أَعتى المؤثّرات الخارجيّة عن إِحداث أيّ اضطرابٍ، أو ما يشبه الفوضى والخَلَل، في تلك النفس السامية.

غير أَنّ تلك النفس التي كانت تلهبها غيرةٌ متّقدةٌ على مجد الله، ويحدوها مقتُ كلّ رياءٍ ونفاقٍ، واستنكارُ كلّ تخاذلٍ لدى من انتدُبوا لأجسم المهامّ وأَسماها، قد اضطُرّت، في حالاتٍ نادرةٍ، إلى التلفّظ بأقوالٍ قاسيةٍ، وبتهديداتٍ مرعبةٍ، وإِلى استخدام وسائل العنف، مرّتَين، ذودًا عن قدسيّة الهيكل والعبادة. بيد أنّه لم يتفوّه، يومًا، بأَقوالٍ جارحةٍ، ولا هو لجأ إلى عملٍ عنيفٍ، دفاعًا عن نفسه، أو ردًّا لاعتداءٍ عليه. ولم يكن، قطّ، ضحيّة انفعالاتٍ ضاغطةٍ أَفلت منه زمامها.

لم يكن عنف يسوع، يومًا، فيض حيويّةٍ جسديّةٍ، أو حساسيّةٍ جامحةٍ، بل هو «عنف حبٍّ» موجّهٌ نحو حواجز دون المحبّة والقداسة ينبغي تخطّيها، ونحو جدران الثروة، والكبرياء والأنانيّة... ولم يكن عنف يسوع، قطّ، انتقامًا أَو بغضًا.

غضبه منزّهٌ من كلّ حقدٍ، وإِنّما هو تعبيرٌ عن أَلمٍ حادٍّ، وعن نار وجعٍ مضطرمةٍ. إِنّه يغضب حيال عناد الشرّ، وحيال من يرفضون رؤية الحقيقة، وهم عالمون أين يكمن الحقّ، وأَين يقيم الكذب.

فحتّى عندما قال للمدن التي أَغدق عليها عجائبه، وتنكّرت له: «**الويل لك**» فهو لم يلعنها، بل أَطلق صرخة أَلمٍ، لأنّها آثرت الهلاك. وعندما ساط الكتبة والفريسيّين، مردّدًا «**الويل لكم**» فإنّما كان يعبّر عن حزنه على الشعب البسيط الذي كانوا يضلّلونه.

إنّه ابن تلك الحكمة التي، حتّى في سورات الغضب، لا تأتي عملاً غير لائقٍ، ولا تخرج عن قيود الاتّزان، وتميّز بين المذنب والبريء. وكانت تقابل قسوتَه حيالَ المرائين عذوبةٌ فائقةٌ حيال الأَطفال الذين يجد متعةً في مداعبتهم ومباركتهم.

في الإِنجيل يقترن الجانب الجليليّ، المثاليّ، الشاعريّ، البهيج، بصرامة مقتضيات يسوع، ومظاهر مأساويّة المسيحيّة، وواجب الشهادة، والفداء، والصليب. فالإِنجيل معقل الحقيقة، والحقيقة تصدم، وتقتضي الجهد.

كلماتٌ قاسيةٌ تفجّرت من فكر يسوع ومن تجربته. فهو قد جاء لكي ينشر النور، ولكنّه زُجّ في أتّون نارٍ. جاء يبشّر بالسعادة، فاضطرّ إلى شرب «كأس اللعنة». جاء ليرسّخ الوئام والصداقة، فهُدّد بالفرقة حتّى داخل أُسرته. ولكنّ النور انتصارٌ على النار، وماء الروح المطهّر انتصارٌ على الماء الذي يخنق، ماء الطوفان القائم. أمّا السلام الذي جاء يسوع كي يرسّخه، فهو سلامٌ لا يضطرب بسبب الأَوضاع المستعصية، ولا يعكّره فحيح الأَفاعي داخل الأُسرة، وانقسام المؤمنين، واضطرابات الضمير.

ميزة يسوع أنّه يرى كلّ شيءٍ، ولا يُخفي شيئًا. وذاك الذي يرى كلّ شيءٍ ويستطيع احتمال كلّ شيءٍ، الذي يحيل اللهب نارًا، والنار نورًا، الذي يُخرِس العواصف، ويشقّ فوق اللجّة دربًا، يستطيع تحويل البغضاء العائليّة وئامًا، فما من وضعٍ يستعصي عليه.

وليس، في سلوك يسوع، أَثَرٌ لتردّدٍ، أو ريبةٍ، أو تعثُّرٍ، أو اندفاعٍ مباغتٍ يعقبه خمودٌ أو ندمٌ، بل هو دائمًا، سجوٌّ، وامتلاءٌ، وثباتٌ، وثقةٌ.

وإنّما سكونه ثمرة تحرّره من الأَهواء، وغوايات الجسد بشتّى أشكالها، ومن سيطرة القوّة، وعبوديّة المال.

الفكر، والإِرادة، والقلب، عنده، في مستوًى واحدٍ. إنّه الحقّ والطيبة، والجمال. حبّه هو الخير الكلّيّ، وروحه هو الحقّ المطلق.

نحن، في صلاتنا، نشعر بهوّةٍ سحيقةٍ تفصل هواننا عن كمال اللّه، وتسحقنا. أمّا يسوع، فلا شيء يفصله عن اللّه، أي عن ذاته. إنّه يخاطب أباه السماويّ بأُلفةٍ أعذب من أُلفةِ طفلٍ يناجي أباه، أو أُمّه.

تحرّره من الخطيئة أَبقى قلبه في حالة سجوٍّ وسكونٍ، وتناغمٍ، وحرّيّةٍ، بمنأًى عن مصطرعات الأَهواء. السلام يخيّم، فيه، حتّى في غمرة أحزان الموت. سلام أَعمق نفسٍ، وأَطهر قلبٍ، وأكثره اضطرامًا وخيرًا، وحبًّا.

سلام أَعماق المحيطات، وطبقات السماء العليا، سلام الحياة الأَبديّة الساكنة في أثمن القلوب إنسانيّةً وأُلوهةً.

١٠٢٠

قَدَاسَةُ يَسُوع وَكَمالُه

جبرائيل أنبأ مريم: «**المولود منك قدّوسٌ....**».

ويسوع نفسه تحدّى خصومه: «**من منكم يُثبت عليّ خطيئةً!**». وهل، بين بني البشر، من يجرؤ على مثل هذا التحدّي؟ وهل من يداني يسوع في الكون، براءةً، وقدرةً، وسموًّا، وقداسةً، في سلوكه، وحياته، وموته؟ وهل، مثله، من يسري نَفَس الله في كلٍّ من أقواله؟

الله نورٌ وحقٌّ، والنور والحقّ أَصبحا إنسانًا وتجسّدا في يسوع، فإذا به النموذج الأَسمى لكلّ الفضائل، والمثال الفائق للقداسة.

قداسة يسوع ناجمةٌ من اتّحاد ناسوته بالأُلوهة، في شخص الكلمة، ومن ملء حال النعمة في نفسه. قداسته جوهريّةٌ، إنّها قداسة الكيان، وقداسة الحياة والعمل. قداسة الكيان تشعّ في قداسة الحياة، وكلتاهما معًا، تكوّنان قداسة يسوع المطلقة.

لقد عانى يسوع أوهان الجسد من جوعٍ، وعطشٍ، وتعبٍ، ونعاسٍ، وأَلمٍ، ولكنّه كان معصومًا من الأوهان التي تؤدّي إلى الحرمان من النور والنعمة، مثل الجهل، والنزعة إلى الشرّ، وصعوبة عمل الخير. هذه الأوهان لا تليق بالمخلّص وتعيق عمله الفدائيّ. وقد عُصِم يسوع، أَيضًا، من جميع الأَسقام الناجمة عن الخطيئة الأَصليّة. فهو وُلِد من الروح، ولم يُبتلَ بأَيّة عاهةٍ. أَمّا الآلام التي تحمّلها جسده، فقد أَدّت إلى مجده.

قبله كانت أَرفع الفلسفات رقيًّا، وأَكثر التشريعات تقدُّمًا، لا تقوى على الانفلات من سطوة الغرائز الدنيا، والأَنانيّة، والأَثَرة، والنزوع إلى السيطرة واستعباد الأَضعف. أمّا هو، فكانت رسالته رسالة حبٍّ، وإيثارٍ، وخدمةٍ، وتضحيةٍ، وهكذا كانت حياته كلّها، تسبح في صفاء نفسٍ منقطع النظير، واستقامة نوايا لا غبار عليها.

وهو، وفي كلّ شيءٍ، لم يكن يرضى لنفسه ولأتباعه بأقلّ من التمثّل بكمال

الله، وكان هو المعلّم الأَمثل الذي يلقّن البشر ما يتوجّب عليهم فعله، من أَجل بلوغ الكمال.

لقد تخطّى البشر أَجمعين عظمةً أخلاقيّةً، وعصمته قداسته المطلقة من كلّ خطيئةٍ أَو زلّةٍ. لقد ساد، دائمًا، تناغمٌ مطلقٌ بين ظاهره وباطنه، بين أَقواله وأَفعاله. ولم يطالب، قطُّ، الآخرين، بما لم يكن مثالاً أَسمى في تنفيذه.

ليس يسوع قدّيسًا فحسب، بل هو منبع كلّ قداسةٍ، وهو الذي أَكّد: «**بمعزلٍ عنّي لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا**» (يوحنّا ١٥: ٥). ولا بدعَ، فهو الكلمة المتجسّد، ابن الله الذي جاء كي يهبنا الحياة: «**أجل، من ملئه كلّنا أَخذنا، ونعمةً على نعمةٍ**» (يوحنّا ١: ١٦).

وما انفكّ يسوع يحوّل العالم، باجتذابه النفوس وتقديسها بحيث غدت المسيحيّة دعوةً إلى القداسة، ومسؤوليّة دفع الآخرين إليها.

يسوع هو سرّ جميع القدّيسين، سواءٌ الذين طوّبتهم الكنيسة، أو الآخرين، المُغفَلين الكُثُر، الذين ينهضون شهاداتٍ حيّةً، ولا يمكن فهمهم إلاّ باعتبارهم صُوَرًا ليسوع، ومرايا. بطولة القدّيسين لا تُفسَّر إلاّ بعشقهم ليسوع، وبرغبتهم في التمثلّ به، وفي العمل بوصاياه. ويسوع لا يفسَّر، على أَرض الواقع، إلا بما يوحيه للقدّيسين، وبما يحقّقه من خلالهم. يسوع يختزل ويفسّر كلّ التجارب الفريدة التي خاضها القدّيسون، وكلٌّ منهم يبرز ملمحًا من ملامح وجهه الجمّ.

القداسة أَبرز ميزات يسوع، وقد كتب «پاسكال»، في ذلك: «يسوع لم يملك مالاً، ولم يُظهر عمله، بل التزم مضمار القداسة، مضماره الخاصّ. لم يُقدّم اختراعًا، ولم يملك، بل كان متواضعًا، صبورًا، قدّيسًا أَمام الله، وحربًا رهيبةً على الأَبالسة. وكان بلا خطيئةٍ. آه! كم جاء في أُبّهةٍ، ومجدٍ معجزٍ، في عيون القلب التي تبصر الحكمة!».

كان يسوع كمال النبوّة. فهو النبيّ والمتنبّأ به. وعد بالخلاص وكان هو الخلاص. أَعلن كلام الله، وهو كان، بروحه وجسده، وبحياته وآلامه، وبمعجزاته وتعاليمه، بموته وقيامته، كلمة الله.

لقد أَحبّ الخير بعنف نفسٍ بشريّةٍ، وبلانهائيّة نفسٍ إلهيّةٍ.

لقد كان يسوع مجمّع فضائل، والفضائل هي ثمرة التعاون بين النعمة والإِرادة. وعلى الإنسان أن يكون، بعقله وإرادته، متّحدًا بالله، بعقله كي يفكّر دائمًا بالله، وبإِرادته لكي يلتصق به برباط الحبّ.

وبما أنَّ يسوع شاء التأنّس، فقد كان من الطبيعيّ أن يكون له إِرادةٌ بشريّةٌ مستقلّةٌ عن الإرادة الإِلهيّة، ولكنّها خاضعةٌ لها، طوعًا، كما يتّضح من قوله: «**إنّني نزلت من السماء لا لأعمل بمشيئتي، بل بمشيئة الذي أرسلني**» (يوحنّا ٦: ٣٨). لا ريب أنّ إِرادة يسوع الإلهيّة كانت ممتزجةً بإرادة الآب، ولئن لقيت إِرادته البشريّة، في لحظات نزاعه، مشقّةً في مواكبة إرادته الإلهيّة، إلاّ إِنّها ما لبثت أن انحنت لها.

الإرادة هي أكثر ما في الإنسانيَّة جوهريّةً، وحقيقةً، وسموًّا. وقد اتّسمت إِرادة يسوع، طيلة مسيرته الأرضيّة، بالكمال، مثلما كانت كلُّ خصاله وصفاته. وكانت، حتّى في أعتى المواقف، على توافقٍ مطلقٍ مع مشيئة الآب، مهما اقتضى هذا التوافق من تضحياتٍ. وهذا ما أكّده يسوع نفسه بقوله: «**إنّني لا أعمل شيئًا من عندي، بل أقول ما علّمني الآب. إنّ الذي أرسلني هو معي. إنّه لم يتركني وحدي، لأنّي أعمل، دائمًا، ما يرضيه**» (يوحنّا ٨: ٢٨-٢٩)، وقد ظلّ يعمل ما يُرضي الآب حتّى «**تمّ**» كل شيءٍ على الصليب.

وتميّزت إِرادة يسوع البشريّة بطاقةٍ منقطعة النظير. صحيحٌ أنّه لم يتعيّن عليه، مثلما يتعيّن على عموم البشر، مقارعة الكبرياء، والشهوات، والأَوهان الأَخلاقيّة، التي، عندنا، تعكّر البصيرة، وتقيّد الحرّيّة، وتوهي العزيمة. ومع ذلك، كان عليه، في كلّ لحظةٍ، أن يقوم بعملٍ إراديٍّ مُكلِفٍ. فعبثًا حاول المجرّب الشرّير، وعبثًا حاول التلاميذ، والقضاة، ثني يسوع عن واجباته، إذ وجدوه صامدًا لا ينثني، ماضيًا في تحقيق مشيئة الآب حتّى الموت، مع تظاهر الآب بالتخلّي عنه، فخَبَر، بفضل تجربةٍ قاسيةٍ، كم تكلّف طاعةٌ بلا تحفّظٍ. وفي حرصه على تحقيق مخطّطات العناية الإِلهيّة، لم يحِدْ، أُنملةً، عن جزئيّاتها، محقّقًا قول أشعيا فيه (٥٠: ٧): «**السيّد الربّ ينصرني، لذلك لم أخجل من الإِهانة، ولذلك جعلتُ وجهي كالصوّان، وأنا عالمٌ بأنّي لا أُخزى**». ولذلك لمّا أذنت ساعة آلامه، اندفع بعزيمةٍ عجز رسله عن فهمها، صوب أورشليم، المدينة التي تقتل الأنبياء، وقلعة ألدّ أعدائه.

محقَّقٌ أَنّ العالم لم يشهد بطلاً في مثل إِقدام يسوع، الذي قال عنه رسوله بولس: «**لقد صار طائعًا حتّى الموت، بل موت الصليب**» (فيليبّي ٢ :٨).

إنّه يتعذَّر الولوج إلى قلب الربّ، وإدراك ردود فعله، ما لم نستوعب سّر طاعته. الطاعة هي تنفيذ مشيئة آخر، وقد أَعلن يسوع، منذ البدء، أنّه إنما نزل من السماء كي ينفّذ مشيئة أَبيه الذي أرسله. والطاعة، عنده، ليست فكرةً مجرَّدةً، بل هي عملٌ ملموسٌ، العمل الذي يطلبه منه، في كلّ لحظةٍ، أَبوه السماويّ: التزام صمتٍ، أو تأنيب خاطىءٍ، أو الترحيب به، إجراء معجزةٍ أو الإِمساك عن إِجرائها، غسل أَرجلٍ، أو تقبيل وجهٍ....

منذ اختفائه في الهيكل، وهو في الثانية عشرة، أَعلن عن هدف وجوده على الأرض: «**أما تعلمان أنّه عند أَبي يجب عليّ أَن أكون؟**» (لوقا٢ :٤٩)، وفي بستان الزيتون، قُبَيْل صلبه قال: «**يا أبتا إن شئت أَن تصرف عنّي هذه الكأس.... ولكن لا مشيئتي بل مشيئتك**» (متّى ٢٢ :٤٢). وفي السامرة عندما جاءه تلاميذه بالطعام، ودعوه بإلحاحٍ إلى مشاركتهم إيّاه، أجاب: «**إنّما طعامي أن أَعمل مشيئة الذي أرسلني، وأُتمّم عمله**» (يوحنّا ٤ :٣٤).

ولطالما أَعلن أنّه تلقّى كلّ شيءٍ من الآب: الرسالة والمجد، والأَقوال التي يدلي بها، والأعمال التي يعملها. طاعته هي التي تفسّر صلبه وقيامته. وهذا ما حدا بالرسول بولس إلى القول: «**أطاع حتّى الموت، الموت على الصليب**» (عبرانيّين ٥ :٨).

وقد تجلّت طاعته في تقيّده بالساعة التي يحدّدها الآب والتي، على إيقاعها اندرجت حياته كلّها، إلى أن أَزفت ساعة انتقاله من العالم إلى الآب.

وأُسوةً بيسوع، الطاعة هي التي تقود المسيحيّ إلى الآب.

وبما أنّ الطاعة هي الإِصغاء إلى صوت الله في داخلنا، والعمل بوحيه ووصاياه، وبما أنّ هذا الصوت هو صوت الآب، فنحن نصغي إليه بحبٍّ.

لقد اتّخذ يسوع وضع الخادم الذي لا يُحاكَم على تصريحاته، وتأكيد تفانيه ونواياه، بل على الطريقة التي ينفّذ بها مهمّاته، بواقعيّةٍ لا لَبْس فيها. وما الطاعة، بمعزلٍ عنها، سوى كلمةٍ جوفاء، وسوى وهمٍ. وبهذه الواقعيّة، أَعلن يسوع، في نهاية شوطه: «**يا أبتِ، قد أتممتُ العمل الذي أَعطيتني لأعمله**» (يوحنّا ١٧ :٤).

ولكنّ طاعة يسوع لم تسحقه، ولم تمنعه من أن يكون مستقلاًّ، وصاحب مبادراتٍ تتحدّى التقاليد الزائفة، وتؤكّد سلطته، وسموّه فوق فرائض البشر التي تتجاهل واجبات المحبّة، مثل فريضة السبت.

من خلال البشر، والظروف، والكتب المقدّسة، لم يرَ يسوع سوى إرادة أَبيه ووجهه. ذاك كان سرّ طاعته، ووسيلة تأديته للآب الشهادة التي كان قلبه متعطّشًا إليها، شهادة حبٍّ مطلقٍ. فمشيئة أَبيه، وإن هي سبّبت لناسوته الأَلم، كانت غذاءه الوحيد. لذلك رفض تحويل الحجارة إِلى أَرغفةٍ تسدّ جوع أَربعين يوم صيامٍ، كما اقترح إِبليس، فقد كانت ثقته في حضور أَبيه معه، في كلّ حينٍ، مطلقةً، بلا تحفّظٍ. وكانت طاعته لأَبيه قضيّة حياةٍ أو موتٍ له.

ولم تكن تلك الطاعة مجرّد تواصلٍ مع الآب، وتوافقٍ مع إِرادته، بل كانت التعبير عن ذاته، وعن علاقته الحميمة الفريدة بالآب الذي يراه عن كثبٍ، بلا قناعٍ، ويرى نفسه في حبّ أَبيه: «**إنّ الآب يحبّني، لأنّي أَبذل حياتي... باختياري... تلك هي الوصيّة التي تلقّيتها من أَبي**». وسواءٌ تعلّق الأَمر بالمعجزات: «**الأعمال التي خوّلني الآب أن أعملها**» (يوحنّا ٥:٣٦)، أو بأَقواله: «**ما أَقول إنّما أقوله كما قاله لي أَبي**» (يوحنّا ١٢ : ٥٠)، أو آلامه، وهي «**الكأس التي أَعطانيها الآب**» (يوحنّا ١٨: ١١)، ففي جميع هذه الحالات، الآب يعمل، ولا يسع الابن إلاّ أن يعمل وعيناه محدّقتان إلى أَبيه: «**إنّ أبي ما زال يعمل، وأنا، أَيضًا أعمل**» (يوحنّا ٥:١٧).

الطاعة هي جوهر يسوع، بمعنى أنّ كلّ كيانه يأتيه مباشرةً من الآب. فهو على اتّصالٍ مباشرٍ به، يراه يعمل، وفي الآن عينه، بصوته، وبيديه البشريّتين، يبرز على الأرض، العمل الذي يمليه عليه أَبوه.

طاعة يسوع هي إِخضاع إِرادته البشريّة لإِرادته الإلهيّة، وهي التطابق التامّ بين مشيئته ومشيئة أبيه. فهل يسوغ، حقًّا، تسمية حالة الوحدة والحبّ هذه «طاعةً»؟ إنّها، على أيّة حالٍ، طاعةٌ من نمطٍ خاصٍّ بيسوع. وهذا الواقع يبرز عجز الكلمات البشريّة عن وصف من جمع في ذاته كمال الأُلوهة وكمال الإنسانيّة معًا.

وقد حرص يسوع على ترسيخ هذه الوحدة بأَبيه، عبر دأَبه على مناجاته التي

كانت تحتلّ حيّزًا رحبًا من حياته، وتستغرق قسطًا كبيرًا من لياليه، موفّرةً لناسوته سندًا وطاقةً على تتميم مخطّط الفداء الإلهيّ. هنا، أيضًا، هل يسعنا أن نسمّي هذه المناجاة «صلاةً»؟ إنّها، على أيّة حالٍ، صلاةٌ من نمطٍ خاصٍّ بيسوع. فإن كانت الصلاة هي مناجاة الله، فيسوع كان إنسانًا وإلهًا في آنٍ واحدٍ، وفي كائنٍ واحدٍ، ومن ثمّ كانت صلاته مناجاة الإنسان فيه لذاته الإلهيّة.

غالبًا ما نرى، في الإنجيل، يسوع ينتحي كي يصلّي. وكان يصلّي بكثافةٍ. لا يذكر الإنجيل، مرّةً، أنّه قدّم ضحايا في الهيكل، أو اشترك بطقوسٍ في المجمع، بل كان يغشى المجمع كي يبلّغ رسالة العهد الجديد. وعندما قدّم ضحيّةً، كانت الضحيّة ذاته، ولم يقدّمها في الهيكل، بل على الصليب، على هيكل العالم، هيكل ذاته. لقد غدا هو الشريعة، والتقليد، والعهد، والهيكل، ومكان حضور الله للبشر، والعبادة بالروح والحقّ. إنّه ربُّ السبت، وربّ الصلاة التي حرّرها من الصِيَغ الجامدة، ومن الأماكن المكرّسة. فلطالما أَحبّ الصلاة في العزلة، ودعا تلاميذه إلى الصلاة للآب في السرّ. لم يكترث بإطار الصلاة الخارجيّ، ولكنّه آثر العزلة والجبل، تلك الأماكن المنعشة المشرعة على آفاقٍ شاسعةٍ، حيث النفس بمنأًى عن الضوضاء، والاضطراب، والمنافسة.

بصلاته كان يسوع يشكر لأَبيه أنّه تجسّد لكي يخلّص العالم.

بصفته ابن الله الوحيد كان يوطّد علاقته بالآب، بكلّ حبّه، وبكلّ بذل ذاته، وبكلّ اندفاعه، وبتحقيقه، على الأرض، عمل الآب الفدائيّ الذي أَوكله إليه، وأَخذه هو على عاتقه بملء إرادته، وبكلّ حرّيّته الإلهيّة. وغالبًا ما انتزع منه تحقيقُه لمشيئة أَبيه صيحات شكرٍ.

وكان يوطّد علاقته بالآب بصفته إنسانًا. فهو، بتجسّده، ارتضى حدودًا لمعرفته، وكان في حاجةٍ إلى اتّصالٍ دائمٍ بالآب. كان في حاجةٍ إلى الشعور بانغراس إنسانيّته في ألوهته، وكان يصلّي من أَجل تعميق اتّحاده معه. فمن أَعماق هذه الوحدة، كان ينبعث عمله.

وكان يصلّي لتقديس اسم الآب. ساعاتٌ وليالي عبادةٍ أنفقها تعبيرًا عن التزامه المحبّ بمشيئة أبيه، وفي الإشادة بمجده. وقد تلقّى الآب من ابنه الذي لبس جسدًا بشريًّا التمجيد الأَكمل.

في حومة نزاعه، ومواجهته للموت المهين على الصليب، صلّى يسوع كي يتمجّد اسم أَبيه فيه، وقد تمجّد، أيضًا، في قيامته، وصعوده إلى السماء، وقدرته كربٍّ يمنح الحياة الأبديّة والروح القدس.

صلّى يسوع من أجل تلاميذه وكنيسته، واستقدم لهم روحه القدّوس؛ وصلّى من أَجل المؤمنين به مدى العصور. يا لرحابة صلاته، ويا لعمقها!

وهو ما زال يصلّي من أجل خلاص العالم، ومن أَجل أن يكون الله كلَّ شيءٍ في الجميع. وسيظلّ ينقص شيءٌ، طالما لم يخضع كلّ شيءٍ، في كلّ إنسانٍ، وفي جميع البشر، خضوعًا كاملاً، ليسوع.

بفضل هذه الوحدة الجوهريّة بين يسوع وأَبيه، ومن خلال يسوع، يتسنّى للمسيحيّ أن «يرى الآب»، وأن يحيا معه، وجهًا لوجهٍ، في حرّيّة الابن ومحبّته.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

ومن عناصر كمال يسوع عفّته، بل هي من عناصر كيانه. وقد كتب «جاك غييه» (Jacques GUILLET): «لم يختر يسوع أَن يكون عفيفًا مبدئيًّا، باسم مثلٍ أَعلى، أو بغية تحقيق هدفٍ، إنّما اختار، ببساطةٍ، أَن يكون هو ذاته».

منذ صباه أعلن أنّ عليه الاهتمام بشؤون أبيه، ولم يكن بوسعه أن يهتمّ بها إلاّ بكلّ كيانه.

وقد ضحّى بكلّ علاقةٍ أُسرويّةٍ، وانتمى إِلى أُسرةٍ شاملةٍ، سيكون هو مركزها الحيّ، وبكامله لكلّ فردٍ. وإنّما كانت عفّته خدمةً للجميع.

فَـرَحُ يسَـُوعَ وَنـُفوذُهُ

لقد خَبَرَ المخلّص، في الجتسماني وعلى الجلجلة، الغمّ الذي يسحق، والرعدة التي تخنق القلب، والحزن والنفور اللّذين يفضيان إلى القنوط، فصدرت عنه أقوالٌ رهيبةٌ مثل: «**إنّ نفسي حزينةٌ حتّى الموت**»، و«**إلهي، إلهي، لمَ تخلّيتَ عنّي؟**». ولكنّ هذه الأَقوال تفجّرت من رؤيته الإلهيّة لكلّ ما سيُقابَلَ به حبّه، وبذله، من نكرانٍ، وخيانةٍ، وصدودٍ، حتّى من أقرب أَصدقائه، على مدى الأجيال، ولكلّ ما سيلحق بالمنكرين، والصادّين، والخائفين، من هلاكٍ وعواقبَ وخيمةٍ.

ولكن، في ما خلا تلك اللحظات القاتمة الكئيبة، كان الفرح يغمر قلب يسوع، وكانت البسمة تضيء محيّاه. وكانت جمالات الكون، وبراءة الأطفال، ونقاء النفوس الطاهرة، وعذوبة الصداقات الوفيّة، تسكب في نفسه فيضًا من الفرح والمتعة السامية.

الكون خُلِق من فيض فرح الله. ويسوع أَهاب بالبشر أن يكتشفوا إِله الفرح، وأن يُعرضوا عن صنم إلهٍ متجهّم. من خلال كلّ سطرٍ في الإنجيل يتردّد صدى قوله: «**ولئن تكلّمت بهذا، وأنا، بعدُ، في العالم، فلكي يكون لهم فرحي كاملاً فيهم**» (يوحنّا ١٧ :١٣). فالفرح ينقذ من الموت.

منذ عرس قانا حتّى التجلّي، منذ التطويبات حتّى أشفية البرص، والعميان، والمقعدين، الفرح يتفجّر من كلّ زاويةٍ من زوايا الإِنجيل، حيث يشيع التفاؤل المبشّر بالسعادة، وبملكوت احتفالٍ أبديٍّ.

المعمدان كان يحيا في جوٍّ من التقشّف والجدّ، أمّا يسوع فكان يحيا في جوٍّ من الفرح والاحتفال، وكان يربأ بتلاميذه أَن يصوموا ويحزنوا، مادام العريس، هو، معهم.

سلوك المعمدان يتّسم بالصوم، ومسيرة يسوع تزدهي بأَلوان العيد.

بين بشارة العذراء وقيامة يسوع، يسبح الإنجيل في مُناخٍ من الفرح.أمّا الألم فيعبر في اللوحة عبورًا، وهو لا يسبّب توتّراتٍ، وصرخاتٍ، وثأرًا، بل هو مجرّد علامةٍ على صراعٍ بين الله وقوى الشرّ.

في يسوع، الفرح والصليب يتعانقان، ولكن ما من تواطؤٍ بين يسوع والأَلم، بل حيثما هو وجده يبادر إلى شفائه وإزالته. وهو يريد منّا أن نكون له، في هذا المضمار، أعوانًا، لأنّه يحبّ العمل من خلال من يتوجّعون في الآخرين وعنهم، ويجهدون في إنقاذ المتألّم ممّا يرهقه.

فرح يسوع لا ينضب، وهو فرحٌ مُعدٍ. وهو لا ينفكّ يؤكّد لنا: «**قلت لكم هذا لكي يكون فرحي فيكم، فيكون فرحكم كاملاً**» (يوحنّا ١٥: ١١).

إنّ قلب يسوع ينشد قلبنا، لكي يبثّنا الفرح والنشوة النابعين من التواصل الذي يجمع أقاليم الثالوث الأَقدس، وقد قال القدّيس برنار: «أَسطع دليلٍ على سكن الله فينا هو الفرح».

وفرح يسوع كان يدعّم لديه ثقةً في المستقبل، تنفخ أَشرعة الرجاء والبهجة في نفسه، حتّى في أَشدّ الأَوضاع كربًا ومضاضةً، فهو عندما أَشرف على ارتقاء الصليب أَعلن: «**وأنا متى رُفِعتُ عن الأَرض، أَجتذب إِليّ الجميع**».

ومن عوامل فرحه دهشته الدائمة، رغم معرفته الكلّيّة. فهو كان يدهش أَمام الجمال، والبراءة، والنقاء، والصدق، وأمام إِيمان وثنيّين لم يقف له، لدى اليهود، على مثيلٍ، وأمام إدراك البسطاء لأَسرار الروح التي يستغلق فهمها على العلماء. فكلّ ذلك كان يعكس له صورة أبيه العذبة.

ومن جرّاء فرحه كان يسوع يشعّ مهابةً تضفي عليه فتنةً، وتوليه نفوذًا. بنظرةٍ واحدةٍ كان يجتذب نفوسًا لا تعود تقوى عنه فكاكًا. ولا ريب أنّ النفوذ الذي مارسه ذلك النجّار البسيط مدهشٌ، حقًّا. فالكتبة المزدهون بعلمهم كانوا يسمّونه «معلّمًا». والغرباء والوجهاء الذين يشهدونه للمرَّة الأولى يسجدون أمامه. قائد المئة، في كفرناحوم، عدّ نفسه غير جديرٍ باستقباله تحت سقف بيته؛ وتلاميذه الذين يعيشون في أُلفةٍ معه يجلّونه؛ وخصومه الذين تحدّاهم بإِثبات خطيئةٍ عليه، لم يجسروا على رفع التحدّي؛ ولطالما شلّت نظرته الأَيدي المتأهّبة لرجمه؛ والحرس الذين كُلِّفوا

بالقبض عليه عجزوا عن تنفيذ مهمّتهم لأنّه «**ما تكلّم، قطّ، إنسانٌ، مثل هذا الرجل**». والجند المسلّحون الذين جاؤوا للقبض عليه في الجتسماني، وقعوا على ظهورهم، لمجرّد قوله لهم: «**أنا يسوع الناصريّ!**».

من المحقّق أنّ شيئًا يفوق البشر كان يشعّ منه: إنّه تجلّي الألوهة.

لقد اتّهمه خصومه بأنّه يفتن الأُمّة، وكانوا، في اتّهامهم، صادقين. ولكنّ فتنته كانت غير تلك التي هم عنوها. فهو لم يكن قائدًا سياسيًّا، ولا أَحد الزعماء أو رؤساء الكهنة. ومع ذلك كانت أقواله وأَمثلة حياته تنير الشعب بضياءٍ وقوّةٍ كفيلَيْن بافتتان البشريّة جمعاء، وبتحطيم قيود كلّ العبوديّات، وبقلب الطغاة عن عروشهم، وردّ الأَغنياء مصفري الأيدي، لكي يشبع الفقراء، وينهض المقهورون رافعي الهامات. وستنهض قدراتُ إنجيله، ومنعةُ قيامته دعمًا للبشريّة، في كلّ صراعاتها من أجل الحرّيّة، والعدل، والسلام.

السحر الآسر العابق منه كان يمكّنه من حمل رجلٍ على بتر كلّ ما يربطه بأُسرةٍ، وبيتٍ، ومجتمعٍ، ومهنةٍ، بمجرّد دعوته: «**اترك كلّ شيء واتبعني**»، وكان يمكّنه من حمل غانيةٍ غارقةٍ في لجج المُتَع والترف على حرق كلّ ماضيها، والتحرّر من كلّ ما يشدّها إلى البشر من روابط وثيقةٍ، بغية الضرب، في إِثره، على دروب الفقر والصليب.

هذا النفوذ الآسر ما برح يسوع يمارسه، كلّ يومٍ، على نفوسٍ كثيرةٍ.

فَقْــرُ يسَـُـوع

من أكثر ما يطبع حياة يسوع على الأرض فقرُه، الفقر الذي اختاره في مولده، وفي حياته، وفي موته، والذي ابتغى أيضًا أن يكون طابع تلاميذه، وأتباعه، والمؤمنين به.

قيل: «الفقر هو توقيع اللّه». ويسوع هو تجرّدٌ أبديٌّ في عطاءٍ أبديٍّ، تخلٍّ كاملٌ في بذلٍ للذات كاملٍ. إنّه، بامتيازٍ، من لا يملك، ولا يُمتَلك، ويقاوم كلّ امتلاكٍ.

الفقر، في مفهوم يسوع، هو أكثر من الزهد في متاع الدنيا، هو الزهد في القدرة الذاتيّة، والاعتماد الكلّيّ على كائنٍ أَسمى، وإِرجاع كلّ شيءٍ إِليه، وهو قلبٌ مشرَعٌ على بؤس الآخرين، متعاطفٌ معهم، ويدٌ ممدودةٌ إليهم.

وُلد يسوع، وعاش، ومات فقيرًا، فقر من لا حماية له، ومَن تحكم الظروف حياته. قرارٌ إراديٌّ جعله يولد خارج منزل ذويه، ورقّة حال والديه أَوصدت دونهما أبواب النزل، فكان مهده مذودًا في زريبةٍ. ومنذ طراوة عوده، عمل بيديه، كاسبًا لقمته بعرق جبينه، وبكدّ ساعديه. وفي حياته العلنيّة عاش بفضل مساعدة أَصدقائه، ولم يكن له بيتٌ ولا مالٌ.

خَبَر الجوعَ، والعطش، والتعب، واستضافة الغرباء له، وإيصاد الأبواب في وجهه. لم تُغرِه الثروة، يومًا، وأَولى المحرومين، والمرضى، والمهملين كلّ اهتمامه. وحيثما مضى كانت تحاصره صيحات البؤس، والسقم، والهوان، فيندفع إلى تلبيتها.

حياته العلنيّة كانت كلّها ارتحالاً وتشرّدًا. ورسالته نشرها على الطرقات وفي الساحات. وإذا ما توقّف فتوقّفه تأهّبٌ لانطلاقٍ جديدٍ، ولا عهد له بإقامةٍ ثابتةٍ. إنّه ضيفٌ حيثما حلّ، ولا مقرَّ له. وهو يمضي خفيفًا، رشيقًا، صفر اليدين، لا يستصحب زادًا، ولا ثوبًا إِضافيًّا، لأَنّه يأبى أن يعيق مسيرته شيءٌ، وأَداء رسالته يحثّه ويستعجله.

ولكنّه رفض وجود بشرٍ فُرض عليهم الحرمان فرضًا، فتمثّل في كلّ محرومٍ، وعدّ كلّ عمل رحمةٍ يُغيث فقيرًا أو ملهوفًا، إحسانًا شخصيًّا له. وأكّد أنّ كلّ تقصيرٍ بحقّ محتاجٍ هو سبب إدانةٍ أبديّةٍ. لم يُشِدْ بالفاقة والحرمان لذاتهما، فالحرمان القسريّ يعني الظلم، وانغلاق القلب، والعبوديّة. وحرّض على مكافحته بالمشاركة والبذل السخيّ. أمّا الفقر الطوعيّ فرأى فيه الوسيلة المثلى لتحرير النفس من قيود الأرض، والسموّ نحو الله، والاعتماد الكلّيّ على الآب السماويّ، والتفرّغ للخدمة.

البحبوحة تسجن، والفقر الطوعيّ يولّد الحكمة، ويحرّر من سيطرة الخيرات الأَرضيّة، ويطهّر النفس، ويُعدّ للخيرات الروحيّة.

والفقر الأَسمى الذي مارسه يسوع كان، أيضًا، فقرًا داخليًّا، وتضحيةً بكلّ مظاهر الألوهة التي كانت تخوّله السيطرة على العالم. فهو الذي كان واعيًا لألوهته، ولمشاركته الآب في الجوهر، هو الذي قال: «**من رآني رأى الآب**» (يوحنّا ١٤:٩)؛ «**أنا خبز الحياة**» (يوحنّا ٦:٤٨)؛ «**أنا نور العالم**» (يوحنّا ٩:٥)؛ «**أنا القيامة والحياة**» (يوحنّا ١١:٢٥)؛ «**أنتم تدعوني المعلّم والربّ، وأَنتم على صوابٍ، لأنّي كذلك**» (يوحنّا ١٣:١٣)؛ «**أنا الطريق والحقّ والحياة، فلا أَحد يأتي إلى الآب إلاّ بي**» (يوحنّا ١٤:٦) هو نفسه لم يتوانَ عن عزو كلّ قدراته، وإِرادته، وتعاليمه، لأَبيه السماويّ، فقال:

«**لا أَطلب مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني**» (يوحنّا ٥:٣٠).

«**إنّ تعليمي ليس من عندي، بل من عند الذي أَرسلني**» (يوحنّا ٧:١٦)؛

«**أنا لا أَطلب مجدي الخاصّ، فإنّه يوجد من يطلبه ويحكم**» (يوحنّا ٨:٥٠)؛

«**لا أَحد يستطيع أن يأتي إليّ إذا لم يجتذبه الآب الذي أَرسلني**» (يوحنّا ٦:٤٤)؛

«**إنّني لم أتكلّم من عند نفسي، بل الذي أَرسلني قد أَوصاني بما أقول وأعلن**» (يوحنّا ١٢:٤٩)؛

«**إنّهم يعلمون الآن أن كلّ ما أَعطيته لي هو منك**» (يوحنّا ١٧:٧)...

وكان يسوع قد أَعلن لتلاميذه: «**إنّي قد أُعطيتُ كلّ سلطانٍ في السماء وعلى الأرض**» (متّى ٢٨:١٨)، ولكنّه لم يستخدم هذا السلطان في سبيل التسلّط، واكتناز الثروة، بل إنّ ربّ كلّ شيءٍ، لم يكن يملك على الأَرض شيئًا.

وهو لم يؤتِ تلاميذه أيّة ثروةٍ أو أيّ رفاهٍ، بل أهاب بهم أن «**اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم**». مصيرهم، بعد قيامته، سيكون استمرارًا لمصيرهم في أثناء وجوده معهم، فوق غبار الطرقات، وفي التشرّد، وفي مواجهة العداء أو اللامبالاة. كانوا يملكون رسالةً جسيمةً، ولا يملكون وسائل فرضها.

يسوع ابن الله، وغنيٌّ بكلّ غنى الله، غنيٌّ بلا حدودٍ، لأنّهُ شريكٌ، منذ الأزل، بملء الألوهة. ومع ذلك يعزو كلّ غناه للآب.

ويسوع الذي ينعم بغنًى إلهيٍّ لا محدودٍ، يستجدي حبّ البشر، وإيمانهم. ولكنّه لا يستجديهما من أجله، بل من أجلهم، ومن أجل خلاصهم، وترقّيهم.

وفضلاً عن ذلك، ضحّى يسوع بوقته وبعمره، ووقفهما بالكامل على احتياجات الآخرين وخدمتهم. منذ الفجر يحاصرونه، فينصت إلى توسّلاتهم، ويشفي مرضاهم، ويرشدهم إلى الملكوت؛ وفي الآن عينه، يصدّ هجمات خصومه، بحيث لا تتسنّى له سانحةٌ لتناول لقمة طعامٍ. ويستمرّ تدفّق المحتاجين عليه حتّى ساعاتٍ متقدّمةٍ من الليل. وإثر سُوَيْعاتٍ يقضيها معتكفًا يناجي أباه، ينطلق إلى أماكن أُخرى، كي يتيح لآخرين الإفادة من تعاليمه وأشفيته. وفي النوبة الوحيدة التي التمس فيها فسحة راحةٍ واستجمامٍ له ولتلاميذه، كان جمعٌ كثيفٌ في انتظاره، فرقّ لحالهم، وانصرف لخدمتهم.

حتّى الصلاة لم تكن له فسحة استجمامٍ وحلمٍ. بل كانت فرصة تركيزٍ كثيفٍ ولملمة قواه من أجل إكساب عمله خصبًا أوفر، واستعجال حلول الملكوت.

وقد تجلّت كثافة فقر يسوع في موته، فعند أقدام صليبه وقفت أُمّه المفجوعة، وبضع نسوةٍ ينتحبنَ، ولا يملكنَ لعزائه سوى دموعهنّ، وحبِّهنَّ. غير أنّ حزنهنّ كان يضاعف آلامه. واحدٌ من تلاميذه الاثني عشر كان قد باعه بثمنٍ بخسٍ، وزعيمهم أنكره، رعدةً وجبنًا، والآخرون لاذوا بالفرار، ما خلا واحدًا. لم يحتجّ أحدٌ على صلب بريءٍ، ولا طافت مظاهراتٌ تأييدًا له ودفاعًا عنه، مع كلّ ما أغدق من إحسانٍ. وحتّى أبوه السماويّ، الذي أنفق كلّ لحظةٍ من مسيرته الأرضيّة منفّذًا مشيئته، بدا، بصمته، وكأنّه تخلّى عنه، وإلاّ لكان حال دون صلبه، ولأخزى

خصومه، ولأَثبت رفعة شأن ابنه، ومقامه عنده. وهكذا مات يسوع في عريٍ وإملاقٍ تامّيْن، موت من لم يخلّف شيئًا، موت من فشل، وثبت بطلان عمله كلّه.

وقد ارتضى يسوع كلّ هذا العري، لأنّه، منذ مستهلّ رسالته حتّى نهايتها، حرص على تجنّب الضغط على مشاعر البشر، واغتصاب قناعاتهم، وأَبى السيطرة بالإِدهاش، والمهارة، والتخويف. لقد كانت كلّ كتائب السماء، وقدرات المادّة والروح بتصرّفه، ولكنّه اقتحم عالم البشر بقوّة فقره، مؤمنًا أنّ كلّ من انتمى إلى الحقّ يسمع صوته.

وما أقلّ أَهل الحقّ بين البشر!

ولم يستخدم يسوع قيامته المعجزة كي يخزي خصومه الذين شمتوا به، وتحدّوه بأن يخلّص نفسه وينحدر عن الصليب. لم يستخدمها كي يعلن انتصاره، فيسوع الناهض من الموت هو نفسه يسوع بيت لحم والجلجلة، الذي يختار أَصدقاءه بين الصغار والفقراء، ويعقد معهم علاقات أُلفةٍ وبساطةٍ، ويتجسّد فيهم.

لقد صار يسوع فقيرًا، وعاش متجرّدًا كي يغتني البشر بفقره، على حدّ قول الرسول بولس: «**إنّه، هو الغنيّ، قد افتقر من أَجلكم، كي تغتنوا، أَنتم، بفقره**» (٢ كورنثس ٨: ٩). وقد شاء أن يهب المؤمنين به من القدرة بقدر ما يلتزمون به من فقرٍ، وضآلة الوسائل المادّيّة. وخير مثالٍ لهذا الفقر الخَصْب هو الرسول بولس الذي كان ينوء بوقر مسؤوليّة الكنز الثمين الموكل إليه، كنز «إنجيل مجد يسوع». إنّه، كلّ يومٍ، مضايقٌ من كلّ جانبٍ، مضطَهدٌ ومهدّدٌ، ينهض بأَعمالٍ خارقةٍ، وينعم بآلاء فائقةٍ، ولكنّه يصطدم، كلّ لحظةٍ، بوهنه. إنّه يبتهج بما يمنّ عليه الربّ من نِعَمٍ، وبما أُعطيَ من قدرةٍ على نشر الإنجيل، ولكنّ كلّ ذلك يزيده شعورًا بضعفه، واعترافًا به.

الفقر الذي ابتغى يسوع أَن يكون له نموذجًا بأسلوب حياته ليس فقرًا مادّيًّا فحسب، ففي مَثَل الفرّيسيّ والعشّار، ربّما كان العشّار هو الأكثر امتلاكًا مادّيًّا.

والهدف من الفقر الطوعيّ الذي دعا إليه هو التحرّر من كلّ القيود التي تعيق ترقّي النفس، وتحول دون الانصراف للخدمة. هو الوقوف موقفًا واحدًا من البحبوحة والحرمان. وهو المكوث في وضعٍ من الانتظار والرغبة، والجاهزيّة لعمل النعمة، وعدم التشبّث بأيّ تملّكٍ، والثقة التامّة بالآب، والاعتماد المطلق عليه.

إنّ الإحساس بالمرارة الناجم عن الحرمان، واشتهاء المال، وهَوس تكديسه، والنقمة على المالكين، كلّ هذه المشاعر تناقض الفقر الإنجيلّي، بقدر ما تناقضه قسوة القلب، والعُجْب بالذات، والكبرياء، وادّعاء أنّ الثروة تغني عن الله.

إنّ الفقراء المتمثّلين بيسوع يعلنون لنا الله، ويقودوننا إليه، إذ إنّهم يساعدوننا على الانعتاق من عاداتنا الراسخة، وأوهامنا، ومخاوفنا من اللاأمان والمغامرة، ومن تشبّثنا برفاهنا. أَمامهم تتلاشى أَوهامنا، ويتّضح لنا زيف الصورة التي رسمناها لذواتنا، كما يتّضح فراغنا الأَجوف، وجهلنا. وحينئذٍ إن كان لا يزال في قلوبنا أثرٌ للكرامة، لاَنتابنا قلقٌ روحيٌّ ممضٌّ، ولشعرنا أنّنا مدانون، ولشرعنا ندين ذواتنا، وندنو من سماع صوت الحقيقة.

إنّ فرز يسوع للبشر، في يوم الدينونة، وفقًا لموقفهم من المحرومين، والمنبوذين، والمهمّشين، إنّما هو دليلٌ على خطورة واجب المبادرة إلى تخفيف معاناتهم، والسعي إلى إزالتها. ومن ثمّ فهؤلاء خليقون بأن يصبحوا لنا دربًا إلى الخلاص إن نحن أَحسنّا وفادتهم، ولبّينا احتياجاتهم. وهم كفيلون بأن يودوا بنا إلى الهلاك، إن رددناهم بلا رحمةٍ، أو أغفلناهم بلامبالاةٍ. إنّنا، من خلالهم، نستطيع بلوغ الله، فهم صورته. لا بل يتعذّر علينا حبّ لله حبًّا كاملاً صادقًا، إلاّ من خلال حبّنا لهم.

يسوع فقيرٌ، وهو عادلٌ، لأنّه قريبٌ من كلّ فقيرٍ. إنّه يثور على كلّ ظلمٍ، ويتعاطف مع كلّ بؤسٍ. ففي كلّ بؤسٍ وظلمٍ يتجلّى وجه المصلوب المضرّج بالدماء. ومَن تأمّلَه، ولو مرّةً واحدةً، لما عاد يُطيق ظلمًا، ولبذل كلّ طاقاته، وكنوز حبّه، لمكافحة كلّ ضروب الظلم.

١٠٣٥

تواضُع يسوع

إيليّا التمس مجد الله على قمّة سيناء. حريقٌ جسيمٌ شبّ، وعاصفةٌ هوجاءُ ثارت، والأَرض زُلزلت. ولكنّ الله لم يظهر في عنف عناصر الطبيعة. وبغتةً هبّت نسمةٌ رقيقةٌ فوق القفر، لمس النبيّ في ثناياها وجود العليّ.

كذلك توقعّ اليهود مجيء المسيح وسط كوارث طبيعيّةٍ هائلةٍ، وتهاوي كواكب. ولكنّه جاء طفلاً هشًّا، مثل كلّ أطفال العالم. كانوا ينتظرون محاربًا جبّارًا يهبط من السماء شاهرًا سيفه، كي يُخضِع أعداء اليهود ويبيدهم، أَو يستعبدهم، فجاء نجّارٌ وديعٌ، دعا إليه جميع المتعبين والمقهورين. توقّعوا مسيحًا مسيطرًا، تجلّيًا رهيبًا لإلهٍ كلّيّ القدرة. ولكنّ الأرض لم تشهد سوى مجيء إِنسانٍ متواضعٍ، مرتدٍ «لحمًا ودمًا» بشريَّين.

بتجسّده لم يفقد شيئًا من أُلوهته، ولكنّه عزا كلّ قدراته إلى أَبيه.

وعاش متواضعًا مع أَنّه سيّد كلّ شيءٍ. عاش في الهشاشة، ، مع أنّ كلمةً منه كانت تشفي أشدّ الأسقام استعصاءً، وتُنهض الموتى، وتطرد الأرواح الشرّيرة، وتخرس العواصف، وتوقف النسغ في الأَشجار.

تألّم على الصليب، ولكن في الساعة التي ارتآها، بالطريقة التي ارتضاها. ومات، غير أنّ القائد الرومانيّ المشرف على صلبه اعترف به إلهًا، وهو معلّقٌ على خشبة العار، مثلما اعترف به الرعاة والمجوس، وهو رضيعٌ، راقدٌ في مذودٍ. وسُجّي في لحدٍ، ولكنّه دحرج الحجر الذي كان يسدّه، وانبعث منتصرًا.

أَحبّ بلا حدودٍ، ولكنّه لم ينحطّ. وعندما انحنى كي يغسل أَقدام تلاميذه، حلّق إلى أَسمى مراقي السموّ، وعلّم البشر الدرب الوحيد المؤدّي إِلى الحرّيّة المحرّرة، ولقّنهم أنّ العظمة خدمةٌ.

ولكي يخلّد وجوده بين البشر، ارتضى الحضور في أعراض الخبز والخمر، ووضع نفسه بتصرّف كلّ متعبّدٍ، وكلّ خاطئٍ.

يَسُوعُ حُرٌّ وَمُحَرِّرٌ(*)

تجسّد يسوع كي يحرّر البشر من عبوديّة الشرّ، وسار في طليعة العالم، نحو سماواتٍ جديدةٍ، وأَرضٍ جديدةٍ. وقاد الإنسان من مملكة القَدَر إلى مملكة الحرّيّة.

لم يأتِ لكي يحرّر اليهود من المحتلّ، بل لكي يحرّر كلّ إنسانٍ من قوى البغض. وابتغى جعل دمه المبذول عامل جمع البشر أَجمعين، في أُخوَّةٍ واحدةٍ.

أُلوهته توفّر له حرِّيّة الحبّ، وبالتالي القدرة على أَلاّ يكون، فقط، في العلى، بل على أن يكون، أيضًا في الأَعماق؛ أن يكون كبيرًا، وأن يكون صغيرًا؛ أَن يكون هو ذاته، وأن يكون، في الآن عينه، مع سواه ومن أَجل سواه، وأخيرًا في أن يهب سواه ذاته. ذلك الذي لا تسعه السماوات يستطيع الإقامة في الأَدنى والأَصغر من غير أن يدمّره ويفجرّه. في العهد القديم كانوا يقولون: لا يسع الإنسان أن يرى اللّه ولا يموت. ولكن عندما تجلّى اللّه تجلّيًا حميمًا بمجيئه إلينا، وأصبح واحدًا منّا، أَدركنا أَنّنا، برؤيته ولمسه، نظفر بالحياة.

يسوع عُصم من الخطيئة، ولكنّه أَخذ على عاتقه عواقب خطايانا. ولئن كان الإِنسان مدعوًّا إلى التحرّر من البؤس، وتحرير الآخرين منه، إلاّ أنّ الخطيئة تحول دون ذلك. فالخطيئة هي تمجيد الذات على حساب الآخرين، وهي أنانيّةٌ، وتبريرٌ للذّات، ورفضٌ للمشاركة، والخدمة والبذل. إنّها عبادة أَوثانٍ، أَي مطلقاتٌ زائفةٌ يبتدعها الإِنسان بنفسه. وهكذا كان تاريخ البشريّة: دوس الأَقوياء للضعفاء، وسحق الضخام للهزيلين، وتراكم آلام سواد البشر.

وجاء تجسّد يسوع تحريرًا لنا: فذاك الذي كان مقيمًا في النور والمجد وافى لكي يقيم مع الصغار والفقراء والمهانين. وُلِد طفلاً هشًّا، في أُسرة كادحين. وكدح بيديه.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «حرّيّة يسوع»، صفحة ٥٤١.

ونشأ في مجتمعٍ محتلٍّ متوتّرٍ، وخَبَر الجوع، والجهد، والاتّهام، والمعارضة، ونَبْذ السلطات الدينيّة، وأخيرًا أكثر أوضاع المتّهمين مهانةً: التعرّض، بلا مقاومةٍ، للشتم، والضرب، والجلد، ولعذاب الصلب المخصّص للعبيد. ولا ريب أنّه ارتضى كلّ ذلك مشاركةً لأعدادٍ غفيرةٍ من المظلومين الذين، عبر العصور، سيُضرَبون، ويُعدَمون، ويُصلبون، ظلمًا وافتئاتًا.

لقد رفض اسم «ابن داود» الذي يتسّم بصبغةٍ ملكيّةٍ، وآثر اسم «ابن الإنسان». رفض مصير المسيح المنتصر، وآثر التحرير بالصليب، وقهر البؤس باحتماله.

كان تجسّده انحدارًا أفضى بالأزليّ إلى الموت. ولكنّ الذي هبط إلى الأَسفل هو الذي ارتقى إلى الأعلى، وملأ كلّ شيءٍ.

آدم هبط لأنّه ابتغى منافسة الله. ويسوع الإله هبط إلى وضع إنسانٍ لكي يخلّص أَبناء آدم.

ونحن وُعدنا بمجد يسوع شرط أن نتألّم معه، وأن نحبّ كما هو أَحبّ، ونغفر كما غفر، ونعطف كما كان يعطف. طيلة مسيرته الأرضيّة لم يسعَ يسوع إلى التأثير على البشر بقوّة قدراته اللامحدودة. بل إنّه، على نقيض ذلك، تضاءل وتصاغر في نظر البشر، وبذلك لم يغتصب حرّيّتهم. فهو لا ينشد عبيدًا، بل أَبناءً لله، وإخوةً متأهّبين لحبّه، بمعزلٍ عن أيّة غايةٍ مادّيّةٍ، ولاقتفاء خطاه متحدّين مقاومة العالم. فلو هو تجلّى في مجده، وتعذّر على أيٍّ كان إنكاره، لكان في ذلك إكراهٌ هو يكرهه، لأنّه يدعو إلى نقيضه: «**ستعرفون الحقيقة، والحقيقة تحرّركم**».

وقد كتب رينان: «المسيحيّ الحقّ هو المتحرّر من كلّ قيدٍ. إنّه، في هذه الدنيا، منفيٌّ. ولا يحفل بمن يسود الأرض سيادةً عابرةً. فالأرض ليست موطنه، وإنّما الحرّيّة هي حقيقته».

إكرامًا لحرّيّة الإنسان، سجن يسوع ذاته في جسد فانٍ، وجعل نفسه «دون الآب»، وخَبَر أَوهان الجسد وحدوده، وأَخفى عن ذاته المستقبل، وتحمّل، في ذاته، كلّ آلام العالم. ارتضى أن يكون نجّارًا فقيرًا في قريةٍ مُغفَلةٍ، وعاش وسط قومٍ جاهلين يحملون، غالبًا، وصمة الخطيئة، وأَنفق وقته مع البائسين، والمهمّشين، ورجالٍ ونساءٍ سيّئي السمعة...

ولطالما جهد في تحطيم القيود الشرعيّة والتقليديّة التي استعبد بها زعماء اليهود الدينيّون ضمائر الشعب، وباسمها نبذوا سواد العامّة، وأدانوهم إدانةً مبرمةً، وشملوا يسوع، أيضًا، بهذه الإدانة، لأنّ دعواته التحريريّة كانت تهدّد مواقعهم، ومراكزهم، ومصالحهم، وجمودهم الذي شاؤوه أبديًّا لا يتزحزح. وكان الصليب عقاب ثورته التحريريّة.

أَرادوه محرّرًا لإسرائيل من ربقة الاستعمار الرومانيّ. ولمّا برهن عن عدم اكتراثه بشؤون إسرائيل وسياستها، وأنّه إنّما جاء كي يحرّر كلّ إنسانٍ من شهواته، ونوازع الشرّ التي تكبّله، نكّلوا به وأعدموه.

لقد عقد علاقاتٍ مع قومٍ لم يعرفوا، سحابة حياتهم، سوى المرض والفقر، والنبذ، والازدراء، والحرمان، ولم تمتدّ يدٌ لعونهم؛ قومٍ يصارعون جَوْر القَدَر، «مسكونين»، سُلِبوا سيادتهم على أَجسادهم؛ أصحاب عاهاتٍ تطاردهم لعنة ذويهم، أو يكفّرون عن ذنوبٍ لا علم لهم بها. جميعهم ضحايا قَدَرٍ غامضٍ، خبيثٍ، فضلاً عن كونهم ضحايا مجتمعٍ يهزأ بهم، ويعاقبهم، و ينفيهم، خشيةَ انتقال عدوى بؤسهم إليه، في حين كان عليه أَن يساندهم وينقذهم. وكان كلام يسوع، بفضل كثافة العلاقة التي عقدها مع أُولئك المنبوذين، يوليهم الرغبة والقدرة على تحطيم قيود القدَر التي تكبّل حرّيّتهم. وفي الآن عينه، كان وضوح تعليمه المحرِّر يعتق العقليّات والعادات الوبيلة الموروثة من شياطينها، ويطيح بالعنف الذي يولّده الخوف، والذي يدفع الجماعات البشريّة إلى اتّقاء القدَر بتقديمها، على هياكله، كباش محارق.

من خلال تعاليمه وأَعماله، كان ليسوع وجه «نبيٍّ»، لأنه أَتاح لجميع البشر مستقبلاً مختلفًا، مشرعًا على التواصل الحرّ والأَخويّ بين الجميع، ولأنَّه كان يذود عن حياض المقهورين. ويخاطب من لا مُحاورَ لهم، ويعيد الكلام لمن سُلبوه.

كانت تحدوه حرّيّةٌ إلهيّةٌ مطلقةٌ، فيقول كلّ ما يودّ قوله، ويفعل كلّ ما يرى ضرورة فعله، في الوقت الذي يراه مناسبًا، مزريًا بحرتقات علماء الشريعة، وترّهات الفرّيسيّين المرائين، الذين يسحقون الإنسان بحجّة الدفاع عن حقوق الله، وهو عالمٌ أنّ بعضًا من أقواله وأَفعاله سيقوده إلى الصليب.

وحرّيّته لا تتجلّى من خلال نقدٍ نظريٍّ للنظم الشائعة، بل من خلال مخالفتها كلّما اقتضت واجبات المحبّة، من خلال ترحيبه بمن يفتقرون إلى عونه، متخطّيًا الحواجز التي نصبتها التقاليد.

عندما كان يسمّي نفسه «**ابن الإنسان**»، كان يحرّر الإنسان. وعندما كان يدعو إلى حبّ القريب كالذات، كان يحرّر الإنسان. وعندما اختار صيّادين ليكونوا رسله، كان يحرّر الإنسان. وعندما مات لخلاص الجميع بلا تمييزٍ، كان يحرّر الإنسان.

ومن الجلجلة والصليب تدفّقت حرّيّة البشر.

* *

إنجيل يسوع لهبٌ يحرق مجتمعًا مستكينًا، بليدًا. وهو قصيدةٌ نبراتها تولّد الأَحلام. إنّه صرخة ثورةٍ ورجاءٍ، وهو زاخرٌ بالتفجّرات الساطعة البهجة. إنّه نقيض عظةٍ حكيمةٍ، أو كتاب أَخلاقٍ، أو برنامجٍ سياسيٍّ أو اجتماعيٍّ. وإن كان من شأن القصيدة إِطلاق الأَحلام، وخلق واقعٍ أصدق وأَجمل من الواقع الراهن، فحينئذٍ، نعم، الإنجيل هو قصيدةٌ، ولا بدّ من التفاعل معها.

١٠٤٠

يَسُوعُ الثَّائِر (*)

لم يكن له من العمر سوى أربعين يومًا عندما قال فيه سمعان الشيخ: «**إنّ هذا الصبيّ قد جُعل لسقوط كثيرين في إسرائيل أو لنهوضهم، وليكون آية مقاومةٍ**» (لوقا ٢: ٣٤).

ولمّا شرع يسوع يعلّم، أعلن أنّه ما جاء ليُلقي على الأرض سلامًا، بل سيفًا. ولم يكن سيفه صارم قتالٍ وطعانٍ، بل سيف ثورةٍ داخليّةٍ، وأداة بترٍ لعوامل الشرّ، وقطيعةٍ مع كلّ ما ومن يحول دون حرّيّة أبناء الله، والالتزام بتعاليم الإنجيل.

وزفّ مبادىء بشراه إلى العالم، فإذا بها «ثورةُ قِيَمٍ»، تحمل من الأنباء السعيدة، بقدر ما تحمل من عوامل تدمير البنى الزائفة، المزلزلة.

فقد غبط من ينبذهم العالم، أو يشفق عليهم إن هو كان منصفًا، وأنذر بالويل والثبور من يعدّهم الناس محظيّين، مباركين، وأسيادًا سعداء، إن خوَت أحشاؤهم من الرحمة.

ثمّ إنّه، بتؤدةٍ، ولكن بدأبٍ وإصرارٍ، راح يزعزع أركان العهد القديم، ويغربل، بأقواله وأفعاله، قراءة اليهود للشريعة بما يشوّهها، ويفسد روحها، وكلّ ما ينجم عن هذه القراءة من تجاوزاتٍ، وممارساتٍ خاطئةٍ، وعبادةٍ زائفةٍ، وعلاقاتٍ اجتماعيّةٍ شوهاء، وتزويرٍ لمشيئة الله.

وبجرأةٍ كان موقنًا أنّ الصليب سيكون عاقبتها، شنّ حربًا دائمةً على الجمود والرياء، وعلى الوضع القائم وأربابه: علماء الشريعة، والكهنة، والأغنياء، والمحظيّين، وعلى جميع المعتدّين بمالهم، وعلمهم، وسطوتهم، والذين بسببها، وحفاظًا عليها يقهرون الصغار والضعفاء، وينبذونهم.

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «يسوع الثائر»، صفحة ٥٤٦.

وسرعان ما اتّضح لعلماء الشريعة أنّ قشور هذه الشريعة قد أَخذت تتشقّق، كي تُسفر عن طائرٍ جديدٍ، كفيلٍ بتحطيم العادات الذهنيّة التي يتمترسون خلفها، والأَمجاد التي يرفلون بها. وتفاقمت هواجسهم، عندما أَعلن يسوع، ببساطةٍ موغلةٍ في الجرأة: «**إنّ ابن الإنسان هو ربّ السبت أيضًا، وإنّه لم يأتِ ليدعو الصدّيقين، بل الخطأة**». لم يأتِ من أجل من يدّعون أنّهم صدّيقون، وليسوا كذلك، ولا يُقرّون بخطئهم، بل يتشبّثون به. فهؤلاء لا رجاء منهم. ولم يأتِ من أَجل من يكتنهون روح الشريعة، ويلتزمون به، فهؤلاء سيلتقون يسوع، لا محالة. أمّا الآخرون الذين يكافحون في حمأة هذا الوجود، والذين ينبذهم مدّعو الفضيلة، وينفرون منهم، ويسحقونهم، الذين يعترفون بوهنهم وقذارتهم، فمن أَجل هؤلاء جاء يسوع مخلّصًا.

بسبب كلّ ذلك، وبعد أَقلّ من ثلاث سنواتٍ، مات يسوع مصلوبًا، موتًا مهينًا، ميتة العبيد المجرمين. ولكنّه في غضون تلك الفترة المغرقة في القِصَر، قَلب العالم رأسًا على عقبٍ، وأَمسى مركز التاريخ. تغيّرت معايير القِيَم، وتبدّلت النظرة إلى الوجود، وارتدى العالم بُعدًا آخر.

نظير جميع الذين يؤثرون العمل بمشيئة الله على الخضوع للشرائع البشريّة، وجميع الذين يرفضون التسليم بأنّ التوزيع الراهن للسُّلطات والثروات هو توزيعٌ نهائيٌّ، لا يجوز المسّ به، وجميع الذين يؤمنون بأنّ البشر أَجمعين متساوون في الكرامة، نظير كلّ هؤلاء، بل أَكثر منهم، كان يسوع خطرًا على الأَنظمة القائمة.

وقد سما فوق كلّ الفئات والأَحزاب، بل فوق مفهوم اليهوديّة، ولذلك عاداه كلّ من يملك سُلطةً.

أخذوا عليه مقاسمته سواد الشعب طعامهم ببساطةٍ، على غير تظاهرٍ بصومٍ أَو بتقشّفٍ، ومجالسته من يعدّهم المتزمّتون خطأةً ونجسين. وهو تحدّى منتقديه بترديده قول النبيّ: «**إنّني أُريد رحمةً لا ذبيحةً**»، مسفرًا عن رسالته: «**أنا ما جئتُ لأدعو الأَبرار، بل الخطأة، إلى التوبة**».

لقد جاء لكي يعلن عن عالمٍ جديدٍ، حيث يستعيد من نبذهم مجتمعهم كرامتهم السليبة، وحيث **أخيرون يصيرون أَوّلين، وأَوّلون يصبحون أَخيرين**.

تصدّى يسوع لأَكثر المفاهيم السائدة في زمانه قدسيّةً، فزعزعها، وعرّاها من كلّ ما شوّهها.

تصدّى لمفهوم **الله**: فلم يعُدْ هو ذلك الديّان الرهيب المخيف الذي يموت من يراه، ولا يجوز التلفّظ باسمه، الله المتواري عن شعبه في قدس أَقداسٍ لا يلجه سوى رئيس الكهنة، مرَّةً واحدةً في السنة؛ الذي لا يتظاهر إلاّ من خلال الرعود والبروق؛ ليس إلهًا اختار شعبًا واحدًا دون سائر خلقه، وأولاه كلّ حُظوةٍ وامتيازٍ، وأَطلق يده في استعباد البشر وإذلالهم.

إِله يسوع هو أبٌ محبٌّ عطوفٌ، أَبٌ شاملٌ، لا يميّز أحدًا من أَبنائه عن الآخرين؛ وقد دعا إلى مخاطبته بدالّةٍ وثقةٍ، بدُعاء «**أبانا**».

إله يسوع لا تخدعه المظاهر، ولا تغريه الذبائح، فهو إِله رحمةٍ، ولا يريد تقدمةً دمويّةً، بل تراحمًا بين أَبنائه.

إنّه إِلـه حبٍّ وصفحٍ بلا حدودٍ، إلهٌ يدعو إِلى حبّ الأَعداء أَنفسهم، ويُغدق آلاءه وسخاءه على الجميع بلا استثناءٍ.

ليس إلهَ حفظ نظامٍ، بل هو إِلهٌ لا يني يخلق، ويُبدع، ويدعو أَبناءه إلى الخلق، وإِلى مبادرات الحبّ، والولادة الجديدة باطّرادٍ.

لا يريد إيمانًا ينقلب قيدًا، لأَنّه لا يريد عبيدًا، بل يبتغي أَبناءً أَحرارًا.

لقد أَعلن يسوع رؤيةً أُخرى لله، رؤيةً جريئةً مدهشةً، مزعجةً للكثيرين، رؤيةً تختلف عن رؤى جميع من سبقوه، رؤية العارف: «**أنتم لا تعرفون الله، وأمّا أَنا فإنّي أَعرفه**» (يوحنّا ٨: ٥٥).

هذه الرؤية جرّدت **الهيكل** من امتيازاته الزائفة، ومن احتكاره مركز العبادة، ومن فاعليّة الأَضاحي. فالله لا يُسجَن: إنّه روحٌ يسري في كلّ مكانٍ، ولا يرتاح إلاّ في قلوب المؤمنين الزاخرة بالرحمة، ولا ترضيه الذبائح والأَضاحي التي مجّها، واقتضى، بديلاً عنها، أَفعال رأفةٍ ومحبّةٍ. وقد عبّر عن موقفه هذا، عندما أَخذت الدهشة بألباب تلاميذه وهم يتأمّلون زخارف الهيكل وتُحفه المعماريّة، في حين توقّفت أَنظاره على أَرملةٍ مسكينةٍ أَلقت في صندوق التقادم فلسَيْن، انتزعتهما من عَوَزها، فأكبر تضحيتها، وقيّمها أَكثر من كلّ بدائع الهيكل، ومن تقادم الأَغنياء المزهوّين بمالهم وبذواتهم.

ولذلك لم يتحرّج يسوع من الإشارة إلى ذاته قائلاً: «**انقضوا هذا الهيكل، وأنا أُقيمه في اليوم الثالث**». فقد بات هو هيكل الله الحيّ. وبات قلب كلّ مؤمنٍ محرابًا مقدّسًا.

ولم تعد **العبادة** مجرّد طقوسٍ وأَضاحٍ، بل، كما قال يسوع للمرأة السامريّة، أَتت، معه، الساعة التي فيها **العابدون الحقيقيّون يعبدون الآب بالروح والحقّ**.

بطرده باعة الهيكل نوبتَيْن، لم يتعرّض يسوع للباعة والصيارفة أَنفسهم. فوجودهم كان ضروريًّا لتتميم الطقوس. ولكنّه كان يتصدّى لتلك الطقوس ذاتها، وللممارسات التي غالت في المظاهر، وخوت من الروح، ولسدنة الهيكل الذين أَحلّوا التجارة محلّ العبادة، وللهيكل الذي فقد وظيفته.

بتعرّضه للهيكل وعبادته قوّض يسوع دينًا مشوّهًا، ودفع ثمن فعله هذا حياته. ولكن، ما انقضت ثلاثة أيّامٍ على دفنه، حتّى وُلد دينٌ جديدٌ، وهيكلٌ جديدٌ، وحياةٌ جديدةٌ في الله. وسيتّضح، يومًا إثر يوم، وإلى ما لانهاية، أَنّ مسكن الله الحقّ هو يسوع. ففي ذاته، وفي كلامه، وفي أَفعاله، يتجلّى حضور الله.

وفي هذا السياق عينه تصدّى يسوع **للشريعة**، لا تلك التي أَرادها الله، بل تلك التي صاغها الكتبة والفرّيسيّون، من تراكم فتاوى الرابّيين، وأَسبغوا عليها من القدسيّة الزائفة ما جعلها، في نظرهم، أَقدس من مشيئة الله نفسه. وقد شهدنا، على مدى صفحات هذا الكتاب، كم كان يسوع حربًا على كلّ ما انطوت عليه من زيفٍ وتشويهٍ، وكم ناضل لتحطيم قشرة حرفها القاتل، ولإشراعها على روح الله، ولاستبدالها بشريعة حبٍّ شاملٍ منفتح على البشر أَجمعين. ولم يتحرّج من الظهور بمظهر مشرّعٍ جديدٍ، أَصيلٍ، نهائيٍّ، لمّا أَعلن: «**سمعتم أنّه قيل للأقدمين... أمّا أنا فأقول لكم**...». وهل يجرؤ على مثل هذا القول سوى «ابن الله»؟

وقد تصدّى يسوع خاصّةً، وبقسوةٍ، لاثنين من بنود الشريعة كانا يحظيان بأعظم تقديسٍ: **السبت، والتطهّر**.

السبت أَراد منه الله أن يكون يوم عبادةٍ وابتهاجٍ. وهم جعلوه يوم امتناعٍ عن كلّ عملٍ، حتّى عمل الرحمة. وهل من عبادةٍ خيرٌ من الرحمة؟ وقد تعمّد يسوع إِجراء الكثير من أَشفيته في أَيّام سبتٍ، كي يحطّم صنم تلك الشريعة الشوهاء، ولكي

يثبت أنّه، هو، ربّ الحياة، وقد جاء كي يهب الحياة بوفرةٍ. ومن ثمّ، كان للحياة، عنده، الأوّليّة على السبت نفسه، إذ ليس لديه أعظم من الإنسان شأنًا، ولا معنًى للشريعة إن لم تكن وسيلةً لإنماء الإنسان وترقيته. ولذلك أعلن: «**السبت وُجد من أجل الإنسان، ولم يوجد الإنسان من أجل السبت**». هذا ما أدركه الرسول بولس بعمقٍ، وأوجزه بقوّةٍ، عندما كتب إلى الرومانيّين: «**من أحبّ القريب، فقد أتمّ الشريعة**». لقد جعل يسوع من الحبّ مفتاح قراءة الشريعة، وتخطّاها بحيث لم يعد السبت حاجزًا أمام مبادرات الحبّ. أجرى أشفيةً في وَضَح السبت، ولم ينتظر غياب شمسه كي يؤدّي واجبات المحبّة، ويلبّي نداءات العطف. وبذلك أعاد لوصايا الله روحها، وجوهرها، وإلهامها.

وقد استرسل علماء الشريعة في تحديد شعائر **التطهّر** الخارجيّ وغالوا في تقدير قيمته الخلاصيّة، على غير اكتراثٍ بطهر السرائر والنوايا. وقد قاوم يسوع، بعباراتٍ حارقةٍ، هذا الموقف الضالّ، معلنًا أنّ لا شيء خارجيًّا ينجّس الإنسان، بل ما ينجّسه هو ما يعتمل في دخيلة نفسه، وما يخرج منها كذبًا، ونميمةً، وكلامًا جارحًا، وشتيمةً.

وحارب يسوع، بغيرةٍ ملتهبةٍ، كلَّ أصناف النبذ والاحتقار اللاحقة بفئاتٍ عريضةٍ من الشعب البسيط، التي أدانتها كبرياء الزعماء الدينيّين، وأقصتها عن رحمة الله. تلك كانت حال «شعب الأرض»، القوم البسطاء الجاهلين الذين لا يتيسّر لهم التبحّر في دراسة الشريعة، ولا تتيح لهم مشاغلهم اليوميّة فُرَص أداء كلّ الفرائض الشرعيّة؛ وتلك كانت حال أصحاب العاهات، والعشّارين، والخطأة، والوثنيّين.... الذين حُكِم عليهم بهلاكٍ أبديٍّ.

باسم إلـه الحبّ والرأفة صادق يسوع هؤلاء جميعًا، وأغدق عليهم حبّه، ونعمه، وشفاءاته. فجلس إلى الموائد المشبوهة أو المحظورة، وفتح ذراعه وقلبه للصغار والفقراء، وأبرأ المقعدين والعميان، حتّى في أيّام السبت، ولمس الأبرص النجس، وأشاد بالسامريّ الرحيم، وأقام من وثنيّين نماذج مثلى للإيمان الحقّ، وأحلّ في المقامات الأولى من لم يكن لهم في المجتمع مكانٌ.

فرحمة الله لا تستثني أحدًا، وحبّه يؤثر المحرومين من الحبّ على هذه الأرض، موفّرًا لهم حرّيّةً قصوى، ومحرّرًا جميع من يأتون إليه.

وتحدّى يسوع التقاليد السائدة، وتخطّى الأعراف، في **موقفه من المرأة ومن الطفل.**

فقد كانت المرأة، عند اليهود، تُعدّ قاصرًا، دينيّا واجتماعيًّا. وكانت تخضع لنواهي الشريعة لا لوصاياها. في الهيكل، لا تتخطّى فناء النساء، وفي المجمع فُرض عليها الصمت. ولذلك، كان بوسع الرجال أن يصلّوا، بصَلَف، قائلين: «تبارك الله الذي لم يجعلني وثنيًّا. تبارك الله الذي لم يجعلني امرأةً. تبارك الله الذي لم يجعلني جاهلاً».

كانت المرأة محرومةً من حقّ الشهادة في المحاكم، وحقّها في الإرث كان ضئيلاً. للزوج حقّ طلاق زوجته متى شاء، وهي محرومةٌ من هذا الحقّ. الزوجة الزانية تُرجَم، والزوج الزاني يفلت من العقاب. مخاطبة المرأة في مكانٍ عامٍّ عارٌ، حتّى ولو كان المخاطب زوجها...

وقد كسر يسوع طوق الكثير من هذه المحظورات. وفي تلك البيئة الموغلة في تحفّظها تجاه المرأة، خاطب النساء ببساطةٍ، أيًّا كان دينهنّ أوسمعتهنّ. عالجهنّ، وشفى أسقامهنّ، وطرد شياطينهنّ، وأقام أمواتهنّ. وفي مسار رسالته لم يفرّق بينهنّ وبين الرجال. لم يعنّفهنّ، بل أرشدهنّ برقّةٍ. وكان يؤثر من يمثلنَ أمامه بلا أقنعةٍ، مسفراتٍ، بصدقٍ، عن واقعهنّ...

وفي ترحاله، استصحب، بلا حرجٍ، ثلّةً من النسوة اللواتي تطوّعن لرعاية شؤون معيشته ومعيشة تلاميذه الذين رافقوهنّ مرافقة إخوةٍ لأخواتهنّ، وأبناءٍ لأمّهاتهنّ، في عفّةٍ تامّةٍ كان يسوع مثالها، وفي احترامٍ عميقٍ. وكان يسوع يحدّثهنّ عن الملكوت مثلما يحدّث تلاميذه. ولئن مكثنَ في ظلّ محيط يسوع، ولم يخرجنَ منه حتّى الصليب، إلاّ أنّ التلاميذ تواروا حينذاك، وفرّوا فرار الرعاديد، في حين هنّ أثبتنَ جرأتهنّ ووفاءهنّ.

ومضى يسوع إلى أبعد من ذلك، فخاطب، علنًا، امرأةً سامريّةً – وبالتالي عدوّةً لليهود – وذات ماضٍ عَكِرٍ. وكانت الأولى التي أعلن لها هويّته المسيحانيّة، وجعلها رسولته بين السامريّين.

ضرب من امرأةٍ كنعانيّةٍ مثالاً للإيمان الحقّ، ولم ينفر من لمسة امرأةٍ نازفةٍ، ومن

ثمّ، في نظر اليهود، نجسةٍ، بل شفاها من علّتها المزمنة. وفي بيت زعيمٍ فرّيسيٍّ، لم يمنع امرأةً سيّئة السمعة، تائبةً، من دهن قدميه بالطيب، ومن غسلهما بدموعها وتنشيفهما بضفائر شعرها، مثيرًا استنكار ندامه المنافقين. وأيّة إنسانيّةٍ أظهر حيال المرأة التي قُبِض عليها بجرم زنًى، وطولب بإصدار حكمٍ برجمها!

وقد نهى عن الطلاق التعسُّفيّ، معيدًا للمرأة كرامتها، وللزواج هيبته وديمومته. وجعل من نسوةٍ لا تقبل المحاكم شهادتهنّ، طلائع الشاهدات على قيامته.

ففي محيط يسوع لا تفرقة ولا تحقير. وليست المرأة أدنى شأنًا، وأقلّ حقوقًا ومسؤوليّةً، من الرجل. وحقّ النساء في الملكوت يساوي حقّ الرجال فيه. لا بل إنّه لم يتوانَ عن الإعلان أنّ الزواني التائبات سيسبقنَ إلى الملكوت علماء الشريعة المزهوّين بفضائلهم!

وبإلقائه على النساء نظرةً جديدةً، وبدعوتهّن إلى مكانٍ جديدٍ، ودورٍ قشيبٍ، في الجماعة الجديدة، حرّرهنّ، لا تحريرًا خارجيًّا، بل تحريرًا روحيًّا داخليًّا، بدعوتهّن، على غير تمييزٍ، إلى تقبّل كلمة الملكوت وعطيّته. وهكذا بلغنَ، بكلّ ترحيبٍ وثقةٍ، ومن غير اعتراضٍ، إلى معموديّة الماء والروح، وإلى المائدة الإفخارستيّة. وهذه الثورة لم يحقّقها يسوع عن طريق الصراع، والمطالبة الصاخبة، وسياسة المعارضة. فهو لم يشأ قهر سُلطات العالم بأسلحة العالم، بل انتهج دروب التفجّر الداخليّ، وتجدّد القلوب.

ومثلما كان موقفه من المرأة، كان موقفه من **الطفل**، ثوريًّا.

في عهد يسوع لم يكن للطفل من وجودٍ «شرعيٍّ»، إذ إنّه لا يخضع للشريعة قبل بلوغه الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وحتّئذٍ لا شأن له. بل هو يوكَل للنساء، ولا أحد يهتمّ به سواهنّ.

ولكنّ يسوع دعا الأطفال إليه، وغمرهم بعطفه، وكان يزجر تلاميذه كلّما حاولوا إقصاءهم عنه. ويوم سمع التلاميذ يتجادلون حول تراتبيّات مناصبهم، جاء بطفلٍ، وأقامه وسطهم، معلنًا أنّ من لم يعد يملك مثل قلب الأطفال، لا مكان له في الملكوت، وأنّ من استقبل طفلاً، فقد استقبله، هو، الربّ. وحذّر، بأقسى العبارات، كلَّ من يعثّر طفلاً، قاتلاً روح الطفولة فيه، أو ملطِّخًا نقاءها.

يسوع الذي تماهى بالفقير، والمريض، والمنبوذ، والسجين، تماهى، أيضًا، بالطفل، الذي لا ينفكّ يكتشف جدّة الله، وجدّة الكون، الطفل الذي وصفه اللاهوتيّ «رهنر» (RAHNER) بأنّه «بدايةٌ مشرعةٌ على بداية البدايات، وعلى الله، والسرّ المطلَق...».

قلّما شوهد لدى مفكّرين، وصوفيّين، ومصلحين، مثل افتتان يسوع بالأَطفال، فهم يلتفتون، بالأَحرى، إلى شيوخٍ حكماء، مثقلين بالتجارب، أو إلى كهولٍ ناضجين، ممتلئي الطاقات. أمّا يسوع، فقد استشفّ في الطفولة كلّ ما هو كَلِفٌ به من صدقٍ، وأَصالةٍ، ودهشةٍ، وطاقةٍ بكرٍ على التساؤل والتلقّي. لقد أَحبّ يسوع، في الأَطفال، خلوّهم من كلّ ما مقته لدى الكبار، من كبرياء العقل، والعُجْب بالذات، والاعتماد على المال والقوّة.

إنّ الله المطلق، حياة كلّ حياةٍ، والطاقة التي تحرّك كلّ المجرّات، وحبّ كلّ حبٍّ، ونسمة نفسنا، الأَزليّ، صار طفلاً، وجعل من الطفولة شرطًا لولوج الملكوت، لا لأَنّ الطفل طاهرٌ، وبريءٌ، أو ساذجٌ، فحسب، بل لأنّه لا يعتدّ بقدراته وموارده، ولأنّه، كلّه، تقبّلٌ، وتوقّعٌ، وثقةٌ بالأقوى والأَكبر منه.

ودعا يسوع إلى الطفولة في كلّ عمرٍ، فكم من أطفالٍ غزا الشيبُ رؤوسهم، وكم من شيوخٍ تخفق، في صدورهم، قلوب أطفالٍ!

إكبار يسوع للأطفال، مع هشاشتهم، وجهلهم للشريعة، هو إعادة الحقّ إلى نصابه، وتذكيرٌ بأولويّة نعمة الله، ودليلٌ على أَنّ الملكوت قد شرع يتحقّق، والأَفضليّة فيه لمن تخفق فيهم روح الطفولة.

وبتكريمه الأَطفال تحدّى يسوع من يبتغون تجميد الحياة، وسجنها في إطار بديهيّاتهم الضيّقة، وخنقها في زنزانة واقعيّتهم الحسيرة البصيرة.

حين كان تلاميذ يسوع يتجادلون حول اقتسام المناصب في ملكوت الله، وضع، هو طفلاً، وسطهم، كي يُفهمهم أنّ تفجّر الحياة سيقلب كلّ تدابيرهم، وأنّ عليهم، باستمرارٍ، الترحيب بطفولة العالم، من أَجل استقباله، هو والذي أَرسله.

كم من طاقاتٍ تُهدَر في الخلط بين الله والماضي المجمّد، في حين لا يني الله يأتي إلينا! فلنقتفِ، إذن، خطى يسوع، وحينئذٍ، سيتفتّق الإيمان عن ثقةٍ فَرِحةٍ،

وسيتمخّض عن طفولةٍ دائمة الجاهزيّة، وسيجعل من الحياة ولادةً مستمرّةً، حتّى في غمرة الأَلم، ومع دنوّ الأَجل.

ومثلما أَقام يسوع طفلاً وسط تلاميذه، يستنهض الله، دائمًا، الطفولةَ وسط البشر. والطفل الذي يستنهضه في قلب الكنيسة، هو يسوع الذي يدهشنا.

إنّه، أبدًا، حجر عثرةٍ، وحجر الزاوية، وقاهر الموت، إنّه الإنسان الجديد. إنّه تدفّق الحياة، وموقظ البشر بلا انقطاعٍ، كي يدفعهم إلى الأَمام. إذ إنّه يولد، في آنٍ واحدٍ، من أحشاء البشريّة العتيقة، ومن قلب الله الدائم الشباب.

* *

الثورة تسري في كلّ عبارةٍ من عبارات الإِنجيل، وفي كلّ كلمةٍ من أَقوال يسوع، وفي كلّ عملٍ من أَعماله. حتّى عندما يقول: «**إنّي وديعٌ ومتواضع القلب**»، فوداعته هي إعلان حربٍ على الكبرياء والصَلَف.

ليس في الإنجيل ما يشبه الحلم الغافي، أَو الرغبة في الهدوء. بل في قلب يسوع نارٌ تودّ الشبوب والانتشار. إنّ النهاية حاضرةٌ في ذهنه، وهو يستعجل رؤيتها تتحقّق.

مثلما ينفذ المحراث إلى أَعماق التربة، ويقلب ذرّاتها، كذلك يحرث يسوع البشريّة، وهو، أَحيانًا، يدفع السكّة عميقًا، فيؤلم، كي يوفّر ثمرًا غزيرًا. فهو لم يتحرّج، مثلاً، من الدعوة إلى بتر أشدّ العلاقات البشريّة حميميّةً، إن كان من شأنها الحؤول دون اتّباعه، والعمل بتعاليمه.

بمبادراتٍ دؤوبةٍ متتاليةٍ، قلب يسوع المفاهيم الروحيّة والدينيّة السائدة، ودعا إلى تغييرٍ يتخطّى الأَقوال.

حتّى اللحظة الأَخيرة، وحتّى في عشائه الوداعيّ مع تلاميذه، خرق الطقوس وغيّر المفاهيم، محوّلاً طقوس الفصح من استذكارٍ لماضٍ غابرٍ، إلى استشراف مستقبلٍ تولد فيه، في كلّ لحظةٍ، حياةٌ جديدةٌ، يكون جسده ودمه غذاءَها، وقوامها. وقلَبَ مفاهيم السيادة، فلم يدَعْ تلاميذه يغسلون يديه، بصفته الربّ والسيّد، بل اتّزر، وانحنى، فغسل أَقدامهم، مؤسّسًا نظامًا جديدًا، حيث كبير القوم هو خادمهم، بل عَبْدُهم، وحيث الخدمة هي عنوان العظمة.

لا يمكن حصر يسوع في فئةٍ دينيّةٍ، أو أَخلاقيّةٍ، أَو سياسيّةٍ، مع أَنّه أَثّر في جميع هذه الميادين التي يجتازها جميعًا، مظهرًا أنّ العلاقة باللّه لا تحدّها وتقيّدها شعائر، محوّلاً الحواجز إلى معابر، ومحذّرًا تلاميذه من تقاليد تنقلب محظوراتٍ، وحدودًا يتعذّر اجتيازها. لقد كان يسوع سابقًا لزمانه. لذلك لم يفهمه معاصروه، ولذلك هو يفتننا!

ولا بدعَ إن أَزعجت أَقوال يسوع وأَفعاله القيّمين على التقاليد، ولا سيّما بين علّيّة القوم الذين رأوا في سلوكه تهديدًا لمواقفهم. فقد قوّض الأُسُس التي بنوا عليها سلطانهم، وشوّش المعالم التي اهتدوا بها، وزعزع المناهج التي استكانوا لها: وبجرأة أَقواله، وحرّيّة تحرّكه، هزّ أَركان الممارسات الدينيّة الشديدة الثقة بذاتها، والتقاليد الأشدّ رسوخًا. وهو ما زال يهزّ، ويزعزع، ويقوّض كلّ زائفٍ مدّعٍ.

فكيف لا يصبح، في زمانه، وحتّى اليوم، هدفًا للنقد والمقاومة؟ وكيف لا يوطّن مستغلّو السُّلطات، العزمَ على إِزالته، ضمانًا لمواقع اغتصبوها، وعزوا سلطانها إلى اللّه وإلى الشريعة؟

لقد غيّر يسوع وجه العالم، وما برح خميرةً أَساسيّةً لثقافتنا، وأَخلاقيّاتنا، ومُثُلنا العليا. ولطالما كبح نوازع الجشع، والاستبداد، والشهوات.

وما زال كثيرون ينقلب كيانهم وسلوكهم، لمجرّد التقائه، ومن حيث لم يقصدوا.

لقد أَلقى نظرةً قشيبةً على كلّ شيءٍ: على الفقراء، على النساء، والأَطفال، على رياء أُولي الشأن، الذي ندّد به تنديدًا لاذعًا؛ وخاصّةً على المصير البشريّ الذي أَبرز بُعدَه الإِلهيّ. وبكلّ ذلك نفث في أوصال البشريّة زخمًا جديدًا، بواسطة الحبّ الذي يعيد، من الداخل، ترميم النظام الذي أحلّه الخالق، وأَفسدته الخطيئة. وقد حقّق كلّ ذلك بكلامٍ بسيطٍ يقرن العمق بالوضوح، ويفهمه البسطاء بيُسرٍ خيرًا من كتبة أَمس واليوم.

* *

بدا وكأنه وريث الانتظار الدهريّ، ولكنّه قلب هذا الانتظار رأسًا على عقبٍ.

من الغيب أَتى إلاّ أنّه في ثنايا الحياة اليوميّة بثّ طعمًا للحياة غير مألوفٍ، ومعه ارتدت علاقات الإِنسان بالإِنسان، وعلاقات الإِنسان باللّه، معاني قشيبة.

لا أَحد عاش مثله، ولا أَحد مات مثله.

بشّر بالإِيمان، وأَهاب بالإِنسان أَن يتخطّى ذاته: أن يحبّ حتّى الأَعداء، وأَن يثق بحبّ الله، بلا تحفّظٍ.

ليس، مثله، من ثار على وضعٍ فاسدٍ، كي يستبدله بوضعٍ مثاليٍّ، يرقى بالبشر إلى أَسمى ممّا تطاولت إِليه أَحلامهم.

إنّه الثائر الحقيقيّ الوحيد في تاريخ الإِنسانيّة.

حُضُورُ يسَوع (*)

حضور يسوع دائمٌ، يغمر الكون، والقلوب، والضمائر. ونحن، في التماسنا وجهه، حجّاجٌ دائمو الارتحال، لا يتوقّفون عن المسير.

نترقّبه في مفارق دروب الحياة، ونشهد، غالبًا، إشاراتٍ جليّةً أَو خفيّةً تمكّننا من اكتشاف وجهه المدهش: في نضارة طفلٍ، أو في وجه شيخٍ نحتته الحياة؛ في مبادرة عطفٍ رقيقةٍ، وفي كفاحٍ بطوليٍّ ذودًا عن العدل، وبذلاً في الخدمة، أَو إشاعةً للحبّ والفرح.

يسوع هو وطن من يحبّونه، وملكوتهم. ألفا عامٍ تفصلنا عنه في الماضي. ولكن لا يلزمنا أكثر من ربع ثانيةٍ كي نلتقيه أمامنا.

بتجسّده، خلّد حضوره الإلهيّ في ما بيننا. فقد جاء لكي ينشر ملكوت الله على الأَرض، وكان هو الملكوت.

ولكي يسود العدل والمحبّة بين الناس كان لا بدّ من أَن ينموا في القلوب. وهذا النموّ لا يتحقّق بمعزلٍ عن الله، وعن غذاء كلمته. لذلك تجسّد الكلمة كي نستطيع استقباله، فيصبح لنفوسنا غذاءً.

وبتجسّده أَصبح يسوع أَخًا لكلّ إنسانٍ، وجعل من البشر أَبناء لأَبيه، وإِخوةً في ما بينهم. وبما أَنّ الإِنسان أَصغر من بلوغ الله، صار الله نفسه، في يسوع، صغيرًا، لكي نتلقّى حبّه، ولكي يصبح العالم مملكته.

تجسّده حمل رجاءً جمًّا، وأَحدث ثورةً في مفهوم الله، الذي سمّاه «أَبًا»، وهي

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «و أمّا أنتم فترونني حيًّا، وتحيون»، صفحة ٤٥٧، و«اختبارٌ لا يدحض»، صفحة ٤٦٤، و«أجل، أحبّ الله»، صفحة ٥٣٨، و«أبناء الله»، صفحة ٥٤٨، و«أين رأيناك، يا ربّ؟»، صفحة ٥٤٩.

تسميةٌ لا سابق لها في تاريخ الأَديان، ولاسيّما أَنّه جعل الله أبًا لكلّ مخلوقٍ بلا استثناءٍ.

بتجّسد يسوع ما عدنا في حاجةٍ إلى التطلّع نحو السماء، فالعليّ قد انحدر إلى الأَدنى، مخاطرًا بأُلوهته، ونصب خيمته في قلب الإِنسان الضيّق.

وقد تساءل كثيرون هل إلهٌ على هذا المقدار من الحنان، والتواضع، والتجرّد، والهشاشة، ومصادقة البشر، مازال إلهًا. البعض ارتابوا في ذلك. ولكنّنا لا نؤمن إلاّ بهذا الإله، الذي يسكن نفوسنا ويملأها.

يسوع أَعلن الإِنسان للإِنسان، واقتاده إِلى الحبّ الحقّ، وهو ما زال فاعلاً، وتعاليمه ما برحت في فجر انتشارها. لقد خَبَر وضعنا البشريّ، وأَكّد لنا أَنّ الحياة الأَبديّة تبدأ منذ الآن. لم يكتفِ بإعلان الله للبشر، ولكنّه أَتاح لإِخوته البشر أن يتأَلّهوا، ذات يومٍ.

لقد هبط أرضنا كي يقوّض قدرة الشرّ، وبذلك تجلّى رسول الرجاء الأَعظم.

بتجسّده وبقيامته، غدا حاضرًا في مصير كلّ إنسانٍ. ومنذ أَلفي عامٍ ما انفكّ هو المغامرة، وهو القصيدة المطلقة القائلة إنّ الله يعرف كلّ شيءٍ عن كلٍّ منّا، ليس فقط لأنّه الله، بل لأنه شاء أن يحيا حياة البشر، حياة كلّ إنسانٍ.

* *

وقد رسّخ يسوع المتجسّد حضوره بين ظهراني البشر، **بتجلّيه في وجه كلّ إنسانٍ، وباتّخاذه من كلّ سقيمٍ، وفقيرٍ، ومنبوذٍ، ممثّلاً له على الأَرض**. وبذلك أَكّد كرامة الإِنسان، كلّ إنسانٍ، بأسلوبٍ منقطع النظير. فهو قد حصر دينونة البشر في طريقة تعاملهم مع الجائع، والظمآن، والعريان، والمشرّد، والسجين، وكلّ محرومٍ من الحبّ، ومن مقوّمات العيش الكريم. وكلُّ من أَحاط هؤلاء بالعطف والبذل فتح له الربّ أَبواب السماء. ومن قابلهم بالإِعراض واللامبالاة والازدراء، كان ملعونًا ومدانًا.

لقد شاء يسوع أن يتوزّع وجهه على جماهير المحتاجين، والمرضى، والمنبوذين، وإِنّما الخلاص هو استشفاف هذا الوجه في وجوه هؤلاء، والمبادرة إلى سدّ احتياجاتهم ومؤاساتهم.

منذ يسوع، كلّ وجهٍ بشريٍّ، قريبًا كان أو نائيًا، وجه الفرد ووجه المجتمعات، هو المكان الإنسانيّ أو الإلهيّ الذي يودّ الله التجلّي فيه.

الفقراء، والذين يعانون كلّ ضروب الحرمان، يحيقون بنا من كلّ صوبٍ، وفي كلّ حينٍ. ولا ريب أنّ، في ذلك، مدعاةَ حزنٍ ورثاءٍ، ودليل غياب العدل والمحبّة. ولكنّ ثمّة، أيضًا، فرصةً كي نُبادل الربَّ بعضَ حبّه ورحمته لنا، بإغداقنا حبّنا وعطفنا على أولئك الذين تمثّل، هو، بهم، وجعلهم رمزًا لحضوره الطاغي بين ظهرانينا. ومن المحقّق أنّنا لن نتعرّف يسوع في الفقراء، ما لم يكن وجهه قد غدا أليفًا لدينا.

إنّ يسوع يبعث إلينا بإشاراتٍ، من خلال النداءات الصامتة، غالبًا، التي يرسلها إلينا إخوتنا الأقربون، وأحيانًا الأشدّ فظاظةً، لأنّهم الأبلغ جرحًا.

إنّ تطويبات يسوع لا تتحقّق إلاّ حيث يسود الإنجيل، فحيثُ لا تأثير للإنجيل، ما الفقير سوى نفايةٍ. ولكن حيث هو فاعلٌ، حقًّا، يستشفّ الفقير من خلال معاملة المؤمنين له، كم قلب الله يحبّ أبناءه.

لا يسعد الفقير بفقره، بل بترحيب ملكوت الله به. ولا يسعد الجائع بجوعه، بل بالمحبّة الجاهدة في إشباعه. ولا يمثّلُ الفقيرُ يسوعَ إلاّ لمن وطّن العزم على إطعامه، وإكسائه، وإيوائه، ومعالجته، ومواساته، وحبّه.

المسيحيّة تعني المحبّة. وعلى المسيحيّ أن يكون تعبيرًا عن سخاء الله وعطفه. وبما أنّه وصيٌّ على التطويبات، فهو لا يعلنها، حقًّا، إلاّ إذا تفجرّت محبتّه في العالم، للدلالة على الحضور الإلهيّ.

وأيّة كنوز حبٍّ تكشّفت عنها نفوس من رأوا وجه يسوع في المحرومين، ومن آمنوا بحضوره الحيّ فيهم! وأيّة معجزاتٍ سنيّاتٍ أدهشوا بها العالم، بما أفاضوا عليهم من عطفٍ ومحبّةٍ! ولا ريب أنّ حقبتنا شهدت أروع مثالٍ على هذا السخاء في وجه الأُمّ تيريزا الكلكتّاويّة، مثالٍ ما زال يتألّق، يوميًّا، في تضحيات أُلوف أخواتها المرسلات، وأُخرياتٍ، وآخرين كُثُرٍ.

لقد تمثّل يسوع بكلّ محتاجٍ، فغدت حتّى الأعمال البدائيّة البسيطة، مثل تقديم طعامٍ أو شرابٍ، واستضافة غريبٍ، وإكساء عريانٍ، وعيادة مريضٍ أو سجينٍ، تطال

اللّه الذي لا ينضوي تحت لواء أَيّة جماعةٍ، والذي لا يحيط به وصفٌ أَو تحديدٌ .إنّه أَمامنا، يسكن الوجوه والجماعات، والجهد نحو العدل والسلام، والتطلّعات الكبرى التي تفعل فعل الخمير في الجماهير. إنّه إِلهٌ متخفٍّ، وعلى قربٍ وثيقٍ منّا، إنّه رفيق سفرنا الدؤوب، المتكتّم.

* *

وقد خلّد يسوع حضوره بين البشر بتأسيسه **سرّ الإِفخارستيّا**، سرّ الحبّ الأعظم، بل معجزة الحبّ الكبرى، عندما جعل من الخبز والخمر المكرَّسَيْن جسده ودمه، وغذاءً روحيًّا للمؤمنين.إنّه غذاءٌ من نمطٍ فريدٍ. فعندما يتمثّل الإنسان الطعام المادّيّ يحوّله إلى طبيعته. ولكنّه عندما يتمثّل يسوع يتحوّل، هو، إلى طبيعة اللّه.

ليست الإفخارستيّا هي تتويج عمل اللّه فحسب، بل هي الشهادة القصوى على حبّه، وهي جوهر كيانه، ووجوده، وحياته، وموته. تلك الوجبة كانت موجز رغبته، لأَنّه استطاع أَن يهبنا ذاته غذاءً، وأن يصبح حياتنا.

لقد كانت الإفخارستيّا امتدادً للتجسّد يتخطّى كلّ الحدود. ومن ثمّ يتعذّر فهم الإِفخارستيّا بمعزلٍ عن التجسّد، ويتعذّر فهم التجسّد بمعزلٍ عن الثالوث.

يقول الكردينال رتسنغر: «مع الإِفخارستيّا غدا اللّه يأتي للقائنا، لكي يستهلّ ملكوته، منذ اليوم، ما بيننا».

لولا الإِفخارستيّا لكان يسوع رجلاً من الماضي. ولكن بفضل الاحتفال بالإِفخارستيّا، يصبح معاصرًا لنا، ويغدو لنا، اليوم، معلّمًا وصديقًا. دمه يبتغي السريان في عروقنا. وهو يستطيع أن يحيا فينا العبور من الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، وهو يخوض، فينا، معركة التطويبات، في سبيل مزيدٍ من العدل والكرامة والسخاء.

نحن نغبط الرسل وجميع الذين شاهدوا يسوع بعيونهم ولمسوه بأيديهم. ولكن بالإِفخارستيّا، أَتاح يسوع لكلّ مؤمنٍ به أَن يلمسه، ويتغذّى به. ومن ثمّ، فالمسيحيّ الذي يتناول جسد الربّ هو أقرب إِليه من يوحنّا الذي اتّكأ على صدره.

هذا الاتّحاد بيسوع، الذي تغذّيه الإِفخارستيّا وتوطّده، يؤتي ثمارًا وفيرةً. فهو يجعل عمل المؤمن بوصايا الربّ سهلاً، بل تلقائيًّا، لأنّه يُخضع له إِرادته، وهذا

الخضوع يضمن استمرار الحبّ. ويسوع نفسه أعلن: «**من كانت عنده وصاياي، وحفظها، فهو يحبّني، والذي يحبّني يحبّه أَبي، وأَنا أُحبّه، وأُظهر له ذاتي**» (يوحنّا ١٤ : ٢١).

وهذا الحبّ يغمر النفس بالثقة والفرح: «**قلت لكم هذا، ليكون فرحي فيكم، فيكون فرحكم كاملاً**» (يوحنّا ١٥ : ١٠).

وبالإِفخارستيّا يهب ابن الله البشر حياةً إلهيَّةً: «**كما أنّ الآب الذي أَرسلني حيٌّ، وأنا أحيا بالآب، فكذلك من يأكلني، فإنّه يحيا بي**» (يوحنّا ٦ :٥٧).

وكلّما التأم إِخوةٌ حول قليلٍ من الخبز والخمر المقدَّسيْن، تمتزج الذكرى بالانتظار. وعندما يشحذ غيابُ يسوع ذكراه وانتظاره، يُعلَن حضوره، ثمّ يصبح بوسع كلّ وجهٍ أن يعكس هذا الحضور.

والإِفخارستيّا تساعد على إذكاء المحبّة، وصيّة يسوع الجديدة، التي تقود إلى أَكثر الأَعمال بطولةً، وإلى التضحية بالحياة على غرار يسوع نفسه. فتلاميذه يؤدّون، بين إخوتهم، الرسالة ذاتها التي جاء بها يسوع إلى البشريّة.

وقد لاحظ الكردينال رتسنغر أنّ «القدّيسين الاجتماعيّين الكبار، كانوا إفخارستيّين كبارًا». وهنا، أيضًا، يتبادر إلى أَذهاننا مثال الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة.

القدّيسون، سواءٌ من طوّبتهم الكنيسة أو الآخرون، الكُثُر، المغفلون، الذين ينهضون شهاداتٍ حيّةً، لا يمكن فهمهم إلاّ باعتبارهم صُوَرًا ليسوع ومرايا. وحضور يسوع يتجلّى من خلالهم. إنّه يختزل ويفسّر كلّ التجارب الفريدة التي خاضوها. وكلٌّ منهم يبرز ملمحًا أو ملامح من وجهه الجمّ.

إنّ بين الإِفخارستيّا والمحبّة علاقةً وثيقةً، ويخطأ كلّ مسيحيٍّ يزعم أَنّه يقوى على المحبّة خارج الأَسرار، أَو أنّه يستطيع ممارسة سرّ الإِفخارستيّا، بمعزلٍ عن ممارسة المحبّة. فما من محبّةٍ مسيحيّةٍ لا تحيا وتزدهر بالإِفخارستيّا. كما أنّ ادّعاء التقرّب من الإِفخارستيّا، مع الإِعراض عن المحبّة، هو انتهاكٌ لتعليم يسوع.

* *

وعلى الإِفخارستيّا يقوم **جسد يسوع السرّي**. فمثلما كان ابن الله قد ارتدى طبيعةً

بشريّةً، استمدّها من جسد مريم، وغلّفها ظلّ الروح القدس، هكذا، في يوم العنصرة، اتّخذ جسدًا سرّيًّا من قلب البشريّة مغلّفًا بظلّ الروح القدس. ومثلما كان قد علّم وقدّس بواسطة طبيعته البشريّة، سيواصل التعليم، والحكم، والتقديس، بواسطة الطبائع البشريّة المتّحدة بجسده السرّيّ، أي الكنيسة.

هذا الجسد يُدعى سرّيًّا أو صوفيًّا، لا لأنّه ليس مادّيًّا، ولا أدبيًّا، مثل أيّة جماعةٍ، بل لأنه روحيٌّ وسماويٌّ، ولأنّه صنيعة الروح القدس. كما أنّ الجسد البشريّ يتألّف من ملايين الخلايا، ويظلّ واحدًا، لأنّ نفسًا واحدةً تحييه، ولأنّ رأسًا واحدًا يديره، ولأنّ عقلاً واحدًا يقوده، هكذا الجسد السرّيّ المؤلّف من مئات ملايين البشر، المتّحدين بيسوع بواسطة العماد، والإيمان، والإفخارستيّا، يظلّ واحدًا لأنّ الروح القدس هو مصدر حياته، ولأنّ عقلاً واحدًا، هو يسوع الذي قهر الموت ينيره ويقوده.

لمّا أوقع يسوع شاول عند أبواب دمشق عرّف نفسه بأنّه هو من كان شاول يضطهده، مع أنّ شاول لم يكن يعرف يسوع شخصيًّا. ذلك أنّ كلّ مسيحيٍّ هو عضوٌ في جسد يسوع، وكلّ ما يطال المسيحيّ من تكريمٍ أو من اضطهادٍ، يطال يسوع نفسه.

يسوع حيٌّ في الكنيسة، والكنيسة تحيا به. إنّه ينفث في كلّ هذا الجسد الحياة الإلهيّة، بالإيمان والمحبّة اللّذين يصلان الأعضاء بالرأس، بواسطة الأسرار، وهي أقنية النعمة، وبالنعم الخاصّة التي توصل القدّيسين إلى الكمال.

المسيحيّون أعضاء في جسد المسيح، وإذن رأسهم في السماء.

ويسوع حاضرٌ في كلّ **صلاةٍ مشتركةٍ**، تنفيذًا لوعده: «**كلّما اجتمع اثنان أو ثلاثةٌ باسمي، كنت في ما بينهم**».

وهو حاضرٌ، دائمًا، في كلامه، **في إنجيله**، الذي يواكبنا ويُمدُّنا بكلّ ما نحتاج إليه من نورٍ وعزيمةٍ.

يسوع هو نقطة التقاء الأبديّة بالزمن، حيث غدا «الكائن» الإلهيّ حاضرًا في تاريخ البشريّة حضورًا مطلقًا يتّجه نحو التاريخ كلّه. وفي هذا السياق كتب باسكال: «يسوع هو مركز التاريخ... كلّ شيءٍ سار نحوه قبل أن يولد، ومهّد له السبيل، ونحوه يلتفت كلّ إنسانٍ عاقلٍ، عندما ينأى عنه، وكلّما امتدّت المسافة بينهما».

وعندما يحضر الربّ يصبح هو الحدَث الوحيد. وكلّ ما كنّا نظنّه حَدَثًا يهوي إلى العدم.

يسوع كان وما يزال قلق الضمائر، إنّه يقطن صميم وجداننا، وأعماق كياننا. هذا ما عبّر عنه الشاعر الفرنسيّ پول كلوديل بقوله: «إنّه فيَّ أكثر ممّا أنا في ذاتي».

ويسوع عزاؤنا وسندنا، على حدّ قول أوليڤييه كليمان (Olivier CLÉMENT): «يسوع هو الرفيق الذي يسير، متخفّيًا، إلى جانبنا، وفي أَماسي الغمّ، يضع يده على كتفنا».

وكتبت «سيمون ويل»: «أيّة مصيبةٍ عندما نتألّم والله غائبٌ عنّا»!

ولكن لا وجود ليسوع فينا إلاّ بقدر ما نكون، نحن، مطعّمين به. وكما أنّ التطعيم يتكوّن من جرحَيْن مشرَعَيْن أحدهما على الآخر، كذلك تطعيمنا بالمسيح يتمثّل في جرح آلامه المشرَع على جرح حبّنا. إنّ يسوع يهب ذاته لمن يهبونه ذواتهم. وقد قال الشاعر الإيطاليّ دانتي: «يهب الله ذاته بقدر ما يلقى رغبةً في ذلك».

وما أَبديّة يسوع سوى حاضرٍ لا يتغيّر، وحضورٍ دائمٍ بيننا، وحبٍّ صرفٍ. ويسوع، في أبديّته، أَوفر فاعليّةً ممّا كان على الأرض. وإنّه في صميم المؤمن، يجتذبه إليه، ويصبح حياة حياته.

وما كان يسوع ليحيا في حروف كتابٍ، ما لم يجدّد بشرٌ حضوره، كلّ يومٍ، بل كل ساعةٍ، وما لم يتمثّلوا روحه، بصفتهم أَبناء أبٍ واحدٍ، وإخوةً في ما بينهم.

أَوَليس هو من أكّد: «**إن أحبّني أحدٌ، يحفظ كلمتي، وأبي يحبّه وإليه نأتي، وعنده نجعل مقامنا**» (يوحنّا ١٤ : ٢٣)؟

يَسُوعُ حَياتُنا، وَمُسْتَقبلُ البَشريَّة (*)

كتب روجيه غارودي: «لقد أشرع يسوعُ ثُغرةً في أُفقِ البشريّة. وحياته تعني أنّ بوسع كلّ إنسانٍ، في كلّ لحظةٍ، أن يبدأ مستقبلاً جديدًا.

«لقد أشعل موقدًا ما زال شاهدًا على القبس الأوّل الذي أضرم ناره.

«الحبّ، عنده، كان مجاهدًا، ثائرًا، وإلاّ لما صُلِب.

«حتّئذٍ، كانت حِكَم العالم تتأمّل في المصير، وفي الحتميّة الممتزجة بالعقل. وقد فضح حمقها. فهو مناقضٌ للقَدَر. إنّه الحرّيّة، والخلق، والحياة. وقد جرّد التاريخ من قَدَره.

«القيود، والجدران، وصُوَر القَدَر الخرافيّة، كانت تتهاوى أمامه، وتتبدّد هباءً. معها كلّ الآلهة قضت نحبها، ورأى الإنسان النور، وكأنّه يولد من جديدٍ.

«إنّني أرنو إلى صليبه، الذي يرمز إلى الولادة الجديدة. وأحلم بجميع الذين وسّعوا الثغرة التي أَحدثها... وجميع الذين جعلونا نعي أنّ الإنسان أكبر من أن يكفي نفسه بنفسه.

«حياته وموته يخصّان جميع من للحياة عندهم معنًى، جميع من تعلّموا منه أنّ الإنسان خُلِقَ خلاّقًا....».

وكان الفيلسوف الفرنسيّ هنري برغسون قد قال: «لم يتحقّق قطّ ولن يتحقّق، أبدًا، أيّ شيءٍ عظيمٍ بمعزلٍ عن يسوع».

أَلفيّتان انصرمتا مذ غادر يسوع كوكبنا، وما برح اسمه يتردّد مثل سرّ إنسانيّةٍ لا

(*) راجع **يسوع في إنجيله**: «الشهادة القصوى»، صفحة ٥٥١، و«الإيمان هو تقبّل يسوع، والترحيب به»، صفحة ٥٥٢، و«الكنز»، صفحة ٥٥٤، و«لا تخافوا»، صفحة ٥٥٦.

يفتر سحره، ومثل نبعٍ لا ينضب. ولكن كم أُسيء إليه، وتعرَّض للخيانة والتشويه على امتداد درب صليب التاريخ! وأيّة فجوةٍ بين نور الإِنجيل والظلمات الكثيفة التي زحفت في إِثره!

غير أنّ قلب يسوع ما انفكّ نابضًا، وحضوره ما برح طاغيًا، وما زال مثاله متألّقًا في بشرٍ يلتئمون كي يحيوا ذكرى حياته وموته، ويحتفلون بحضوره في كلّ مبادرةٍ إنسانيّةٍ تبذل الحياة وتكسبها، وفي إِفخارستيّاه، معجزة حبّه، المتجدّدة باستمرارٍ، وفي كلّ حياةٍ بشريّةٍ تُضفي على الرموز بُعدها الإنسانيّ الرحب، وفي كلّ تبادلٍ أخويٍّ يكرّس حضور الربّ، وانتصاره، على كرّ العصور، كلّما خفق قلب الله في قلب البشر.

يسوع هو حضور الله المتجسّد في قلوب البشر وكيانهم، وهو الذي أَهاب بالبشر أَن «**امكثوا فيّ وأنا فيكم**»، ومنح ذاته غذاءً لأَرواحهم: «**أَنا الخبز النازل من السماء**». إنّه مصدر حياةٍ ومنبع نسغٍ: «**أنا الكرمة وأَنتم الأَغصان**».

النسغ دائمًا خفيٌّ. قد نذهل عنه، ونعيش به ونحن نجهله، مع أنّه يحمل اندفاع الحياة وغذاءَها. قد يخضّ الجذور العتيقة، فتطلق خِلْفًا فتيًّا، بعد أنّ جفّت الأفنان، وعجزت عن استيعاب سريان النسغ، ولكأَنّه بدءٌ جديدٌ لا يُقاوَم، وفيض حياةٍ.

فلنصغِ إلى النسغ الذي يهدر في داخلنا، وقد ضجّ نفاد صبر! ولنستقبل حبّ يسوع، كما تستقبل الزهرة الشمس، فتحوّلها إلى لونٍ وعبيرٍ، وتحقّق فيها اكتمالها!

منذ يسوع الحياة سهرٌ دائمٌ، والبشر يخوضون مواسم بذارٍ وجهدٍ، من أَجل حصادٍ وقطافٍ لا ينتهيان. الحياة لا تخصب إلاّ إذا بُذلت في تضحيةٍ بالذات كاملةٍ. ولطالما فوجئت الكرمة المسيحيّة، على امتداد تاريخها، بمواسم غير متوقّعةٍ! ولكم سبقت قطافاتٍ مدهشةً تنبّؤاتٌ بالكوارث!

لقد حوّل يسوع ماء الوجود اليوميّ، وماء التطهّر الطقسيّ إلى خمرةٍ .وحوّل إلى دمٍ خمر كأس التبريك، وأَشاع نشوةً تخصب كآبة الحياة بفرح الحبّ، ببذله نسغ قلبه القاني. وإن نحن فقدنا، أَحيانًا، هويّتنا المجنونة، فلأَنّنا أَصبحنا شديدي التعقّل والتوافق مع الرداءة.

إنّنا كرمة الله الكريمة المحتد. ونعلم أنّنا قد وُهبنا كلّ شيءٍ. وسِرُّ سرّنا هو أَنّنا نتلقّى

من اللّه كلّ شيءٍ، كي نهب كلّ شيءٍ. لا ندهشنّ، إذن، من تدفّق النسغ، وثقل العنقود، فوجودنا نفسه ينبع من فيض الحياة والسخاء.

رغم الحروب، والأحقاد، والمطامع، والمظالم، وركام الرداءة والأثقال، أليست البشريّة إشعاعًا مجيدًا لشمس الشموس، وفيضًا حيًّا من كائنٍ هو، في آنٍ واحدٍ، النبع والمحيط؟

يسوع هو الذي حفر فينا عطشًا لا يرتوي إلى احترام البشر ومحبّتهم. وهو الذي أسّس الإنسان على المحبّة، والحرّيّة، والشعر. وهو الذي يدعو كلّ فردٍ إلى تجدّدٍ داخليٍّ مستمرٍّ، ويدفع المجتمع إلى تحوُّلٍ في العلاقات بين أفراده، بحيث يولد مجتمعٌ جديدٌ، وشعبٌ متجدّدٌ.

يسوع يحيا، اليومَ و إلى الأبد، في البشر الذين تبنّى، في جسده، مرّةً وإلى الأبد، شدائدهم وآمالهم. فمنذ انغمست أُلوهته في خضمّ التاريخ، لم تبارحه، بعد صعوده، بل انسابت في أوصال كلِّ إنسانٍ .

الأناجيل تضعنا أمام إنسانٍ ينبض حياةً، ولا تقيّده حدودٌ، يسكن المستقبل، ولا يطيق الألقاب التي تُضفى عليه؛ ينهج غير ما يُرسَم له من دروبٍ، ويأبى الملك الذي أرادوا تنصيبه على عرشه. التواصل معه يقضي على كلّ شَكلٍ فرديٍّ أو جماعيٍّ. إنّه أكبر من الواقع: فهو يلعن المال، ويدعو إلى محبّة الأعداء، ويقدّم جسده ودمه، أي ذاته الحيّة، غذاءً للبشر.

ولكن لن يكون يسوع خبز حياةٍ، ما لم نُتِح له أن يحوّل وجودنا، وما لم نعانِ جوعًا إلى المشاركة. ولن يترسّخ ملكوته ما لم يعِ كلّ مسيحيٍّ، في كلّ حقبةٍ، وكلّ جيلٍ، أنّه، هو، مستقبل يسوع.

يسوع هو أكثر الكائنات إدهاشًا. إنّه وجه الإنسانيّة الناصع الذي نتطلّع إليه.

يسوع دعا البشريّة إلى القداسة، لأنَّها الوسيلة الوحيدة لإنجاح الحياة، وأهاب بنا أن نتمثّل بكمال اللّه، لأنّ كلّ ما لا يخضع للتألّه، يتردّى إلى التفسّخ. وفيما الشهوات الدنيئة، والنظرات الكليلة تتلاعب بيسوع لخدمة مطامع السيطرة، ما انفكّ رجالٌ ونساءٌ كثيرون، ومن كلّ مستوًى، يبذلون حياتهم في عطاءٍ يوميٍّ، خدمةً للمحبّة، ويسلكون سلوكًا بطوليًّا، في مغامراتٍ لاهبةٍ، مغامرات فكرٍ، وفنٍّ، وعلمٍ،

وفي دروب الوجود الجماعيّ، وعلى معارج القداسة التي غالبًا ما تخفى عن الأبصار.

* *

إنّ ذاك الذي قال: «**جئتُ لأُضرم على الأَرض نارًا**»، و«**من عطش فليأتِ إليّ ويشرب**»، إنّما هو «النار التي تنعش». اللّه لم يَره أَحدٌ، قطّ، ولكنّ يسوع أَرانا وجهه، وجهًا من نارٍ ونورٍ. إنّه يقطن نار الرجاء البشريّ التي لن تهمد أبدًا. إنّه هجر سماءه، كي يوسّع، إلى ما لا حدّ له، آفاق الرجاء. أَقواله نارٌ حارقةٌ، ودعوةٌ للبشر إِلى ولادةٍ جديدةٍ في النار، والحبّ، والحرّيّة. وهو ما برح يضرم البشريّة بنار اللّه. هذه النار الهشّة، العنيدة، الدائمة الفتنة، هي رجاء البشر.

رغم جميع بواعث القنوط، ومظاهر النذالة والانحطاط، علينا الارتحال المستمرّ صوب الآفاق المضيئة، مستنيرين بالنار المضطرمة في عينَيْ يسوع.

إنّ شخص يسوع جزءٌ أساسيٌّ من إِنجيله، فالمسيحيّة، مع تخطّيها التاريخ، بغناها ومحتواها، تتجسّد في كائنٍ لا يقتصر على تبليغ تعليمه، بل يقدّم ذاته على أنّه الحقيقة والعدل الحيّان. يسوع هو موضوع إِيماننا، وهو صانع هذا الإِيمان ومكمّله. هو الأَساس وحجر الزاوية، وهو عِقْدُ البناء وقمّته. والمسيحيّة قائمةٌ على حياة يسوع بقدر ما هي قائمةٌ على تعاليمه.

يسوع يقودنا إلى الإيمان، ويلده في نفوسنا. ولكنّ موطن الإِيمان أَرحب من طاقاتنا الفكريّة، ويلفّ العالم كلّه، بوجهه المشرق، وبوجهه المظلم. ومداه يغشى الأَكوان إلى ما لا نهاية.

إنّ تساؤلاتنا تتخطّانا. وخيرٌ لنا أَن نحترم دُوارها من أَن نكتفي بأَجوبةٍ ضيّقةٍ. وليس فكرنا وحده هو الذي يستطيع استيعاب اللانهاية المحيقة بنا، بل حياتنا هي التي تستطيع الانفتاح على السرّ. بيد أنّ من يقتصر على مراقبة البحر من بعيدٍ سيظلّ يجهله. أمّا من رام اختراق أَسراره، فلا معدى له عن مخر عبابه.

إنّنا نستشفّ الفجر، عندما نحاول الانغماس في حياة يسوع النابضة، وفي كلّ وجوده، منذ الناصرة حتّى أورشليم، وجوده الذي اخترق كلّ ضروب الموت البشريّ، وغرس في الأَرض بذاره. فهو عندما كان يدعو البشر إلى الاستيقاظ،

ويبشّرهم بصفح الله، ويدعوهم إِخوةً، وأَبناء الله الواحد، كان يقيم البشريّة من لحدها. وعندما كان يمزّق القَدَر، ويلوِّح بملكوتٍ ينبغي تقبّله وابتداعه؛ وعندما كان يدعو إلى مغامرة الحبّ بلا قياسٍ، وإلى جعل العدوّ صديقًا، كان هو «القيامة والحياة».

ومن يسير في إِثر بكر القائمين من بين الأَموات، بكر الناهضين إِلى ملء الحياة، يؤنس، بكلّ أَوتار كيانه، أنّه اكتشف درب الحياة التي تتخطّى مدار وجودنا الأَرضيّ. وحينئذٍ، حتّى في حلك الليل، يستشفّ اللهب الزهريّ الذي يلوّن الفجر. فالفجر يختلج في نفس من كرّس ذاته للنور.

* *

يسوع مثالٌ وقدوةٌ، أَكثر ممّا هو شريعةٌ. وهو دعانا إلى نشر بشراه. ولكنّ أَقواله أَكثر من كلامٍ: إِنّها أُسلوب حياةٍ، بل الحياة عينها.

يسوع ما زال يعلّم، ولكنّه لا يبتغي تَخزين معلوماتٍ في أَذهاننا، أَو إِقرار مبادىء تودع في صفحات الكتب. بل يتوخّى نشر الحياة الحقّة، تلك التي لقّننا إيّاها بنبض وجوده، بكلماتٍ أبديّة الجدّة، بالآفاق التي لا يني يشرعها في سماء البشريّة. إنّها الحياة مع الله الذي يدعوه أَبًا، في بساطةٍ مذهلةٍ، ويخاطبه مخاطبة الندّ، ويقحمه في حياة الناس، وكأنّه ربّ أُسرتهم.

لقد حفر تعاليمه عميقًا في قلب البشر، واستأنف كلّ أَحكام المجتمع إلى محكمة النفس العليا، في جوار الله الحارق، حيث تتجلّى النوايا بكلّ عري حقيقتها. إنّه، بكلماتٍ معدوداتٍ، قوّضَ مجتمعًا بكامله.

لدعاة العنف أَعلن: «**طوبى لصانعي السلام**». وللمتواكلين الغافين، تكلّم عن اغتصاب الملكوت عنوةً. في رواق الهيكل استشاط غضبًا، وندّد بامتيازات رؤساء الكهنة المادّيّة. قاوم ادّعاءات الفرّيسيّين، وأَمام هيرودس أَمسى صمتًا. ولبيلاطس، في ساعة الحكم، أعلنَ أنّ السلطة التي يتمتّع بها ذلك الوالي أوتيها من آخر.

ما من جماعةٍ، وما من سلطةٍ، وما من مؤسَّسةٍ صمدت أَمام وداعة يسوع. والبشريّة كلّها اهتزّت أَمام حضوره.

* *

ثمّة من يدّعون أنّ دولة يسوع قد دالت. وهم على صوابٍ إن كانوا يتحدّثون عن يسوع لا نار تلهبه، ولا سيف يمتشقه كي يقضي به على الخمول والتواكل، عن يسوعٍ لا يُقلِق الضمائر، ولا يبتدع الحياة.

وثمّة من يعلنون فشل يسوع: فالبشر ما برحوا بشرًا، والمال ما زال سيّدًا، ومعه يسود الخوف، والأَنانيّة، والظلم. ذلك لأنّ العالم لم يتمثّل الإِنجيل، بعدُ، بحيث يمسي هو مُناخ العلاقات بين البشر، ودليل مسيرة الكائنات. وهل من يحيا التطويبات سوى أفرادٍ نادرين؟

لا ريب أنّ نفرًا من ممثّليه ارتكبوا أَخطاءً فظيعةً، مميتةً. ولكن كم هم الذين، بسلوكهم، أَبرزوا وجهه الرائع! وبفضل بطولة محبّتهم، وبزهدهم، ما زال الإِنجيل يتفجّر حياةً، وما برح الروح يخمّر النفوس.

ولا بدّ من الإِقرار بأنّ اتّباع تعليم يسوع ليس بالمهمّة السهلة. فهو يمضي إلى أَبعد من متناول العقل، وينفذ إلى أَغوار النفس، مركز كلّ شيءٍ، مطالبًا إيّاها أن تضحّي بأَغلى ميولها، ومحوّلاً إيّاها من الشرّ إلى الخير، ومن الكبرياء إلى التواضع، من الشهوات الحسِّيَّة إلى العفّة، ومن المتعة إلى التضحية، ومن الأَنانيّة إلى الإِيثار والمحبّة، ومن العهر إلى القداسة. ولكنّ غريزة الإنسان تقاوم هذا المطلب مقاومةً يائسةً، وتُشهر، في مقاومة يسوع، أَسلحة العقل، والقلب، والعالم، والجنس البشريّ. وحتّى عندما يتغلّب المرء على بؤسه، ويستعذب نير الإِنجيل، لا ينفكّ يستشفّ، في داخله، وحتّى نفسه الأَخير، إمكانيّة التمرّد عليه، ويعاني عطشًا كمينًا إليه.

فلا بدعَ إن كان المسيحيّون الحقيقيّون قلّةً .

بيد أنّ من يُخضع إِرادته وقلبه ليسوع، ويتأثّر خطاه، يتذوّق سعادةً لا تضاهيها سعادةٌ. وقد هتف «لاكوردير» (LACORDAIRE)، في هذا المعنى: «من يصف لكم عبادة يسوع المسيح، إن لم تخبروها بأَنفسكم؟ وإن أَنتم تذوّقتموها، ولو مرَّةً واحدةً، ولحظةً واحدةً، فمن يستطيع التعبير عن أَثرها الفائِق الوصف؟ لا متعة الكبرياء في أَوج انتصاراتها، ولا فتنة الجسد في قمّة لذّتها الخدّاعة، ولا فرح أمٍّ تتلقّى ابنًا من يد اللّه، ولا بهجة الزوج الذي يدخل زوجته إلى عفّة المنزل الزوجيّ، ولا نشوة

الشاعر لدى نفحة الإلهام الأولى، ولا شيءَ ممّا هو قائمٌ، أو كان في الماضي، ينطوي على صورةٍ، أو ظلٍّ، أو تخيُّلٍ للنفس التي تعبد يسوع. كلّ شيءٍ آخر هو زهيدٌ، يمسُّنا ولا يملأنا: فيسوع وحده هو الذي يُفعِم كياننا. هو، وحده، جعل من العظمة والمرض، من القوّة والرقّة، من الحياة والموت، شرابًا تمنّاه قلبنا ولم يعرفه. ومن ارتشف، مرَّةً في عمره، من هذه الكأس، يعلم أنّني أَقول الحقّ، وأنّها نشوةٌ لا صحوة منها».

وقد كتب رينان، بمزيدٍ من الواقعيّة: «في أيّامنا المضطربة، يبدو أنّ أَكثر الفئات سيرًا على خطى يسوع، هم أولئك الذين ينكرونه، ويتبنّون نظريّاتٍ اجتماعيّةً تدعو إلى العدالة. غير أنّ هذه النزعات ستظلّ عقيمةً ما لم تتخلّ عن طابعها المادّيّ، وما لم تصطبغ بروح يسوع، وما لم تؤمن، إيمانًا صادقًا، بمثاليّة يسوع المطلقة التي ترى أَنّ الظفر بالأَرض يقتضي التخلّي عنها».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

على كلّ جيلٍ أَن يعيد اكتشاف يسوع، وأَن يحياه بأسلوبه، وفي ظروفه الخاصّة. إنّ الله لا يكرّر ذاته، بل إنّه، في كلّ حقبةٍ، وفي كلّ بيئةٍ، وفي كلّ مجموعةٍ بشريّةٍ، وفي كلّ فردٍ، يستنهض ما سُمّي «إِنجيلاً خامسًا»، هو الإنجيل الذي يحياه كلّ إِنسانٍ في إِثر يسوع، وبوحي روحه. وستشهده الأَجيال القادمة يُخلَق في سياقٍ جديدٍ، ويتفجّر في عالمٍ مختلفٍ، كلّ الاختلاف، عن ذاك الذي عاش فيه يسوع.

وعندما يؤمن بشرٌ بيسوع يحدث شيءٌ جوهريٌّ في حياتهم، فيرتضون اقتسام ممتلكاتهم، وتظهر جماعةٌ جديدةٌ، ويمكن تخطّي الخوف والأَلم، ويصبح المؤمن مستعدًّا لمعاناة السجن والموت من أَجل الحقيقة.

ويسوع يحيا فينا عندما يكون مركز حياتنا كلّها، وقلبها، وهواها؛ عندما يكون الكائن الذي نحسب له كلّ حسابٍ، وله مكانةٌ مؤكَّدةٌ؛ عندما يكون الصديق الذي نحتاج إلى الشعور بحضوره، وسماع صوته، وشدّ يده.

إنّ مجّانيّة الله من العظمة بحيث تتيح للإنسان أَن يخلق ما يهبه الله إيّاه، وأَن يولّد، من ظلال العالم، النور الآتي ممّا وراء العالم. والإِنسان ينقذ حياته عندما يخاطر بها. فأرفع اليقين سموًّا هو الأَكثر هشاشةً، ويحافظ المرء عليه بقدر ما يقف

عليه ذاته. أمّا إذا ابتغى امتلاكه، والانكفاء عليه، فهو مثل من يحاول إخفاء النور، فلا يختزن إلاّ العتمة، ومثل من يضغط بيده على فراشةٍ فيقتلها.

قيل: «في بلاد البشر ينبغي إنهاض الحياة كلّ يومٍ، ونَحْت المحيّا البشريّ على صورة الله، وفي صخرة المستحيل الصلبة».

لقد روى مسيحيٌّ من العهود المسيحيّة الأُولى أنّه رأى في الحلم شبكةً جسيمةً تتطاير تحتها آلاف العصافير، التي كانت لا تني تحلّق، بُغيةَ الانطلاق في الفضاء الرحب، ولكنّها كانت تصطدم بالشبكة وتهوي إلى الحضيض. وكان منظر مأساتها مرهقًا. وذات يومٍ، انطلق أَحدها، وقد وطّن العزم على مكافحة الشبكة، فجُرح وضرّجه الدم، ولكنّه ظلّ على الشبكة حتّى أشرع ثغرةً في حلقاتها، وحلّق نَحو اللازورد الفسيح. وتعالت صيحاتٌ حادّةٌ من كلّ شعب العصافير التي، في صخب أَجنحةٍ لا تحصى، تدافعت نحو الثغرة المشرعة، ونحو الفضاء اللامحدود.

إنّ يسوع المضرّج بالدم قد مزّق شبكة القدَر، وبات المستحيل في قبضة الإيمان المسيحيّ، وفي قبضة البشريّة. إنّ ذاك المضرّج بالدم أَشرع للبشريّة أَجواء السماء.

يقول الشاعر لوركا: «تغمر الله جراح حبٍّ لا تندمل أبدًا»، جراحٌ لا تني تجدّدها الحروب والمظالم، والكوارث، ومشاعر اليأس.

إنّ الإيمان بقيامة يسوع، وبحياة البشر الأَبديّة يستحيل إن لم تهبّ هذه الحياة لمقاومة كلّ أشكال الموت.

واليوم، كما حدث لعشرين قرنًا انصرمت، لن يكون تلاميذ يسوع أَوفياء له، إن لم يهرعوا، والليلُ ما زال مُسدِلاً سُجُفه، نحو فجر المستحيل.

العالم يبحث عن نفسه. إنّها موجودة، ولكن يبدو أنّ العالم بات يجهل وجودها. فلا بدّ من إرشاده إليها.

واليوم، دور الإنجيل في صنع الحضارة، وفي تقويمها، أشدّ إلحاحًا من أيِّ يومٍ آخر.

يقول الأب «سيرتيلانج»: «إنّني أَضحك عندما يعلن هذا أو ذاك احتضار المؤسّسة الوحيدة التي تحمل، في ذاتها، الأبديّة، والتي أَقامت على ذلك، الدليل القاطع،

وما زال برنامجها المستقبليّ أَرحب كثيرًا، وأَكثر ملاءمةً من ماضيها الذي اجتاز ألفيّتين.

«الإنجيل ما زال في فجره، ونحن ما برحنا نجهله، ومن ثمّ هو لم يؤتِ، بعدُ، كلّ ثماره، ومهمّتنا، نحن، أن نكون طلائع المسيحيّين، لا في الدياميس، هذه النوبة، بل في وَضَح الحياة العامّة».

يسوع يجعلنا نحيا الحبّ والأَمل، ونخوض وجودًا ومصيرًا، أَظهر بموته الطوعيّ، أَنّه هو طريقهما، وحقيقتهما، وأنّه، هو، الحياة الحقّة.

لا ريب أنّه هو من يلد، في عالمنا الداخليّ، الحياة به. أمّا الحفاظ عليها فهو شأننا.

يسوع يدفع من يسمعونه إلى المضيّ أوّلاً، نحو ذواتهم، نحو داخلهم، نحو «قلبهم»، إلى ما يتخطّى السلوك الخارجيّ، والتقدير الاجتماعيّ، والفرائض والطقوس.... فالإنسان يحيا حياةً أَشدّ عمقًا في ذلك الظلّ حيث تكمن النوايا. إنّ الحجّ الأوّل والدائم سيتمّ إِلى صميم الذات، إلى حيث يُسمع اللّه يقرع، برقّةٍ، على باب نفسنا.

ويسوع يدعو كلّ إِنسان أَن يجهد، كلّ يومٍ، كي يكون إِنسانًا حقًّا، على صورة اللّه، ويتمثّل بكماله.

إنّه يهزّ الضمائر الكسلى، ولكي يغيّر الحياة، يوقظنا من كلّ ضروب الوسَن والنعاس، على طاقاتٍ مجهولةٍ، ولكأنّنا نمتلك بشريّةً جبّارةً غافيةً، ولكأنّنا نستطيع أن نفجّر الآن وهنا، في هذا اليوم، عالمًا إلهيًّا، ملكوت اللّه. وهو يوفّر القدرة على إِصلاح الجماعة، وإِعادة خلقها، بتعليمنا الصفح سبعين مرّةً سبع مرّات، والمحبّة بلا تحفّظٍ ولا حدودٍ، محبّةً لا تستثني الأَعداء أَنفسهم، ولا تخضع لحسابات الفطنة، محبّةً على غرار حبّ اللّه.

ولذلك ستظلّ كلّ المحاولات الاجتماعيّة عقيمةً، ما دامت تشوبها حسابات المصالح، ولن تستقيم حتّى تلتزم بشريعة روح يسوع، أَي بالإِيمان بأنّ الحياة لا تخصب وتؤتي ثمارها، إلا إِذا بُذِلت.

* *

قبل يسوع كانت حاجات النفس البشريّة العميقة تصعّد تنهُّدةً جسيمةً، وكانت البشريّة كلّها تتلمّس محرّرًا وهاديًا، وحياةً فضلى، فجاء يسوع، قدرة اللّه الكلّيّة، ملبّيًا انتظارها، وجاء إنجيله نور خلاصٍ للجميع.

ومع كرّ العصور، ما فتئت صورته تكبر وتتجلّى، وما انفكّ روحه يعمل ويخصب. وحتّى الذين لم يعترفوا بأُلوهته أقرّوا أنّه فخر الجنس البشريّ. وقد اعترف رينان: «يسوع شرفٌ يشترك به كلّ من يحمل قلبًا إنسانيًّا. وليس تمجيده في إقصائه خارج التاريخ، بل إنّ إثبات أنّ التاريخ برمّته لا يُفهَم بمعزلٍ عنه، هو التكريم الأَصدق له».

وقد كتب ديتريش بونهوفر، وهو سجينٌ: «إِن وُجدت الأَرض جديرةً باحتضان الإِنسان يسوع، وإن كان إنسانٌ مثل يسوع قد عاش، فالحياة جديرةٌ بأن نحياها نحن البشر. ولو لم يكن يسوع قد عاش، لما كان لحياتنا معنًى، رغم وجود جميع البشر الذين نعرفهم ونجلّهم، ونحبّهم».

لقد هبط يسوع أَرضنا نارًا تضيء وتحرق كلّ جافٍّ عقيمٍ. واستهلّ مستقبلاً سيظلّ، أبدًا، مشرعًا لن يردمه زمنٌ آتٍ.

إنّه فوق الفئات، والأَحزاب، والطبقات، والأَنظمة، وملكوته روحيٌّ سماويٌّ. إنّه لا يُحصَر في مكانٍ، ولا يُقبَض عليه. وهو يفتح، أبدًا، فراغ الإِنسان على ذاته وعلى الآخرين، وعلى اللّه. معه كلّ شيءٍ يغدو مُشرَعًا، حتّى القبور. إنّه كائنٌ لا ينضب، وما زلنا لم نبدأ نتعرّفه.

معاصرته هي السير معه، هي اتّباع من يسبقنا دائمًا، ويمشي أَمامنا. إننّا نجلّ الأَناجيل التي كتبت في تاريخٍ محدّدٍ، ونحن كَلِفون بمعرفة يسوع في أَيّام تجسّده. ولكنّنا إِن توقّفنا عند تلك المرحلة، لوقفنا مذهولين أَمام مهدٍ فارغٍ، ولجعلنا الإِنجيل كتابًا ميتًا، ودفنّا يسوع في مقبرة الماضي، في حين أنّ الإِنجيل حيٌّ بحياةٍ لا نهاية لها، وحرفه هو إطار الروح. إنّه نهرٌ أبديّ التدفّق يخصب شواطىء التاريخ.

حيال كلّ خيارٍ نتعرّض له، نتساءل ما عسى كان يسوع سيقول لنا، وعلى ضوء إِلهامه نحدّد نهج مسيرتنا. وسيظلّ الإِنجيل يلهم سلوكنا وأَقوالنا. وسيُدَوَّن باستمرارٍ، إِنجيلٌ خامسٌ غير مكتملٍ، بدم البشر، عبر القرون. وعلى غرار الأَناجيل الأَربعة الأُخرى، سيظلّ يتهجّأ، صفحةً ، صفحةً، ملامح جديدة من الوجه الفريد.

الإِنجيل نصٌّ عظيمٌ لا ينضب له معينٌ. إنّه يحيا ويستحثّ الحياة، كلّما اتّخذه بشرٌ خميرةً لحياتهم. ولن ينشر أبدًا، كلّ محتواه، مثل نهرٍ يتعذّر وقف تدفّقه.

ومثل ينابيعِ طفولتنا التي تبدو وكأنّها تاهت، ولكنّها تسري في سواقي حياتنا الخفيّة، ناشرةً فيها الاخضلال، وتتفجّر، أحيانًا، هنا وهناك، كذلك يفعل ماء يسوع في تربة التاريخ.

قسطٌ رحبٌ من البشريّة يحمل آثار يسوع: فقد حطّم أُطر العالم القديم، والهزّة التي أَحدثها ما زالت تصطخب بها الأمواج البشريّة حتى الآفاق التي نسيت نبعها، وحتّى تيّارات المجتمعات المعاصرة الأكثر تباينًا... منذ عشرين قرنًا، ورغم العديد من محاولات التوفيق والدفن، ما زال مرض يسوع مستفحلاً.

وقد كتب «رينان»: «أيّةً كانت أَحداث المستقبل غير المتوقّعة، سيظلّ يسوع في طليعةٍ لا يمكن تخطّيها. ولن تنفكّ عبادته تستعيد شبابًا دائمًا، وسيرته الأُسطوريّة تستدرّ دموعًا لا نهاية لها، وآلامه تستثير عطف أَنبل القلوب. وستعلن الأَجيال كلّها أنّه لم يولد بين بني البشر من هو أَعظم من يسوع».

يسوع نبض حياةٍ. وإِنجيله يبدو مستحيلاً. ولكن إن ارتضيت أن أَحرق، باطّرادٍ، حياتي بنار هذا المحال، فلربّما استطعت السير خلف من وصف نفسه بأنّه «الطريق».

ذكرى يسوع ديناميّةٌ تُعِدّنا للمستقبل، وتجعلنا نحيا «بدء الإنسان».

وقلب كلّ إِنسانٍ هو إِحدى كلمات الربّ التي لم تُكتَب بعد، ويحتاج يسوع وإِنجيله إِلينا لكي يكونا معاصرَيْن. فنحن مستقبل يسوع. ويسوع مستقبل العالم.

مَصَـــادر

- Louis Veuillot: **LA VIE DE NOTRE SEIGNEUR JÉSUS-CHRIST**
Éd. Victor Rétaux, Paris 1897

- L'abbé C.Fouard: **N.-S. JÉSUS-CHRIST**
Librairie Victor Lecoffre, Paris, 1898

- Le Père Didon: **JÉSUS-CHRIST**
Plon – Paris, 1913

- P.M. Lagrange: **L'ÉVANGILE DE JÉSUS-CHRIST**
J. Gabalda & Fils, Paris, 1913

- L.Cl. Fillion: **VIE DE N.- S. JÉSUS-CHRIST** (3 tomes)
Librairie Letouzey et Ane, Paris,1922

- Ferdinand Prat: **JÉSUS-CHRIST** (2 tomes)
Beauchesne & Fils, Paris,1933

- Georges Goyau: **LE CHRIST**
Flammarion,Paris, 1940

- Th. Quadbach: **LE CHRIST, CET INCONNU**
Alsatia, Paris, 1947

- François Mauriac: **VIE DE JÉSUS**
Flammarion, Paris, 1936

- Joseph Riciotti: **VIE DE JÉSUS-CHRIST**
Payot, Paris, 1954

- Fulton Sheen: **LA VIE DE JÉSUS**
Mamme, Paris, 1961

- R.P. Leonce de Grandmaison: **JÉSUS-CHRIST**
G. Beauchesne, 1928

- Arthur Nisin: **HISTOIRE DE JÉSUS**
Seuil, Paris, 1961

- Jacques Guillet: **JÉSUS-CHRIST, HIER ET AUJOURD'HUI**
DDB, Paris, 1963

- Romano Guardini: **LE SEIGNEUR**
Alsatia, Paris, 1945

- Jean-Claude Barreau: **L'ANNONCE DE JÉSUS-CHRIST**
Seuil, Paris, 1960

- Dimitri Merjkovsky: **JÉSUS INCONNU**
Cerf, Paris, 1974

- R.L. Bruckberger: **L'HISTOIRE DE JÉSUS-CHRIST**
Grasset, Paris, 1965

- Jean-François Six: **JÉSUS**
Éd. Aimery-Semogy, Paris, 1972

- Paul Gauthier: **JÉSUS DE NAZARETH, LE CHARPENTIER**
Éd. du Seuil, 1969

- Ernest Renan: **VIE DE JÉSUS**
Gallimard, Paris, 1974

- Jean Guitton: **L'ÉVANGILE DANS MA VIE**
DDB, Paris, 1977

- Jean Guitton: **LE CHRIST DE MA VIE**
Desclée, Paris, 1987

- Jean Galot: **CHRIST, QUI ES-TU?**
Éd. Sintal, Louvain, 1986

- Bernard Rey: **LES TENTATIONS ET LE CHOIX DE JÉSUS**
Cerf, Paris ,1986

- Alain Patin: **CELUI QU'ON APPELLE JÉSUS**
Les éditions ouvrières, Paris, 1990

- Saint Augustin: **JÉSUS-CHRIST MORT ET RESSUSCITÉ POUR NOUS**
Cerf, Paris, 1986

- William Barclay: **JÉSUS DE NAZARETH**
Éd. Jai lu, Paris, 1978

- Jean-Paul Roux: **JÉSUS**
Fayard, Paris, 1989

- Joseph Dore: **JÉSUS-CHRIST**
Cerf, Paris, 1992

- Cardinal Yves Congar: **JÉSUS-CHRIST**
Cerf, Paris, 1995

- Soeur Jeanne d'Arc: **CHEMINS À TRAVERS LA BIBLE**
DDB, Paris, 1993

- Charles Perrot: **JÉSUS ET L'HISTOIRE**
Desclée, Paris, 1993

- Gérard Bessière & Marc Sevin: **LES ÉVANGILES**
Cerf, Paris, 1995

- Amar Djaballah: **LES PARABOLES AUJOURD'HUI: VISAGES DE DIEU ET IMAGES DU ROYAUME**
Éd. La Clairière, Québec, 1994

- Jean Galot: **QUI DITES-VOUS QUE JE SUIS?**
Socomed, 1996

- Raymond E. Brown: **JÉSUS DANS LES QUATRE ÉVANGILES**
Cerf, Paris, 1996

- Cardinal Etchegary: **JÉSUS, VRAI HOMME, VRAI DIEU**
DDB, Paris, 1997

- FRANÇOIS XAVIER: **JÉSUS, FILS DE DIEU,DANS L'ESPRIT SAINT**
Desclée, Paris, 1997

- RENÉ LAURENTIN: **VIE AUTHENTIQUE DE JÉSUS-CHRIST**
Fayard, Paris, 1996

- STAN ROUGIER: **QUAND L'AMOUR SE FAIT HOMME**
DDB, Paris, 1997

- DIDIER DECOIN: **JÉSUS, LE DIEU QUI RIAIT**
Stock, Paris, 1999

- ALEXANDRE MEN: **JÉSUS, LE MAÎTRE DE NAZARETH**
Nouvelle Cité, Paris, 1999

- HEINZ ZAHRNT: **JÉSUS DE NAZARETH**
Seuil, Paris, 1996

- RENÉ LUNEAU: **JÉSUS, L'HOMME QUI ÉVANGÉLISA DIEU**
Seuil, Paris, 1999

- GERD THEISSEN: **L'OMBRE DU GALILÉEN**
Cerf, Paris, 2000

- PHILIPPE LE GUILLOU: **JÉSUS**
Pygmalion, Paris, 2002

- JACQUES SCHLOSSER: **JÉSUS DE NAZARETH**
Agnès Viénot, Paris, 2002

- XAVIER TILLIETTE: **JÉSUS ROMANTIQUE**
Desclée, Paris, 2002

- JEAN ONIMUS: **PORTRAIT D'UN INCONNU**
L'Harmaton, Paris, 2002

- JOSEPH MOINGT: **L'HOMME QUI VENAIT DE DIEU**
Cerf, Paris, 2002

- GÉRARD BESSIÈRE: **L'ENFANT HÉRÉTIQUE**
Albin Michel, Paris, 2004

- DENIS MC BRIDE: **LES PARABOLES DE JÉSUS**
Éd. de l'atelier, Paris, 2001

- JEAN DELUMEAU: **UN CHRISTIANISME POUR DEMAIN**
Hachette Littératures, Paris, 2003

- Cardinal JOSEPH RATZINGER: **CHEMINS VERS JÉSUS**
Parole et Silence, Paris, 2004

- ANTOINE BLOOM: **RENCONTRE AVEC LE DIEU VIVANT**
Cerf, Paris, 2004

- MICHEL QUESNEL: **JÉSUS, L'HOMME ET LE FILS DE DIEU**
Flammarion, Paris, 2004

– الياس نجمة: **يسوع المسيح** (هدايا المسرّة) **١٩٦٢** – المطبعة البولسيّة، حريصا، لبنان.

– بولس سلامة: **مع المسيح** منشورات الرسل ١٩٦٨.

– دانييل روبس، نقله إلى العربيّة الأب حبيب باشا البولسيّ: **يسوع في زمانه**، المنشورات العربيّة، ١٩٦٩.

الفهرس

إهداءٌ ٧
يا يسوع ٩

القسم الأوّل

يسوع في التاريخ – مصادر معرفته – الأناجيل ٢٧

يسوع في التاريخ، ومصادر معرفته ٢٩
أَسفارٌ منحولةٌ ٣٧
العهد الجديد ٤١
رسائل بولس ٤٣
ما معنى الإنجيل؟ ٤٥
نشوء الأناجيل ٤٦
ميزات الأناجيل ٤٩
أربع لوحاتٍ لوجهٍ واحدٍ ٥٤
الإنجيل بحسب متّى ٥٧
الإنجيل بحسب مرقس ٥٩
الإنجيل بحسب لوقا ٦٤

الإنجيل بحسب يوحنّا ٧٠
البيئة الطبيعيّة ٨٠
الجوّ السياسيّ ٨٣
الجوّ الدينيّ ٨٥
هيرودس وأسرته ٨٦
خلفاء هيرودُس ٩١
بنطيس بيلاطس ٩٥
اليهود في القرن الأوّل ٩٨
الكتبة والفرّيسيّون ١٠٤
الصدّوقيّون ١١٣
الهيكل والكهنوت ١١٧
السنهدرين ١٢٠
البيئة الاجتماعيّة ١٢٢

القسم الثاني

حياة يسوع الخفيّة ١٢٧

نَسَب يسوع ١٢٩
التجسّد ١٣٣
بشارة العذراء ١٣٦
بشارة زكريّا ١٤٤
زيارة مريم لإليصابات ١٤٨

ولادة يوحنّا ١٥٤
وأخذ يوسف مريم إلى بيته ١٥٦
في الطريق إلى بيت لحم ١٥٩
ولادة يسوع ١٦١
ختان يسوع وتقدمته إلى الهيكل ١٦٨
المجوس ١٧٤
هرب إلى مصر ١٧٧
مقتل أطفال بيت لحم ١٧٩
عودةٌ إلى الناصرة ١٨١
اختفاء يسوع في الهيكل ١٨٦
خضوع يسوع ١٩١
سرّ الصمت والعمق ١٩٣
حياة عملٍ وصلاةٍ، وتأمّلٍ ١٩٧
نموّ يسوع ٢٠٢
شخصيّةٌ تتكوّن، وتأهّبٌ للرسالة ٢٠٥
أُسرة يسوع ٢٠٩
يوسف ٢١٣
«إخوة يسوع» ٢١٧
يعقوب «أخو الربّ» ٢١٩
قسمات وجه يسوع ٢٢٠
الانطلاق ٢٢١

القسم الثالث

حياة يسوع العلنيّة ٢٢٥

السابق ٢٢٧

عماد يسوع ٢٣٦

صوم يسوع في الصحراء ٢٤١

يسوع يتصدّى للمجرّب ٢٤٦

طلائع الرسل ٢٥٨

عرس قانا ٢٦٥

يوم رسالة يسوع الأوّل ٢٧٢

سخطٌ في الناصرة ٢٧٧

طرد باعة الهيكل ٢٨١

نيقودمس والولادة الجديدة ٢٨٦

المعمدان يشهد ثانيةً ليسوع ٢٩٣

السامريّة ٢٩٥

معجزةٌ ثانيةٌ في قانا: شفاء ابن ضابطٍ ملكيٍّ ٣٠٥

كفرناحوم ٣١٠

صيدٌ عجيبٌ، واصطياد صيّادين ٣١٣

دعوة لاوي ٣١٦

الاثنا عشر، والآخرون ٣٢٠

معجزاتٌ ٣٣٠

شفاء أَبرص ٣٣٤

شفاء مُخلّعٍ دُلّي من السقف ٣٣٧
صداماتٌ بين ممثّل الروح وممثّلي الشريعة ٣٤٠
شفاء غلام قائد مئةٍ رومانيٍّ ٣٤٣
إقامة ابن أرملة «نعيم» ٣٤٥
رسالة المعمدان ٣٤٧
عظة الجبل – التطويبات ٣٥١
شريعة يسوع الجديدة ٣٦٢
مسحة عطرٍ ٣٨٠
التجديف على الروح القدس ٣٨٨
أقرباء يسوع ٣٩٢
أَمثال الملكوت ٣٩٥
مثل الزارع ٤٠١
القمح والزؤان، وشبكة الصيّاد ٤٠٥
حقل الملكوت ٤٠٧
قيمة الملكوت الجُلّى ٤١٠
تسكين العاصفة ٤١٢
«جوقة» شياطين، في قطيع خنازير ٤١٦
إقامة ابنة يئير، وشفاء امرأة نازفة ٤١٩
شفاء أعميين وأَبكم ٤٢٣
إيفاد الاثني عشر ٤٢٥
زيارةٌ ثانيةٌ إلى الناصرة ٤٣٢
مصرع يوحنّا المعمدان ٤٣٤

زيارةٌ خاطفةٌ إلى أورشليم، وشفاء مخلّع بيت حسدا ٤٣٨

القسم الرابع

السنة الرسوليّة الثالثة والأخيرة ٤٤٧

تكثير الخبز الأوّل ٤٤٩

يسوع يسير فوق الأمواج الصاخبة ٤٥٥

خبز الحياة ٤٥٩

مدنٌ ناكرة الجميل، ونيرٌ ليّن ٤٧٣

نفاقٌ ونجاسةٌ ٤٧٥

شفاء ابنة المرأة الكنعانيّة ٤٧٩

شفاء أصمّ أبكم ٤٨٢

تكثيرٌ ثانٍ للخبز والسمك ٤٨٤

خمير الفرّيسيّين، وشفاء أعمى في بيت صيدا ٤٨٦

من أَنا؟ ٤٩٠

التجلّي ٤٩٩

شفاء فتًى مصابٍ بالصرع ٥٠٦

يسوع يكمل تثقيف تلاميذه ٥٠٩

وداع مدن ضفاف البحيرة ٥١٧

في الطريق إلى أورشليم ٥١٩

دعوات ٥٢١

رسالة الاثنين والسبعين ٥٢٤

عيد المظالّ في أورشليم: نور الحياة ٥٢٧
«من كان منكم بلا خطيئةٍ، فليبدأ ويرمِها بحجرٍ» ٥٣٩
شفاء أكمه ٥٤٥
الراعي الصالح ٥٥١
من هو قريبي؟ السامريّ الرحيم ٥٥٣
مرتا ومريم ٥٥٨
«أبانا الذي في السماوات ...» ٥٦٠
كيف نصلّي؟ ٥٦٥
أَخرس يتكلّم، وأعداء يسوع يفتَرون ٥٦٧
يسوع هو الآية ٥٧٠
وليمةٌ أم معركةٌ؟ ٥٧٢
المال المميت ٥٧٨
طيورٌ وزنابق، وسهرٌ ٥٨٠
نارٌ تودّ الانتشار ٥٨٣
شفاء امرأةٍ قوساء ٥٨٦
محاولةٌ أخيرةٌ في أورشليم ٥٨٩
يسوع في الأردنّ ٥٩٤
طلاقٌ وعفّةٌ ... وطفولةٌ ٥٩٥
الشابّ الغنيّ ٥٩٨
عمّال الساعات الأخيرة ٦٠٣
شفاء رجلٍ به استسقاءٌ يوم سبتٍ، وحديثٌ حول المائدة ٦٠٥
مقتضيات الملكوت ٦٠٩

أمثال الرحمة ٦١٢
النعجة الضالّة ٦١٣
الدرهم المفقود ٦١٤
الابن الضالّ، أم الأب الرحوم؟ ٦١٥
الوكيل الخائن الفطن ٦٢٣
لعازر والغنيّ ٦٢٧
إيمانٌ... وتواضعٌ ٦٣٠
شفاء عشرة برصٍ ٦٣٢
«متى يأتي ملكوت الله؟» ٦٣٤
الأرملة والقاضي الظالم ٦٣٦
الفرّيسيّ والعشّار ٦٣٨
إقامة لعازر ٦٤١
في الطريق إلى أورشليم ٦٥٠
مطلب ابني زبدى ٦٥٢
أعمى، أو أعميا أريحا ٦٥٥
ارتداد زكّا ٦٥٧
مثل الوزنات، أو الأَمْناء ٦٦٠
طيبٌ يفوح في بيت عنيا ٦٦٢

القسم الخامس

الآلام والصلب والقيامة ٦٧٣

دخول يسوع المنتصر إلى أورشليم ٦٧٥
يسوع يسفر عن هويّته ٦٨٧

التينة الملعونة، وطرد الباعة ٦٩١
الثلاثاء: صداماتٌ حادّةٌ ٦٩٣
نبوءات النهاية ٧٠٨
يوم الأربعاء: خيانة يهوذا ٧١٦
فشل يسوع؟ ٧١٩
العشاء الأَخير ٧٢٤
أقوال يسوع الأخيرة ٧٣٩
الوصيّة الجديدة ٧٤١
تنبّؤ يسوع بتشتّت الرسل، وإنكار بطرس ٧٤٣
الكرمة والأغصان ٧٤٩
الصلاة الكهنوتيّة ٧٥٦
نزاع يسوع ٧٦٠
القبض على يسوع ٧٧٠
مهزلة محاكمة يسوع الدينيّة ٧٧٥
إِنكار بطرس ٧٨٣
نهاية يهوذا ٧٨٧
محاكمة مدنيّة أَمام بيلاطس ٧٩٠
على درب الجلجلة ٨٠٤
صلب يسوع ٨٠٩
أَقوال يسوع السبعة على الصليب ٨١٤
بعد موت يسوع ٨٢٧
دفن يسوع ٨٣٢
القبر الخالي ٨٣٧
قلوبٌ محطّمةٌ، وخبزٌ مكسور ٨٤٥

ظهور يسوع للتلاميذ ٨٥٠
توما ٨٥٤
ثمار القيامة ٨٥٧
ظهور في الجليل ٨٦٦
ظهورات أُخرى وصعودٌ ٨٧٣
لولا القيامة... .... ٨٨٠
العنصرة ٨٨٣

القسم السادس

رسالة يسوع ٨٩١
رسالة يسوع ٨٩٣
ملكوت اللّه ٨٩٨
تعليم يسوع ٩١٠
أسلوب تعليم يسوع ٩٢٦
أبٌ سماويٌّ وأَبناؤه ٩٣٢
القديم والجديد ٩٣٥
رسالةُ حبٍّ ٩٤٨
رسالةٌ معاصرةٌ ٩٤٢
مسيحيّةٌ ومسيحيّون ٩٥٠
يسوع والعلم ٩٧٢

الفصل السابع

وجه يسوع ٩٧٧
وجه يسوع ٩٧٩

يسوع ابن الله ٩٨١
يسوع الإنسان ٩٨٨
قسمات وجه يسوع ١٠٠٠
رجل المفارقات ١٠٠٢
حبّ يسوع ١٠٠٦
وقار يسوع، وسجوّ نفسه ١٠١٦
قداسة يسوع وكماله ١٠٢٠
فرح يسوع ونفوذه ١٠٢٧
فقر يسوع ١٠٣٠
تواضع يسوع ١٠٣٥
يسوع حرٌّ ومحرّر ١٠٣٦
يسوع الثائر ١٠٤٠
حضور يسوع ١٠٥١
يسوع حياتنا، ومستقبل البشريّة ١٠٥٨
مصادر ١٠٦٩
الفهرس ١٠٧٥
ظهر للمؤلّف ١٠٨٦

ظهر للمؤلّف

- **قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب** (سلسلة دراسات كرمليّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٠**
- **السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٢**
- **فرنسيس... أَصلحْ كنيستي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٤**
- **صوتُ مَن لا صوت لهم: الأب پيير** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٧**
- **حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٨**
- **أنا، الأخت إيمّانويل، أشهد...** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٩**
- **بولس، رسول يسوع، وقلبه، ولسانه** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٣**
- **جان ڤانييه وسفينته** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٣**
- **أبانا** (سلسلة صفحات روحيّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٥**
- **يسوع في إنجيله**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٦**

كتب مترجمة

- **على درب الحياة مع ألكسي كاريل**، دمشق، ١٩٨٤، (طبعة ثانية ٢٠٠٠)
- **يد الله** (سلسلة الشهود)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٨٨
- **ثلاث عشرة قصّة** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٠
- **أيدٍ ملطّخة بالدم** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٥
- **اذكروا الله: تأمُّلات من وحي رسائل الصوفانيَّة**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٥
- **سيرة المسيح** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٣
- **حدِّثني عن الحبّ** (سلسلة الشباب مستقبل الغد)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، (طبعة ثالثة ٢٠٠٥)

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر تشرين الأوّل ٢٠٠٦